قابس عبر التاريخ

المؤلف
الأستاذ بلقاسم بن محمد بن جراد

- 14308 -
961.1
ابن

تأليف الأستاذ

بلقاسم بن محمد بن جراد

* صـورة الغلاف اليمنى لوحة حجرية مكتوبة بالخط العربي ترجع إلى العهد الاسـلامي بهـا مـنظر خـارجي مـن المدرسة المرادية بقابس. تصميم وتركيب الأستاذ الهادي ملاك والمصوّر محمد الهادي الزموري.

* صورة غلاف الجهة الثانية تاج من العهود الاسلامية يوجد بالمتحف بقابس

قابس عبر التاريخ

استعراض لتاريخ قابس عبر العصور التاريخية وما قبلها

للأستاذ بلقاسم بن محمد بن جراد

تحصل هذا الكتاب على جائزة

الابداع الثقافي في البحث التاريخي

على نطاق قومي

من بلدية قابس لسنة 1999

رئيس بلدية قابس

الأستاذ : الهادي بن الساسي لخرش

صورة من الاحتفال بجائزة الإبداع الثقافي

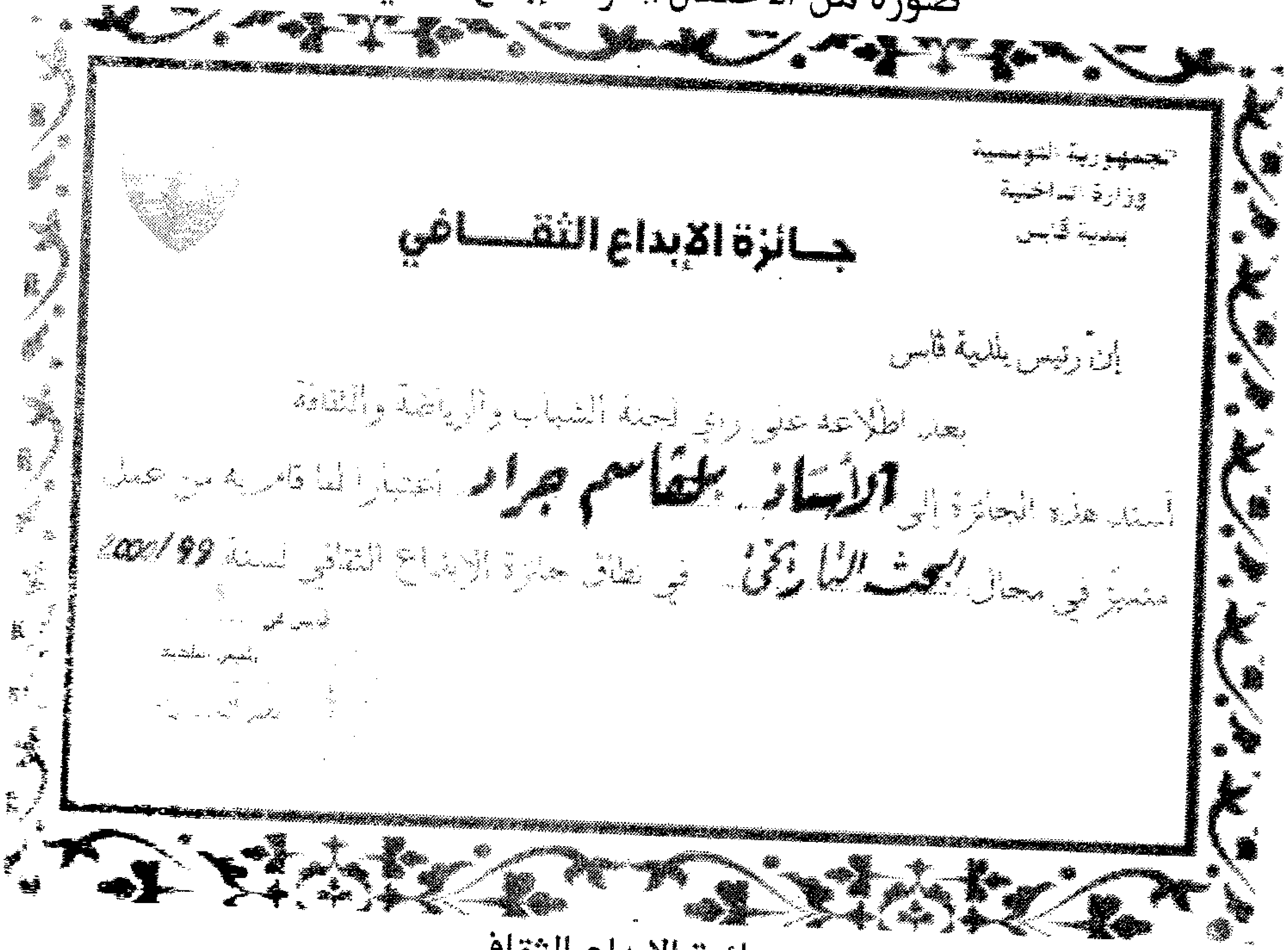

الجمهورية التونسية
وزارة الداخلية
بلدية قابس

جائزة الإبداع الثقافي

إنّ رئيس بلدية قابس

بعد اطّلاعه على رأي لجنة الشباب والرياضة والثقافة

أسند هذه الجائزة إلى الأستاذ بلقاسم جراد اعتبارا لما قام به من عمل

متميّز في مجال البحث التاريخي في نطاق جائزة الإبداع الثقافي لسنة 99/2001

جائزة الإبداع الثقافي

صورة من الاحتفال بجائزة الإبداع الثقافي

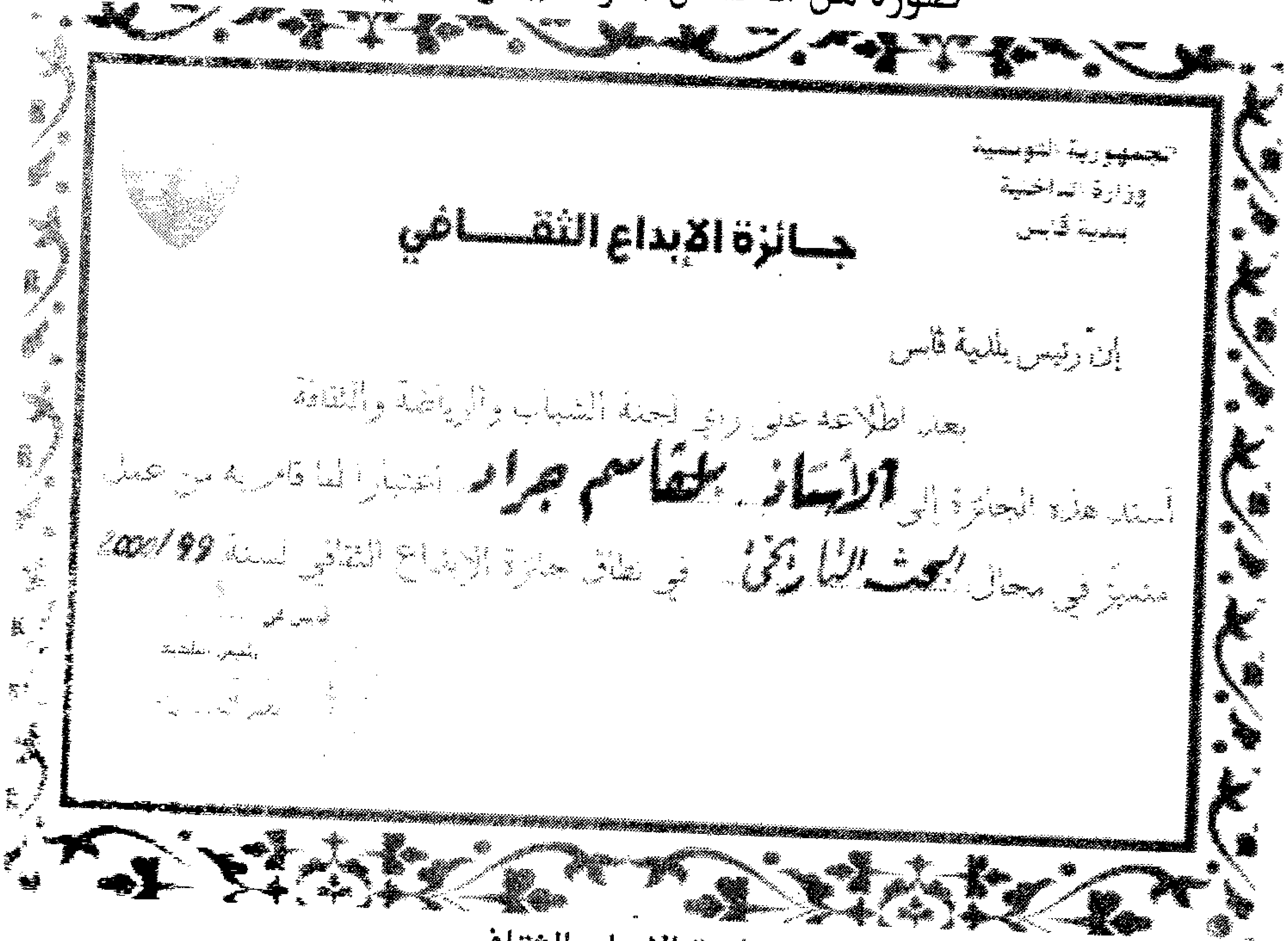

الجمهورية التونسية
وزارة الداخلية
بلدية قابس

جائزة الإبداع الثقافي

إن رئيس بلدية قابس

بعد اطلاعه على رأي لجنة الشباب والرياضة والثقافة

أسند هذه الجائزة إلى الأستاذ بلقاسم جراد اعتبارا لما قام به من عمل متميز في مجال البحث التاريخي في نطاق جائزة الإبداع الثقافي لسنة 99/2001

جائزة الإبداع الثقافي

4930878

-14308-

بطاقة شخصية

بلقاسم بن محمد بن مَحمد بن جراد مولود في 1929/07/20 بقابس

* درس بالمدرسة القرآنية الهداية بقابس
* متحصل على شهادة الأهلية
* متحصل على شهادة التحصيل في العلوم
* درس إلى السنة الثانية عالي بالجامعة الزيتونية إلى شهر نوفمبر1955 شعبة الشريعة وأصول الدين
* التحق ببغداد بدار المعلمين العالية سنة 1955
* متحصل على الإجازة في التاريخ والجغرافية في جوان 1959 من دار المعلمين العالية ببغداد (كلية التربية) فيما بعد.
* باشر التدريس في أكتوبر 1959 إلى جوان 1963
* وقع ترسيمه في خطة أستاذ بعد سنتين أي في أكتوبر 1961
* باشر إدارة المدرسة الإعدادية للبنين في أكتوبر 1963
* باشر إدارة المدرسة الإعدادية للفتيات شارع الجمهورية في سنتها الأولى مع إعدادية البنين سنة 1965
* وقع ترسيمه في خطّة مدير مدرسة ثانوية منذ أكتوبر 1965 بقرار مؤرخ في 1969/02/22 تحت عدد 2374
* رئيسا لبلديّة قابس (الدورة الرابعة) - 1966- 1967- 1968 - مع إدارة المدرسة الإعدادية.
* كلف بالإرشاد البيداغوجي مع إدارة المدرسة مع رئاسة البلدية لمدّة سنتين 1966-1967و1967-1968
* كلف بإدارة مدرسة ترشيح المعلمين في سنتها الأولى مع إدارة المدرسة الإعدادية التي تحوّلت إلى مدرسة ثانوية للمرحلة الأولى 1969
* وقع إثباته في خطّة رئيس معهد ثانوي *(Proviseur)* بقرار مؤرخ في 1971/10/17 تحت عدد 2685 ابتداء من 1971/10/01.
* تحولت المدرسة إلى معهد ثانوي حي المنارة في سنة 1972 اثر تفقّد إداري ثمّ إلى معهد فني ابن خلدون في سنة 1976 .
* وقع تكليفه بإدارة المعهد الفني (أبو القاسم الشّابي) في سنته الأولى مع المعهد الفني ابن خلدون سنة 1977.
* وقع تكليفه بإدارة المدرسة الثانوية (شارع بورقيبة) في سنتها الأولى مع إدارة المعهد الفني ابن خلدون سنة 1980.
* وقع تكليفه بالإرشاد الإداري لمدة سنتين 1981 و 1982 مع إدارة المعهد .
* وقعت تسميته أستاذا أولا إبتداءا من جانفي 1982 .
* مقررا للجنة الجهوية للمنح بولاية قابس من سنة 1981/ إلى سنة 1983 .
* رئيسا مساعدا باللجنة الثقافية بولاية قابس منذ تكوينها في سنة 1961 إلى 1981
* رئيسا للجنة الثقافية بولاية قابس من سنة 1981 الى سنة 1983

* أستاذا ومديرا لمدرسة الإطارات الحزبية منذ تكوينها من سنة 1962 إلى سنة 1978
* عضوا مكلّفا بالتوجيه في شعبة جارة الدستورية سنة 1961
* رئيسا لشعبة التعليم (ابتدائي وثانوي) منذ تأسيسها في سنة 1962 إلى سنة 1970
* رئيسا لشعبة (حي المنارة) منذ تأسيسها سنة 1971-1976
* رئيسا لشعبة (المعهد الفنـي ابن خلدون) منذ تأسيسها سنة 1977 إلى 1983
* رئيسا لفرع الاتحاد التونسي لمساعدة المتخلفين ذهنيا بقابس سنة 1976 إلى 1989
* ممثلا لودادية المديرين بالإدارة الجهوية للتعليم الثانوي بصفاقس ثم بمدنين منذ تكوينها
* أمين مال الدائرة الحزبية بقابس لمدّة 4 سنوات
* أمين مال تعاضدية الزهور
* أمين مال تعاضدية الياسمين
* كشافا بفوج أبي لبابة للكشّافة التونسية بقابس منذ 1947
* قائدا لفوج أبي لبابة للكشّافة التونسية بقابس منذ 1961 - 1965
* مديرا جهويا للتعليم الثانوي بولايتي قابس وقبلي من 1984 إلى 1987
* مديرا جهويا للتعليم الثانوي بولايتي بنعروس وزغوان من 1987 إلى 1988
* مديرا جهويا للتعليم (ابتدائي وثانوي) بولاية بنعروس السنة الدراسة 1988 إلى 1989
* أحيل على التقاعد في 1989/07/20 .
* متحصّل على وسام الجمهورية الصنف الرابع
* متحصل على الوسام القومي للاستحقاق التربوي الصنف الثاني
* متحصل على وسام الشغل الصنف الذهبي
* متحصل على شهادتي استحقاق من المنظمة القومية للطفولة التونسية للمصائف والجولات
* متحصل على شهادة تقدير من النادي العلمي بقابس سنة 1987
* متحصل على شهادة تقدير من فوج أبي لبابة للكشافة التونسية سنة 1987
* عضو مؤسّس لجمعية قدماء الكشّافين فوج أبي لبابة بقابس.
* أعدّ دراسات حول الصحابي أبي لبابة وحول تاريخ قابس وحول التعليم التقنـي والمهنـي ودليل المدير الجديد بالمعاهد والمدارس الثانوية إلى جانب عدّة محاضرات ثقافية واقتصادية واجتماعية.
* بعث معهدا خاصا باسم معهد ابن فرحان سنة 1990 إلى سنة 1998 .
* كما بعث روضة تحضيرية في نفس السنة التـي أحدث فيها معهد ابن فرحان
* كـلّف بخطـة إمام خطيب بالمسجد الجامع سيدي إدريس بقابس منذ 2000/03/24 الموافق لـ18 ذي الحجّة 1420
* قـدّم كـتابا في تـاريخ قـابس (قـابس عـبر التاريخ) إلى بلدية قابس في نطاق مسابقة وطنية وقد أعلنت النتيجة وتحصل على جائزة الإبداع الثقافي في البحث التاريخي في 29 سبتمبر 2000 .

كلمة شكر

إنها لفرصة ثمينة أن تبادر بلدية قابس بتخصيص هذه السنة سنة 1999 «جائزة رمزية تاريخية» لمن يشارك في كتابة وتسجيل «تاريخ قابس عبر العصور»، لأنه جرت العادة أن تكون المسابقات حول كتابات أدبية (قصص، شعر، ومواضيع شتى) وتخصيصها هذه السنة للكتابة حول التاريخ وتاريخ قابس بالخصوص يعد فضيلة لهذه البلدية ولفرعها الثقافي. هذا وأن الكتابة عن تاريخ قابس تعتبر مجازفة من الدارسين، وتتطلب مجهودا كبيرا، وإن المصادر وأمهات الكتب لم تتطرق إليها إلاّ عن طريق نتف بسيطة ومعلومات عادية، كما أن الباحثين الحديثين لم يجرؤا على الولوج والتّتقرق إلى هذا الموضوع نظرا للصعوبات التي تعترض الباحث والمؤرخ خصوصا وأن ما أتلف من معالم وآثار تحدث عنها بعض المارين بقابس لم يبق لها أثرا كما أن الهجومات التي وقعت عليها والزحفات المغرضة التي أبتليت بها لم تترك مجالا للباحث لأن يدخل هذا البحر العميق.

وإني بهذه المناسبة أشكر كل من ساعدني على إعداد هذا الموضوع ممن إستجوبتهم أو سمعت عنهم أو نقلت الأخبار عن طريقهم، وكذلك المسؤولون عن المكتبة العمومية بقابس بفرعيها والمسؤولون عن مكتبة الحامة العمومية وكذلك المسؤول عن المكتبة الشعبية بمنطقة «سوق الجمعة» بطرابلس الغرب وكذلك الأستاذ الهادي عوية الليبي الذي ساعدني على الإتصال بالمكتبة في طرابلس، وكذلك أخي وصديقي الفاضل الحاج رمضان الزايدي من سوق الخميس بليبيا، وكذلك الأستاذ الهادي ملاك الذي ساعدني على تصميم صورتي الغلاف، والمصورون الأفاضل محمد الهادي الزموري، وعبد اللطيف حيدر، ومحمد صويلح، والمنجي الشين. وكذلك الأستاذ عبد المجيد التلمودي الذي راجع معي هذا الكتاب بعد حصولي على الجائزة... كذلك الآنسة عفاف مرابط صاحبة مكتبة إعلامية والطالب عبد السلام الإشيهب الذي كان يساعدها على الطبع وكذلك زوجتي وأبنائي وبناتي وأحفادي وأصهاري وأصدقائي الذين ساهموا معي بالكلمة الطيبة وشجعوني على المشاركة في هذا الموضوع الذي أعتقد أإنه سيساهم مع ما يقدمه غيري من المشاركين في المسابقة بقسط كبير في تسجيل تاريخ قابس، وسيكون دافعا لبعضهم على تناول الموضوع من جديد وبسطه ومحاولة الخروج بكتابات ودراسات مفيدة خصوصا إذا نسجت البلديات الأخرى على الخوض في مثل هذه المواضيع التي تخص مناطقهم لتسجيل تاريخ البلاد. كما أشكر الوالي السابق علي الطرابلسي الذي شجعني على طبع الكتاب، وكذلك السيد الصادق مرزوق الوالي الحالي.

وأخيرا أشكر المسؤولين على المطبعة «مطبعة الخدمات السريعة بقابس» السيدين إدريس الزرلي وسلام راجح على مساعدتهما لي بطبع هذا الكتاب كذلك الأخ عبد السلام الجماعي الذي شجعني على طبع الكتاب ولو خارج تونس وقد استعد لطبعه بلبنان، كذلك الآنسة وسيلة داي الناصفي لمشاركتها في كتابة هذا الكتاب في صورته الحالية.

أرجو من الله العون والتوفيق

الباحث والكاتب بلقاسم بن محمد بن جراد

المقدمــــة

ارتبط اسم قابس بمجموعة من القرى والمدن ملتفة حول بعضها، تحيط بها واحة غناء- وبحر جميل وجبال متوسطة الارتفاع، وصحراء ليست بالبعيدة عنها.
هذه القرى، وهذه المدن، تختلف من حيث المساحة والأهمية باختلاف دورها التاريخي الذي قامت به عبر العصور، ولو أن منطقة " المدينة" القديمة ومنطقة " المنزل" ومنطقة "جارة " ومنطقة "شنني" ومناطق "تبلبو ومطرش وشط سيدي عبد السلام والنحال وبوشمة" هي الساحة الفسيحة والمتقاربة والمتّصلة ببعضها اتصالا مباشرا هي التي اشتهرت بهذا الاسم، لكن مناطق الحامة ومطماطة ومارث والمطوية ووذرف وغنوش البعيدة نسبيا عن هذا التجمع المتقارب، هي الأخرى تجمّعات ارتبط تاريخها بتاريخ قابس، وهي جزء منها، وكذلك التجمعات الصغرى الأخرى، ككتّانة والزارات والزركين وعرام من الناحية الجنوبية، والمدو وما حولها من الناحية الغربية.

لذا فإنّ الحديث عن تاريخ "قابس عبر التاريخ" سيشمل كل هذه المناطق، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة . كما أن الحديث في هذا المقام سيكون مرتبطا بتاريخ المدن المجاورة لقابس، والخارجة عنها، الآن مثل جزيرة جربة التي ارتبط تاريخها في فترة ما بتاريخ قابس وحكام قابس في عهد دولة (بني مكي) التي استقلت بقابس عن الدولة المركزية، وكذلك صفاقس التي سيطر عليها أحمد بن مكي سنة 757 هـ/1356 م ولو بصورة وقتية وكذلك لجأ أميرها البرغواطي إلى أمير قابس المستقل، وكذلك قفصة، وبلاد الجريد اللتان كانتا مسرحا للصراع الذي وقع أثناء هجوم أبي إسحاق الميوراقي عليها وعلى قابس، وكذلك المهدية التي حدث صراع بين حكامها وحكام قابس في عهد (رافع بن مكي بن جامع) أمير دولة بني جامع وبين (علي بن يحيى بن تميم) أمير المهدية، وكذلك القيروان وتونس.

كذلك ارتبطت قابس بمنطقة طرابلس الغرب في حقب مختلفة من التاريخ، وأصابها ما أصاب قابس من محن واضطرابات وقلاقل، وفدتها قابس عند استيلاء الجنويين عليها، كما حكمها (أحمد ابن مكي) وابنه (عبد الرحمان). كما كانت هناك علاقات مع دولة بني مرين بالمغرب الأقصى، في عهد إمارة بني مكي. كما أن منطقة الجنوب الشرقي والغربي من قابس كانت مساحة رحبة لتسجيل هذا التاريخ، خصوصا منطقتنا نفزاوة (قبلي) والمرازيق (دوز) اللتان كانتا جزء من هذا التراب إلى فترة ما بعد استقلال تونس.

لذا فان الحديث سيكون شاملا وواسعا، مرتبطا بالتسلسل التاريخي الزّمني من فترة ما قبل التاريخ إلى الآن، مؤمنين ومقدرين بان هناك صعوبات جمة سوف تعترضنا أثناء هذه الدراسة، معتمدين على الله وعلى ما كتب عن قابس، ولو نتفا قليلة، وما بقي من آثار اكتشف القليل منها لحد الآن، من ما قبل التاريخ إلى الدّور البربري، والفنيقي والروماني والوندالي والبزنطي والإسلامي العربي وما تواتر من الرواية الشفوية عن تاريخ قابس من كبار المسنين.

وقبل أن نشرع في الصعوبات التي سوف تعترضنا لا بد أن نوجه عدة أسئلة حول هذا الموضوع؟

كيف يجب أن نكتب تاريخنا بصفة عامة؟

من كتب هذا التاريخ؟

هل كتب عن طريق أيدي أمينة نقلت الأخبار بكل تجرد؟

هل كتب من طرف كتاب مختصين في الميدان أم جاء عرضا وبدون قصد؟

هل كانت لهم أغراض خاصة في تسجيل هذا التاريخ خصوصا التاريخ العربي والإسلامي؟

هذه الأسئلة وغيرها تحتاج إلى إجابات واضحة ونزيهة، ولنتركها للمختصين والمهتمين بالتاريخ والباحثين المختصين بالآثار، حتى تقع الإجابة عنها، ولعل مثل هذه الدراسات تشجّع البعض على البحث والتنقيب.

أما الصعوبات التي تعترض هذه الدراسة لتاريخ منطقة قابس هي كما يلي.

1- ندرة المصادر التاريخية وقلتها، إذ هناك فترات من التاريخ ندرت فيها المعلومات والأخبار، بل انقطعت لفترات طويلة، بسبب الهجومات الزاحفة على البلاد، وإتلاف الوثائق، وحتى المعالم التي لم يبق لها اثر شاهد على تاريخها، رغم ذكرها والتنويه بها من طرف المؤرخين والجغرافيين والرحالة والشعراء مثل (قصر العروسين والحمامات والمساجد والأسواق والسور والخندق وغيرها).

2- الرحالة والجغرافيون القدماء الذين اتصلوا بقابس ومروا بها، سواء كانوا رحالة سياسيين، أو إداريين، مكلفين بمهمة، قادمين من الشرق لضبط المراحل والمسالك والمسافات التي تفصل أطراف الدولة الإسلامية من دمشق وبغداد إلى بلاد المغرب، وهؤلاء جاءوا من الشرق، أو رحالة مروا بقابس وبغيرها من المدن وقاموا برحلاتهم من أجل أداء فريضة الحج، وهؤلاء قدموا من المغرب. أو لرحلة يقومون بها لأغراض خاصة، فتراهم يصفون المناطق التي يمرون بها كل حسب رغبته، فهناك من اهتم بأحوال البلاد وطباع الناس وسلوكهم، وهناك من اهتم بالناحية الاقتصادية والانتاج الفلاحي والصناعي، وهناك من اهتم بتقصي الأحداث التاريخية عند استعراض ملاحظاتهم والحديث عن أحوالهم، وهؤلاء الرحالة كثيرون أغلبهم تحدث عن قابس، ومنهم ابن حوقل والمقدسي وابن خرداذبة والبكري وابن بطوطة وابن الفقيه والتيجاني وقدامة بن جعفر والاصطخري وغيرهم...

3- إن الملاحظات والاستنتاجات والتسجيلات التي وردت عن طريق هؤلاء الرحالة لم تكن دراسات علمية مضبوطة لغرض تسجيل تاريخ المنطقة التي يمرون بها، أو وصف جغرافيتها، إنما كانت رغم (فائدتها وقيمتها) منقوصة، وغير مضبوطة، خصوصا وأن بعض المؤرخين يشكون حتى في زيارة بعض الرحالة لتلك المناطق التي تحدثوا عنها، مثل البكري الذي قالوا عنه أنه لم يزر قابس بل نقل عن غيره.

4- كتب بعض المهتمين بالتاريخ وبأوضاع البلاد، أخبارهم ومراسلاتهم، وملاحظاتهم، وهم

أجانب عن المنطقة، خصوصا من كتب عن تونس بصفة عامة، وعن قابس بصفة خاصة، من ضباط عسكريين، وجواسيس، ورهبان، وسفراء مكلفين بمهمة سياسية، لدراسة الثغرات، وحالة البلاد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بغية السيطرة عليها وتزويد دولهم بما يجدونه من ملاحظات ومن نقاط ضعف. وهذا ما حدث لتونس قبل احتلالها من قبل الفرنسيين وكذلك لقابس.

5- المراسلات والأخبار التي سجلها بعض السفراء والتقارير التي كانت ترسل من طرف المسؤولين السياسيين والإداريين في تونس من الأجانب إلى دولهم، كانت مغرضة وخاطئة أحيانا لأنها كانت ترسل حسب هواء المُرْسِلين، ولغرض تنفيذ أطماع دولهم المتطلعة إلى السيطرة على هذه البلدان التي ضعفت واعتراها الوهن، وقضت عليها الحزازات والخلافات السياسية والجهوية البغيضة، مثلما حدث في صراع (الحسينية والباشية) حول الحكم، وما كان من نتائجه السلبية على استقرار البلاد وتطورها وتقدمها.

6- من كتبوا عن تاريخ تونس والتاريخ العربي والإسلامي بصفة عامة، لم تتوفر لهم الأسباب لتسجيل هذا التاريخ بكل وضوح، إذ فقدت أغلب الوثائق الرسمية، (هجومات متتالية) وطمست الآثار التي تتحدث عن أخبار منشئيها وصانعيها، وكذلك من كتبوا عن تاريخ البلاد خلال عهودها المختلفة، لم تتوفر لهم حتى الآثار التي خلفها القدماء، فلقد طمست هي الأخرى رغم عظمتها وبقائها في بعض الدول، مثل ما خلفه الفنيقيون والرومان في البلدان المختلفة.

وبالنسبة لتاريخ قابس نكبر في هذا المقام ما قام به الأستاذ محمد المرزوقي الذي كتب عن جهة قابس وعن حركات النضال التي قام بها مناضلو الإيالة التونسية سواء في تونس ككل، أو في جهة قابس أو في الجنوب التونسي، من حركة مقاومة الاستعمار الفرنسي 1881 إلى حركة النضال التونسي من الثورة الكبرى إلى الاستقلال، سواء كان ذلك عن طريق الوثائق، أو الاستجوابات، أو الشعر الشعبي الملحون، فشملت حركة المقاومة، كذلك بعض الدراسات التاريخية والجغرافية وغيرها، التي قام بها أبناء الجهة كالذين قاموا بتقديم أطروحاتهم الدراسية لنيل شهادة الدكتوراه مثل أطروحة الدكتور عبيد البشراوي والدكتور عدنان حيدر والدكتور لجد بوزيد والدكتورة عروسية التركي والدكتور عبد اللطيف الحناشي... وغيرهم وكذلك من كتبوا مواضيع ومحاضرات ومذكرات شخصية مثل ما فعل أبو بكر عزيز في كتابه باللغة الفرنسية ابني(Mon Fils) وكذلك كتاب الدكتور عبد الله الزرلي حول محاولة في تاريخ الحركة المسرحية بقابس (نشأتها وتطوّرها)، ومحاضرات وكتابات العروسي المطوي، وكذلك الأستاذ الشيخ الفاضل بن عاشور الذي ألقى محاضرة قيمة حول تاريخ قابس في الخمسينيات، وكذلك المحاضرة التي ألقاها الشيخ الأستاذ الشاذلي النيفر في مقام الصحابي أبي لبابة، وكذلك محاضرة الأستاذ عثمان الكعاك في قاعة باريس بقابس أثناء الحماية الفرنسية، وكذلك ما قامت به جمعية البحوث والدراسات التاريخية والجغرافية بقابس بداية من سنة 1985 من تسجيل

لتاريخ الجهة عن طريق الدراسات والنصوص، والاستجوابات لبعض المناضلين الذين شاركوا في الحركة الوطنية وتسجيلها في مجلة سميت بمجلة(البحوث والدراسات التاريخية والجغرافية بقابس).
هذه كلها دراسات هامة ومفيدة، لكن تتطلب المواصلة والدراسة العميقة والاستنتاجات والتحليلات العلمية التي تراعي الظروف والملابسات التي كانت تعيشها البلاد من سياسية واقتصادية واجتماعية.

7- هناك مشكل آخر يعترض هذه الدراسة لتاريخ قابس فإنه لا يمكننا أن نتحدث عن قابس كبحث مستقل، بل لابد أن نستعرض ونتتبع الأحداث التي مرّت بتاريخ منطقة المغرب العربي وتاريخ الدولة الإسلامية، سواء في عهد الخلفاء الراشدين، أو الدولة الأموية والعباسية ومنطقة الأندلس إلى الدول التي استقلت بتونس، وبقابس إلى الإمبراطورية التركية إلى الحسينية والفترات التي مرّت بها تونس من الاحتلال الفرنسي إلى الثورة إلى الاستقلال إلى وقتنا الحاضر حتى نستشف الأخبار، ونستنتج من الأحداث التي تقع في أطراف الدولة، ونواحي البلاد العبر وكذلك الطموحات والمطامع للدول التي زحفت على البلاد فأثرت فيها وهدمت معالمها، وطمست رسومها.

8- نظرا لطمس آثار مدينة قابس القديمة، كالسور والخندق والقصور والجوامع والكنائس والأسواق والحمامات وغيرها... ولفقدانها فانه لا بدّ من التعاون مع المصادر الشفوية والرواية المتواترة والمتعددة، ومقارنتها مع البحوث والمصادر القليلة، لعلنا نصل إلى خبر هام ومفيد وكذلك يمكن أن نستعمل كل الوسائل الممكنة للوصول إلى الهدف.

9- لا يمكن أن نتناول تاريخ قابس بكل تفاصيله، لأن بعض المعلومات غير مسجلة وواردة عن طريق التواتر والتسجيلات الخاصة، وهي لا تخلو من أخطاء ومغالطة أحيانا، كما لا يمكن ذكر كل من ناضل وكافح من رجالات قابس، لأن ذلك يتوقف على الإلمام بكل الأحداث والاتصال بكل الأشخاص الذين حضروا المواقع، وهذا العمل أعتبره مقدمة وبداية لأعمال أخرى تكمله، لذا فإني أعتذر إذا لم أذكر كل الأشخاص الذين ناضلوا وسجنوا ونفوا من أجل القضية، أو لم أذكر بعض الأحداث لأنها غير موثّقة .

10- المشكل الأخير الذي يعترضنا، وهو الذي يحجم بعض الباحثين عن الكتابة في تاريخ قابس، هو مشكل الصراعات التي كانت قد تغلغلت في نفوس بعض الناس ونسيت رابطة الأخوة والدين، كذلك الهجومات التي كانت تحدث من حين لأخر بين القبائل، والعشائر والاجوار لأسباب واهية أحيانا، أو ربما للمجاعات ولسوء الحالة الاقتصادية أحيانا أخرى، وتناولنا لهذه المشاكل بغرض توضيحها، ومعرفة أسبابها وطرق علاجها، حتى ننهض بالبلاد ونزيل غشاوة الجهل والعمى التي طغت علينا طيلة قرون وقرون، داعين كل الباحثين والدارسين لخوض غمار هذه الدراسات المفقودة من تاريخنا والله الموفق.

والســــــــــــلام

بلقاسم بن محمد بن جراد

باحث وأستاذ أوّل في التاريخ ومدير جهوي للتعليم متقاعد

الباب الأول
الفصل الأول
(التاريخ القديم)

الأهمية التاريخية لمدينة قابس :

ترجع أهمية قابس التاريخية إلى موقعها الجغرافي الاستراتيجي، إذ تقع على البحر، وتطل على خليج سيرتا الصغير، وتحيط بها الواحة في أغلب جهاتها، وهي تقع على الطريق التجارية الرابطة بين المشرق والمغرب والمحطات التجارية الإفريقية، وهي الباب الذي دخل منه الفاتحون العرب لإفريقيا، وهي تمثل عبر العصور مركزا زراعيا وتجاريا وصناعيا هاما على جزء من الشمال الإفريقي، وهي ذات مساحة كبيرة، وقد سمى المؤرخ اليوناني (هيرودوتس) الملقب بأبي التاريخ خليجها ببحيرة تريتونس (Lac tritanus) وأشار إلى القبائل البربرية التي تعيش هناك. كما وصفها استرابون في القرن الثالث مسيحي بالامبريوم(emperium) أي(المرفأ السوق) لدورها التجاري الساحلي البحري. وعلى ما أعتقد أنها الواحة الوحيدة في إفريقيا وفي العالم متاخمة للبحر، وقريبة من الصحراء والجبال.

لقد لعبت قابس دورا هاما عبر تاريخها، فقد مرّت بجميع الأطوار التي مرّت بها إفريكا (تونس) من العهد البربري إلى الوقت الحاضر، فكانت ملجأ للبربر القادمين من اليمن في حدود (3000 ق.م) وملاذا للفنيقيين القادمين من مدينة صور من بلاد الشام، ومستعمرة رومانية، ومركز (اسقافية) في العهد المسيحي الروماني، واحتفظ مواطنوها بلقب المواطنة الرومانية، وكانت العاصمة الثانية بعد القيروان في العهد الأغلبي، واستعصت على الفاتحين والمغامرين الذين أرادوا اقتحامها، واستقلت بالسلطة في فترة من فترات تاريخها الإسلامي (دولة بني جامع ودولة بني مكي). وكانت تزود المدن الافريقية بإنتاجها وسلعها، ومحطة للقوافل التجارية الإفريقية عن طريق عين صالح (1) وتنبوكتو.

كما كانت مركزا حربيا يضم مناطق الجنوب في عهد الحماية الفرنسية إذ كان يعيش بقابس 40.000 جندي فرنسي، كما كانت معلما تاريخيا ولا يزال يضم ثراها صحابيا جليلا وهو المجاهد أبي لبابة الأنصاري المهاجر من مدينة (يثرب) المدينة المنورة مدينة الرسول إلى بلاد المغرب الإسلامي (بقابس)

موقع مدينة قابس:

هناك أقوال متضاربة وتكهنات حول موقع مدينة قابس القديمة، فالمؤرخون يذهبون إلى

---

(1) كان السيد الحاج أحمد علان المصري الجنسية وأخيه الحاج محمد علان يتصل بقابس للتجارة عن طريق القوافل الصحراوية التي كانت تأتي من عين صالح وتنبكتو وكان السيد أحمد علان وأخوه محمد علان يسكنان بدار ابن يحيى ودار السنوسي بالاغة بقابس وكنت أعرف السيد الحاج محمد علان شخصيا باعتبار القرابة التي تربطني بالعائلتين وكنت صغير السن أنذاك 8 سنوات .

أن أنقاض المدينة القديمة تقع تحت كامل مساحة أقسام المدينة الحديثة أي في منطقة سيدي أبولبابة (الصوايدة) ومنطقة بدورة والمنزل وجارة وباب البحر.

وهذا ما يشير إليه صاحب كتاب خليج قابس 1888 عند حديثه عن أهمية مدينة قابس فيقول: "والظاهر أنها كانت تمتد حتى شاطئ البحر وأنها صعدت في العهد الروماني إلى صف المستعمرات، وفي العهد المسيحي إلى مركز اسقافية"

واستدرك صاحب الكتاب "على أنّه يصعب جدا تعيين مكان المدينة المندثرة بالضبط"

كما تشير دائرة المعارف الإسلامية إلى أنه "كانت في مكان مدينة قابس الحديثة مدينة تسمى تاكاب أسسها الفنيقيون، وكانت أكثر المدن ازدهارا بخليج سيرتا فتداولها القرطاجيون ثم الرومان من بعدهم، وصارت في زمن الإمبراطورية الرومانية ذات أهمية كبرى"

كما يشير المؤرخ(2) ڤيرين في كتابه رحلة أثرية في الإيالة التونسية، أن المدينة قد تكون ممتدة من (جنوب أبي لبابة وتتصل شرقا بالبحر وتشمل المنزل وجارة وشنني بحيث تقرب مساحة دائرتها إلى 5 كيلومترات.

وقد تناول الأستاذ الناصر البقلوطي مدير متحف العادات والتقاليد بقابس ومتفقد عام للآثار هذا الموضوع في دراسته القيمة التي تشير إلى .

(أن أصل تاكاب (3) القديمة بربري وأن عمرانها قد ازدهر على أيدي الفنيقيين والرومان من بعدهم. لكن الاختلاف يتعلق بتقدير الموقع)

يفترض الأستاذ البقلوطي عدة افتراضات لموقع المدينة نظرا لغياب الدراسات العلمية والتنقيبات حول هذا الموضوع فيقول: "إن المدينة كانت منتصبة على الربوة التي تحتضن اليوم مقام الصحابي أبي لبابة والمدرسة المتاخمة وحواليهما. ويذهب البعض الآخر إلى أن معالمها أقيمت فوق الهضبة المجاورة حيث يوجد اليوم خزان الماء"

أما الرأي الثالث حسب دراسته فيقول:

"إن المدينة الرومانية كانت ممتدة على موضع المدينة الحالية"

وهذا الرأي يتّفق مع ما أشار إليه (ڤيرين) في رحلته ثم يشير الأستاذ البقلوطي نقلا عن كتاب وصف إفريقيا للوزان.

" إن قابس مدينة كبيرة جدا بناها الرومان، لكن نهب الأعراب لها أدى إلى انحطاطها مما جعل سكانها يهجرونها ويعيشون خارجها في بساتين النخيل"

ثم يقول :

المدينة الإسلامية بنيت على أنقاض المدينة الرومانية، ثم تحول السكان بعد خرابها من جرّاء الهجومات، فتكونت مساكن على ضفاف الوادي وفي البلد (جارة القديمة).

وفي الواقع إذا ما قارنّا هذه الافتراضات بالواقع فإننا نجد الافتراض الثاني هو الذي ينسجم مع

---

(2) رحلة أثرية في الإيالة التونسية Voyage archéologique dans la région de Tunis

(3) مجلة أفريقيا إصدار (المعهد القومي للآثار والفنون) صفحة 31

ما تذكره الذاكرة الشعبية ونقلا عن المرحوم الحاج الجليدي الشلي المولود بالمنزل في 1898 عن أجداده المسنين أن المدينة القديمة هي الموجودة فوق الربوة المطلّة على قابس وبها خزانات الماء وهي التي كان بها سور وخندق وهاجرها السكان تدريجيا ابتداء من هجوم الكاهنة سنة 79 هـ وقطعها لغاباتها الممتدة في ذلك الوقت إلى بني عيسى بمطماطة (الآثار المدفونة في المدينة تؤيّد ذلك: وهذه العملية هي التي جعلت السكان يفكرون في تعمير غابات جديدة على ضفاف الوادي وحول العيون المائية الجارية التي توفرت في قابس القديمة.

وأعتقد أن هذا الرأي الذي قدّمه الوزّان وافترضه الأستاذ البقلوطي وأيّدته الرواية الشعبية الشفوية هو الرأي السائد لكن أضيف إليه الافتراض الذي يجعل من مدينة قابس ممتدة إلى ما وراء سيدي أبي بولبابة أي إلى منطقة بدورة فيكون موقع المدينة هو كلّ المرتفعات التي وجد بها ضريح الصحابي إلى ما وراء الضريح إلى بدورة ثمّ فوق المنطقة التي تسمى "بالمدينة" والتي تقع على الربوة الثانية حيث خزّانات الماء إلى عين سلام وذلك للأسباب التالية.

1- إطلاق اسم "المدينة" على الربوة الثانية التي أشرنا إليها

2- وجود آثار على هذه الربوة منها ما هو مكتشف وموجود بعضه في متحف العادات والتقاليد والباقي في المنازل أو مدفون في هذه الربوة (4)

صورة من التمثال المكتشف " بالمدينة "

(4) حفر بعض السكان "بالمدينة" وهو السيد العروسي بالصادق لبناء مسكن فاكتشف عند حفره تمثلا وبعض الآثار والدهاليز لا نهاية لها فوقف عن العمل وهذا التمثال موجود بمنزل السيد والي قابس

وجود ثاز حجارة عظيمة إلى الآن في منطقة بدورة وراء سيدي بولبابة.

4- اكتشاف آثار ودهاليز في المناطق التي بني بها جامع سيدي أبولبابة الجديد خارج الضريح

خصوصا تحت الصومعة الحالية، فقد اكتشف دهليز ممتد من جهة سيدي أبولبابة غربا ومتجها إلى الشرق إلى "المدينة". وكذلك اكتشاف بعض الآثار والمقابر في المكان الذي بني به جامع التوسعة (الجامع الذي بناه السيد الهادي البوشماوي على حسابه الخاص) والملاصق للضريح وللجامع القديم من الخلف.

5- وجود المقابر التي اكتشفت أثناء الحفر والتي تمثل الأطوار التاريخية المختلفة التي مرت بها قابس حول الضريح والمدرسة المرادية والمساكن الموجودة وراء الضريح من (بربرية إلى فنيقية إلى رومانية إلى إسلامية).

هذه بعض الأقوال التي تتحدث عن موقع مدينة قابس القديمة وعن الآثار المكتشفة والمدفونة إلى حد الآن.

بقيت هناك إشارة هامّة تتعلّق بميناء قابس القديم الذي يُعتقد بأنه كان يصل إلى سور قابس سوف نتحدث عنه في الإبان عند حديثنا عن ميناء قابس.

أمّا بالنسبة لسور "المدينة" القديمة فانه قد هدم مع الأسف ولم يكتشف لحد الآن وقد ذكر أن له أربعة أبواب:

أولا: باب المنارة أو الباب القبلي

ثانيا: باب البحر أو الباب البحري أو الشرقي

ثالثا: باب الدزيرة (الجزيرة) الذي يفتح على غابة الجزيرة

رابعا: الباب الغربي ويفتح على جهة سيدي بولبابة.

هذه الأبواب الأربعة هي أبواب المدينة القديمة أي المدينة البربرية والفنيقية والرومانية والوندالية والبزنطية وجزء من الحقبة الإسلامية لأن فتح هذه الأبواب على هذه المناطق واقعي لموقع المدينة المشار إليه دون منطقة بدورة (خارج السور) التي توجد بها آثار حجارة وهي داخل الربض والضريح كما ذكرنا ذلك.

فالمنارة تقع قبلي المدينة والبحر في شرقها وقريب منها وباب الجزيرة إلى الآن تسمى هذه المنطقة غابة (الدزيرة) هكذا تسمى عند العامة وسميت بهذا الاسم لأنها محاطة بمياه السواقي من كل جهة وكانت هذه الغابة محبّسة على جامع سيدي إدريس ثم بيعت للخواص عن طريق إدارة الأوقاف.

أما الباب الغربي فهو يفتح على ضريح الصحابي أبي لبابة بالقرب من المنطقة المسماة بالربض حيث يوجد ضريح سيدي بشّار.

أما الخندق الذي تحدثوا عنه فهو فعلا الخندق الذي كان يحيط بالمدينة القديمة ويجلبون الماء إليه من واد السيل الموجودة بعض آثاره إلى عهد قريب متّجه إلى (المدينة) وقد رأيت شخصيا هذا الوادي وبعض النخيل المغروسة بالقرب منه قبل أن تتحول هذه المنطقة إلى مساكن حتى منطقة عين سلام.

أما بالنسبة إلى عين سلام والتي سنتحدث عنها فيما بعد كأثر تاريخي يقول بلانشفيك:
(والظاهر أن عين سلام كانت داخل السور وقد عثر على آثار منازل وصهاريج ومواجل متوغلة في القدم وعلى أواني من الفخار ربما كانت فنيقية الأصل) .

إن هذا التكهن الذي يقدمه بلانشفيك يتماشى مع التواتر الذي تحدثنا عنه مع الآثار المكتشفة في المنطقة رغم أن آثار هذا السور لم يبق منه شيء مع الأسف الشديد.

تأسيس مدينة قابس:

يذكر الأستاذ مَحمد المرزوقي رحمه الله في كتابه(قابس جنّة الدنيا) نقلا عن دائرة المعارف الإسلامية.

"إن الفنيقيين هم الذين أسّسوا (تكاب) القديمة قد يكون هذا صحيحا ويحتمل أن يكون بناؤها سابقا للفنيقيين وأن المؤسسين الأصليين هم البربر الذين عرفتهم قبل الفنيقيين، ولعل في ابتداء اسمها بالتاء المفتوحة ما يرجح هذا الاحتمال، إذ المعروف أن أسماء المدن البربرية تبدأ غالبا بالتاء مثل تطاوين تاوجت تامزرط تاهرت تافلات..."

إن فرضية الأستاذ المرزوقي لها ما يؤيدها حيث توجد داخل القبور القديمة المنتشرة بمقبرة سيدي بولبابة القديمة (حيث يوجد الضريح والمدرسة المرادية والمساكن التي توجد وراء الضريح) مقابر على الشكل البربري والفنيقي والروماني والإسلامي، فأثناء الحفريات لبناء المساكن وكذلك عند توسيع الضريح من الخلف حيث بني المسجد الجديد وكذلك عند حفر بناء المساكن وجدت بعض المقابر في صناديق من الحجارة وفي دنانات (خوابي) فخارية منها الواقف على طوله ومنها المنثني ومنها الموضوع في الأرض مباشرة بدون وساطة ومنها المحروق داخل صناديق حجرية ومعهم أواني وحلي وغيرها وهذا ما يثبت الأطوار التاريخية التي مرّت بها قابس منذ تاريخها القديم.

الفصل الثاني
بسطة جغرافية عن قابس القديمة

1) تضاريس قابس:

إذا ألقينا نظرة فاحصة على سطح قابس، أي من ناحية التضاريس(الارتفاعات والانخفاضات والسهول) فإنّنا نجد اختلافا كبيرا في مستوى ارتفاعها عن مستوى البحر، فهي مرتفعة فوق هضبة عالية من الناحية الغربية التي يقع فيها ضريح الصحابي أبي لبابة، وكذلك منطقة المدينة حيث خزّانات الماء حاليا، وابتداء من هضاب مطماطة يقع الانحدار كلما اتجهنا نحو الشرق أي نحو البحر وتنخفض الأرض وتصل إلى مستوى البحر، وإن هذا الانخفاض ساعد على زحف مياه البحر وتكوين ميناء قابس القديم الذي يصل إلى. "المدينة" قرب الجسر الممتد على الوادي الجديد من طريق شارع الجمهورية الجديد إلى شارع أبي لبابة، وإن هذا الميناء بسبب تراجع مياه البحر الطبيعي تأخر هو الآخر، وأصبح في مستوى الميناء الجديد الذي عوّضه والذي كان موجودا أثناء الزحف الفرنسي على قابس في 23 جويلية 1881 والذي يؤيد هذا الرأي.

1- ترك ميناء قابس القديم بعد تراجع البحر سبخة كانت عتلئة بالماء وموجودة أثناء الزحف الفرنسي، وقد قطعها بعض المجاهدين (1) على سفينة صغيرة إلى منطقة سيدي بولبابة هروبا من القذائف التي قذفت بها فرنسا المجاهدين وهذه السبخة لازالت تحمل هذا الاسم إلى الآن وهي المنطقة التي بني فيها في عهد الاستقلال حي (الازدهار) المسمى بالسبخة وما تسميتها بهذا الاسم إلا دليلا على وجود هذا الميناء .

2- كانت هناك شخصية أسطورية في قابس تسمى بغول الشط وهذه الشخصية ترجع إلى عائلة دار العُربي من عائلة الزرايقة كان هذا الرجل قويّ البنية وكانت له قوّة خارقة ويقيم بمغارة قرب عين سلام سُمّيت هذه المغارة بمغارة غول الشط وكلمة شط هذه تثبت أيضا وجود الميناء القديم بهذه المنطقة لأنّها تقع بين عين سلام والسبخة التي ذكرناها سابقا.

3- لما وقع حفر وادي الإنقاذ (إنقاذ قابس من الفيضانات) والذي اشتهر باسم (وادي قريعة) باسم المقاول الذي قام بالأشغال، وجدت الأصداف البحرية وبقايا الأسماك على طول الوادي، وهذا دليل آخر يثبت وجود الميناء بهذه المنطقة، وأن الأرض من الجهة الشرقية منخفضة بالنسبة لمستوى البحر، ويمرّ بقابس الوادي الذي يأتي هو الآخر من الغرب من جهة "منطقة العيون" متجها إلى البحر بين هضاب عالية ومرتفعة من الناحية الشرقية والغربية.

أما من الناحية الشرقية أي الضفة الشرقية للوادي فنجد ارتفاعا أرضيا بنيت فيه منطقة المنزل القديم ثم جارة الشرقية من سانية الزيتون التي كانت على ملك الحاج إبراهيم بن جراد قرب "المسلخ البلدي الحالي" إلى قصور أولاد الجبالي وأولاد ناصف وأولاد يعقوب إلى الدريبة إلى

(1) من بين المجاهدين المناضل الليبي احمد بن حرب الذي شارك في الدفاع عن قابس وكان عمره أنذاك سبعة وعشرين سنة وتوفي في قابس عن عمر يناهز 117 سنة ولازالت عائلته تقيم بالزركين إلى الآن (المصدر هو السيد عبد الرحمان قتيريش الذي تعرف على المجاهد الليبي شخصيا.)

ظهرة (قراوجو) وهي الظهرة العالية التي يمكن أن يرى الواقف عليها ضريح سيدي أبي لبابة لعدم وجود البناءات في ذلك الوقت، ويتواصل هذا الارتفاع إلى قنطرة الصابون إلى ما بعد قنطرة المهندس(dugée) وتنخفض الأرض بعد ذلك إلى البحر.

أما من الناحية الغربية للوادي فنجد غابات منطقة شنني التي تبدأ من رأس الواد إلى قنطرة التصف الفاصلة بين (غابات شنني والمنزل) حيث تبدأ غابات منطقة المنزل إلى ما بعد قنطرة الشمامة وغابات بو عبد الله حيث تبدأ غابات منطقة جارة(بزّانو) إلى شط سيدي عبد السلام إلى منطقة القاطون قرب ضريح "سيدي داود" وتوجد داخل هذه الواحة الكبيرة الواسعة، قرية شنني والنحال والمنزل والبلد أي جارة الدخلانية ومنطقة سيدي عبد السلام، وفي وسط قابس الحالية ابتداء من الضفة الشرقية للوادي أراضي زراعية، وهذا واضح من الصورة المتخيلة يوم الهجوم على قابس واحتلالها من قبل القوات الفرنسية في 1881 وكذلك من وثائق الأملاك ومن الواقع الذي عاشه آباؤنا في عهود قريبة جدا. إذ نجد أن كل مناطق بقية قابس الحالية كانت عبارة عن مزارع للخواص تصل إلى ظهرة مطرش وإلى منطقة زريق مثل مزارع سيدي الحاج عمر(2) التي تبدأ من دار الجندرمة(الحرس الفرنسي سابقا) ومنطقة الحكمة الإبتدائية حاليا ومنطقة البرج إلى جبانة الغربة(3) إلى أرض العمريين المعروفة بقابس أين بني جامع صغير سمي باسم الحاج عمر نسبة إلى ضريح الحاج عمر الأصلي ويمتد هذا التملك إلى قرب ظهرة مطرش ثم مزارع دار ابن جراد(4)

صورة من زاوية
"سيدي بوعود"
-جد الأعواد الحمارنة-

(2) المصر هو المناضل المرحوم الصحي الحضري العمري من المشاركين في الحركة الوطنية ومن الذين فروا إلى ليبيا أثناء الثورة التونسية الكبرى حتى لا يقع تتبّعه لأنه قد أكتشف أمره وهو رئيس خلية سرّية.

(3) تبرع بهذه الأرض أبناء الشيخ الحاج عمر لتكون مقبرة للغرباء(جنود فرنسا كالسنغاليين والماليين) وقد ألغيت الان وأصبحت مساكن لبعض المواطنين

(4) سوق جارة كان عبارة عن مزرعة وكان على ملك دار ابن جَراد وبني به السوق على طريق ما يسمى بالإنزال أي أن الأرض تبق على ملك صاحبها ويدفع صاحب المحل كراء الأرض كان الصحي الحضري المذكور يحمل بنفسه كراء أرض بني بها دكّان ياسمهم على هذه الطريقة.

الممتدّ من سوق جارة الحالي إلى منطقة شارع محمد علي بما فيها محطة القطار. إذ أن أرض هذه المحطة قد بيعت من العائلة إلى شركة السكة الحديدية ثم المزارع الموجودة في منطقة سيدي بوعود(5) التي كانت على ملك الحمارنة باسم جدّهم سيدي بوعود وكذلك الخشاينة القاطنين بالظهرة (ظهرة قراوجو) وهي على ملك سيدي بوسحاق الذي يقع ضريحه في هذه الظهرة والذي سنذكره ضمن شخصيات قابس التاريخية. وإذا تتبعنا بقية أراضي قابس من بعد منطقة المنزل القديم فإننا نجد أراضي خاصة مزروعة على ملك دار شمام ودار الصويعي ودار عمران وعرش الزرايقة ودار قفة الخ...

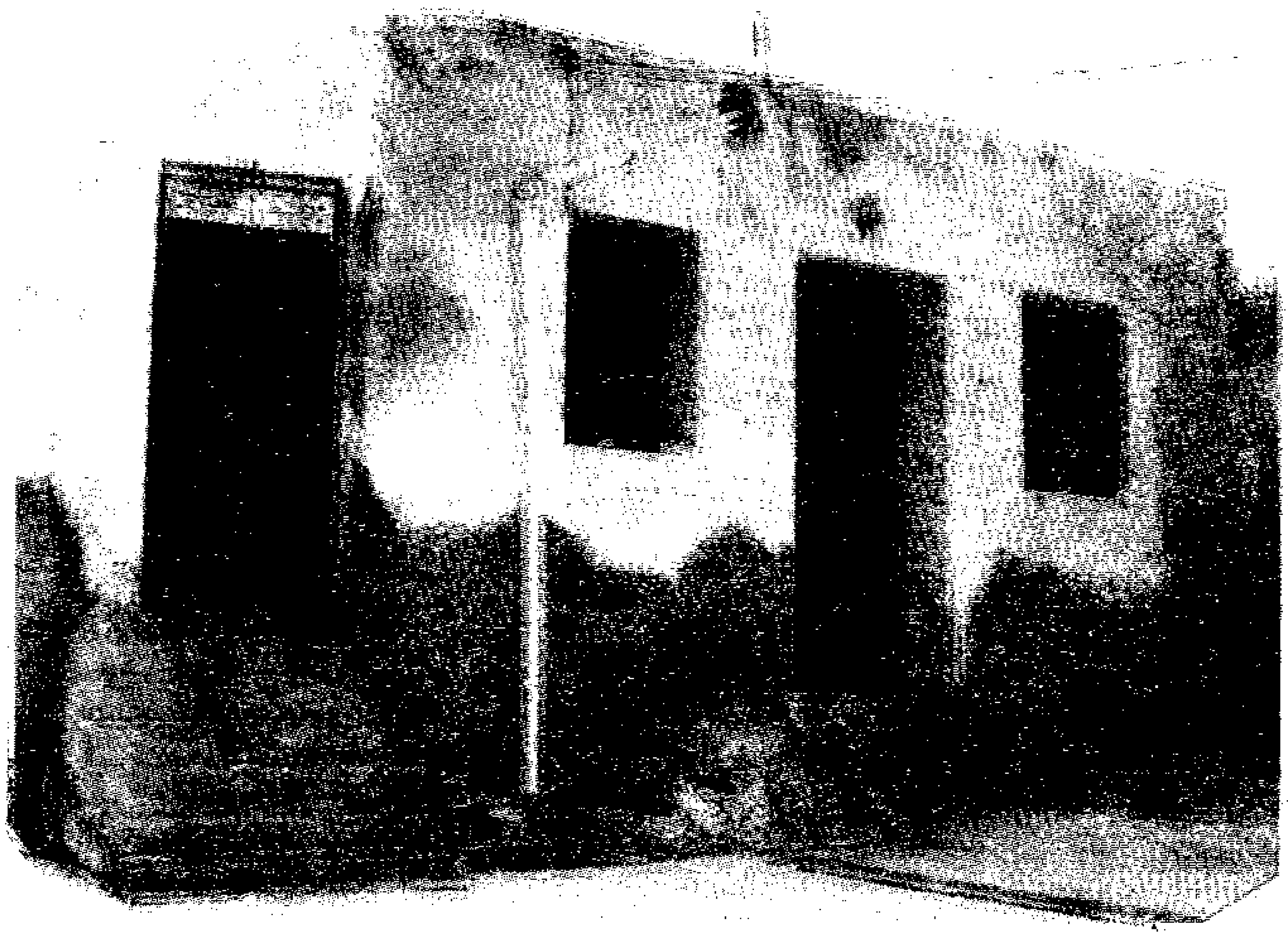

صورة لضريح سيدي أبي اسحاق الورقاني دفين قابس

وكذلك نجد مقبرة سيدي مرزوق التي بها ضريحه فقط وكذلك مقبرة القناينة قرب سيدي ابن عيسى وتمتد الأرض إلى دار الكسكسي(6) مركز (الجند الأتراك) أو (مركز زواوة) مقر الحاكم العسكري التركي أثناء الاحتلال(مصطفى التركي) إلى الأراضي الفارغة والتي بني بها فيما بعد دار الجندرمة أيام الاحتلال ثم مقر المحكمة الابتدائية حاليا ويتواصل الفراغ إلى جبانة النواصفية وجبانة سيدي خضر إلى باب البحر الذي بني به ما يسمى(بقابس الميناء) Gabès Port أو باب البحر وهي تسمية منقولة من باب النحر بتونس بعد الاحتلال الفرنسي حيث مقبرة اليهود والتي تحولت حاليا إلى مساكن لموظفي الصحة والشرطة والحرس الوطني.

(5)اشترى الشاوش الحضري خليفة عكارة أرضا من السواني الموجودة بالقرب من سيدي بوعود ليبني بها قصرا إلاّ أن والده قد لامه على ذلك فباعها لليهودي (والد سيون لابي) واشترى قطعة أخرى قرب سيدي بو اسحاق حيث بنى قصره الذي تحدثنا عنه سابقا(المصدر الصحي الحضري من العائلة).

(6) تحول هذا المركز إلى مدرسة إبتدائية(عربية فرنسية 1911) واستعمل أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية كمركز للجيش الفرنسي ومستشفى عسكريا وحول الآن إلى مدرسة إعدادية.

ولا يوجد من أثر للبناءات في ذلك الوقت دون منطقة المنزل القديم وجارة القديمة(البلد وجارة الشرقية) إلا الثكنة العسكرية التي ترى في الصورة حيث مقر الحاكم التركي والتي تحولت الآن إلى مقرللبنك المركزي بقابس وكذلك يرى مركز دار الكسكسي(مركز القائد العسكري التركي) وضريح الصحابي سيدي أبي لبابة الأنصاري على بعد فوق الربوة العالية وكل المناطق الأخرى مناطق زراعية وسباخ من بقايا الميناء القديم.
بعد هذه البسطة الجغرافية عن تضاريس قابس يلاحظ بأن الموقع الجغرافي الممتاز الذي تحدثنا عنه في أهمية قابس التاريخية له ثلاث ميزات هامة:
1- وجود وادي ينبع من الغرب إلى الشرق أي إلى البحر مجاورا لقابس القديمة ومخترقا وقاسما قابس الحالية إلى نصفين منطقة غابات شنني والمنزل والبلد وواحة جارة من الجهة الشمالية ومنطقة العمران الأخرى في الجهة الجنوبية من المنزل إلى جارة إلى باب البحر.
2- وجود خليج مشهور بها تقع عليه المدينة من الناحية الشرقية وبواسطته تتفتح على العالم الخارجي من جهة البحر.
3- وجود غابة كثيفة تحيط بها من أغلب الجهات وتحميها من الغارات وتكون موردا لرزق سكانها

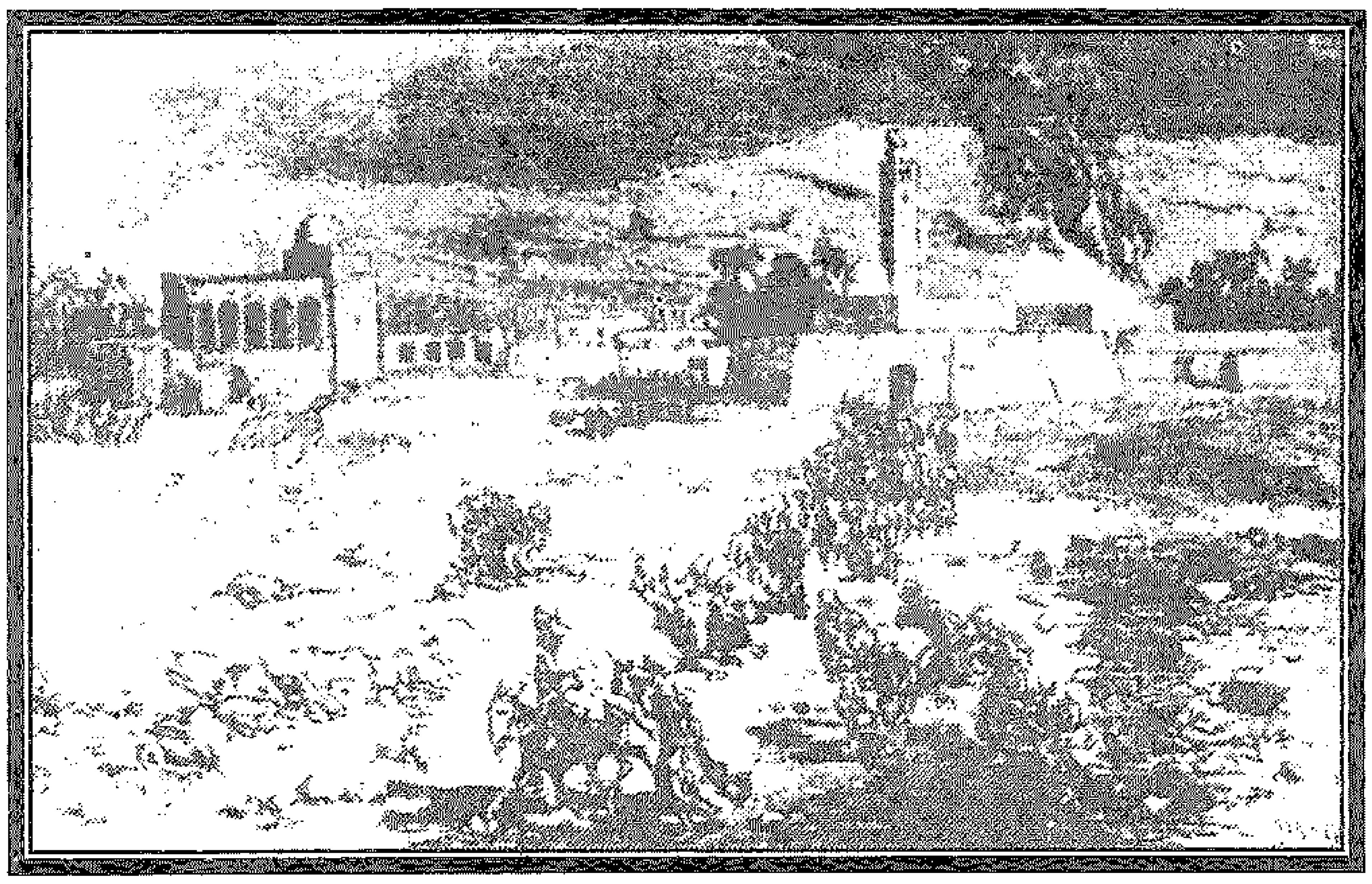

الفرنسيون يقصفون مدينة قابس

2) واد قابس:
أغلب المدن في التاريخ تقع على الأنهار مثل بلاد وادي النيل في مصر وبلاد وادي الرافدين بالعراق وبلاد السند والهند في آسيا الكبرى ونهر(لاسان) بفرنسا وغيرها من المدن التاريخية الهامة، وذلك بسبب توفر المياه للشرب واستعماله للزراعة ولسقي الغابات.
قال التيجاني: "ولها وادي(7) يسقي بساتينها، ومزارعها" وقال البكري عند وصف غابة قابس: "تسقى كلها من مياه وادي قابس" ووصفه اليعقوبي "بأنه واد جرّار" هذا الوادي كما سنرى له منابع كثيرة تزوده بالماء(بصورة غير مباشرة)، وقد تغير اتجاهه عبر التاريخ، وبتأثير الفيضانات العظيمة التي كانت تحدث به فتغمر المدينة أحيانا وتضرّ بالمكاسب. أما منابعه فتوجد في الناحية الغربية وتسمى برأس العيون قرب ضريح سيدي هريش وهي عديدة:

(7) انظر رحلة التيجاني لأبي مَحمد عبد الله ابن محمد ابن احمد التيجاني صفحة 87

1-العين البيضاء 2- عين حامد 3- عين التزابكة 4-عين سيدي هريش 5-عين زايد وغيرها... إلا أن هذه العيون قد طمست كلها الآن. وفي الواقع أن هذه العيون قد تسربت إلى الآبار التي حفرت لتزويد معمل الإسمنت بقابس والمنطقة الصناعية بالماء، لأن موقع هذا المعمل منخفض عن منابع هذه العيون التي تنحدر من زملة الظواهرية(بوادي الخروبة) وهي تنحدر متتالية إلى أن تتجمع مع بعضها وتنقسم بعد ذلك إلى مجرى جوفي(8) فتكوّن واد ابن محمد الذي يسقي غابات شنني والمنزل.

أما المجرى الثاني فإنه ينحدر إلى الوادي القبلي المسمى بوادي السيل وهو منخفض عن الوادي الأول وقد يختلطان عندما تحدث الفيضانات الكبرى وهي كثيرة في قابس قبل تكوين السد الجديد فيصب وادي ابن محمد في وادي السيل الذي هو منخفض عنه بأمتار تقصر وتطول حسب المواضع التي يمرّ بها قد تصل إلى أكثر من أربعة أمتار، وهذان النهران ينقسمان ويتوزعان عن طريق السواقي لسقي غابات قابس، وتجري الفواضل في وادي قابس منحدرة إلى البحر. يقول ابن سعيد في القرن السابع هجري :"وينزل(9) لها نهران من الجبل الذي في جنوبها يخترقان غوطتها وتتوزع جداولهما عليها". وفي الواقع جغرافيا ليس النزول من جهة الجنوب كما يقول ابن سعيد إنما تنزل من جهة الغرب وتمر من جهة الجنوب.

تنظيم الري عن طريق وادي قابس :

لم تكن في بداية الأمر هذه المياه منظمة وموزعة بطريقة محكمة نظرا لكثرة هذه المياه، وقلة مساحة الأرض المستغلة لكن لما توسعت الأراضي الفلاحية أصبح من الضروري تقسيمها وتنظيمها وتعيين مشرفين عليها.

- أما بالنسبة للتنظيم فالشائع في قابس أن الذي أشرف على تقسيم مياه قابس في العهد الإسلامي هو ابن الشباط(10) التوزري الذي أشرف على تقسيم مياه الجريد صحبة ابن فلاح القابسي وهذا في القرن السابع هجري. لكن في الواقع أن هذا العمل الذي قام به ابن فلاح مع ابن الشباط في توزر وقابس لم تثبته الوثائق إنما أثبته التواتر في قابس والجريد ...

وأن هذا التقسيم إن ثبت فقد سبقه تقسيم آخر في العهد الروماني وقد أشار إليه المؤرخ الروماني بلين pline(11) عندما تحدث عن خليج قابس فقال: "وفي خليج سيرتا توجد مدينة اسمها تكاب أرضها خصبة ومناخها جميل وعلى بعد 30 ميلا تقريبا(12) عين فوارة متسعة، ماؤها مقسم تقسيما محكما بين البساتين بالساعات". هذا في الواقع نص واضح يبين أن مياه هذه العيون قد قسم تقسيما محكما، لكن هذا التقسيم ربما كان صالحا في تلك الفترة وتطلب

(8) استجواب العمدة الحاج الكيلاني السالمي(عمدة شنني) سابقا عمره في حدود التسعين سنة

(9) انظر قابس جنّة الدنيا للأستاذ مَحمد المرزوقي نقلا عن بسط الأرض صفحة 78 .

(10) ابن الشباط المعروف بالمصري وهو نصراني اعتنق الإسلام

(11) انظر نص بيلين سفر ثلاثة صفحة 194-195 – 194-195 pline v 3 p

(12) هناك مبالغة كبرى في المسافة التي توجد بها هذه العين الفوارة فحتى عين زرقة تبعد عن قابس 3 أمتال فقط وربما عوض أن يذكر ثلاثة رسم الكاتب ثلاثين وهو خطأ في الرسم.

توسع الغابات في العهود القريبة إلى تقسيم وتوزيع آخر ومنها التقسيم الذي تحدثنا عنه سابقا وهو تقسيم ابن الشباط وابن فلاح(13) في القرن7هجري.

منظر من وادي قابس

أما التقسيم الآخر وهو التقسيم الحالي والمنقول إلينا عن طريق الرواية الشفاهية المتواترة لكنها رواية قريبة جدا من أجدادنا وآبائنا إذ تروي لنا هذه الرواية أن هناك رجل من قابس يعرف بشمام(14) هو الذي قسم مياه هذه العيون بالطريقة الجاري بها العمل في الوقت الحاضر وقد جلب لها عمالا من قرية غنوش وحفر المنافذ تحت الجبل حتى أنه يقال بأن هناك عددا كبيرا منهم قد مات تحت تأثير هبوط أجراف هذا الجبل وقد وقعت فديتهم بسبب هذا الحادث، ويلاحظ الأستاذ مَحمد المرزوقي في "كتابه قابس جنّة الدنيا": "إن التقسيم(15) الذي قام به شمام إنما هو مراجعة وإصلاح للتقسيم الأول أو للتقسيمات الأولى"

ويقصد بها التقسيم الروماني وتقسيم ابن الشباط وابن فلاح رغم أن الأستاذ المرزوقي لم يشر إلى ابن فلاح لأنه لم تصله هذه الرواية.

لقد قام شمام بعمل جبار إذ عمق العيون وزاد في حفرها وأوصلها ببعضها، وهو أول من

(13) خبير من قابس من قبيلة الحزم من سكان جارة الدخلانية قام بمشاركة ابن الشباط في تقسيم مياه توزر وقابس وبناء مزولة(ساعة شمسية) في قابس بجامع سيدي إدريس وفي مطماطة براوية سيدي إبراهيم الجمني

(14) المتعارف في أن عائلة شمام ترجع إلى الحفصيين الذين حكموا تونس بما فيها قابس ويتواتر أن شمام هذا قدم إلى قابس أثناء حكم هذه الدولة.

(15) انظر كتاب مَحمد المرزوقي(قابس جنّة الدنيا) صفحة 25

بنى السدود الترابية. ويشرف على توزيع هذه المياه على الفلاحين كل حسب حاجته مشرفون يسمون بقيّاد الواد (قايد الواد) ويساعده أعوان يسمون بالصّعّادة أي يصعد لتبديل الماء من غابة لغابة وكل واحد منهم يشرف على المنطقة التي كلف بها.

مجرى الوادي:

فواضل المياه التي تنحدر من مجرى الوادي القبلي المشهور بواد السيل هو منخفض عن مستوى الأرض، فتنساب مياهه إلى البحر مخترقة المدينة من الغرب إلى الشرق ومسببة أثناء الفيضانات في سنوات الأمطار كوارث عظيمة ومحزنة وأخطارا للمدينة خصوصا سنوات 1922-1930-1935-1959-1961. هذه الفيضانات أصبحت قابس تؤرخ بها، لأنها أحدثت أخطارا كبيرة وأغرقتها في المياه وسببت خسارة اقتصادية للفلاحين والتجار والمجرى الحالي للواد يبدأ من شنني لأنها عبارة عن مدخل إلى قرية شنني من ناحية داخلية. ثم قنطرة الشمامة(نسبة إلى عرش شمام). وقنطرة سيدي الحاج مبارك دفين تالة(نسبة إلى جامع سيدي الحاج مبارك) وقنطرة البلد(16) وقنطرة اللّوح(17) وقنطرة الصابون(18) وقنطرة المهندس(19) إلى قنطرة السكة الحديدية (التي يمر عليها القطار) الآن إلى البحر.

قنطرة البلد التي يمر منها الناس من البلد إلى جارة الشرقي ويظهر ضريح سيدي الحاج ناصف وسيدي بوعلي من الجهة اليسرى وسيدي الحاج عمر من الجهة اليمنى بالنسبة للداخل إلى البلد(جارة الدخلانية)

---

(16) بنيت في عهد الشيخ المؤدب سيدي الحاج عمر المغربي

(17) قنطرة اللوح كانت مصنوعة من اللوح والآن بنيت من جديد وأصبحت قنطرة مبنية بالإسمنت المسلح.

(18) قنطرة الصابون كان مجاورا لها معملا لصناعة الصابون وغيره من المصنوعات على ملك شركة فرنسية (شركةduguez) والتي اشتراها فيما بعد المرحوم الصادق بن جبر مع مواطن من جرجيس اسمه الربيعي ومازالت الأرض على ملكهما رغم هدم المعمل .

(19) بناها المهندس الفرنسي dugué والذي كان يسكن بمسكن في الغابة مجاورا للقنطرة قرب الأشغال العامة ولازال هذا المسكن موجودا تملك به أحد الخواص بطريقة غير قانونية رغم أنه مسجل في دفتر خانة.

هذا المجرى الحالي يبدو أنه قد تغير عبر السنوات وعبر العصور، فحسب التواتر الذي تثبته بعض المواقع كما سنرى أن هذا الوادي كان يمتد من واد بوشاعة بالقرب من "المدينة" ويمر بحفير بعيرة بالمنزل وحفير مهذب وحفير دار بن حميدة مارا بالقرب من جامع سيدي بن عيسى ويجتاز حفير بوزيان ثم ينحدر إلى الوادي الحالي غرب المسلخ البلدي أي قرب عمارة إدارة المركب الكيمياوي الحالية إلا أن هذا الجزء من الوادي(العلوي) قد تحول بعد الهجرة من المدينة وتحول السكان إلى مناطق العمران الجديدة وذلك بعد هجوم الكاهنة على قابس سنة 79 هـ وتخريبها غابات قابس القديمة التي تمتد على طول طريق قابس مطماطة إلى منطقة بني عيسى كما ذكرنا ذلك سابقا. وما يثبت هذا الافتراض هو هذه المنخفضات التي كان يمر منها الوادي وبعض غابات النخيل التي كانت موجودة إلى وقت غير بعيد وقد شاهدت بنفسي بقايا النخيل بالقرب من حفير دار بعيرة ودار بن حميدة وحفير دار بوزيان الذي يمتلئ بالماء عند نزول الأمطار ولم يمنعه من النزول في اتجاه الوادي إلا البناءات الجديدة التي سدت عليه المنافذ ومنعته من الانحدار إلى مجراه الذي تحدثنا عنه.

لكن هناك ملاحظة لابد من الإشارة إليها، هي أن هذا الاتجاه للوادي الذي تحدثنا عنه ربما يكون الاتجاه الثاني عندما كان خندق قابس أي الذي يحيط بالمدينة القديمة يملأ من هذا الوادي من (وادي السيل) عند حدوث الأخطار، وأما الاتجاه الحالي فربما كان موجودا هو الآخر وبذلك يكون للوادي اتجاهين ينحدر منهما هذا بالنسبة للجزء العلوي من الوادي.

أما بالنسبة للجزء السفلي والذي يكون في منطقة جارة فبعد قنطرة البلد الثابت أن هذا الوادي كان يتجه داخل الغابات ابتداء من سانية دار لاغة (20) مارا بغابات دار المكي بن عبد الجواد ودار قفراش ودارمَحمد بن محمود بالسنوسي(21) (جنان اليهودي) فيما بعد وجنان الزحاف (جنان العمريين) أي دار بالقناوي إلى أن يصب في منطقة تسمى إلى الآن (بالمريسة) قرب ضريح سيدي حوال الواد (22) ولازالت هناك آثار للوادي القديم حيث توجد مسارح كبيرة تصب فيها المياه الزائدة ثم يتجه الوادي جنوبا ينثني بعد ذلك إلى اليسار قرب جنان الدورة (حيث يدور الوادي في اتجاه معاكس) مكونا مرسى ثان(يسمّى أيضا إلى الآن بالمريسة) كانت السفن الصغيرة واللانشات والشقف القادمة من جربة وقرقنة وصفاقس ترسو به حاملة سلعها ذهابا وإيابا.

يقول المبشر إيفالد الذي زار قابس في سنة 1835 "وعند الظهر ولج بنا المركب نهر قابس الذي يصب في البحر وهو ضيق قليل العمق لا تصله لأجل ذلك السفن الكبيرة وحتى الصغيـــــرة

(20) الذي يصعد فوق النخيل من سانية دار لاغة يرى وادي عميق بين النخيل متجها نحو هذا الاتجاه الذي تحدثنا عنه

(21) جنان محمد بن محمود بالسنوسي بيع إلى يهودي عن طريق أحمد باشا باي تونس لخلاص الضريبة وهو الذي زار قابس لمقاومة بوارق العصيان التي قادها هذا الثائر بنفسه والتي أشار إليها أحمد بن أبي ضياف في كتابه إتحاف أهل الزّمان والتي سنتحدّث عنها في الإبّان

(22) سيدي حوال الواد حسب التواتر والمنقول عن عائلة المنياوي عن طريق حفيد من أحفادهم وهو المرحوم الأستاذ الحسين المنياوي أستاذ تاريخ أن المسمّى بحوال الواد هو (مَحمد المنياوي) جدّ عائلة المنياوي وضريحه مزار محترم لعائلته ولأهالي قابس إلى الآن .

منه لا تتوغل فيه إلا ساعات المد. ويشكل ولوج هذا المجرى خطورة بسبب الرصيف الرملي الذي يفصل بينه وبين المجرى الذي لا يبرز للعيان إلا ساعات الجزر وكم مرة تاهت في هذا الرصيف الرملي فساخت فيه) وهناك ملاحظة هامة نسوقها هنا وهي أنه قبل بناء السّكة الحديدية في العهد الفرنسي كان البحر يصل غابات النّواصفية مكونا شاطئا يسمى إلى الآن (بشط النواصفية) واصلا إلى منطقة السباخ .

أما الاتّجاه الحالي بعد سانية دار لاغة فإنه قد كوّنته الفيضانات المتوالية التي جلبت معها الطمي والرمل مكوّنة الغابات التي فصلت المجرى الأول وسدّته عن المجرى الحالي وهي أراضي واسعة كانت إدارة الأشغال العامة وبلدية قابس سنة 1935 قد فكرتا في تحويل مجرى الواد الحالي إلى مجراه الأصلي وإضافة أراضي الغابات الجديدة التي كونتها إلى مدينة قابس فتزيد في اتساعها حيث أن شكل مدينة قابس في ذلك العهد وإلى الآن يوصف بالشكل المستطيل ويقال عن قابس بأنها ذات الشارعين المستطيلين المتوازيين. ونظرا للتكاليف ولحرمان بعض الفلاحين من أراضيهم وغاباتهم أبطل المشروع، ولا أعتقد أن الفكرة سوف تعاد مرّة أخرى محافظة على غابة قابس ومحيطها الطبيعي وربما سيكون التوسع من ناحية المطار عندما يقع الاستغناء عنه.

وبالنسبة للقناطر التي وضعت على الوادي للمرور من الضفة اليسرى إلى اليمنى أو العكس فهي جسور حديثة كان المارة يقطعون الوادي مباشرة والمقصود هو حماية السكان من المهاجمين والمغيرين لكن بعد تطور الأوضاع وهدوء الأحوال فكّر السكان في وضع قناطر خشبية في الأول ليتمكن المتساكنون من المرور بسهولة من منطقة إلى أخرى من قنطرة الشمامة (23) قنطرة البلد(24) وقنطرة اللوح(لأنها بنيت من اللوح أولا ثم بنيت من الحجارة والاسمنت) وقنطرة الصابون التي تصب بها فواضل معمل الصابون بالإضافة إلى قنطرة المهندس إلى قنطرة السكة الحديدية.

إضافة إلى هذه الجسور هناك مقاطع لمرور ا لناس وللخيل بدون واسطة مثل مقطع دار ابن حسن(25) ومقطع الخيل(وراء المولد الكهربائي القديم) وعندما تحدث حركة مدّ البحر تصل إلى قنطرة الصابون فيتعذر عندئذ المرور من الواد وهذا ما يثبت لنا أن السفن الصغيرة كانت تصل إلى هذه المناطق.

---

(23) وهو الجسر الذي يمر منه المتساكنون عند الدخول إلى منطقة المنزل من الباب المسمى بباب ربح وهو(من الشمامة) بالقرب من سيدي عساكر وكذلك عند الدخول إلى قابس

(24) بناها الحاج عمر بإذن من الباي بعد حادثة مرور قافلة من العجارات (وهي قبيلة ليبية من ورشفانة) وليس هناك جسر وقتها ولما رأى الحاج عمر إمرأة منهم وهي فاطمة الحمراء تمر مع القافلة ولم تشمّر عن ساقيها فقرّر الحاج عمر بإذن من الباي بناء هذا الجسر كما قرر رمضان الغول جدّ الأغوال في قابس الذي كان جالسا بجانبه عند مرور القافلة التزوج بفاطمة الحمراء(الحميري) بعد خطبتها من أهلها وقد بدأ منها الحياء والحشمة عند مرورها وقد نقل الرواة البعض من الشعر الملحون عن هذه المرأة الجميلة وعن زواجها من رمضان الغول وأهل هذه المرأة يسكنون الآن جهة العمارات من قابس

(25) مقطع الخيل كان الجيش الفرنسي ينظف ويغسل الخيل في هذا المقطع وقد حدّثني عنها المرحوم الصحبي الحضري الذي حضر هذه المشاهد.

فترسو بالمراسي الصغيرة(المريسة) التي ذكرناها سابقا وهي قرب سيدي حوّال الواد بالنسبة لمجرى الوادي القديم وقرب قنطرة الصابون بالنسبة لمجرى الوادي الحالي. لقد ضعف مجرى الوادي في الوقت الحالي نظرا لقلّة المياه بسبب ضعف العيون والرشح الذي ضعف بانعدام هذه العيون، كذلك نظرا لاستعمال القنوات الحديثة للسقي من الآبار الجديدة.

لذا فقد سعت الولاية والبلدية منذ مدة لتصغير الوادي وبناء حيطان على حافتيه بواسطة حضائر من الجيش الوطني ومن المدنيين كما حفر الواد الجديد وبني سد هام على الواد القديم لمنع الفيضانات إن حدثت في المستقبل .

3- غابة قابس:

العنصر الثالث الذي يميّز مدينة قابس عن غيرها من المدن هو وجود غابة كثيفة من النخيل والأشجار تحيط بها من أغلب الجهات، فالزائر لمدينة قابس وللقرى المجاورة والمحيطة بها، يلاحظ غوطة ملتفّة حول البلد. لذا فقد شبّهت الغابة التي توجد بقابس بالغابة التي توجد بدمشق وسمّيت بذلك قابس "بدمشق الصغرى"

صورة من واحة قابس مع منظر البحر الساحر

لقد ساعد على وجود هذه الغابة الكثيفة بقابس توفر المياه بواسطة العيون الجارية التي ذكرناها والتي تجمعت في مجاري مائية وسواقي لتسقي الغابة، بالإضافة إلى التربة الخصبة التي حضيت بها هذه المنطقة. وبذلك تمكن الإنسان في قابس من استغلال هذه المعطيات الطبيعية ليستقر وينتج ويروّج إنتاجه في المناطق المجاورة للمدينة ويتبادل معها أنواع الإنتاج.
يقول اليعقوبي عن هذه الواحة "كثيرة الأشجار(26) والثمار والعيون"
ويقول ابن حوقل بعد الحديث عن مياهها "وأشجار متهدّلة(27) وفواكه رخيصة ولها من التمر والزروع والضياع ما ليس لما جاورها من زيتون وزيت وغلات"
وقال المقدسي عند حديثه عن واديها "كثير النخيل(28) والأعناب والتفاح" وقال البكري "وفيها جميع الثّمار(29) والموز بها كثير وهي تمير القيروان بأصناف الفواكه وبها شجر التّوت الكثير"
وقال أيضا "اتصال بساتين ثمارها مقدار أربعة أميال ومياها سائحة مطّردة تسقي بها جميع أشجارها وبها قصب السّكر كثير"
كما قال الادريسي "جنّات ملتفّة(30) وحدائق مصطفّة وفواكه هامة رخيصة"
ويقول أيضا "ويعمل بها الحرير الحسن وبها من ناحية البحر سوق وباعة وحريريون كثيرون"
وكذلك يقول متحدّثا عن الغابة
"ولهذه الغابة(31) أشجار وجنّات وكروم وزيتون كثير وبها نخل ملتّف به من الرطب الذي لا يعادله شيء في نهاية الطيب".
وفي القرن الثامن للهجرة قال التيجاني متحدّثا عن غابتها "بلد (32) قد استوفى المحاسن واستغرقها واذّكر بمنظره الأنضر وورقها الأخضر، جنّة الخلد واستبرقها، وقد أحدقت غابته من جميع جهاته، وبهذه الغابة من الجواسق والنخل المتناسق ما يستوقف الطرف ويحقق ما قيل(أن قابس جنّة الدنيا) وإنها (دمشق الصغرى) وأكثر جنّاتها فيما بين المدينة والبحر"
كما وصف قاضي قابس أبو المطّرف ابن عميرة بساتينها ونخيلها بقوله :
"بلد غوطي البساتين، طوري الزيتون والتين فأمّا النخل فجمع عظيم وطلع هضيم وسكك مأبورة ونواعم في الخدور مقصورة وإنّ بقعته لوارفة الظل آمنة الحرم والحل جنّة لو نزع ما في صدور أهلها من الغل، وبالجملة فهو تام الغرابة مدهام الغابة"
وفي نزهة الأنظار يقول الورثلاني الذي زار قابس في القرن الثاني عشر
"فيها مياه كثيرة(33) وبساتين من نخل ورمان وعنب وتين وفواكه جمّة... كثيرة المزارع كثيرة الحنّاء بحيث لا تساويها في ذلك بلدة"
ويقول المبشر إيفالد في كتابه رحلة بين تونس وطرابلس في القرن التاسع عشر مسيحي 1835

---

(26) فتوح البلدان صفحة 105
(27) المسالك صفحة 120
(28) أحسن التقاسيم صفحة224
(29) المسالك صفحة 17
(30) نزهة المشتاق صفحة 106
(31) نفس المصدر
(32) انظر كتاب رحلة التيجاني صفحة 86
(33) نزهة الأنظار صفحة 652

عندما وصل إلى ساحل قابس عن طريق البحر قادما من صفاقس.
"فوجئت بمنظر واحة النخيل الفتّان التي تزيّن الضفاف وتترامى بعيدا داخل البلاد، وليست هذه أول مرّة أشاهد فيها نخلا ولكني لم أشاهد قبل ذلك قط غابات منه في نفس الكثرة ونفس النضارة الخلابة"

صورة من واحة قابس

وبعد هذا المبشر يأتي بعد عشر سنوات فقط(1845-1846) هاينيرش بارت الألماني في رحلته المشهورة إلى تونس (سبع رسائل مخطوطة) يقول هذا الرحالة(24) عندما وصل إلى قابس
"قابس مكان في منتهى العذوبة والإمتياز، لقد خيّل إلى أني تحولت فجأة إلى بلاد الهند لفرط الدّهشة التي انتابتني لما بلغت ضاحية الموقع وسرت في مسالك ضيّقة عبر حدائق النّخيل المنسّقة تنسيقا على أحسن وجه، وقد تخلّلتها سنابل القمح في أوج اخضرارها وفي قلب هذه الجنائن توجد البلدة(أعتقد أنه يقصد قرية شنني) التي هي في الواقع وعلى غرار العديد من مدن الجريد مجرد مجموعة من القرى المنفصلة عن بعضها تماما"
ثمّ يقول بعد أن تحدّث عن نمط البناء وشكل المنازل الملائم لهذا النمط الطبيعي
"إنه لعمري مشهد يفوق كلّ حدود الرّوعة والبهاء واللّطف"

---

(34) رحلات هاينيرش بارت الألماني تحقيق وتعريب منير الفندري (المؤسسة الوطنية للترجمة تحقيق ودراسات بيت الحكمة (سبع رسائل مخطوطة)

ثمّ يقول "لقد شعرت بنشوة عارمة لما خرجت هذا اليوم على حصاني للنزهة بين هذه الحدائق، ومشاهدة الأهالي وهم منهمكون بين قرع الطبول والصياح المرتفع، والدوي في إقامة سد في الوادي". والسد هذا بفضل ما يوفّره من مياه لسقي حدائقهم هو أساس ثورة هذه الواحة المطوقة بصحراء قاحلة جدباء".

وفي سنة 1926 زار الأستاذ مَحمد المرزوقي مدينة قابس وهو شاب وتحدّث عن غاباتها.

"غابة ذات نخل باسق وأشجار خضراء(35) تحمي المدينة من الشمال إلى الجنوب"

ويقول أيضاً: "كنت أغتنم كل فرصة أثناء هذه الزيارات(أي زياراته لقابس وهو ليس بالبعيد عنها لأنه من بلدة دوز وهي تابعة لولاية قابس) للتمتع بمناظر غابة قابس ومتنزهاتها الرائعة وكانت هذه المناظر تأخذ بلبي وتتفتح لها نفسي بالرغم من أني ابن واحة"

ويقول جميل خوري: شاعر لبنان عندما زار قابس سنة 1936 في عهد (عمالة) عبد العزيز الجلولي لقابس بعد إكرامه له :

اكرم بقابس (36) جنّة الصحراء *** بمياهها ورياضها الخضراء

وقفت على بابِ الرّمال كأنها *** تاج يزين جبهة البيداء

أما في العهد الروماني فقد تحدث PLINE المؤرخ الروماني عن بساتين قابس فقال:

"وفي بساتينها نرى الزيتون يصعد من خلال النخيل وفي ظل الزيتون ينبت التين وفي ظلال هذا نجد أشجار الرمان وتحت هذه يعرش العنب وتحت العنب يزدهر القمح وأنواع الخضر كل هذا يثمر في سنة واحدة كل هذا في بساتين ممتدّة...الخ"

من هذه النصوص المختلفة عبر العصور (الرومانية والعربية إلى اليوم) يتضح لنا شهرة قابس التاريخية من ناحية إنتاجها الفلاحي ففيها الموز والرمان والخوخ والعنب والزيتون والنخيل وشجر التوت والقمح والشعير والحناء لذلك فهي قد اشتهرت بالزراعات الطبقية أي ذات

التمور في قابس
مورد رزق السكان

(35) انظر كتاب قابس جنّة الدنيا للأستاذ مَحمد المرزوقي (المقدمة حرف ح)

(36) المصدر هو المناضل الهادي المغربي الذي كان حاضرا عند إلقاء هذا القصيد وبقي بذاكرته سوى هاتين البيتين.

الطوابق(طبقة فوق طبقة) ويصدق بذلك النص الذي أورده المؤرخ الروماني بلين " ترى الزيتون يصعد في ظلال النخيل وفي ظل الزيتون ينبت التين... الخ.

لذا فإنه يقال "بأنه لا يوجد صيد البر وصيد البحر وجميع الثمار إلا في مائدة من يسكن قابس"

لقد اعتمدت قابس منذ التاريخ القديم على إنتاجها الفلاحي سواء للاستهلاك المحلي أو لتصديره للمناطق المجاورة كما سنرى ذلك عند حديثنا عن الازدهار التجاري، وكانت النخلة باختلاف أنواع إنتاجها من بلح وتمر جاف وطري مصدر خير لها، فمن ثمارها تعيش العائلة القابسية وتعلف منها الحيوانات ومن خشبها تسقف البيوت وتصنع الأبواب وتتكون الجسور ومن سعفها تتكون حواجز للغابات أي توضع على الطوابي كحواجز وتباع للصيادين لتصنع منها مصائد للسمك في البحر خصوصا لصيادي جربة وقرقنة وتستعمل لأغراض مختلفة أخرى والتي منها استخراج عصير اللاقمي كما سنرى ذلك عند حديثنا عن المجومات التي أصيبت بها غابات قابس عبر التاريخ سواء في تاريخها الماضي البعيد أو الماضي القريب.

4. خليج قابس وأهميته:

الميزة الرابعة التي تمتاز بها قابس هو وجودها على خليج بحري عظيم سمي بخليج سيرتا الصغير فهو متفتح على خليج سيرتا الكبير الموجود بطرابلس على البحر الأبيض المتوسط وهما مختلطان ولا توجد حواجز تفصلهما عن بعضهما سوى الحدود الدولية المصطنعة.

لقد اكتسبت قابس من هذا الموقع أي الموقع على خليج سيرتا أهمية كبرى فقد أصبحت متفتحة على العالم الخارجي، على أوروبا من الناحية الشمالية وعلى آسيا من الناحية

ميناء الصيد البحري بقابس

الشرقية، وعلى المحيط الأطلسي عن طريق مضيق جبل طارق من الناحية الغربية، وعلى المحيط الهندي عن طريق قناة السويس، وعلى طريق البحر الأحمر من الناحية الشرقية الجنوبية.

وبذلك كانت متفتّحة مثل غيرها من المدن التونسية والمغاربية الواقعة على البحر وتتأثر بما يحدث في العالم من أحداث ومتلهفة للاتصال بالخارج كما كانت عبر تاريخها الطويل.

الميناء القديم :

لقد ذكرنا أن الميناء القديم كان يصل إلى منطقة "المدينة" وكان يغمر المناطق العامرة بالسكان الآن من شاطئ قابس الحالي إلى المطار إلى قنطرة مدنين الجديدة إلا أنه بعوامل تراجع البحر الطبيعي تراجع شاطئ البحر إلى مكانه الحالي وتكون ميناء الصيد البحري الجديد وأصبح الصيادون يتحولون إلى هذا المرسى الجديد خصوصا وقد تطور في السنوات الأخيرة سنوات الاستقلال وأصبحت ترسو به السفن الكبيرة ومراكب الصيد البحري من مختلف الجهات.

وهذا الميناء هو الميناء الذي دخلت منه الجيوش البحرية الفرنسية غازية قابس بعد أن استولت على صفاقس.

لقد ذكر بعض المؤرخين هذا الميناء فقال عنه البكري

"وساحل قابس مرفأ للسفن في كل مكان"

بينما حقّره الإدريسي بقوله: "ومرساها في البحر ليس بشيء لأنه لا يستر من ريح وإنما ترسى القوارب بواديها وهو نهر صغير يدخله المد والجزر وترسى به المراكب الصغرى، وليس بكثير السعة وإنما يطلع المد للإرساء نحو رمية سهم".

وفي الواقع أن الوصف الذي ذكره الادريسي يمكن أن يكون صحيحا لأن ميناء قابس قبل إصلاحه في العهد الجمهوري (عهد الاستقلال) كان بالفعل تؤثر فيه الأمواج كما يؤثر فيه المد والجزر واتجاه الرياح. ولا يمكن أن ترسو به السفن الكبيرة إذ لولا الإصلاحات التي حدثت به منذ السبعينات إلى الآن لكان ميناء قابس تؤثر فيه الرياح كما ذكر الادريسي إذ وجود المراسي الصغيرة (المريسة) التي ذكرناها عند حديثنا عن وادي قابس (المريسة التي وجدت قرب سيدي حوّال الواد) على المجرى القديم و(المريسة) التي وجدت قرب جنان الدورة على (المجرى الحالي) تثبت كلامه الذي نقلناه عن نزهة المشتاق، ولو أن التيجاني في رحلته قد تحدث عن ميناء قابس وأهميته عند حديثه عن الصراع الذي حدث بين أمير قابس رافع ابن مكي ابن جامع(أمير دولة بني جامع في قابس) في بداية القرن السادس للهجرة و(أمير المهدية علي ابن يحي ابن تميم)، وهذا الحادث يتمثل في صنع رافع ابن مكي نواة الأسطول بقابس به سفينة كبيرة ساعده عليها (أمير المهدية السابق يحي ابن تميم). إلا أنه لما تولى ابنه عليّ تغير الوضع فأصبح عليّ حاكم المهدية يغار من أمير قابس ويخاف من مزاحمته له في البحر عن طريق هذا الأسطول وهذا مما يدل على وجود هذا الميناء الذي سنتحدث عن أهميته وعن الدور الذي قام به عند حديثنا عن دولة بني جامع في قابس في حينه.

5- قابس ومشروع بحر الصحراء:

يرتبط اسم قابس بمشروع بحر الصحراء الذي يربط خليجها بالشطوط التونسية(شط الفجيج – شط الجريد) بشواطىء الجزائر ومنها (شط الغرسة)

هذه الفكرة في الواقع يمكن تحقيقها لأن الشطوط التونسية والجزائرية كانت في العصور الماضية مرتبطة ببعضها ومتصلة بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق خليج قابس إذ أنك ترى بالعين المجردة كيف تكون الأرض منخفضة ابتداء من واد وذرف بقابس متجهة إلى شط الجريد... إلى الشطوط الجزائرية. والأحداث الواقعية والاكتشافات تؤيد هذه الفرضية، إذ أن وادي وذرف المنخفض والواسع(37) والذي كان يحمل الماء في السابق، أنه أثناء أخذ الرمال التي تستعمل للبناء (واد وذرف) اكتشف العمال آثار أعمدة فقريّة للحيتان التي كانت تعيش في هذه المنطقة، وكذلك آثار الأصداف البحرية، مّما يدل على أن هذا الواد كان مرتبطا أولا بالبحر (بخليج قابس)، ومرتبطا بالشطوط الممتدة من تونس إلى الجزائر، هذا من ناحية واقع القضية، ومن ناحية الفكرة والمشروع فإنها في الواقع فكرة استعمارية(38) إذ بعد احتلال الجزائر سنة 1830 فكّر الفرنسيون باستغلال أراضي الصحراء واستثمارها للتعمير والتشجير وظهرت الفكرة جليّة في سنة 1873 من طرف القبطان الفرنسي روديار Rodiere .

وبعد الدراسة تبيّن له أن الشطوط الجزائرية هي شطوط منخفضة بالفعل، أما شط الجريد فهو مرتفع عن سطح البحر، ويقرّر روديار في النتيجة أنه يمكن أن يتمّ المشروع دون الشطوط التونسية، فهو يكسبها مساحة تقدّر بـ 4500كلم مربّعا (39) لقد تشكّك خبراء العلوم في فرنسا في تحقيق هذه الفكرة وحذّروا من مغبّتها، أوّلا لأنها غير علمية (في رأيهم)ومبنية على التخمين كما أنها تقضي على الواحات الخضراء في تونس والجزائر ثانيا كما تغمر هذه المياه بعض المدن والقرى التي تمرّ بها ثالثا. رغم أن البرلمان الفرنسي قد خصص لها ميزانية للدراسة وقد اهتم المهندس والخبير الفرنسي المشهور "دي ليسابس"(40) Ferdinand Deliceps (صاحب قناة بانما بالأمريكيتين وقناة السويس بمصر) بهذه الفكرة وانضمّ إلى القطبان روديار. ولقد عاد البرلمان الفرنسي للإجتماع من جديد وخصص ميزانية أخرى للدراسة الجيولوجية لكن قبرت الفكرة من جديد بعد وفاة روديار سنة 1883 أي بعد فرض الحماية الفرنسية على تونس بسنتين.

---

(37) يبلغ عرض واد وذرف في بعض المناطق إلى 50 مترا تقريبا حسب تقدير بلدية وذرف

(38) للتدليل على أنها فكرة استعمارية خطرت لأحد المعمّرين بقابس وهو السيّد قالية الذي كان يقيم بقابس باشتراء أرض في هذه المنطقة لاستغلالها أو بيعها للشركات التي ستقوم بالحفر فلقد اشترى هكتارين بظهرة الشقاف بوذرف و40 هكتارا في منطقة القليب بوذرف و78 هكتار في المنطقة التي بنيت فيها الثكنة العسكرية بوذرف طريق تونس كلم 11 فيما بعد والسيد قالية يملك سانية كبيرة بقابس تسمى إلى الآن (بسانية قالية) رغم أنها استغلت كأرض صالحة للبناء في الوقت الحاضر وبنت فيها الشركة العقارية بقابس مساكن باعتها إلى المواطنين.

(39) هذه المعلومات استقيتها من بلدية وذرف عن طريق أحد أعوانها المكلفين بالأشغال

(40) هناك منزل قديم سكنه المهندس فارديناند دي ليسابس يقع في المطوية بقابس ومع الأسف الشديد إنه لم يقع الاعتناء بهذا المسكن إلى أن تهدم ولم يبق له أثر.

تجديد فكرة مشروع بحر الصحراء:

لقد تجددت فكرة مشروع بحر الصحراء من جديد إثر اكتشاف آبار البترول وذلك سنة 1952 – 1953 وثبت أنّ هناك ارتباطا بين منطقة الشطوط والبحر الأبيض المتوسط في العصور الجليدية وإن البحر كان مرتبطا بهذه الشطوط وهذا ما تحدثنا عنه في مقدمة هذا الموضوع(انخفاض الأرض من واد وذرف إلى الشطوط ووجود الآثار الحيوانية) كذلك هناك دليل آخر واقعي ورأيته أنا بنفسي في أواخر السبعينات حينما كثرت الأمطار بقابس وبالجنوب بصفة عامة وانغلقت الطرق المؤدية إلى قفصة تكونت بحيرات كبيرة في المناطق المنخفضة وعاشت الطيور وأفراخ البطّ مدّة من الزمن إلى أن جفت هذه المناطق .

إذن إن تجديد هذه الفكرة كان مبينا على الدراسات العلمية وعلى الواقع المشاهد لذا فان انفصال البحر عن الشطوط كان بفعل العوامل الطبيعة من التواءات وانخفاضات عن مستوى مياه البحر وتراجعها إلى الوراء وتكوّن حاجز صخري بالقرب من قابس سدّ المنافذ بين الشطوط والبحر. لقد تفرع عن مؤسسة البحث العلمي الفرنسي اتحاد التعدين الفرنسي وكانت النتيجة من ذلك هو:

1- اقتراح شق قناة عبر شط الجريد يتراوح عمقها ما بين(400-700 ياردة) واتساعها بين 3 كلم و4.5 كلم

2- إقامة سدّ على شط الجريد قرب مدينة توزر لتوليد الكهرباء

3- أن يكون شق القناة بالقنابل الهيدروجينية لتكسير الحواجز الصخرية التي تفصل البحر عن الشطوط ولتحقيق هذه الفكرة لا بدّ من مشاركة شركات البترول في المشروع. إلا أن هذه الشركات لم توافق على ذلك واعتبرت أن هذا هو ضرب من الخيال والوهم لا يمكن تحقيقه. لذا فإنهم لا يستطعون المشاركة في تمويله لأنه مشروع غير مضمون وفي الواقع أن هذا المشروع حسب رأيي يمكن تحقيقه وله فوائد جمّة منها:

1- تلطيف منطقة الشطوط
2- اجتذاب المياه المخزونة في باطن الأرض وارتفاعها إلى السطح
3- زيادة نسبة الأمطار لأن البحر يؤثر على نزولها(أمطار تصعيدية)
4- استغلال الأراضي الصحراوية للزراعة
5- استعمال البحر الجديد كوسيلة من وسائل النقل الرخيصة
6- تحويل هذه المناطق إلى مناطق سياحية بحرية

لكن هذه الفوائد يمكن أن تتبخر إذا علمنا أن المشروع له مضاره أيضا منها:

1- القضاء على الواحة وعلى التمور ذات الجودة العالية في كل من تونس والجزائر
2- التهديات التي ستلحق المناطق التي سيمرّ بها المشروع

فهل سيتحقق هذا المشروع في المستقبل؟ أم أنه سيقبر كغيره من المشاريع؟

وهل ستتغلب الفوائد على المضار التي سيحققها المشروع بالمنطقة أم العكس لا ندري؟

الفصل الثالث
سكان قابس القدماء

ليس من شك في أن سكان قابس القدماء إلى حد هذا التاريخ أي(قبل أن نزيح الستار على السكان الذين استقروا بجهة وادي العكاريت أي سكان ما قبل التاريخ) هم البربر القادمون من اليمن اثر تصدع "سد مأرب"(1) والبربر هم قبائل سامية أبناء عمّ للعرب جاءوا الشمال الإفريقي في عصور قديمة. يقول أبو العباس أحمد القلقشندي في كتابه "نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب". إن البربر "جيل عظيم من الناس(2) ببلاد المغرب وبعضهم بمصر وقد اختلف في نسبهم اختلافا كثيرا فذهبت طائفة من النسابين إلى أنهم من العرب، ثم اختلف في ذلك فقيل: اوزاع من اليمن وقيل من غسان تفرقوا". كما ذكر القلقشندي أيضا:
"وقيل خلفهم أبرهة ذو المنار(3) أحد تبابعة اليمن حين غزا المغرب، وقيل من ولد لقمان ابن حمير ابن سبأ بعث بسرية من بنيه إلى المغرب ليعمروه فنزلوه وتناسلوا فيه" إلى غير ذلك من الافتراضات والأقوال حول أصلهم وموطنهم إلا أن ذلك لا يخرجهم على أنهم من السامية وأنهم ليسوا(هند أوروبيين) كما يدعي بعض المؤرخين الأجانب لإخراجهم من جنسهم السامي المشرقي واستغلالهم لإثارة النعرة فيهم ومطالبتهم بالاستقلالية عن الدول التي كونوها وعاشوا فيها وساهموا بدمائهم في الدفاع عنها كما ساهموا بعرقهم في خدمة أرضها وهم قبائل متعددة من زناتة وكتامة ولواتة ومطماطة وليماية ونفوسة وزواغة وصنهاجة وهنتاتة...
أمّا الّذين استقروا بقابس فلازالت ألقابهم توجد بها وهم لواتة الذين استقروا بقابس وزناتة الذين انتشروا بالحامة وقابس وقبيلة مطماطة التي توجد إلى الآن بجهة مطماطة الحالية.
وبعد البربر جاء إلى تونس الفنيقيون من صور بلبنان بقيادة أميرتهم علّيسة فكونوا المصارف التجارية واستقروا بالبلاد ومثّلوا دورا تاريخيا في شمال إفريقيا، وكونوا دولة عظمى زاحمت الدولة الأم في المشرق من بلاد الشام وكانت شوكة في البحر الأبيض المتوسط لدولة الرومان المسيطرة على البحر ولو أن الآثار المكتشفة والمدفونة في مناطق قابس المختلفة وخصوصا"بالمدينة" هي آثار اختلطت وتمازجت مع الآثار الرومانية التي خلفها الرومان من بعدهم وأن تصفية هذه التركة الثمينة تحتاج إلى دراسة وإلى نبش الآثار من طرف المختصين في هذا الميدان، ومع الأسف الشديد لم تول وزارة الثقافة إلى حدّ الآن أهمية لحفر هذه المخلفات الهامة وإبرازها للوجود فتبرز أسوار المدينة سواء المدينة القديمة أو المدينة الإسلامية وكذلك المعالم من

---

(1) سد باليمن القديم يحجز المياه لاستغلاله في الفلاحة لكنه يتحطم من حين لآخر فتهاجر القبائل إما للشرق أو للمغرب منذ سنة 4000 قبل الميلاد. مع الملاحظ أن هذا السد قد جدد بناءه الأمير زايد بن سلطان آل نهيان أمير دولة الإمارات العربية المتحدة قبل اثنا عشر سنة.
(2) كتاب انساب العرب لأبي العباس أحمد القلقشندي ص118
(3) نفس المصدر

قصـور وكنائس ودور عبادة وأديرة ومنارات وجوامع وحمامات وأسواق وساحات... ومنتزهات إلى غير ذلك من الآثار الهامة التي تكشف تاريخ المنطقة والتـي اندثرت إلى الآن ولم يبق لها أثر.

إذن بعـد الفـنيقيين جـاء الـرومان ثـم الونـدال ثم(الروم البيزنطيون) معنى ذلك أن سكان قـابس قـبل الفـتح العـربي الإسـلامي كـانوا خـليطا مـن الـبربر والفنيقيين والرومان والوندال والـروم، فـلقد امتزج البربر والفنيقيون مع بعضهم بسهولة نظرا للقرابة ولصلة الرحم إذ أن الفـنيقيين القـادمين من صور بلبنان هم يرجعون في الأصل إلى الهجرات اليمنية التـي اتجهت نحو بـلاد الشـام، ومـن هـذه المـنطقة هاجـرت عليسـة إلى المـنطقة الـتي كونـت بهـا دولـة قرطاج(قرطحدشت). ولم تجد هذه الأميرة صعوبة في الاستقرار وفي تطوير الدولة لأسباب:

1- لأنها لم تأت غازية للمنطقة ولم تفرض سيطرتها بالقوة

2- وجـدت مـن الـبربر المساندة والتمازج فتشاركوا في بناء الحضارة الفنيقية إلى درجة أن اشتهر من البربر عظماء وقواد.

وكانت قابس خلال الفترة الفنيقية مزدهرة كما تقول دائرة المعارف الإسلامية.

"اختـلط القـرطاجيون(4) بالأهـالي أي بـ(البربر) الذين تعلموا لغتهم وشاركوهم في غزواتهم البحرية وكانت قابس في هذا الوقت أكثر مدن الخليج ازدهارا"

لقـد ازدهـرت التجارة والزراعة في هذا العهد وتغلب الفنيقيون على اليونان وسيطروا على كـل شمال إفريقيا إلى أن جاء الرومان وحدثت الحروب البونيقية بين الطرفين وبذلك جاء العنصر الروماني فاختلط بالسكان. يقول الأستاذ مَحمّد المرزوقي نقلا عن دائرة المعارف الإسلامية:

"وازدهـرت قـابس في عصـر الإمـبراطورية على الخصوص لخصوبة أرضها وكثرة مياهها فكثر عمـرانها واتسعت رقعتها فنحن نجد آثار البناءات الرومانية في قابس وأحوازها وعلى الأخص في جهـات مـن غابـتها متـناثرة هنا وهناك(في بوشمة والزارات ومطرش...) مما يدل على كثرة سكانها وتعـدد ضـياعها الـزراعية" وبعـد الـرومان جـاء الونـدال الذين خربوا البلاد لمدة قرن كامل ولم يخلفوا حضارة لأنهم من البارابـــار barbare الجرمان غير متحضرين قدموا من واندالوشيا بإسـبانيا ومـن اسمهـم اشتق اسـم الأندلـس(العـربي الإسلامي) وجـاء بعدهـم الـروم وهـم مـن بـزنطة(القسـطنطينية) أو(إسـطنبول) حاليـا وهـم روم الشـرق وسـاروا عـلى مـنوال الرومان فكونـوا حضـارة وأسسـوا دولـة كمـا سنرى إلا أنهم كانوا أقل قوة من الرومان وسيطروا على المدن الساحلية ومنها قابس، واختلط السكان ببعضهم.

يقـول كـتاب إفـريقيا الشـمالية في العصر القديم صفحة 79 "وقد تزوج الرومان من البربريات كمـا تـزوج الـبربر مـن العـائلات الأجنـبية فنـتج عـن ذلك جيل مختلط الدماء تكون منه عنصر جديد كان له أثر في نشر الثقافة الرومانية وأصولها اليونانية وهذه السلالات البربرية والفنيقيـة والرومانية والبـزنطية(الروم) المختلطة هي التـي كونت سكان قابس القدماء" وعند الفتـــح

(4) دائرة المعارف الإسلامية

العربي وجد المسلمون سكان قابس خليطا من البربر والأعاجم والأفارقة ويقصد بالأعاجم الرومان والبزنطيون والوندال الذين لا يتكلمون العربية. أما البربر فهم السكان الأصليون الذين اختلطوا بالفنيقيين أما الأفارقة فهم سكان البلاد غير العرب وهم السود الأفريقيون:

سكان قابس بعد الفتح الإسلامي:

سكان قابس الحاليون هم السكان الذين استقروا بها منذ الفتح. والواقع أن فتح قابس لم يثبت تاريخه بالضبط فقابس لم تفتح سنة 27 هجري حسب قول بعض المؤرخين، فقد قيل أن عبد الله ابن أبي سرح الذي قاد الحملة الأولى لم يفتحها آنذاك حسب ابن الشباط نقلا عن الطبري وقد اتجه أستاذنا حسن حسني عبد الوهاب المؤرخ التونسي نحو هذا الاتجاه، أو هذا الافتراض إذ أن عبد الله ابن أبي سرح اتجه نحو سبيطلة عاصمة الروم البزنطيين في ذلك الوقت ولم يفتح قابس إمّا :

1- لأهميتها ولحصانتها، فقرر الاتجاه نحو سبيطلة أولا، والرجوع إليها فيما بعد

2- لسهولة فتحها ولعدم أهميتها في نظره إذ بعد الاستيلاء على العاصمة والتغلب على الروم يسهل عليه التغلب والسيطرة عليها.

وقد اتجه ياقوت الحموي اتجاها آخر فقال

"وكان فتحها بعد القيروان(5) أي بعد الحملة الأولى التي وقعت في سنة 27 هـ معنى ذلك أنه يمكن أن يكون فتحها.

1- أما سنة 34 هـ في الحملة الثانية التي قادها معاوية ابن حديج

2- أو عن طريق سرية من سرايا المسلمين التي كان يبعث بها من مصر، إما عن طريق عمرو بن العاص حاكم مصر، أو عن طريق عبد الله ابن أبي سرح بعده.

وهذه السرايا كانت لغرض الاستكشاف، ودراسة أحوال المنطقة، وكذلك للفتح وللغنائم، والذي يؤيد هذا الافتراض هو وجود ضريح الصحابي أبي لبابة الأنصاري في قابس والمتوفى حسب الوثيقة المتوفرة والموضوعة على رأس القبر سنة أربعين للهجرة. معنى ذلك أن فتح قابس وسيطرة المسلمين عليها كانت قبل سنة أربعين هجري إذ لا يمكن أن يدفن هذا الصحابي الجليل في قابس وهي غير مفتوحة من طرف المسلمين.

يقول ابن الحكم المؤرخ الإسلامي "وكان عبد الله ابن أبي سرح أمير مصر يبعث بالمسلمين في جرائد من الخيل كما كانوا يفعلون أيام عمرو بن العاص فيصيبون من أطراف إفريقيا ويغنمون"

ويفترض الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في كتابه خلاصة تاريخ تونس صفحة 51 أن العرب لم يستقروا بقابس نهائيا إلا بعد حملة حسان ابن النعمان وقضائه على البربر معنى ذلك أن سكان قابس في تلك الفترة كانت غالبيتهم من البربر أي في سنة 84 هـ. لكن هناك نقطة استفهام حول هذا الموضوع؟

(5) انظر معجم البلدان الجزء الرابع صفحة 289

إذا كـان سـكان قـابس في تـلك الفترة غالبيتهم من البربر فكيف يقاومون الكاهنة سنة 79 هــ وهـي القائدة البربرية(منهم واليهم) إذ يعتقد حسب التواتر وحسب النصوص التاريخية أن الكاهـنة قـد حاصـرت قـابس ثلاثة شهور سنة 79 هـ ولما عجزت عن فتحها لان الجند وأهل البـلد قـد تحصنوا بالسور والخندق وقفلوا أبواب المدينة ولما يئست من ذلك قطعت أشجار الغابات الـتي كـانت تمتد من "المدينة" إلى جهة سيدي قناو قرب بنـي عيسى وتسمى هذه المنطقة الآن "بجهـة الأعـراض" الخصـبة. وكـانت هـذه الغابـات تشـتمل عـلى أشجار التوت والنخيل والتفاح والتـين والعنب والرّمان وغيرها من الأشجار والفواكه. كانت هذه الأضرار الـتي ألحقتها الكاهنة بقـابس سـببا في هجـرة سـكان "المديـنة" وتعمـير قابس الحالية وخلق غابات وواحات جديدة في شننـي والمنزل وجارة. ولإثبات هذه الحادثة عن طريق الواقع والتواتر أن المسكن الذي سكنت به الكاهـنة أثـناء هجومها عـلى قـابس هـو مغارة في مطماطة لا زال يحمل الاسم البربري إلى الآن وهو(تل كويست) أو مغارة الكاهنة.

لكـن للإجابـة عـن الاستفهام الذي بسطناه آنفا انه ربما كان البربر الذين استقروا بقابس قـد سـاندوا الفـاتحين ودخـلوا الإسـلام انـتقاما مـن البزنطيين أو رغبة في الدخول إلى الإسلام أو مسـاندة لـلعرب المسـلمين الذيـن قدمـوا لشـمال إفـريقيا لنشـر ديـن التسامح والمساواة ونشر الدعـوة الإسلامية، بينما كانت الكاهنة ومن ساندها من البربر ضد الإسلام وضد العرب الفاتحين رغـم أنهـا انصـاعت(6) وسـلمت ابـنيها إلى قائد المسلمين و"آختهما"معه. أما هي فقد صرحت "بأني الملكة أو القائدة أعرف كيف أموت" وماتت غير مؤمنة بالإسلام.

إذن اختـلط سـكان قـابس القدماء باختلاف أجناسهم ساميين وهند وأروبيين ببعضهم مع العرب المسلمين القادمين من الجزيرة ومن مختلف أنحاء الدولة الإسلامية فهناك القادمون من الجزيـرة العربية ومن العراق ومن بلاد الشام ومن مصر ومن ليبيا، إذ قد هاجر السكان العرب من بلاد المشرق إلى بلاد المغرب فمنهم من طـــاب لـه المقام فاستقر بقابس ومنهم من واصل السـير ووصـل إلى حـدود الدولـة الإسـلامية في الأندلـس(إسـبانيا) لكـن اسـتقر الـبعض في تلك المـناطق إلى الآن وتنصروا عنوة ومنهم من رجع واستقر في بلاد المغرب الكبير ومنهم من واصل إلى قابس خصوصا من مناطق الساقية الحمراء إذ نجد بعض العائلات التـي استقرت بقابس هي في الأصل ترجع إلى سكان المغرب الأقصى.

لقـد اصطبغ سكان قابس بالصبغة العربية خصوصا بعد الزحف الهلالي سنة 444 هـ إذ رغـم أن صـبغة هـذه الحمـلة الانـتقامية التـي بعث بها الفاطميون إلى تونس للانتقام من المعز لديـن الله الصنهاجي حاكم تونس الذي جارى العامة في ثورتهم على الشيعة لأنه كان من السنة وأعـلن تبعيـته إلى الخلافـة العباسـية في بغـداد بـدل تبعيته إلى الدولة الفاطمية في مصر، ورغم الـتخريب الـذي تعرضـت له الـبلاد التونسـية بصفة عامة كما يهول ذلك المؤرخون(وخصوصا مؤرخو الغرب) فإن نقل الحضارة ونشر اللغة العربية في بلاد البربر كان الصبغة الطاغية فـــي

(6) انظر كتاب أصول البربر العربية للأستاذ الهادي الزريبي طبع التعاضدية العمالية للطباعة والنشر 1989

هـذه الحمـلة، هـذا وان مـرور هذه الحملة على قابس كان من خارجها أي من جهة الحامة من مكـان يسـمى إلى الآن "بمرقب ذياب" وحتى المعركة الكبرى التـي وقعت بين الهلاليين وبين جيش المعـز كـانت بمنطقة ودران أو حيدران خارج المطوية (بين وادي العكاريت وودرف) وتسمى هذه المنطقة التي وقعت فيها المعركة بين جنود المعز والهلاليين" بمندبة الهلالية"(7) إلى الآن.

أما العنصر الذي انتشر في قابس من قبائل بنـي هلال الزاحفة هم بنو زغبة في الأول ثم غلبتهم قـبائل بـنـي سـليم وبقيـت قـابس في أيـدي بـنـي جامع الرياحيين وهم فرع من بنـي هلال وهم الذيـن كونـوا دويلة بنـي جامع بقابس واستقلوا بالسلطة كما سنرى ذلك عند الحديث عن هذه الدولة.

أمـا خـارج قـابس فقد سيطر عليه بنو ذياب من ربيعة ابن زغبة وسـكان قابس في الوقت الحاضـر اصـطبغوا بالصـبغة العربية فلم يبق منهم بقابس من يتكلم بلغته أو لهجته إلا بعض القـبائل الـبربرية الـتـي انحصـرت في مـنطقة مطماطـة فهي تتكلم بلغة تسمى بالشلحة وهي ترجع إلى اللغة اليمنية القديمة.

والسـكان حاليـا إما عربا جاءوا من المشرق كما ذكرنا أي من العراق ومن الجزيرة العربية ومـن بـلاد الشـام ومصر وليبيا أو راجعون من الأندلس والمغرب الأقصى والجزائر فتجد سكان قـابس الآن إمـا يـرجعون إلى هذه الأصول أي مشارقة ومغاربة من أصل مشرقي أو جاءوا من ولايـات مختـلفة بعـد تكوين الدول الحديثة والولايات المختلفة التابعة لها والعنصر الغالب في قابس في القديـم يـرجع إلى الأصـول الـبربرية قدمـوا إلى قـابس من الشرق في زمن بعيد لأن هناك من اسـتقر بها وبأحـوازها قبل الفنيقيين والرومان ومنهم من فر وحاول الرومان خصوصا إبعادهم عـن المديـنة وحصـرهم في المـناطق الجبـلية ومـنهم مـن رجـع بعـد ذلك وسكن المدينة ويحملون السـمات والصـفات الـبربرية. ومـنهم العـرب الذين جاءوا إلى قابس في مختلف الأزمنة وخصوصا الـبقية الـباقية مـن الهلاليين ومـن العـرب الـراجعين مـن المغرب بعد انهزام العرب في الأندلس وسقوط الدول التـي تكونت في المغرب الأقصى بما فيها موريتانيا أو(منطقة شنقيط) ثمّ الجزائر وتونـس لذلـك فـإنك تجد المغـربي والجزائـري والطرابلسـي والورشـفاني والتزهونـي والزنزوري والصنهاجي والحفصي والمطماطي والصفاقسي والمحرصي والسوسي والماجري...

بالإضـافة إلى ذلـك هـناك عائلات تركية قدمت إلى قابس أثناء حكم العثمانيين وكذلك بعض العـائلات مـن السـود الإفريقيين ومن اليهود الذين جاءوا في فترات مختلفة خصوصا أثناء الهجرة الأندلسـية لأنهـم طـردوا مـع العـرب المسـلمين مـن هـناك لذا فإن سكان قابس هم خليط من العـرب والـبربر والسـود واليهـود(8) جـاءوا إلى قـابس أثـناء الهجـرات العاديـة وأثـناء الحمـلات والزحفات التـي استولت على قابس واستقرت بها.

---

(7) هذه الأرض جدبت ولم تنبت شيئا إلى الآن لكثرة ما نزل فيها من دماء المعركة التـي حدثت سنة 444 هـ

(8) حسب كتاب المبشر ايفالد أنه كان يعيش بمنطقة المنزل 150 عائلة يهودية و 40 عائلة بحارة الدخلانية

خريطة بعض القبائل من جهة قابس

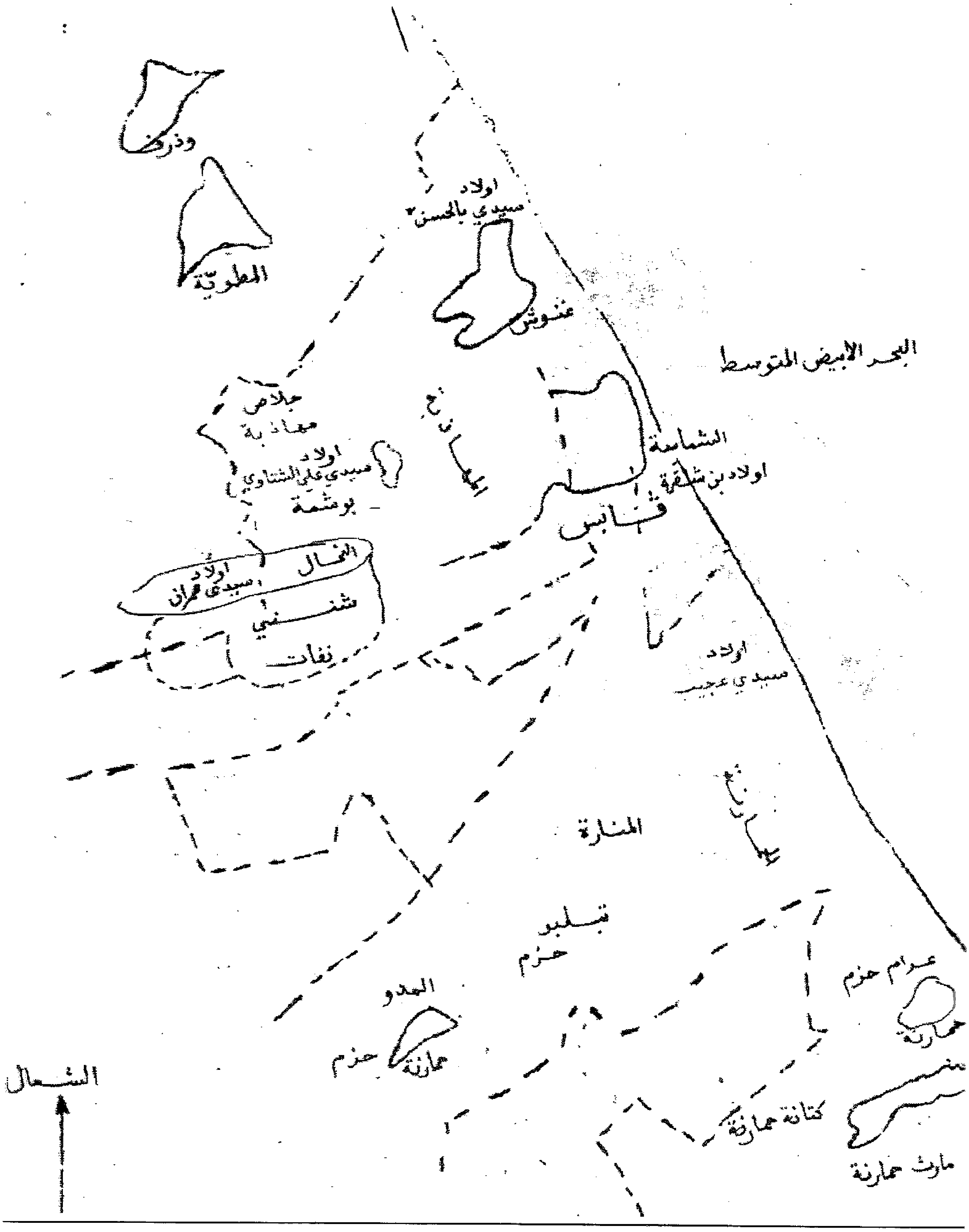

تطور النمط السكني بقابس عبر العصور:

كان السكان "البربر" سكان قابس الأصليون يصنعون بيوتهم على أشكـــــال مختلفة فسكان السواحل أو الشواطئ يسكنون في مساكن بسيطة مبنـية من الطين والحجر وفي أكواخ مـن أغصـان الشـجر داخـل الواحـة. أما سكان الجبال فيسكنون المناطق الجبلية في شكل حفر منقورة في الجبال(احياش) وبها جميع المرافق الضرورية من بيوت للسكنى ومخازن المؤونة وأماكن للطـبخ ولـلدواب. كذلـك يسـكن الـبعض بيوتـا مـن الشـعر أو بيوتا مشيدة بعضها فوق بعض تسـمى "بالقصـور" وفي مطماطـة قـابس بـنـيت المسـاكن ذات الطوابق والتـي استعمل بعضها حاليا كنزل للسواح الوافدين على المنطقة.

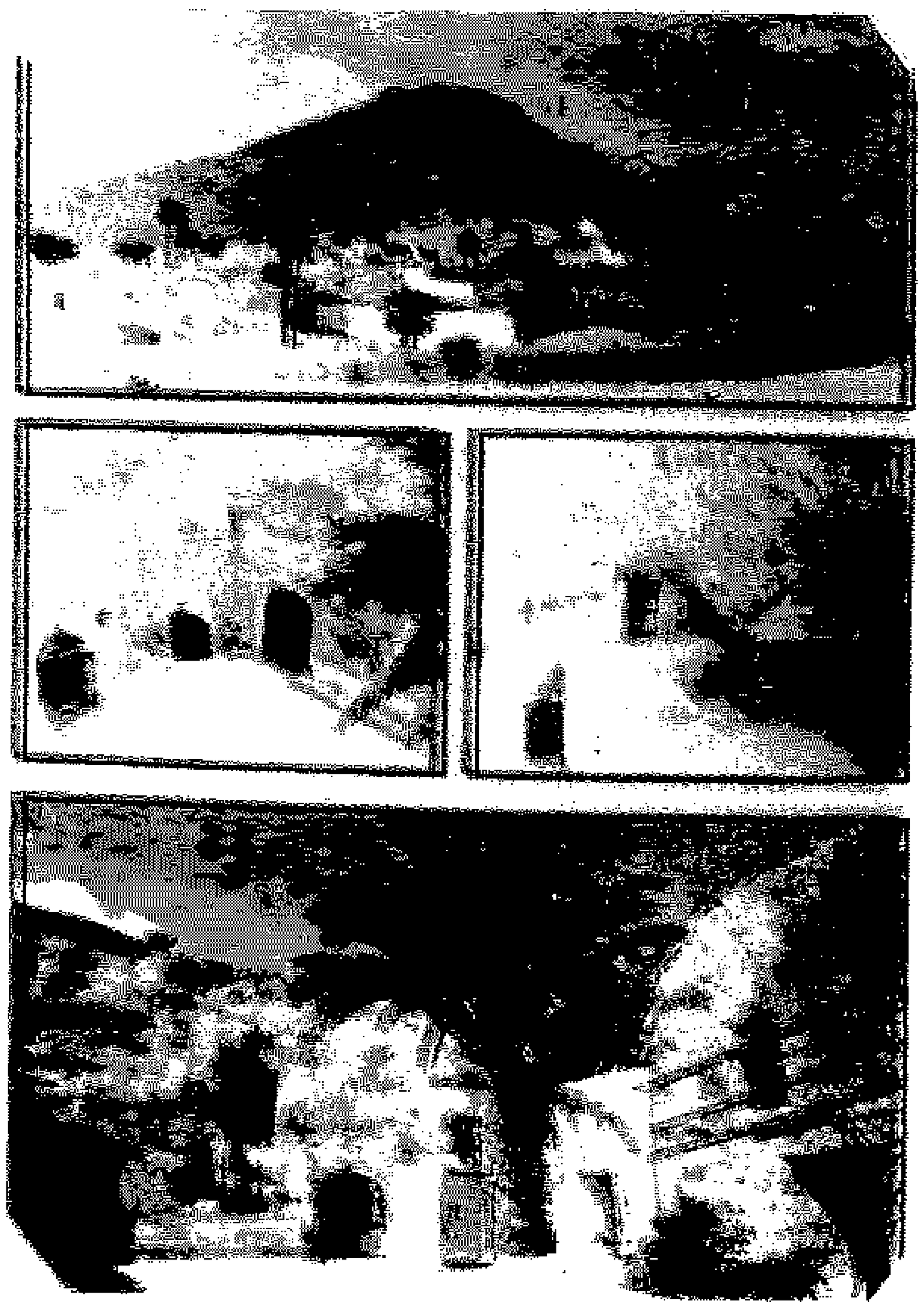

منظر من مدخل مطماطة
مع منظرين من المساكن البربريّة
حوّلت إلى نزل

أمـا الـنمط الفـنيقي فهو الذي استعمل القصور وبنى بالحجارة. أما الرومان فقد اعتمدوا على الـتخطيط والتصميم المتعامد الذي يرتكز على تقاطع نهجين أساسيين بصفة عمودية تسمى بالاصـطلاح الـروماني "الكـاردو" و"الديكـامونوس" ويوجـد المعـبد والحمـام والأسـواق وجميع المـرافق داخـل المدينة ومن المؤسف أن المدينة الفنيقية والرومانية بقابس قد اندثرت ولم يبق لها أثر متماسك سوى الحجارة التـي بنـيت بها المساكن في جارة وفي المنزل والمبعثرة في كل مكان من المديـنة مـثل منطقة بدورة ومنطقة بوشمة وغيرهما. وفي متحف قابس للعادات والتقاليد توجد نماذج من هذه الحجارة ومن القبور المتعددة الأنماط.

أمـا المسـاكن والـتجمعات السكنية التـي بنـيت في العهد العربي الإسلامي فقد شكلت على نمـط خـاص، والمسـجد والجـامع هـو الـنواة الأولى لـلقرية أو المديـنة إذ حوله(9) تبنى الدكاكين والمساكن وجميع المرافق التـي تحتاج إليها المدينة فالأسواق المخصصة للصناعات الرفيعة هــــي

(9) انظر الدراسة التـي قدمها الأستاذ البقلوطي مدير متحف العادات والتقاليد بقابس ومتفقد عام للمتاحف.

التي تكون قريبة من المسجد أما النشاطات الأخرى فتكون قرب باب المدينة وفي متناول السكان القادمين من الأرياف وهذا يتواجد في منطقة المنزل وجارة ووذرف والحامة... وبصفة عامة فإن المدينة القديمة على مر العصور هي كيان عمراني متماسك الأجزاء له حدود وله أسوار عالية وأبواب تغلق في الليل وعند حدوث الأزمات مثلما حدث لمدينة قابس القديمة عند زحف الكاهنة عليها. وتستقطب مساكن المدينة القديمة في شكل وحدات ملتصقة ببعضها البعض ومفتوحة من الداخل على وسطية "وسط الحوش" وكل المرافق التجارية والثقافية والدينية توجد في هذه

صورة من مدخل جارة الدخلانية "البلد"

الدائرة التي توجد بها الأنهج والأزقة وكثيرا ما تكون هذه الأنهج والأزقة مغطاة بسباطات تكاد تكون مظلمة أحيانا كما سنرى عند تعرضنا لمنطقة "البلد" وهي المدخل الطبيعي للمنزل (الحوش) والمكان الذي يصل من الفضاء العام أي الشارع العمومي إلى الفضاء الخاص المنزل أي (الحوش) وفي قابس يحتوي الحوش على باب خارجي عريض بجانب واحد مصنوع من خشب النخيل عادة ومسقف بحجارة تشكل قوسا حول الباب في البيوت المتطورة أو بدون قوس في الأحواش العادية. ويغلق هذا الباب بمزلاج خشبي أيضا ويدخل في حفرة بجانب الحائط ولا يمكن فتحه إلا من الداخل وأول شيء يعترضنا هي السقيفة التي تؤدي إلى مخزن الضيافة(بيت الاستقبال) والذي يمكن الدخول إليه من السقيفة أو من النهج أو الزنقة أي يمكن الدخول إليها من باب ثان دون المرور بالسقيفة تحاشيا من رؤية الحريم وحتى إن كان الدخول من السقيفة فهناك حاجز يمنع الرؤية من بالداخل. وبعد المرور من السقيفة نجد وسط المنزل، به حاويات مصنوعة من الصمار(رونية) يخزن بها الشعير والقمح لوقت الحاجة.

والمساكن على نوعين ذات طابق واحد وذات طابقين أما ذات الطابق الواحد فكل المرافق توجد بهذا الطابق أما ذات الطابقين فعادة تكون بيوت السكنى بالطابق العلوي وكذلك بيوت الراحة إلا أنها تنفذ إلى الطابق السفلي أما الحيوانات والمخازن فتكون بالطابق السفلي ويكون الصعود إلى الطابق العلوي عن طريق مدرج مبني من الحجارة المستطيلة الضخمة

وكـل الـبيوت والمخـازن مسـقفة بخشـب الـنخيل مع عصي الجريد أو القصب يمد فوقها بطريقة معاكسـة وفوقهـا طبقة من نبات البحر المسمى بالذريع ليمنع الأتربة من التسرب. ومادة البناء عـادة تكـون مـن الحجـارة وفي قـابس أغلب الحجارة على ما يبدو مجلوبة من منطقة المدينة كما أشـار إليهـا بعـض الـرحالة عـند مـرورهم بقـابس كما سنرى ذلك وقد تطور البعض من هذه المسـاكن في العهـود القريبة أي في العهد الحسيني وفي عهد الاحتلال الفرنسي مثل حوش المرحوم النجار بالصغير العاتي من العمريين(10) خليفة مطماطة.

حوش النجار بالصغيّر بالعاتي

الـذي اسـتعمل كمدرسـة ابـتدائية عـربية فرنسية في الأول وكمدرسة قرآنية فيما بعد وحوش الشاوش الحضري بن رحومة من العمريين أيضا خليفة عكارة(جرجيس) وقد تبدل شكل هذا المـنزل وهدمـت أقواسه وقسم على الورثة، وحوش العكرمي بن محمد حيدر من الجالية التركية بقـابس (خـليفة قـابس) والـذي اسـتعمل فـيما بعـد كمقـر لـلخلافة والقيادة(11) (دار القايد) ومقرا للبلدية في عهد الاستقلال.

وكـان هـؤلاء الخـلفاء الـثلاثة يـتزاحمون في بناء وتضخيم هذه الأحواش العتيقة. كذلك حـوش الشـهيد مَحمـد بـن محمـود بالسنوسي الذي تصدى للملك أحمد باشا باي وامتنع من أداء الضـرائب هـو وغـيره مـن المناضلين كما سنرى ذلك وكذلك حوش دار المؤدب بجارة وهو متطور نسـبيا وجـاء بعـد هـذه المسـاكن المذكـورة سابقا ويستعمل هذا الحوش الآن كمحضنة وروضة متطورة. وكذلك حوش خريف بالمنزل الذي يمكن أن يكون قصر العروسين السابق.

كـل هـذه المسـاكن رغـم تطورهـا فهي قد حافظت على تقاليد النمط القديم من بيت للضيافة وسقفية وصحن وأساطين تحيط بكل المنزل مركزة على أعمدة بصورة منسقة وفنية وميـزان دقيـق حتى لا يخاف عليها من السقوط والتداعي فهي متماسكة فوق بعضها بشيء من الجير أو الجبس.

---

(10) العمريين يرجعون إلى سيدي(الشيخ المؤدب الحاج عمر) المغربي دفين قابس.

(11) (القـايد هـو الوالي) يوسف الليقرو كان قد استقر بهذا المحل بعد الاحتلال الفرنسي فلقد جازته فرنسا على إعانته لها في احتلال قابس بتوليته عمالة قابس وهو أول قايد لها منذ بداية الاحتلال.

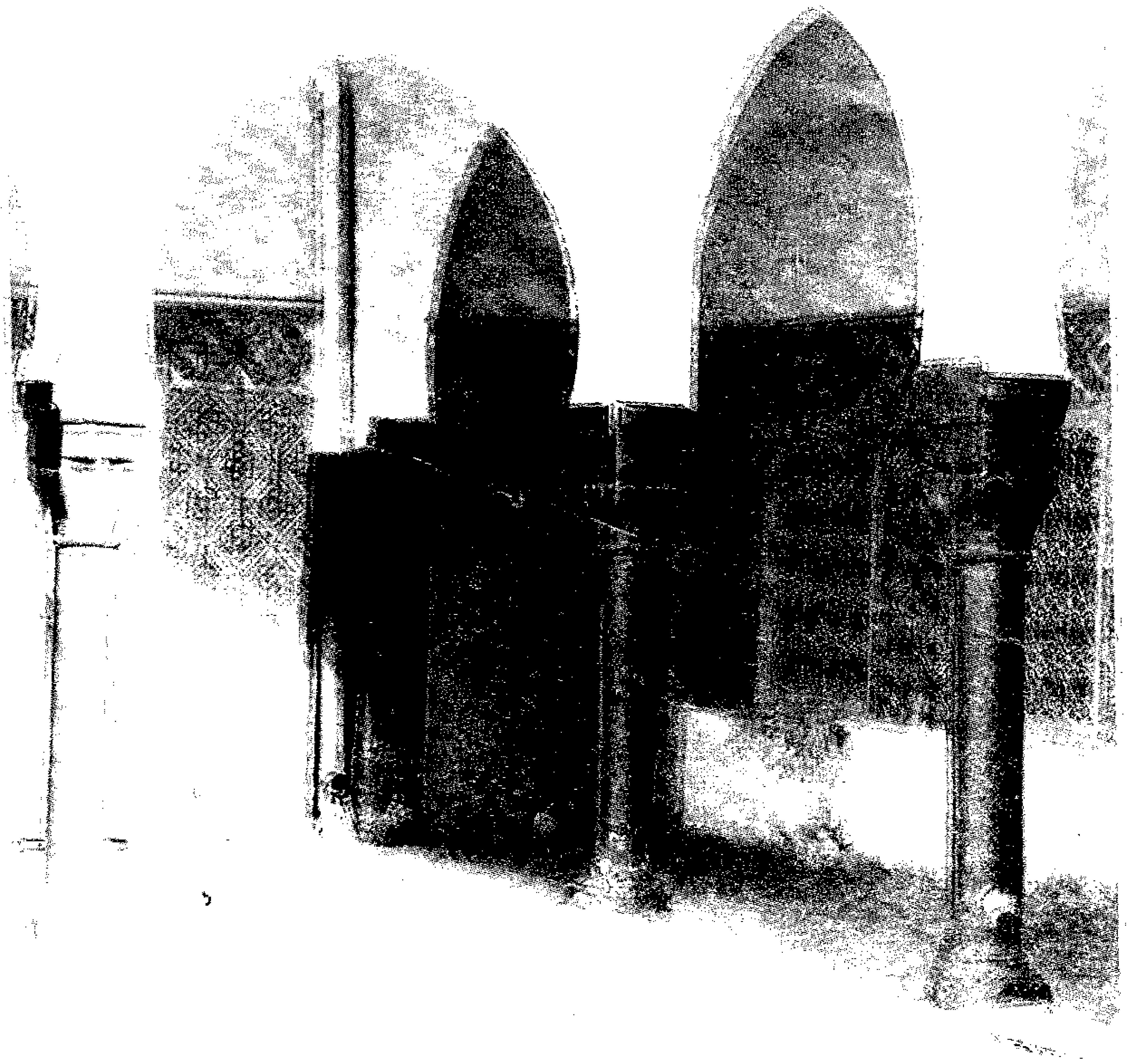

حوش العكرمي
بن محمد بن حيدر

حوش الشهيد: مَحمد بن محمود بالسنوسي

وتختص هذه البيوت بطولها وقلة عمقها أي عرضها لأنها مسقفة غالبا بخشب النخيل على العرض وللمحافظة على متانة وقوة السقف فإن عرض البيوت لا يكون كبيرا. وبالبيوت دكاكين(دكانة) مبنية أوسدة من الخشب(سرير) تعوضان الأسرة العصرية حاليا.

أما أثاث المنزل فهو بسيط، إذ كثيرا ما يكون الأكل فوق الأرض أو على موائد بسيطة أو على أحصر مصنوعة من السمار المحلي، فليس هناك خزائن مصنوعة بل هناك صناديق جميلة مزيّنة بالمسامير وملونة بالألوان الزاهية فترى المرأة حسب حالها وحال أهلها فان الصناديق تختلف في قيمتها وفي زينتها حسب ثراء وغناء العائلة.

الخلاصة أن هذا النمط من البناء له مزايا اجتماعية في تلك الفترة، فهي تحافظ على تماسك العائلة وارتباطها ببعضها فالأب هو صاحب المنزل، وهو الذي يعطي بيتا خاصا لابنه الذي يصل عمر الزواج، ويبقى مع العائلة، ويحافظ الأب على مصروف كل العائلة فحتى حاجيات زوجة ابنه هو الذي يشتريها عادة، للمحافظة على اقتصاد العائلة، ولاعتبار أن الأب هو المتصرف في شؤون عائلته.

إلا أنه بعد مرور الزمن تطور هذا الوضع، وأصبح الابن يبني بنفسه منزلا قبل الزواج ويخرج على العائلة بإرادة والده ورضاه إلى منزله المستقل لكن بمرور الزمن انفصمت الرابطة التي تربط العائلة خصوصا بوجود هذه الأنماط الجديدة من المساكن(من مساكن شعبية وعمارات وتجمعات سكنية)، إذ أصبح الجار لا يعرف جاره ولا يسلم عليه ولا يجيبه أحيانا خصوصا في المدن الكبرى كما أن الدور الذي كان يقوم به المسكن(الحوش) في السابق من فضاء تستغله العائلة في المناسبات من (أعراس وأتراح، وفضاء لتجمع العائلة، وفضاء لصناعة بعض الحرف السعفية وتجفيف الحناء والتمور وغيرها)، قد تداعى واصبح التماسك الاجتماعي والعائلي في خطر، بالرغم من أن الحياة العصرية تفرض علينا هذا النمط من الحياة، لذا فانه يجب علينا أن نوفق بين النمط القديم في البناء الذي يراعي الترابط الاجتماعي وبين ظروف الحياة العصرية التي تفرض علينا كمسلمين متضامنين إعادة التماسك الاجتماعي، إلى مساره القديم، والحرمة العائلية إلى طبيعتها السمحة، التي تحترم العائلة، وتحترم المجتمع، وتحافظ على تماسكه، كما تعيد التزاور الاجتماعي والتماسك وصلة الرحم وبذلك نكون قد وفقنا في حياتنا الاجتماعية بربط العائلة بعضها ببعض.

أما بالنسبة للمساكن فقد وجد نمط جديد من السكنى في قابس يجمع بين الحوش القديم بمساحته الواسعة ومرافقه المتعددة مع وجود قسم خاص عصري من بيوت للسكنى وحمام عصري وبيت راحة وبيت استقبال وبذلك يمكن الجمع بين القديم والجديد.

الفصل الرابع
(الحياة الاقتصادية في قابس القديمة)

كانت الحياة الاقتصادية في قابس القديمة معتمدة بالدرجة الأولى على:

1- الزراعة:

الزراعة في قابس هي الركن الأساسي في حياة المواطنين وقد ساعد على تطورها وازدهارها:

أ- توفر المياه بسبب توفر العيون والوديان رغم ندرة مياه الأمطار بصفة عامة واختلاف نزولها من سنة إلى أخرى ومن فصل إلى فصل.

ب- تربة طيبة ساعدت على تطور عنصر الزراعة في قابس وهي التي انتجت الثمار والغلال والبقول وجميع أنواع الزراعات.

ج- سواعد أهلها واستعدادهم للعمل ومعرفتهم بأصول الزراعة وبقواعد غرسها وزراعتها وفنونها وقد تطورت عبر العصور من زراعة تقليدية إلى زراعة عصرية وكانت المورد الأساسي لعيش السكان.

لقد قال المؤرخ الروماني بيلين بعدما تحدث عن خليجها ومناخها ومائها:

"وفي بساتينها نرى الزيتون يصعد في ظلال النخيل وفي ظلال الزيتون ينبت التين وفي ظلال هذا نجد أشجار الرمان وتحت هذه يعرش العنب وتحت العنب يزدهر القمح وأنواع الخضر الخ...)

وقد قال المؤرخون العرب عبر العصور عن زراعة قابس قولا كثيرا فوصفوها بالازدهار وبكثرة الأشجار والنخيل وبأنها ذات عيون جارية.

قال اليعقوبي في القرن الثالث هجري: "كثيرة الأشجار والثمار والعيون الجارية"

وقال ابن حوقل في القرن الرابع هجري"ذات عيون جارية وثمار متهدلة وفواكه رخيصة إلخ..."

ويأتي المقدسي فيقول: "كثير النخيل والأعناب والتفاح"

ويقول البكري في القرن الخامس هجري: "وفيها جميع الثمار والموز فيها كثير وهي تمير القيروان بأصناف الفواكه وبها شجر التوت الكثير"

2- التجارة:

بسبب ازدهار الفلاحة في قابس تطورت تجارتها إذ تصدر منذ العهود القديمة منتوجات الغابة إلى مناطق مختلفة من العالم فكان حريرها يصدر إلى الشرق وإلى الغرب وكانت المدن التونسية تستورد منها منتوجات الغابة وخاصة منها التمور لحلويات المقروض وقد ذكرنا أن المقدسي قال عنها انها كانت تمير القيروان بأصناف الفواكه وقال الإدريسي في باب التجارة:

"وبها من ناحية البحر سوق وباعة وحريريون كثيرون"

وكانت المحصولات تنتقل من ثغور قرطاج وبنزرت وسوسة وصفاقس وقابس(12) وتصدر الزيت والعنب والرمان والتين والخشب والخيل والغزلان...

كان ميناؤها بابا من أبواب نقل التجارة من قابس إلى غيرها من المناطق البحرية وخاصة

(12) انظر كتاب تونس عبر التاريخ لأحمد عامر صفحة 58

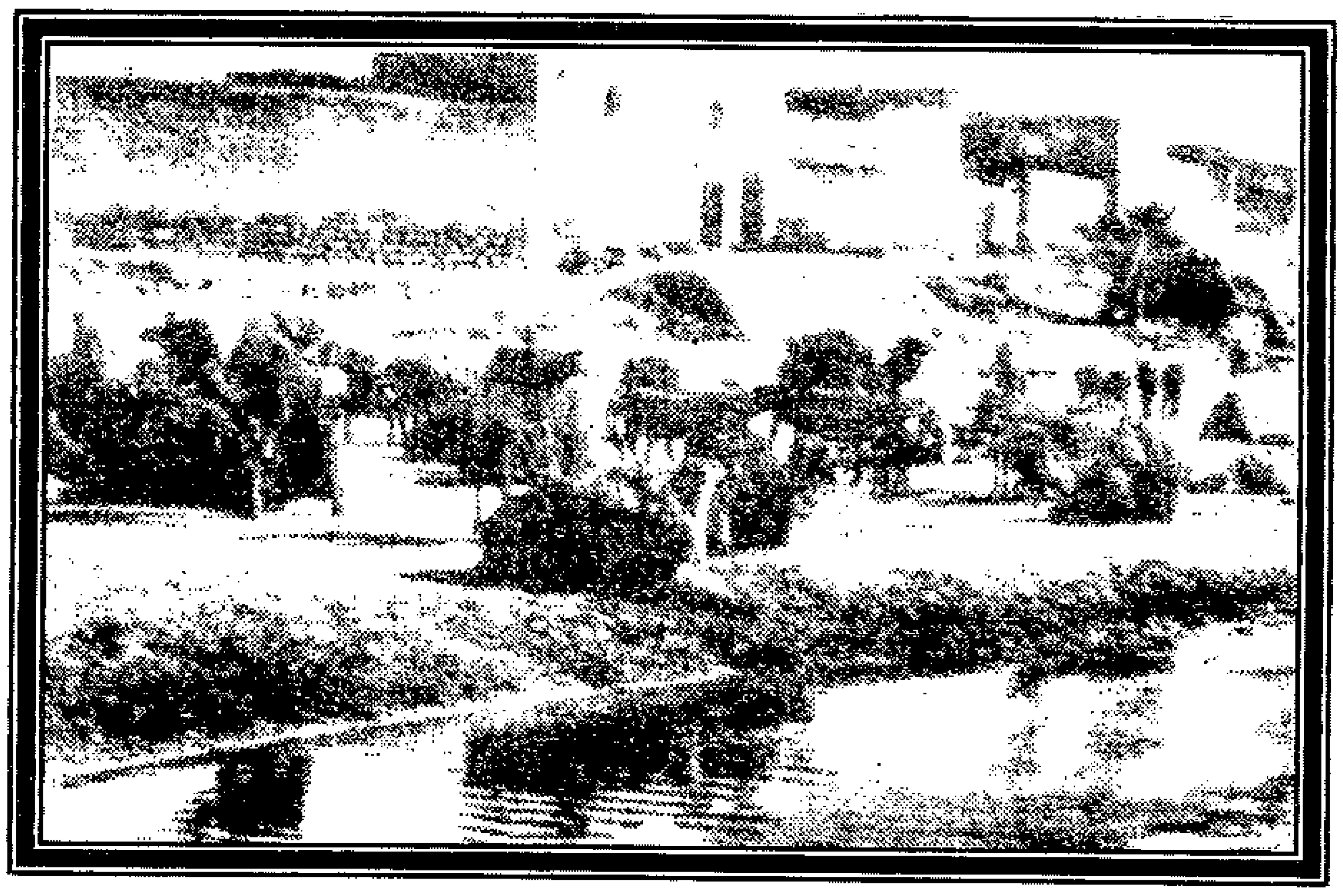

صورة من
محطة القوافل
في قابس

المناطق المجاورة من جربة إلى صفاقس إلى قرقنة. كما كانت القوافل الصحراوية تقطع الصحاري من جنوب السودان ومن مصر إلى قابس إلى عهود قريبة أي إلى الثلاثينات وقد ذكرنا ذلك سابقا. كما كانت منتوجات البحر على اختلاف أنواعها موردا من موارد العيش والتجارة لأهالي قابس. ويقول الادريسي "وبها زيتون كثير ويستعمل منه كثير يتجهز به إلى سائر النواحي". وليس من شك في أن الفتن والهجومات التي أصابت قابس عبر العصور كما سنرى كانت سببا في تعطيل إنتاجها الفلاحي وفي تعطيل تجارتها لفترة من الزمن وأثرت في اقتصادها ونشرت فيها المجاعات والأمراض أحيانا.

3- الصناعة:

لقد نشأت الصناعة منذ العهد البربري وتمثلت هذه الصناعة(في تذويب المعادن(13) وصنع الفخار والأشياء المعدنية والجلدية والخشبية ونقش الصور فوق الصخور... وتمثل تلك الصور الحيوانات التي كانوا يعبدونها ويقدسونها كالكبش والثور أو قطعان من الضباء) ولقد اكتشف في الآثار الجنائزية أواني من الطين والخزف والزجاج وأنواع من الحجارة الكريمة. أما الفنيقيون فهم أول من صنع السفن الشراعية ذات مجاذيف وكونوا مصارف ومكاتب تجارية على الموانئ التي سيطروا عليها في شمال إفريقيا وتطورت الحياة الصناعية أكثر في عهد الرومان وتمثل هذا التطور في صناعة النسيج والأواني الخزفية والبناء والنقش والنحت والزخرفة وأحداث الطرق وسط المدن وطريق من قرطاج إلى تبسة بالجزائر ومن شرشال بالجزائر إلى قرطاج تضللها الأشجار ومنها إلى طرابلس مرورا بقابس كما وقع الاهتمام بالصناعات في العهد البزنطي وفي العهد الأغلبي الاسلامي فتطورت صناعة الصابون والبارود والجليز(14) وصناعة الكاغط فأنشئت أسواق تجارية لبيع المنتوجات الصناعية وكانت العاصمة محطّ قوافل الإبل التجارية حاملة معها جميع أنواع الإنتاج من زراعية وصناعية وليس من شك في أن قابس كانت من أهم هذه المراكز وهي العاصمة الثانية بعد القيروان في العهد الأغلبي.

(13) انظر كتاب تونس عبر التاريخ للأستاذ أحمد عامر صفحة 19

(14) صناعة الجليز بقيت مزدهرة في قابس إلى الآن إذ توجد كثير من المعامل لصناعته وتطويره

البـــاب الثاني

الأدوار التاريخية بقابس

(دور ما قبل التاريخ)

حسـب الأبحاث والاكتشافات الحديثة تبين وأن منطقة قابس كانت موطنا لإنسان ما قبل الـتاريخ فالاكتشـافات الـتـي وجدت في المنطقة تثبت أن الإنسان الأول كان يعيش في هذه المناطق القريـبة مـن قـابس وهـناك مواقـع عديـدة تثبت وجود هذا الإنسان. ولو أن الدراسات لازالت في بدايـتها ولم يثبت بوضـوح الاكتشـافات التـي تدل على تاريخ وبداية هذه العهود، فما ثبت عندي لحـد الآن هـو تحديـد لـتاريخ مـا وجـد بـوادي العكـاريت هـو ما بين 40-60 ألف سنة قبل الميلاد حسـب الـبحوث الأوّليـة الـتـي قـامت بهـا بعثة الآثار المشتركة بين تونس(المعهد القومي للآثار) وفرنسـا(بـوردو). وإذا تتبعـنا هذه المناطق حسب التسلسل الزمنـي في اكتشافها فإننا نجد أن أول منطقة اكتشفت في قابس هي:

1- منطقة وذرف:

اكتشـفت هذه المنطقة من طرف(BEDE/P/) وصنفت من طرف(COURTY) 1905 أي بعـد الاحـتلال الفرنسـي لـتونس ب 14 سـنة، وأعـتقد أن هـذه المنطقة قد درست إثر بروز فكـرة تكويـن مشـروع بحـر الصـحراء الـذي يـربط الـبحر الأبيـض المتوسـط بشطوط تونس والجزائـر والـتـي ظهرت بين سنتي 1873-1876 من طرف القبطان روديير RAUDIERE وفي سـنة 1975 أعـلن بـلوتش بوجـود حجـارة السـيلاكس(الصـوان) بمختلف الأحجام في منطقة قـابس بـين(وذرف والمطويـة) وأعلن GOBERT بأن الموقع يوجد في الطريق الفلاحية المؤدية من وذرف إلى قفصة قرب الوادي من الضفة الشرقية ووقع تجميع هذه الحجارة على دفعتين. الدفعـة الأولى في 25 مـاي 1933 عـن طريق قوبير و BEDE ووجدت مع هذه الحجارة مجموعة من النقود الإسلامية ترجع إلى سنة 1152 هـ الموافق لـ 1760 م تقريبا في عهد السلطان محمود سـلطان الامـبراطورية العـثمانية(الفـترة التـي كان يحكم فيها تونس علي باي الأول ابن الحسين وهو الباي الثاني بعد مؤسس الدولة ومحمد الرشيد الباي الثالث).

أما الدفعة الثانية فقد جمعت من طــرف قوبير في نوفمبر 1951 وهي عبارة عن مجموعة من الحجارة المختلفة الأحجام.

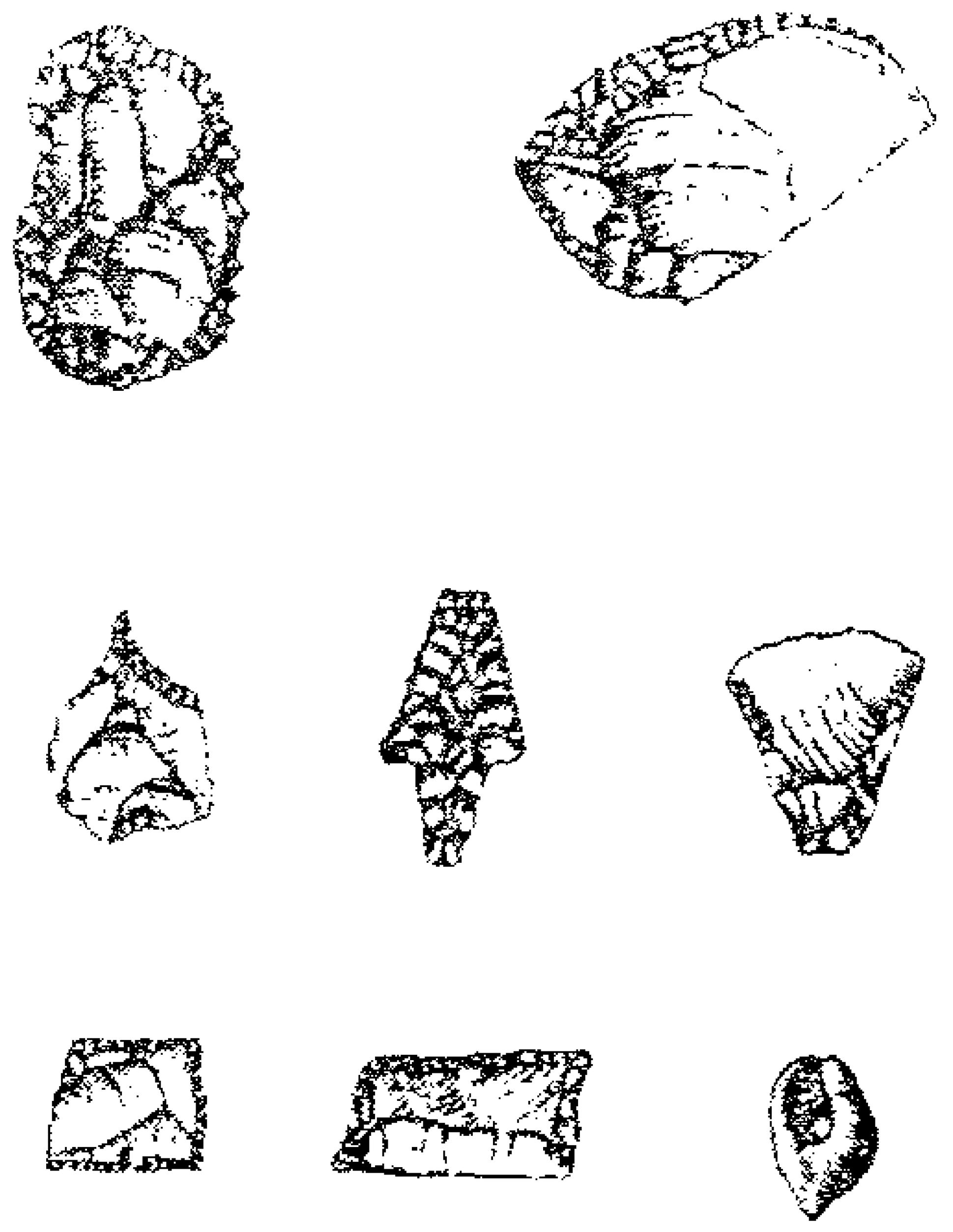

بعض الحجارة من منطقة وذرف مأخوذة من أطلس قابس ما قبل التـــاريخ

2- وادي العكاريت:

هـذه المـنطقة اكتشفت من طرف السيد سولينياك SOLIGNAC في سنة 1932 وهي تـبعد عـن قـابس ب 32 كـلم طريق تونس، والسيد سولينياك بصفته رئيس قسم الجيولوجيا الذي اهتم بهذا الموضوع في خضم الأبحاث التـي كان يقوم بها في هذا الغرض.

بعض الحجارة المكتشفة من واد العكاريت

وفي سـنة 1951 قـام السـيد قوبـير بالـتعاون مـع باحـثين أمـريكان(بـروس- وسـتيرن- شالـز) فوصـلوا في دراستهم إلى مصب وادي العكاريت، وأعيد البحث من طرف قوبير بمساعدة لابلاص في سـني 1954-1955. وفي سـنة 1967 قـام جيولوجيـون أمـريكان بالـتعاون مـع الدكـتور الســاحلي وبحثوا مقطعا على الضفّة اليمنى من الوادي ووجدوا بعض عظام حيوانات ونباتات وطبقات تربة قديمة وحجارة السيلاكس.

3- منطقة الزارات:

هـذه المنطقة توجد في المنطقة القريبة من هنشير المعمر الفرنسي تريولي حول القصر عـلى بعـد 3 كـلم مـن قرية الزارات وهي في المكان الذي يؤوي الحرس الوطني حاليا. ففي سنة 1939 اكتشـف السـيد (GRUET) نقطـتين بهذا الموقع بها مجموعة من الحجارة وجمعت في 13 ماي 1952 وحفظت في متحف باردو وهي عبارة عن 312 قطعة.

وفي سنة 1981 وقـع اكتشـاف مكـان آخـر عـلى بعـد 1 كـلم مـن هنشـير تريولي ومن ضمن المكتشفات وجود فاس صغير حجري.

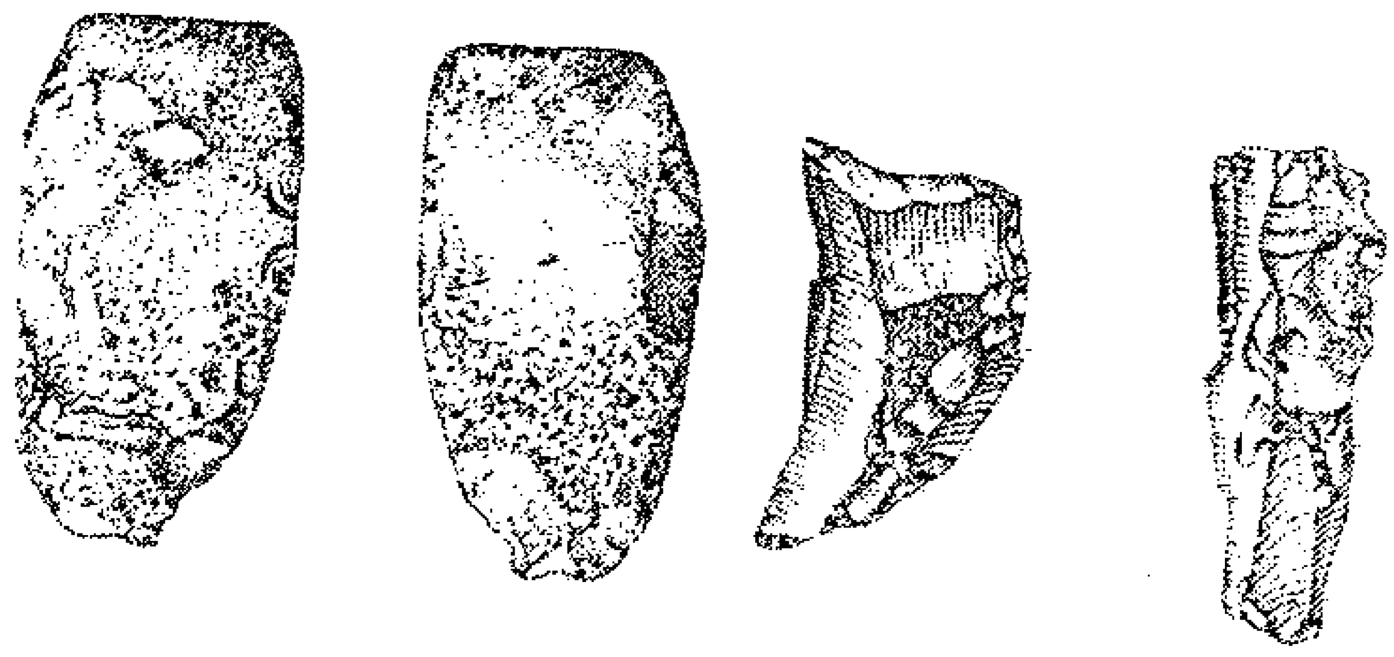

بعض الحجارة المكتشفة في منطقة الزارات

4- **منطقة مارث:**

هذه المنطقة توجد بالقرب من التمثال الذي يمثل انتصار الجنرال مونت قمري MONT GOMBRY على جيش القائد الألماني روميل.ROMEL وهي بعيدة عن قابس بـ 39 كلم في الجنوب الشرقي منها، والذي اكتشف هذه المنطقة هو السيد GRUET وGOBERT وذلك في 30 مارس 1958 .

لقد وجد في هذه المنطقة دهاليز نصف حيطانها مطلي بالإسمنت وبداخلها تربة دقيقة جدا وحجارة أودية سوداء تختلف عن الحجارة التي اكتشفت بوادي العكاريت.

5- منطقة عين عرام :

منطقة عين عرام توجد على بعد 5 كلم من مارث جنوبا، واكتشفت من طرف قوبير وباردان BARDIN وهي تقع في واحة صغيرة، وقد اكتشفت بهذه العين حجارة قرب المنبع وهي تشبه الحجارة التي وجدت بالزارات ومارث، وقد اكتشف في الأيام الأخيرة عن طريق الصدفة أي في منتصف شهر جوان 1999 (1) دهليز عميق أثناء حفر بناء منزل واعتقد أنه يرجع إلى عهود ما قبل التاريخ أيضا أو إلى الفترة البربرية ولعل الأبحاث التي سيقوم بها المختصون تحدد الحقبة التاريخية التي تمثلها وهي قرب الطريق العمومية طريق مدنين على بعد 1 كلم قرب معمل السميد والكسكسي الجديد (معمل الشابي)

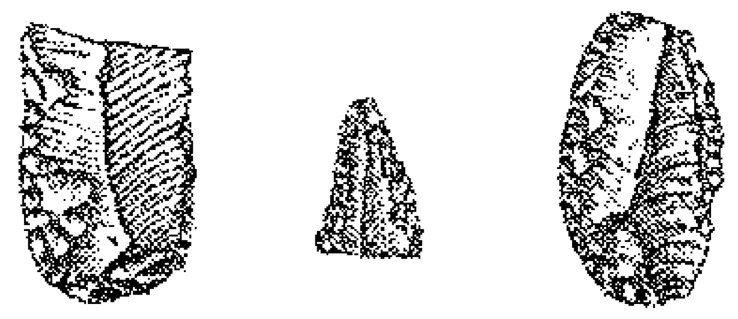

بعض الحجارة المكتشفة بعين عرّام

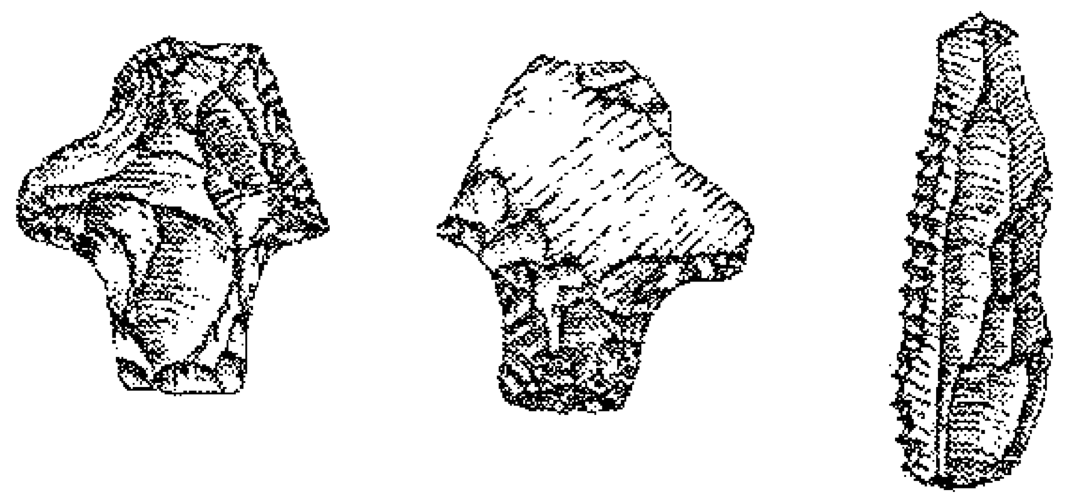

6- سهل الأعراض:

وهو السهل الذي يقع في طريق قابس مطماطة اتجاه بني زلطن وهو سهل خصب اكتشف به السيدTUSSOT أشكالا مختلفة بشكل أهرامات تارة تكون متصلة ببعضها وتارة متباعدة وبقياس 45 درجة وبارتفاع يبلغ 3م وبزوايا بين(8-10) وهذه الأهرامات مكونة من الآجر المصنوع من الجبس الجاف ومحاطة بخندق يصل عرضه إلى ما بين(10-12مترا) وتشير الدراسة التي اكتشفها TUSSOT إلى أنّ هذه الأهرامات تشبه الأهرامات التي اكتشفت في المغرب والجزائر لكن بأحجام أكبر منها.

(1) المصدر هو المسؤول عن متحف قابس للعادات والتقاليد وقد قام بالإجراءات اللازمة للاتصال بالمسؤولين في تونس (قسم الآثار لإطلاعهم على الموضوع) والقيام بالإجراءات اللازمة.

7- مقبرة سيدي أبولبابة:

هـذه القـبرة بـين ضـريح الصحابي أبي لبابة وبين المدرسة المرادية ومكتشفها هو السيد عبد الرزاق قراقب التونسي.

لقـد عـثر السـيد عـبد الـرزاق قـراقب عـلى شظية من فاس حجري وسط أكوام من الـردم واكتشـف أيضـا الكومونـدون PRIVAT حفـرة بحجم 1.9 على 0.8 بعمق 3م وجد بها بقايـا عظـام إنسان وقطعة نقدية ترجع إلى العهد النوميدي وعلى حرف D وقطعة مكعبة بها رقمـي 3 و6 وعـلى مشـرب أسـود بـرّاق وأثـناء حفـر بناء جامع التوسعة جامع البوشماوي (قبل عامين) اكتشف دهليز وقبور قديمة بها بعض الأواني المدفونة في القبور والمسماة بالآثار الجنائزية وهي الآثار الوحيدة في الوقت الحاضر التـي تمثل تلك الحقب المختلفة.

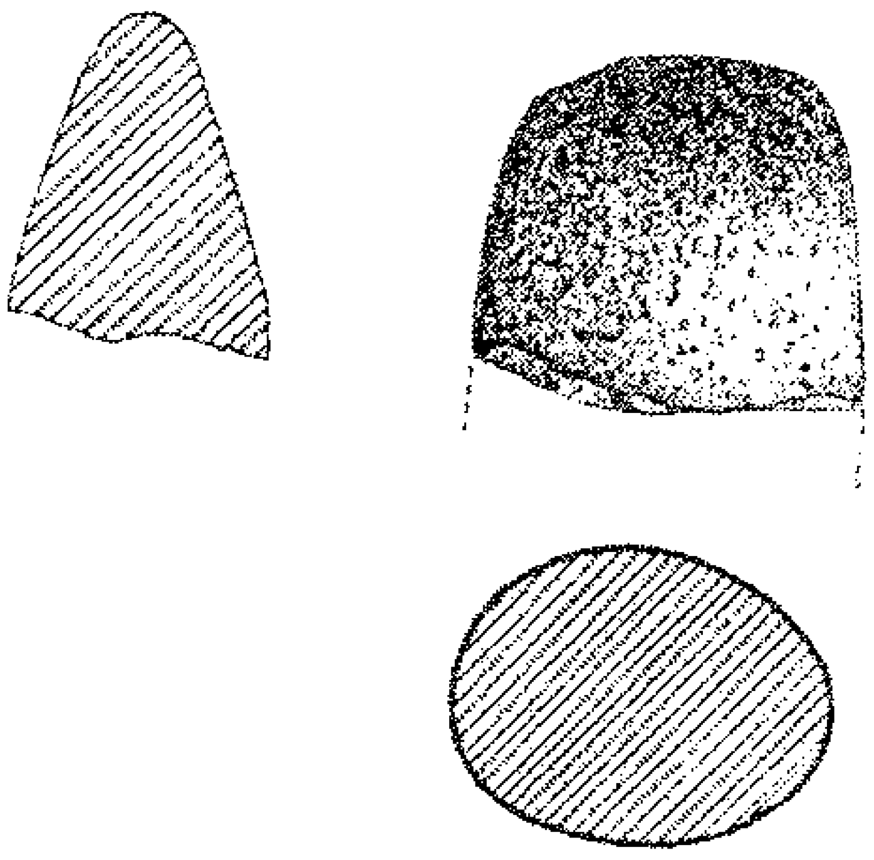

صور لبعض الآثار المكتشفة بمقبرة سيدي أبولبابة القديمة

8- المنطقة التـي تقع بين مطماطة ومارث:

هـذه المـنطقة تقـع غـرب مـارث وشمال مطماطة، ولقد اكتشف بها السيدBERNARD قطع ملساء من الخزف لماعة وقطع من النقود وسوار يدوي وخاتم وأقراط من خيط النحاس.

9- منطقة غنوش:

هـذه المحطـة اكتشـفت مـن طـرف الملازم FLEURY وهي تقع في وسط واحة غنوش على بعد 4 كلم من وذرف بجانب البحر وطول الموقع 2 كلم ومغطى بهضاب من الرمال. لقـد اكتشـف هـذا المـلازم 5000 قطعـة احـتفظ ب 2000 قطعـة مـنها ووضعها في 7 أكياس كـرتونية أرسـلها إلى جمعيـة بحـوث مـا قبل التاريخ الفرنسية هذه المنطقة تسمى حسب ما روى أحد الأساتذة من غنوش (2) بكدوة مليش.

10- منطقة رأس العيون:

تقـع هـذه المـنطقة بالقـرب مـن المطويـة كمـا يذكـر أطـلس مـا قبل التاريخ المطبوع بـتونس. لكـن الواقع أن منطقة رأس العيون لا توجد بمنطقة المطوية كما يحددها الأطلس بل هـي راجعـة إلى تـراب منطقة شننـي وهذه العيون هي التـي كانت في السابق تزود قابس ووادي قـابس (العـلوي والسـفلي) بالمـاء الصـالح للزراعة. لقد اكتشف نادايـاك NADAILLAC الابن قطع من الحجارة(SELEX) من هذا الوادي الذي هو غير بعيد عن ضريح سيدي علي البهلول

(2) المصدر هو الأستاذ الجيلاني الحطاب أستاذ رياضيات روى هذه التسمية عن كبار أهالي القرية

الواقع بشنني وحفظت هذه الحجارة من طرف قوبير في متحف الإنسان بفرنسا(MUSEE DE LHOMME) في سنة 1962

ملاحظة:

أغلب المعلومات مصدرها أطلس ما قبل التاريخ بتونس(الخاص بمنطقة قابس) إعداد جمال الزغلامي – منيرة الجربي الرياحي – عبد الرزاق قراقب- قبريال كاميس منشو ومن طرف المعهد القومي للآثار والفنون بتونس عدد 23 مؤرخ في سنة 1985 .

الدور البربري 3000 ق.م إلى 814 ق.م

لقد ذكرنا سابقا وأن سكان شمال إفريقيا وسكان قابس هم يرجعون إلى البربر القادمين من اليمن أثناء الهجرات اليمنية التي هاجرت إلى بلاد المشرق وإلى بلاد المغرب في فترات متعاقبة واستقرت بجهة قابس وكانت في البداية في التجمّعات السكنية في(قابس والحامة) بالخصوص ثمّ دفعهم الرومان إلى الجبال(جبال مطماطة) يقول صاحب كتاب علاقات الإمارة الصنهاجية بجيرانها الأستاذ مراجع عقيلة(3) الغناي وللناشر علي الخفيفي من ليبيا ببنغازي في موضوع البربر سكان المغرب.

"لما جاء العرب إلى بلاد المغرب يحملون رسالة الإسلام وجدوا أقوام البربر تعمّر جنابات البلاد وهم يشبهون العرب في سحناتهم ولباسهم وطرق معاشهم وعاداتهم وتقاليدهم".

لقد تباينت الأراء حول أصل البربر فهناك من يرجعهم إلى الجنس الاري(الهند أوروبي) أي أنهم جاؤوا من أسيا ومروا ببلاد فارس والقوقاز ثمّ مروا بأروبا شمالا ثمّ جنوبا إلى أن وصلوا شمال إفريقيا وهذه هي النظرية الأروبية الإستعمارية التي تريد إرجاع أصولهم إلى الأصول الكلتية حتى يسهل عليهم إدماجهم في الحضارة الأروبية. أما النظرية الثانية فهي ترجعهم إلى الجنس السامي هاجروا من الجزيرة العربية بسبب الجفاف وتصدع سد مأرب كما ذكرنا ذلك سابقا.

ويقول الأستاذ الباحث والمؤرخ عثمان الكعاك في عروبة المغرب في كتابه مراكز الثقافة في المغرب صفحة 6 و 7 طبعة 1958 .

"لا اعتبار لما يذهب إليه بعض العلماء الفرنسيين من أن البربر من السلت(الكلت) أي من جنس الغاليين(Les gaulois) قدماء سكان فرنسا من الباربار الجرمانيين فهذا الإدعاء سياسي لا علمي يقصد منه إدماج البربر في الفرنسيين والتفريق بين البربر والعرب من باب قسم تسد". ويقول أيضا : "فالبربرية لغة سامية شرقية والفنيقية لغة سامية شرقية وثقافة المغرب عربية وبالذات عربية إلى الأبد"

كما يقول الأستاذ محمد بن تاوريت من أصل بربري ومحمد بالصادق عفيفي في عروبة المغرب

(3)من كتاب علاقات الإمارة الصنهاجية بجيرانها للأستاذ مراجع عقيلة الغناي صفحة 14

كذلك: "فالبربر والعرب من معدن واحد(4) هو العنصر السامي إذ أن البربر في عمومهم أمة يمنيّة عاربة قحطانية قد نزحت من الجزيرة العربية إلى السودان والمغرب والأندلس وجزائر البحر المتوسط".

هذه الآراء كلها تؤكد سامية البربر وعروبتهم خصوصا وأن الاتصال بين قارة آسيا وقارة إفريقيا يكاد يكون اتصالا مباشرا إذ لا يفصلهما إلا البحر الأحمر الصغير الحجم كما تربطهم صحراء سيناء إذ لا وجود لقناة السويس آنذاك.

كما أن هناك نظرية أخرى لبعض الباحثين تذهب إلى أن "موطن السامية الأول هو شمال غربي إفريقيا في جبال الأطلس بالذات"

كان البربر يسكنون منطقة المدينة وفي المنطقة المسماة بغار الزرماطي في منطقة تبلبو إلى الجنوب وبالقرب من البحر على وادي السراق ويوجد بهذه المنطقة انخفاض أرضي يتصل بالبحر ويكوّن مرسى صغير يسمّى إلى الآن (بالمريسة) وما يدلّ على وجود البربر في هذه المناطق رغم أن المنطقة تحتاج إلى البحث وتنقيب علمي من طرف خبراء الآثار إذ توجد في مقبرة سيدي أبي لبابة حول الضريح والمدرسة المرادية والمساكن المجاورة قبور مختلفة الأطوار من البربرية إلى الفنيقية إلى الرومانية إلى الإسلامية كما لاحظنا ذلك سابقا.

وبالرغم من عدم وجود آثار واضحة لما خلفه البربر في جهة قابس إلا المغاور ومعامل عصر الزيت في مطماطة القديمة والآثار المكتشفة في القبور(أدوات زينة وأدوات أكل) فإن الذي نعرفه أن البربر في شمال إفريقيا بصفة عامة قد قدموا إلى هذه المناطق في سنة 3000 ق.م وهجموا على دلتا مصر في عهد(5) رمسيس الثاني 1250 ق.م واستوطنوها وتاجروا معها كما اتصلوا باليونان(6) وبجزيرة كريت للمتاجرة وتعلموا منهم صناعة الزيت والفخار وتكونت المراكز والمحطات التجارية بالتعاقد(7) مع الفنيقيين فتكونت مستعمرات سوسة أوتيك - بنزرت- جيجل وشرشال إلى غير ذلك من المراكز التجارية. كما تعلموا زراعة الزيتون(8) والنخيل والكروم واللوز والتين وغالب الأشجار المثمرة والصباغة وعصر الزيت.

مساكن البربر وعصر الزيت:

سكن البربر المستقرون شواطئ البلاد التونسية في مساكن بسيطة من الطين والحجر والأكواخ المتنقلة من أغصان الشجر كما سكنوا الخيام المنسوجة من الشعر والوبر أو بيوتا منحوتة في الجبال أو بيوتا مشيّدة بعضها فوق بعض يصعد إليها بمدارج مثل غرف مدنين وكذلك المساكن التي استعملت كنزل الآن بجهة مطماطة(نزل سيدي إدريس- نزل البربر...) كان البربر يسكنون بالقرب من منابع المياه ومن الأودية ومن الآبار ذات العيون الجارية وهذا متوفر في قابس(وادي قابس- منابع العيون- عين سلام- عين زريق أو عين الأمير) وعند

---

(4) انظر كتاب الأدب المغربي للأستاذين محمد بن تاويرت والصادق عفيفي صفحة 34 الطبعة الأولى ماي 1960

(5) من كتاب تونس عبر التاريخ لأحمد عامر صفحة 17 الفقرة الثانية (6) نفس المصدر ونفس المؤلف ونفس الصفحة

(7) نفس المصدر صفحة 20 (8) نفس المصدر صفحة 20

الاقتضـاء كـانوا يبنون فستقيات على وجه الأرض لجمع ماء المطر وهذه عادة أهالي مطماطة الآن وهي عادة قديمة.

أمـا لـباس الـبربر فهـو الجبّة والبرنس من صوف الحيوانات ومن وبر الإبل ولونها أسود ووبري وكـانوا يأكـلون الكسكسـي ولحـم الصـيد وكـانوا يفتخرون بذلك ويقولون: " ورثنا عن الجدود لـبس الـبرنوس وحـلق الـرؤوس وأكـل الكسـكوس"، وكـانوا قد اشتهروا بالنساجة والصباغة وتذويـب المعـادن وصـنع الفخـار والأشـياء المعدنيـة والجـلدية والخشـبية ونقـش الصـور فـوق الصـخور... وتمثل تلك الصـور الحيوانات التـي كانوا يعبدونها ويقدسونها كالكبش والثور. ومن عـاداتهم أيضـا أنهم كانوا يحبون العسل ولا يشربون الخمر ويأكلون الحلزون بعد وضعه في قشر بيض النعام مع ماء يسخنونه بأحجار حامية.

وكـانوا يطبـبون مرضـاهم بالطلاسـم والسـحريات والـرّقى وبعـض الأعشاب وكانت المرأة هي التـي تتولى ذلك في الغالب. وقد مدح عبد الرحمان ابن خلدون البربر بقوله:

"جيل عزيز على الأيام، قوم موهوب جانبهم شديد بأسهم يضاهون لأمم العالم".

كمـا وصـف أخلاقهـم بـأنهم يتنافسـون على الخلال الحميدة وما جبلوا عليه من الخلق الكـريم مـن عـز الجـوار وحمايـة الـنزيل والوفـاء بـالقول والعهد والصبر على المكاره والثبات في الشـدائد والإغضـاء عـن العيـوب والـتجافي عـن الانتقام ورحمة المسكين وبر الكبير وتوقير أهل الدين وقرى الضيف والاعانة على النوائب وعلو الهمة وإباءة الضيم ومقارعة الخطوب فلهم في ذلـك آثـار ينقـلها الخلف عن السلف ولا تزال طائفة كبيرة منهم تعيش جبال مطماطة وكذلك بعـض العـائلات انحـدرت من هذه المناطق في الأزمنة المختلفة وسكنت قابس وهي تحمل السمات والقسمات البربرية من زرقة عيون وشقرة وصفاء ناصح.

الدور الفنيقي 814 ق.م 146 ق.م

كـانت قـابس في العهـد الفـنيقي أو في العهـد القـرطاجي تابعـة لمقاطعة قرطاجة فكانت مـلوكية في بدايـة الأمـر ثـمّ جمهورية وهي أول حكومة نظامية في تونس وامتد نفوذها(9) إلى المـلكة الليـبية شـرقا وإلى مضيق جبل طارق غربا وكانت خاضعة لها جزيرة قبرص وأرخبيل اليونان وسواحل بريطانيا وجزرها وفرنسا وإسبانيا سنة 480 ق.م .

كـانت هـذه الدولـة ضـعيفة في بداية الأمر(10) ثمّ عظم شأنها بعد ذلك، واحتوت المستعمرات الـتجارية الفـنيقية القديمـة الـتي كونهـا الفـنيقيون قبل وصول عليسة وذلك حوالي سـنة 1000 ق.م والـتي ذكـرناها سـابقا في سوسـة وتونس وبنزرت وأوتيك الخ... فعظم شأنها وعمر سـلطانها شمـال الـبلاد وشـرقها ووسـطها. لقد اهتم الفنيقيون بالزراعة فغرسوا الرمان والتـين والكروم كما اعتنوا بغراسة النخيـل.

---

(9) انظر كتاب تونس عبر التاريخ لأحمد عامر صفحة 27

(10) انظركتاب تونس عبر التاريخ لأحمد عامر صفحة 27

لقد اهتم الفنيقيون بالزراعة فغرسوا الرمان والتين والكروم كما اعتنوا بغراسة النخيل وعبروا عن شدّة اهتمامهم بهذا النوع من الغراسة وهو النخيل بأن رسموه على نقودهم كما نبغ منهم علماء في الفلاحة(11) ومنهم "ماغون" الذي ألّف أول كتاب في الزراعة في العالم ترجمه الرومان فيما بعد إلى لغتهم وتحدّث هذا الكتاب على إنتاجين فلاحيين هامين وقع الاعتناء بهما في جهة قابس هما شجرتا "الزيتون والرمان" فقد تناول هذا الكتاب (الزيتونة) ووصف أمراضها وذكر وصفات لعلاجها كما تعرّض (للرّمان) الغلّة المميزة في قابس وأعطى وصفات قيّمة لحفظه إلى الفصول التي لا يوجد فيها عادة.

ولقد تعاون الفنيقيون مع البربر السكان الأصليين لتونس وبرز منهم أمراء منهم ماسينيسا ابن غولا ابن نرهفاس الذي كان أميرا على نوميديا الشرقية كما إشتهر سيفاكس الذي كان أميرا على نوميديا الغربية واشتهر من القرطاجيين حنبعل الذي قاد الحرب البونية الثانية ضدّ الرومان.

أما الآثار والمخلفات الفنيقية بقابس فكثيرة منها ما يوجد في متحف العادات والتقاليد (المدرسة المرادية) ومنها ما هو مدفون تحت الأرض ''بالمدينة'' وبغيرها من المناطق المندثرة في ولاية قابس عموما والتي تحتاج إلى التنقيب والاكتشاف وفرزها من المخلفات الرومانية والبربرية وأكثر هذه الآثار حسب ما يبدو توجد في (الآثار الجنائزية) أي داخل القبور

الدور الروماني(146 ق.م/449 م)

كانت قابس في هذه الفترة تابعة "لأفريكا" التي كانت تشمل الشمال والوسط والجنوب وازدادت أهميتها في هذه الفترة وأصبحت عندما اعتنق الرومان المسيحية "اسقافية" تابعة لكنيسة طرابلس وازدهرت فلاحتها، وكانت السلع والمحصولات التي تنتجها البلاد تصدّر إلى الخارج عن طريق ثغور قرطاج وبنزرت وسوسة وصفاقس وقابس(12) حتى أن البلاد التونسية أصبحت تسمى بـ (مطمور روما). واهتمت بغراسة الزيتون بالوسط والجنوب وصادراتها زيت الزيتون والرمان والتين والخشب والرخام والخيل والغزلان وهذا كلّه يدل على مشاركة منطقة قابس في هذا الانتاج وفي هذه الحركة التجارية.

لكن بالرغم من تطور العهد الروماني في شمال إفريقيا وفي تونس خصوصا في الميدان العلمي والثقافي من بناء جامعة ونبوغ علماء في التاريخ والجغرافيا والفنون فإن المؤرخين لم يذكروا لنا شيئا عما فعلوه في قابس سوى إشارة في كتاب تونس عبر التاريخ بان المدارس قد انتشرت في جميع أنحاء البلاد وكانت العلوم تدرس باللغة اللاتينية والحساب بعلامات وحروف وأرقام تعرف بالرومانية.

---

(11) انظر كتاب تونس عبر التاريخ لأحمد عامر صفحة 31

(12) انظر كتاب تونس عبر التاريخ للأستاذ أحمد عامر صفحة 58

وشملت الجامعة القرطاجية كليات للآداب والعلوم والحقوق والطب والفنون المستظرفة واعتمدت في تدريس الحقوق على القانون الروماني وفي الطب على التصانيف اليونانية وعلى الحشائش التي ذكرها ماغون الفنيقي في كتابه الذي ذكرناه في بداية النص.

أما البربر فقد ساءت أحوالهم وانحازوا إلى الجبال بسبب ظلم الرومان لهم وهذا ما حدث للبربر بقابس،إذ بعد إن استقرّ بعضهم في المدن أطردهم الرومان منها وانحازوا إلى جبال مطماطة واستقروا بها ولا نجد الآن في قابس من العائلات البربرية إلا من سكنها بعد الفتح العربي واستقرار الدولة الإسلامية في هذه الربوع، ويمكن أن يكونوا قد سكنوها قبل ذلك ثمّ أجبروا على الانزواء بجبال مطماطة.

لقد ثار البربر على الرومان واستقلوا ببعض المناطق واغتنموا فرصة الخلافات الدينية وانتشار المذاهب المسيحية وحاولوا التخلص من سلطة الرومان خصوصا وقد انقسمت الإمبراطورية الرومانية سنة 395 إلى غربية عاصمتها روما وشرقية عاصمتها القسطنطينية لقد استنجد الرومان بالوندال فجاءوا إلى شمال إفريقيا مساعدين للروما ن لكن استولوا على الحكم بعد ذلك لأنهم كانوا يترقبون الفرصة للهجوم على شمال إفريقيا وهذا ليس بغريب لأن ما فعله الوندال قد فعله غيرهم من الأقوام والأجناس الأخرى كما سنرى ذلك.

صورة تمثل الفترة الرومانية

الدور الوندالي(439 م 534 م) 95 سنة

اغتنم الوندال فرصة استنجاد الرومان بهم ضدّ السكان الأصليين البربر، كما اغتنموا فرصة انقسام الرومان إلى رومان غربيين بروما ورومان شرقيين في بيزنطة فسيطروا على البلاد وتغلبوا على الرومان. لقد قسمت البلاد في هذه الفترة(13) إلى ستّة مقاطعات بما فيها بلاد المغرب والجزائر.

وكانت قابس تابعة لمنطقة قرطاجة الأصلية أي منطقة نفوذ قرطاج ونظرا لعدم تقدم الونداليين من الناحية الحضارية فقد عجزوا عن الأخذ بزمام الأمور وعوض أن يواصلوا ما بناه الرومان والفنيقيون فقد قاموا بعكس ذلك فخربوا البلاد وهدموا بنيانها وبالطبع كانت قابس ضمن هذه الضحايا فالآثار المطموسة في قابس والآفلة رسومها لم تشارك الهجمات المتتالية من المغامرين في تحطيمها وتهديمها (كما سنتحدث عن ذلك فيما بعد) لكن قبل هؤلاء كان الوندال الذين أتوا على الحضارة الفنيقية والرومانية لأنه "لم تكن لهم حياة(14) اجتماعية منظمة ولا ما يعرف بالحياة البلدية، فالوندال لم يعرفوا التمدن لا اسما ولا رسما ولم يكونوا إلا مخربين لا أدب عندهم ولا فضائل ولا أخلاق". لقد ازداد نفوذ البزنطيين (الروم) في عهدهم وعين سفير للمملكة الرومانية الشرقية بقرطاج سنة(476 م) وقد عاضد الروم الوندال ضد الرومان واعترفوا باستقلالهم وسيادتهم على شمال إفريقيا وجزر البحر الأبيض المتوسط لحاجة في أنفسهم.

لم تتقدم البلاد التونسية في هذا العهد من ناحية اقتصادية فلم يكن الوندال بالفلاحين لذا فقد فرطوا في ازدهار الفلاحة فبعد أن كانت البلاد التونسية تسمى بمطمور روما تدهورت زراعتها وضعف منتوجها وذلك بسبب(15) استيلائهم على الأراضي الفلاحية وتوزيعها على الملك وأبنائه والجنود المغيرين واعتبار المالكين الأصليين لها عملة لهم يخدمون في أرضهم التي أخذت منهم ولم يستفد البربر من الوندال أية فائدة وكان عهدهم عبارة على سحابة خيّمت زمنا ما على بلادهم ثمّ زالت فلم يبق بها أثر سوى التحطيم والخراب ولقد انتشرت الأمراض والمجاعات في عهدهم كما اشتد الخلاف الديني بينهم وبين الرومان لأن الوندال كانوا يتبعون المذهب الآري نسبة إلى (أريوس) الذي يقول بالتثليث والرومان الذين ينتمون إلى المذهب الكاتوليكي وزاد هذا الصراع وهذا الخلاف في ضعف الدولة رغم محاولتهم الهجوم على الرومان بروما والاستيلاء على كنوزهم سنة(455 م)لإصلاح وضع البلاد، لكن ضعفت سلطتهم فيما بعد وانحط شأنهم وانغمسوا في الملاهي والملذات والطرب والتأنق في المأكل والمشرب والملبس

---

(13) انظر كتاب تونس عبر التاريخ لأحمد عامر صفحة 72

(14) انظر كتاب تونس عبر التاريخ لأحمد عامر صفحة 73

(15) انظر كتاب تونس عبر التاريخ لأحمد عامرصفحة 73

وتـركوا الثغرة التـي مكّنت الروم البرنطيين أنصارهم من الهجوم عليهم والاستيلاء على الحكم وكان الروم يترقبون الفرصة.
وهكذا فإن ما فعله الوندال ضدّ الرومان فعله الروم ضدّهم والتاريخ يعيد نفسه كما يقولون؟
ومن أخطر الجرائم التـي ارتكبوها بعد تغلب الروم عليهم هو تحطيمهم للحنايا الرومانية التـي كانت تنقل مياه زغوان إلى تونس على بعد 90 كلم وهي قائمة إلى الآن(وتلك آثارنا تدل علينا).

العهد البزنطي أو (الرومي) 534 /647 (113) سنة

قسـمت الدولـة في عهدهـم إلى سـتة عمـالات وكـانت قـابس ضـمن العمالـة الـثانية مع منطقة طرابلس. دام حكمهم 113 سنة.
ازدهـرت الـتجارة في عهدهم وجددت الثغور إلا أنهم خربوا ما قام به الرومان متممين بذلك ما أحدثـه الونـدال وكـانت علاقـتهم بالرومان سيئة ثمّ استقل الحاكم الرومي''جرجير'' بالسلطة واسـتوطن سـبيطلة وأصـبحت عاصـمة له وقـد هاجمهـا العرب أثناء الفتوحات واستولوا عليها رغـم تعاون جرجير مع بعض الأنصار من البربر والروم سنة(27 هـ/647 م) كانت هذه الفترة فـترة ثـورات وخصوصـا الـثورات الـبربرية ووسـم هذا العهد بعهد الانحطاط بسبب سوء الإدارة والغـلو في الديـن وانـتهى العهد البزنطي (الرومي) بتونس عموما بمجيء أول الحملات الإسلامية حيـث حـارب المسـلمون حـاكم الـروم البزنطيين(جرجير) في سبيطلة وقتلوه ثم تمكنت الحملات المتوالية من إخراج بقايا البيزنطيين من كامل البلاد التونسية.

الباب الثالث

الفصل الأول

(التاريخ الوسيط)

عهد الولاة العرب (27 هـ/184 م) (647 هـ/800 م)

يبدأ عصر الولاة بالمغرب منذ الفتح أي منذ سنة (27 هـ/647 م) وهي الفترة التي ارتبط بها تاريخ شمال إفريقيا بالعرب المسلمين إذ أصبحت بعد الفتح وبالتدريج دولة عربية إسلامية أي منذ عهد الخليفة الثالث عثمان ابن عفّان. ودامت هذه الفترة 157 سنة أي منذ (27 هـ/184 م) وعاصمة الدولة الإسلامية في هذه الحقبة "القيروان" ومؤسسها عقبة ابن نافع وتعني القيروان "محطة القافلة". وقد قسّم المغرب في هذه الفترة إلى 7 عمالات وكانت قابس ضمن العمالة الأولى وهي تشمل شرقي وشمال البلاد التونسية. وكانت قابس العاصمة الثانية بعد القيروان كما ذكر المؤرخون ذلك. تولى الحكم في هذا العهد 28 وال واحد منهم في عهد عثمان ابن عفان الخليفة الثالث و18 وال في عهد الخليفة الرابع علي ابن أبي طالب وكذلك في عهد الدولة الأموية و 9 ولاة في عهد الدولة العباسية.

حاول المسلمون خلال هذه الفترة نشر الإسلام والتأثير على السكان الأصليين وهم البربر فقد أرسلت الدولة الإسلامية الأموية إرسالية(1) من الفقهاء لتعليم البربر العربية وتحفيظهم القرآن وإرشادهم وتثقيفهم في الدين وتعليمهم الحلال والحرام ولم يذكر المؤرخون هل أن قابس كانت ضمن المناطق التي أرسلت إليها هذه البعثات وهي من المناطق البربرية المشهورة في تونس وفي شمال إفريقيا كما أن عدد أفرادها كثير. في هذه المناطق وهي العاصمة الثانية بعد القيروان كما ذكرنا ذلك، ونبغ من البربر علماء منهم عبد الرحمان ابن زياد، وقد انتشر تعليم القرآن بالمساجد والجوامع ومنهم جامع الزيتونة، وقد ظهرت حركة الخوارج وقضي عليها وكانت سياسة العرب مع الأديان الأخرى مثل المسيحية واليهودية سياسة تسامح مع دفع الجزية وكذلك مع البربر لكن لما وقعت إرتدادات وقع القضاء عليها.

وبعد القضاء على الكاهنة سنة(79 هـ/698 م) سلك العرب سياسة العطف مع البربر مما شجعهم على الدخول في الإسلام خصوصا بعد تولي "إبراهيم ابن الأغلب" ولاية القيروان

دنانات (خوابي)
لخزن التمور
والحبوب والزيوت

(1) انظر كتاب تونس عبر التاريخ لأحمد عامر صفحة 106

الدولة الأغلبية 184هـ - 800 م

لقد وافق على تكوين الدولة الأغلبية الخليفة هارون الرشيد وهي الدولة الإسلامية الأولى بتونس ودامت 112 سنة.

أما الشروط التي اشترطها الخليفة هارون الرشيد على إبراهيم ابن الأغلب فهي:

1- دفع معلوم سنوي للدولة العباسية قدرْ ب 40 ألف دينارا(600.000 مليما ذهبا)
2- التنازل على الإعانة التي كانت تقدمها مصر لولاية المغرب 100 ألف دينار(500000 مليما ذهبا)
3- المحافظة على ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطب الجمعية.
4- نقش اسم الخليفة على السكة
5- الاحتفاظ بالحكم وراثيا في عائلة بني الأغلب

وكانت عاصمة الدولة "القيروان" في بداية الأمر ثمّ انتقلت إلى "العباسية" نسبة إلى الدولة العباسية وعاصمتها بغداد ثمّ انتقلت إلى العاصمة الثالثة "رقادة" ولا تزال آثارها إلى الآن ماثلة. يقول صاحب كتاب تونس عبر التاريخ أنه ولي 11 وال أغلبيا وضمت إليها عمالتي الزاب وطرابلس وسيطرت على جزر البحر الأبيض المتوسط وغزوا إيطاليا. أما بقية التراب الجزائري فقد تكونت به دولة "بني رستم" وتكونت بالمغرب دولة "الأدارسة" رغم أن الدولة الأغلبية قد ورثت قرطاج وروما وبزنطة ونشرت حضارة العرب والتمدن الإسلامي واقرت العروبة والإسلام وأصبحت اللغة العربية هي لغة الدولة والعلم وإن الآثار الأغلبية في قابس تكاد تكون معدومة نظرا لطمسها وتهديمها وللهجومات التي ابتليت بها قابس في هذه الفترة المزدهرة في تاريخ الدولة الأغلبية عدا الرباطات التي اهتمت بها الدولة للاتصال بأجزائها المختلفة .

وهذه الرباطات بها جند مرابطون متطوعون بملازمة الرباطات وهم مسلمون تشبعت قلوبهم بمحبة الإسلام يحرسون الشواطئ ويعلّمون النّاس أمور دينهم ويعالجون المرضى ويعتنون بالمسافرين وينقلون الأخبار من رباط إلى رباط ليلا بواسطة علامات نارية ونهارا بواسطة الحمام الزاجل...

وبجانب رباطات الرجال هناك رباطات للنساء للتمريض وإعانة الجيش وإعداد المأكل والمشرب واللباس ويقمن وقت الحاجة بتلاوة القرآن والآيات الجهادية والأشعار الحماسية فأمنت الحدود وقضت على الثورات ولا يزال لقب المرابطي منتشرا في قابس المدينة وفي غنوش مما يدل على وجود الرباطات في هذه المنطقة. ومن بين هذه الرباطات "رباط أو قصر ابن عيشون" على بعد ثلاثة أميال جنوب قابس. وقصر "زجونة" الذي يبعد ثمانية أميال إلى الجنوب. ولعل القصر الأول يوجد بالقرب من منطقة شاطئ تبلبو بالقرب من وادي السراق في المكان المعروف إلى الآن بهنشير الشقاف ويعتقد أن هذا المكان كان يصدر منه العبيد إلى المناطق المختلفة كما توجد

آثار قديمة بالقرب من المنشير الذي يملكه ورثة المرحوم العروسي بن سالم وكان على ملك أحد المعمرين الفرنسين.

كما يوجد قصر سجة على بعد ثلاثة أميال من قابس غربا ولعل هذا القصر موجود بالقرب من سيدي هريش قرب منطقة "العيون" بشنني.

يقول عنه الادريسي في نزهة المشتاق : "ولها وادي يأتيها من غدير كبير وعلى هذا الغدير قصر (سجة) وبينه وبين قابس ثلاثة أميال".

لقد انتشرت الثقافة والتعليم في عهد الدولة الأغلبية عن طريق الكتاتيب والجوامع بجميع أنحاء البلاد ولا شك أن المفهوم من هذا النص أن قابس كانت من بين هذه المناطق كيف لا وهي العاصمة الثانية بعد القيروان وقد انتشرت الجوامع والمساجد في مختلف أنحاء البلاد.

ويقول أحمد عامر في كتابه تونس عبر التاريخ: "جلبوا صنوفا من التوت وغرسوها بقابس واشتد اعتناؤهم بتربية دودة الحرير هناك فانتشرت صناعة الحرير"

والمتعارف أن تربية دودة الحريركانت متواجدة منذ العهد الروماني، وحسب التواتر أنه وجد بقابس في العهد الروماني 400 معمل لصناعة الحرير وبقيت هذه الصناعة إلى عهود قريبة.

فقد حدثني المربيان الفاضلان أستاذي المرحوم عمر النائلي ومعلمي عبد الرحمان المعاوي وهما من قرية تبلبو أن مديرهما السيد نوال لازار NoEL LAZAR من كورسيكا قد أخذهما مع تلاميذ القسم في رحلة دراسية إلى المدرسة الفرنسية العربية Franco- Arabe بجارة قابس سنة 1927 فوجدوا بالمدرسة مركزا لتربية دودة الحرير.

وفي منازلنا لما كنت صغيرا كانا نربي هذه الدودة في صناديق من الكاغط أي الكردونة وحسب ما أذكر أنهم يقولون بأن هذه الدودة مجلوبة من إيطاليا وفرنسا(بعد أن كانت قابس هي موطنها).

وأن شجرة التوت الشجرة التي تعيش بها دودة الحرير هي الشجرة القابسية التي انتشرت في غاباتها وفي طرقاتها وهي الشجرة المسماة بشجرة البحر الأبيض المتوسط وكانت تمتد من قابس إلى طرابلس الغرب على طول الطريق، وجودة حرير قابس في القديم يضرب بها المثل حتى أن المرأة الشرقية في بلاد الشام كانت تشترط على زوجها أن يقدم لها الحرير من قابس وهذه الإشارة وجدت في عقود صداقاتهم ومن أهم الأحداث التي ظهرت في عهد هذه الدولة الحركة الشيعية التي تحصر الخلافة في نسل فاطمة الزهراء ابنة الرسول وزوجة الخليفة علي ابن أبي طالب بواسطة دعاتها في المشرق أولا عن طريق "أبو عبد الله الصنعاني" ثم انتقلت إلى المغرب واعتنقتها قبيلة "كتامة البربرية" وسرعان ما تركزت وهجمت على الدولة الأغلبية وسيطرت على البلاد وتكونت الدولة العبيدية وتسلم عبد الله المهدي "الحكم بالقيروان".

الدولة العبيدية أو الفاطمية
(297 هـ/362 هـ) (909 م/973 م)

دامت الدولة العبيدية 65 سنة وهي الدولة الإسلامية الثانية بتونس ، ولقد أطلق على حكامها لقب "خليفة" وكذلك أمير "المؤمنين" وذكر أسماء الخلفاء في الخطب الجمعية ونقش اسمهم على السّكة. استمرت "القيروان" عاصمة الدولة لمدة إحدى عشر سنة ورقادة مقرا للخليفة، ثمّ تحولت إلى العاصمة الثانية "المهدية" ثم إلى "المنصورية" .

لقد اتسع نفوذ هذه الدولة فشمل كل دول المغرب العربي بعد سقوط دولة "بني رستم" بالجزائر "والادارسة" بالمغرب، كما شملت طرابلس وجزر البحر الأبيض المتوسط وكذلك برقة ومصر بعد ذلك. معنى ذلك أن الدولة العبيدية قد شملت قابس ومع الأسف الشديد أنه لم يبق لنا أثر من إنجازاتها سوى ألقاب بعض العائلات المنتشرة في قابس وقراها من تبلبو والمنارة... وكذلك بعض العادات المتناقضة من سنية إلى شيعية ومنها(2) الاحتفال بعاشوراء على الطريقة الشيعية الحزينة أو على طريق أهل السنة التي لا تعبّر عن الحزن. لقد تجرأ دعاة هذه الدولة في عهد الخليفة "أبي القاسم محمد" إلى لعن الصحابة لإثارة غضب أهل السّنّة وحدثت ثورة صاحب الحمار "أبي يزيد مخلد ابن كيداد" هذه الثورة كانت تعبر عن غضب أهل السّنة وتعتبر الشيعة كفارا حتى أنه لقّب "بشيخ المؤمنين" إلا أن العبيديين تمكنوا من القضاء على هذه الحركة وأطرد صاحب الحمار إلى الجنوب التونسي وأخذ أسيرا بعد ذلك إلى المهدية وتوفي متأثرا بجراحه في 30 محرم (336 هـ/949 م). لقد تعززت الدولة العبيدية بانضمام قبيلة كُتامة البربرية إليها وحاولت إصلاح الوضع وتقوية ميزانية الدولة وبنت مدينة "المنصورة" علامة على الانتصار على صاحب الحمار. إلا أن ثورة أخرى حدثت بصقلية ضد الدولة فاضطر الخليفة المنصور بالله "أبو طاهر إسماعيل" إلى التنازل عن سلطته في هذه المنطقة للقائد "الحسن ابن علي الكلبي" فتكونت دولة الكلبيين المسلمة التي دامت قرنا كاملا وكان حكيما في اتخاذه هذا القرار لأنه لا يستطيع مقاومة هذه الدولة نظرا لضعف دولته ولبعد المنطقة الثائرة عن مركز الحكم، كما أن الاتصال بها لا يكون إلا عن طريق البحر. إلا أن الدولة قد تعزز جانبها بعد ذلك بانضمام بطلين هامين إليها وهما القائدان:

1- بلكين ابن زيري ابن مناد الصنهاجي وهو بربري
2- وكذلك بجوهر الصقلي من صقلية التابعة للبلاد الإسلامية والذي تمكن من فتح مصر في عهد كافور الإخشيدي بعد استعداد الدولة وتنظيم الجيش وحفر الآبار على الطريق المؤدية إلى مصر وادخار الحبوب والعلف وإعداد الملابس والأموال الكافية للجند وذلك سنة(358 هـ/958 م).

---

(2) يطبخ الفول في قابس بمناسبة عاشوراء وهي أكلة متقشفة لكن يسلق البيض ويلون كما يعد اللحم ولا يتم كنس المنازل وتنظيفها في يوم عاشوراء ويوم 11 منه كما يطوف الأطفال بشمعة مشتعلة موضوعة في عصا وهي علامة على حرق أذن الحسين رضي الله عنه (أي شماتة بالشيعة) لكن أعتقد أن الأطفال كانوا يقومون بهذا العمل دون معرفتهم بالسبب وإعداد الفول هو علامة عن حزن بينما تلوين البيض وإعداد اللحوم عادة غير محزنة لذا فهي عادات متناقضة يقومون بها دون معرفة وعن جهل.

الدولة الصنهاجية

(362هـ-555 هـ/973 م-1160 م)

بعد تغلب الدولة العبيدية على كافور الإخشيدي انتقل المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر واختط مدينة القاهرة وجامع الأزهر لأنه قد حمل معه من الأموال ما قدره بعض المؤرخين (بألف حمل من الذهب). واستخلف على بلاد المغرب المعز لدين الله بلكين ابن زيري ابن مناد الصنهاجي وهو القائد الذي ساعد الدولة العبيدية مع جوهر الصقلي.

اعتبر عهد العبيديين في تونس عهدا ذهبيا بالنسبة للجيش التونسي كما تكون أسطول عتيد(أكثر من 300 سفينة) كما أسست فاطمة الفهرية القيروانية "جامعة القرويين" بفاس بالمغرب الأقصى. لكن لم يترك الصنهاجيون بقابس إلا بعض الأراضي التي تسمى إلى الآن باسمهم (الصنهاجية) قرب معمل الإسمنت حاليا وبعض العائلات التي تحمل هذا اللقب في شنني وتبلبو والزركين مثل دار المير، دار الحمروني، دار عزيز ودار قويدر...

ولعل التنقيبات التي نتمنى أن تقوم بها وزارة الشؤون الثقافية أن تعثر لنا لا على آثار الصنهاجيين فقط بل على ما خلفه قدماء قابس من أعمال وإنجازات عبر تاريخنا الطويل. ومن العادات التي حاول الشيعة الدعوة إليها في عهد الدولة الصنهاجية في تونس وفي قابس هو:

1- إلغاء عبارة "الصلاة خير من النوم" من آذان صلاة الصبح
2- زيادة عبارة "حيا على خير العمل من الآذان"
3- إبطال صلاة التراويح
4- زيادة تكبيرة خامسة في صلاة الجنازة
5- تنظيم الاحتفال بصلاة الجمعة وبالأعياد والمواسم
6- اعتبار يوم عاشوراء يوم حزن تعطل فيه الأسواق وتنشد الأناشيد الحزنة

إلا أن كل هذه المحاولات قد فشلت في قابس في الأغلبية منها إلا أن أنها تركت عادات متناقضة كما ذكرنا ذلك فبالنسبة لعبارة حيا على العمل في الآذان هي مفقودة من الآذان بقابس وأما صلاة التراويح فلم تبطل وهي جاري بها العمل إلى الآن بل بالعكس يشارك فيها عدد كبير من القادرين عليها، وتكبيرات الصلاة على الجنازة أربعة فقط لا خمسة كما أرادوها

أما الاحتفال بيوم الجمعة وبغيره من الأعياد والمواسم فهو جار به العمل وتعطل الإدارة الرسمية في الأعياد (قبل الحماية الفرنسية كانت العطلة الأسبوعية الرسمية يوم الجمعة وبعد الحماية وإلى الآن يوم الأحد) وبالنسبة ليوم عاشوراء كما ذكرت فيه عادات متناقضة فيها المقصود منه الحزن وبدون قصد وفيها التعبير عن الفرح وبدون قصد أيضا حيث أن بعض الأطفال في السابق الذين كانوا يحملون قطعة الشحم مشتعلة لا يعرفون انهم يحملون أذن أو رأس الحسين رضي الله عنه مشتعلة وهي بالطبع عادة سيئة ضدّ جماعة الشيعة وشماتة بهم.

الدولة الصنهاجية هي الدولة التونسية الثالثة التي استقلت بالسلطة ودامت 181

عاما منها 78 عاما تابعة للفاطميين بمصر "العبيديين" والبقية تابعة للدولة العباسية ببغداد. إلا أن هناك فترة دامت 11 سنة (من 544 هـ إلى 555 هـ) كانت تحت حكم أمراء الطوائف والنّورمان. كانت عاصمة الدولة الصنهاجية القيروان لمدة 86 سنة ثم انتقلت إلى المهدية وشمل نفوذها كامل بلاد المغرب وطرابلس وجزر البحر الأبيض المتوسط. إلا أن الدولة قد ضعفت فيما بعد فخرجت عنها منطقة قسنطينة وأسست بها دولة بني حماد وهم من الصنهاجيين أيضا وعاصمتهم قلعة بني حماد ثم خرج عنهم بلاد المغرب وجزء من الجزائر فتكونت دولة المرابطين والتي تكونت بعدها دولة الموحدين كما سنرى(514 هـ/1120 م) ثم خرجت عنهم صقلية إذ استولى عليها النورمان ورغم ازدهار الدولة في عهد الأمراء الثلاث الأول وهم بلكين ابن زيري(مؤسس الدولة) وابنه المنصور وحفيده باديس ابن المنصور فإن الدولة قد دخلت بعدهم في إضطرابات وقلق دامت 108 سنوات وأهم هذه الاضطرابات هو الصراع بين المالكية والشيعية مما اضطر المعز ابن باديس الأمير الرابع إلى مجاراة المالكية والانحياز إليهم وخلع طاعته من الدولة الفاطمية بمصر ودعا إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله وذكر اسمه في الخطب الجمعية وضربت السكة باسمه وألغي المذهب الحنفي ودعا الناس إلى اتباع المذهب المالكي .

ونتيجة لذلك أرسل القائم بأمر الله العباسي الخليفة تقليدا يعترف فيه باستقلال المعز وسيادة الصنهاجيين على المنطقة لكن نتيجة لهذا التحول في سياسة الصنهاجيين واتباعهم الخلافة العباسية وخلعهم طاعة الفاطميين بمصر كان كلّ ذلك سببا في إرسال الفاطميين جيشا من صعيد مصر من "بني سليم وزغبة ورياح" للانتقام منهم وسميت هذه الزحفة بالزحفة الهلالية وكان عددهم 400 ألف بعائلاتهم، وكانوا موصوفين بالقوة والشدة فاستولوا على برقة وطرابلس ثم تونس.

لقد وقعت بين الطرفين معركة شديدة قرب قابس هذه المعركة سمّيت"بمعركة الهلاليين" أو "مندبة الهلالية" وهي تقع بالقرب من منطقة المطوية بين وادي العكاريت ووذرف وقد ذكرنا ذلك سابقا.

لقد وصل الزحف الهلالي إلى القيروان واستولوا عليها بسبب خذلان قبيلة "زناتة" للصنهاجيين فانتقلوا إلى المهدية(448 هـ/1056 م) وأصبحت عاصمتهم واكتفوا بالسيطرة على المنطقة الساحلية ثم إنه بتولي تميم ابن المعز الإمارة ضعفت الدولة وهجم عليهم النصارى من جنوة بأسطولهم الفخم الذي يعد 30 ألف جندي فلم يفارق المكان إلا بعد دفع جزية من طرف الصنهاجيين تقدر بمائة ألف دينار.

لقد اغتنم النورمان فرصة ضعف الصنهاجيين وهجوم الهلاليين عليهم خصوصا وقد انضم "جورج الأنطاكي" إلى حاكم صقلية وكان مطلعا على أسرار الدولة الصنهاجية لأنه كان يعمل بالإدارة الصنهاجية ومكلفا بماليتها في السابق في عهد تميم ابن المعز ابن باديس، إذ لما تخوف على وضعه السياسي بعد وفاة تميم وتولى ابنه يحي ابن تميم أرسل إلى روجار حاكم صقلية يطلعه على رغبته في الالتحاق به فأرسل إليه سفينة فرّ عليها بزيّ بحّار، وكان المسلمون

منشغلون في صلاة الجمعة.

لقد حاول هذا القائد مساعدة حاكم صقلية فهجم على الصنهاجيين لكنه رُدّ على أعقابه وتمكن النورمان بعد ذلك من السيطرة على طرابلس وعلى جزيرة جربة وقابس(3) وقرقنة وصفاقس وسوسة ولم يبق تحت تصرف الصنهاجيين سوى المهدية العاصمة وأحوازها.

لقد شجّع هذا الانتصار النورمان على مواصلة زحفهم على بقية مناطق نفوذ الصنهاجيين وفر آخر أمير لهم الحسن ابن علي إلى المغرب الأقصى سنة(543 هـ/1148 م) وبذلك سقطت الدولة الصنهاجية واستولى عليها النورمان لمدة 11 سنة إلا أن سيطرتهم كانت على الساحل فقط وتكونت دويلات صغيرة أخرى.

1- بنو خراسان على تونس وهم من أصل فارسي
2- بنو برغواطة على صفاقس
3- بنو هلال على طبرقة
4- بنو الورد اللخمي على بنزرت
5- بنو الرند على قفصة
6- بنو يملول على توزر
7- بنو جامع على قابس
8- بنو حماد على زغوان

لقد أصيب الصنهاجيون أثناء حكمهم بهذه المنطقة بمصيبتين كانتا سببا في سقوطهم:

1- هجوم بني هلال عليهم
2- هجوم النورمان والسيطرة على البلاد

هاتان الحادثتان كانتا سببا في سقوطهم واندحارهم بالإضافة إلى الصراع الذي حدث بين الشيعة وأهل السنة الذي لم يبق له أثر في حياة السكان في الوقت الحاضر وهي ميزة تميز كل سكان شمال إفريقيا فكلهم مسلمون يتبعون المذهب السني غالبيتهم من المالكية وبعضهم حنفي من بقايا (السكان الأتراك) الذين استقروا بالبلاد أثناء سيطرة الامبراطورية العثمانية على البلاد العربية.

الدور الموحدي

(555هـ-626 هـ) (1160م-1229 م)

تأسست هذه الدولة في المغرب الأقصى من دعاة مذهب التوحيد وعاصمتها مراكش، وتأسست الدعوة إليها منذ سنة 514 هـ ومؤسس الدعوة هو "محمد ابن تومرت الملقب بالمهدي" من قبيلة المصامدة البربرية ثمّ جاء بعده عبد المؤمن ابن علي الكومي من قبيلة زناتة البربرية، وفي عهدهم التحق بالمغرب "الحسن ابن علي" آخر أمير للدولة الصنهاجية بتونس

(3) تونس عبر التاريخ لأحمد عامر صفحة 160

هروبا من النورمان مستنجدا بالدولة الموحدية ضدّ بني هلال الذين زحفوا على البلاد التونسية. فما كان من عبد المؤمن ابن علي إلا أن سير جيشا قاده بنفسه وسير أسطولا بحريا متجها لتونس فطرد الخراسانيين من تونس ثم استولى على المهدية وأطرد النورمان بعد حصار دام ستة أشهرسنة(555 هـ) الموافق لـ(21 جانفي 1160 م)، وبذلك أصبحت تونس في يد الموحدين وتسمى هذه السنة بسنة الأخماس والتي كان لها تأثير على تاريخ المغرب العربي إذ توحّد وأصبحت طرابلس وبرقة جزء من هذا المغرب الموحد وحدثت في هذا العهد ثورتان هامتان كان لإحداها تأثير كبير على جهة قابس وهاتان الثورتان هما.

1- ثورة ابن الرند بالجريد وقفصة وهم الذين استقلوا بها.
2- ثورة يحيى ابن أبي إسحاق الميورقي سنة 581 هـ الذي استولى على طرابلس وعلى جهات من تونس ومنها قابس وعلى جهات من الجزائر واستقل بها إلى أن انهزم في سنة(602 هـ) وسنتحدث عن ذلك في الإبان ضمن الأحداث التاريخية الهامة بقابس.

لقد تمكن الموحدون بواسطة جيشهم من :

1- تكوين امبراطورية إسلامية موحدة من الأندلس إلى برقة بما فيها المغرب الأقصى والجزائر وتونس وطرابلس
2- إعادة الموحدين لتونس أمنها واستقرارها
3- أوقف الأسطول الموحدي إعتداءات النورمان المغيرين على المنطقة
4- ازدهرت الفلاحة والثقافة في عهد هذه الدولة وأسست المدارس وخصص لطلبة العلم وللفقهاء جرايات ونبغ فلاسفة وعلماء منهم "ابن زُهر وابن طفيل وابن رشد" وبالنسبة لقابس لم يذكر لنا المؤرخون ما خلف الموحدون رغم ازدهار المنطقة بصفة عامة.

الدولة الحفصية بتونس

(626هـ–981 هـ) (1228م- 1574 م)

الدولة الحفصية هي الدولة الإسلامية التونسية الرابعة ودامت أكثر من ثلاثة قرون ونصف أي 355 سنة مؤسسها هو "أبو زكرياء يحي الحفصي" وجدّه "أبو حفص" هو الذي ساعد الموحدين وساعد "عبد المؤمن ابن علي الكومي" على تأسيس دولتهم التي ضمت ووحدت بلاد المغرب العربي من برقة إلى الأندلس. وكان والد أبو حفص "أبو محمد ابن عبد الواحد" وزيرا للخليفة الموحدي "الناصر محمد يعقوب" وهو الذي عيّنه واليا على تونس سنة (603 هـ) أي قبل تأسيس دولتهم وانفصالهم عن الموحدين ب 23 سنة وهم أبناء عم الموحدين إذ يرجعون إلى قبيلة المصامدة البربرية.

تولى الحفصيون في بداية الأمر ولاية تونس باسم الدولة الموحّدية فبعد أبي محمد ابن عبد الواحد الوالي الأول بتونس تولى ابنه عبد الرحمان ثم أخوه إدريس ثم عبد الله عبو ثم

زكرياء يحي الحفصي وهذا الأخير هو الذي استقل بالسلطة عن الموحدين سنة(626 هـ/1228 م) وكان قد تولى ولاية قابس قبل ذلك وفي عهده بني جامع سيدي إدريس بقابس على ما افترض باسم حاكم تونس الثالث إدريس الحفصي وسوف نتحدث عنه عندما نتعرض إلى المعالم القديمة بقابس.

لقد شمل نفوذ الدولة الحفصية البلاد التونسية وطرابلس وبرقة وبعض من بلاد الجزائر. كانت الدولة في أول أمرها قوية وعهدها عهد ازدهار خصوصا في عهد مؤسسها أبي زكرياء الحفصي الذي دام حكمه 21 سنة وكذلك في عهد ابنه "عبد الرحمان المستنصر بالله" الذي دام حكمه 28 سنة.

لقد عظم شأن الحفصيين بقابس وسيطروا عليها بصورة مباشرة وكان واليها زكرياء يحي الحفصي حازما واهتم ببناء الجوامع ومنها كما ذكرنا جامع سيدي إدريس وكان يعلم القرآن وتولى الاشراف عليه بعض المغاربة، ويذكر السيد التهامي الطرابلسي من المسنين " في البلد" أن هناك مغربيا كان يقيم ببيت بالجامع ويقوم بتنظيفه ويضع البخور فيه.

لقد ازداد نفوذ الحفصيين وعظم شأنهم بعد انقراض الدولة العباسية ببغداد سنة (656 هـ/1258م) ولقب أميرهم "بأمير المؤمنين" وكان عهدهم " عهد تونس الذهبي" كما يذكر المؤرخون ذلك، لكن ضعفت الدولة منذ أواخر القرن التاسع هجري فعمت فيها الحركة الصوفية وانتشرت الزوايا والطرق ومرّت بأحداث هامة بعضها دار بمنطقة قابس منها.

1- ظهور الثائر الميورقي الملقب "بابن غانية" وقضى عليه أبو زكرياء في "ورغلة" بالجزائر سنة "613 هـ" وأجار أبو زكرياء بناته الثلاث وأسكنهم في مسكن قريب من شارع سمي (بباب البنات) باسمهن ولا زال هذا الباب يحمل اسمهن في تونس.

2- هجرة بعض الأندلسيين لتونس وبنزرت بعد طردهم من قبل الاسبان وكان تأثيرهم العلمي والصناعي والحرفي كبير فبدلوا وجه تونس الذي تأثر قبل ذلك بالزحف الهلالي وهجومات النورمان وكان ذلك في عهد أبي زكرياء.

3- قيام ملك فرنسا سان لوي(Saint Louis) التاسع بحملته الصليبية على تونس فقد نزل بجيش عتاده أربعين ألف مقاتل إلا أنهم هزموا شرّ هزيمة وأصابهم الوباء وبعد أربعة شهور ارتحل الباقون ودفعوا للدولة الحفصية غرامة مالية وذلك سنة (668 هـ/ 1270 م) في عهد المستنصر بالله عبد الرحمان

4- هجوم أبي الحسن المريني من المغرب على البلاد في القرن الثامن للهجرة أي سنة (748 هـ/1352 م) فقضوا على أبي حفص الثاني واحتلوا العاصمة إلا أن مدتهم لم تطل وأجبروا على الفرار ودولة بني مرين كانت لها علاقات مع دولة (بني مكي) في قابس التي سنذكرها فيما بعد.

5- هجوم جماعة من الصلبيين من أهالي جنوة والبندقية على المهدية قضى عليهم "أبو العباس أحمد" الأمير السادس عشر في القرن الثامن هجري (772 هـ/796هـ).

6- هجوم قوات عثمانية في القرن العاشر للهجرة (935 هـ/1527 م) على الحفصيين بقيادة "خير الدين بربروس" واستولى على بنزرت وحلق الواد ثمّ على تونس إلا أن الأمير الحفصي الحسن ابن أبي عبد الله استنجد بالإسبان وكانوا يترقبون تلك الفرصة فأنجدوه بقيادة شارل الخامس وتغلبوا على الأتراك.

7- احتلال الإسبان لتونس بعد شعورهم بضعف الدولة الحفصية وكانوا يتحينون الفرص للانقضاض عليها وقد تمكنوا من ذلك بعد الاستنجاد بهم من طرف الأمير الحسن وفرضوا حمايتهم على البلاد التونسية وعقدوا معاهدة في شهر صفر 942 هـ الموافق لـ 16 أوت 1535 وبذلك شارك الاسبان السلطة مع الحفصيين وقد تنازلوا لهم عن حلق الواد وبنزرت وعنابة ودفعوا غرامة تقدر ب 120 الف فرنك ذهبا.

ولما تركزت أقدامهم احتلوا بعد ذلك سوسة والمنستير والمهدية وصفاقس وجربة وطرابلس ومن الغريب أن الاسبان لم يحتلوا قابس ضمن هذا الاحتلال مع أن القوات البحرية الاسبانية قد مرّت من صفاقس إلى جربة وإلى طرابلس وقابس في طريقها ولم تفكر فيها هل أن ذلك كان لقوّتها ولخوفهم منها أم لضعفها ولعدم أهميتها لا أدري؟...

لقد ثار السكان في تونس على أميرهم الحسن وسملوا عينيه وفرّ من البلاد وهو أعمى وكثرت الخلافات بعده إذ تولى بعده ابنه "أبو العباس الثاني" (الأمير قبل الأخير من الفترة الحفصية) وتطاول الاسبان عليه وعلى تونس ووصل بهم الأمر إلى ربط خيولهم بجامع الزيتونة لكن رجع العثمانيون بعد ذلك بقيادة "علي باشا" فاستنجد الأمير الابن مرّة أخرى بالاسبان وسبحان الله وكأن المسيحيين أصبحوا يدافعون عن المسلمين ضدّ المسلمين إنها لفترة ضعف ابتليت بها الدولة فأصبح المسلم يستنجد بالمسيحي ضدّ أخيه المسلم لكن الاسبان اشترطوا هذه المرّة على الأمير.

1- الاشتراك في الحكم

2- فرض جباية على الدولة الحفصية تدفعها لإسبانيا.

لكنّ الأمير أبو العباس رفض هذه الشروط وارتحل إلى صقلية وتولى بعده أخوه "محمد بن الحسن" (981هـ) ورضي بالشروط الاسبانية المطلوبة وتمكن الاسبان من التغلب على الأتراك وردّ هجومهم، لكن رجع الأتراك مرة أخرى بقيادة سنان باشا وزير السلطان "سليم الثاني وتغلبوا على الاسبان وعلى الحفصيين واحتلوا البلاد وبذلك حكمت تركيا البلاد التونسية باسم الامبراطورية العثمانيةالإسلامية سنة (1574 م).

انتهاء حكم الحفصيين في تونس:

في الواقع أن القضاء على الدولة الحفصية كان نتيجة الخلافات على السلطة بين الأمراء الحفصيين، هذه الخلافات أدت إلى هجوم المغامرين عليهم أمثال أبي الحسن المريني وأهل جنوة والبندقية والملك سان لوي التاسع إلى غير ذلك من المهاجمين والطامعين لكن مع الضعف الذي أصبحت عليه الدولة والاحتلال الأجنبي الذي ابتليت به فإن الأمراء الأولين كانوا قد قاموا بواجبهم، وازدهرت الحياة الاجتماعية وأينعت الحضارة(5) خصوصا في عهد العشرين الأول من الأمراء أي لمدّة 240 سنة المتراوحة بين (626 هـ-866هـ).

لقد انتشر العدل ونمت الثروة وتألقوا في المباني والمراكب والملابس والماعون الفاخر وارتفع مستوى البلاد في جميع النواحي كما اهتموا بالفلاحة وبناء البساتين ولعل ساحة عنبر التي اشتهرت في قابس قد ازدهرت في عهدهم لأن الشعراء والمؤرخين والرحالة الذين ذكروها كانوا يمثلون تلك الفترة.

لقد عقد الحفصيون المعاهدات التجارية مع فرنسا والأندلس وصقلية وجنوة والبندقية كما اهتموا بالقمارق والديوانة فازداد دخل الدولة وجلبوا الماء من زغوان عن طريق الحنايا الرومانية بعد إصلاحها وأوصلوه إلى باردو وإلى البساتين وإلى جامع الزيتونة، كما انتشر التعليم عن طريق الكتاتيب والزوايا وانتظم التعليم بجامع الزيتونة وجلبوا الأساتذة من الأندلس وطرابلس والمهدية، كما أنشأوا مدارس لسكنى الطلبة وإطعامهم كما أنشأوا المكتبات مثل (المكتبة العبدلية) بجامع الزيتونة وقصر الإمارة وظهر في عهدهم العلماء مثل(ابن عرفة وابن خلدون وابن الشباط وعبد القادر التونسي والخولاني وأبو الحسن الشاذلي).

كانت قابس خلال هذه الفترة تحت إمرة دويلة بني مكي المستقلة (624 هـ/796 التي سنتحدث عنها في الإبان مع دولة بني جامع التي سبقتها في الاستقلال بالسلطة.

(5) انظر كتاب تونس عبر التاريخ لأحمد عامر صفحة 202 و 203 و205

الباب الرابع

الفصل الأول

عهد الاستقلال في قابس (490 هـ-796 هـ)

عهد الاستقلال هو العهد الذي استقلت فيه قابس عن السلطة المركزية وهو يمثل مرحلتين :

- المرحلة الأولى تكونت فيها دولة بني جامع(490 هـ-555 هـ)
- المرحلة الثانية تكونت فيها دولة بني مكي(665 هـ-796 هـ)

دولة بني جامع:

تكونت هذه الدولة بقابس واستقلت عن السلطة المركزية بالمهدية في أواخر عهد الأمير تميم ابن المعز الأمير الخامس للدولة الصنهاجية إلى بداية دولة الموحدين وبنو جامع يرجعون إلى قبيلة رياح الهلالية، وعند دخولهم لتونس كان زعيمهم هو مؤنس ابن رياحية. ويرجعون إلى أسرة دهمان من بني علي العربية الهلالية.

لقد اغتنم بنو جامع فرصة ضعف الدولة المركزية ومهاجمة النورمان للصنهاجيين وكذلك الخلافات الدينية بين السنة والشيعة وانخرام الوضع وتكوين دويلات أخرى في تونس مستقلة مثل دويلة بني خراسان في تونس وبني برغواطة في صفاقس وبني الورد في بنزرت ...الخ وقد ذكرنا ذلك عند حديثنا عن الدولة الصنهاجية.

كانت قابس قبل تكوين هذه الدولة تابعة لسلطة العرب ولو أن أمراءها كانوا صنهاجيين منذ الزحف الهلالي، ولم يتمكن بنو جامع من الاستقلال إلا في أواخر القرن الخامس في سنة 490 هجري وكان آخر وال لها من قبل الصنهاجيين هو عمر ابن المعز ابن باديس سنة 489 هجري أما أول من تولاها من الأمراء فلم يشر إليه المؤرخون بوضوح إلا أنه أول من ظهر منهم أثناء ثورة أهالي قابس على تميم ابن المعز هو الأمير مكي ابن جامع ولا يستبعد أن يكون هو أول أمير لهم وهو الذي ساعد الأمير حمو ابن مليل البرغواطي حاكم صفاقس فارا من جيوش تميم أمير المهدية، فأصبحت قابس مركز تجمع للمناوئين والغاضبين على السلطة المركزية وقد نقل الأستاذ مَحمّد المرزوقي عن ابن الأثير قوله : "إن السبب في غضب المثنى ابن تميم على أبيه وفراره إلى قابس هو أن والده كان رشحه لولاية العهد أيام أسر أخيه يحي بصفاقس عند حمو ابن مليل البرغواطي ولما أطلق يحي من الأسر ورجع إلى المهدية حرم تميم ابنه المثنى من الولاية التي كان ينتظرها فحقد على أبيه وفرّ إلى قابس".

أما قصة أسر يحي ابن تميم من قبل الأمير حمو ابن مليل البرغواطي فترجع إلى مكيدة نصبها له أمير تركي اسمه(شاه ملك) وكان هذا الأمير قد قدم على تميم بالمهدية لاجئا فقبله تميم

(1) الأمير شاه ملك كان يقيم بمصر بعد هروبه من تركيا وقد حكم طرابلس إلا أن تميم أمير المهدية قد تغلب عليه وحمل إلى المهدية حسب رواية ابن الأثير.

وخصص له جراية إلا أنها لم تعجبه فدبر مكيدة لابنه يحي فخرج معه في رحلة صيد وكبله وحمله إلى أمير صفاقس البرغواطي.

إلا أن هذا الأمير قد تخوف من العملية وحدثته نفسه أنه ربما يحاول السكان الميل إلى يحي ابن تميم وهو ابن أميرهم الشرعي فينصبونه أميرا عليهم وهو الثائر والخارج عن سلطة تميم الوالد فأرسل إلى تميم يطلب منه إرسال العائلات التركية الموجودة بالمهدية مقابل إطلاق سراح ابنه يحي فقبل بهذا العرض ويبدو أن هذه المبادلة كانت بطلب من الأمير التركي لأنه تخوف على الأتراك الموجودين بالمهدية من الانتقام منهم من طرف الأمير تميم.

مهاجمة المهدية:

لقد اغتر مكي ابن كامل ابن رافع ابن جامع أمير قابس بتجمّع بعض المناوئين لأمير المهدية عنده فتجرأ على مهاجمة المهدية خصوصا وأن ابن تميم(المثنى) قد تكفل له بمصاريف الحملة إلا أن الحملة قد ردت على أعقابها وتمكن يحي ابن تميم قائد الجيش(الذي أطلق سراحه) من التغلب عليهم ولم يتمكن أمير قابس من الهجوم مرّة ثانية على المهدية إلى وفاته.

رافع ابن مكي:

هو الأمير الثاني لدولة بني جامع وهو ابن مكي ابن كامل ابن جامع وقد تولى الإمارة والفتن التي كانت في عهد والده قد خمدت، وكانت العلاقة بين أمير قابس الجديد وأمير المهدية الجديد يحي ابن تميم(الذي تولى الحكم بعد وفاة والده) طيبة، إذ تمت المصالحة بينهما لكنه بعد وفاة يحي وتولي إمارة المهدية ابنه "علي" لم يرض بهذه المصالحة فتجدد الصراع بينهما.

قصة السفينة والصراع الذي حدث بينهما:

لقد تحدث التيجاني في رحلته وكذلك محمد السراج في كتابه الحلل السندسية في الأخبار التونسية تحقيق محمد الحيلة عن هذه السفينة فأشارا إلى أن الأمير رافع كان قد اعتنى بالأسطول البحري في قابس وصنع سفينة كبيرة ساعده عليها الأمير السابق يحي، إذ لم ير مانعا في إنشائها ولم ير فيها مزاحمة له في السيطرة على البحر إلا أنه بعد تولي ابنه علي الإمارة رأى غير هذا الرأي فقد اعتبر "الأمير علي" أن هذه السفينة تزاحم أسطوله في البحر ولا يريد أن يزاحمه أحد خصوصا وأن قابس قد خرجت عنهم وكانت تابعة لدولتهم قبل ذلك. فأرسل أسطولا إلى قابس لمنع رافع من الإقلاع بهذه السفينة والاستيلاء عليها إن أقلعت فما كان من أمير قابس إلا أن افتعل فكرة وهو استنجاده بحاكم صقلية روجار وقد أخبره بأنه صنع هذه السفينة ليرسل له فيها هدية، فأنجد روجار صاحبه وكان يترقب هذه الفرصة رغم أنه كان متحالفا مع أمير المهدية وهناك معاهدة صلح بينها. ولما علم "علي" بذلك استشار رجال دولته في الأمر فأشاروا عليه بإرجاع الأسطول مخافة أن تتطور الأمور، وقد رأى "علي" غير ذلك، ورأى في هذا التصرف إهانة له فأرسل بأسطوله على الفور إلى قابس فوجد ضباط روجار قد نزلوا بقابس في ضيافة كبيرة أعدها لهم رافع أمير قابس. وقد تمكن أسطول علي من التغلب على أسطول روجار وفتته قطعا وقتلوا جماعة منهم واستولوا على البعض من أسطولهم. إلا أن هذه الواقعة كانت سببا في

غضب روجار، وكذلك الإفرنج على الأمير علي ابن تميم وعلى إفريقيا، كما كانت سببا في القضاء على دولة بني مناد في المهدية فيما بعد.

وهذا في الواقع إن دلّ على شيء فإنما يدل على قلة غيرة أمير قابس ابن مكي على البلاد وقلة حماسته للعرب وللمسلمين لحماية البلاد من المغيرين إذ بمجرد استنجاده بأمير صقلية المسيحي الذي كان يترقب هذه الفرصة(كما ذكرنا ذلك) للانقضاض على المسلمين في شمال إفريقيا وقد حقق له هذا الأمير هذه الرغبة .

وقد ذكر الشعراء هذه الحادثة ومدحوا الأمير علي ابن يحي صاحب المهدية بقصائد شعرية متعددة منها. يقول الشاعر أبو محمد عبد الجبار ابن حمديس الأزدي الصقلي في قصيد يمدح فيه الأمير علي.

نعيمك أن تزف لك العقـــــار ... عروسا في خلائقها نفـــــار
لقد أضحى على دين النصارى ... لدين المسلمين بك انتصـــار
حميت ذمـــاره برا وبحـــــرا ... بمرهفة بها يحمى الذمــــار
أراك الله في الأعلاج رايــــا ... لهم منه المذلة والصغـــار
راوا حربية ترمي بنفـــــط ... لإخماد النفوس له استعـــار
كان المهلة في الأنبوب منـــه ... إلى شيّ الوجوه له إبتـــدار
إذا ما شك نحو العلج منـــه ... تعالى بالحمام له خـــوار
وكان منافس البركان فيهـــا ... لأهوال الجحيم بها اعتبـــار
نحاس ينبري منه شـــواظ ... لأرواح العلوج به بـــوار
وما للماء بالإطفاء حكـــم ... عليه لدى الوقود ولا اقتدار
وخافوا من مناياهم وفـــروا ... فدافع عن نفوسهم الفـــرار
وقد جعلوا لهم شرع الشواني ... مع الأرواح أجنحة وطـــاروا
لك الفلك التي تجري بسعـــد ... يدور به لك الفلك الـمـــدار
تهب لها الرياح مسخـــرات ... وتسكن في تحركها البحـــار

ويقول الشاعر محمد ابن عبد الله الكاتب مادحا الأمير علي ابن يحي أيضا بقوله:

ليهن المعالي(2) أن تملك رقهـــا ... على ابن يحي بالحجا والتكـــــرم
جرى وجرى صيد الملوك فبزّهم ... إلى غاية في المجد لم تتقـــــدم
وصمم تصميم الحسام مبـــادرا ... لإطفاء نار أذنت بالتضـــــرم
تعدى على الأعلاج في بحر قـــابس ... وسار إليهم في الخميس العَرَمْـرَمِ
فولوا على الإدبار كلا وأجفلـــوا ... بناب نبا عنهم وظفر مقلـــــم

(2) انظر الحلل السندسية في الأخبار التونسية للوزير السراج صفحة 156

ووصف شاعر المهدية محمد بن عبد الصمد التّنوخي أسطول المهدية الذي إنتصر على أسطول روجار بقوله:

وأعددت للأعداء كلّ مصمم ... يسير إليهم قاصدا وهو أهوج
كمثل الرواسي منعت غير أنها ... على ثبج الدماء تردى وتولج
كأن القنا والنبل في جنباتها ... سبال بأكناف الهضاب وعوسج
يعيد مضيء الجو أقتم حالكا ... دخان لظى من نارها يتوهج
إذا نضنضت من السن لهيبة ... يمارج نار يستقل ويعرج
رأيت صلالا أخرجت من جهنم ... تحرق أكباد العداة وتنضج

موقف علي ابن تميم من أمير قابس:

بعد هذا الانتصار الذريع على النورمان وعلى أمير قابس "رافع ابن مكي" أراد أمير المهدية أن يقضي على الشر قبل استفحاله فقرر طرد رافع من قابس.

ففي سنة 511 هجري أعد أسطوله لمهاجمته فأراد رافع المصالحة(3) وبعث بوجوه قومه راغبا في المصالحة فلم يجبه "الأمير علي" إليها فرأى أنه ليس له قبل بقتاله فقصده إلى القيروان، وكانت القيروان تحت سلطة العرب من بني دهمان ولما وصلهم رافع تعاطفوا معه وأعطوه إياها.

ويقول الشاعر محمد ابن بشير في هذا المقام:

سل رافعا ما الذي أجرى تنصره ... وهل نفى الذل عنه من به وثقا
لو لم ير الروم أهلا والصليب أبا ... لم يشك من عيشه في قابس رنقا
إنفاقك المال في العلياء ألحقه ... بالقيروان التي يعتدها نفقا
أبدت له عزة للجاهلين به ... وكان ستر عليه قبل فالخرقا
للّه فعلك لا للمال تجمعه ... وكيف ذاك وقد شتته مزقا
وكل مال تشاد المكرمات به ... اشد ما هو توفيرا إذا محقا

أما مصير قابس بعد خروج رافع منها فإنه قد تولاها.

رشيد ابن مدافع ابن كامل:

تولى إمارة قابس بعد خروج رافع منها الأمير رشيد ابن مدافع ابن كامل وقد سار بالبلاد نحو التقدم والازدهار فشيدت البناءات وأعطى للإمارة أبهتها وشجع الشعراء وأجزل لهم العطاء ومن هؤلاء الشاعر ابن حمديس الصقلي الذي روي له بيت واحد من قصيد لم نعثر عليه مع الأسف وفي هذا البيت يقول:

أفلا يخالفني الرشاد وهمتي ... قصدت بعزم للأمير رشيد

(3) انظر رحلة التيجاني لأبي محمد عبد الله ابن أحمد التيجاني المطبعة الرسمية تونس صفحة 99

ومن المآثر التي تركها الأمير رشيد بناؤه لقصر العروسين الذي يقال بأن الصنهاجيين هم الذين بدأوا في بنائه وأكمله الأمير رشيد وقد وجد بباب هذا القصر حروفا تشير إلى أنه (أمر بعمل هذا الباب الأمير الشهم رافع ابن أمير الأمراء مكي ابن كامل ابن جامع في رجب سنة 508 هـ).

يعني ذلك أن القصر شرع في بنائه الصنهاجيون وأمر بوضع الباب رافع وأتم القصر رشيد. وكذلك من المآثر التي تذكر للأمير رشيد هو أنه ضرب سكّة باسمه سميت بالسكة الرشيدية، هكذا سماها ابن خلدون كما ذكر الأستاذ مَحمد المرزوقي في كتابه عن قابس و (لقد أشار الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب أنه توجد باسبانيا قطعتان(4) من نقود بني جامع أصحاب قابس).

محمد ابن مدافع ابن رشيد:

الأمير الرابع الذي تولى إمارة قابس باسم دولة بني جامع هو محمد ابن مدافع ابن رشيد ابن كامل وكان ضعيف الشخصية فتطاول عليه مولاه يوسف وكان صغير السن فاستولى يوسف على الحكم واستنجد بروجار في صقلية وأعلن تبعيته له فأرسل له روجار الخلعة ورحب بطاعته والدخول تحت حمايته، إلا أن العرب قد غضبوا من يوسف لاحتمائه بروجار وهجموا عليه مع أهالي قابس، فاحتمى بقصر العروسين وحاصروه فيه حتى استسلم فقتلوه ومثلوا به، وقطعوا مذاكره، متهمين إياه بالتعرض لحرم مولاه الأمير.

لقد فرّ بعد هذه الواقعة عيسى أخو يوسف مع ولد ليوسف إلى صقلية مستنجدين بروجار وقد ادعى عيسى أن أخاه يوسف كان قد تعرض إلى ما تعرض إليه بسبب ميله وتحالفه معه، فما كان من روجار إلا أن جهز جيشا ووجهه إلى قابس إلا أنه بعد حصار دام مدّة من الزمن رجع الأسطول إلى صقلية خائبا. لكن مع الأسف أن روجار لم يسكت عن هذه الهزيمة ووجه سخطه على المهدية وعلى الصنهاجيين فهجم عليها سنة 543 هجري وقضى على دولة الصنهاجيين بالمهدية.

مدافع ابن رشيد:

الأمير الخامس الذي تولى إمارة قابس هو الأمير مدافع ابن رشيد وكان عالما وشاعرا وعارفا بالأنساب وكان قصر العروسين يعج بالشعراء والأدباء واعتبر من النوادي الأدبية المعتبرة.

ومن بين الشعراء الذين انتموا إلى هذه الدولة وتحمسوا لها هو الشاعر الوزير سلام ابن فرحان. لقد استطاع مدافع بحكمته وقوة شخصيته أن يمنع روجار من الهجوم على قابس في الوقت الذي تمكن فيه هذا الحاكم من الاستيلاء على المهدية وعلى صفاقس وطرد الأمير البرغواطي منها وعلى جربة والمرور على قابس مر الكرام محاذ سواحلها دون المساس بهذا الأمير.

نهاية دولة بني جامع في قابس:

لقد استنجد العرب بعبد المؤمن ابن علي الذي كانت قد قويت شوكته بالمغرب، ودخلت قواته الأندلس واستولى على المغرب الأوسط أي على (الجزائر) وكان صاحب المهدية الحسن ابن

---

4) انظر كتاب قابس جنة الدنيا للأستاذ مَحمد المرزوقي صفحة 186

علي الصنهاجي قد فرّ من قوة روجار واتجه نحو القائد المستقل عبد المؤمن ابن علي للاستنفار والنجدة وطرد الإفرنج من سواحل إفريقيا فلبى هذا القائد النداء وتمكن من طرد الإفرنج من كل سواحل إفريقيا وسيطر على المهدية سنة 555 هجري وتسمى هذه السنة بسنة الأخماس(ثلاث خمسات). وبهذا الانتصار والوحدة لم تبق مستقلة عن السلطة الموحدية إلا قابس، فأراد عبد المؤمن ابن علي أن يستميل هذه الدولة وأن يلاطف أميرها لكن أمير قابس لم يعتبر بهذه القوة الكبيرة التي تكونت في شمال إفريقيا وإسبانيا فتلكأ ولم ينظر بحكمة إلى الموقف الذي يجب أن يتخذه فأرسل عبد المؤمن إليه ابنه''عبد الله'' بقوة لا قبل له بمقاومتها فجمع أهله وماله واتجه نحو الشرق مرورا بطرابلس إلا أن جيش عبد الله قد لحقه وهو خارج قابس ووقعت معركة بين الطرفين انهزم في الأخير جيش الأمير مدافع.

لقد برز في هذه المعركة الوزير الشاعر سلام ابن فرحان فقد دافع هذا الشاعر عن أميره دفاعا مستميتا رغم كبر سنه وقد استشهد في هذه المعركة وهو ينشد:

أكذا أموت(5) وما بلغت مرادي ... بين الصوارم والقنا الميادي

حيث العيون لوامع وطوامح ... ما بين أحباب وبين أعادي

ويقول أيضا:

مازلت أفري أديم الأرض منفردا ... أطوي المفاوز غيطانا وآكاما

حتى حططت رحالي في ذري ملك ... غمر المواهب للقصاد بساما

يهنئ المدافع إن الله خوله ... سعدا ينال به كل الذي راما

قم فافتح الأرض فالأملاك كلهم ... سواك أضحوا عن العليا نواما

ويقول صاحب كتاب الحلل السندسية أن الأمير مدافع بعد أن بقي شريدا لمدة عامين في طرابلس استشار أهله وعشيرته في الالتحاق بعبد المؤمن بن علي فأشاروا عليه بذلك فلقيه بقابس فرضي عنه وأسكنه هناك حتى توفي بها وهو يناهز التسعين.

وهناك رواية ثانية تقول أنه لحق بعبد المؤمن(6) بالمغرب وليس بقابس فأكرمه وهي رواية ابن خلدون.

أما بقية الأمراء ورجال الدولة فقد انتشروا في بلاد العرب ومنهم من اتجه إلى بلاد الشام واستقروا بدمشق وقد روي عن أبي ساكن عامر ابن محمد ابن مكي ابن كامل ابن جامع أنه أنشد قصيدا في دمشق يتذكر فيها أيامهم في قابس فيقول:

---

(5) انظر كتاب الحلل السندسية في الأخبار التونسية للوزير السراج صفحة 357

(6) انظر كتاب ابن خلدون صفحة 214 (طبعة الجزائر)

يا جار طرفي غير هاجع	والدمع من عيني هامــع
ولقد أرقت مسامــــرا	نجما بدا في الشرق طالــع
متذكرا بصروف دهــ	ـر أصبحت فينا قواطــع
إنني من الشم الأولــى	شادوا العلى أبناء جامـع
أهل المراتب والكتـــا	ئب والمواهب والصنائــع
يتسابقون إلى المعـــا	لي كلهم فيها مســـارع
ولقد ملكنا قابســـا	بالمشرفيات القواطـــع
تسعين عاما لم يكـــن	فيها لنا أحد منـــازع
وجنابنا للمعتفيـــــــ	ـن بزهرة المعروف يانــع
وإذا شهدنا مجمعـــا	يؤمى إلينا بالأصابــــع
عبثت بنا أيدي الزمـــا	ن وأحدثت فينا البدائــع

حقا إنها قصيدة عصماء يذكر فيها أبو ساكن الشاعر أيامهم في قابس، ومن الصفات التي ذكرها في قصيدته الصناعات التي كانت منتشرة عندهم والخلال الحميدة التي كانوا يتصفون بها والمكرمات التي كانوا يقدمونها للمحتاجين. إلا أن ذكره إلى أنهم سيطروا على قابس تسعين عاما فهو غير واضح لأن التاريخ الذي ذكرناه في سنة استقلالهم لا يتناسب مع تاريخ اضمحلالهم فهو قد دام 65 عاما فقط إلا أنه ربما كانت سيطرتهم على قابس قبل الانفصال عن الصنهاجيين فعلا وكانوا مؤثرين في الدولة بشخصياتهم وأفعالهم وتأثيرهم على الحكام الذين كانوا يحكمون قابس باسم الصنهاجيين وأعتقد أن وزن القصيد لا يجبره على ذكر التسعين وحتى ذكر الستين لا يناسب المدة التي حكموها.

كذلك ذكر ابن هذا الشاعر وهو في دمشق في أواخر القرن السادس للهجرة 591 هـ أبياتا نقلها محمد السرّاج مؤلف الحلل السندسية في الأخبار التونسية (الجزء الأول)

إذا مرّ من أهوى أغض له طرفي	وأخفي الذي بي من سقام ومن ضعف
وأكتم عن سرّي هواه صيانـــة	ولو كان في كتمانه أبدا حتفـــــي
مخافة أن يشكو فؤادي صبابتـــي	إلى مقلتـي يوما فتبدئ الذي أخفــــي

إنها أبيات رائعة يذكر فيها الشاعر حنينه إلى أيامه في وطنه قابس ويخاف أن يشكو فؤاده إلى مقلتيه فتفضحه بسكب الدموع وتعلم الذين يكتم عنهم سرّه ما يخفي من حنين وصبابة.

وهكذا يسدل الستار على دولة بني جامع المستقلة عن الصنهاجيين في قابس وتدخل بذلك تحت نفوذ دولة عبد المؤمن ابن علي موحد المغرب العربي باسم "الموحدين" من طرابلس شرقا إلى الأندلس غربا وأصبح جزءا هاما من البحر الأبيض المتوسط تحت سيطرتهم.

والواقع أنّ الأمير مدافع آخر أمير لبني جامع في قابس لو استعمل الحكمة وهو العربي

الأصيل المسلم وتتدبر الأمر مع مؤسس دولة الموحدين لتنجا بنفسه ولدخلت قابس ضمن الدولة الإسلامية العربية الموحدة عن طواعية ولربما بقي هو حاكمها ومسيرها لتواصل الازدهار والتقدم الذي كانت تعيشه قابس في عهدهم (والذي استقيناه من الشعر الذي قيل عنهم) رغم المشاكل والاضطرابات التي كانت تحدث من حين لآخر بينهم وبين المترصدين لهم من النورمان المسيحيين ومن الصنهاجيين أيضا الذين انفصلوا عنهم.

دولة بني مكي

624 هـ-796 هـ

وهي الدولة الثانية التي استقلت بقابس من سنة 624 هجري إلى سنة 796 هجري ودامت 172 سنة هجرية.

ترجع هذه الدولة إلى قبيلة لواتة البربرية وجدهم مكي ابن فرج ابن زيادة الله ابن أبي الحسن ابن محمد ابن زيادة الله ابن الحسن اللواتي. وهذه العائلة كما يقول الأستاذ محمد المرزوقي(من أعيان عائلات قابس ذات الشهرة والثروة الواسعة(7) إلا أن الأستاذ إبراهيم جدلة في محاضرته القيمة التي ألقاها بقابس يفترض افتراضا آخر حول نسب دولة بني مكي فيقول ما خلاصته.

أن نسبة بني مكي(8) إلى قبيلة لواتة البربرية يمكن أن يطرأ عليه الشك لأنه لا يمكن أن تسيطر هذه الدولة البربرية بسهولة على منطقة كانت تحت إمرة دولة عربية وفي منطقة يسيطر عليها قبائل رياح الهلالية (وبنو رياح وبنو سليم) من الهلاليين.

إذن إن تقرب بني مكي بانتسابهم إلى قبيلة لواتة البربرية هو تقرب سياسي بغية سيطرتهم على هذه المنطقة أما نسب بني مكي فيقول الأستاذ إبراهيم أن عائلة بني مكي هي امتداد لعائلة بني جامع وربما جاءت هذه التسمية نسبة إلى مكي ابن كامل ابن جامع من الرياحيين ويقول أيضا "ألم يستعمل ابن خلدون تسمية بني كامل عوض بني جامع فما المانع من تسميتهم ببني مكي".

وفي الواقع أن هذا الشك للانتساب إلى قبيلة عربية أو بربرية يمكن أن يكون احتمالا واردا لكن حسن تدبير مؤسس هذه الدولة(عثمان ابن مكي) ومعرفته بمجريات الأمور مكنه من الانتصاب على قابس بإعانته لأبي زكرياء الحفصي أمير قابس لا كما فعل مدافع ابن رشيد آخر أمير بقابس باسم دولة بني جامع إذ أنه لم يصغ إلى القائد الفاتح عبد المؤمن ابن علي مؤسس الدولة الموحدية وموحد المغرب العربي حينما لاطفه ولم يفهم قصده ولم يتدبر اللعبة السياسية فهاجمه وقضى على بني جامع في قابس.

لقد تقربت عائلة بني مكي من الحفصيين واتصلت بأمير قابس الحفصي أبي زكريـــاء

---

(7) انظر كتاب قابس جنة الدنيا للأستاذ محمد المرزوقي صفحة 197

(8) انظر المحاضرة القاها الأستاذ إبراهيم جدلة بقابس في ملتقى حول تاريخ قابس (تملكها جمعية البحوث والدراسات التاريخية بقابس

سنة 623 هجري وصادف أن حدثت فرقة بين أمير قابس "أبي زكرياء الحفصي" وأخيه "عبد الله عبو" الابن الثاني لأبي محمد عبد الواحد الحفصي جد الحفصيين وقد ساعد كبير هذه العائلة(عائلة بني مكي) عثمان ابن مكي أمير قابس "أبي زكرياء الحفصي" على التغلب على أخيه عبد الله بجهة القيروان وذلك لاستنكار الجيش الذي كان مع عبد الله هذه الحرب، وانضمامهم إلى جيش زكرياء الحفصي وتمكن بذلك من احتلال تونس والسيطرة عليها وألقى القبض على أخيه وأعلن الاستقلال عن دولة الموحدين، ومن ذلك التاريخ بدأ العهد الحفصي المستقل وكانت دولة الموحدين في آخر أيامها .

ونتيجة لذلك فان زكرياء الحفصي قد كافأ عثمان ابن مكي وكافأ بنو مكي بإعطائهم منطقة قابس فاستقلوا بها وتوالت الانتصارات والتأييد للأمير زكرياء فاستولى على الجزائر وجاءه التأييد من سجلماسة(9) وسبتة وطنجة ومكناس وخطب له "بنو مرين" بالمغرب وبذلك حقق وحدة المغرب العربي مرة أخرى التي انفرط عقدها في أواخر عهد الموجدين.

<u>عثمان ابن أبي القاسم ابن مكي:</u>

تولى إمارة قابس سنة 624 بعد معاضدته لأمير قابس الموحدي أبي زكرياء الأول ومشاركته له في خلافه مع أخيه عبد الله عبو حاكم تونس باسم الموحدين فكان جزاؤه إمارة قابس.

كانت إمارة بني مكي في بداية الأمر تحكم باسم الموحدين، إلا أنه منذ تولي أبي زكرياء سلطة تونس أعلن الاستقلال عن الموحدين وكوّن الدولة الحفصية وتبعه في هذا الولاء ابنه المستنصر الذي تولى إمارة تونس في سنة 647-675 هجري وكذلك حفيده الواثق بالله الذي تولى الإمارة من سنة 675-678 هجري. وقد حدث خلاف وفتنة في عهده أعلنها عمّه أبي إسحاق إبراهيم الأول سنة 678 هـ كما حدثت فتنة أخرى بسبب خروج "الدعي ابن مرزوق" الذي ادعى بأنه ابن الواثق وقد ساعده في هذا الادعاء بنو مكي ضدّ "أبي إسحاق إبراهيم الأول" وتمكن بذلك من التعاون مع عبد الملك ابن عثمان ابن مكي ومن السيطرة على طرابلس ثم الزحف على قابس ومنها إلى قفصة والجريد والقيروان وتونس.

<u>عبد الملك ابن عثمان ابن مكي:</u>

هو ابن عثمان ابن أبي القاسم ابن مكي وهو الأمير الخامس على قابس (هـ681-700هـ) لقد ساعد عبد الملك "الدعي ابن عمارة" في هجماته على طرابلس وعلى قابس وقفصة والجريد والقيروان وتونس. تولى عبد الملك في بداية الأمر خطة جباية أموال الدولة في تونس إلا أن أهالي تونس قد ضجروا من سوء معاملة "ابن عمارة" وجماعته فاتجهوا إلى أبي حفص عمر ابن أبي زكرياء وكان مرابطا بمنطقة قلعة سنان فبايعوه في الهجوم على ابن أبي عمارة في تونس وتغلبوا عليه سنة 683 هـ وقتل بالسيف الذي كان قد أهداه إلى (الشيخ أبي محمد عبد الله ابن يغمور) وعند ذلك فرّ عبد الملك ابن عثمان ابن أبي القاسم ابن مكي من تونس متجها إلى قابس، وقد تكمن بحنكته من التظاهر بالولاء إلى الحفصيين إلى أن تمكن من السيطرة على الوضع والاستقلال بقابس سنة 693 هـ.

---

(9) انظر قابس جنة الدنيا لـمحمد المرزوقي صفحة 198

مكي ابن أحمد ابن عبد الملك:

وهو حفيد عبد الملك ابن عثمان ابن مكي تولى الإمارة وهو صغير السنّ فكفله ابن عمّه يوسف ابن حسن وسير إمارة قابس باسمه إلى أن توفي فانتقلت الكفالة إلى صهر العائلة وهو أحمد ابن ليدان من عائلات قابس القديمة المشهورة كما يقول مَحمد المرزوقي في كتابه جنة الدنيا لكن لم يبق من هذه العائلات الآن أي ذكر.

وفي هذه الأثناء قدمت جيوش السلطان الحفصي (أبو عصيدة) يقودهم أبي زكرياء اللحياني الملقّب "بشيخ الدولة الحفصية" وقد استقبله أمير قابس وأسكنه بداره ثمّ سافر لأداء فريضة الحجّ وأثناء رجوعه أعلن الثورة في طرابلس والتفّ حوله جموع غفيرة من الأعراب (كما يقال حجّ وزمزم وجاء للبلى متحزّم) ثمّ اتّجه إلى قابس سنة 711 هـ وأخذ معه بعض أنصاره من بني مكي وأسكنهم تونس مع أن قابس قد بقيت تحت نفوذهم وهو السلطان على تونس إلى سنة 717 هـ ولما سمع بتحرك ابن عمه في الثغور الغربية باع ما في القصور وحتى الكتب التي كانت في المكتبة وترك الحكم لابنه محمد (المعروف بأبي ضربة) واتجه نحو قابس يترقّب الفرص لكن عند سماعه بمقتل ابنه محمد رحل إلى مصر واستقر بالإسكندرية إلى وفاته سنة 727 هـ أما قابس فقد استمر بها بنو مكي

عبد الملك واحمد ابني مكي:

ترك الأمير مكي ابن احمد ابن عبد الملك بعد وفاته إبنين صغيرين وهما "عبد الملك وأحمد" وقد كفلهما صهرهما أحمد ابن ليدان الذي ذكرناه سابقا وقد وافقت الدولة الحفصية على هذا الوضع ووقعت تسمية عبد الملك أميرا على قابس وتسمية أخيه أحمد "رديفا له" ويحكمان قابس معا، واستمرّ كفيلهما أحمد ابن ليدان في المهمّة إلى أن كبرا وظهر النبوغ على الابن الصغير أحمد فكان المتصرف في الأمور والحاكم للدولة الحقيقي وأخيه عبد الملك الحاكم اسميا. لقد ظهر النبوغ على الأمير أحمد كما ذكرنا فكان يقول الشعر، وكان أنيقا في الكتابة وله مهارة في سياسة شؤون البلاد وشعر بأنه بإمكانه الاستقلال عن الدولة الحفصية ولو أنه في الواقع أن التبعية للدولة الحفصية كانت اسمية ولم يبق من نفوذها سوى ذكر السلطان الحفصي(10) في الخطب الجمعية.

رجوع عبد الواحد ابن أبي يحي زكرياء اللحياني من الإسكندرية:

بعد وفاة أبي زكرياء اللحياني بالإسكندرية رجع ابنه عبد الواحد من مصر مطالبا بعرش أبيه إلا أن أبناء مكي بقابس لم يتّفقا معه في أول الأمر ثمّ أنهم انظموا إليه واتّجهوا إلى العاصمة بتونس واغتنموا فرصة انشغال الدولة بإسكات الثورات والفتن التي حدثت في نواحي قفصة والجريد كذلك في الثغور الغربية فهجم ابن اللحياني وأبناء مكي على تونس إلا أنهم لم يبقوا كثيرا إذ لما سمع السلطان أبي بكر الحفصي باستيلائهم على تونس رجع إليهم وفرّوا إلى قابس إلا أن السلطان الحفصي بعد قضائه على ثورة قفصة فكر في الاتجاه نحو قابس ولما سمع به

(10) انظر قابس جنة الدنيا للأستاذ محمد المرزوقي صفحة 201

مكي هرب الأمير عبد الملك واحتمى بإحدى القبائل العربية(11) أما الأمير أحمد فقد اتجه بي الحسن المريني بالمغرب الأقصى فما كان من المريني إلا أن أرسل إلى السلطان أبي بكر صي ليتشفع لبني مكي عنده وليرجعهم إلى إمارتهم بقابس وقد كان له ذلك... وتوطدت لاقة بين الحفصيين وبين بني مكي من جديد خصوصا بعد اللقاء الذي تمّ بين (أبي العباسي ابن أبي بكر الحفصي ولي عهد الدولة الحفصية وحاكم منطقة قفصة والجريد)، وبين بن مكي أمير قابس.

فلقد اكتشف ولي العهد الحفصي رجاحة عقل أحمد ابن مكي، وتوطدت العلاقة بينهما سّط لدى والده السلطان بأن تضاف جزيرة جربة إلى نفوذ بني مكي في قابس فقبل لطان هذا العرض وتحول أحمد إلى جربة بعد عزل الأمير مخلوف ابن الكمّاد الذي افتكّها من مان ووليها بأمر من السلطان نفسه أبي بكر الحفصي وبقي الأمير عبد الملك في قابس.

ن الأمور تطورت بعد موت السلطان أبي بكر الحفصي (747 هـ) إذ حدث خلاف بين خوين إبني السلطان وهما (عمر ابن أبي بكر الحفصي) وأخيه ولي العهد (أبي العباس) إذ قد ابن (تافراجين) حاجب السلطان المتوفى الابن عمر ابن أبي بكر فغضب أبي العباس ستنجد بأنصاره بقابس أبناء مكي فلبّى نداءه الأمير أحمد أمير جربة وعينه رديفا لحاجبه.

ن أبو الحسن المريي حاكم المغرب الأقصى لم يترك الفرصة للأخوين حتى يتغلب أحدهما عن خر فتمكن من القضاء على عمر ابن أبي بكر الحفصي واستولى على تونس.

ي الرياح بما لا تشتهي السفن :

هذا المثل يضرب عندما تتقلب الأوضاع بما لا يشتهي الإنسان وهذا المثل ينطبق على طور الأحداث في منطقة المغرب العربي فبعد الانتصار الذي حققه (أبي الحسن المريي) في س اعتقد أبناء مكي بأنهم سوف يبقون في نفوذهم على قابس وجربة إلا أنه قد حدث كس وذلك بقرار أبي الحسن المريني تعيين "عبد الواحد اللحياني" أميرا على طرابلس ابس وجربة وصفاقس الذي كان قد التجأ إليه بعد قدومه من مصر ومحاولة تغلبه على ولة الحفصية وإفتكاك نفوذ والده ...

ب ابنا مكي (أحمد وعبد الملك) من هذا التصرف خصوصا وأنهما قد أمرا بالطاعة وتسليم فوذ إلى الأمير الجديد فاخفيا غضبهما وأضمرا الشرّ للأمير الجديد ولأبي الحسن المريي الذي رهما قبل ذلك. لكن الزمن لم يمهلهما حتى يظهرا هذا الشرّ فقد أصيب الأمير الجديد عبد حد اللحياني بمرض الوباء في جزيرة جربة سنة 749 هـ وقد وصلت الأخبار إلى المغرب بأن ي عنان ابن أبي الحسن المريني قد ثار على أبيه كذلك تحرك (أبو العباس الفضل الحفصي) ي كان يسيطر على عنابة إلى تونس فاغتنم ابنا مكي عبد الملك وأحمد الفرصة وساندا أبي باس الفضل الحفصي وتمكنا بذلك من استرجاع نفوذهما في قابس وجربة سنة 750 هـ.

ول ابن المريني التغلب على أبي العباس لكن فشل للأسباب التالية:

إن احتماء الأمير عبد الملك ببعض القبائل العربية يدل على أصله العربي وهنا يبدو أن الشك في نسبة بني مكي إلى ين "البربر" مشكوك فيه كما قال الأستاذ إبراهيم جدلة في محاضرته بقابس

1- انقلاب زعماء العرب عليه إذ كان لهم نفوذ كبير في الدولة سابقا ولم يعطهم إيـ
ابن المريني
2- عدم مساندة ابن تفراجين حاجب دولة بني حفص له لأنه لم يحقق له رغبته و
طموح وله أنصاره
3- عدم تأييد إبني مكي له لتعيينه عبد الواحد اللحياني الذي لجأ إليه مستنجد
حين كان إبني مكي يترقبان إرجاعهما إلى منصبهما في قابس وجربة.

دور ابن تافراجين:

لم يدم حكم أبي العباس الفضل الحفصي في تونس طويلا بسبب موقف ابن تافراج المعارض له لأنه قد طلب منه إرجاعه إلى منصب الحجابة فلم يقبل فقام بمؤامرة سرية ضـ وبانقلاب أبيض إذ جاء بأخي أبي العباس الصغير ابن إسحاق إبراهيم ابن أبي بكر ونصـ سلطانا في القصبة وأجبر الرّعية على بيعته وألقي القبض على أبي العباس وقتله.

وبالطبع إن هذا الموقف من ابن تافراجين لم يعجب إبني مكي "أحمد وعبد الملك" لأنهما مـ أنصار السلطان القتيل، وكذلك كانت هناك ضغينة بين الأمير أحمد وابن تافراجين فاستـ ببعض القبائل القريبة من أولاد مهلهل والذواودة وبني علاق لكن شعر الأمير أحمد ابن مـ رغم مساندة هذه القبائل العربية له بأنه لا يستطيع مقاومة ابن تافراجين وقد ذكرنا أنه كـ سياسيا ماهرا يأخذ المواقف بحكمة وتبصر لذا فقد اتجه نحو قسنطينة بالجزائر وحرّض أبي زـ الحفصي على مهاجمة تونس والتغلب على ابن تافراجين في سنة 753 هـ وكان له ذلك فتوح هذا السلطان إلى تونس وعيّن أحمد ابن مكي حاجبا له لكن لم يستطع تحقيق رغبته وبـ حصاره لتونس مدّة من الزمن بعد مقاومة عنيفة وجدها من ابن تافراجين رجع قسنطينة وترك أخيه أبي العباس مع أحمد ابن مكي لأنه تخوف من هجوم ابن المريني بالمغـ الاقصى على منطقة نفوذه بقسنطينة.

هكذا كانت مجريات الأمور في تونس وفي المغرب العربي بصفة عامة وفي قابس إذ كا الفرص والمصالح هي التي تتحكم في مجريات الأمور وليس مصلحة الشعب وتقدم البلاد الذي يعي هؤلاء الحكام فغايتهم هي السيطرة على البلاد والتحكم فيها، وبعد أن يئس ا مكي وأبو العباس والجيش المصاحب لهما رجعوا إلى أماكنهم يترقبون الفرصة السا للإنقضاض على السلطان ابن أبي إسحاق إبراهيم الذي ولّاه ابن تافراجين.

مناصرة الأمير أحمد ابن مكي لطرابلس:

بعد أن رجع إلى جربة منطقة نفوذه هاجم نصارى (12) من جنوة ،طرابلـ فاستولوا عليها فما كان من الأمير أحمد ابن مكي إلا أن قام بالتفاوض مع الجنوبيين لإخراج من طرابلس فاشترطوا عليه دفع جزية مقدارها (50 ألف دينار ذهبا عينا) فكان موقـ الأمير أحمد شريفا وعظيما فقد أرسل إلى ابن المريني بالمغرب الأقصى يطلب منه المساهمة في

(12) انظر كتاب أحمد الزاوي تاريخ الفتح العربي في ليبيا دار الفتح دار التراث العربي ليبيا الطبعة3 صفحة 352 – 353

ـ هذا المبلغ إلا أنه لم يترقب الجواب ووصول الإعانة فبدأ يجمع المال من أهالي قابس والحامة ـة والجريد ودفع المبلغ إلى نصارى جنوة. لكن بعد دفعه هذا المبلغ وخروج الجنويين من ـلس وصل المبلغ كاملا من أبي عنان المريني وطلب من الأمير أحمد إرجاع المبلغ المتجمع لأهالي إلى أصحابه لكن أبى المتبرعون ذلك وأرادوا المساهمة في فدية أبناء عمّهم في الجنس ـين وأرجع المبلغ إلى أبي عنان وبذلك انتقل الأمير أحمد ابن مكي إلى طرابلس وأصبح يشرف ـ حظوظها مع بقاء جربة تحت نفوذه ولا ندري هل أن هذا التوسع في النفوذ للأمير كان ـ من سكان طرابلس جزاء مناصرته لهم أم كان رغبة في التوسع وزيادة النفوذ لا ندري؟

ـفراجين يهاجم جربة:

كان حقد ابن تافراجين حاجب الدولة الحفصية على الأمير أحمد ابن مكي قويا ـوصا وقد أبدى ابناء مكي مساندة لأبي عنان في المغرب الأقصى في هجومه على ابن ـراجين بتونس فبعد تراجع ابن تافراجين من المهدية وخروج أبي عنان من تونس ورجوعه ـغرب جهّز ابن تافراجين جيشا إلى جربة بقيادة ابنه للقضاء على الأمير أحمد ابن مكي ـصر هذا الجيش "الحصن الإسباني بجربة" وتمكن بعد ذلك من الدخول إلى جربة بالتعاون مع ـن الجزيرة الذين كانوا قد سئموا من ظلم ابن مكي وبقي نفوذ الأمير أحمد ابن مكي على ـلس فقط إلى وفاته بها سنة (766 هـ) وسمّى ابن تافراجين واليا على جربة من قبله اسمه ـ أبو العيون" الذي بقي بها إلى وفاة ابن تافراجين وإلى هجوم عمر ابن السلطان أبو ـس أحمد على طرابلس وتغلب على ابن أحمد ابن مكي الذي عوّض والده وسيطر عليها.

ـد السلطان أبي العباس على قابس :

بعد القضاء على نفوذ أحمد ابن مكي في جربة وفي طرابلس بقيت قابس تحت نفوذ ـه الأمير عبد الملك ابن مكي فتحرك إليه السلطان أبي العباس وأراد القضاء عليه إلا أن ـير عبد الملك قد استعمل الحيلة وأراد أن يظهر له الطاعة لكن تمكن السلطان وبالتعاون ـ الأمير أبي بكر ابن العباس أمير قفصة وقبائل بني أحمد من بني سليم الهلاليين تمكنوا من ـرة قابس لكن ابن مكي تمكن بمساندة من أولاد علي من بني سليم من القضاء على ـجمين ليلا كما قضى على الذين عاضدوا المهاجمين من السكان بعد القبض عليهم بالحيلة.

أما السلطان أبو العباس بعد أن سمع بهزيمة جيشه اتجه نحو قابس 781 هـ بمساندة "أولاد ـل والمحاميد" وقد حاول الأمير عبد الملك مراوغته وأظهر الطاعة إليه إلى أن جمع ماله ـيرته وفرّ إلى مناطق دباب مستنجدا بهم وهذه علامة ثانية تدل على أن بني مكي لا ـجعون إلى قبيلة لواتة البربرية إنما هم عرب تفرعوا عن دولة بني جامع العربية كما افترض ـتاذ إبراهيم جدلة في محاضرته بقابس لأنه لو كان بربريا لإستجار بقبائل البربر.

أما ابنه يحي وحفيده عبد الوهاب ابنا مكي فقد اتجها نحو طرابلس فمنعا من الدخول ـ طرف حاكمهما "ابن ثابت" فاتجها إلى منطقة زنزور بليبيا وبها قبائل الجواري من بني دبّاب ـ دبّاب هم الذين استجار بهم الأمير عبد الملك أمير قابس ورجعت قابس لفترة قصيرة إلى ـ السلطان بتونس ووقعت تسمية وال جديد لها من قبلهم وهو يوسف ابن الأبّار.

هجوم عبد الوهاب ابن مكي على قابس:

لم تبق قابس تحت النفوذ الحفصي بإمارة يوسف ابن الآبار إلا سنة واحدة فقد اغت عبد الوهاب حفيد الأمير عبد الملك فرصة غياب عمه يحي ابن عبد الملك ابن مكي وقيامه بأ فهجم على قابس بمساندة فرسان العرب وبعض من سكان قابس الذين لم يقبلوا بيوسف الآبار وال عليهم من قبل السلطان الحفصي(ولا ندري ما المقصود ببعض من سكان قابس هي بداية للحزازات بين المناطق) فانقضوا على الوالي وقتلوه وتولى الإمارة الأمير عبد الوه لكن ما إن استقر به المقام حتى قدم عمه يحي من الحج فحاول إفتكاك الحكم من ابن أخ فلم يتمكن واتجه نحو الحامة ضيفا عليهم إلا أن الأمير عبد الوهاب قد استعمل الحيلة ون بصاحب الحامة ودفع له فدية مالية مقابل تسليمه يحي فتم له ذلك واعتقل عبد الوهاب ع بقصر العروسين بقابس . وبقيت قابس تحت نفوذه وكان يراوغ السلطان أبا العباس أ ويظهر له المودة والطاعة إلا أنه كان في نفس الوقت يحرض الأعراب على التمرد والعص حتى قلق السلطان وهجم على قابس هجمة جرارة سنتحدث عنها في أهم الأحداث الت حدثت لغابة قابس. لقد أعلن عبد الوهاب الطاعة وتمكن من مصالحة السلطان على أن يبق واليا على قابس ورهن ابنه عنده وبقي إلى أن قضى عليه عمه يحي سنة 750 هجري.

يحي ابن عبد الملك ابن مكي:

بعد سجن يحي ابن عبد الملك ابن مكي بقصر العروسين من طرف ابن أخيه ع الوهاب تمكن من الفرار من سجنه واستجار مرة أخرى بصاحب الحامة الذي كان قد سلم لابن أخيه خيانة منه وعدم وفاء بالعهد فنصره هذه المرة بالمال والفرسان فهجم على قابس واحتلها وتمكن من قتل ابن أخيه وتولى إمارة قابس مستقلا عن الحفصيين لكن السلط الحفصي أبو العباس أحمد في تونس أمر ابنه عمر ابن أبي العباس الحفصي أمير صفاقس بالتوجه إلى قابس لمهاجمة يحي أمير قابس وكانت العلاقة بين صاحب الحامة ويحي قد ساءت م أخرى فساعد الأمير عمر الحفصي على الهجوم على قابس وتمكنوا من الاستيلاء عليها والقض على يحي سنة 796هـ .

وبالقضاء على هذا الأمير انتهى أمر بني مكي في قابس ورجعت إلى سلطة الدولة المركز وكانت الحالة قد ساءت بسبب سوء الحالة الاقتصادية وعدم الاستقرار والفتن التي لم تنته بس الطموحات والرغبات التي كان الأمراء يظهرونها في نزاعهم على السلطة وفي خصام العا نفسها مع بعضها للحصول على الإمارة ولم يبق لدولة بني مكي في قابس من أثر وما يمكن يخلفوه طيلة هذه المدة الطويلة التي قضوها بقابس أو حتى اسم هذه العائلة يكاد لا يذكر قابس وربما توجه أصحابها إلى بعض المناطق الأخرى كما حدث لأمراء دولة بني جامع الت اتجه بعضهم إلى بلاد الشام فاستقروا بها.

الفصل الثاني
العهد التركي (العثماني)
(981 هـ 1117 هـ 1574 م-1705 م)

مؤسس الدولة العثمانية هو "عثمان ابن أرطغرل" وقد أسلم الأتراك في منتصف القرن الرابع هجري، وتمكنوا من فتح القسطنطينية(اسطنبول حاليا) عاصمة الروم البزنطيين على يد محمد الفاتح سنة(857 هـ-1453 م). وقد عظمت الإمبراطورية التركية باستيلائها على أجزاء من أوروبا مثل اليونان وألبانيا ورومانيا وبلغاريا والمجر ويوغسلافيا ومعظم البلدان العربية في المشرق والمغرب إلى الجزائر. ولم يبق من دول المغرب العربي إلا بلاد المغرب الأقصى فلم يشملها الزحف الإسلامي التركي.

لقد احتلت الإمبراطورية التركية مصر سنة (924 هـ-1517 م) وكانت مركز الخلافة العباسية بعد سقوط بغداد وبالاستيلاء عليها تسلم السلطان سليم الأول من الخليفة العباسي المتوكل على الله مقاليد الخلافة المتمثلة في:

1- الآثار النبوية(السيف واللواء والبردة)

2- مفاتيح الحرمين

وبذلك أصبح السلاطين خلفاء

ولقد ذكرنا أن محاولة احتلال تونس كان على ثلاث مراحل. الأولى كانت عن طريق خير الدين بربروس والثانية كانت عن طريق علي باشا والثالثة كانت عن طريق سنان باشا.

وبذلك انتهى العهد الحفصي وانتهى عهد الاحتلال الإسباني ولم يبق لنا من الآثار الحفصية أو الموحدية في قابس سوى معلم سيدي إدريس الذي جدّد كما سنرى في العهد المرادي ولم يبق من ذكر لهم سوى ولاية أبي زكرياء الحفصي على قابس الذي تولى إمارة تونس فيما بعد بمساعدة بني مكي له للاستيلاء على الحكم والسيطرة على تونس، وكذلك هجوم الميورقي(ابن غانية) على غابة قابس.

لقد حاولت الإمبراطورية العثمانية القيام بشيء باسم الدولة الإسلامية وقامت بعدة أعمال في تونس وفي قابس إلا أنها أخطأت.

1- باتباعها سياسة التتريك في المناطق التي استولت عليها أي جبرها الناس على استعمال اللغة التركية وكانت اللغة الرسمية في الإدارة وقد قاوم العرب في المشرق خصوصا هذه السياسة فتكونت الحركة العربية.

2- فرض هيمنتها بالقوة على الجنسيات الأخرى غير التركية وغير العربية مثل بلاد البلقان.

3- لم تفكر في أن هذه الدول الأجنبية التي احتلتها بالقوة وخصوصا الدول الأوروبية كانت تتحين الفرص للانقضاض عليها وهذا ما حدث بالفعل.

لقد تعددت الأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة العثمانية واعتبرت في آخر أيامها من قبل الأوروبيين "بالرجل المريض" يجب اقتسام مخلفاته.

1- فكان نصيب فرنسا بعض الدول العربية ومنها تونس والجزائر والمغرب وبلاد الشام

2- ونصيب ايطاليا طرابلس الغرب

3- ونصيب أنقلترا مصر والعراق إلى غير ذلك...

كان العهد التركي بالنسبة لقابس عهدا عاديا نوعا ما إذ دفعت تركيا بعدد من الجنود الأتراك إلى قابس تجاوز عددهم 370 جنديا تزوجوا من قابسيات وكونوا الجالية التركية ويقود هؤلاء القائد أو المؤدب الشيخ سيدي الحاج ناصف الذي يرجع إليه أما بالنسب أو بالولاء جميع أتراك قابس ومقامه مزار محترم من الجميع ويقوم على شؤونه وتنظيفه وتجديد بنائه عائلة دار لاغة التركية إلا أن المشكل الذي حدث بعد دخول الأتراك إلى قابس هو الصراع الذي حدث بين السكان الأصليين بقابس بمنطقة جارة وهم الجماعيون الذين انتموا بالنسب أو بالولاء أيضا لدويلة بني جامع التي تكونت واستقلت بقابس في منتصف القرن الخامس هجري وقد تعاون الأتراك مع السكان الذين يسمون بالبرانية ضد الجماعيين وهذا ترك حزازات وضغائن بين السكان.

لقد مثل العهد التركي في تونس فترتين:

الفترة الأولى سميت بالفترة العسكرية(981 هـ-1007 هـ) دامت 26 سنة وكان الوالي يلقب بالباشا ومعه الآغا والداي والباي وقابودان رايس وأعوان تونسيين مستشارين.

الفترة الثانية سميت بفترة الدايات والبايات وتكونت فيها الدولة المرادية(**1007هـ-1117 هـ**) دامت 110 سنوات.

انتظم شأن البلاد في عهدهم وتعاون الناس بقانون جديد سمي"بالميزان" ضبط جميع الأنظمة وحدد علاقة الحكومة بالمواطنين والمجتمع ووزع هذا القانون على المواطنين في زمام لونه أحمر.

وازدهرت الحياة الاقتصادية بسبب احتراف صناعة القرصنة، وتوطدت العلاقة التجارية مع الأجانب خصوصا مع الأنقليز والفرنسيين وأعطيت امتيازات لفرنسا خاصة وتمتع قناصلها بتقدير ممتاز عن القناصل الأخرى. (كانت هذه الامتيازات لها تأثير كبير على تزايد نفوذ فرنسا على تونس).

وتولى في هذا العهد 12 وال على تونس وبداية من الوالي الرابع وهو مراد باي(1022 هـ-1041 هـ)الوافق لـ(1612 م-1631 م) سمي هذا العهد "بالعهد المرادي". (كان لها تأثير هام على قابس).

أهم الأحداث التي حدثت في عهدهم:

1- اتخاذ العلم العثماني رمزا للبلاد التونسية وكان لونه أحمر وبعد فتح القسطنطينية تكون من نجمة بثمانية أضلاع والهلال باللون الأبيض

2- تغيير السكة التونسية وأصبحت تحمل اسم السلطان

3- هجرة الأندلسيين بعدد وافر فقد هاجر في هذه الفترة 100 ألف من الرجال والنّساء ساهموا بقسط كبير في تقدم البلاد وازدهارها ودخل إلى تونس علماء وأصحاب ثراء وحرفيين ومزارعين.

4- حدوث اضطرابات على الحدود التونسية الجزائرية في عهد يوسف داي الوالي الثاني وانتهت بصلح(1037 هـ/1627 م)

5- كما تمكن يوسف داي من استرجاع جزيرة جربة إلى سلطته بعد أن كانت تحت نفوذ والي طرابلس

6- حدوث صراع بين إبني مراد باي وهما(محمد وعلي) وانتهى ذلك بموت "علي" لكنه ترك صراعات بين مناصري الجانبين ولعلها بداية الفتنة بين(الحسينية والباشية) التي سنتحدث عنها عند الحديث عن الدولة الحسينية.

7- قيام الثائر محمد بن شُكْر بثورة ضدّ الوالي المرادي بتحريض من السلطة الجزائرية التي كانت تغتنم الفرص دائما لكن تمكن محمد باي من القضاء عليه سنة(1106 هـ/1695 م).

أما بالنسبة لقابس فقد حظيت في العهد المرادي بعناية خاصة خصوصا من ناحية ثقافية وعمرانية فلقد بنيت المدرسة المرادية وجدّد المسجد الجامع سيدي إدريس من أرض السانية ووقع تجديد بناء الضريح وسوف نتحدث عن ذلك في الإبان عند الحديث عن المدرسة كمعلم تاريخي.

لقد اعتنى الأتراك المراديون بالفلاحة وواصلوا غراسة شجرة التوت والهندي والتبغ والخضر وانتشرت تربية دودة الحرير كما ازدهرت صناعة السفن وحضر مراد باي مجالس الأندلسيين الذين جلبوا آلة الأرغن(البيانو) إلى تونس ونشروا المذهب الحنفي بعد أن كان قد وقع إلغاؤه في عهد الأمير المعز ابن باديس ولازال المذهب إلى الآن يتبعه السكان الأتراك، كما قرّروا تطبيق هذا المذهب في بعض الجوامع من تونس ومنها جامع قابس القديم سيدي إدريس(انتهى اتباع وتطبيق قواعد المذهب الحنفي في هذا الجامع وأصبحت الصلاة فيه عادية كل واحد حرّ في اتباع المذهب الذي يريده والإمام مالكي عادة).

إن ضعف الدولة العثمانية في آخر أيامها كان سببا في ضعف نفوذها على دول المغرب(طرابلس- تونس - الجزائر) كما أن إعطاءها لفرنسا بعض امتيازات خاصة تميزها عن الدول الأخرى كان خطأ وكان له تأثير كبير في استيلاء فرنسا على الجزائر وتونس فيما بعد... كما كانت محاولة استغلال الخلافات والصراعات بين القبائل الجزائرية والتونسية على الحدود والتي أذكتها فرنسا بحيلها ومكرها سببا في إضعاف هذه الدولة وهجوم فرنسا عليها.

لقد هاجمت القوات الجزائرية تونس في منطقة الكاف في بداية الأمر على الحدود التونسية في عهد إبراهيم الشريف باشا وهزموا قواته، ولما وصل الخبر إلى العاصمة انتخب السكان كاهية الوالي الحسين ابن علي وبايعوه وقلدوه أمر البلاد وبذلك بدأ العهد الحسيني بتونس.

الدور الحسيني

(1117هـ/1376 هـ) (1705 م/1957 م)

انقسم هذا الدور إلى قسمين:

1- فترة ما قبل الحماية وحكمها 12 بايا(1117 هـ-1298 هـ) / (1705 م-1881 م) ودامت 181 عاما هجريا.

2- فترة ما بعد الحماية(1298-1373 هـ)/(1881 م-1954 م) ودامت هذه الفترة 75 عاما

كانت تونس في الفترة الأولى تابعة ولو صوريا إلى الدولة العثمانية فكانت الفرمانات(قرارات التسمية) تصدر من السلطان العثماني ويذكر اسمه في الخطب الجمعية وتنقش السكة ويذكر فيها اسمه ويلقب الوالي أي الحاكم بلقب باشا ويحمل الشارة أي القفطان(بدلة الحكم) مع التزام الوالي بإرسال مقدار معين من المال كاعتراف من الدولة الحسينية بالنفوذ التركي لكن ابتداء من الباي الثالث "محمد الرشيد 1169 هـ-1172 هـ" كانت الدولة التونسية الحسينية مستقلة عن الدولة العثمانية وخصوصا في عهد حمودة باشا(1196 هـ-1229 هـ) الباي الخامس، فلقد عقدت الدولة الحسينية معاهدات مع الدول الأجنبية دون الرجوع إلى السلطان، كما اعتمدت سفراء لبعض الدول دون الرجوع إليهم وأبطلت مقدار المال الذي كانت ترسله الدولة الحسينية إلى السلطان، كما اتخذت علما لتونس يختلف عن علم الإمبراطورية التركية ولو أنه متشابه معه فهو ذو لون واحد في وسط أرضية بيضاء بها هلال أحمر مع نجمة حمراء وقد حلّ هذا العلم محل العلم العثماني، كما ان محمد باي هو أول من نقش سكة تونسية، ومحمد الصادق باي هو الذي بعث بجريدة الرائد الرسمي الجريدة الرسمية التي تصدر فيها الأوامر والمراسيم التي تخص الدولة، وهي تصدر إلى الآن، ومرّت هذه الدولة بفترتين:

1- فترة السلطة المطلقة حكم تونس فيها 9 بايات أي من 1117 هـ إلى 1253 هـ(نهاية تولي مصطفى باي)

2- فترة الملوكية المطلقة وحكمها ثلاث بايات انتهت في سنة(1299 هـ/1882 م).

أهم الأحداث التي وقعت في عهدهم:

من الأحداث الهامة التي وقعت في العهد الحسيني هي:

1- ثورة علي باشا ضدّ عمّه الحسين والتي انقسم فيها الشعب التونسي إلى حزبين(حسينية وباشية) وسنتحدث عنها كموضوع مستقل نظرا لأهميتها ولأنها تمس قابس بصفة خاصة.

2- ثورة يونس ابن علي باشا على والده انتهت بفرار يونس إلى الجزائر.

3- ثورة(محمد وعلي) إبني الحسين بن علي ابن عمّهم علي باشا بمساعدة الجزائر بعد فرارهما إليها واحتمائهما بها.

4- حجز تونس لمراكب كورسيكية مع بحارتها وسيطرة فرنسا على كورسيكا فيما بعد وادعت بأن المراكب لها وأن التجار فرنسيين وانتهت المشكلة بصلح في عهد علي باي الثاني.

5- إعلان الحرب على البندقية بإيطاليا بسبب سجن تجار تونسيين وحجز وإعدام بضاعتهم انتهت بصلح دفع بموجبه ثمن البضاعة وأطلق سراح المسجونين في عهد حمودة باشا.

6- استيلاء"علي برغل" الطرابلسي على جزيرة جربة وأرجعت في عهد حمودة باشا .

7- الهجرة الجزائرية إلى تونس بسبب احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 في عهد حسين الثاني(1246 هـ-1830م).

8- قام أحمد باي الأول بإصلاحات هامة في الميدان المالي وتبعه في ذلك محمد باي فأحدث أداء المجبى والمقدر بـ 36 ريالا في السنة وعفي منه سكان تونس وسوسة والمنستير والقيروان وصفاقس.

9- إعلان عهد الأمان الذي اعتبر من قبل المعلقين والباحثين من أهم ما سنّ في تلك الأزمنة إذ يعطي حقوق المواطن ويسوي أهل البلاد بالأجانب.

10- إعلان الدستور الذي يعتمد على الحرية الفردية واحترام الملكية الخاصة، والتفريق بين السلط الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية.

11- كما حدثت ثورة ابن غذاهم سنة 1864 في جميع الإيالة التونسية مضاعفة "ضريبة المجبى" من 36 ريال إلى 72 ريال.

وقد لبى هذه الثورة اغلب الشعب التونسي، فاضطر محمد الصادق باي إلى التراجع وجعلها نسبية أي تمتد من 36 ريال إلى 72 ريال. وأحدثت مشاكل في قابس وتأثرت بها كما سنرى ذلك فيما بعد.

إلا أنه بعد تهدئة الأوضاع انتشرت القوات الحكومية لتأديب الثائرين ولجمع الضرائب فأرسل" أحمد زروق" إلى الساحل و"الجنرال رستم" إلى جهة الغرب و"علي باي" إلى الجنوب والجريد وكان نصيب قابس علي باي.

12- تكوين لجنة الرقابة المالية الدولية والتي عرفت بلجنة "الكومسيون المالي"

نظرا لسوء الحالة الاقتصادية (كساد الفلاحة وانتشار الأمراض المعدية والمجاعة وارتفاع الأسعار) اعلنت الدولة عجزها عن دفعها للديون التي اقترضتها بفوائض بإشارة من الأيدي المغرضة ومنهم الوزير الأكبر مصطفى خزندار وتدخلت الأيدي الأجنبية في شؤون الدولة واضطرت حكومة الباي محمد الصادق إلى تكوين لجنة مالية للإشراف على ميزانية الدولة ليتمكن الدائنون من استخلاص ديونهم، وقد أعفى خزندار من منصبه الذي شغله لمدّة 36 سنة وعاصر ثلاث بايات(احمد باي الأول ومحمد باي ومحمد الصادق باي) ورغم انه قد حكّم عليه بإرجاع 30 مليون إلى الخزينة فلم يرجع منها شيئا.

ومن ابرز أعوانه محمود بن عياد الذي يباشر "لزمة الأسواق" الذي جمع ثروة هائلة بسببها وبقي بهذه الخطة لمدة 20 سنة وقد قيل:(السماء للرب والأرض لابن عيّاد) وفرّ إلى فرنسا وتجنس بالجنسية الفرنسية ومعه ما يزيد على 80 مليون(أرجع منها حوالي 15 مليون).

خير الدين وتحسن الأوضاع:

تولى بعد مصطفى خزندار الوزير الأول خير الدين باشا وتولى مع الوزارة الكبرى وزارة

الداخلية والخارجية والمالية(1290 هـ/1873 م).
حاول خير الدين إصلاح الأوضاع وحاول إدخال النظم العصرية في الإدارة فنجح في إصلاح الانهيار الاقتصادي وفي حلّ مشكل الفلاحين الفارين من الأداء.
كان خير الدين يصغي لمطالب الأجانب ويجيب على أغلبها حسب الإمكان إلا أنه لم ينجح في تنفيذ كل أفكاره بسبب الدسائس التي أحيكت له وبسبب ضعف مدخول الدولة فاضطر إلى الاستقالة (1294 هـ/1877 م).

توالت المحن على الدولة الحسينية واشتد الخلاف بين إيطاليا وفرنسا على تونس إلا أن فرنسا قد تغلبت بعد ذلك وتنازلت إيطاليا عن تونس على أن تطلق يدها في احتلال ليبيا، وبتشجيع من يوسف"الليقرو" قنصل الباي في عنابة وكذلك بمساعدة باناربيلو الإيطالي نفذت خطّة افتعال مشكل على الحدود الجزائرية التونسية وأطلق الجزائريون النار على التونسيين ورد التونسيون بالمثل وبذلك وجدت فرنسا حجة للتدخل والدخول إلى التراب التونسي وذلك يوم(29 ربيع الثاني 1298) الموافق لـ(31 مارس 1881) ثمّ سيرت فرنسا جيشا بريا بقيادة" فورج مول" يتركب من 23 ألف جندي كما أرسلت أسطولا بحريا بقيادة الجنرال بريار إلى بنزرت يتركب من 8 آلاف جندي فاحتلت الشمال (الكاف وطبرقة وما حولهما ثم بنزرت من جهة البحر) إلى أن وصلوا قرطاج وفرضوا على الباي معاهدة باردو في (12 ماي 1881) الموافق لـــ(12 جمادي الثانية 1298) وعززت بعد ذلك باتفاقية المرسى في (1300/05/25) الموافق لـــ(1883/06/08). وسوف نتحدث عن المقاومة المسلحة التونسية ومنها قابس للحماية أو للإستعمار الفرنسي في حينه.

عمال أو قياد قابس قبل الحماية الفرنسية:

أما القياد الذين تولوا عمالة قابس قبل الحماية الفرنسية فهم عشرة قياد وولاية قابس تعتبر في العهد الحسيني من أهم الولايات.
قال صاحب التاريخ الباشي"وهي من الولايات الجليلة التي تخفق الألوية على رأس صاحبها وهو أكبر القواد والعمال".
وقد تولاها الحسين ابن علي قبل أن يصبح ملكا على تونس أما القياد فهم على التوالي:

1- أحمد الصغير(1117-1147 هـ):

هذا القايد هو ابن أخ لحمد الغزال قايد الكاف ومن المقربين للباي الحسين ابن علي ومن أنصاره لذا فهو أول قايد تقع تسميته بقابس قبل تغلب"علي باشا" على عمه الحسين ابن علي ودامت ولايته على قابس 30 عاما.

2- علي السبعي:

وهو من العمال الموالين للحسين ابن علي أيضا وعندما حدثت (الفرقة) وحدث صراع بين العم الملك وولي العهد علي باشا ابن أخيه(الذي سنتحدث عنه فيما بعد) التحق علي السبعي بولي نعمته وبالحاكم الشرعي الحسين ابن علي إلى القيروان وحارب معه وعندما تغلب

علي باشا على عمّه وقتله كان علي السبعي في قبضة يونس ابن علي باشا وحمل مكتوفا إلى العاصمة تونس فأمر علي باشا بخنقه بالقصبة سنة 1153 هـ.

وبالقضاء على مؤسس الدولة الحسينية الحسين ابن علي فرّ ابناه إلى الجزائر وخلّفا وراءهما العداوة والضغينة بين سكان البلاد فأنصار الحسينية من جهة وأنصار الباشية من جهة أخرى.

وللتاريخ فإن علي السبعي قد خلف غابة بقابس سميت "بجنان السبعي" قرب زاوية سيدي النجدي وقد بيعت الآن إلى المواطن عبد السلام بن شقرة عن طريق المرحوم محَمد الحمروني الذي اشتراها من جمعية الأوقاف لأنها كانت وقفا من أوقاف الجمعية كغيرها من الغابات والأملاك الأخرى المحبّسة.

3- رجب بن مامي:

تولى عمالة قابس في عهد علي باشا أي في الفترة التي تغلب فيها الباشية على الحسينية. وقد بقي من نسل رجب بن مامي القايد عائلات تنتمي إليه وهي تركية الأصل وتسكن منطقة شط سيدي عبد السلام وبمنطقة جارة وفرع منهم يوجد بالزاوية الغربية بالجماهيرية العربية الشعبية الليبية العظمى وإن مدته في قابس امتدت من 1153 إلى 1160 أي لمدة 7 سنوات.

4- مصطفى بن متيشة:

وهو القايد الرابع الذي تولى عمالة قابس وهي الفترة التي كان يحكم فيها علي باشا (أي الوالي الثاني بالنسبة له). وكان مصطفى ابن متيشة يكره قبيلة الهمامة التي لها عداوة مع قبيلة بني يزيد التابعة لعمل الأعراض أي إلى قابس.

وكانت جماعة نفات متحالفة مع الهمامة أي كانوا حسينيين وجماعة نفات كانت عائلات كبيرة منهم تسكن منطقة شنني وكان ابن متيشة يسلط عليهم الضرائب ويفعل بهم الأفاعيل حتى أنهم استنجدوا بقبيلة الهمامة ورحلوا إليهم فطلب ابن متيشة من الهمامة بتسليمه جماعة نفات فامتنعوا من ذلك، على أن جماعة نفات قد لجأت إليهم واستنجدت بهم إلا أن القايد ابن متيشة قد استعمل معهم الحيلة وحرّض علي باشا باي تونس على الهمامة(13) وأبلغ عنهم عدّة أكاذيب وطلب تأديبهم فتوجه إليهم بنفسه صحبة يونس ابن علي باشا وخادعهم لأنهم التجأوا إلى الجبال وتحصنوا بها، وأرسل إليهم من يعلمهم بأن علي باشا لم يأت لحربهم أو الانتقام منهم بل جاء يطلب منهم العون وإمداده بخمسة آلاف بعير إلا أن "الزعيم فرحات" قائد أولاد معمّر قد تفطن للخدعة وفرّ مع أبناء عمّه إلى الصحراء.

لكن ابن متيشة حال دون فرار البقية منهم فاعترضهم من الجهة القبلية للجبل وكان معه جماعة (من بني يزيد وأولاد يعقوب وأولاد سعيد) من حامّة قابس وكذلك الحزم من جهة قابس وورغمة من جهة مدنين والسواسي بالساحل...

وقد ساعد هذا الهجوم جيش ثان بقيادة"سليمان ابن علي باشا" وحاصر الجبل لمدة حتى

(13) انظر كتاب قابس جنة الدنيا لمحمد المرزوقي عن "التاريخ الباشي" صفحة 443-446

أهلكهم العطش وطلبوا الأمان ونتيجة لذلك:
1- وقع اغتصاب جميع إبلهم البالغ عددها 13 ألف بعير
2- الاستيلاء على أغلب الأغنام
كانت هذه النكبة التي أصيبت بها الهمامة بسبب مناصرتهم لجماعة نفات من أهم النكبات التي أصيبوا بها وذنبهم هو أنهم أجاروا جماعة نفات وحموهم من ابن متيشة عامل قابس.
لقد كانت نهاية هذا القايد هو موته مخنوقا من طرف سليمان ابن علي باشا بقصبة تونس بسبب اتهامه إياه بإثارة الفتنة بين أخويه "يونس ومحمد " وهكذا وقع جزاؤه بما يجازى به كل من يدخل في لعبة سياسية غير مضمونة ويتجاوز الحدود والسلط التي تعطى له وفي التاريخ أحداث كثيرة من هذا النوع.

5- إسماعيل كاهية:

كان إسماعيل كاهية قايد قابس(القايد الخامس 1172 هـ-1196هـ) متزوجا من ابنة الباي"علي باي الثاني ابن الحسين"، وكان محبوبا عنده وقلده المناصب العالية وقد حاول المغرضون النيل منه وإحاكة الدسائس ضدّه، لكن حصافة عقل الباي لم تمكن النصابين من تنفيذ أغراضهم ولما لم يتمكنوا من ذلك عن طريق الباي اتجهوا إلى ولي العهد حمودة باشا فتخوف إسماعيل كاهية منه، وفرّ إلى القسطنطينية(تركيا) فوجد الترحاب والتبجيل، وكلف بالمناصب العالية ثمّ وقع تكليفه بمهمة حاكم ببلاد الشام، واستمر في هذه الخطة إلى وفاته.

وكان نتيجة تولي إسماعيل كاهية عمالة قابس، وبعد انتهاء مدّته وهروبه إلى القسطنطينية حدثت مشاكل كبرى بجهة قابس، وهذه المشاكل تتمثل في الصراع الذي بدأ في تونس وفي قابس بصفة خاصة، لأن هذا القايد كانت قد وقعت تسميته من قبل علي باي الثاني ابن الحسين أي من الحسينية، بعد القضاء على علي باشا وكان لعلي باشا ابن اسمه إسماعيل ابن يونس ابن علي باشا باي الأول وكان قد هرب إلى طرابلس بعد القضاء على ابيه.

لقد تمكن إسماعيل ابن يونس بتحريض من أنصار أبيه ومنهم: "محمد ابن عبد الكريم" شيخ قابس، في عهد علي باشا أي من أنصار الباشية من أن يفارق طرابلس، وانضم إليه جماعة من الأنصار خصوصا " المعزولين من وظائفهم" من قبل إبني الحسين ابن علي مؤسس الدولة الحسينية(محمد وعلي) الفارين إلى الجزائر التي حمتهما إلى أن تمكنا من الرجوع إلى تونس والقضاء على ابن عمّهم علي باشا.

لقد ساند الحمارنة بارث إسماعيل باي وقبلوه بكل ترحاب وأكرموه لكنهم تعذروا له من أنهم لا يتمكنون من مساعدته وكذلك الشيخ محمد ابن عبد الكريم قد راسله ونصحه في هذه المراسلة بعدم الدنو من قابس بعد أن كان قد حرضه على الثورة وعلى القدوم إليها كما أخبره بأن فرق الوجق وعسكر زواوة على استعداد للقائه إن حاول الدنو من قابس، فما كان من إسماعيل باي إلا أن توجه إلى بني يزيد بالحامة وكانوا من أنصار الباشية وبعد استراحة شهر ونصف بالحامة وكان يجمع الأنصار من قبيلتي الحزم والمثاليث ثم توجه إلى الساحل وجعل

مركز قيادته "جمال" وكانت من أنصار أبيه أي من الباشية، والتقى جيش علي باي الثاني وجيش إسماعيل ابن يونس وتمكن جيش علي باي من زعزعته من جمال وهرب إلى جبل وسلات وحاصره إلى أن قضى على ثورته.

أما شيخ مدينة قابس محمد ابن عبد الكريم فيظهر أنه قد ندم على محاولة مساعدة إسماعيل ابن يونس باي وانطوى على نفسه مع الملاحظ وأن اسم عبد الكريم قد وجد في منطقتين بقابس

1- يوجد ضريح في منطقة المنزل باسم سيدي عبد الكريم ولا أعتقد أن هذا الاسم هو الذي ساعد إسماعيل ابن يونس لأن وجود ضريحه بالمنزل لا يساعد على التكهن بأنه هو الذي ناصره لأن منطقة المنزل كانت من أنصار الحسينية رغم أن الحمارنة المتواجدين بقابس هم من أنصار الباشية.

2- هناك دار قديمة بحارة الدخلانية(البلد) لا يملكها أحد ويقال لها(حوش عبد الكريم) ولما سألت عن هذا الحوش قيل لي عن طريق كبار المسنين بالمنطقة أنه يرجع إلى مَحمد ابن عبد الكريم وهو من عائلة الخنايسة التي تعيش الآن في تونس العاصمة ويمكن أن يكون هو الشيخ الذي نتحدث عنه لأن جماعة جارة كانت من أنصار الباشية أي من أنصار إسماعيل ابن يونس ابن علي باشا الأول ولعل البحوث تكشف عن من هو محمد ابن عبد الكريم؟

6- أبو محمد رشيد:

هو القايد السادس الذي تولى عمالة قابس عن طريق أحمد باي الأول أي عن طريق الحسينيين وفي عهد هذا القايد أصبحت الأسواق لزمة أي تباع في كل سنة فغضب سكان قابس وقتلوا مساعد اللزام وهذه الحادثة كان لها تأثير كبير على سير الحكم في تونس إذ قدم أحمد باي بنفسه إلى قابس لتأديب المعارضين والثائرين الذين يسمون في العرف السياسي الحسيني (بالمهزرسين) أي الثائرين أو(المذنبين) أي المتمنعين عن دفع الأداءات.

وسوف نتحدث عن ذلك عندما نتحدث عن الأحداث الكبرى التي وقعت بقابس في العهد الحسيني. هذا وإنّ معارضة أهالي قابس لبيع لزمة الأسواق ترجع إلى أن هذه العملية في نظرهم غير شرعية وباطلة أي ليست إسلامية ويعتبرونها اغتصابا لأموالهم.

7- محمد خزندار:

تولى هذا القايد عمالة قابس سنة 1273 هـ وكان قايدا على سوسة وضمت قابس إليه بأمر من "محمد باي الثاني" الباي الحادي عشر لفترة ما قبل الحماية 1271 هـ-1276 هـ.

وأهم الأحداث التي حدثت في عهده هو توجهه إلى قبلي لإخماد ما يسمى بفتنة الشيخ غومة المحمودي وهذا الشيخ ليبي الأصل التجأ إلى قبلي سنة 1274 هـ واحتماؤه بقبلي يرجع إلى أن سكان قبلي كانوا من قبيلة المحاميد وهم أبناء عمّه. ولما طلبت حكومة الآستانة في إسطنبول طرد غومة المحمودي الثائر والهارب من طرابلس، أمر الباي محمد خزندار عامل قابس بالتوجه إلى قبلي لطرد هذا الثائر أو القبض عليه حسب تعليمات الإمبراطورية العثمانية، وكانت قبلي

في ذلـك الوقت تابعة لقابس ترابيا. لكن الثائر غومة المحمودي فرّ من قبلي متوجها إلى الصحراء لما أحـسّ بـالقوة القادمـة إليه، ولما وصل محمد خزندار إلى قبلي اقتبله بعض الأعيان واعتذروا إليـه عـن قـبولهم الشـيخ غومـة المحمـودي، لأنـه لا قـبل لهم بمقاومته، كما أنه قُبل كضيف، لكن عـامل قـابس الداهيـة محمد خزندار قبل عذرهم في الظاهر، وأضمر لهم الشرّ، كما يشير الأستاذ مَحمـد المـرزوقي في روايـته عن هذه الحادثة وطلب من الوفد اختيار من يريدونه ليكون شيخا عـلى الـبلاد. فاخـتاروا الشيخ دراويل وهو من العائلات العروفة في قبلي إلى الآن، وألبسه العامل محمـد خـزندار الـبدلة الحمـراء المهـداة مـن الباي حسب زعم العامل، وبات سكان قبلي في أفراح ومسـرّات. وبعـد منتصـف الـليل هجمـت قـوات محمـد خزندار على السكان وعاثت فيهم فسادا وافـتكت الـبعض مـن نسـائهم ونهـبت أرزاقهم وبيعت البلدة إلى أحد سكان جمنة الأغنياء إلا أنه بعـد أن تـولى احمـد بـن حمادي خطة كاهية بقبلي وهو من سكانها ومن العائلات المعروفة بقبلي جمـع الأمـوال واسـترجعت أمـلاك السـكان لكن أحمد بن حمادي لم يكتف بذلك وادعى على أهالي جمـنة بـأنهم امتـنعوا مـن دفع الأداءات وأعلنوا العصيان فهجم عليهم هجمة انتقامية (1294 هــ-1876م) فعـذب سـكانها وشـردهم ونهـبت أرزاقهـم وبقيـت هـذه الحادثـة يؤرخ بها في جمنة فيقال(عام خلاء جمنة) كما يؤرخ (بعام خلاء قبلي).

وفي الواقـع أن هـذا الانتقام من قبل الخليفة أحمد بن حمادي من أهالي جمنة لا يرجع إلى الـثأر مـنهم فقـط لأنهم حقروا بلدة قبلي واشتروها، لكن يرجع هذا الانتقام أيضا إلى الصراع القديـم الـذي فـتك بالـبلاد التونسـية وفتـتها شـيعا، وهـو الخـلاف بـين أنصـار الباشـية وأنصار الحسينية حيث كان أهالي جمنة من الحسينية وأهالي قبلي من الباشية.

يقول الأستاذ مَحمد المرزوقي في كتابه صراع مع الحماية صفحة 42 و 43 .

(وهكذا كانت هذه القوى العسكرية بدل أن توجه إلى إرجاع الأمن ترسل لتقتيل السكان ونهب أرزاقهـم فـلا تكون النتيجة إلا غضب السكان واندفاعهم عن طريق الفوضى والعبث والإفساد) صـحيح مـا قالـه الأستاذ المرزوقي لكن بالإضافة إلى ذلك فإن ما مزق الشعب إلى شيع وملل هي الخلافـات الـتي انجرت مـن تـأييد هـذه القـوى الداخـلية للانتصـار والانتصـاب عـلى العرش أو معارضـتها والوقـوف ضـدها لـتأييد شـقّ ثـان هـو غريب أيضا عن البلاد وغايته الاستيلاء على الحكـم والانتصـاب منتصـرا عـلى الشـق الـثاني وبقي الشعب يتأرجح بين هذه القوى وضاعت مصـالحه وانـتهكت حرمته واستعمل كأداة لتحقيق مآرب الآخرين وعندما استفاق من غفوته وجد التشرذم والانقسام وضاعت المصالح وبقي هذا الداء ينخر عظام الأمة.إلى الآن...

كمـا أن الحـاكم قـد وجـد الفجوة الـتي يمكن النفوذ منها للانتصار على شق دون الشق الآخـر، فانـتقم ونهـب الأرزاق وأغضـب السـكان ولم يـتمكن من السيطرة على الوضع. وأخيرا نشـير إلى أن الـرواية الـتي أوردهـا الأسـتاذ المـرزوقي حـول هـروب الـثائر غومـة المحمودي إلى الصـحراء عـندما أحس بقوة قادمة إليه وكذلك حول بيع مدينة قبلي إلى أحد أثرياء جمنة فإننا

تشير إلى أن الرواية التي يوردها ابن أبي ضياف وكذلك الرواية المتواترة من أهالي تلمين(14) هي التالية:

إن غومة المحمودي لم يهرب إلى الصحراء إلا بعد صراع وقتال بينه وبين أنصار الباي ويمثلهم محمد الحبيب(15) بن حسين بن احمد السوداني خليفة تلمين وهو ممثل الباي في المنطقة وقد تعاون هذا الأخير بالجيوش التي أرسلها الباي له من قابس وكذلك بالنجدة التي جاءته من الهمامة بقيادة(16) عمار بن عمار بن خليفة المكناسي وبعد براز وصراع كبير لجأ الثائر غومة المحمودي إلى الصحراء. أما بالنسبة لاشتراء بلدة قبلي من طرف أحد أغنياء جمنة فالرواية التي توجد بتاريخ ابن أبي ضياف (الجزء الرابع) بالهامش صفحة 243 إنّ الذي اشترى مدينة قبلي هو خليفة تلمين محمد الحبيب الذي ذكرناه سابقا بـ 125 ألف ريال صغرى تونسية بعد أن هدمت بلادهم وهتكت حرمة نسائهم من أمير الجيش وأتباعه ورسم عملية البيع مؤرخ في 29 ربيع الأول 1274 وهذه الرواية الثانية يؤكدها حفيد من أحفاد الخليفة وهو القاضي الحاكم محمد الحبيب بن لامين وهو متقاعد وعلى قيد الحياة إلى الآن ويعيش في قابس.

8- الفريق سليم:

هذا القايد عسكري الرتبة تولى ولاية قابس سنة 1280 هجري في عهد محمد الصادق باي إلا أن مدّته لم تطل وكان موصوفا بالدهاء وكان رئيسا لمجلس "الضبطية" في الحاضرة وسافر لجبل الرؤيا لحملة زواوة إلا أن هذا العسكري لم ينجح فبقي يترقبهم بخيمته ومعه المخازنية ولما تجمع لديه عقد من الفرسان تصرف بمطلق الحرية للمطالبة بالجباية لكن شدّته انتشرت في الآفاق وخيّر الناس المقاومة وصوت الرصاص واقفين خير من مماتهم بمطارق التعذيب وهم لا حول لهم ولا قوة.

9- أحمد زروق:

تولى عمالة الأعراض بأمر من محمد الصادق باي 1881 هجري إثر ثورة علي بن غذاهم وكان سبب هذه الثورة هو مضاعفة ضريبة المجبى التي تحدثنا عنها من 36 ريالا إلى 72 ريالا إلا أن السكان لم يقبلوا بذلك فثاروا ثورة عارمة ضد الباي ولم تنته الثورة إلا عن طريق الخدعة بأن أصبحت الضريبة نسبية أي تبدأ من 36 ريالا إلى 72 ريالا ووقع الإعلان عن العفو العام إلا أن ذلك كان مراوغة من الباي وقضى على الثوار نسبيا إلا أنه لم يقض على روح الثورة فقد هرب كثير من المناضلين والمعارضين للحكومة واستخلصت الدولة أموالا طائلة من السكان مما كان سببا في سوء الحالة الاقتصادية وفي تدهور الأوضاع.

10- أبو الحسين حيدر:

تولى هو الآخر في عهد محمد الصادق باي 1282 هجري وكانت الحالة الإقتصادية تـــزداد

(14) هي مركز الخلافة في تلك الفترة وهي المنطقة المسماة الآن بمعتمدية سوق الأحد.

(15) عائلة الخليفة محمد الحبيب تعيش إلى الآن بالمنصورة معتمدية سوق الأحد ولاية قبلي.

(16) هذه الرواية ذكرها لي حفيد من أحفاد الخليفة القاضي محمد الحبيب بالأمين

سوء وكذلك الحالة الصحية. فلقد انتشرت الأمراض المعدية في قابس في ذلك الوقت فانتشر مرض الكوليرا كما انتشر مرض التيفوس 1284 فقضت هذه الأمراض على عدد كبير من السكان حتى أن هذا التاريخ يؤرخ به في قابس فيقولون عام (الكوليرا) أو عام (التيفوس) .
وحدثت مجاعة في البلاد، وارتفعت الأسعار وساءت الحالة وهذا أدى إلى ضعف المنطقة وإلى عدم الارتياح لتصرفات الحكومة مما سهل دخول الاستعمار ودخول فرنسا بتونس والتي كانت تترقب ذلك بفارغ الصبر.

فترة ما بعد الحماية الفرنسية(1298 هـ-1373 هـ-1881 م-1955م)

تمكنت فرنسا بعد الدسائس والمؤامرات، وتكوين اللجنة المالية، والاتفاق مع الدول الأوروبية في ضم تونس إلى سلطتها بعد أن استولت على الجزائر، وادعت في أول الأمر بأنها جاءت لحماية البلاد، وفرضت على الباي محمد الصادق معاهدة باردو، ثم اتفاقية المرسى، وبالتدريج أصبحت تونس " محمية فرنسية" بل أصبحت مستعمرة تابعة لفرنسا مثل أختها الجزائر. لقد قسمت البلاد في هذا العهد إلى 36 عمالة (ولاية)، وبها 750 شيخا وهم عيون العامل(القايد) وكلها خاضعة للرقابة الفرنسية عن طريق المقيم العام بتونس، ونوابه المراقبين المدنيين في الجهات، وعددهم 21 دائرة بالإضافة إلى المنطقة التي اعتبرتها فرنسا منطقة عسكرية(مدنين- تطاوين وقبلي) يحكمهما جنرال يقيم بقابس ومقسمة إلى 6 دوائر حكومية تعرف "بمكاتب الشؤون الأهلية" ودام هذا النظام إلى سنة 1340هـ-1922م ثم أحدثت هيئة استشارية تعرف "بمجلس العامل" يرأسها العامل (القايد) وأعضاؤها تونسيون، وقسم التراب المدني إلى خمس مناطق تونس، بنزرت، الكاف، سوسة وصفاقس . ولم يشمل هذا التقسيم منطقة قابس، وفي سنة 1362 هـ 1943 م أحدثت منطقة سادسة شملت منطقة قابس وبكل جهة مجلس جهوي يرأسه المراقب المدني.

لقد حكم في هذه الفترة 8 بايات أولهم "محمد الصادق باي" وآخرهم "محمد الأمين" سيطرت فرنسا على البلاد سيطرة تامة، وأصبح العلم الفرنسي يرفع مع العلم التونسي في جميع الإدارات، وبقيت رمزيا الطغراء(العلامة المميزة للملكية) معلقة فوق قصر باردو وفي الأوراق الرسمية والطوابع البريدية وغيرها... وأحدث نظام الأمن العام في جميع البلاد وكان التعليم عصريا وتقليديا، وفتحت فروع لجامع الزيتونة بالجهات ومنها قابس، ووقع الاعتناء بالصناعات التقليدية الزربية بالقيروان والكليم بوذرف قابس، وتطورت التجارة بين قابس وجربة وقرقنة وصفاقس عن طريق البحر، كما أنشئت إدارة الأوقاف.

كانت ترسل إلى مكة في هذه الفترة كمّية من المال سنويا وتسمى "بالصرة" لتوزع على فقراء مكة، ونشطت حركة الطرق والزوايا لحاجة في نفس يعقوب وذلك ليتلهى الناس ويلتحقون بهذه الزوايا، ويتركون السياسة رغم أن الغاية الأصلية لهؤلاء الطروقيين هي غاية شريفة في الغالب، غرضها أداء الأذكار ومدح الرسول، والقيام بالصلاة، فتكونت في قابس طرق العلوية والعيساوية والقادرية والمدنية والسلامية والتيجانية.

البـــاب الخامس

الفصل الأول

أهم الأحداث التاريخية بقابس

من أهم الأحداث التاريخية التـي وقعت في قابس وأثرت على سير حياتها هو:

أ- الهجوم على واحة قابس ابتداء من(79 هـ-648م)

ب- هجـوم بعـض المغامرين على قابس (قراقوش الأرمنـي) ابتداء من 583 هـ وعلي الميورقي وأخيه يحي الميورقى ابتداء من581 هـ

ج- الصراع على الملك أو الحركة الحسينية والباشية (1117 هـ-1705م)

د- بوارق عصيان في الأعراض"قابس" (1256هـ-1840م)

هـ- ثورة علي بن غذاهم 1864

و- هجوم فريق من بني يزيد على قابس(1285هـ-1870م)

I- الهجومات على واحة قابس

من الأحداث الكبرى التـي حدثت بقابس هي الهجومات التـي وقعت على واحتها

1- هجوم الكاهنة على قابس:

قبل انتصـار المسـلمين عـلى الكاهـنة بقيادة حسان ابن النعمان سنة 79 هـ الموافق لـ 648م كـانت قـد هاجمت قابس وحاصرتها ثلاثة شهور فلما عجزت عن فتحها وكان الجند وأهل البلد قـد تحصـنوا بالسور وبالخندق، وقفلوا الأبواب، فما كان من الكاهنة إلا أن قطعت الأشجار والغابات الـتي كـانت تمتد مـن قابس إلى مطماطة أي إلى سيدي قناو (بالقرب من بنـي عيسى) وكـانت هـذه الغابة تشتمل على شجر التوت والنخيل والتفاح والعنب والرمان وغيرها ومما يؤكد هذا الهجـوم هو وجود المقر الذي استقرت به الكاهنة أثناء هجومها وهو مكان معروف إلى الآن بمطماطة(بتل كويست).

2- الزحف الهلالي وواحة قابس:

لقـد أشـارت دائـرة المعارف الإسلامية بأن قابس لم تتضرر كثيرا من الزحف الهلالي، ولم تحدث بها أضـرار كـثيرة كـبقية القطر التونسي. صحيح أن الزحف الهلالي كان قد كتب بمبالغة كـبيرة وبافـراط في وصـف الحمـلة مـن طـرف المؤرخـين القدماء، على أنها حملة تخريبية هدامة وهـذا بصـفة عامـة، إلا أن الـزحف عـلى قـابس مـن قبلهم كـان بطريقة محدودة لأنهم لم يمروا بالمديـنة والغابـات الآهـلة، لقد كان مرورهم بالطريق القديمة طريق الحامة بالقرب من سهول أم الشياه قريبا مـن جبل الظاهـر، وكـان ذياب ابن غانم يحمي الإبل من "المرقب" المسمى إلى الآن "مرقب ذيـاب" كمـا أن جمـالهم لا تحـتاج إلى منـتوجات الغابـة، إذ قـد وجـدوا مرعاهم بمنطقة أم الشياه، كما أن المعركة الكبرى التـي حدثت بقابس سنة 444 هـ و1013م كانت بشمالها بمنطقة حيدرة أو حيدران شرق المطوية بين(وادي العكاريت ووذرف). والمكان الذي وقعت فيه المعركـة

يسمى إلــى الآن بمندبة الهلالية.

3- **هجوم تميم ابن المعز على قابس:**

هجـم تميـم ابن المعز أمير المهدية على قابس سنة (489هـ-1058م) بسبب خلاف بينه وبين امـير قـابس المعـز ابـن ولمويـه الصـنهاجي وذلـك بسـبب تقـرب ابـن ولمويه من مؤنس ابن يحي الـرياحي من بنـي هلال، وكذلك تقربه من عمر ابن المعز(أخو تميم أمير المهدية). وكان في خلاف معـه فمـا كـان مـن تميـم إلا أن هجـم على قابس برا وبحرا، فاستسلمت له البلاد، وقد نال الغابة كـثير مـن التخريب والفساد أثناء هذا الحصار لأن السكان قد احتموا بها، إلا أن هذا الاحتلال لم يـدم طويـلا إذ سـرعان مـا حكمـت قابس دولة بنـي جامع سنة 490هـ وفي هذا الاحتلال يقول أحد الشعراء:

ضحك الزمان وكان قدما عابسـا — لما فتحت بحد سيفك قابسـا
الله يعلم ما حوت ثمارهـا — إلا وكان أبوك قبل الغارسـا
اصدقت عذرتها نكاحا جائـزا — سمر القنا وبواترا وفوارسـا
من كان بالبيض القواضب خاطبا — حلت له بيض البلاد عرائسـا
فابشر تميم ابن المعز بفتكـة — تركتك من اكناف قابس قابسا
ولوا فكم تركوا هناك مصانعـا — ومقاصرا ومخاددا ومجالسـا
فكلنا قلب وهن وسـاوس — جاء اليقين فزاد عنه وساوسا

4- **هجوم الميورقي(1) على قابس:**

بعـد هـروب نـائب قـراقوش الأرمـنـي الـذي كان يحكم قابس وتولية الموحدين ابن أبي حفـص المعـروف "بابن تافراجين" واليا على قابس هجم يحي ابن إسحاق الميورقي عليها سنـة (591هــ-1160م) ونـزل بمنطقة عين زريق وأنذر أهل قابس وحذرهم من الهجوم وطلب منهم الإستسـلام. ومما قالـه في هـذه الرسـالة(2) " ولا تغـتروا بأهل طرابلس فلو كان لهم سواد يُقطع ومياه تصدع لجروا إلى الطاعة وحملوا أنفسهم منها فوق الاستطاعة..."

إلا أن أهـل قـابس لم يستسلموا في الأول وحاصرهم حصارا شديدا، وقطع جميع غابة قابس ولم يـبق مـنها إلا نخلة واحـدة عبرة لهم، كما يذكر ذلك التـيجاني في رحلته(وسوف نتحدث عن هذه الهجمة عند حديثنا عن هجوم بعض المغامرين على قابس)

5- **هجوم أبي زكرياء الحفصي على قابس سنة (685هـ-1254م):**

لقـد هجـم أبـو زكـرياء الحفصـي حـاكم تلمسـان على قابس بعد فشل هجومه على سلطان تونس أبي حفص وقد توجه أبو زكرياء إلى الجنوب أي إلى قابس بعد هـذا الفشـل

---

(1) الميورقـي هـو يحي ابن إسـحاق الميورقـي الملقب بابن غانية نسبة إلى جدته غانية من نسل المرابطين والميورقي نسبة إلى ميورقا جزيرة بالقرب من المغرب

(2) رسالته المشهورة والمطولة والتـي أرسلت لأهالي قابس قبل فتحها والهجوم عليها

وأحرقت الغابة، وقد أشار ابن خلدون إلى هذا الهجوم إلا أنه قد ذكر وأنه قد وقع في سنة 687 لا في سنة 685 كما ذكرنا ذلك.

6- هجوم السلطان الحفصي أحمد الثاني:

لقد وقع هذا الهجوم في عهد حكم بني مكي لقابس سنة (625هـ-796م) بعد حكم الحفصيين لها بجيش كبير وقد حوصرت المدينة، ودخل الجيش الغابة، وقطع نخلها، ووقع التغلب على بني مكي، وقد ذكرنا ذلك عندما تحدثنا عن دولة بني مكي المستقلة بقابس.

7- الهجوم على غابة الحامة وتبلبو:

من الغابات المنتشرة والمزدهرة في ذلك الوقت هما واحتي تبلبو والحامة فلقد هوجمت واحة تبلبو في نهاية القرن السابع هجري وأشار إليها التيجاني بقوله:

"وكان به أي منزل تبلبو(هكذا يسميه) قبل هذا غابة نخل فقطعت أيام مخدومنا بقابس، ولم يبق منها إلا نخيلات قليلة في مواضع متناثرة منه"

أما الهجوم على غابة الحامة، فكان من قبل حمودة باشا المرادي (1045 إلى 1614) بعد أن ثارت الحامة وخرجت على طاعته لمدة سبع سنوات، ويذكر المؤرخون بأن حمودة باشا قد نصب المدافع وقطع نخلها حتى فتحها، فقتل رجالها وسبي نساءها ونهب أموالها وباع أولادها.

هذه أهم الهجومات والزحفات التي أصيبت بها واحة قابس ذلك أن هذه الواحة كانت لها أهمية إستراتيجية واقتصادية وتاريخية منذ العصور الأولى، والذي يعجز عن احتلال قابس ينتقم من غابتها وواحتها فهي مصدر القوة ومصدر الثراء.

ب - هجوم بعض المغامرين على قابس

من الأحداث الكبرى التي حدثت بقابس وكان لها تأثير على حياة السكان وعلى سير وتطور البلاد هو هجوم بعض المغامرين عليها وقضاؤهم على واحتها والسيطرة عليها.

ومن هؤلاء المغامرين من قدم من المغرب الأقصى وهم يرجعون إلى المرابطين إلى عائلة "مُحمد الميورقي جدهم" الملقب بابن غانية ومنهم من قدم من المشرق من مصر وهو قراقوش الأرمني.

عائلة مُحمد الميورقي:

ترجع عائلة الميورقي إلى محمد الميورقي وإلى دولة المرابطين بالمغرب الأقصى وعاصمتها مراكش، واسم مؤسسها هو محمد ابن علي ابن يحي الميورقي المسوفي، حاكم جزيرة ميورقة لمدة 10 سنوات قبل ظهور دولة الموحدين. ولما ظهرت الدولة الموحدية بالمغرب اعتزل محمد الميورقي السياسة، وعهد لابنه عبد الله بالحكم في الجزيرة، إلا أن الحاكم الجديد قد وجد معارضة شديدة من أخيه إسحاق، إذ لم يرض بتسمية أخيه عبد الله على الجزيرة ولا ندري هل أن هذه المعارضة كانت لعدم كفاءته، أم كانت حبا في الحكم من طرفه، ورغبة في السيطرة والنفوذ وتمكن من القضاء عليه وعلى أبيه أيضا سنة 546هـ وأظهر الطاعة للموحدين إلا أن المنية لم تتركه وهو (قاتل أبيه وأخيه) فقد توفي سنة (558هـ) وترك 12 ولدا ذكرا أكبرهم محمد الذي تولى الحكم بعده واتصل بأبي يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن الموحدي ليعلن له الطاعة. فأراد

أبـو يعقـوب أن يكشـف عن نواياه الحقيقية بإرساله أحد خاصته، إلا أن الأخوة قد غضبوا من هـذا التدخل من قبل حاكم مراكش فالقوا القبض على أخيهم محمد وولوا مكانه أخيهم "علي الميورقـي وهـو الابـن الثاني لإسحاق ". وبعد وفاة صاحب مراكش أبو يعقوب وتولى ابنه يعقوب المنصـور سنة (580هـ) فارق علي الميورقي(ميورقة) وولى مكانه أخيه طلحة وهو الابن التاسع من الأخوة الاثنـي عشر ومن هنا تبدأ المغامرات لعائلة محمد الميورقي.

لقـد غـادر عـلي الميورقـي الـبلاد وأراد أن يجـرب حظـه، ورحـل في أسـطول ضـخم مجهز بـالمعدات وانطـلق إلى مديينـة بجايـة بالمغـرب الأوسط(الجزائر) فاستولى عليها، ثم اتجه نحو الجزائر العاصـمة فاسـتولى عـليها أيضـا ثـم إلى مدينتـي مليانة وقسنطينة، فأحدث الأهوال في المناطق الـتـي وصـلها فمـا كان من حاكم مراكش "يعقوب ابن منصور" إلا أن وجه إليه جيشا واسترد المناطق التـي استولى عليها ففر إلى الصحراء.

وهـذا هـو الفشل الأول الذي أصيبت به عائلة الميورقي المغامرة، ثم اتجه نحو مدينة قفصة فاسـتولى عـليها لكـنه لم يسـتطع الاستيلاء على مدينة توزر وكان جيش الموحدين يلاحقه ففر إلى طرابـلس الغـرب. وفي طرابـلس وردت عليه الأخبار من ميورقة بأن أخاه محمد السجين من طـرفه قد فر من سجنه، واتصل بالموحدين، وأرجعوه إلى الحكم في ميورقة، وكان يحكمها آنذاك أخـوه طلحة الذي عين من طرف أخيه علي، فما كان من علي إلا أن وجه قطعا من أسطوله بقيـادة أخيـه عـبد الله (الأخ الـرابع) والـذي كـان يرافقه . وعند وصوله وجد أهالي الجزيرة قد أزاحـوا محمدا مـن الحكـم وولـوا مكانه الأخ الثامن "تاشفين" فما كان من عبد الله إلا أن عزل أخاه وتولى هو زمام الأمور وذلك سنة 583هـ.

وهكـذا كـانت الجزيـرة تـتلاعب بهـا الأهواء، ويتنافس فيها الأخوة الأعداء، وكأن مركز الحكـم في مـراكش ليـس لـه السيطرة المباشرة على الجزيرة، كذلك يبدو أن عائلة الميورقي هي الـتـي كـانت تسـيطر على الجزيرة، وأما بقية الناس فليس لهم دور يذكر، وضاعت بذلك مصالح الـناس والاهـتمام بالبـناء والإنشـاء والـتقدم، واعتـبار المسـؤولية المناطة بعهدة الدولة كلا شيء فـالمهمّ هـو الاسـتيلاء عـلى الحكـم واعتـبار مصـالح الناس ثانوية عندهم، وهذا يبدو من تطور الأحـداث الـتـي استعرضناها وعلى أن الجزر دائما في التاريخ تنتج الأبطال، والمغامرين والزعماء، فقـد ظهـر نابـليون بونـبارت في جزيـرة "بو" الصغيرة في فرنسا وظهر الزعيم فرحات حشاد في جزيـرة قرقـنة وظهـر الـزعيم بن يوسف في جزيرة جربة وغيرهم كثير...لكن بعض المغامرين يـنجحون وبعضـهم يفشـل وهكذا السياسة فقد تغدر بصاحبها، وتوصله إلى حتفه أو قد تفوز به وتوصله إلى أهدافه.

التقاء المغامر قراقوش الأرمنـي بالمغامر علي الميورقي:

المغامـر قـراقوش الأرمنـي هو المغامر الشرقي الذي قدم من مصر لفتح أفاق وأراضي جديدة لسيده صلاح الدين الأيوبي، أو الاستيلاء عليها لنفسه، لأن البطل صلاح الدين في مصر كـان مـتخوفا من أميره نور "الدين زنكي" صاحب الشام، لأنه قد أحس بوحشة منه، فأراد أن

يجد مكانا آمنا يلجأ إليه عند الحاجة في المشرق أو في المغرب، فتوجه قراقوش الأرمني إلى المغرب ليؤمّن لـه مكانا آمنا فتمكن من فتح بعض المناطق من ليبيا منها (سنتارية، وزلة وزويلة بني الخطاب وتوجلة ثـم جبل نفوسة ثم طرابلس) ومنها اتجه نحو "قابس" فاحتلها وهنا التقى مع المغامر المغربي علي الميورقي فاتفقا معا على مقاومة الموحدين، ولما سمع بهما المنصور أرسل لهما جيشا التقى بهما في "حامة قابس" فتغلب عليهما وطاردهما حتى مدينة توزر فالتجئا إلى الصحراء، ورجع جيش المنصور إلى قابس فاستولى عليها وقضى على أنصار قراقوش وكانوا قد تحصنوا بقصر "العروسين" بقابس، وقد أرسلهم إلى مراكش ليحكم صاحبها فيهم وولى على تونس أبي زيد الموحدي، ورجع بعد ذلك إلى مراكش. أما علي الميورقي فقد أصيب بسهم طائش في معركة حربية فمات في نفزاوة(بقبلي) وعوضه أخاه يحي الميورقي (الأخ الثالث) الذي قام بدور كبير في المغامرات كما سنرى.

يحي ابن أبي إسحاق الميورقي:

هو يحي الميورقي وهو الأخ الثالث من أبناء إسحاق الميورقي الاثني عشر. لقد تمكن هذا المغامر وهو الذي ارتبط اسمه بقابس من احتلال بسكرة بالجزائر ومن قطع نخيلها، وفتح بلدان أخرى من المغرب الأوسط، ثم تحول إلى تونس فاحتل بلاد الجريد ونفزاوة، وقد حدث خلاف بينه وبين قراقوش الأرمني لاختلاف المصالح هذه المرة إذ لما كانت مصلحة قراقوش متفقة مع مصلحة علي الميورقي(أخو يحي) وهو القضاء على الموحدين خططا معا لمقاومة الموحدين، ولما كانت غاية كل من يحي الميورقي وقراقوش الأرمني هو السيطرة على بلاد الإسلام لضمها إليه وحده دون مشاركة الطرف الأخر اختلفت المصالح وكان قراقوش يسيطر على طرابلس فاتجه إليه الميورقي ثم رجع لقابس فاحتلها سنة 591هـ.

أما كيف تم احتلالها فهو كما يلي:

لقد نزل جيش يحي الميورقي بقابس وحط رحاله بالمنطقة المسماة إلى الآن بعين زريق جنوب قابس، وكان حاكم قابس في ذلك الوقت "ابن تافراجين" من طرف الدولة الموحدية فحاصرها الميورقي، ولما عجز عن إخضاعها هجم على غابتها ولم يبق من نخيلها إلا نخلة واحدة عبرة لأهلها ثم تصالح معهم على شروط:

1- أن يدفع أهالي قابس 60 ألف دينار كغرامة حربية

2- أن يخرج الوالي "ابن تافراجين" مع أهله إلى تونس دون أن يقع المس به من طرف الميورقي.

وفي فتح قابس من طرف يحي ابن إسحاق الميورقي، يقول الكاتب ابن عبد البر ابن فرسان كاتب الميورقي الخاص والمصاحب له في الحملة مخاطبا أهالي قابس، ومحذرا إياهم من مغبة مقاومتهم لصاحبه يحي ابن إسحاق الميورقي، وقد ذكرنا البعض من فصولها سابقا لكننا سنذكرها كاملة عند حديثنا عن أقوال بعض المؤرخين والشعراء والكتاب عن قابس في حينه.

أما يحي ابن أبي إسحاق الميورقي فقد اختلف بعد احتلاله قابس مع صاحب المهدية محمد ابـــن

عـبد الكـريم الـذي تجاسـر عـليه، وحـاول احـتلال قـابس، لكـنه لم يفـلح فلحق به يحي الميورقي بالمهديـة وقضـى عليه، واحتلها في سنة 599 هـ ثم احتل تونس ثم اتجه نحو القيروان وصفاقس وأصـبحت تونـس تقريـبا كـلها تحت حكمه، وكان يخطب في هذه المدن للخليفة العباسي فاغضب بذلـك دولـة الموحدين فقدم عليه من المغرب أمير المؤمنين الموحدي الناصر ابن المنصور فاحتل تونس والمهدية وقابس سنة 601هـ.

أمـا يحي ابـن أبـي إسحاق الميورقي فقد فر إلى طرابلس، فلحقه "أبو محمد ابن الشيخ أبي حفـص شـيخ الموحدين" والتحم الجيشان قرب " تاجرا" بمدنين فألحق به هزيمة كبرى وفر تاركا أمواله غنيمة للموحدين (3) وطاردوه إلى طرابلس.

وهكـذا كـانت قـابس وطرابـلس مسـرحا لـلمغامرين سـواء القـادمين مـن المشـرق أو القـادمين مـن المغـرب لأنهمـا لم تقـع السيطرة عليهما من طرف الدولة المركزية الشرقية منها والمغربية فكانتا عرضة للهجومات وطعمة سائغة للمغامرين.

ثـم ظهـر هـذا المغامـر مرة أخرى بالمغرب في سجلماسة ثم بالجزائر ثم بطرابلس مرة أخـرى ثـم حاصره الموحدون في "ودان" جنوب غرب طرابلس ففر إلى منطقة الزاب من المغرب الأوسـط، وقـد تمكـن الموحـدون في عهد "أبي زكرياء الحفصي حاكم قابس" سابقا وحاكم تونس بعـد ذلـك مـن القضـاء عـلى هـذا المغامر ومات جريحا سنة (631هـ) بعدما دوخ العالم الإسلامي المغربي مدة نصف قرن، ومن غرائب الصدف أن يرسل هذا المغامر الجريح إلى عدوه أبي زكرياء الحفصـي وهو حاكم تونس ببناته الثلاثة ويوصيه عليهن كما يوصيه بعدم تزويجهن وعشن كما يـروى (عوانـس) وهـي فكـرة شـاذة كمـا يلاحـظ تصدر عن مغامر لم يرد بأن يُنتقم من بناته بالزواج وربما من أزواج كانت غايتهم من التزوج بهن الانتقام من هذا المغامر.

4930878

لقد قال ابن خلدون في موضوع بنات الميورقي

"لقـد أخـبرني والـدي أنـه أدرك واحـدة مـنهن سنة (710 هـ) وهي تناهز التسعين من السنين وكانت من أشرف النساء نفسا وأسراهن خلقا وأزكاهن حالا"

ويقـال أيضـا نقـلا عـن كتاب قابس "جنة الدنيا" للأستاذ مَحمد المرزوقي أن ابن عم لهن خطب إحداهـن بواسـطة أبـي زكـرياء فلما خاطبها أبو زكرياء في ذلك أجابت لو كان ابن عمنا ما كفلنا الأجانب" فلم يزوجها الوصي أبي زكرياء ونفذ وصية والدهن.

لقـد سـكن هؤلاء البنات قرب باب من أبواب تونس سمي من وقتها (بباب البنات) أي بنات الميورقي وهـي شـهامة تحفظ لأبي زكرياء حاكم قابس سابقا وحاكم تونس بعد ذلك وبقيت هذه التسمية إلى الآن بتونس وقد ذكرنا ذلك سابقا.

ج- الصراع على الملك أو الحركة الحسينية والباشية 1117هـ-1705م

من الأحداث التاريخية التـي حدثت بقابس وأثرت على حياتها وعلى مستقبلها وغرست فيهـــا

(3)حسب ما يذكر المؤرخون بأن الاموال التـي تركها المغامر يحي ابن أبي إسحاق الميورقي تقدر18ألف حمل من المال والمتاع والالة

الحزازات والحقد والفتن بين أهلها دون علم ودون معرفة، فكثير من المتشبثين بهذه الأفكار المفرقة الحاقدة الآن لا يعرفون سبب هذا الحقد فتراهم يتباهون بجهتهم وبزعيمهم الوهمي يوسف أو شداد دون أن يعرفوا من هما هذان البطلان الخياليان.

الصراع على الملك في عهد الدولة الحسينية كان سببا في اضطراب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفي بث الفرقة والفوضى بين الشعب الواحد وكان سببا في انتشار الحقد المدمر فانقسمت البلاد إلى قسمين قسم يناصر الحسين ابن علي مؤسس الدولة وسموا بالحسينية أو الحسينيين وقسم يناصر علي باشا ابن أخيه وسموا بالباشية أو الباشيين فعمّ الدمار البلاد وأصبحت الفرقة تبعد الأخ عن أخيه كما يقتل المسلم أخيه المسلم وانتقل هذا الصراع إلى الدول المجاورة(الجزائر من الجهة الغربية وطرابلس من الجهة الجنوبية) وتدخلت هاتان الدولتان الجارتان في الشؤون الداخلية للبلاد بحكم تبعيتهما للإمبراطورية التركية العثمانية فساندا الصراع وناصرا الحسين مرة وعلي باشا مرة أخرى كما اختلفا في ذلك فمرة تكون الجزائر مع الحسينية وأنصارهم ومرة تكون مع الباشية وأنصارها وكذلك دولة طرابلس لذا فإن هذا الصراع قد انتقل إليهما وأصبحا مرة حسينيين ومرة أخرى باشيين والصراع بين الحارات متواجد في هذه المناطق وفي غيرها من الأحياء من الإيالة التونسية إلى الآن مع الأسف.

فما هو هذا الصراع؟

وكيف تم ذلك؟

وكيف اختلف الحسين مع ابن أخيه؟

وما سبب الخلاف يا ترى؟

تولى الحسين ابن علي(التركي اليوناني الأصل) ومؤسس الدولة الحسينية دفة الحكم بتونس سنة (1117هـ-1705م) بعد موت إبراهيم الشريف أحد دايات الأتراك بعد صراع حصل بين الحكام المراديين (بين البايات والدايات) وبين البايات أنفسهم.

وكان هذا الملك مؤسس الدولة الحسينية عقيما، فتبنى ابن أخيه(علي بن محمد بن علي التركي)، ووعده بولاية العرش، لكن الظروف شاءت بان يصبح العقيم ولودا، فانجب من جارية جنوية" اختطفت عن طريق القرصنة البحرية مع جملة من الجنويين والجنويات ابنين هما محمد باي وعلي باي" وبذلك مال الحسين إلى ابنيه الحقيقيين، ولم يوف بوعده لابن أخيه رغم ترقيته له وتسميته بالباشا وكانت عقارب السوء والمقرّبين من هذا ومن ذاك تزيد في الخلاف الأمر الذي دفع بعلي باشا إلى الخروج على عمه، وبدأ الصراع والقتال، وكان سجالا وانتهى الأمر إلى ابن أخيه وقضي على الحسين وأنصاره في البداية، وحكم علي باشا البلاد لمدة من الزمن، ثم أنه بسبب خلاف بين الباشا وابنه يونس بسبب ميله لابنه محمد تصارعا فيه علي الحكم، وانتهى الأمر بعد هذا الخلاف إلى ضعف الدولة والتاريخ يعيد نفسه فما فعله الحسين بن علي مع ابن أخيه علي باشا، فعله يونس مع والده علي باشا وقد ساندت الجزائر إبني الحسين ابن علي وكانا قد اختفيا عندها وهما "محمد وعلي" ورجع الحكم إلى الحسينيين لكن مع

الأسف الشديد إن هذا الصراع وهذه الخلافات ولدت أحقادا كما ذكرنا ذلك وكانت سببا في انقسام البلاد إلى الآن، فناصر الحسين ابن علي بعض العروش من تونس وسموا بالحسينية، وهم قبائل جلاص بالقيروان والهمامة وأولاد سعيد ونفات وأولاد عون وأولاد يعقوب ودريد والمرازيق ومنطقة صفاقس وسوسة وبعض قراها والمنستير والمهدية والقلعة الكبرى والسواسي والكعوب الخ... ومن قابس ناصر هذا الشق منطقة المنزل والمطوية وشنني باعتبار غالبية السكان في شنني من نفات وقبيلة نفات مناصرة للحسينية.

وناصر علي باشا وسمّوا بالباشية بعض القبائل، وهم ماجر والفراشيش وأولاد عيار وورتان وبعض قرى الساحل(مساكن وجمال والقلعة الصغرى وأكودة وزاوية سوسة) وجبال وسلات والمثاليث الخ...

ومن قابس منطقة جارة ووذرف والحامة (بني يزيد) ومارث(الحمارنة) وتبلبو(الحزم) وتزعم الفريق الأول زعيم اسمه "يوسف" وهو من الهمامة وتزعم الفريق الثاني زعيم اسمه شداد وهو من المثاليث.

وهكذا ولد هذا الخلاف صراعات تعيشها وعاشتها تونس وجميع الايالة ومنها قابس وقفصة والمكنين وقصر هلال وقرى الساحل ومناطق القيروان الخ... رغم تطور الأحوال وتقدم الشعوب وانتشار الثقافات وانفتاح البلدان على بعضها واطلاع السكان على أسباب هذه الخلافات ومسبباتها ورغم توحد السكان في الدفاع عن البلاد أثناء الأزمات وأثناء الزحف الفرنسي على تونس وأثناء الثورة ضد الأجنبي وطرده من البلاد، وحكمها من طرف أبناء الشعب، ومع الأسف الشديد أن هذه الخلافات ساعدت على استفحالها وتطورها عدة عوامل نذكر منها

1- بعد الإمبراطورية التركية العثمانية على تونس وهي الدولة المركزية، وضعفها بسبب اتساع المملكة ومحاولة الدول الأوروبية القضاء عليها وتسميتها في آخر عهدها "بالرجل المريض" أدى إلى استفحال الخلاف وتطوره، ولم تتوصل الدولة المركزية القضاء عليه، لأنها كانت في حالة انهيار وتدهور ومنشغلة بمشاكلها الداخلية.

2- أثناء تولي الحاكم من طرف المتخاصمين(الحسين وعلي باشا) وقعت تسمية "العمال على قابس مرة من أنصار الحسينية(أحمد الصغيّر 1117 هـ) وهو أول وال في عهد الدولة الحسينية قبل الحماية ومرة من أنصار علي باشا وهم (علي السبعي ورجب بن مامي ومصطفى بن متيشة) ثم تولى ولاية قابس من جديد ولاة حسينيون وذلك قبل الاحتلال الفرنسي كما ذكرنا ذلك وهم (إسماعيل كاهية- أبو محمد رشيد- محمد خزندار- الفريق سليم- أحمد زروق- وأبو الحسين حيدر) وهذه التسميات والتي تمثل وجهة سياسية كانت سببا في زيادة الخلافات في قابس وبث الأحقاد فعندما يكون الحكم من طرف ولاة وحكام حسينيون يقع الانتقام من أنصار الباشية وعندما يكون الحكم من طرف ولاة وحكام باشيين يقع الانتقام من أنصار

حسينية، وليس في قابس فقط بل في جميع أنحاء الايالة التونسية التي وصلها الخلاف والانتماء لهذا أو لذاك.

3- سلوك الاستعمار الفرنسي فيما بعد السياسة الرومانية المشهورة سياسة(فرق تسد) بين السكان وأذكر أن أحد القادة الفرنسيين العسكريين في المغرب أوصى القائد الذي سيخلفه في المهمة بأنه إذا أراد السيطرة على البلاد فإنه يجب أن يسعى(لتجويعهم وتفقيرهم وبث الفرقة بينهم) وهذا ما حدث في تونس أيضا فكان الاستعمار الفرنسي يزيد في تقوية الخلاف ويجعل من البلاد الواحدة شقين متناحرين(أعيان يعبر عنهم بمصابيح البلاد) يجتمعون كل على حدة ويمثلون المدينة من كل شق.

4- الخلافات على توزيع الماء في قابس كانت سببا في تصاعد الخلافات وهي المورد الحيوي للسكان فقد سيطر أنصار الحسينية على منابع المياه وأحدث ذلك مشاكل زادت الطين بله ومن حسن الحظ أن هذا المشكل قد زال بسبب توفر المياه نسبيا لجميع المناطق وذلك بحفر الآبار ومد القنوات العصرية لتعويض النقص الحاصل من جفاف أغلب العيون التي كانت تزود الوادي لتسقي الغابات ذلك أن العيون التي كانت تنحدر من رأس الوداي من منطقة "العيـــــون" قد طمست.

إن هذه الأسباب وغيرها كانت سببا في إحداث الفرقة بين المسلمين داخل الوطن وفي إحداث الصراعات بين المدينة الواحدة رغم أن الجنس واحد والدين واحد والمذهب واحد مع وجود بعض العناصر من السكان الأتراك في تونس ينتمون إلى المذهب الحنفي وهو المذهب السني الذي لا يختلف كثيرا عن المذهب السني المالكي. كما أن التزاوج بالنسبة لقابس بين المناطق المتناحرة منذ القديم كان موجودا وكذلك في الوقت الحاضر. هذا وأن هناك من السكان في قابس(المنزل وجارة) من يرجعون إلى عائلة واحدة ويسكنون بالمنزل وجارة ومنهم عرش ورشفّانة أصيلي ليبيا(دار الميساوي- دار الفاهم- دار حمودة – دار عبد النبي- دار عبد الباري- ودار بالرجب...) وهم من المنزل أبناء عمهم في جارة وهم(دار الغربي- دار العزوزي - دار الغالي- دار البوهالي- دار فرهودة ودار ورشفانة بباب البحر...) وعائلة دار التركي بالمنزل ترجع إلى دار ابن حسّون بجارة، كذلك دار الضحاك بجارة ودار غميمي بالمنزل والذين رجعوا إلى لقبهم الضحاك هم أبناء عم. وعائلات عبد الرحيم وبحيمة في جارة والمنزل ودار بوخريص من جارة ويسكنون المنزل وعائلة من دار شقرة ودار بن سليمان – العصافرة- ودار بن عاقلة كلهم من جارة ويسكنون المنزل الآن ودار بوخشانة من جارة أبناء عمهم في المنزل وعائلات لقبها الطرابلسي تعيش المنطقتين ودار الحشائشي في المنزل هم أبناء عم للثوابتية بجارة وهم أصيلي منطقة مطماطة ودار بوعصيّة من العمريّين من جارة ويسكنون المنزل ودار ضبّيحة بجارة والمنزل ويرجعون إلى الهوّاريّين بالمنزل أصلهم جزائريون ودار خضر بالمنزل أبناء عمهم بجارة الدخلانية كما أن عائلات الحمروني توجد في المنطقتين وهم أبناء عم وهناك من السكان الليبيين الذين يحملون ألقابا مختلفة ويسكنون المنطقتين وأغلب سكان قابس إما ساميون بربر

قدموا من اليمن أو ساميون عرب وغيرهم قدموا من الشرق أو رجعوا من المغرب في زحفات متعاقبة ولأسباب مختلفة إلى غير ذلك من العائلات.

كما أن تحبيس الأملاك على الجوامع والمساجد من جميع السكان دليل على وحدة السكان قبل هذا الانقسام فجامع سيدي إدريس بجارة الدخلانية(جارة الصغيرة أو البلد) وقع تحبيس أملاك عليه من جارة ومن المنزل فأهم غابة بالمنزل والتي تسمى بالزيرة أي(الجزيرة) قرب ساحة عنبر كانت محبسة عليه كذلك حنوتان بسوق المنزل كانا محبّسين على هذا الجامع باسم حبس على "الكرسي" أي على من يرتل القرآن قبل خطبتي الجمعة وكذلك أملاك أخرى كثيرة من جارة ومن شط بو عبد الله مثل جنان المكي ورقعة قرب جنان شويرف والبستان وجنان العبابسة قرب قنطرة اللوح أو قنطرة الخشاينة ورقعة سيدي الحربي بواد المنية تسمى رقعة الجامع الخ... وهذا دليل على أن الخلاف لم يكن قديما ولم يكن مبنيا على أسباب عرقية أو دينية إنما كان حديثا نشأ منذ تكوين الدولة الحسينية ونشوب الخلاف على الحكم أي لم يكن موجودا قبل ذلك وهو عامل خارجي ساعد الاستعمار على تغذيته وتطويره كما ساعدت المنظمات والجمعيات والتجمعات التي تكونت في البلاد على إحيائه واستغلاله للبروز وإحياء النعرة الجاهلية. فالصراع إذن لم يكن صراعا شخصيا على نطاق الأفراد إنما كان صراعا جماعيا عندما يجتمع الأفراد لأغراض كامنة في نفس البشر بغية التغلب والسيطرة على أوهام ضاعت بها مصالح البلاد سنوات وسنوات وحدّت من تقدّمها.

د - بوارق عصيان في الأعراض (قابس) 1256هـ-1840م

الحدث الآخر الهام الذي حدث بقابس، هو ما وقع التعبير عنه ببوارق عصيان أو بوادر عصيان التي ظهرت في قابس أي في منطقة الأعراض في عهد الملك أحمد باشا باي سنة 1256 هـ-1840م بسبب امتناع الأهالي من دفع الأداءات وقتلهم مساعد اللزام. لقد أشار إلى هذا الحدث الهام أحمد ابن أبي ضياف في كتابه "إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان"(الجزء الرابع).

وخلاصة ذلك أن أحمد باشا باي ابن مصطفى باشا باي ملك تونس، لما سمع بان هناك بوارق عصيان(هكذا سماها ابن أبي ضياف) أي بوادر عصيان، تخوف من أن يسري هذا العصيان إلى بقية الايالة التونسية، فأسرع بإعداد حملة إلى قابس يقودها بنفسه للقضاء على المشكل قبل استفحاله، وقد مر قبل وصوله إلى قابس بالوطن القبلي، ثم بالساحل، ثم بصفاقس فجربة ثم وصل إلى قابس، وكانت القوات التي تتبعه برا وبحرا بقيادة الآغا أبي العباس احمد قد سبقته إليها ونصبت الأخبية و "الوطق" أي الخيمة الخاصة به وبدأ في دراسة الأوضاع وفي دراسة العصيان الذي يسمى في ذلك الوقت "بالتهزريس" وكذلك كل من يمتنع أيضا عن دفع الضرائب يسمى "بالمذنب"(6) وتخرج فيه قرارات الذنب ويجبر على بيع أملاكه لدفع ما عليه من

(5) كل من يخالف الباي ويمتنع من أداء الضرائب يعتبر من العصاة ويسمى في عرف ذلك الزمان بالمهزرس.

(6) المذنب هو المخالف لدفع الضرائب رغم أنه لم يعلن العصيان فيكتفي الباي ببيع أرزاقه ليدفع ما بذمته.

الأداءات، يقـــول ابن أبي ضياف في هذا المقام:

"إن رؤوس الفتـنة قـد فـروا وهــم محمـد بـن محمـود بالسنوسـي وابـنه السنوسـي وغيرهمـا واعتصمرا بجبال مطماطة".

ثم يقول الكاتب:

" وقبض يده أي (أحمد باشا باي) على جمع من مطماطة قدموا لتحيته والسلام عليه وقال لهم ها أنا أريد إخراج من هرب لجبلكم فإن تلكأوا في الخروج فرؤوسكم تقطع قبل رؤوسهم"

وبعث الباي القائد " الاضة باش حسين بو حرام" في جيش من الخيل فحملوهم إليه وحكّم فيهم السيف وعددهم خمسة أفراد منهم مَحمد بن محمود بالسنوسي وابنه. وقد تعاون مع الباي(قليد النجع) أي قائد النجع من بني يزيد وهو سعيد الشعلي من منطقة الشعل بالحامة وتغافل الباي (عن بقية رؤوس الفتنة) كما يعبر عنهم ابن أبي ضياف لكنه أغرم أهالي لأعراض (قابس) بخطيئة مقدراها (600 الف ريال) وبعد إلحاح أسقط منها نحو الثلث على الضعفاء منهم حسب ما يذكر الأستاذ محمد المرزوقي في كتابه "قابس جنة الدنيا" ثم فارق الباي البلاد ورجع عن طريق صفاقس بعد زيارة قبر الصحابي أبي لبابة الأنصاري وترك صهره أبو محمد رشيد عاملا على قابس. لاستخلاص الخطية هذا ما كتبته كتب التاريخ التي أطلعنا عليها ومنهم ابن أبي ضياف مؤرخ التاريخ الحسيني والكاتب الخاص للباي والمصاحب له في هذه الحملة وبالطبع ان هذا التحليل الذي أعطاه للحملة يتماشى مع ما يريده الباي ولا يمكن أن يعلق أكثر من ذلك.

لكن المتواتر في قابس والمسجل في بعض الوثائق الرسمية التي عثرنا عليها غير ذلك فبوارق العصيان التي تحدث عنها ابن أبي ضياف هي في الواقع:

1- ثورة على المظالم

2- ثورة من طرف السكان على بيع لزمة الأسواق التي استنكروها ورأوا فيها اغتصابا لأموالهم وإنها خروج عن الأحكام الشرعية.

3- ثورة على مظالم اللزامة ومساعديهم الذين كانوا يجبرون السكان على الدفع وتسمية المتنعين منهم بالمذنبين أي المخطئين وكانت "الفلقة" أي الضرب بالعصا على الرجلين عقابا للممتنعين والذين لم يتمكنوا من الفرار من البلد واللجوء(7) إلى مناطق أخرى.

4- هي بداية لثورات قامت في تونس.فيما بعد ومنها الثورة التي قام بها غومة المحمودي الليبي الأصل الذي التجأ إلى قبلي إلى "قبيلة المحاميد" أبناء عمه سنة 1273 ه وكانت تابعة لمنطقة قابس أي منطقة الأعراض.

لقد قامت هذه الثورة بعد سبع سنوات فقط من ثورة قابس وكانت في عهد العامل محمد خزندار كما سنرى ذلك وكذلك ثورة علي بن غذاهم التي قامت في جميع أنحاء البلاد

---

(7) انظر الوثيقة المصاحبة التي تذنب المواطنين المكرمين بلقاسم بن محمد بن جراد القابسي الجاري وقريبه احمد ابن المرحوم محمد ابن أبي بكر بن جراد لأنهما امتنعا من الدفع وهربا إلى المحروسة تونس كما تذكر الوثيقة.

الحمد لله

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

خصوصا في الشمال والوسط وتجاوب معها السكان في 1281هـ-1864 م أي بعد 24 سنة أو ... سنة من بوادر العصيان بقابس بسبب مضاعفة "ضريبة المجبى" من 36 ريالا إلى 72 ريالا. ... كانت ثورة على مظالم أبي عبد الله بن عياد الذي كان قد كلف أعوانا غير نزهاء ظالمين حتى أنه ... ومن مظالم ابن عياد أنه كان "يطلب الحصول على نفس الميت من بني آدم".

لذا فإن ما وقع في قابس وفي منطقة الأعراض هو عصيان فعلا هو ثورة وقد ذهب ضحيتها عدد من السكان، فمنهم من قاوم على حصانه إلى أن استشهد وبيعت أرزاقهم وقتل جميع الذكور من عائلته، ولم ينج منهم سوى طفل صغير أخفته الخادمة في مضرب أي خابية من الفخار ثم أخذ مع المقاومين إلى مطماطة وهذا المناضل هو مَحمد بن محمود السنوسي العمري من العمريين وهو أحد أخفاد "سيدي الشيخ الحاج عمر المغربي" دفين قابس وابنه حبيب الذي استشهد معه أما الحفيد الذي بقي بقيد الحياة بأعجوبة هو السنوسي بن الحبيب بن مَحمد بن محمود بن السنوسي العمري الذي خلف ابنا ذكرا سمّاه محمود وأصبح عدلا في قابس فيما بعد كما خلف 4 بنات من أم الزين بنت فرج المرصية(8) وبقي قصر هذا المناضل ماثلا في منطقة جارة وقد قامت بإصلاحه بلدية قابس لكن مع الأسف قد تمسك به بعض المواطنين النازحين إلى قابس وسكنوه دون وجه حق، وبقي الورثاء من حفيداته من البنات يطالبون به إلى الآن، أما قاتل مساعد اللزّام فقد فر من قابس إلى ظهرة مطرش وهو عامر من عرش دار الصويعي(الشمامة) واشتهرت عائلته إلى الآن بلقب بالرجب في مطرش، لأن أحد أبناء عامر هو رجب كما اشتهروا بلقب المنزلي لأنهم ينتمون إلى منطقة المنزل، أو يسمون بالعوامريّة نسبة إلى جدهم عامر، وهم يقطنون هذه الظهرة مع جماعة من حزم قابس، وهذه الشجرة المصاحبة التي تجمع هذا الثائر أخذتها من السيد البحري بالرجب الذي كان يعمل حارس بالسجن المدني وهو حفيد من أحفاده توفي هذا الحفيد في شهر نوفمبر وأنا بصدد طبع الكتاب بعد حصوله على جائزة البلدية.

والخلاصة أن بوارق العصيان التي قدم من أجلها باي تونس بنفسه مع جيش جرار هي ثورة أثرت على البلاد وقضت على بعض الثوار بالقتل وحرمت مواطنين آخرين من أرزاقهم ... هاجر بعضهم إلى مناطق أخرى بقابس وسلطت على المنطقة غرامة مالية لا بأس بها.

<u>ثورة علي بن غذاهم سنة 1864 م:</u>

لقد أشرنا في موضوع بوارق عصيان في منطقة الأعراض(قابس) إلى أن الحالة الاقتصادية الاجتماعية للبلاد قد ساءت وازدادت سوءً مما اضطرّ الدولة إلى الزيادة في الضرائب والتعسف في المطالبة بها خصوصا قرار الباي بتضعيف(ضريبة المجبى) التي كانت مقدرة ب 36 ريالا فضاعفها إلى 72 ريالا.

---

(8) آخر نسل لمَحمد بالسنوسي هي مريم إحدى حفيداته من البنات الأربعة التي بقيت على قيد الحياة إلى سنة 1993 ... اتصلت بها شخصيا قبل وفاتها وأخذت منها بعض المعلومات عن العائلة أما أم الزين المرصية فقد تزوجت بعد وفاة ... ـيا من الحاج النوري بالشيخ وأنجبت البشير النوري الذي عمل بإدارة الأوقاف بقابس وهو أخو البنات الأربعة من الأم ... المعلومات أخذتها من أحفاد أم الزين المرصية(عبد المجيد المريي وعبد السلام المريي) وهما على قيد الحياة.

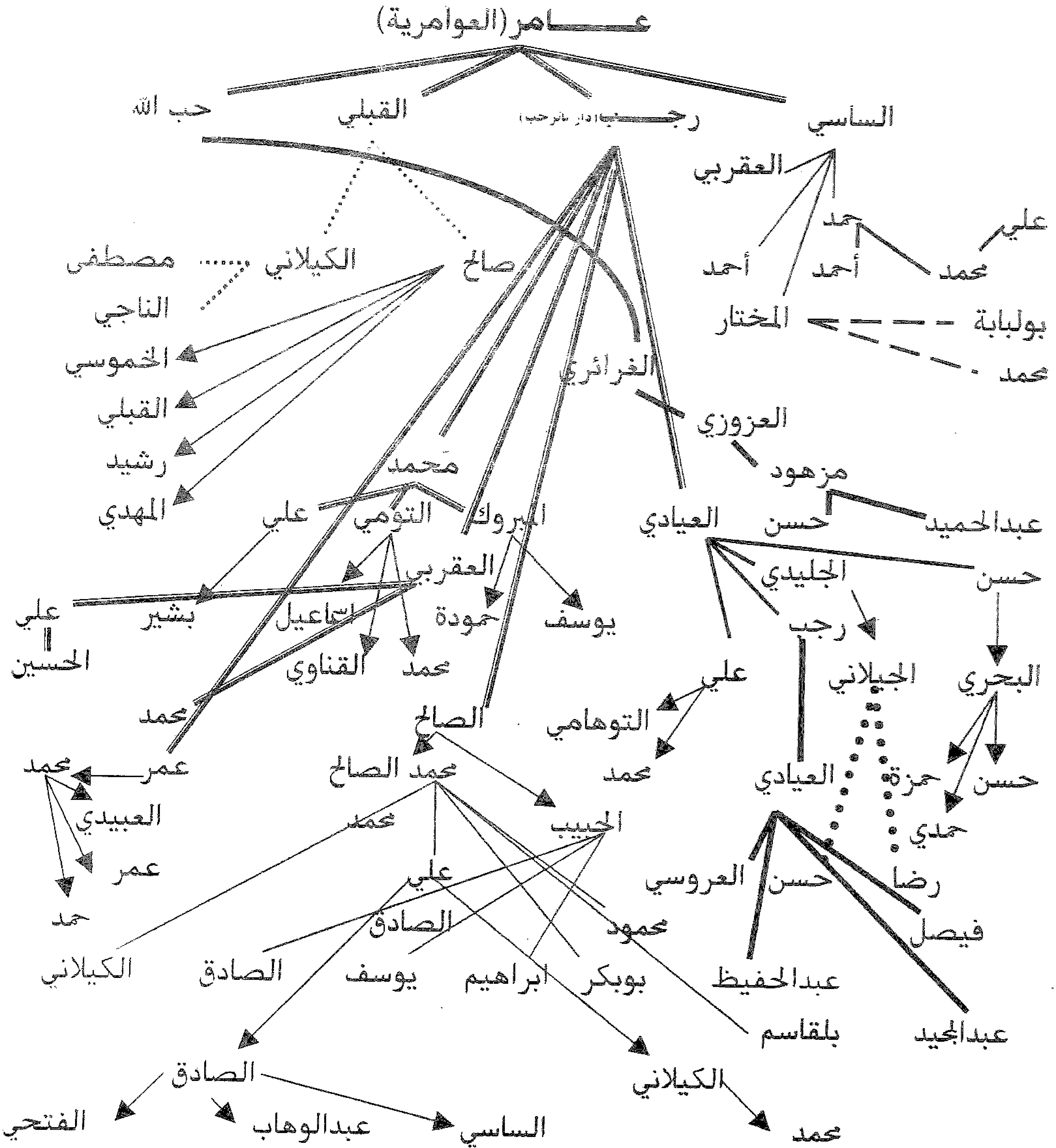

شجرة العوامرية بمطرش (أو دار بالرجب)

وقت الذي كان فيه السكان يترقبون الغاءها وقد انطلقت هذه الفكرة الشيطانية من ـبر حكيم وغشاش محتال) هو(نسيم بيشي) اليهودي القابض المالي للدولة. وفي رأيه أن ذلك ـن الباي من الخروج من ديونه وخلاص الدائنين. ورغم نصح الوزير خير الدين باشا للباي بـ هذا القرار لا يحل المشكل بل يزيده تعقيدا فإن الباي لم ينتصح بما قاله له وزيره ومما قاله ـوزير. "إن أخفيت ما ظهر لي من نصح سيدي وبلادي أكون خائنا الأمانة والاستشارة".
ـلك قال له : "أرى أن هذه الزيادة في مال الإعانة تؤدي إلى زوالها بالمرة أو تلجىء إلى مال أكثر ـا لتجهيز الجيوش".

فعلا كانت هذه الزيادة في ضريبة المجبى سببا في غضب الشعب "وبرز رجل من أولاد ـاهل من عرش ماجر اسمه "علي بن محمد بن غذاهم" الذي صرح لقومه بأنه لا خلاص لكم ـ هذا الحمل الثقيل إلا بالامتناع عن الدفع وانتشرت هذه الكلمة فعمت البلاد وكادت أن ـي على السلطة لولا المؤامرات والخدع التي استعملها الباي عن طريق بعض الوسطاء .

ة ابن غذاهم وموقف قابس منها:

نستنتج موقف قابس من ثورة علي بن غذاهم من الرسالة التي وجهها جون ـتي(9) قنصل فرنسا بصفاقس في 10 مارس 1864 إلى "دي بوفال ممثل فرنسا بتونس".
ـول جون ماتي: "اتفقت كل القبائل على عدم الدّفع فقبائل بني يزيد رغم وجود المحلة التي ـها "سي سليم" العامل بالمنطقة رفضت الدفع وهم مستعدون لدفع ستة وثلاثون ريالا ـط". ثم يقول "انطلاقا من جهة الأعراض انتشرت فكرة الثورة إلى بلاد الجريد ثم القيروان ـبات الغربية حول الكاف لتتصل في شهر أفريل إلى سهول مجردة ففي أقل من شهر أصبحت ـ البلاد في حالة ثورة".

معنى ذلك أن بداية الثورة كانت من قابس، هذه أفكار جون ماتي بصفاقس أما أفكار ـون القنصلي لفرنسا بقابس السيد(10) سيكار فهي تتضمن عديد الرسائل التي وجهها إلى ـ فرنسا بتونس السيد دي بوفال نذكر منها ما يلي:

ـرسالة الأولى(11) بتاريخ 21 أفريل 1864 .

ـد الإشاعات التي بلغتنا في قابس أن الهمامة وماجر والفراشيش والمثاليث وجلاص وغيرها ـ قبائل إفريقيا نادت بالعصيان رافضة أن تسدد للباي الضرائب وغيرها وهذه العدوى لم ـرب حتى اليوم إلى هنا(أي إلى قابس) وبقي إقليم الأعراض على هدوئه الشامل، والفضل ـك يعود إلى الجهود المدهشة التي بذلها الجنرال سليم الذي هو رجل على جانب عظيم من ـة والبراعة، ومع ذلك فإن الأعراض قائمة على بركان سوف ينفجر طال الزمان أم قصر) ـقول "وحيثما مررت سواء بالقرية(المنزل) التي أسكنها أو في قرى الأعراض الأخرى أو

ـر كتاب ثورة ابن غذاهم وثائق تونسية(الجزء الأول) الدار التونسية للنشر صفحة 23

ـسيد سيكار عين عونا قنصليا بقابس في سبتمبر 1862 وباشر عمله في 25 نوفمبر من السنة نفسها

ـظر نفس المصدر من (الجزء الأول) صفحة 51.

في مضارب القبائل التي أطوف بها بدعوى(صيد الحجلان)(12) لا أنفك (أبث دعاياتنا وأرك
نفوذنا) الذي وجدته لا بأس به"

- الرسالة الثانية موجهة من السيد سيكار إلى دي بوفال بتاريخ 23 ماي 1864 بعد شه
ويومين من الرسالة الأولى.

يقول في هذه الرسالة:

"علمت أن أعرابيا من قبيلة بني يزيد صرح بأن العربان الثائرين سيأتون إلى قابس غدا أو بع
غد، لحمل السلطات على إرجاع الأموال المجباة من أهالي الأعراض إلى أصحابها والجنرال سلي
والسلطات الأخرى يبدو عليهم القلق الشديد والكآبة، أما الشعب فإنه يتظاهر بعدم الاكتراث
كما لو كان في غفوة، وفي هذا المظهر ما ينبئ بالويل فليحفظنا الله"

- وفي رسالة ثالثة أخرى مؤرخة في 26 ماي 1864 بعد ثلاثة أيام فقط من الرسالة الثانية
يقول السيد سيكار:

"وكان سفح قابس يموج بالعربان(13) الوافدين من كل مكان وكان نهار أمس ونهار أول أمس
يومين اشتد فيهما الهول وقد قضيتهما في إعداد الذخائر الحربية والأغذية استعدادا للمقاوم
والصمود، وكان العربان يتوافدون من كل مكان ويقال اليوم أن قبائل ماجر والفراشيش
قادمة هي أيضا ومن حسن الحظ أن عيارا ناريا واحدا لم يطلق حتى الآن عسى الله أن يخم
هذه الشرارة العربية...الخ"

ونستنتج من هذه الرسالة أن قابس كانت تغلي كالمرجل ومنها ظهرت بوادر الامتناع عن الدف
حسب ما طلبته حكومة الباي وهو مضاعفة ضريبة المجبى ومنها انتشرت الفكرة إلى بلا
الجريد ثم القيروان فالجهاة الغربية كما أشار إلى ذلك جون ماتيي قنصل فرنسا بصفاقس
10 مارس 1864 والتي ذكرناها سابقا.

2- قرب قابس من المنطقة الحدودية -ليبيا قابس- ثم انتشار قبائل بني هلال العربية في ه
المناطق واصفا أهالي الأعراب بشدة الشكيمة وقوة المعارضة(14) جعل من الناس يتصفو
بالحساسية.

3- ثم إن حسن التدبير والحنكة السياسية التي اتّصف بها سي سليم(15) حيث لم يطال
السكان بدفع ضريبة مضاعفة بل اكتفى بأخذ 36 ريالا فقط لا كما فعل غيره م
العمال(القياد) وهذا ما أدى بأهالي قابس إلى أنهم لم يعلنوا الثورة جهارا رغم أنهم كانوا م
الداعين إليها.

---

(12) انظر إلى عبارتي(بدعوى صيد الحجلان) وكذلك(أبث دعاياتنا وأركز نفوذنا) لتلاحظ ما هو دور ممثل فرنسا بقابس

(13) انظر كتاب ثورة ابن غذاهم 1864م (الجزء الأول) صفحة 171.

(14) هناك من يفسر كلمة بلاد الأعراض أي بلاد المعارضة لكن هناك من يفسرها بتفسير آخر وهو أن السحاب يت
ويعرض عنها فهي إذن قليلة الأمطار

(15) انظر كتاب إتحاف أهل الزمان في أخبار تونس وعهد الأمان لابن أبي ضياف(الجزء الخامس) صفحة 166

لقد تغلغل نفوذ فرنسا في تونس بصفة عامة وفي قابس أيضا وقد استغل العون القنصلي
بية الأهالي وضعف حالتهم الاقتصادية وتفككهم الاجتماعي فأصبح يراسل حكومته حسب
اه وحسب الخطة المرسومة من طرف دولته وهو تفكك الشعب وإبعاد النفوذ الانجليزي الذي
ن مناصرا من بعض السكان إذ بدأ لبعضهم أن موقف أنجلترا كان مناصرا لمطالب الشعب
فرنسا كانت مع الباي ومناصرة له.

وفي الواقع أن لكل من الدولتين (فرنسا وأنجلترا) خطتهما للاستيلاء على البلاد العربية
تسام تركة "الرجل المريض" تركيا.

ثار السكان على عمالهم وأعلنوا العصيان والثورة فاحتارت قابس في أخذ الموقف اللازم من
ملها سي سليم فهو لم يطالبهم بالجبى المضاعف، لكن تخوفوا من موقف وعداوة سكان بقية
بالة لهم لأنهم لم يأخذوا موقفا من عاملهم ولم يثوروا عليه كما حدث في بقية المناطق.

ما علم سي سليم بذلك أراد السفر لتونس وأخذ ما جمعه من المال إلى الباي لكن السكان(16)
نعوه من حمل المال وطلبوا منه إبقاءه "أمانة" عند من يريد. حتى تستقر الأوضاع. وسافر
امل إلى تونس عن طريق البحر بحماية جماعة من قبيلة بني يزيد وبقيت قابس دون عامل.

دراسة قام بها الأستاذ محمد عكاشة في مجلة البحوث التاريخية والجغرافية بقابس صادرة في
ويلية 1985 يقول الأستاذ: "وحل محل السلطة نظام الشرطة وإن الأهالي كانوا مستعدين
تال حتى آخر رجل بل إنهم لما وجدوا أنفسهم في موقف قوة طالبوا الجنرال سليم بإرجاع
موال المجباة وفعلا تم لهم ذلك".

معنى ذلك أن ما جمعه الجنرال سليم من الأموال قد أرجع إلى أصحابه ويعد هذا
صارا ومكسبا لأهالي قابس، حيث أنهم رغم عدم مطالبتهم من العامل سي سليم بالأداء
ضاعفا فحتى الذي أخذ منهم كضريبة اعتادوا على دفعها قد أرجع لهم ويعد سياسيا على ما
تقد عصيانا للدولة، ورفضا لتطبيق أوامرها، ومناصرة للثورة التي قام بها علي بن غذاهم.

ضاء على ثورة ابن غذاهم:

لقد قُضي على ثورة ابن غذاهم بالحيل وإشاعة الدعايات ضدها وقد تدخل رئيس
رقة الرحمانية سيدي مصطفى بن عزوز(17) وطلب الأمان من الباي للثائر علي بن غذاهم،
د أعطي له ذلك واستوثق منه العهد والأمان وقرأ للباي قوله تعالى.

لا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون"

ال لعلي بن غذاهم(18)

لا جواب لكم عند الله تعالى على إراقة دماء المسلمين وقد أعطاكم الباي الأمان على يدي أمير
لة وخفّف عنكم أكثر من يظن"

1) انظر نفس المصدر إتحاف أهل الزمان وأخبار تونس عهد الامان نفس الصفحة 166 (الجزء الخامس)

1) زاوية سيدي مصطفى عزوز توجد بقابس بمنطقة جارة وهو الداعي للطريقة الرحمانية الخلواتية ومدفنه الأصلي
طقة نفطة بولاية توزر حيث يوجد ضريحه

1) انظر كتاب ابن أبي ضياف الجزء الخامس صفحة 193

وقال له أيضا:

"أنت لست بقائم تطلب ملكا وزعمت أنك جامع عصابة شاكية لكف عادية جهالها وقد زال السبب فلا بد أن يزول المسبب وقد عطلتم الناس عن السعي في ابتغاء رزقهم".

إلا أنه بعد انطلاء هذه الحيلة على علي بن غذاهم وعلى جماعته طلب الأمان لأخوته وجماعته وأمانا لخاصة نفسه...

انقلب الباي بعد ذلك عليه وقضى على هذه الثورة التي كادت أن تعصف بملك الدولة الحسينية واستعمل للقضاء عليها سلاح التفريق بين الشعب، سلاح الصراع بين (الحسينية والباشية) الذي تغلغل في نفوس السكان وقضى على أخلاقياتهم وعلى مبادئ دينهم الذي لا يفرق بين المسلمين إلا بالتقوى ومقدار إيمانهم وتوزعت قوات الباي في الايالة لجمع الأموال بعد القضاء على بطل الثورة فكان نصيب قابس "أحمد زروق" الذي سافر إلى بلاد الأعراب لجمع الضرائب والأداءات.

وهكذا تواصلت الحالة وازدادت سوء بسبب ضعف الحالة الاقتصادية وتفكك أوصال المجتمع بسبب الأمراض والجهل والحزازات التي تغلغلت في نفوس السكان واستغلتها فرنسا بعد ذلك للاستيلاء على تونس في 12 ماي 1881 بعد عقدها معاهدة باردو مع محمد الصادق باي تونس.

<u>و - هجوم فريق من بني يزيد على قابس 1285-هجري/1870م:</u>

الحدث السادس الهام الذي حدث بقابس قبل الاحتلال الفرنسي لقابس ب11 سنة وبعد بوارق العصيان التي حدثت بقابس والذي قدم باي تونس أحمد باشا باي بنفسه إلى قابس بـ30 سنة لتأديبها حدثت حادثة أخرى كان لها تأثير كبير على حياة السكان وعلى مستقبل البلاد كيف حدث ذلك؟.

نظرالسوء الحالة الاقتصادية وضعف أجهزة الدولة المركزية والجهوية وعدم قدرتها في السيطرة على البلاد والدفاع عنها وذلك للأسباب التالية:

1- عدم توفر الجيوش الكافية للدفاع عن البلاد

2- ضعف ميزانية الدولة وعجزها عن خلاصهم بانتظام لذا اضطرت الحكومة لتجنيد بعض من العساكر عند الحاجة ثم يطلق سراحها عند انتهاء المهمة.

فإن ذلك أدى إلى التناحر والهجومات المتتالية من طرف بعض الفرق المنتمية إلى العروش للسلب والنهب والانتقام.

ففي أواخر عام 1285 (19) هجري 1870م هاجم عقد من بني يزيد مدينة قابس في رابعة النهار قاصدين منازل بعض أعيانها لنهبها وتخريبها <u>لترات قديمة</u> بينهم وبين أصحاب المنازل المغزوّة.

الواقع أن هذا الهجوم غريب جدا لأن جماعة بني يزيد كانت من أنصار الباشية(حتى في لغة الصراع) وفريق جارة الذي قصد بالهجوم هو من الباشية.

---

(19) انظر سلسلة معارك وأبطال(صراع مع الحماية) للأستاذ مَحمد المرزوقي صفحة 38

أما الأسباب التي دفعتهم إلى ذلك فالحقيقة لم أتمكن من الاطلاع عليها ربما الحاجة دفعتهم إلى ذلك خصوصا وانهم توجهوا لبعض الأغنياء من البلد لسوء الحالة الاقتصادية، والترات التي تحدث عنها الأستاذ المرزوقي لم يوضحها هو الآخر وحسب رأيي يمكن أن يكون هذا الهجوم ليس هو الهجوم الأول بل سبقه هجوم أو هجومات وربما كانت الغلبة لأحد الطرفين مرة ومرة للطرف الآخر وأذكر أنه قتل أحد أفراد جارة في معركة من هذا النوع وهو المسمى بوبكر بن احمد بن مَحمد بن بوبكر بن محمد بن سالم بن عبد الله بن جراد(حسب شجرة العائلة) واحمد بن جراد والد القتيل هو من المستهدفين لهذا الهجوم كما تشير الوثيقة المصاحبة(20) الممضاة من طرف عدلي إشهاد.

"الحمد لله يقول شهيداه أنه كان في شهر قعدة الحرام من العام الفارط عن عام التاريخ أتوا بني زيد(1) إلى بلد جارة قاصدين نهب دار المكرم احمد بن جراد ودار ابن عمه بلقاسم بن جراد ودار الصغير بن محمد الغريبي ودار الشاوش احمد بن الحاج عبد الله بن فرهودة ودار ابن عمه احمد بن علي بن فرهودة ودار الشاوش الحاج علي بالصالح ودار العدل منصور الغول ، فلما بلغ أهل الديار المذكورة ذلك تحصن البعض منهم بدار احمد بن جراد المذكور أولا فهجموا عليهم بني زيد(2) ووقع بينهم التجاسر وإطلاق البارود إلى أن أتاهم سي محمد ناصف أمير ألاي وخرج الأنفار المذكورة من الدار المذكورة وقال لهم أخرجوا إلى داري أو إلى البرج(3) فقالوا له نخاف من نهب أرزاقنا من ديارنا فأجابهم أنكم لم تخافوا(4) عليه من أحد ثم خرجوا إلى الدار المذكورة البعض منهم بلغ إلى دار سي محمد ناصف المذكور والبعض صدهم الفزع من بني زيد على الدار فدخلوا إلى مخزن باش مفتي الفقيه سي الحاج محمد الصالح بن عبد الجواد وغلقوا عليهم بابه وتحصنوا به البعض من بني زيد ذهب إلى الدار(5) المذكورة وكسروا أبوابها وأبواب بيوتها ودخلوهم ورفعوا ما بهم(6) من الأثاث والدواب كذلك كسروا باب المخزن الذي هو قريبا(7) من دار احمد بن جراد المذكور أولا وخرجوا(8) مابه من الشعير الذي هو للعدل الحبيب الغول كما بيده تسجيل ذلك والبعض من بني زيد يهدمون في المخزن الذي متحصنين به بعض الأنفار(9) المذكورة فلما عجزوا عن هدمه عليهم قالوا بني زيد نأتوا(10) للمخزن برميل بارود ونعطوهم النار(11) وسي محمد الناصف إذ ذاك ذهب للبرج ومكث به فلما رأى العدل المكي بن عبد الجواد وابن عمه الحاج البشير بن عبد الجواد باقي يهدمون(12) عليهم في المخزن المذكور.
ذهب إلى البرج وأخبر سي محمد ناصف المذكور بذلك وطلباه(13) أن يتوجه معهما إلى بني زيد الذي يخربون في المخزن المذكور وينهيهم(14) عن ذلك فأجابهما أن مكثي في البرج أحسن وكتب لهم جوابا أولا وثانيا ينهيهم عن ذلك فلم ينتهوا فقالوا

(20) نقلت الوثيقة عن طريق الأستاذ مَحمد المرزوقي في كتابه صراع مع الحماية صفحة 38 و 39 و40 من المرحوم علي المرزوقي وقد أطلعت شخصيا على النسخة الأصلية من طرفه لما كان معتمدا في مطماطة والملاحظ أن هذه الوثيقة كانت ضعيفة التحرير ولو أنها كانت عن طريق عدول من المفروض بأن يكونوا عارفين بتحرير مثل هذه الوثائق.

1- أتى بنو زيد(يزيد)
2- فهجم عليهم بنو يزيد
3- الثكنة أو القصبة
4- لا تخافوا
5- ذهب البعض من بني يزيد إلى الديار
6- ودخلوها ورفعوا ما بها
7- قريب
8- أخرجوا
9- تحصن به بعض الأنفار
10- قال بنو يزيد نأتي الخ
11- ونشعل فيهم النار
12- مستمرين في الهدم
13- طلبا منه
14- ينهاهم

له(15) العسكر الذي بالبرج نصرخ عليهم(16) بالمدفع فأبى عن ذلك وقال لهم لم عندي(17) إذن في صراخ المدفع أحد.
ثم رجع إليه الحاج البشير المذكور وحرّص له(18) على مشيه معه إليهم فتوجه معه وخاطب بني زيد على أن ينتهوا عن صنيعهم ثم وقعت فجوة عليهم(19) وخرجوا المتحصنين(20) بالمخزن المذكور وصعدوا إلى السطح وذهبوا من سطح إلى سطح حتى نجوا منهم وذهبوا إلى بلد منزل قابس ثم من الغد أتو بني زيد(21) وأغاروا على سعي(22) بلد جارة ففزع لهم(23) البعض من بلد جارة وردوا السعي منهم ثم بعد ذلك نزلوا قريبا من البرج ثم خرج لهم أعيان البلد وهم حسين بن محمد ناصف والمكرم العسكري الحاج نصر بن شقرا ومحمد بن احمد بن يحمد والحاج علي بن الحاج الجمني بن جراد والصغير بن الثابت ومحمد بن علي العير وجم غفير من أهل بلد جارة وقال لهم حسين بن محمد ناصف المذكور أولا الذي يلزمكم يلزمنا وجوزوهم إلى(24) دار الباي بالبلد جارة وطلبوا بني زيد(25) أهل جارة أن يكونوا(26) معهم على كلمة واحدة ووافقهم جميع من حضر معهم وكتبوا أجوبة منهم(27) جواب إلى الأعز الأكمل الوزير الأكبر سيدي مصطفى "خزندار"(28) وجواب إلى الأعز الأشهر سيدي حسن آغة الأعراض وجواب إلى الأجل الوجيه السيد محمود عزيز وجواب إلى الأجل سي إبراهيم الرياحي(29) وكان بلقاسم بن سعيد يتردد على دار سي محمد ناصف المذكور ليلا ونهارا إلى أن توجه إلى محروسة تونس وبقي أخاه(30) إبراهيم الساسي(31) يتردد عليه كذلك ليلا ونهارا فمن كان في علمه ذلك كذلك قيّده هنا بتاريخ تقدّم فيه ذلك كيف ذكر وتأخّر كتبه هنا وقت الطلب في غرّة شهر ربيع الثاني سنة ستة وثمانين ومائتين وألف وله نظير ونظير لنا في الكاغد المطبوع فقير ربه عبده

(علامة العدل) (علامة العدل)

محمد المكي ابن علي بن عبد الجواد محمود العُربي لطف الله به آمين

وفقه الله إلى طريق الإرشاد آمين

والملاحظ أن هذا الهجوم في واضحة النهار لم تتمكن القوة العسكرية الحسينية من الدفاع عن الأهالي بل احتمى قائدها "محمد ناصف" بالثكنة(دار الكسكسي أو برج زواوة) هو وجنوده ولم يخرج منها إلا بعد إلحاح من بعض السكان. حقيقة إنها الفوضى بعينها هجومات متتالية بين أبناء الشعب الواحد وحتى بين أبناء المدينة الواحدة لماذا؟ ما هي الأسباب؟ هل هي من أجل الدفاع عن مصلحة السكان؟ هل الجهل والمجاعة هما اللذان دفعا بهؤلاء إلى هذه الصراعات والهجومات؟ هل هو ضعف الدولة وعجزها عن الدفاع عن الأهالي أم ماذا؟ لا أدري

---

15 - فقال له العسكر 16- نرميهم 17- ليس
18- حرضه
19- أي كيف الرمي قليلا
20- خرج المتحصنون
21- أتي بنو يزيد
22- سعي. غنم
23- فالتحق بهم
24- وأدخلوهم
25- وطلب بنو يزيد
26- يكونوا
27- منها
28- مصطفى خزندار
29- الشيخ إبراهيم الرياحي باش مفتي المالكية
30- وبقي أخوه
31- انظر عن إبراهيم الساسي وأخيه بلقاسم فصل(أبطال المقاومة من الباب الثاني من هذا الكتاب)

الفصل الثاني
المعالم التاريخية والمنتزهات

اشتهرت قابس منذ القديم ببعض المعالم التاريخية منها ما ذكره المؤرخون وتحدثوا عنه كثيرا ووصفوه في أشعارهم وأقوالهم لكنه لم يبق له أثر لكن هناك بعض المعالم التي بقيت أو على الأقل بقي اسمها ومكانها مرسوما في الذاكرة ولو تغير نسبيا في الوصف والاستغلال.

لقد تواصل بناء المعالم حتى في الوقت الحاضر وسمي بالمنتزهات وسوف نتحدث عنها في حينها كعمل متواصل من طرف أهالي قابس وهي في نظري عملية إحياء وتذكير بمفاخر هذه البلدة التي اشتهرت بهذه الميزة التي ميزتها عن المدن الأخرى التي عاصرتها.

ومن معالم قابس

1- ساحة عنبر:

هذه الساحة كانت منتزها لأهالي قابس وللوافدين عليها وهي قرب "المدينة" والغابة التي كانت بها هذه الساحة أو المنتزه لا زالت تحمل هذا الاسم وتسمى "بغابة عنبر" ولا أشك أنه كان بها شجر العنبر الذي يوجد إلى الآن في مختلف أنحاء غابة قابس وقد ذكر الشاعر الفقيه أبو الفضل محمد ابن علي التيجاني هذه الساحة بقصيدة يتذكر فيها إحدى أمسياته بها فيقول:

أذكر عشيتنا(1) بساحة عنبر — والجو يتحفنا بنكهة عنبر
حيث النّخيل عرائس بسط الحيا — بسطا لها من أخضر أو أصفر
والشمس تستحي فتستر وجهها — عنّا بستر للعروس محبّر
والنُّور بين مفضّض ومذهّب — والنَّور بين مدرهم ومدنّر
والنهر والغدر ادّرعن تحصنا — إذ صفت الغابات صف معسكر
والبحر يرّمقنا بمقلة أزرق — والبرّ يرمقنا بمقلة أعفر
في جنة لو نلت من خلد بها — قصدي بلغت إلى النعيم الأكبر
ومحل أنس قلت بين رياضه — برياضة قادت لأبهى منظر
ملنا بمنعرج المصلى نحوه — حذر الرقيب وليته لم يحذر
وجرى لنا فيه حديث كله — لطف حضرنا منه أطيب محضر
نجري أحاديث الصبابة والصّبا — بارق من مسرى الصّبا المتعطر
ونُدير كاسات المحبة بيننا — فنميل منها بالحلال المُسكر
حتى إذا ولى العشيّ وإن — نمتاز عن نظر المراد الأنضر
قمنا نجر من العفاف سوابغا — لما نغيرها بصبغة منكر
يوم بقابس جنة الدنيا وفي — قلبي لو شك البين حرقة مسعر

(1) انظر كتاب رحلة التيجاني لأبي محمد عبد الله ابن محمد ابن احمد التيجاني المطبعة التونسية الرسمية صفحة88

2- **البطحاء:**

وهي من المآثر والمعالم القديمة التي ذكرت في قابس ومكانها غير معروف بالضبط يقول التيجاني في رحلته أن هذه البطحاء تقع في سرّة قابس أي في قلب المدينة وهي مجاورة لجامع قابس وكذلك لدار "ابن مكي أمير قابس" ويمكن أن تكون هذه البطحاء في سوق المنزل القديم والجامع هو الجامع القديم وهو الجامع الذي كان به الفرع الزيتوني لكن على شكل آخر وربما الجامع القديم قد تهدم أثناء الهجومات على قابس وبني مكانه جامع آخر على أنقاضه وحتى الجامع الذي نتحدث عنه لم يبق منه إلا الجزء الخارجي والصومعة وبني جامع عصري آخر منذ خمسة عشرة سنة بشكل بديع وبنقش أندلسي رائع تؤدي فيه الصلاة الآن بعد توسيعه وإدخال بعض المساكن التي كانت مجاورة له وأما دار الأمير ابن مكي فلا وجود لها الآن ويمكن أن تكون هي الدار المسماة الآن بحوش خريف التي يقع ترميمها من طرف المعهد القومي للآثار وقد قال الشاعر أبو عبد الله محمد ابن العطار القرطبي المعروف بالمفرجي الذي لا شك فيه أنه زار هذه البطحاء وقال عنها(2)

لهفي على طيب ليال خلت   بجانب البطحاء من قابس
كأن قلبي عند تذكارهـــا   جذوة نار في يد قـــابس

3- **الجامع:**

هو الذي تحدثنا عنه عند حديثنا عن البطحاء وهو قريب من دار ابن مكي أمير قابس ويشرف على البطحاء وقد تحدث عنه التيجاني فقال:

" إنه مسجد متسع له منار مرتفع قد مال وخرج عن الوزن إلا أنه لصحة موضعه لا يخشى من وقوعه"

وهو أيضا من المعالم التي تهدمت ولم يبق لها أثر فحتى الصومعة المتواجدة الآن هي صومعة جديدة وليست بمائلة عن الوزن كما ذكر التيجاني.

4- **قصر العروسين:**

من المعالم التي ذكرت بقابس هو معلم قصر العروسين ولا ندري السبب والغرض من هذه التسمية ولعله كان قصرًا لعروسين لأحد الأمراء الذين حكموا قابس في دولة بني جامع لأن ابن خلدون يقول.

"إن الذي إختطه(3) هو رافع ابن مكي ابن كامل ابن جامع الرياحي ثاني أمراء بني جامع بقابس"

وقد ذكر ابن نخيل أن مؤسّسه هو رشيد ابن كامل من أمراء بني جامع وقد أيد هذا الرأي التيجاني في رحلته إذ يقول:

---

(2) انظر كتاب التيجاني لأبي محمد عبد الله ابن محمد ابن احمد التيجاني صفحة 178

(3) انظر كتاب قابس جنة الدنيا للأستاذ مَحمد المرزوقي صفحة 76

"وعقربة من هذا الجامع (جامع قابس القديم) قصبة قابس وبها المبنى المشتهر المعروف بالعروسين الذي لا يرى مثله ظرفا وحسنا قد استولى الخراب في وقتنا هذا على القصبة وعليه(أي في بداية القرن الثامن الهجري) تاريخ الرحلة والعروسان من بناء بني جامع الهلاليين الذين كان لهم أمر قابس فطوت أيدي التوحيد آثارهم أي "دولة الموحدين" ومحت أخبارهم".

ثم يقول:

"وأهل قابس ينسبون بناءه لرشيد ابن مدافع ابن جامع أحد من تملكها منهم"

ويقول التيجاني:

"لقد وقفت على باب من أبواب القصر وبه أسطر كتبت نقشا في الحجر نصها ما يلي.

أمر بعمل هذا الباب الأمير الشهم رافع ابن أمير الأمراء مكي ابن كامل ابن جامع في رجب 500 هـ" ويذكر التيجاني أيضا عن هذا القصر نقلا عن بعض الطلبة من أهلها "أنه وقف بعض المؤرخين على أن صنهاجة هم الذين إبتدأوا ببنائه وانتهوا به إلى حد ثلثيه فأتمّه بنو جامع الهلاليون".

النتيجة من كل هذا أنه يمكن أن يكون القصر قد بدأ في بنائه الصنهاجيون الذين سبقوا دولة بني جامع كما يذكر طلبة قابس(4) ثم واصل بناءه بنو جامع عن طريق رشيد ابن كامل ثاني أمراء بني جامع ثم أن بابا من أبواب هذا القصر الذي تحدث عنه التيجاني يكون وضعه من قبل رافع ابن مكي لأن تاريخ وضع هذا الباب مضبوط بالنقش على الحجر.

أما فكرة من شرع في بناءه ومن اختط بناءه هل هم الصنهاجيون أم حكام بني جامع فتبق قابلة للبحث والتنقيب رغم أن الصنهاجيين قد اشتهروا بالبناءات ولعل اكتشاف المكان الذي بني فيه هذا القصر يدلنا على الثابت الصحيح وقد تحدثنا عن ذلك سابقا، بقيت مسألة أخرى هو وجود هذا المعلم أي قصر العروسين وكذلك المنار الذي تحدثنا عنه مع الجامع في قلعة بني حماد بالجزائر والتي بناها حماد ابن بلقين للتحصن من المغيرين هل هي مصادفة أم تشبها وعلى كل فإن ما تم بناؤه في قلعة بني حماد هو متأخر لما بني في قابس ولعل التقليد هو الذي حدا ببني حماد لبناء هذه المعالم التي تشبه ما بني في قابس بالضبط وهو ليس عيب والتقليد في المفاخر لا يشين أبدا.

أما كيف هدمت هذه المعالم وانطمس أثرها؟ ولماذا؟ ومتى؟

فأعتقد أن الهدم كان بفعل فاعل أي نتيجة الهجومات والسيطرة على البلاد بالقوة وقد بقيت هذه المعالم إلى القرن التاسع هجري لأن الرحالة التيجاني عندما زار قابس في بداية القرن الثامن قال عنها.

"قد استولى الخراب(5) في وقتنا هذا على القصبة وعليه "أي قصر العروسين كذلك وصفه

---

(4) نفهم من هذا التعبير لكلمة طلبة أن هناك طلبة في قابس في ذلك الوقت يدرسون ربما في الجوامع أو في بعض المؤسسات الأخرى التي لم يذكرها المؤرخون

(5) انظر رحلة التيجاني لأبي محمد عبد الله ابن محمد ابن احمد التيجاني صفحة 95

"بأنه المبنى المشهور المعروف بالعروسين الذي لا يرى مثله ظرفا وحسنا" كما أن هذا القصر كان موجودا في عهد الأمير عبد الوهاب ابن مكي سنة 790 هـ لم يضمحل إلا بعد اضمحلال دولة بني مكي التي نشأت بعد دولة بني جامع.

ونختم هذا البحث عن قصر العروسين بقابس المندثر والذي يشبه قصر العروسين بقلعة بني حماد بما ذكره الشاعر الصنهاجي أبو عبد الله ابن محمد ابن علي ابن حامد في رثائه لقصر العروسين بالقلعة إذ يقول:

أين العروسان لا رسمٌ وطلـــل　　　وأين ما شاد منه القادة الأول

ومجلس النوم قد هب الزمان له　　　بحادث قل فيه الحادث الجلــل

وما رسوم المنار اليوم ماثلـــه　　　لكنها خبر يجري به المثــل

حقا إن ما قيل عن قصر العروسين بالقلعة ينطبق فعلا على قصر العروسين بقابس لقد بقي خبرا يجري به المثل.

5- عين سلام وعين الأمير:

عين سلام هي عين قديمة يعتقد بأنها كانت موجودة منذ العهود الأولى وكانت داخل السور أي سور "المدينة" حسب ما يذكره بعض المؤرخين ومنهم بالانشفيك. أما تسميتها بعين سلام فيقول التيجاني أنها كانت تسمى بعين سنام حسب العقود الواردة في هذا الشأن ثم حرّف هذا الاسم. وتوجد بقلعة بني حماد(6) عين ثانية تسمى بهذا الاسم أيضا ويرجّح بأنّ أحد الأمراء الصنهاجيين هو الذي نقل هذا الاسم من قابس إلى القلعة كما نقل المعالم الأخرى.

أما مكان عين سلام في قابس فهو في الساحة الموجودة الآن أمام عين سلام الحالية في المكان الذي بنيت فيه نافورة وساعة تمثل حادثة عين سلام المشهورة التي قتل فيها بعض الضباط الفرنسيين أثناء الثورة الكبرى على الاستعمار الفرنسي سنة 1952. وقد جدد موقعها الحالي في زاوية الطريق المؤدية إلى مدنين من جهة وإلى مطماطة من جهة أخرى من طرف بلدية قابس ومع الأسف إن ماء هذه العين قد نقص كثيرا ولم يبق منه إلا النزر القليل، وهو ليس بعذب لكنه شروب واحسن من ماء قابس (في السابق) الذي كان يمر بعروق شجر الدفلة كما يقول المؤرخون القدماء فيكسبه ذلك مرارة وحمية لكن هذا الماء قد تغير في العهد الجديد ووقعت تحليته وأصبح مستساغا للشراب.

وإلى جانب عين سلام توجد عين أخرى تسمى بعين الأمير وقد طمست في الوقت الحاضر ولعلها كانت فرعا من عين سلام قال التيجاني في رحلته صفحة 89.

"وليس في جميع مياهها(أي قابس) قد يسلم من ذلك أي(من الحرارة والحمية والسمية) إلا العين المعروفة بعين الأمير والعين الأخرى المعروفة بعين سلام فان ماء هاتين يسلم من الفساد لعدم مروره على الدفلة والأولى منها منسوبة للأمير الأزدي المعروف بابن الصغير. وأما الثانية

(6) توجد قلعة بني حماد بين مدينة بسكرة وسطيف بناها حماد ابن بلقين(كما ذكرنا) على قمة جبل وبنو حماد يرجعون إلى الصنهاجيين وقد خرجت هذه القلعة بعد نقل العاصمة إلى مدينة بجاية.

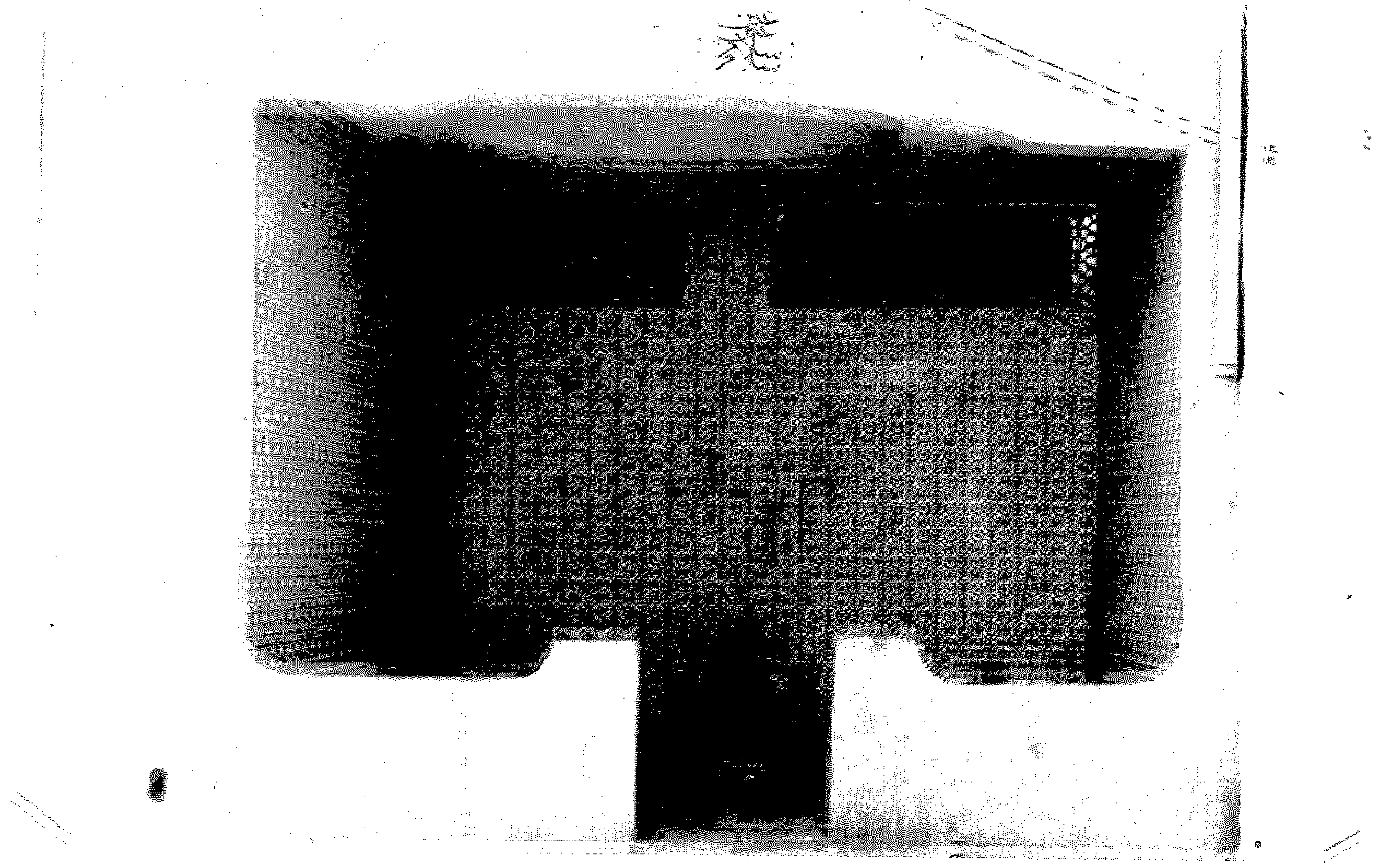

صورة لعين سلام في وضعها الحالي

المشهور اسمها عين سلام باللام مخفّفة وهي إنما توجد في عقودهم(عقود أهل قابس) القديمة بعين سنام".

وقد ذكر الشاعر أبو عبد الله محمد ابن علي ابن حماد الذي ذكرناه سابقا في الحديث عن قصر العروسين والمنار لبني حماد ببعض الأبيات التي تخص عين سلام بالقلعة وهي تنطبق على عين سلام بقابس مع اختلاف في نوعية الماء إذ يقول:

على(عين سلام) سلام صبّ ... غذّاه ماؤها العذب النمير

تأوّد أيكها وجرت صباهـــا ... وشمّ لها بما فتنق العبيـــــر

وأبرد ما يكون الماء فيهـــا ... وأندى حين يحتدم الهجيـر

وما أدري أيجري فــــوق درّ ... أم ابتسمت بمنبعه الثّغـور

يقول المبشر إيفالد عندما زار قابس في سنة 1835 زيارة تبشير من تونس إلى طرابلس صفحة 3- حول الماء بقابس.

"والماء فيه رديء للغاية أي (قابس) ونظرا لعدم وجود منازل بأتم معنى الكلمة فإنه لا وجود كذلك لصهاريج الماء وتقع البئر الوحيدة على بعد نصف ميل من القرية" أي (المنزل) لأنه كان يسكن بمنطقة المنزل ولكن ماؤها ساخن "وفي الصبح والعشية تقصدها النسوة والصبايا اليهوديات والعربيات(كان ايفالد يهودي الديانة) على السواء لجلب الماء وعليهن كامل حليّهن" ثم يقول: "ويتعين ترك هذا الماء بضع ساعات حتى يبرد ويصير قابلا للشرب وحتى ذلك الحين فهو يكاد يكون غير مستساغ بالنسبة إلى من لم يألفه..."

أما البئر التي ذكرها ايفالد فأعتقد إما أن تكون عين سلام الموجودة إلى الآن أو عين الأمير التي اندثرت وهما يبعدان بنفس المسافة التي ذكرها ايفالد.

أما وصفه للماء بالسخونة فلم نسمع أبدا بوجود بئر أو عين ساخنة في قابس المدينة ولم يتحدث عن ذلك أي مؤرخ. على أنه يمكن أن يكون ماء دافئا نسبيا لكنه لا يحتاج إلى ساعات حتى يبرد ويصير مستساغا كما يقول ايفالد، ولم يحدثنا القدماء من سكان قابس حتى بالتواتر عن هذا النوع من الماء خصوصا وأن المدة التي تفصلنا عن زيارة ايفالد ليست بالبعيدة وقد حدثونا عن تاريخ قابس القديمة لمدة أطول من هذا التاريخ، كما أن الرحالة التيجاني الذي زار قابس في بداية القرن الثامن هجري(706هـ-708هـ) لم يذكر لنا هذه الظاهرة وقد تحدث عن عين سلام... صحيح أنه وصفها بعدم العذوبة لكنه لم يصفها بالحرارة والسخونة.

6- المنار أو المنارة:

في جنوب قابس وفي الجهة الغربية من قرية زريق يوجد منار مرتفع يطل على قابس القديمة وكان الحداة القادمون من المشرق عندما يصلون إلى هذا الموضع ينشدون رجزا:

لا نوم لا نوم ولا قرارا   حتى أرى قابس والمنارا

لقد كان هذا المنار موجودا في القرن الخامس للهجرة وقد تحدث عنه البكري بقوله "كان منارا مرتفعا(7) يظهر للآتي من جهة المشرق قبل وصوله إلى البلد بمسافة بعيدة" كما قال عنه أيضا نقلا عن أقوم المسالك فوصفه بالشهرة والعظمة وهو الذي نقل الرجز الذي ذكرناه سابقا، إلا أن التيجاني في رحلته(8) قال عنه بأن المنار قد سقط فلم يبق له أثر. والثابت أنه أثناء هجوم الميورقي على قابس كان قد نزل بمنطقة "عين زريق بالمنار" والمنار ماثل وقتها لأن هجوم الميورقي كان بين أواخر القرن الخامس للهجرة وبداية القرن السادس. ويذكر الشاعر أبو عبد الله ابن حماد منار القلعة الذي يشبه منار قابس فيقول:

وما رسوم المنار اليوم ماثلة   لكنها نبذ يجري بها المثل

ثم يقول:

وانظر طيقان المنار مطلة   على الوجنات الزهرات الخمائل

كأن القباب المشرقات بأفقه   نجوم تبدت في سعود المنـــــــازل

7- القصور الأخرى والرباطات والمساجد:

بالإضافة إلى قصر العروسين الذي تحدثنا عنه هناك قصور أخرى ورباطات بنيت في قابس في عهود متعاقبة ومن هذه القصور والرباطات.

(7) انظر كتاب رحلة التيجاني لأبي محمد عبد الله ابن محمد ابن احمد التيجاني صفحة 94

(8) انظر كتاب قابس جنّة الدنيا للأستاذ احمد المرزوقي صفحة 83

- قصر ابن عبشون: الذي بني في العهد الأغلبي في عهد أبي إبراهيم احمد الأغلبي في منتصف القرن الثالث للهجرة وقد بُني هذا القصر على بعد 8 أميال من جنوب قابس وذكره الإدريسي في كتابه لكن دون تفصيل.

- قصر زجونة: وجد هذا القصر في العهد الأغلبي أيضا وهو بعيد عن قصر ابن عبشون ثمانية أميال إلى الجنوب.

- قصر سجّة: يقع هذا القصر على بعد ثلاثة أميال غرب قابس قرب ضريح الولي سيدي مريش(جد عائلة دار المريشي برأس الواد وتبلبو) وقرب "منطقة العيون" بشنني ولعله بني هناك لقربه من هذه العيون إما للسيطرة عليها عند الحاجة من جهة أولتوفر مياهها من جهة أخرى.

قال الإدريسي في نزهة المشتاق صفحة 106

"ولها واد يأتيها من غدير كبير وعلى هذا الغدير(قصر سجة) وبينه وبين قابس ثلاثة أميال"

كانت الغاية من بناء هذه القصور التي ذكرناها والقصور والرباطات الأخرى التي بنيت في العهد الأغلبي هي للحراسة والاتصال عند حدوث الأزمات والهجومات وقد ذكرنا سابقا أن الاتصال يكون عن طريق الحمام الزاجل في النهار وعن طريق إشعال النيران في الليل.

- رباط أو مسجد البحر أو جامع الصهريج:

هكذا تواترت تسمية هذا الرباط ولم يبق له أثر في الوقت الحاضر مع أنه كان موجودا في منتصف القرن السابع للهجرة وكان يتعبد فيه أبي إسحاق الورقاني العالم المشهور "دفين قابس" بظهرة قراجو وقد زار هذا المسجد(مسجد الصهريج) العالمان الأندلسيان المشهوران أثناء مرورهما بقابس لأداء فريضة الحج وهما "أبي الحسن السشتري وابن السبعين"

وقد ذكر هذا المسجد أبو العباس احمد الغبريني صاحب كتاب "عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" بقوله :

"لما نزل بقابس برباط البحر(مسجد البحر) أو المعروف بمسجد الصهريج جاءه الشيخ ابي إسحاق الورقاني للزيارة فوجد الشيخ قد خرج من خلوة وانتظره حتى دخل إلى المسجد وسلّم، وعليه أثر البكاء وطلب منه مدادا وكتب في اللوح.

لا تلتفت بالله ياناظـــــــــري	لا هيف كالغصن الناظـــــــر
يا قلب واصرف عنك وهم البقا	وخل عن سرب الحمى حاجـــر
ما السرب ما البان وما لعلـــع	ما الخيف ما ضي بني عامــــر
جمال من سميته دائـــــــــر	ما حاجة العاقل بالدائــــــــر
وإنما مطلبه في الــــــــذي	هام الورى في جنسه الباهــــر
فالشعب والعبر لـمثلـــــي إلا	إني من أجل الأول الآخــــــر
أفاد للشمس سنن كالـــــذي	أعاره للقمر الزاهــــــــــر
أصبحت فيه مغرما حائـــــرا	لله درّ المغرم الحائـــــــــر

أما مكان هذا المسجد(مسجد الصهريج) فهو غير معروف لحد الآن وربما يكون في المكان الذي دفن به العالم الشيخ أبي إسحاق الورقاني في ظهرة قراجو كما افترض الأستاذ محمد المرزوقي أو ربما يكون في مكان جامع الجمعة الآن بباب البحر(سيدي سالم الهروسي) قبل تجديده والمكانان هما بالقرب من الواد ومن "المريسة" قرب قنطرة الصابون لأن ميناء قابس القديم كان يصل عن طريق هذا الوادي إلى هذه المنطقة وكانت السفن ترسو بهذه(المريسة) لذا فإن تسميته بجامع الصهريج أو مسجد البحر تكون قريبة من هذا التصور والاستثناء الذي وضعه الأستاذ المرزوقي في أن ضريح سيدي أبي إسحاق الورقاني بعيد عن البحر هو في الواقع ليس بعيدا عنه بحكم تحول مجرى الواد الذي ذكرناه في دراستنا لواد قابس سابقا، ويمكن أن يكون البحر والوادي متاخمان لضريح العالم أبي إسحاق وكذلك قريبا من مسجد سيدي سالم الهروسي التي توقعته ولعل البحوث تكشف لنا الحقيقة. أما القصور الأخرى فهي القصور الواقعة بمنطقة "أولاد الجبالي" ومنطقة "قصر النواصفية" و"قصر أولاد يعقوب" فهي مناطق تسمى بهذه الأسماء أي قصر أولاد الجبالي وهم أصيلي منطقة مطماطة واشتهروا بلقب العسكري وكذلك قصر النواصفية أي قصر الأتراك النواصفية الذين يرجعون إلى الشيخ سيدي الحاج ناصف التركي الأصل وهو دفين قابس في الزاوية المسماة بزاوية سيدي الحاج ناصف بمجاورة لزاوية سيدي بوعلي السني بجارة، كذلك قصر ابن يعقوب التركي وقد جدد بناؤه في الأيام الأخيرة ومن الأسف أنه تبدل شكله تماما عما كان عليه وكل هذه القصور التي ذكرناها قد اندثرت ولم يبق منها إلا المكان والشكل العام لقصر ابن يعقوب.

8- مسجد سيدي إدريس:

من المعالم التي بنيت في قابس في جارة الدخلانية(البلد) معلم مسجد سيدي إدريس.

يمثل مسجد سيدي إدريس كما سنرى مرحلتين من تاريخه. المرحلة الأولى بني بها المسجد الأول في عهد دولة الموحدين منذ القرن السابع للهجرة أي منذ تولي أبي زكرياء الحفصي ولاية قابس باسم الموحدين وهذا المسجد يقع في الساحة الثانية التي يليها(9) المسجد الحالي وبقي من هذا المسجد الأقواص الممتدة من الجهة الغربية والشرقية والجنوبية(10) إذ تهدم هذا المسجد وبقي البعض منه أما المسجد الحالي فهو المسجد المرادي الذي بني في عهد المراديين وهي المرحلة الثانية ومن خلال الدراسة التالية التي قمت بها يتبين لنا ما يلي.

في الواقع أن هذا المسجد الجامع لم تشر إليه كتب التاريخ بكل وضوح إلى حد علمي

من بناه؟

في أي عهد تم بناؤه؟

---

(9) الساحة الأولى يقع فيها الكتاب العصري الذي أنشأه المؤدب والشيخ مصطفى بن جراد إمام الجمعة الخطيب لمدة أكثر من 42 سنة وهو على قيد الحياة.

(10) الساحة الثانية كانت كتابا تقليديا منذ عهود قديمة درسنا فيها لما كنا صغارا ومن مؤدبيها الشيخ الفاضل الحاج بشير المؤدب.

تاريخ بنائه؟

من سماه بهذا الاسم؟ ولماذا؟

من هو سيدي إدريس؟

سوى إشارات بسيطة في بعض الكتب ومنها كتاب تونس عبر التاريخ لمؤلفه أحمد بن عامر وكتاب إتحاف أهل الزمان لأحمد بن أبي ضياف التي تشير إلى أنه قد بني في عهد المراديين(مراد باي) جامع بقابس وتشير أيضا إلى أنه قد بنيت في عهدهم مدرسة سميت بالمدرسة المرادية مجاورة لضريح الصحابي سيدي أبي لبابة الأنصاري.

وفي الحقيقة أن المسجد المشار إليه في هذه الكتب ليس هو الجامع الأول إنما المقصود في إشاراتهم هو الجامع الحالي الذي يرى على شاشة التلفزة في أغلب آذان الصلوات ويشار إليه باسم جامع قابس القديم برسومه وأعمدته وكتاباته على الشبابيك والتي تشير إلى أنه قد بني في عهد المراديين من طرف بنائين من قابس(11) (وهما الحاج عمر بن إبراهيم بن زايد القابسي والشيخ عبد الله بن الشيخ عبد القادر التلمودي) ومن صفاقس وهما(المعلم عبد الحميد بن المعلم الحاج محمد المنيف الصفاقسي والمعلم احمد المنيف الصفاقسي).

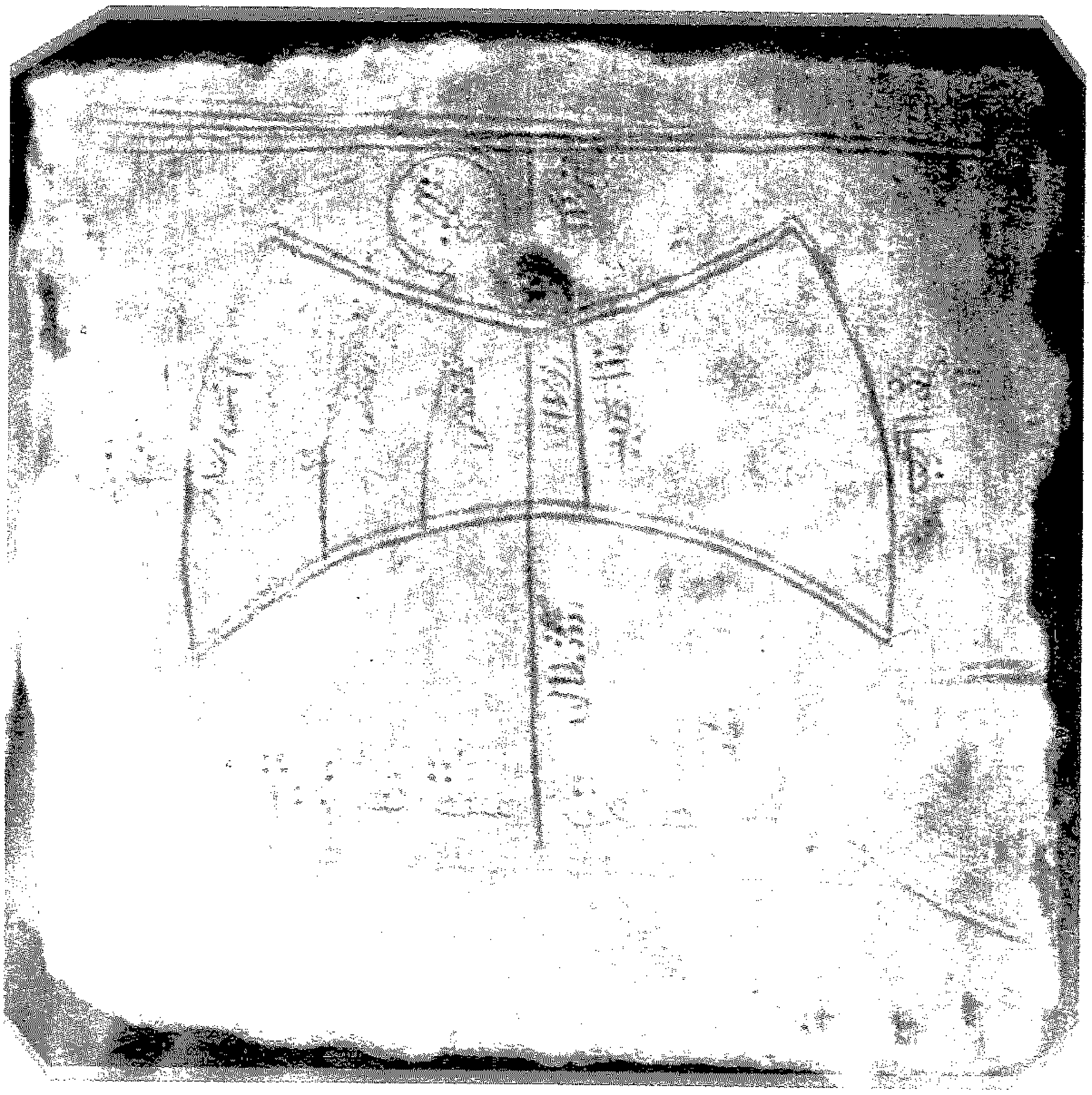

"المزولة" (الساعة الشمسية) التي بناها ابن فلاح بجامع سيدي إدريس

(11) هذه الأسماء مأخوذة من النقوش الموجودة بالمدخل الأصلي للمسجد أي المسجد المرادي

أما الجامع القديم جامع سيدي إدريس قبل المراديين فهو الجامع الموجود في الساحة أي بالمدخل والذي بقي منه إلى حد الآن الأساطين الثلاثة في الجهة الشرقية والغربية والجنوبية للمسجد كما ذكرنا وهي المدخل الداخلي للجامع الحالي هذه الأساطين الثلاثة أعمدتها هي نفس الأعمدة الموجودة بالمسجد المرادي معنى لك أن هذا المسجد قد وقع توسيعه وترميمه وتجديده من الجهة الجنوبية من أرض السانية المحبّسة على الصحابي الجليل سيدي أبي لبابة وبقي المسجد الأول كساحة وكفضاء للجامع المرادي الذي بنيت به المزولة أي الساعة الشمسية من طرف ابن فلاح القابسي وبه بعض قبور من اتصلوا بهذا الجامع سواء في نطاق تحفيظ القرآن كمؤدبين أو التقرب منه أو القيام بشؤونه.

جامع سيدي إدريس القديم:

الثابت أن جامع سيدي إدريس هو معلم قديم جدا في قابس وهو أقدم جامع لحد الآن في المنطقة وأن بناءه كان قد تم بدون شك بحجارة "المدينة" بعد هجرة أهلها وخرابها لأسباب يطول شرحها فمن قائل أن ذلك كان بسبب الوباء الذي أصاب أهلها وما أكثره في ذلك الزمان أو بسبب الهجومات والزحفات المتوالية عليها أو بسبب الزلازل إلى غير ذلك من الأخبار المتواترة في قابس. والذي يجعلنا نعتقد أن بناءه كان بحجارة "المدينة" هو:

1- أن هذه الحجارة التي بني بها الجامع بعد هجرة أهل "المدينة" لا تختلف عن الحجارة التي بنيت بها منطقة المنزل وجارة الدخلانية وشنني القديمة لأن هذه الحجارة نقلت منها أي من "المدينة".

2- إن شكل الأعمدة المتواجد بالجامع الحالي وبالأساطين داخل المسجد مختلفة الأطوار والأنواع من فنيقية ورومانية وبزنطية وإسلامية وهي تمثل دون شك الأطوار التاريخية التي مرّت بها قابس عبر تاريخها الطويل.

بناء الجوامع والمساجد والمعالم التاريخية:

تبنى الجوامع والمساجد والمعالم التاريخية في المناطق المختلفة وعلى مر العصور بإذن من الحاكم الذي يحكم البلاد أو يكون البناء في عهده وينسب إليه تقربا منه أو اعترافا بسلطته ونفوذه وليس من الشرط بأن يكون هو الذي بناه أو حكم تلك المنطقة بصورة مباشرة.

وهذا المعلم حسب اعتقادي وحسب الدراسة التي قمت بها يكون قد بني في عهد "أبي العلا إدريس ابن يوسف ابن عبد المؤمن" الحاكم الثالث لدولة الموحدين في تونس وهو من الحفصيين أي في بداية القرن السابع هجري(618هـ) وبداية القرن الثالث عشر مسيحي(1222م) الذي تولى الإمارة بأمر من المستنصر من بني عبد المؤمن أي باسم الموحدين.

وهذا الاستنتاج مبني على المرتكزات التالية:

1- إن قابس كانت تابعة بصورة مباشرة لدولة الموحدين ودولة بني حفص التي حكمت البلاد باسمهم في بداية الأمر أي باسم الموحدين ثم باسمهم أي بني حفص بعد استقلالهم عنهم وكان حاكمها أبو زكرياء يحي الحفصي.

2- كانت قابس بعد حكم ابن محمد عبد الله الحفصي المدعو(بعبو) لتونس (621هـ-1224م) تحكم من طرف أخيه أبي زكرياء يحي الحفصي كما ذكرنا والذي أصبح فيما بعد حاكم إمارة تونس باسم الحفصيين وهو الحاكم السادس لدولتهم.

3- لم يذكر اسم إدريس في تاريخ قابس إلا خلال هذه الحقبة مما يؤكد افتراضنا واعتقادنا بأن الجامع قد سمي باسم أمير تونس أبي العلاء إدريس.

4- وجود كثير من الزوي والجوامع بالمنطقة تنتمي إلى المغرب الأقصى وإلى الساقية الحمراء بالذات والتي توجد بموريطانيا الحالية والصحراء الغربية وكانت جزء من المغرب مثل سيدي حسن المغربي... كما توجد جاليات كثيرة في قابس قادمة من تلك الربوع أي أصلها من الساقية الحمراء.

5- وجود بعض القائمين على الجامع من المغاربة ومنهم الحاج المغربي الذي كان يقوم بدور المبخّر والمنظف والوقاد بالجامع وبيته كان يوجد بالساحة الحالية من الجهة الشرقية وتفتح عليها حيث كان يوجد المسجد القديم كما عثرنا على أقدم إمام بالجامع (202 سنة) يرجع إلى الساقية الحمراء وهو الإمام(12) سالم ابن الإمام علي بن سالم المجدوب المكنّى ببوشميلة وعائلة المجدوب الأصلية تقيم بصفاقس إلى الآن وهي قادمة من الساقية الحمراء بالمغرب الأقصى سابقا.

6- يوجد بالساحة قبر معظم بشكله وبالعمامة المنصوبة على رأسه وهو حسب الرواية من المقرئين للقرآن ودفن هناك ومن قائل أنه قبر أحد البايات الذي نفي هناك ومع الأسف قد أزيح هذا القبر وبقي شكل الرأس المعمم إلى الآن محفوظا بحجرة الإمام مصطفى بن محمد بن جراد إمام الجمعة.

7- العلاقة الوثيقة بين الموحدين ومركزهم المغرب الأقصى وبين بني حفص الذين حكموا باسمهم ولو استقلوا عنهم استقلال نسبيا لأن الدعوة الموحدية التي قام بها الإمام المهدي ابن تمرت كانت بتأييد من "أبي حفص عمر ابن يحي الملقب بالشيخ" والذي يرجع نسبه إلى الخليفة عمر الخطاب وكذلك بتأييد من جماعة عبد المؤمن ابن علي الملقب بالخليفة وهما من العشرة الأخيار الذين ساندوا دعوة الموحدين لذا فلا غرابة بأن يكون بناء هذا المسجد في عهدهم يحمل اسم أحدهم وهو حاكم تونس أو أن التسمية ترجع إلى أحد أجداد الموحدين الذين يسمون بإدريس الأكبر وإدريس الأصغر الوارد في السلالة الشريفة والمصاحبة لهذه الدراسة.

8- الثابت أن الجامع الحالي الذي بناه المراديون حسب الرسوم ونقوش الكتابات والمصادر المعتمدة لا يمكن أن يكون هو الجامع القديم لأنه لم يرد في عهدهم اسم إدريس سواء من طرف الحكام أو من طرف الأشخاص المعظمين ولا من السكان الكبار من قابس لذا فان الجامع قد جدد ووقع توسيعه وبقي يحمل الاسم القديم.

---

(12) هذه الوثيقة عثرنا عليها عند حفيد من أحفاد هذا الإمام وهو المعلم والمربي إبراهيم بوشميلة(المجدوب)

نسخة

الحمد لله وحده ... انه نسخة ... [illegible]

[illegible]

بقية الوثيقة بالصفحة الموالية

هذه الوثيقة تحمل سلالة الأدارسة وفيهم ادريس الأكبر وادريس الأصغر الذي ينتمي إليه بعض الأولياء مثل سيدي مهذب وسيدي مَحمد النويقس وسيدي بوعبدالله وسيدي عبدالسلام

9- لقد ثار في عهد أبي العلاء إدريس حاكم تونس "أبي إسحاق الميورقي" الملقب بابن غانية واحتل قابس وحرق نخيلها ولم يبق منها إلا نخلة واحدة انتقاما من أهلها لأنها قاومته ولم ترض بسيطرته(وقد ذكرنا ذلك سابقا). لذا لا يستبعد بأن يكون بناء هذا الجامع في عهده أي في عهد أبي العلاء إدريس وأن يحمل اسمه وهي علامة انتصار على الثائر الذي قضى عليه وطرده شر طردة وبذلك يمكن أن يكون بناء هذا الجامع في سنة 618 هجري أي يعود إلى 802 سنة (1420 هـ السنة الجارية الحالية -618هـ = 802سنة) أو يكون أقدم من ذلك لأن هناك من يعتقد بأن هذا المعلم كان عبارة عن زاوية قديمة جدا وتحمل هذا الاسم قبل أن تصبح مسجدا جامعا وأن المدفون في هذه الزاوية شخص يسمّى بادريس ويكون بذلك أقدم من هذا التاريخ الذي استنتجناه .

المسجد الجامع سيدي إدريس المرادي:

هذا المسجد الجامع القديم الذي تحدثنا عنه وقع بناؤه وتجديده وتوسيعه وترميمه في عهد المراديين أي في عهد مراد باي ابن حمودة باشا ابن مراد(1076هـ-1666م)أي (1420هـ من السنة الحالية الجارية يطرح منها 1076هـ السنة التي بني فيها فيكون له 344 سنة هجرية) وكان عهده في تونس (عهدا مزدهرا وكان رجل دولة شجاع مضطلع بالسياسة ضابطا للأمور متفقدا لأحوال الرعية بنفسه ضاربا على أيدي العمال) كما يشير إلى ذلك صاحب كتاب "اتحاف أهل الزمان" ولا يستغرب بأن تصل أيديهم إلى خارج تونس العاصمة فاهتم بالعمران وبالشؤون الدينية وإن بناء المدرسة المرادية بقابس في عهدهم لتدريس علوم الدين والقرآن لدليل على ذلك كما أن تحبيس بعض الأملاك من بساتين وغابات ودكاكين من قابس على جامع سيدي إدريس من قبل بعض الحكام والعموم على مختلف حقب التاريخ لدليل على مركز هذا الجامع وتاريخه واحترامه من طرف الجميع فالأملاك محبّسة عليه من كل قابس من جارة ومن المنزل ومن شط بوعبد الله وأشهر غابة في قابس حبست على هذا الجامع هي غابة(دزيرة) أي الجزيرة التي يفتح عليها باب من أبواب قابس القديمة بالقرب من ساحة عنبر التي تغنى بها الشعراء من قابس وكانت منتزها ومقيلا في العهود الماضية كما حُبّس حانوتان بسوق المنزل على الكرسي أي لمن يرتل القرآن قبل خطبتي الجمعة كما هو معهود وقد ذكرنا ذلك قبل هذه الدراسة.

ومن حسن حظ هذا المسجد الجامع أن اهتمت به الدولة التونسية الحديثة عن طريق وزارة الثقافة (المعهد القومي للآثار وكذلك الإعانات الرئاسية) فقامت بترميمه وصقله وإزالة ما علق به من جير وتزويق زائد ولا يزال الاهتمام به إلى الوقت الحاضر وقد خصصت إدارة الآثار أخيرا مبالغ هامة لزيادة الاهتمام به وحفظه من التلف والانهيار والأشغال جارية لحد الآن.

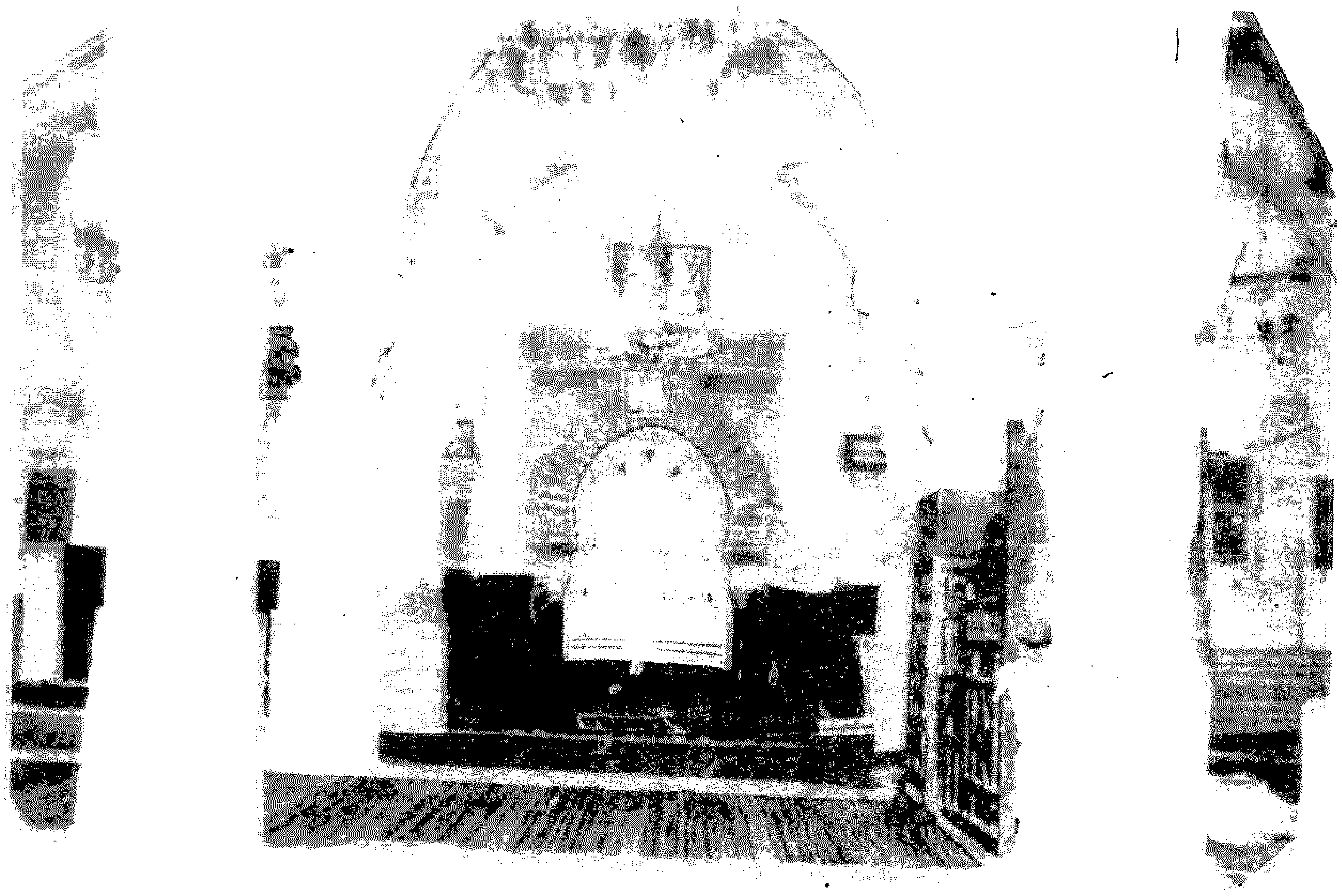

صورة داخلية من المسجد الجامع سيدي إدريس

9- **السور والخندق:**

لقد تحدثنا في الفصل الأول من الباب الأول عن سور وخندق قابس القديمة أي قابس البربرية والفنيقية والرومانية والوندالية والبزنطية وجزء من الإسلامية من عهد المدينة وذكرنا أن لها أربعة أبواب وهي متطابقة على الجهات التي ذكرت بها فالباب الشرقي أو البحري يفتح على البحر والباب الغربي يفتح على الربض وعلى سيدي بولبابة وباب المنارة أو الباب القبلي ويفتح على منطقة المنارة وباب الدزيرة يفتح على غابة دزيرة(الجزيرة).

أما الخندق الذي كان يحيط بها فهو الخندق الذي ذكرناه أيضا ويجرون الماء إليه من واد السيل عند الحاجة وذكرنا أن عين سلام كانت داخل هذا السور حسب قول بلانشفيك(13) أما بالنسبة للسور والخندق الثاني الذي ذكره الرحالة والمؤرخون في القرون الإسلامية فيحتاج إلى بحث وإلى تنقيب وهو يحيط بمنطقة المنزل أي المنطقة التي وقع تعميرها بعد تهديم "المدينة" وهجرة السكان منها.

(13) la berberie oriontale sous les hafsides TI P/319

لقـد ذكـر المؤرخون بأن هناك ثلاثة أبواب لكن مع الأسف أنه لم يبق من هذا السور أي دليـل ولا مـن الأبـواب الثلاثة وكذلك أثار الخندق وأعتقد أن البحوث والتنقيبات التـي أرجو بأن تـتم عن طريق المختصين ستكشف لنا أثر هذه المعالم التاريخية الهامة ذلك أن الهجومات المتوالية لم تـبق لها أثـرا، فحتى الاحتلال الفرنسي سنة 1881 كان له التأثير الكبير في الهدم والتخريب لا على السور فقط بل حتى على المنازل كما ذكر ذلك الباحثون.

كذلـك أثـار رسـوم "المديـنة القديمة" لم يبق لها أثر أيضا فأغلب المدن التونسية قد حافظت على معالمهـا ورممـتها أما قابس فلم يبق لآثارها العديدة عبر العصور أي أثر وقد طمست تحت الأنقاظ وأن الحجـارة الـتي بـنيت بهـا نقلت إلى تجمعات سكنية أخرى فتكون بها عمران جديد في "البلد وفي المنزل وفي شننـي"

يقـول المقدسـي عن المدينة الإسلامية "ولها سور وثلاثة أبواب" لكن مع الأسف لم يبق لهذه المعالم الهامـة أي أثـر في الوقـت الحاضـر وطوتها الأيام وهدمتها أيدي الإنسان نرجو بأن يثار الغبار عن هذه المعالم وغيرها لتحدثنا عن تاريخنا الماضي المجيد

كما يقول البكري:

"مدينة جليلة مسورة بالصخر الجليل من بنـيان الأول ذات حصن حصين"

ثـم يقـول. "وقـد أحـاط بجميعهـا خـندق كبير يجرون الماء إليه عند الحاجة فتكون أمنع شيء ولها ثلاثة أبواب"

لكـن مـع الأسف لم يبق لهذه المعالم الهامة أي أثر في الوقت الحاضر سوى المدرسة المرادية وجامع سيدي ادريس والبقية تحت الأنقاض.

الفصل الثالث

الصحابي أبو لبابة الأوسي الأنصاري

(دفين قابس)

إن الحديث عن الصحابي أبي لبابة الأوسي الأنصاري، حديث شيق وطريف، ذلك أن هذا الصحابي الذي ضمت تربة قابس جثمانه الطيب قد لعب دورا هاما في التضحية، والفداء وعزة النفس وكرامة الإنسان. فهو المناضل الذي آل على نفسه بأن يعذبها إلى أن يغفر الله له، ويتوب عليه وهو الذي نزلت في حقه آيتان كريمتان تكبر ذنبه في الأولى وتغفر له في الثانية جزاء ندمه وطلبه الغفران وجزاء توبته النصوح. هذا المكافح هو الذي كفّر عن ذنبه بمفارقته لديار قومه وبتصدقه بماله إمعانا في التوبة وطلب الغفران فمن هو هذا الصحابي؟

كيف نشأ؟

وما هي الظروف التي أدت به للدخول في الإسلام ليصبح شخصية من شخصياته المحترمة وصحابيا نائبا عن الرسول أثناء غيابه، وعلما من أعلام المسلمين؟ الذي فارق بلاد المشرق (المدينة المنورة) مدينة الرسول محمد صلوات الله عليه ليستقر في بلاد المغرب وبالذات في مدينة قابس الزاهرة من البلاد التونسية التي كبر شأنها باحتوائها جثمانه الطاهر؟

وكيف أصبحت قابس روضة من رياض المسلمين تشخص إليها أبصارهم متلهفة، لتنهل من بركة الصحابي أبي لبابة المجاهد الذي أخذ على نفسه المساهمة في كل فتح عربي راجيا من ذلك حسن التوبة وخير الاستشهاد؟ وبذلك يصدق الحديث الشريف على أهل قابس وينالهم شرف دفنه في أرضهم، ليكون قائدهم وشفيعهم يوم القيامة تصديقا للحديث الشريف(أيّما رجل من أصحابي مات ببلدة فهو قائدهم وشفيعهم يوم القيامة)

ولقوله أيضا(أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم)

من هو أبو لبابة إذن؟

هو بشير ابن عبد المنذر ابن رفاعة ابن زبير ابن أمية من بني عمرو ابن مالك ابن عوف ابن الأوس ابن الخزرج الأكبر ابن حارثة ابن ثعلبة ابن مزيقيا ابن ماء السماء والبعض من هذه النسبة مثبتة في رخامة برأس الضريح بقابس.

وقيل أنه رفاعة وقيل مبشر، وهذا في الواقع غير صحيح حسب المصادر التاريخية لأن له أخوين أكبر منه وهما رفاعة ومبشر. وأمّه نسيبة بنت زيد ابن ضبيعة. كنّي بابنته لبابة وهي البنت الأولى وقد اشتهر بهذا الاسم في المشرق والمغرب وله أبناء آخرون منهم السائب وعبد الرحمان. أما زوجته فهي زينب بنت خذام ابن ثعلبة ابن زيد ابن عبيد ابن أمية ابن زيد.

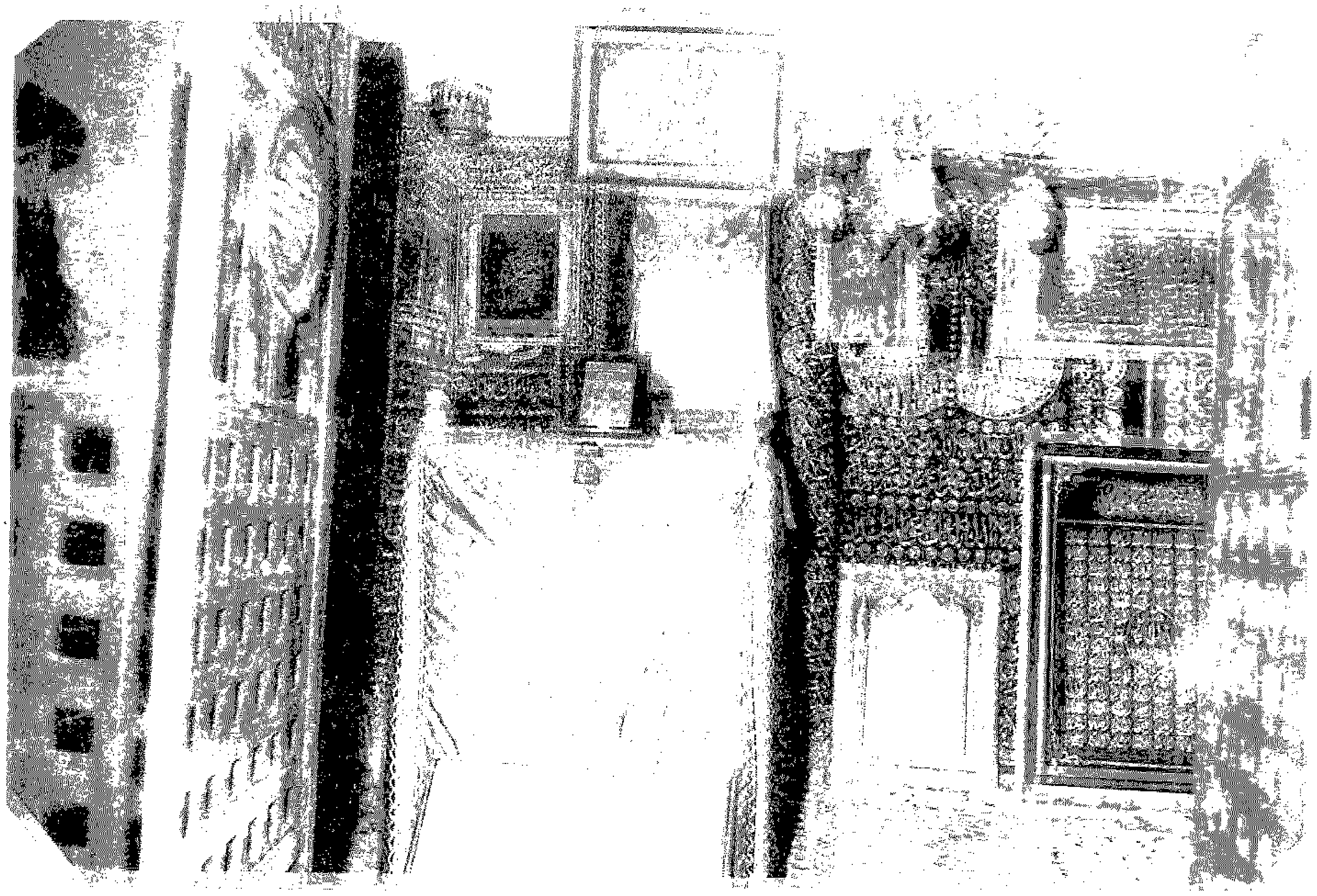

صورة للضريح من الداخل تثبت نسبه وتاريخ وفاته

مكانة أبي لبابة عند الرسول:

لقد صاحب أبو لبابة الرسول وكان من جملة من استقبله في الهجرة إلى المدينة. ومنذ ذلك الحين لازمه وتأثر بأخلاقه وبأدب القرآن وتعلم مبادئ الإيمان.

لقد شارك أبو لبابة في أغلب الغزوات كما استخلفه الرسول على المدينة في غزوة بدر وضرب له بسهم واكتفى بمشاركة أخويه رفاعة ومبشر.

ويذكر المؤرخون في هذا الصدد أن أبا لبابة قد لبى الدعوة بالمشاركة في هذه الغزوة وانطلق مع أخويه، إلا أن الرسول لما بلغ مكانا يدعى(الروحاء) استدعاه وأمره بالرجوع إلى المدينة ليخلفه عليها فرجع إلى المدينة وما ذلك إلا لمكانته الاجتماعية الممتازة التي كان يتمتع بها هذا الصحابي الجليل، ولذلك عد من البدريين...

كما شارك أبو لبابة في غزوة أحد، واستخلفه للمرة الثانية على المدينة في غزوة السويق.

وفي الواقع أن هذا الاستخلاف والإنابة تعطي قيمة ومكانة للصحابي أبي لبابة لأن الرسول لا يمكن أن يخلفه إنسان عادي بدون أن تتوفر فيه عدة شروط والتي منها الكفاءة والشجاعة وقوة الشخصية والمقدرة على حل المشاكل وفضها.

رغم أن بعض المؤرخين يثيرون نقط استفهام حول هذا الاستخلاف؟

إذ يشير بعضهم إلى أن عدم مشاركة أبي لبابة في الغزوتين المشار إليهما(غزوتي بدر والسويق) يرجع إلى قلة شجاعته وعدم مقدرته على الحرب.
وفي الواقع أن هذا غير صحيح لأن الرسول هو الذي أمره بالرجوع من غزوة بدر لينوبه وليذود عن المدينة عند الحاجة. كما استخلفه للمرة الثانية ثم أن اسهامه بنصيبه في غزوة بدر واعتباره من البدريين دليل على بطلان هذا الادعاء. ويعد أبو لبابة من رواة الحديث فلقد نقل على الرسول كثيرا من الأحاديث وعنه رواها ولداه السائب وعبد الرحمان وعبد الله ابن عمر وولده سالم ابن عبد الله وغيرهم...
ومن الأحاديث التي رواها أبو لبابة قال
استسقى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة، فقلت أن التمر في المربد(المربد هو المكان التي تحبس فيه الإبل والغنم). فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "اللهم اسقنا"
فقلت أن التمر في المربد وما في السماء سحاب نراه. فقال رسول الله "اللهم اسقنا حتى يقوم أبو لبابة عريانا فيسد ثقب مربده بإزاره" أي مصرف الماء.
فاستهلت السماء فأمطرت مطرا شديدا وصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فطافت الأنصار بي يقولون "يا أبا لبابة إن السماء لم تقلع حتى تقوم عريانا فتسد ثقب مربدك بإزارك كما قال رسول الله" فقمت عريانا فسددت ثقب مربدي بإزاري فأقلعت السماء.
إن نقل الأحاديث من أبي لبابة عن الرسول ليدل على المصاحبة والملازمة الدائمة للنبئ رسول الله. وهذا يعطي قيمة للصحابي أبي لبابة.
كما أن المكانة الاجتماعية التي كان يتمتع بها بين المسلمين مكانة مرموقة حيث صاهر عائلة الخطاب إذ تزوجت ابنته لبابة من الفارس زيد ابن الخطاب شقيق الخليفة عمر ابن الخطاب وحامل راية اليمامة، كما أن حفيده عبد الله ابن زيد ابن الخطاب وابن لبابة استشهد في إحدى الحملات الإسلامية على إفريقية هذا بالإضافة إلى استخلاف الرسول له مرتين على المدينة في غزوتي بدر والسويق كما ذكرنا ذلك.

الصحابي أبو لبابة ويهود بني قريظة:

إن الحادثة التي غيرت مجرى تاريخ الصحابي أبي لبابة هي حادثة يهود بني قريظة. إذ يذكر المؤرخون أن هناك حادثة وقعت للصحابي أبي لبابة مع يهود بني قريظة وهذه الحادثة تتعلق بحصار بني قريظة من طرف المسلمين خمسا وعشرين ليلة وذلك بسبب خيانتهم للمسلمين ونقضهم للعهد ومساعدتهم للمشركين وتحريضهم عليهم في غزوة الأحزاب رغم اتفاق الصلح المعقود بينهم وبين المسلمين.
وفي هذه الحادثة طلب اليهود من الرسول بأن يرسل إليهم أبا لبابة صاحبه ليستشيروه في أمرهم وذلك بعد فشلهم في المفاوضات التي قام بها اليهودي(شاش ابن قيس) إذ أن الرسول لم يقبل منهم إلا حكم الله فيهم وهو قتل الرجال وسبي النساء وإخراج الأطفال والذرية.
وكانت قبيلة الأوس التي ينتمي إليها أبو لبابة متحالفة مع يهود بني قريظة ولها ارتباطات

تجارية معهم قبل الإسلام وبعده.

أرسل الرسول أبا لبابة إلى يهود بني قريظة كما طلبوا وقيل أنه اعترضته النسوة والأطفال والرجال بالبكاء والعويل، واستشاروه في أمرهم هل ينزلون على حكم الرسول فيهم فأشار إلى رقبته أي أنكم إذا قبلتم ذلك فمصيركم الذبح وقد صور هذه الحادثة أحد الشعراء بقوله:

تولى الضر عبئا بعد عبء	فهد قواهم العبء الثقيل
فقاموا يصرخون إلا دواء	فقد اشفى على الموت العليل
لعل أبا لبابة إذ ظفرنا	بمقدمه لعثرتنا مقيل
لكم منا السلاح إذا أردتم	وتنطلق الركائب والحمول
وعاد فراجعوه على اضطرار	وهان عليهم المال الجزيل
إليك أبا لبابة ما منعنا	وشر المال ما منع البخيل
خذوه مع السلاح واطلقونا	فحسب محمد منا الرحيل
فقال دماؤكم لا بد منها	وذلك حكمه فمتى القبول

ومن خلال هذه الأبيات التي صورها الشاعر أحسن تصوير يبدو لنا الصحابي أبا لبابة بعد اتصاله باليهود وتحذيرهم مما يترقبهم من مصير مهلك ندم على ذلك واعتبره خيانة للمهمة التي كلفه بها الرسول وقد نزلت في هذا الشأن الآية الكريمة.

"يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وانتم تعلمون، واعلموا أن أموالكم وأولادكم فتنة لكم والله عنده أجر عظيم"

شعور بالذنب وطلب الغفران:

شعر أبو لبابة بالذنب الذي اقترفه وهو مناصحة يهودي بني قريظة فقرر التكفير عن ذنبه واتجه إلى زاوية المسجد وربط نفسه واقسم أن لا يبارحها حتى يأتي الرسول بنفسه ويحل وثاقه ويعفو عنه أو يتوب الله عليه(هذه السارية توجد بالمدينة المنورة إلى الآن والمسماة باسطوانة أبي لبابة أو اسطوانة التوبة)

ولما بلغ الرسول ذلك قال لو جاءني لاستغفرت له فقد بقي أبو لبابة ست ليال امتنع فيها عن الأكل والشرب، وكانت تأتيه زوجته أو ابنته لبابة لتحل وثاقه للوضوء ولأداء الصلاة.

وقد واصل أبو لبابة التكفير عن ذنبه إلى أن خارت قواه وضعف جسمه وفقد الاستمرار على المواصلة إلى أن نزلت الآية الكريمة الثانية للعفو عنه.

(وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب ن الله غفور رحيم).

لما نزلت هذه الآية كان الرسول في بيت زوجته أم سلمة.

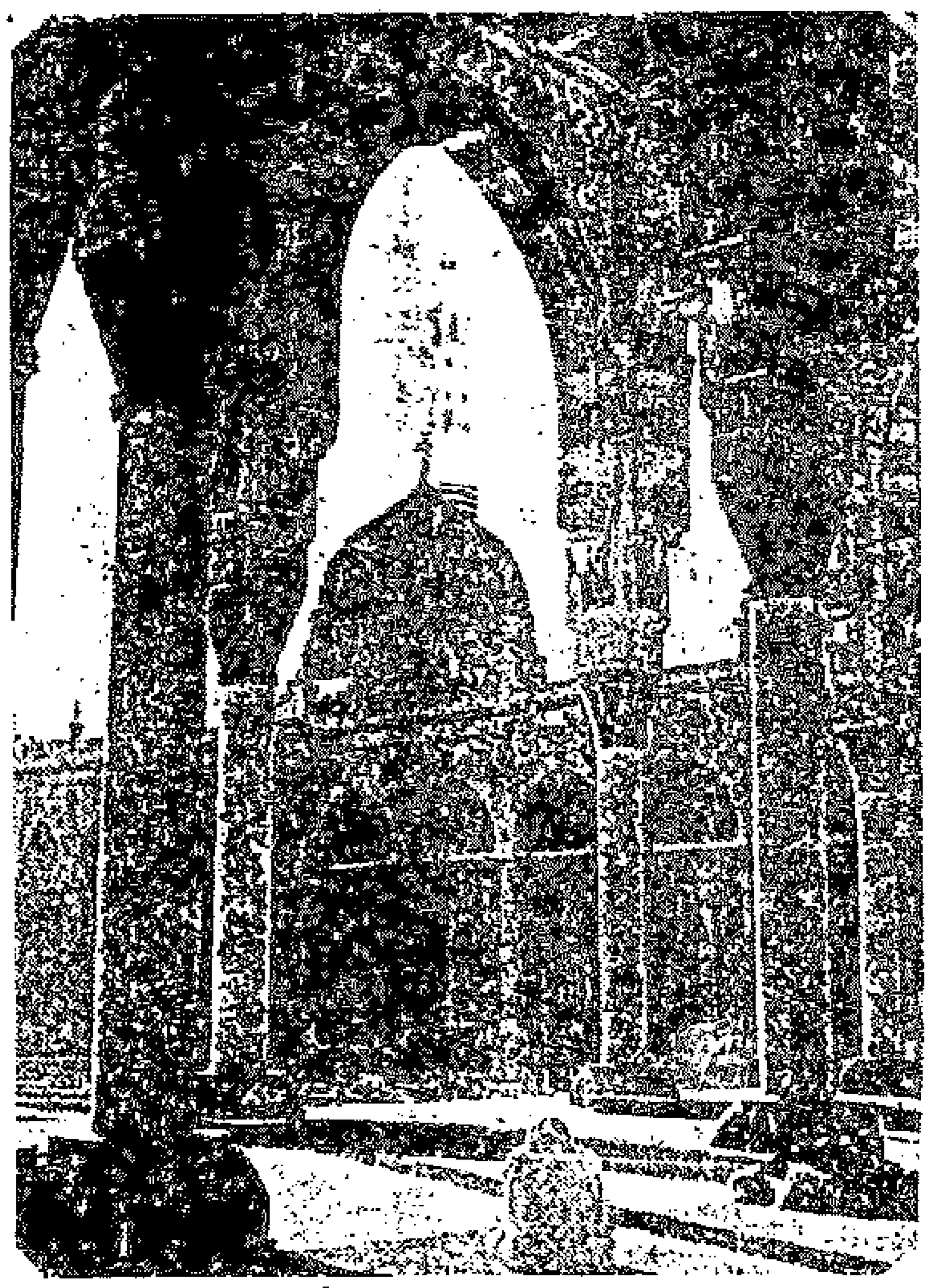

صورة للمسجد النبوي بالمدينة المنورة حيث ربط أبو لبابة نفسه وهي(اسطوانة التوبة)

قالت أم سلمة سمعت رسول الله في الفجر وهو يضحك فرحا بالتوبة لأن عليه السلام بالمؤمنين رحيم.

فقلت: يا رسول الله لم تضحك اضحك الله سنّك

فقال: تيب على أبي لبابة وردد قوله تعالى "وآخرون اعترفوا بذنوبهم إلى آخر الآية

فقلت: "أفلا ابشره يا رسول الله"

فقال: "بلى إن شئت"

فقامت أم سلمة على باب حجرتها وقالت أبشر فقد تاب الله عليك وما أن سمع أبو لبابة قول أم سلمة حتى فاضت عيناه بدموع الفرح وغشي عليه، ولما استفاق أقسم أن لا يفارق السارية حتى يأتيه رسول الله بنفسه ليحل وثاقه وفعلا جاء رسول الله وحل وثاقه بنفسه.

هذا ما حدث لأبي لبابة مع يهودي بني قريظة.

وفي الواقع أن قبيلة الأوس التي ينتسب إليها أبو لبابة والمتحالفة مع هؤلاء كانت قد طلبت من الرسول أن يهبهم بني قريظة لأنهم كانوا متحالفين معهم، فقالوا له يا رسول الله موالينا وحلفاؤنا وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد فعلت ويقصدون هبة بني قينقاع لأخوانهم من الخزرج، وكانوا متحالفين معهم. إلا أن الرسول لم يقبل ذلك لاختلاف الجرم، فمخالفة بني قينقاع تتمثل في سخرتهم من امرأة مسلمة بينما مخالفة بني قريظة تتمثل في نقضهم للعهد وخيانتهم للمواثيق ولولا هذا الموقف الصارم الذي اتخذه الرسول لقضت الأحزاب على الإسلام والمسلمين.

وفي الحقيقة أننا إذا أردنا أن ننصف هذا الصحابي الذي اعتقد أنه أخطأ في حق الرسول الأعظم أن الموقف الذي اتخذه هو موقف يتماشى مع موقف قبيلته ويرتبط مع تحالفهم معهم وارتباطاتهم التاريخية.

ولقائل أن يقول ما عسى أن يفعل أبو لبابة غير ما فعل وقد وافق الرسول على ارساله لمفاوضتهم خصوصا وأن المصير هو ما أشار له الصحابي(عندما أشار إلى رقبته) إذ أن الرسول لم يقبل هبتهم مثلما فعل مع قبيلة الخزرج وبني قينقاع.

هجرة أبي لبابة لقومه:

رغم غفران الله عن الصحابي أبي لبابة ورغم قدوم الرسول بنفسه ليحل وثاقه فإن شعوره بالذنب لم يجعله يقف عند هذا الحد بل قرر هجرة بني قومه والتصدق بكل ماله وذلك تكفيرا عن ذنبه الذي اقترفه إلا أن الرسول قال له يجزيك من مالك الثلث أي تصدق بالثلث وابق الثلثين لأهلك وفعلا تصدق الصحابي بثلث ماله وهاجر ديار قومه ولم يرجع إلى أملاكه في بني قريظة.

ولنتركه يصور لنا هذه الحادثة بنفسه في حلم حكاه لسيدنا أبي بكر قبل حادثة بني قريظة. يقول أبو لبابة(كنت في أمر عظيم وحر شديد عدة ليال لا أكل فيهن ولا أشرب وكنت لا أزال هكذا حتى أفارق الدنيا أو يتوب الله علي وتذكرت رؤيا رأيتها ونحن محاصرين بني قريظة فإنني رأيت كأني في حمأة(طين أسود) آسنة فلم أخرج منها حتى كدت أموت من ريحها ثم رأيت نهرا جاريا فأراني اغتسلت فيه حتى استنقيت وأراني أجد ريحا طيبة فاستعبرتها أبا بكر فقال لي "لتدخلن في أمر تغتم له ثم يفرج الله عنك فكنت أذكر قوله وأنا مرتبط بالسارية فأرجو أن ينزل الله توبتي فلم أزل كذلك حتى كنت أسمع الصوت من الجهد ورسول الله ينظر إلي حتى أنزل الله توبتي"

مواصلة الجهاد:

بعد قرار هذا الصحابي هجرة قومه والتصدق بثلث ماله كما حدده له الرسول، واصل أبو لبابة الجهاد في حياة الرسول، وبعده، وعاد إلى المكانة المرموقة عند الرسول وشهد معه كل الغزوات والمعارك ولما قرر الرسول فتح مكة كان أبو لبابة يحمل راية قومه بني عمرو ابن عوف مهللا مكبرا متقدما الجموع إلى أن تم الفتح. ولما توفي الرسول بكاه أبو لبابة بكاء مرا، ومن ذلك التاريخ يغفل المؤرخون عن ذكر اسم أبي لبابة، والراجح حسب التواتر أنه فارق بلاد المشرق لمواصلة الجهاد والفتح، كما نذر على نفسه ذلك، ووصل به المطاف إلى شمال إفريقيا، ولم يرد ذكر أبي لبابة على لسان المؤرخين حسب علمنا إلا في القرن السابع للهجرة.

وفاة أبي لبابة:

بالرغم من أن المؤرخين لم يتحدثوا كثيرا عن وفاة الصحابي أبي لبابة وعن المكان الذي توفي فيه فالنصوص الشرقية والأندلسية تكتفي بأنه مات في خلافة علي كرّم الله وجهه، وفي بعضها أنه مات بعد الخمسين، ولا تذكر مكان وفاته "كالاستيعاب والإصابة"، فلا يستبعد أن يكون قد مات بإفريقيا إذ لا تصادم بين ما جاء في هذه النصوص وبين موته بها كما يقول شيخنا الفاضل المرحوم الشاذلي النيفر في محاضرته (الرحمة والمسؤولية عند أبي لبابة) التي أقيمت بضريح الصحابي الجليل بقابس بمناسبة ذكرى نزول القرآن.

وأنه لم يثبت لحد الآن ما يؤكد وجود ضريحه في مكان آخر غير قابس والتواتر في قابس

يفيد بأنه استشهد في ضواحي قابس في المكان المعروف "بواد الغيران" قرب ضاحية كتانة ثم نقل إلى حيث ضريحه اليوم ليكون على تلك الربوة المطلة على البحر والكائنة على الطريق القديمة الرابطة بين الجنوب والشمال وهناك من يقول بأنه توفي في المكان المذكور بسبب إنتشار مرض الطاعون ونقل بعد ذلك إلى قابس.

ومهما كانت أسباب موته سواء كانت في الجهاد عن طريق الغزوات أو السرايا أو الموت بسبب المرض فإنه مات شهيدا لأنه لما خرج من المدينة المنورة مفارقا ديار قومه قاصدا الجهاد فإنه ولو مات في غير معارك الجهاد فهو مجاهد لأنه نوى الجهاد لقوله تعالى

"ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله"

كما وقع لأبي زمعة البلوي الذي مات بالقيروان موتا عاديا ولو أنه كان ضمن الحملة التي قادها معاوية ابن حديج سنة 45 هـ فإنه عد من المجاهدين لأنه قدم للمشاركة في الغزوة وهذا ما ذكره الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتاب والده الطاهر بن عاشور"قصة الولد" صفحة 72 وفي ما يخص موته بوادي الغيران أنه نقل عن بعض الشيوخ الكبار أن هذا المكان المعروف بوادي الغيران أي بهنشير واد الغيران هو المكان الذي توفي به أبي لبابة وهو المكان المعروف الآن بالمصلى والمصلى الدائم للرجل التقي المعروف عندهم "بالتواتي الصغير" ويعلل هذا الرجل صلاته في هذا المكان بأنه طاهر ونقي ولهذا أصبح الجميع يحترمون هذا المكان.

ويؤكد هؤلاء الشيوخ بإطاراتهم المحلية أن بعضهم شاهد مرارا عديدة نورا كنور المصباح يضيء ذلك المكان ولما يذهبون إليه لا يجدون شيئا والملاحظ أن هذا المكان هو المكان الذي يوجد بالطريق المسمى "بطريق الوطن" وهي الطريق التي تربط تطاوين بالقيروان طريق الأعراض حاليا.

ويبدو أن هذا الطريق هو الذي سلكه المجاهدون في غزواتهم لإفريقيا وربما هذا ما يثبت وفاته بهذا المكان إما عن طريق المشاركة في الجهاد كما هو محتمل أو عن طريق المرض الذي أشرنا إليه سابقا. أما تاريخ الوفاة فقد أثبتته الرخامة الموضوعة على الضريح في مدينة قابس والتي كتب عليها. "باسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد. هذا مسجد أبي لبابة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم واسمه رفاعة بشير وهكذا سماه مسلم وأبو القاسم البغوي وهو أنصاري أوسي بدري عقبي وقبره في هذا البيت غفر الله لمن قرأ ولمن كتب تاريخه لي(٤٠) ويعني ذلك في الحساب الفلكي اللام(٣٠) والياء(١٠) والجملة(٤٠) وهي سنة وفاته".

<u>ضريح الصحابي أبي لبابة:</u>

لقد شك بعض المؤرخين في صحة دفن أبي لبابة في قابس لعدم ذكره من طرف المؤرخين . إلا أن هذا الشك ليس صحيحا لأن هناك من الصحابة من توفوا في شمال إفريقيا ولم يذكرهم المؤرخون مثل معبد ابن العباس ابن عبد المطلب ابن هاشم الذي استشهد في غزوة ابن أبي سرح.

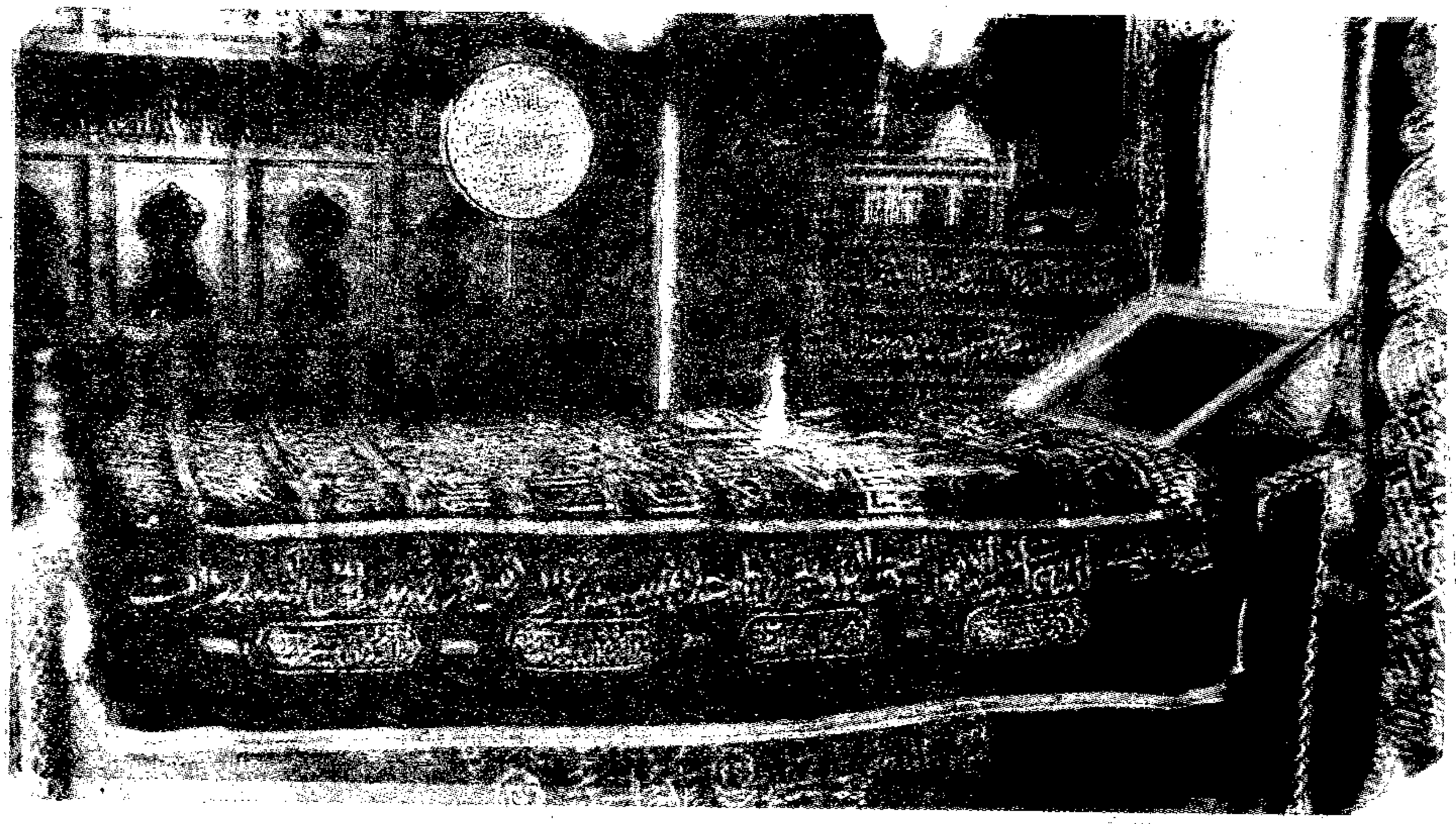

ضريح الصحابي أبي لبابة الانصاري بقابس

وقد ثبت دفن أبي لبابة بقابس حتى أنهم يذكرون أنه وقع خلاف في المكان الذي يجب أن يدفن فيه بعد دفنه أوّلا في "كتانة" بواد الغيران كما ذكرنا ذلك فقد دفن في بداية الأمر في "المدينة" إلا أن سكان الربض وهم السكان الذين يسكنون وراء الضريح الآن قد نقلوه في الليل ودفنوه في حيهم ولما علم أهل المدينة أرجعوه في الليل ولما اشتد الخلاف وقع الاتفاق على دفنه بين المنطقتين أي بين المدينة والربض وهو مكانه الحالي (مقبرة قابس).

أما ذكر المؤرخين له فقد بدأ منذ القرن السابع للهجرة إذ ذكره قاضي قابس أبو المطرف ابن عميرة في إحدى رسائله واصفا قابس " مدهام الغابة مستأثر بسيد من سادات الصحابة" إلى أن يقول "ما يذكره أهل قابس أن أبا لبابة الأنصاري مدفون في بلدهم وقبره عندهم مزار مشهور" كما ذكره العبدري في أواخر القرن السابع متحدثا عن قابس "وبها قبر أبي لبابة صاحب رسول الله وعليه مسجد وهو فيه في بيت مغلق"

كما ذكره ابن ناجي القيرواني الذي ولي قضاء قابس هو الآخر "ولما وليت قضاء قابس وجدتهم يزورون قبرا في بيت نظيفة داخل مسجد خارج البلاد في غربها يسمى مسجد أبي لبابة وبالحائط عند رأس القبر لوح مكتوب فيه هذا قبر أبي لبابة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما" والضريح يوجد اليوم داخل مسجد قد أدخلت عليه بعض التحسينات في عهود مختلفة مثل التي وقعت في العهد المرادي على مرحلتين في عهد حمودة باشا المرادي(1041هـ-1076هـ) الموافق لـ (1633م- 1666م) وكذلك في عهد محمد المرادي حفيد حمودة باشا(1086هـ1675م). وكذلك التحسينات التي تمّت في العهد الحسيني في عهد محمد الصادق باي 1881م وتمثلت في بناء سطوان أمامي ومواجه إلى الشرق يرتكز على أربعة أعمدة كما تمثله الصورة

المدخل الأصلي للضريح(مدخل الرجال الآن)

وكذلك التحسينات التي تمّت في عهد الاستقلال أي منذ عهد الوالي زكرياء ابن مصطفى 1967/1968 والولاة الذين خلفوه. وهذه التحسينات تتمثل في:

1- تمديد الأقواس الموجودة بالمدخل وإدخال الجزء الذي كان يسكنه الزوار من الجهة الشمالية إلى المسجد.

2- إحاطة الساحة بالأقواس من الجهات الأربعة

جزء من التوسعة التي تمّت خلال سنتي 67 و68

3- بناء بيوت ومطابخ للزوار بعيدة عن الضريح كما تمثله الصورة

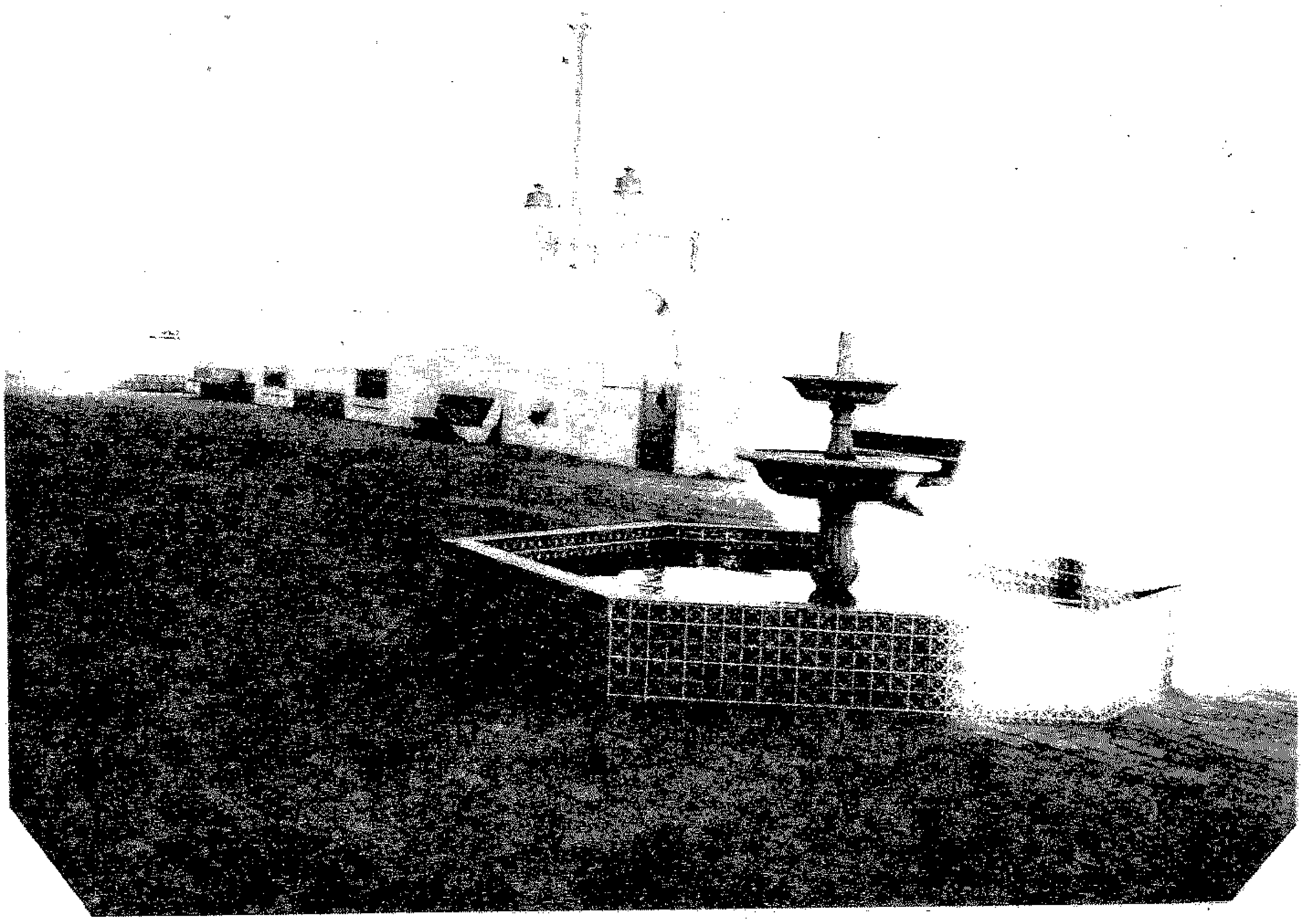

4- بناء مسجد جامع بصومعته لأداء صلاة الجمعة وهو مقابل للمدرسة المرادية كما تمثله الصورتان الداخلية والخارجية

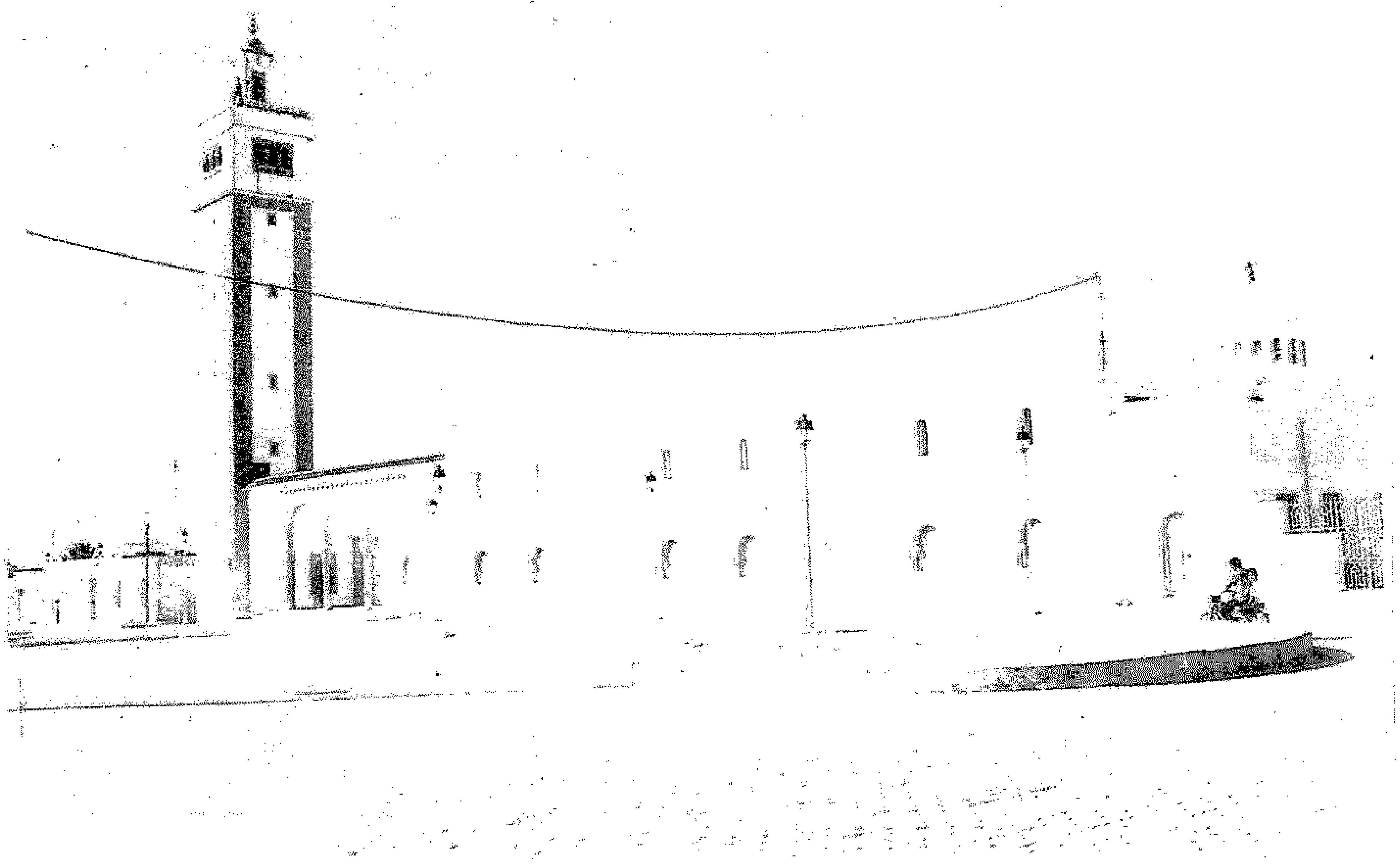

جامع سيدي أبي لبابة القديم من الخارج

جامع سيدي بولبابة الجديد من الداخل

وتواصلت الإصلاحات والترميمات في مختلف السنوات وعبر الولاة الذين تعاقبوا على ولاية قابس إلى أن حصلت التوسعة الكبيرة التي بني فيها مسجد عصري ضخم محاذ للضريح من الجهة الغربية ويفتح عليه من مسلكين متصلين بالضريح ومن باب ثالث مستقل جاني محاذ لحائط الضريح من الجهة الشمالية، لذلك يمكن الدخول إلى هذا المسجد من ثلاثة أبواب والذي قام ببناء هذا المعلم ومن ماله الخاص السيد الهادي البوشماوي بعد حوار بناء بين السلطة الجهوية ووزارة الشؤون الثقافية المتمثلة في المعهد القومي للآثار وهذا الحوار تمثل في ضرورة المحافظة على الضريح والمسجد الأصلي دون المساس به إذ أصبح من المكتسبات التاريخية التي تجب المحافظة عليها.

وبعد تسوية الوضعية العقارية للمساكن المجاورة للضريح وقع بناء هذا المكسب التاريخي الذي دعت الحاجة إليه فالمقام أصبح مزارا لكل الوافدين على قابس ومركزا للحفلات الدينية والمهرجانات والملتقيات والمحاضرات.

وبذلك يتحقق الغرض من هذه التوسيعات والتحسينات إذ وقع الاهتمام بمقام هذا الصحابي من ناحية كما أصبح مركزا للتنشيط الثقافي وإحياء السهرات الدينية والموسيقية العتيقة

التي تقام بالمدرسة المرادية من ناحية أخرى في شهر رمضان. والمسجد القديم والمدرسة لا يكفيان لمثل هذه الأنشطة التي أصبحت تقام منذ سنوات ولمناسبات عديدة.

صورة من المسجد الجديد(التوسعة) من الجهة الغربية

صورة من المسجد الجديد(التوسعة) من الجهة الجنوبية

أما بالنسبة للضريح أي الجامع الأصلي فقد تواصلت به الترميمات من طرف المعهد القومي للآثار منذ سنوات والأشغال جارية الآن من داخل الضريح قسم النساء بعد أن انتهت الأشغال من الداخل قسم الرجال والحقيقة أن هذه الترميمات أظهرت حتى بعض الخفايا التي كانت مستورة داخل الحيطان فظهرت بعض الزوايا والأعمدة التي كانت مغطاة ومن غرائب الأعمال الفنية التي اكتشفت أثناء هذا الإصلاح أن هناك عمودا يرفع سطح الضريح وهو غريب الشكل إذ أن العمود غير متناسق الجزء العلوي ضعيف بالنسبة للجزء السفلي ومع هذا لم يحدث خلل بهذا السطح كما تمثله الصورة.

صورة العمود المكتشف
داخل الضريح

أما المصاريف المخصصة لهذه الأشغال فتقدر بـ 80 ألف دينار حاليا وهي مساهمة رئاسية جديدة.

والواقع أن المساهمات الرئاسية لإحياء تراثنا والاهتمام بشعائرنا الدينية متواصلة في قابس وفي الزيارة الأخيرة لسيادة رئيس الجمهورية السيد زين العابدين بن علي في أكتوبر 1998 تقرر تنظيم الساحة من جديد حيث أن الأعمدة المركزة الجديدة والمجلوبة من دار شعبان الفهري قد تشققت وتقرر إبدالها وتوسيع الساحة وتغطيتها بغطاء يفتح ويغلق حسب الحاجة بإعانة رئاسية لتكون صالحة للاستعمال في مواسم البرد والشتاء وكذلك مواسم الصيف والأشغال جارية الآن حيث عندها تكون منجزة في أقرب الأوقات وتكون فضاء صالحا للاحتفال بمهرجان سيدي أبي لبابة الأنصاري خلال شهر رمضان.

المدرسة المرادية:

توجد المدرسة المرادية مجاورة لضريح الصحابي أبي لبابة وبينها وبين الضريح المقبرة القديمة التي اكتشف بها بعض القبور التي تمثل الأحقاب التاريخية التي مرت بقابس

لقد بنيت هذه المدرسة في عهد محمد المرادي 1086هـ- 1675م لغرض تدريس العلوم الدينية والقرآن الكريم، فقد عين لها هذا الأمير فقيها يتقاضى راتبا شهريا كما عين 20 طالبا تدفع لهم رواتب من إدارة الأوقاف وهي من الأملاك المحبسة على الصحابي أبي لبابة وهي كثيرة(ريال لكل طالب) والى سنة 1940 كان طلبة القرآن يتوجهون شهريا إلى إدارة الأوقاف لأخذ رواتبهم بعد حفظ ما تيسر من القرآن(بين 6 صوردي و9 صوردي للطالب) فقد تقاضى السيد الحاج البشير بن الحاج إبراهيم حفيظ الضريح حاليا 6 صوردي في سنة 1925 كما تقاضى السيد الفيتوري بن محمد السويح من عائلة القائمين على الضريح 9 صوردي وذلك سنة 1940 وطريقة خلاصهم تكون بتقدمهم شهريا إلى المسؤول عن إدارة الأوقاف وحفظ ما تيسر من القرآن ويُعد ذلك امتحانا للطالب.

كما كان المرحوم السنوسي بالحاج الحبيب(دفين زاوية سيدي عبد القادر بالمنزل) يقوم بدرس ديني يوميا في ضريح الصحابي أبي لبابة ويتقاضى من أجل ذلك أجرا شهريا من إدارة الأوقاف أيضا.

وقد تحول مكان إلقاء هذا الدرس بعد وفاته إلى الفرع الزيتوني بالمنزل في الخمسينات وكان يقوم بالدرس آنذاك الشيخ عبد الكريم بن محمد مدرس بالفرع الزيتوني أصيل منطقة قبلي وبقي في هذه المهمة إلى وفاته في سنة 1980.

لقد زار هذه المدرسة الكاتب الورثلاني وقال عن هذا المعلم

" وبإزاء الضريح مدرسة بناها محمد باي في غاية الجودة والإتقان والحسن وجعل لهذه المدرسة أحباسا ورتب 20 طالبا يعطي كل واحد منهم ريالا على رأس كل شهر واستأجر بها فقيها يعلمهم ويصلي الصلوات الخمس بالمسجد المذكور فالله تعالى يرحمه ويعفو عنه"

هذه المدرسة أدت وظيفتها في تلك الفترة ثم سكنها طلبة الفرع الزيتوني منذ سنة 1946 ثم استعملت كمساكن للزوار الذين يقصدون الضريح، ثم لجأ إليها البعض من سكان قابس أثناء الفيضانات وأثناء الحرب العالمية الثانية ثم أصبحت متحفا للعادات والتقاليد وهي تقوم بهذه المهمة إلى الآن.

وفي الواقع أن الدور الذي تأسست من أجله لم يعد قائما، وإني أرجو أن ترجع هذه المدرسة إلى وظيفتها الأولى وعلى الأقل تكون مركزا للبحوث الإسلامية والدينية وغيرها خصوصا وأنه تقرر بأن يبنى متحف جديد متطور يمكن أن يقوم بحفظ آثار قابس وبحفظ ما يسمى بآثار العادات والتقاليد.

ترميم المدرسة المرادية:

لقد وقع الاهتمام بهذه المدرسة ووقع ترميمها من قبل المعهد القومي للآثار فتماسكت حيطانها وهي محل عناية من قبل وزارة الثقافة(المعهد القومي للآثار)

وبالمدرسة ثلاثة عشر بيتا منفصلة عن بعضها سابقا وهي مربعة الشكل وأمامها أساطين من الجهات الأربعة كما يوجد بها مسجد للصلاة الخمس وقد أشار إليه الورثلاني كما توجد

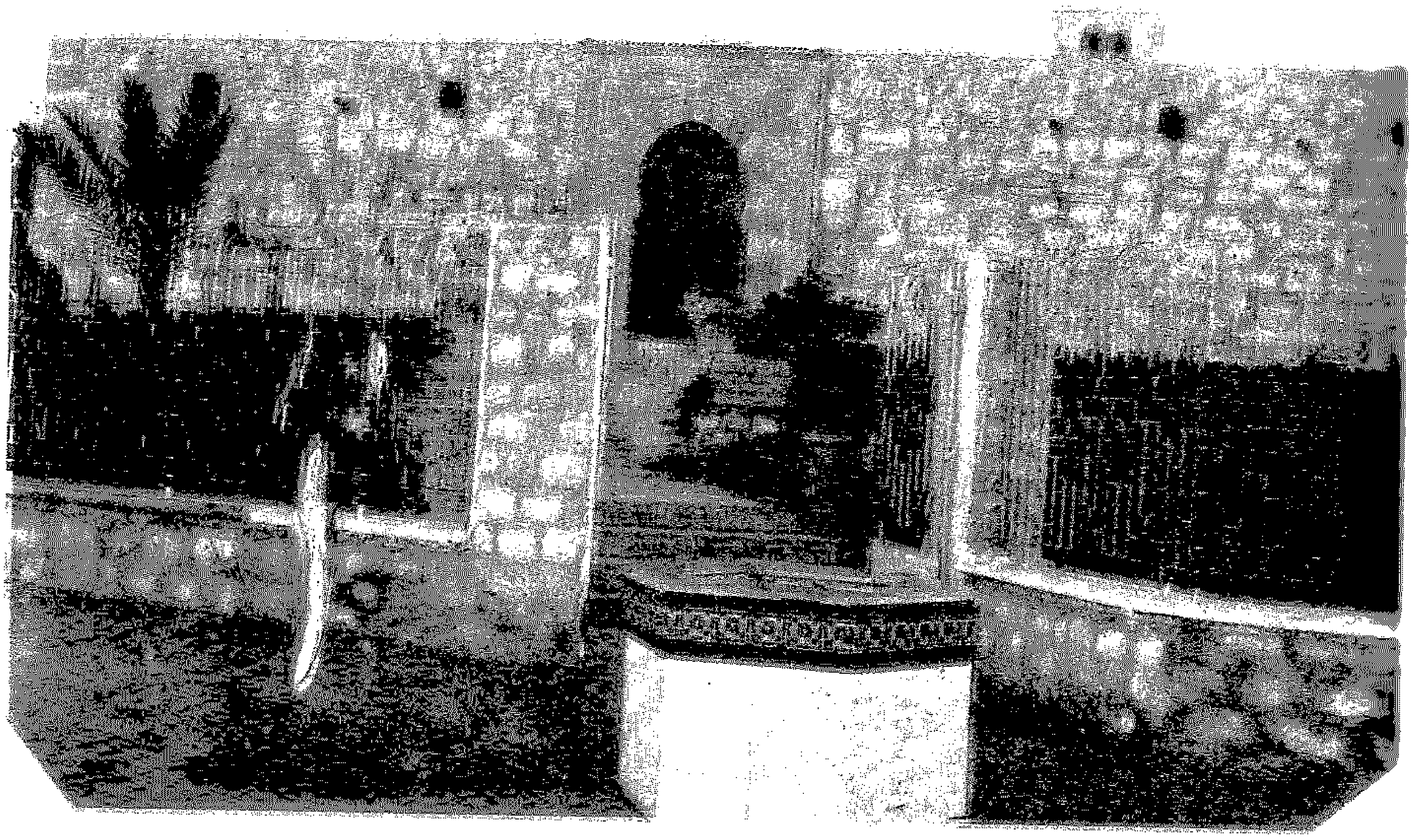

صورة للمدرسة المرادية من الخارج

بالمدرسة صومعة قديمة جدا وهي لازالت على حالها وتشبه في الشكل صومعة سيدي إدريس بقابس وصومعة جامع أبي زمعة البلوي بالقيروان.

وبالمدرسة مرافق صحية تقع في الجهة الشمالية من المدرسة بها المطابخ والمراحيض فقد بنيت في الأول خصيصا للطلبة المقيمين بالمدرسة كما ذكرنا.

ونختم هذا البحث حول الصحابي أبي لبابة والمدرسة المرادية بأبيات من الشعر تحدث فيها أبو العباس البرنسي عن قابس وعن الصحابي أبي لبابة:

نزلنا بقابس فشفينا فيه — غليل القلب من شوق أصابه
وزرنا فيه ضريح أمام بر — وبحر من السخاء أبي لبابة
هو البحر المعين لوارديه — فرد ما شئت من بحر الصحابة
وأيقنا بنبل القصد حقا — وصدقنا بإسراع الاجابة
أنلنا يا إلاهي كل خير — وإحسان وزودنا الانابة
وعاملنا فانا قد اسأنا — بفضل لا تغلق عنا بابه

صورة للمدرسة المرادية من الداخل

هـذه بعض اللمحات عن الصحابي أبي لبابة الذي فارق ديار قومه مجاهدا ومكفرا عن ذنبه الذي اقترفه وكذلك عن المدرسة المرادية التي بناها محمد المرادي من المراديين.

الباب السادس

الفصل الأول

المدن والقرى أو التجمعات السكنية بقابس

1- منطقة "المدينة":

لقد تحدثنا في السابق عن المدينة وهي الواقعة على الربوة المطلة على قابس الحالية أمام ضريح الصحابي أبي لبابة من الجهة الشمالية الشرقية للضريح وهي مدينة البربر السكان الأصليين وكذلك الفنيقيين من بعدهم والرومان والوندال والبزنطيين والعرب قبل خرابها وهجرة سكانها.

وكنا قد ذكرنا بأن لها أربعة أبواب ويقع البحر وميناء قابس في شرقها وكان لها سور لكنها خربت وهاجرها أهلها وبنوا بحجارتها التجمعات السكنية المتمثلة في البلد(جارة الدخلانية) والمنزل وشنني إذ أن الحجارة التي بنيت بها هذه المناطق السكنية الجديدة هي من حجارة "المدينة" وقد لاحظنا بأن الأعمدة التي توجد بجامع سيدي إدريس مختلفة الأشكال فهي تمثل الأطوار التي مرت بقابس من الفنيقية إلى الإسلامية(لا أعتقد بأن البربر قد خلفوا شيئا يذكر في المدينة).

وحسب التواتر أن آخر من خرج من المدينة من السكان المسلمين هم عائلة الشيخ المبروك التي تفرعت عنها عائلات دار الهمامي ودار الزهري ودار قفة ودار المبروك وكذلك دار ابن زايد (الذين انقطع نسلهم ولم يبق منهم أحد الآن)(1) كذلك عائلة دار عطية ودار الزعيبي أما بقية السكان فقد خرجوا من قابس هروبا من دفع الجزية التي كانت تطالب بها طرابلس لأنها تدعي بأن قابس تابعة لها وكذلك سكان واد صوف بالجزائر اغتنموا فرصة الضعف فطالبوهم أيضا بالجزية على أن قابس كانت تابعة لهم فهاجر جزء من السكان إلى مناطق أخرى بالساحل والوطن القبلي لذا فإنك تجد لقب القابسي كثير في هذه الجهات وعلى ما أفترض أن هذا الاضطراب الذي حدث وادعاء الأطراف الأخرى بتبعية قابس إليها المنقول عن طريق الرواية الشفهية أنه كانت أثناء فترة هجوم الثائر قراقوش الأرمني وأبي إسحاق يحي الميورقي على هذه المناطق من قابس إلى بلاد الجريد بما فيها واد الصوف وكذلك طرابلس. وكانت الدولة المركزية في تونس في ذلك الوقت أيضا في حالة اضطراب مما أدى إلى المطالبة بالجزية(أي النهب والسلب أثناء الفوضى) من المناطق المضطربة والتي كانت حالتها الاقتصادية والاجتماعية منهارة والتواتر يفيد بأن هناك عائلات أخرى نزلت من المدينة واستقرت بمنطقة الربض أي منطقة الضريح ومنهم عائلة عبد الله بن الحبيب، لقد باعت عائلة عبد الله بن الحبيب أرضها بالمدينة(2) لدار الهمامي ويملكون وثيقة في ذلك وقد تحالف دار الشيخ المبروك مع عرش دار داي

---

(1) المصدر هو السيد علي الساحلي ممرض متقاعد بقابس له هواية بتتبع التاريخ القديم

(2) المصدر هو الحاج الصادق الهمامي شيخ زاوية سيدي عبد القادر بالمنزل حاليا وهو حفيد من أحفاد عائلة الهمامي وقد ذكر لي بأن عائلتهم قد اشترت الأرض بالمدينة التي كانت على ملك السيد عبد الله بن الحبيب وكان جدهم يذكر في وثيقة البيع التي تمت بينهما بأنه مؤذن المدينة معنى ذلك أنّ الفترة الأولى للدّور الإسلامي كانت بالمدينة

وهـم مـن الـبرانية واصـبحوا يسـمون بالجماعة أي المتحالفين واتفقوا معهم وقرأوا الفاتحة مع بعضـهم وذبحـوا بَقَـرة علامـة عـلى الـتحالف بينهما ومن ذلك الوقت أصبح عرش الجماعة أكبر عرش في منطقة المنزل.

وبالنسـبة لآثـار المديـنة ومخلفاتها فإنـه مع الأسف الشديد أنها بقيت مدفونة تحت الأنقاض وبحثها والتـنقيب عـنها غـير ممكـن الآن لأنهـا قـد غـمرت بمساكن جديدة فوقها وبعضها الأخر بنـيت به أحيـاء المـنزل والبـلد وشـنني كما ذكرنا ذلك كما توجد بعض الآثار في متحف العادات والتقاليد بالمدرسـة المـرادية وفي بعـض المساكن الخاصة مثل دار المرحوم الشيخ الهادي العمراني وغيره... وفي خصـوص تسـمية قـابس وسـكان المديـنة القدمـاء فـتقول دائـرة المعارف أن الفنيقيين هم الذيـن أسسـوا تاكاب القديمة لكن الواقع أن البربر هم الذين سكنوها أول مرة وأن في ابتداء اسمها بالتاء لدليل على بربريتها لأن أغلب أسماء المدن البربرية تبدأ بالتاء مثل تاوجوت، تمزرط، تافيلات وتاهرت... كما ذكرنا ذلك سابقا.

كما ان وجود القبور البربرية قرب ضريح الصحابي ابي لبابة(المقبرة القديمة) يدل على ذلك.

2- حارة المنزل(المنزل الغربي والمنزل الشرقي فيما بعد):

بعـد تهديم المدينة وهجرة أهلها منها وقع تعمير بعض المناطق السكنية ومنها منطقة المـنزل المجاورة "للمديـنة" وبالقرب من واد قابس وهي التـي سميت فيما بعد بالمنزل الغربي وبعد إحـداث العمران الجديد المجاور لها سميت هذه المنطقة الجديدة بالمنزل الشرقي إذ بعد تزايد السكان وقـع الخـروج من التجمع الأول واتسعت المنطقة الجديدة بالمنزل الشرقي فشملت سيدي مرزوق بعـد تعميرهـا وبـنائها والمـناطق المجاورة لها إلى منطقة مساكن دار بو عبد الله الذين يرجعون إلى سيدي بوعبدالله(دفين قابس).

كذلـك توسعت المنطقة فشملت مناطق سيدي أبي لبابة والمدينة ومنطقة حي محمد علي إلى حي الازدهـار، وتسـمى المنطقـتان حاليـا بالمـنطقة الأولى بالنسـبة للمـنزل الغـربي وبالمنطقة الثانية بالنسبة للمنزل الشرقي حسب التقسيم الإداري الجديد.

وحـارة المـنزل القديـم أو المـنزل الغـربي فـيما بعـد هـو الـتجمع السـكني الـذي تمركز في المرتفع البسـيط عـلى ضفة الوادي اليمنى ويحيط به سور وخندق كما ذكر المؤرخون ذلك لكن لا وجود لـه الآن كمـا له ثلاثة أبواب باب ربح يفتح على قنطرة الشمامة قرب زاوية سيدي ربح جد من جـدود الشـمامة وبـاب قـرب حـمام البشراوي الآن بناه مصطفى صاحب الطابع حسب ما ذكره أصـحاب الحـمام ويسمى بباب القناينة وباب قرب سبالة الحشائشي يؤدي إلى ساباط خانقة الممتد على دار القاضي الذين هاجروا قابس واستقروا بحومة السوق بجربة.

وأعـتقد أن هـذه الأبواب كانت تغلق على مجموعة من السكان وليست هي أبواب لسور كما تصـور بعض من تحدثوا عن هذا السور وعن هذه الأبواب وكما ذكرنا أن الأيام سوف تكشف لنا هذه الحقيقة لأن معالم هذا السور اضمحلت تماما وكذلك علامات الأبواب.

أما بالنسبة للسّكان فتنص (مجلة الفنون والتقاليد الشعبية) في صفحتها 124 "أن المنزل يتكون

من أحياء متفرقة تمثل أربعة تجمعات(الشمامة، أولاد بيداني، الجماعة والبرانية) وبعهدها جاء أولاد بوعبدالله" لكن جاء إلى المنزل بعد ذلك وإلى قابس بصفة عامة كثير من السكان القادمين من المشرق ومن المغرب ومن مناطق الايالة التونسية المختلفة.

وبالمنزل القديم يوجد سوق وحمام ودكاكين تحيط به وبه جميع المرافق وكل ما يحتاج هذا التجمع السكني وكأنه منطقة مستقلة عن المناطق الأخرى كما سنرى لأن الصفة التي وجدت بها هذه التجمعات التي تكونت بقابس صفة الاستقلالية بمرافقها وجوامعها ومساجدها فحتى الاضرحة والزوايا توجد متعددة في كل تجمع فنجد زاوية سيدي عبد القادر في المنزل وفي جارة ونجد زاوية سيدي عبد السلام في شط سيدي عبد السلام وفي المنزل وفي شنني وزاوية سيدي ابن عيسى في البلد(جارة الدخلانية) وفي المنزل ونجد زاوية سيدي بوعلي في شط سيدي عبد السلام وفي جارة وفي المنزل إلى غير ذلك... حتى أن المسافات غير المبنية التي تفصل بين المناطق كانت واسعة وان المبشر ايفالد الذي تحدث عند نزوله من منطقة المنزل حيث(يسكن مع المالطي الذي لم يذكر اسمه) إلى جارة الدخلانية ليقابل "سي عمر الخليفة" (الحاكم بالبلد) بواسطة حمار لأن المسافة الفاصلة بين المنزل القديم وبين جارة الدخلانية كانت بعيدة في ذلك الوقت ولا يوجد بينهما من البناءات سوى برج زواوة أو دار الكسكسي(مركز الحامية التركية) التي أصبحت الآن المدرسة الإعدادية فرحات حشاد.

صورة من المنزل القديم

وبالمنزل جالية يهودية كبيرة لها منطقتها الخاصة ولها بيعة أي دار الصلا(الصلاة) وكذلك دار محمد بن خليفة(خليفة الأعراض وقائد من قواد الثورة في قابس أثناء الاحتلال الفرنسي) أما أخوه القائد علي بن خليفة فقد هاجر إلى ليبيا وانضم إلى المقاومة الليبية ضد الايطاليين

قابس

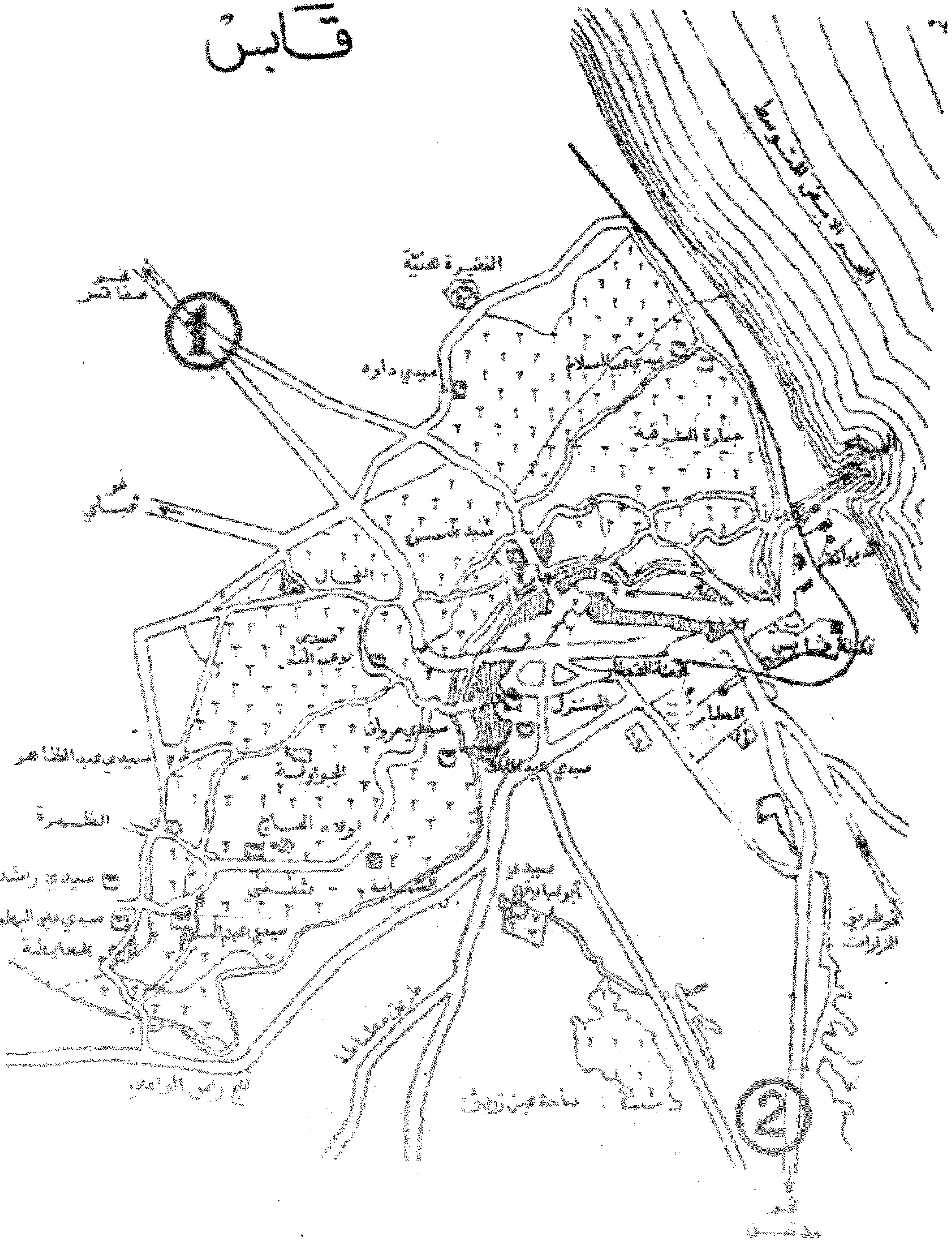

رقما (1) و (2) مدخلان من الداخل والخارج للمدينة

توفي هناك وضريحه يوجد بليبيا ولعل الحكومة التونسية تفكر في إرجاع رفاته إلى قابس.
وكذلك توجد إدارة البريد تسمى(بدار التل)

3- حارة جارة (جارة الغربي وجارة الشرقي) فيما بعد:

التجمع السكني المسمى بجارة الدخلانية(البلد الذي سمي فيما بعد بجارة الغربي بعد التوسع العمراني وبناء جارة الشرقي أي شرق الواد). وجارة الدخلانية قديمة وربما كانت مسكونة من طرف البربر داخل الغابات حتى أثناء وجود منطقة المدينة وهي تسمى عند العامة بمدينة النحاس بها دهاليز قديمة وسباطات كثيرة تحمي السكان من الغارات وقد ساعدت حجارة المدينة بعد هجرة سكانها على بنائها بشكل فريد.

تنص مجلة الفنون والعادات الشعبية الصادرة بتونس فتقول(3) على ضفاف واد قابس وداخل الواحة كما ذكر نشأت قرى منها بالخصوص جارة والمنزل وشنني، "بنيت هذه القرى بالحجارة التي وقع نقلها من المدينة المندثرة" وجارة القديمة المسماة بالبلد هي أقدم تجمع أو قرية داخل واحة قابس على الإطلاق وقد استعملت قلعة حربية للأتراك، جارة امتداد على الضفة الجنوبية وكانت مركز سنجك باي SANDJAK Bey وكانت مسكونة من الأتراك.

الواقع أن التجمع السكني بالبلد هو أقدم من قدوم الأتراك بقابس صحيح أنهم سكنوه لحصانته وأن الشيخ الحاج ناصف التركي(4) كان قد سكن به لكن البلد هو أقدم من هذا التاريخ وربما كما ذكرت قد سكنه البربر فهناك مناطق خربة في البلد تسمى بـ (خربة دار بالطيب وخربة دار بالثابت) وهاتان العائلتان مع عائلات أخرى في البلد يرجعون إلى الجنس البربري أصلهم من مطماطة البربرية ولهم العلامات المميزة من شقرة وعيون زرقاء وكانت سكناهم في السابق كما ذكرنا داخل الغابات ولهم أملاك في مطماطة إلى الآن.

ومنطقة جارة الدخلانية كل المرافق الحياتية من سوق ودكاكين وجوامع وزوي مثل ما لاحظنا في منطقة المنزل وعلى ما يبدو أنها أصبحت عاصمة للدولة الحفصية والتركية فيما بعد وذلك لتحصنها وارتفاع أرضها عن فيضانات الوادي وبها قناصل الدول الأجنبية(5) (فرنسا أنجلترا إيطاليا) وكانت سكناهم بحارة اليهود ويوجد بالبلد جامع سيدي إدريس الذي ذكرناه سابقا وهو جامع حنفي في البداية ثم تغير بعد ذلك. وبالبلد حارة اليهود والربط الذي به البيعة اليهودية دار الصلا(الصلاة) ويعتقد أحبار البلد أنها أقدم بيعة يهودية بقابس يؤمها جميع يهود منطقة جارة في المناسبات الدينية كذلك الحاكم يوجد بالبلد بين جامع سيدي إدريس وحارة اليهود وهو عبارة عن قصر له طابق علوي وطابق سفلي وهو(دار الصويعي) وبه سجن الرجال وهناك منزل آخر بفصله عنه جامع سيدي ادريس والحمام يسمى بدار البليك(العموم) publique به قاعة للجلسة وسجن للنساء اشتراه فيما بعد دار النوري الجرادي.

---

(3) انظر مجلة الفنون والعادات الشعبية الصادرة بتونس صفحة 124
(4) كان سيدي الحاج ناصف يسكن بجارة(البلد) بالمسكن الذي اشتراه فيما بعد موشي اليهودي المشهور بالسحر والتعازيم في المنطقة
(5) المصدر هو المرحوم عبد الله النوري(الجرادي) ممرض وساكن بالبلد ويجاور سكنى هذه القناصل التي تحدثنا عنها.

فترة ما قبل الحماية (قبل 1881)

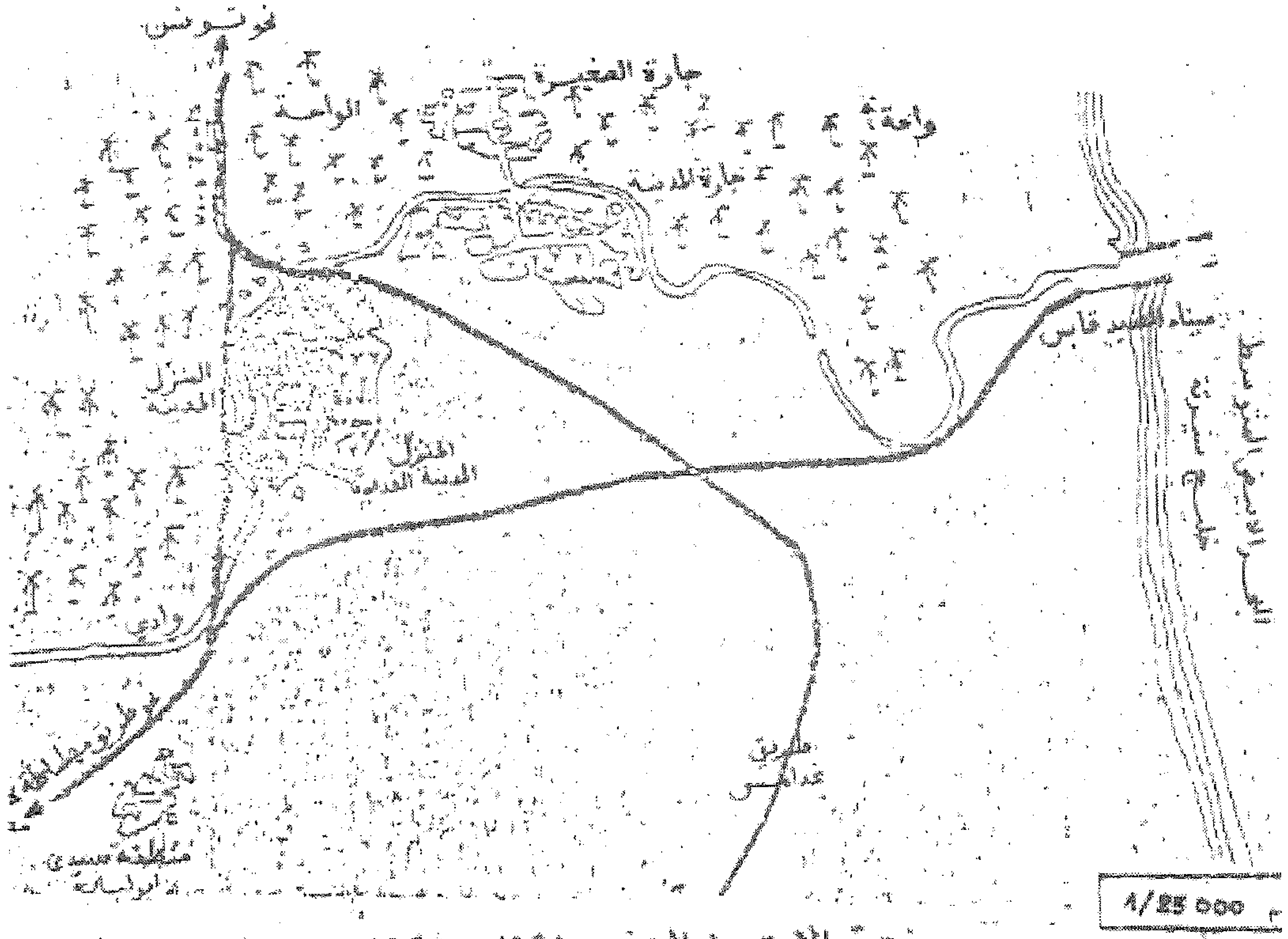

فترة الاستعمار الفرنسي 1881 - 1956

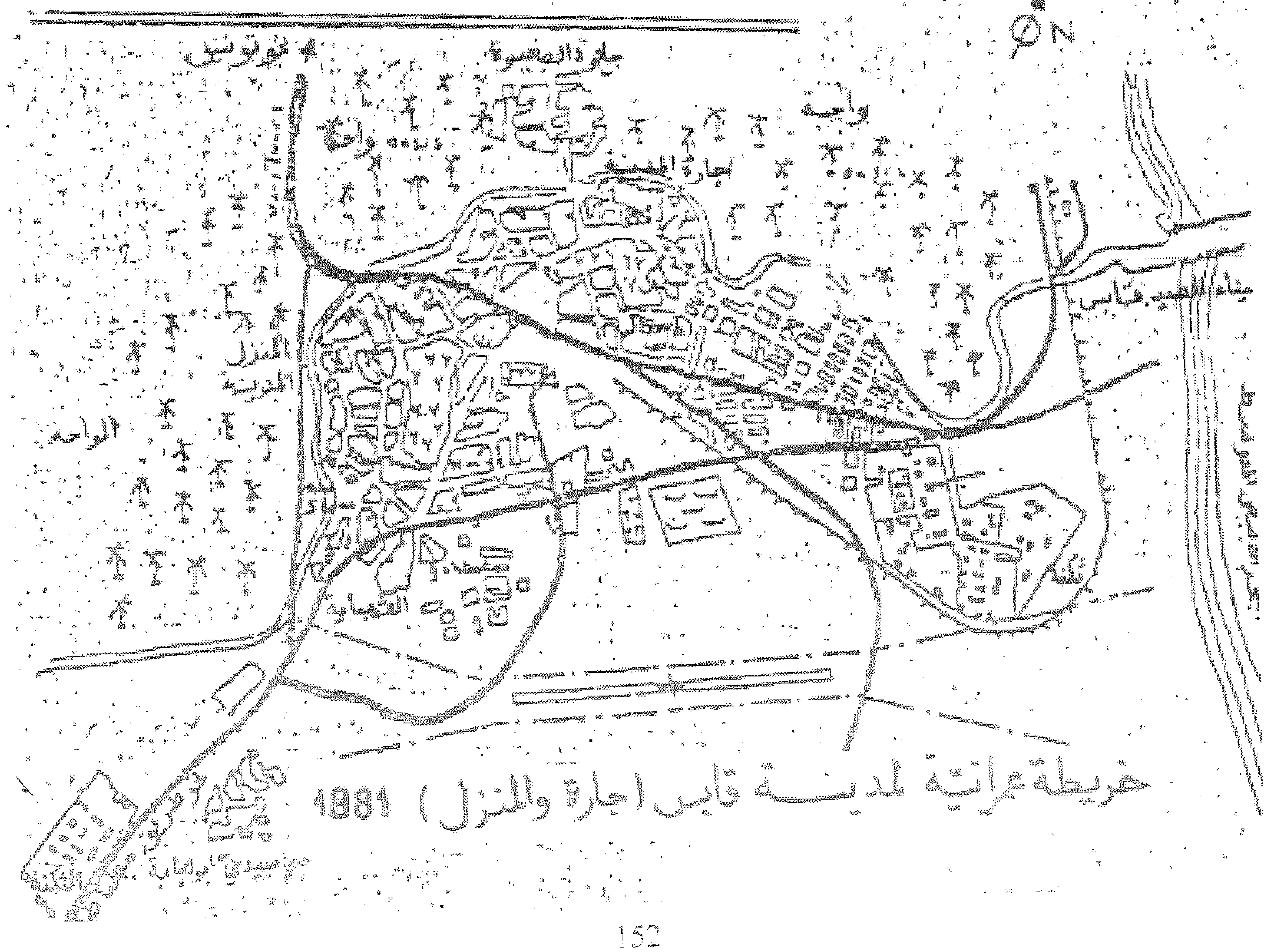

خريطة عمرانية لمدينة قابس (جارة والمنزل) 1881

المنظر الخارجي من مدخل الجامع المرادي

ثـم توسـعت حـارة البلد وتجاوزت الوادي من الجهة الجنوبية(أي يمين الواد) وتكونت جارة الشرقي وهـي عـلى الـربوة الـتي تـبدأ مـن المسـلخ البـلدي الحـالي إلى مـا بعـد ظهرة قراوجو وظهرة الخشـاينة وبذلك أصبحت جارة مثل المنزل على قسمين جارة الغربي وجارة الشرقي ثمّ قسمت مـن جديـد بالتقسـيم الإداري الجديـد فأصبحت جارة الغربي تسمى بالمنطقة الثالثة وجزء من جارة الشرقي بالمنطقة الرابعة وأضيفت منطقة باب البحر وشط السلام إلى المنطقة الرابعة.

4- قابس الميناء أو باب البحر:

قـابس الميـناء GABES PORT أو بـاب الـبحر هـي الـمنطقة الـتـي عمرت بعد الحماية الفرنسـية وتكونـت بهـا هـذه الـمنطقة الجديدة وسكنها الأروبيون بالدرجة الأولى ثم انتقل إليها بعـض السكان من يهود جارة وبعض السكان العرب بعد بناء مساكن جديدة لهم، وهي المنطقة العصـرية الـتي اهـتمت بهـا فرنسـا قـبل غيرهـا مـن الـمناطق وفيها الإدارات والمعهد التكميلي

الثانوي والسوق العصري(6) "سوق باب البحر" وحديقة عمومية إلا أنه بعد هجرة اليهود من قابس وخروج الفرنسيين بقيت بعض المساكن في حالة خراب لأن وضعيتها القانونية لم تسو إلى الآن فهو ملف يحتاج إلى التسوية لتطوير المدينة وتحسين مظهرها الخارجي وبباب البحر يوجد الميناء القديم الذي تطور وأصبح ميناء عصريا يزخر بسفن الصيد وبالسفن الكبيرة للصيد في الأعماق من جميع المناطق المجاورة لقابس وهو يدرّ الخير العميم على السكان وعلى أصحاب الحرفة وهو في تطور متزايد.

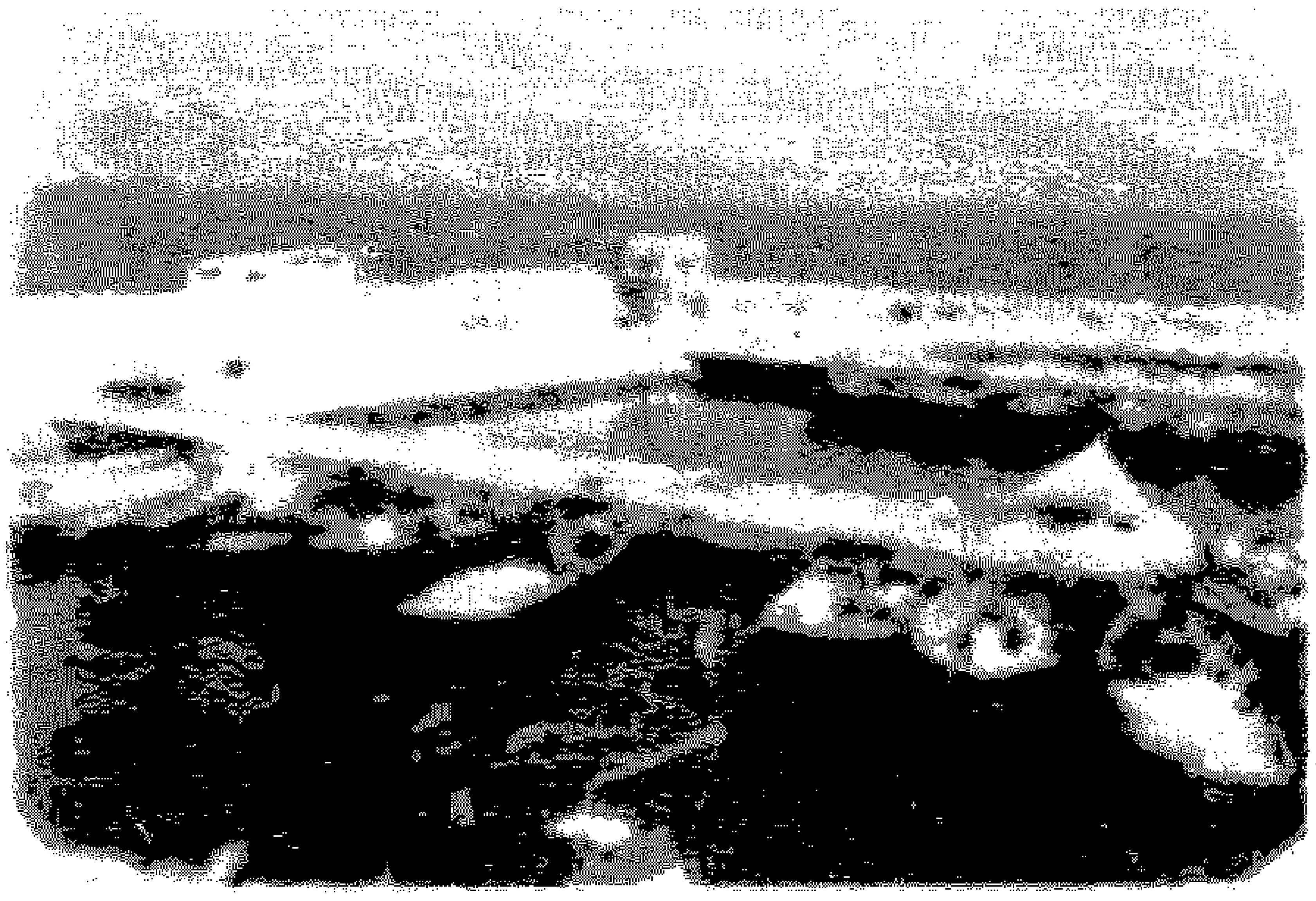

ميناء قابس الجديد بعد تحسينه

5- منطقة سيدي بولبابة:

منطقة سيدي بولبابة هي المنطقة المسماة في التاريخ القديم بمنطقة الربض وهي تقع غرب المدينة، وضريح الصحابي أبي لبابة وسكانها سموا بالصوايدة وتليهم منطقة بدورة ويسكنها عرش الشماسة وهم يرجعون إلى الحمارنة في الغالب وسكان الربض الآن خليط من جميع مناطق قابس وهم يطلون على غابات شنني وعلى مناطق أثرية بها حجارة قديمة لا يعرف بداية تاريخ عمرانها وإني أرجو بأن يقع الاهتمام بها من طرف خبراء الآثار ولعلها من المناطق الفنيقية أو الرومانية وتطورت هذه المنطقة في الوقت الحاضر بتكوين مدرسة إعدادية وبها حركة عمران متواصلة إلى الثكنة العسكرية وما بعدها وقد اتصلت بها مساكن وأحياء كثيرة جديدة وبها طريق يؤدي إلى قرية شنني ورأس الواد عن طريق الشماسة.

6- قرية شنني:

شنني واحة غناء تحيط بها الغابة من كل الجهات وهي عبارة عن قرية تاريخها قديم على ما يبدو وحجارتها العاتية مجلوبة من المدينة كما ذكرنا ذلك وبها سوق ودكاكين في وسطها وبها جوامع ومساجد عديدة ومنها جامع نفات الذي تهدم مع الأسف بفعل معاول الإنسان وكذلك بها مسكن علي بن خليفة(خليفة قابس والأعراض قبل الاحتلال) وقد تهدم هو الآخر ولم يبق له أثر لقد بيعت أرض المسكن إلى الخواص إلى (المؤدب الهاشمي والطاهر بن زين العابدين) وأقدم

(6) تحول سوق باب البحر وجزء من الأرض المجاورة له من الحديقة العمومية(حديقة الشهداء فيما بعد) إلى بناية تسمى بقابس المركز GABES CENTRE وبني بها سوق بلدي جديد كما نقلت حديقة الشهداء قرب نزل الأطلنتيك HOTEL ATLANTIC

جامع في شنني هو(7) جامع الصناهجة الذي تهدّم. وموقعه بالقرب من الجامع الجديد جامع الجمعة المقابل لدار بكار، ومن أيمّته المؤدب الهاشمي وصالح بن عزيّز النفاتي وسالم الحويوي... وقبل بناء هذا الجامع الجديد كانت صلاة الجمعة تقام بجامع بوعزّة وسط السّوق.
يقول مَحمد المرزوقي في كتابه قابس جنة الدنيا صفحة 35:
ويلاصق هذه الدّار "دار المناضل المرحوم علي بن خليفة" من الغرب مسجد بني على الشكل المعروف في بناء الزوايا قبة صغيرة عادية بداخلها مقبرة مسورة من الخارج بسور مكون من جدار قصير وحذو هذا المسجد بقايا من السواري وعلى باب القبة كتابة منعنا غلاف من الجير الذي يغطيها من قراءتها إلا أننا استطعنا أن نتبين منها (...بن الفرجاني بن عمر سنة...) والأرقام الموجودة أثر لفظة "سنة" لم نتبين هل هي (1144 أو 1244).
ثم يقول "ويطلق أهل شنني على هذا المكان اسم زاوية سيدي الفرجاني"
نعتقد أن الزاوية التي ذكرها السيد مَحمد المرزوقي هي زاوية سيدي عبد السلام دفن بها سيدي علي الفرجاني واشتهرت هذه الزاوية باسمه وهو جد الفراجين بشنني وليست هي الزاوية أو الجامع الذي ذكرناه لأن هذه الزاوية تقع في الغرب من مسكن علي بن خليفة والجامع القديم يقع في شرقها.
أما السّواري الباقية التي تحدث عنها فهي ربما من السواري المجلوبة من المدينة.
وتمر بوسط القرية ساقية كانت توزع الماء على الغابات التي تمر بها وأحيانا تكون هذه الساقية مغطاة وتبنى فوقها المنازل مثل منزل علي بن خليفة كما اشتهرت بأنها منطقة تجمع العيون أي العيون التي تصب من الغرب إلى الشرق فتسقي مناطق الواحة من شنني والنحال والمنزل وجارة.
أمّا قرية شنني التي نتحدث عنها فقد سكنها البربر الصنهاجيون وكذلك الحفصيون والهلاليون العرب وجمع كبير من العائلات ترجع إلى قبيلة نفات وليس لشنني القديمة سور بل لها أبواب تغلق على مجموعة من السكان وفي الغالب أن هذه(المساكن) تنتمي إلى عائلة واحدة ومن هذه الأبواب باب الونائسة باب شارع القصر وباب شارع نفات، باب القدايمة،باب الجوابر، باب شارع ترشان وباب شارع مشالة.
كانت شنني مركزا من مراكز النضال سواء كان ذلك في عهد الهجومات التي زحفت على قابس أو أثناء الصراع مع الحماية الفرنسية أو أثناء النضال لبناء الدولة التونسية الحديثة وبها معهد ثانوي ومدرسة إعدادية.
كانت واحة شنني ملجأ للثوار والمكافحين وهي آخر معقل من معاقل الدفاع عن قابس أثناء الهجوم الفرنسي وفرض الحماية عليها فقد دارت معارك ضارية بين القوات الفرنسية وقوات المقاومة كما سنرى كما كانت ولا تزال مركز إشعاع ونقطة انطلاق لتونس نحو التقدم والازدهار

(7) هذه المعلومات مأخوذة من الحاج الكيلاني السالمي عمدة شنني سابقا ومن الحاج بلقاسم النفاتي ومن الحاج الصغير بن إبراهيم بن عبد القادر معلم متقاعد وإمام جمعة.

وبناء الدولة إذ قد اشتهرت شنني بالاهتمام بأبنائها وإدخالهم المدارس منذ مدة طويلة فتخرجت منها نخبة فاضلة ساهمت في بناء الدولة التونسية الحديثة وفي تركيز استقلال تونس وفي المساهمة في دفع عجلة النمو والتقدم وكان إنتاجها الفلاحي يغزو الأسواق الداخلية والخارجية واشتهرت بالخضر العصرية(السوري) وبالغلال وخصوصا بالخوخ والرمان والعنب وكذلك بالحنة.

المنتزهات بشنني

الرحا بشنني:

هذه المنطقة التي تقع بشنني قرب قرية "المعايطة" هي عبارة عن تجمع للمياه يأتيها من رأس الواد من منطقة العيون ويغلق على هذا الماء المتجمع باب حديدي يفتح لسقي الغابات بانتظام بتوزيع مضبوط وهو منظر بديع للغاية ويمكن الجلوس بهذا المكان للترويح عن النفس أما تسميتها بالرحا فترجع إلى أن لها آلة حديدية بتحريكها وتدويرها تتوزّع المياه على المناطق المختلفة من الغابات.

صورة من الرحا القديمة

وقد تطورت هذه الساحة في الوقت الحاضر وأصبحت منتزها عصريا قام به أحد عمالنا بالخارج وهو السيد عبد الحفيظ فرحات منذ سنة 1993 وأقام به مقهى ومطعم وملاعب للأطفال تؤمه العائلات خصوصا في المساء مصحوبين بأطفالهم وياله من منظر بديع وسط هذه الواحة الغناء. وبجانب هذا المنتزه حديقة الحيوانات التي قام بإحداثها أحد المستثمرين الأجانب من الألمان سنة 1980 وبها بعض التماسيح والنعام والحيوانات المختلفة وقد تبنت بلدية شنني المشروع الآن.

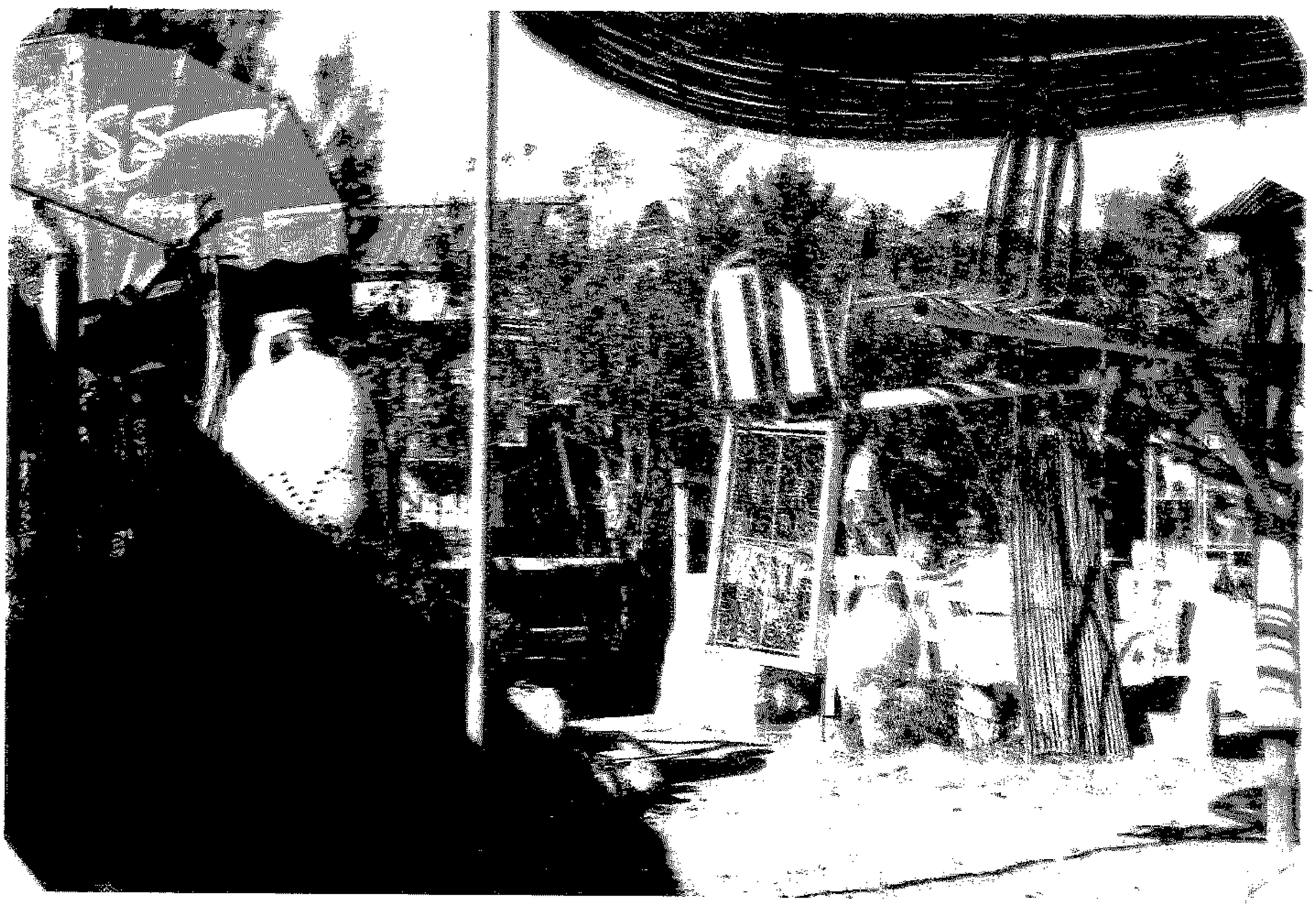

صورة من المنتزه الأول الجديد

ويعد هذه الحديقة أقام أحد المستثمرين منتزها آخر سماه بمنتزه "أمل" يحتوي على مقهى ومطعم يعد الأكلات التقليدية وتجلب إليه المزاطنين المستقرين والأجانب كما أحدث بها بعض الأركان الخاصة بالعاب الأطفال وأحدثت أخيرا قاعة أفراح في الطابق العلوي. وقد قام بهذا المشروع السيد مصطفى الوحيشي منذ سنتين وزوقه بأشكال تقليدية جذابة فالمنتزهان حديقة الحيوانات وساحة الرحا القديمة تشكل الآن قطعة فنية طبيعية وإصطناعيية بديعة.

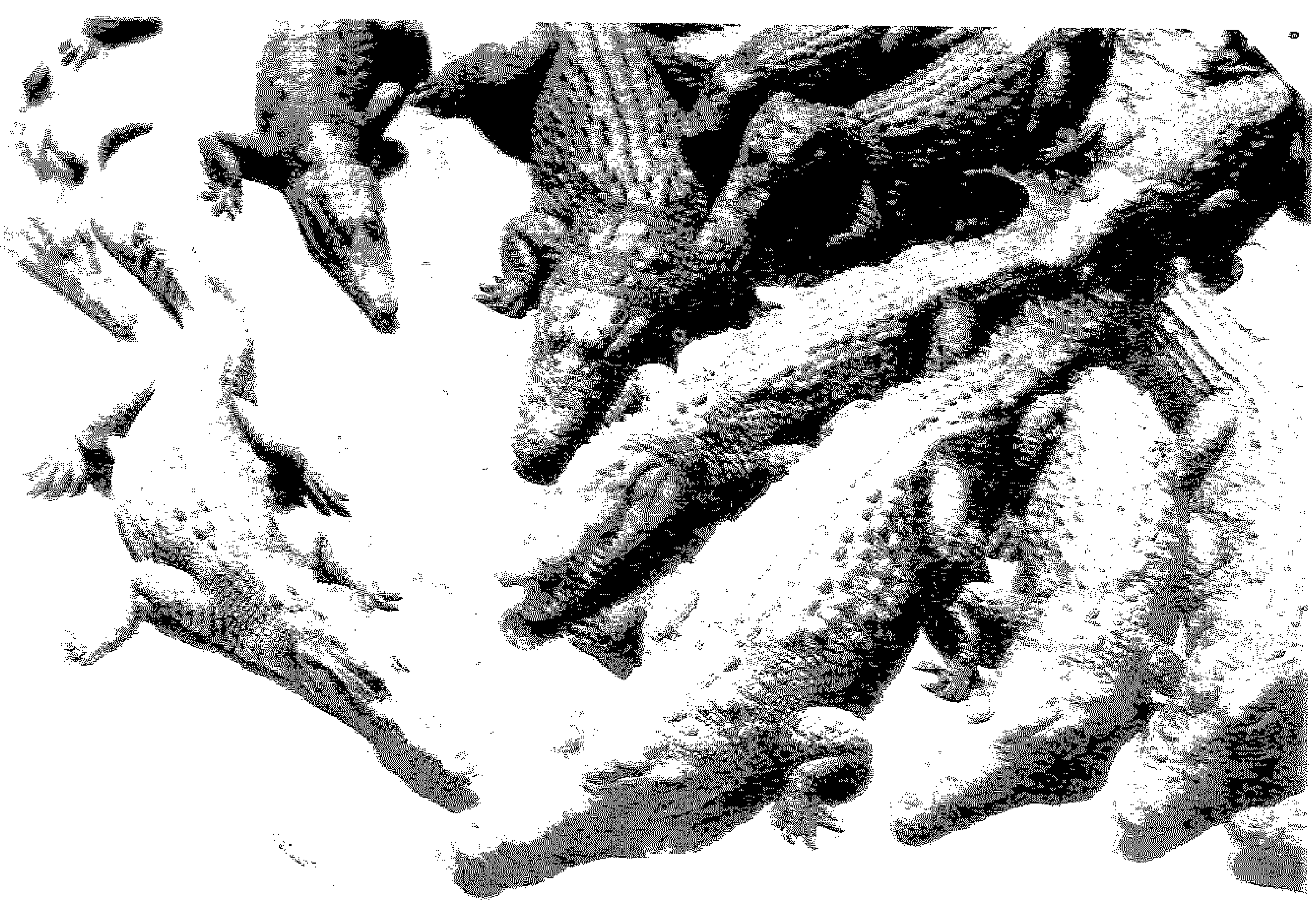

حديقة الحيوانات بشنني

الشرشارة أو الشلال:

هناك منظر طبيعي آخر في شنني صنعته الطبيعة وزوقه الإنسان يتمثل في مصب ينحدر منه الماء يكون على شكل شلال يختفي وراء الأشجار والنخيل وهو منظر فائق لما كانت مياه السواقي تتدفق بقوة يجلس إليه السواح الأجانب وسكان الجهة وتؤخذ المناظر التذكارية منه تبقى مرسومة على مر السنين.

ولقد بني بجانب هذا الشلال مقهى تابعة للديوان السياحي تعد القهوة التركية(العربية) التقليدية وهي وسط أشجار ظليلة ويصعد إلى أماكنها المختلفة الارتفاع عن طريق مدارج حجرية بسيطة تمثل الروعة والجمال ويزيد هذه الجلسة البديعة بالمقهى رائحة الزيزفون الفواحة.

منتزه "أمل" بشننـي

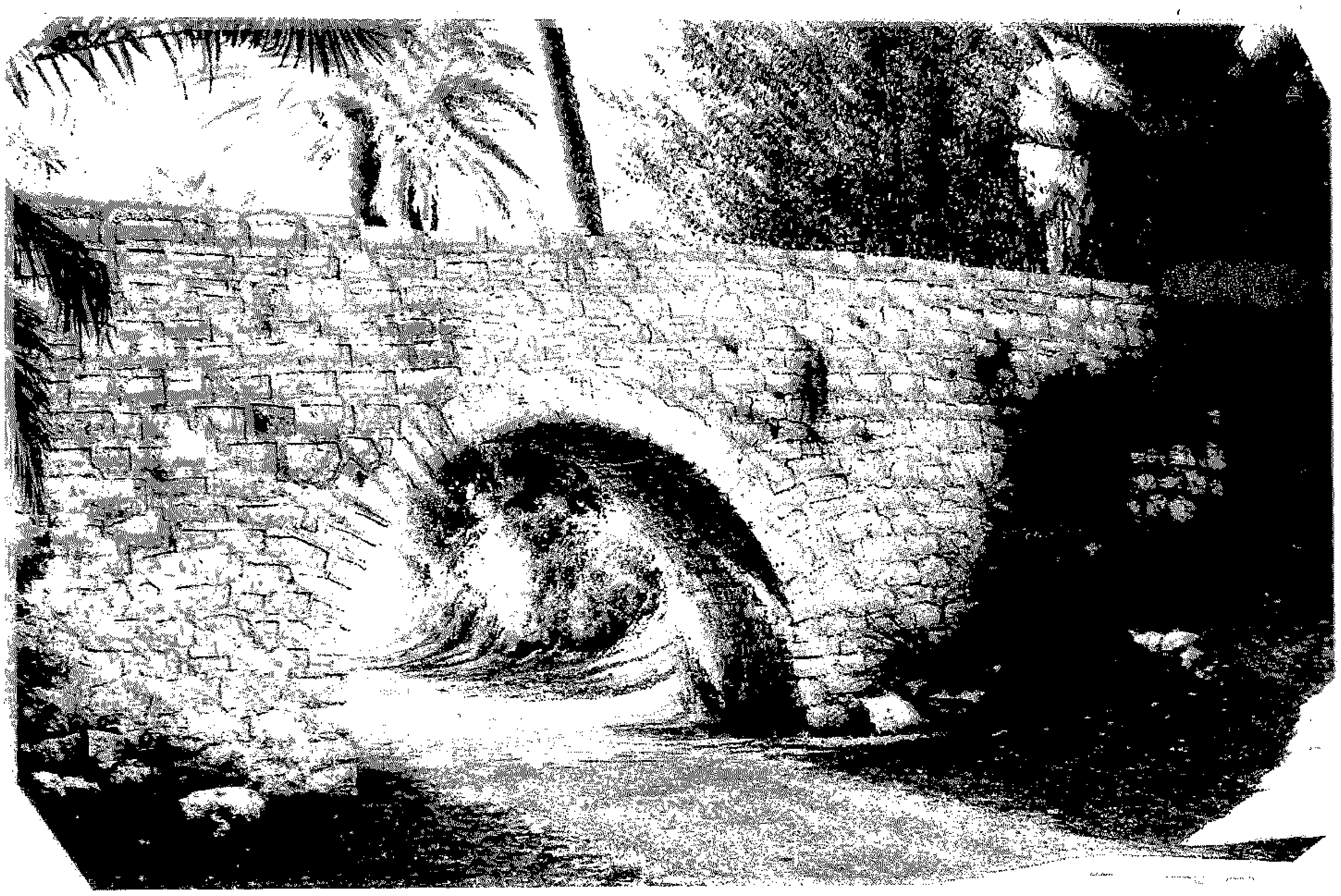

قوس شننـي (على شكل الحنايا الرومانية)

ويوجد بشنني أثر بديع يشبه الحنايا الرومانية وهو عبارة عن قوس تمرّ فوقه المياه عن طريق ساقية لتسقي الغابات مثل الحنايا التي كانت تنتقل المياه من زغوان إلى تونس على امتداد 90 كلم وهذا القوس قصير نسبيا لذا فإن الحافلات التي تنقل السواح لا تتمكن من المرور منه فتترك الحافلات بعيدة وتأخذ العربات السياحية من قابس لتمر من تحت هذا القوس.

7- قرية بوشمة:

من القرى الحديثة التكوين على ما يبدو وتقع على الطريق الرئيسية الرابطة بين صفاقس وقابس، وهي القرية الوحيدة في قابس التي تقع في أطراف الواحة وقد اتصل العمران بالغابة في الوقت الحاضر وكادت تتصل بقابس المدينة. ويبدو أن هذه القرية غير موجودة في بداية القرن الثامن اثناء مرور الرحالة التجاني من قرية وذرف إلى قابس لأنه لم يذكرها وهي في طريقه اللهم إن كانت القرية في ذلك الوقت داخل الغابات لأن الآثار الرومانية على ما يبدو قد وجدت داخل الغابة وتسمى بهنشير الرومان فالقرية رومانية إذن أما القرية الإسلامية فهي حديثة. وسكانها القدماء يتفرعون إلى ثلاثة فروع

1- فرع المساعدة ولقبهم مسعودي وهم الذين قدموا أول مرة لبوشمة وجدهم(هو محمد ابن محمد ابن الشيخ محمد بن الطاهر المعروف بأبي شمة) وقد حبس في شهر ذي القعدة سنة 777 هـ على أبنائه عقارات بناء وغابات وما حولها حبسا خاصا كما حبس الأراضي الفلاحية المحيطة بغابة النخيل حبسا عاما على زاويته. حبس الحدود المنصوص عليها بالرائد الرسمي عدد80 لسنة 1903 كما طبق بالرائد الرسمي عدد 49 لسنة 1977 وقد أمدني بهذه المعلومات الأستاذ محمد الحاجي من سكان بوشمة مكتوبة ومأخوذة من الحبس الأصلي.

2- فرع الحاجي وهم ثلاثة فروع الحاج إبراهيم وفرحات والحاجي

3- عرش عبد الملك ومامي وخليفي

4- دار الحاج علي وهم يرجعون إلى القيروان إلى قبيلة جلاص ولقبهم البوشماوي

5- الجحادرة وهم ليبيون يرجعون إلى تاجورة وأصل عائلتهم موجود إلى الآن بهذه المنطقة

وبالقرية ضريح "سيدي علي الشتاوي" وهو جد المهاذبة ويزوره أيضا كلّ السكان وكذلك ضريح سيدي "عمر بوحليلة" وضريح "سيدي غريب المغربي" على الطريق العام بالإضافة إلى "سيدي مسعود". وتسكن حاليا جالية كبيرة جديدة في بوشمة من 13 ولاية تقريبا حسب إحصاء المدرسة الابتدائية الثانية غرب بوشمة حيث يتركز هؤلاء السكان وخصوصا من الحامة ومن قفصة ومن قابس وذلك لاتساع أراضيها الصالحة للبناء . وكانت قرية بوشمة محطة من المحطات القديمة التي ينزل فيها الحجاج القادمين من المغرب الأقصى عن طريق البر. فكانت الزاوية مقر استراحتهم إذ تقدم لهم الأطعمة من طرف السكان وهذا يدل على روح التضامن الموجود في القرية. كما يبدو التضامن في القديم في روح البذل والمعاضدة التي تظهر عند السكان فعندما يبنى منزل جديد لمواطن من المواطنين فان جميع أفراد القرية يشاركون هذا المواطن في بناء منزله فيجلبون له الحجارة من جبل الديسة القريب من القرية كما يشاركونه

باليد العاملة ويظهر هذا التضامن أيضا في اجتماع جميع أفراد القرية في زاويتهم لمدة 3 أيام لتقبل التعازي عندما يتوفى أحدهم وكذلك يظهر هذا التضامن عند الفلاحين إذ يشارك جيران الفلاح في المعونة (الرغاطة) التي يقوم بها الفلاح وتتعطل أعمالهم كلها في ذلك اليوم. كما تعطلت أعمالهم عند المشاركة في بناء منزل من منازل سكان أحد أفراد القرية وبها مدرستان إبتدائيتان في الوقت الحاضر وبعثت بينها وبين قرية النحال التي سيرد ذكرها مدرسة إعدادية جديدة.

8- قرية النحال:

قرية النحال هي واحة جميلة تتوسطها قرية صغيرة أغلب مرافقها كانت من أسواق قابس وهي مرتبطة ارتباطا وثيقا سواء عن طريق التزاوج أو عن طريق بيع منتوجاتها الفلاحية والتزود بما تحتاج إليه من حاجيات ولا يفصلها عن قابس إلا الطريق العمومي المؤدي إلى تونس شمالا وإلى طرابلس جنوبا وكذلك واد قابس. وحسب الدراسة التي قام بها الأخوان الباحثان(لقرية النحال) وهما السيد الأستاذ عبد المجيد كريم باحث من المعهد القومي للحركة الوطنية وأخوه إسماعيل النحالي كريم متفقد التعليم الابتدائي بقابس ومتقاعد.

إن قرية النحال يرجع تأسيسها إلى القرن الرابع عشر مسيحي الموافق للقرن الثامن هجري تقريبا حيث قدم رجل من المغرب الأقصى اسمه "سيدي عمران المرابط" من الساقية الحمراء ليستقر بقابس، ثم انتقل هذا المهاجر المرابطي إلى هذه المنطقة وسط الغابات ليستقر بها واشتغل بتربية النحل، لذا فقد سميت هذه المنطقة بالنحال نسبة إلى المهنة التي تعاطاها هذا الرجل. وقد بنى قبة في المكان الذي كان يشتغل فيه بهذه الحرفة ودفن بها وترك سيدي عمران ابنين هما.

1- الصغير وقد انتقل من النحال إلى بلدة الجم واستقر بها و (لا يزال أحفاده يعيشون في تلك المناطق)

2- سيدي موسى وهو الذي بقي بالقرية مع والده

لقد سلمت جماعة النحال من الخلافات التي حدثت بقابس كما تنص الدراسة فلم يتبعوا(لا الحسينية ولا الباشية) والتفوا حول جدهم وزاويته التي دفن فيها. لقد اشتهر أهالي النحال بإكرام الضيف وباستقبال من يفد عليهم وامتازوا بالاعفاء من الأداءات أي من ضريبة المجبى.

وأعتقد أن ذلك يرجع لاحترام جدهم المغربي المرابط من طرف الحكومة والذي لم يدخل لا هو ولا أبناؤه ولا أحفاده في الصراعات والخلافات وكذلك لاعتباره من الأولياء(الفُقرة)

وحسب الدراسة التي قام بها أحد الباحثين لإعداد شهادة دكتوراه دولة كما ذكرها الدارسان الباحثان(عبد المجيد كريم وإسماعيل(8) النحالي كريم) جاء فيها ما يلي

(الولي الصالح سيدي عمران جد أهالي النحال أصيل منطقة الساقية الحمراء بالمغرب الأقصى (هناك من ينسبه إلى مدينة فاس بالمغرب).

ثم يقول: "وفي طريق عودته من مكة المكرمة حيث أدى مناسك الحج استقر الرجل أولا بمدينة قابس ثم غادرها ليختار له مقرا بالواحة وبما أن المكان غير آهل بالسكان فانه لم يجد صعوبة في امتلاكه أرضا عن طريق الحوز واشترى له ماء للسقي من سيدي علي الفرجاني مؤسس قرية

أولاد الحاج قرب شنني" ثم يقول: "كان سيدي عمران شيخ علم يدرس الفقه لأقاربه وأتباعه وكان إلى جانب ذلك يربي النحل مما جعله يكنى بالنحال". أما كيف أنجب أولاده وممن تزوج فإن الوثيقة تشير إلى أنه "كان في بداية انتصابه بالقرية أعزب ثم تزوج من امرأة أصيلة المنطقة وأنجب منها ولدين هما سالم والطيب وكان له معاونا في العمل اسمه بوعبيد فتبناه وأصبح ينزله منزلة الابن الحقيقي".

من غير شك أنه من هؤلاء الأبناء الثلاثة سواء بالتبني أو من الصلب تكون أفراد قرية النحال وهذه الشجرة تمثل عائلة سيدي عمران

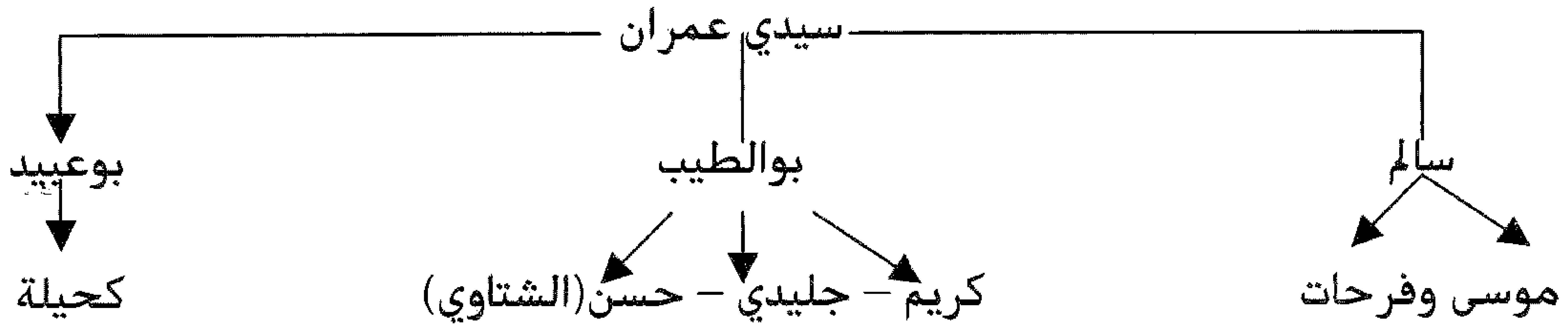

واشتهر من هذه السلالة سيدي موسى الذي تقع زيارته من طرف الأهالي في كل المناسبات وبالقرية مسجد جامع ومدرسة ابتدائية فرنسية عربية في عهد الحماية الفرنسية قديمة ثم بنيت مدرسة جديدة في سنوات الاستقلال وتخرج منها العديد من المثقفين ومن إطارات الدولة الآن.

(8) هذه المعلومات مأخوذة من طرف الأخوين من تقرير محرر من طرف ضابط الاستعلامات الفرنسية في أكتوبر 1884 (المعلومات مترجمة)

لقد اندمج مع هؤلاء السكان عائلات أخرى لا ترجع إلى سيدي عمران إنما ترجع إلى مناطق قابس المختلفة وغيرها من المناطق.

لقد اشتهرت النحال بنضالها أثناء الحركة الوطنية وتكونت بها شعبة دستورية برئاسة المناضل حسن بن رحومة مدير المدرسة وهو من قابس وكان من الناشطين بها ومن أعضائها ومن المضحين بحياتهم المناضل المرحوم حسين عبيد الذي ترأس الشعبة فيما بعد والذي اشتهر بكلمة نطقت بها أمه وكانت قوات الاحتلال تلقي عليه القبض بمنزله بالنحال فكانت أمه تقول له وأمام الفرنسيين(يا حسين صك) وكلمة صك تعني بالعامية (أنكر) أي لا تصرح بأسماء خوانك الدستوريين وبقيت هذه الكلمة سارية إلى الآن كما اشتهرت النحال بجملة أخرى أثناء الحرب العالمية الثانية وانطلقت هذه الجملة من تصرف شعبتها إذ أنها قد أرسلت إلى بريطانيا العظمى ببرقية تحتج فيها على سلوك جيشها مع أهالي النحال أثناء زحفهم على قابس وأصبحت مثلا يضرب به إلى الآن (قرية النحال تحتج على بريطانيا العظمى)

9- قرية تبلبو:

تقع قرية تبلبو على الجهة الجنوبية الشرقية من قابس وليست بعيدة عن البحر وهي عبارة عن واحة ملتفة غناء بها شجر الزيتون والنخل بها كثير كما تنتج الرمان والخضروات المختلفة وتزود سوق قابس بإنتاجها ويعتقد بأن عمرانها تم منذ العهد البربري أو الروماني ولعل في ابتداء اسمها بالتاء ما يرجح بربريتها كذلك وجود غار الزرماطي بالقرب منها والذي تحدثنا عنه وهو بالقرب من "المريسة" بواد السراق، أما سكان تبلبو الآن فأغلبهم من قبيلة الحزم وبعض عائلات صنهاجية مثل دار المير الذين ذكرناهم سابقا.

أما عروش الحزم وهم الغالبية مع عائلات أخرى قادمة من ليبيا أي "طرابلسية" فهم كما يلي الشرايكة، والحنانشة، والعيايدة والسواكن والشواشين(9) والرحايمة والقواسم وأولاد منصور وأولاد مبارك وأولاد خليفة والعواقل(من تبلبو ومطرش) والنواورة(وأصلهم من الزارات).

أما السواكن فهم يتفرعون إلى العوامر والحوافي وهذه القبائل البعض منها منتشر في الزركين وغولة وكتانة وواد الغيران وواد الحجل.

يقول التيجاني في رحلته(10) "وهو منزل به مبان قليلة وعليه غابة من الزيتون متسعة وكذلك به قبل هذا غابة نخل قطعت أيام محاصرة مخدومنا لقابس، ولم يبق منها إلا نخيلات قليلة في مواضع متنافرة منه"

لقد تحدثنا عن موضوع هذه الغابة وكيف قطعت مع غابات قابس أثناء هجوم أبي يحي زكرياء الحفصي.

إلا أن هذه الغابة قد جددت الآن بفضل جهود أهلها وإتقانهم لأساليب الفلاحة.

---

(9) الشواشين هي عائلة يميل أفراد عائلتها إلى السمرة كثيرا ويرجع ذلك إلى زواج أحدهم بشوشانة.

(10) انظر كتاب رحلة التيجاني لأبي محمد عبد الله ابن محمد ابن احمد التيجاني صفحة 179

لقد تطورت قرية تبلبو وبنيت بها مساكن حديثة واتسعت عن الدائرة التي كانت بها وخرجت عن الطريق العام ووصلت إلى أراضي المنارة واختلطت بها وأصبحت منطقة واحدة متماسكة واتصل العمران في الوقت الحاضر حتى إلى قابس خصوصا وقد عمر هذه الأراضي كثير من سكان قابس. وعبّد بها طريق عصري سيار يقسم إلى شطرين بأحواض من الأزهار والورود كما بعثت مدرسة إعدادية وبها مصحة متطورة ومركز بريد وكذلك سوقا أسبوعية وبني بها سوق لبيع الأسماك حديثا.

ويتوسط القرية دكاكين ومقاهي وبها كل المرافق الآن أما من حيث التطور العلمي والثقافي فلقد اشتهرت قرية تبلبو بولوع أهلها بتعليم أبنائهم فمنذ السنين الأولى كان بعض الأولياء يبعثون بأبنائهم إلى تونس للدراسة سواء بالجامع الأعظم(جامع الزيتونة) أو في المعاهد الثانوية العصرية.

لذا فإننا نجد كثيرا من إطارات قابس ترجع إلى قرية تبلبو خصوصا في ميدان التعليم. وأول مدرسة ابتدائية بتبلبو أنشئت في سنة 1922 وهي على ملك المرحوم الحاج عمار النوري باش مفتي قابس وأخيه المرحوم الحاج بلقاسم النوري وأول مدير لها هو الطيب البصلي من القيروان الذي أصبح متفقدا عاما للعربية فيما بعد(11) بإدارة التعليم في جميع الايالة التونسية ثم تكونت مدرسة جديدة على الطريق العام سنة 1954 وأول من تخرج بالشهادة الابتدائية من القرية من المدرسة القديمة هو المرحوم(12) بوبكر الحفناوي سنة 1927 وهو أيضا أول معلم ترشيحي يتخرج من التعليم في جميع ولاية قابس وربما في الجنوب كله سنة 1930.

أما من حيث البناء فان قرية تبلبو القديمة كانت على شكل مربع، وتغلق في الليل بواسطة باب خشي ولا يفتح هذا الباب إلا في الصباح لحماية القرية من الفضوليين والأجانب. وكان عمل النساء في المنازل(الصناعة الصوفية) وهناك من يساعدن أزواجهن في الغابات. وبالقرية جامع قديم بني على أنقاضه جامع جديد وأول إمام بهذا الجامع هو الحاج الحبيب بن الحاج علي من العوامر(عامري) ثم جاء بعده الشيخ عمر بن محمد الصالح وبعده المعلم محمد النوري من النواورة ابن بلقاسم النوري وابن أخ الحاج عمار باش مفتي قابس.

ومن العادات الغريبة التي كانت منتشرة في قرية تبلبو في الزمن القديم هي العادة المسماة(بالبصباصة) أي أن الأطفال في عاشوراء كانوا يحملون الشمع ويمرون به في الشوارع ويبصبصون وكانوا يطوفون بأذن الحسين ابن علي دون علم منهم وقد ذكرنا ذلك وهي عادة سنية وقد تغيرت هذه العادة فيما بعد وربما بقيت (13) إلى وقت ليس بالبعيد لكن الأطفال لا يعرفون لماذا يقومون بهذا العمل.

---

(11) كانت البرامج الرسمية في عهد الحماية في نطاق التعليم الابتدائي تدرس ساعة واحدة في العربية وخمس ساعات في الفرنسية.

(12) المرحوم بوبكر الحفناوي كان نشيطا واجتماعيا وشارك في الكشافة التونسية وهو كبير السن كمرشد للكشافة وقد ساعدني الحظ أن أكون ضمن الكشافين الذين شاركوا في المخيمات التي حضرها وكان قد استقر بمدينة قابس.

(13) المصدر هما المربيان الفاضلان من تبلبو عبد الرحمان المعاوي والمرحوم عمر النائلي بن عبد الله.

وقد قاوم هذه العادة التي غرست في تونس المتدين سيدي بوعلي السّني(دفين نفطة) في الحركة التي قام بها آنذاك.

وبالقرية عين تسقي غابات القرية ويشرب منها السكان في السابق وتسمى بعين(14) (بوديس) نسبة إلى اسم ابن باديس من الصنهاجيين الذي كان يملك الغابة المسماة بغابة بوديس وحسب التواتر والرواية أن عملة هذا الحاكم هم الذين قتلوا "المرعي الهلالي" ابن الجازية الهلالية وابن أخت أبو زيد الهلالي صاحب الملحمة الهلالية الذي كان معه في رحلته من المشرق إلى تونس والذي أوصت الجازية الهلالية أخاها عليه لما سافر الأخوة الثلاثة مع خالهم (المرعي ويونس ويحي) ومن وصايا الجازية لأخيها على ابنها المرعي(أنه دباب في النياق رتيب) أي راع ماهر لأنها أعطت وصف وميزة أبنائها الثلاثة لأخيها أبي زيد الهلالي.

ومن الآثار القديمة التي توجد في قرية تبلبو منارتان المنارة الأولى هي التي ذكرناها عند حديثنا عن المنارة والتي يذكرها الحداة عند قرب وصولهم إلى قابس ومنارة موجودة بالهنشير المسمى(بهنشير الشقاف) قرب البحر والذي كان على ملك أحد المعمرين الفرنسيين وقد اشتراه المرحوم العروسي بن سالم من قابس ويوجد بهذا الهنشير بعض آثار من الشقاف وصهريج ويعتقد بأن هذا المكان ربما يرجع إلى العهود القديمة إلى العهود الفنيقية وكان يصدر منه العبيد(15) لمختلف المناطق أي من المريسة التي تحدثنا عنها وهي قريبة من غار الزرماطي الموجود في الأرض التي هي على ملك(العوامر) من سكان تبلبو(3كلم على تبلبو) بالقرب من "غار بوعاطي" في أرض القواسم وهذه المراكز ربما كانت مراكز مراقبة تمتد إلى مطماطة.

1- قرية مطرش:

تقع قرية مطرش على ربوة ترتفع عن مستوى البحر بـــ 20 مترا تقريبا وهي وراء الظهرة المسماة بظهرة مطرش، وهي عبارة عن غابة من الزيتون منتشرة بها مجموعة من المساكن القديمة داخل الغابة. وفي بداية القرية ومن الجهة الشمالية الغربية تقع "عين مطرش" وهي التي كانت سببا في استقرار السكان بهذه المنطقة وعلى حافة العين من الجهة البحرية توجد زاوية "سيدي حامد" التي أصبحت فيما بعد جامع خمس ثم جامع جمعة الآن. وقد وقع تكبير الجامع وبناؤه من جديد مع صومعة شاهقة أما العين فقد جفت الآن وطغى عليها البناء أما سبب جفافها فكان نتيجة محاولة المصالح الفنية حفرها والزيادة في منسوب مياهها لكنها بهذه العملية غارت وجفت من المياه كما سنرى.

---

(14) من الصدف أن يجف هذه العين وتبنى فوقها المدرسة الإعدادية الحالية وسبحان الله وكان إطارات القرية لم يجدوا مكانا آخر لبناء المدرسة فيبقون بذلك موقع العين وآثارها ليدل على الأقل على وجودها وتاريخها ويذكر الأجيال بهذه العين التي لعبت دورا كبيرا في إرواء الأرض والسكان

(15) المصدر هما المربيان عبد الرحمان المعاوي مدير مدرسة ابتدائية متقاعد والمرحوم عمر النائلي بن عبد الله معلم(متقاعد)

تسمية مطرش:

أما سبب تسمية هذه القرية بهذا الاسم فالذاكرة الشعبية تورد بأنها مأخوذة من إمْطرشْ(16) أي هل أمطرت أو هل نزلت الأمطار بها هذا إذا كانت عربية لكن هناك من يقول بأنها ترجع إلى اسم حاكمها "طورش" الروماني وهذه التسمية لها ما يؤكدها إذ هناك دهاليز تحت الأرض تحتاج إلى البحث والتنقيب في الغابة المسماة بغابة دار المفتي بمطرش.

أما سكان القرية القدماء في الغالب فإنهم يرجعون إلى الحزم وهم

1) عائلة عبد الإله التي تنتمي إليها عائلة التويتي الكبيرة العدد في مطرش(فرع منهم في الدخلة ولاية نابل).

2) عائلة المزاهيد ويحملون لقب المزهودي

3) عائلة رحيم ويحملون لقب رحيم وبوشريكة وهم يرجعون إلى الشرائكة المتواجدين بتبلبو وينتمون كلهم إلى جهة واد الحجل غرب كتانة معتمدية مارث.

أما العائلات الأخرى التي لا تنتمي إلى الحزم فهم:

1) عائلة دار خبخب فهي قليلة العدد وترجع إلى جهة تطاوين حيث يوجد أصل عائلتهم هناك إلى الوقت الحاضر وقد تصاهرت هذه العائلة مع الحزم.

2) عائلة العوامرية ويحملون لقب العامري(17) نسبة إلى جدهم عامر المهاجر أو الهارب من قابس إلى هذه القرية وكذلك يحملون لقب بالرجب نسبة إلى أحد أبنائه رجب وكذلك لقب "المنازلية" لأنهم يرجعون إلى منطقة المنزل من دار الصويعي(شمام) حسب ما تذكره شجرة العائلة . وقد ذكرنا سبب استقرار هذه العائلة بهذه القرية عند حديثنا عن موضوع (بوارق عصيان في قابس) في عهد أحمد باشا باي تونس.

هؤلاء هم السكان القدماء الذين استقروا بالقرية لكن في الواقع لا نعرف تاريخ سكناهم واستقرارهم بها.

أما السكان الحاليون فهم بالإضافة إلى هؤلاء هناك زحف سكاني على هذه القرية وخصوصا في الجهة الشرقية منها من(بني يزيد بالحامة وقبلي ومطماطة وتطاوين وسيدي مهذب ومن قابس خصوصا بعد التطور العمراني وزحف السكان على الأراضي الصالحة للبناء فتكونت الأحياء الجديدة ومنها حي التربية والأسرة1 وحي التربية والأسرة2 وحي حشاد وغيرها من الأحياء كما سنرى.

القرية القديمة:

تنتشر مساكن قرية مطرش وسط الغابات وهي عبارة عن مساكن من النوع العربي(حوش) بها مجموعة من البيوت السكنية ومطبخ ومرحاض وإسطبل للحيوانات تحيط

---

(16) المصدر هو الأستاذ عبد العزيز التويتي أستاذ متقاعد وعدل إشهاد وإمام جمعة بالقرية.

(17) المصدر هو البحري بن حسن بالعيادي من عائلة العوامرية وكان حارس سجون بقابس(متقاعد) توفي أثناء طبع هذا الكتاب في شهر أكتوبر 2000

لها في الغالب أساطين تحميها من الحر والبرد ويسكن بهذه المساكن جميع أفراد العائلة الأب والأخوة والأبناء والأحفاد.

والملاحظ أن بعض هذه المساكن تستعمل لغرض خزن الحبوب والمتاع فلا يأتيها صاحبها إلا زمن نضج التمور وصابة الزيتون وفي بقية الأيام يكون متنقلا بأغنامه حيث توفر المرعى.

هذا وأن بعض العائلات في قابس كانت تمتلك غابات ومزارع في القرية وكان يقوم بخدمتها بعض الفلاحين كما كانت هناك أملاكا مشتركة لأهالي مطرش خارج القرية يشترك فيها 10 عائلات مثل أراضي "وادي الغريب" غرب كتانة و "ساقية الخروب" و"المشرف" شمال غرب كتانة و "مزرع يوسف" و"الطرفاية" شرق كتانة.

أما شكل القرية فهو مستطيل ينحدر من الهضبة إلى الأراضي المنخفضة وتتصل بغابات تبلبو من الجهة الجنوبية ولا يفصلها عنها إلا وادي جاف يسمّى بواد الكلم. أما المساكن القديمة فكانت لا تتجاوز ستة عشرة مسكنا لكن كل مسكن له عدد من العائلات والأفراد.

غابات مطرش:

حول المساكن التي توجد بالقرية غابة كبيرة تكونت نتيجة لوجود عين مطرش وتحتوي على أشجار الزيتون ذات الشهرة الفائقة والزيتون الرفيع الذي كان ينتج بالطريقة التقليدية وكذلك أشجار الليمون والرمان والمشمش بالإضافة إلى النخيل.

وهذه الغابة ترجع بالملكية إلى جميع عائلات مطرش وجانب من هذه الغابات يرجع إلى عائلات من مدينة قابس(أولاد بوخشينة) و(الزريقي) "القفارشة" وبعضها يرجع إلى عائلة الجمني وتعرف هذه الغابة بغابة القاضي أو المفتي لأن صاحبها كان يقوم بهذه الخطة في قابس وله أملاك أخرى في هذه المنطقة.

حرفة صيد الأسماك:

بالإضافة إلى حرفة الفلاحة وحرفة الرعي خصوصا في السابق هناك حرفة أخرى لأهالي مطرش هي صيد الأسماك التي كانت تدر الخير العميم على الأهالي.

وكان البحر إلى عهود قريبة مقسم على المحترفين لحرفة الصيد إلى مناطق(ديار) في الاصطلاح البحري ويبلغ عرض الدار 200 مترا تقريبا. ولقرية مطرش أربعة ديار منها دار العيادي مزهود وتسمى بالدار الكبيرة لأنها تحتوي على دارين(400 م) ودار صالح الثوير ودار علي بن محمد بن صالح وقد بيعت هذه الدار إلى الأخوين محمد وعلي بن يحي من قابس وكلف السيد صالح الثوير الذي تربطه رابطة مصاهرة بهذه العائلة.

وقسمة البحر في قابس جاري بها العمل في شاطئ قابس وفي شاطئ غنوش وفي شاطئ الزارات وفي شاطئ تبلبو ثم ألغيت هذه الطريقة وأصبح البحر ملكا من أملاك الدولة.

عين مطرش:

لاشك وأن عين مطرش قد وجدت قبل قرية مطرش بالرغم من أننا لا نعرف تاريخ وجود هذه العين إلا أن أهل القرية يعتقدون بأنها ترجع إلى العهد الروماني أو

الفينيقي(18) وحتى البربري لأن غابة مطرش كانت في السابق تابعة لغابة تبلبو وقد افترضنا بأن تبلبو ترجع إلى العهد البربري لابتداء اسمها بالتاء وهي جزء منها.

طريقة توزيع مياه العين:

كانت عين مطرش مقسمة على الغابات كما سنشرح ذلك في ما يلي:

يخرج أهالي القرية وفلاحيها مرّة في السنة لتنظيف العين وإزالة ما علق بها من أتربة وحجارة وفي أواخر عهد الحماية الفرنسية(19) 1955 أقدم أحد المهندسين الفرنسيين وبيده خريطة وحدد على ضوئها الصهريج الذي يكون العين فتم كشف أسسه فوقع تحديد العين على هذه الأسس القديمة وقام بتتبع المنابع المائية إلى أن وصل إلى مصدرها الأول وهي عبارة عن حجرة كبيرة ذات عمق فانتهى العمل عندها.

وفي مرحلة أخرى أقدمت إدارة الفلاحة في قابس على محاولة للزيادة في مياه العين لأنها قد نقصت فوصلت إلى المنبع وكسرت الحجارة إلى نصفها فتناقص الماء بدرجة غريبة إلى أن أصبح غير كاف للشراب وانتهى سقي الغابة منها.

أما طريقة قسمة مياه العين فيكون بطريقة عجيبة وفنية حيث وضعوا حجرا في بداية العين به ثقب ويأتون بعصا من جريد النخل ويقيسون بها عمق العين قبل فتحها أي(مقدار الماء المتجمع في العين) ويقسمون هذه العصا إلى درجات اصطلح على تسميتها بـــ(الباجو) ويتفاوت الفلاحون في ملكية الماء فمنهم من يملك يوما كاملا ومنهم من ينوبه درجات معينة من قسمة يوم كامل وإذا اجتمع فلاحان أو ثلاثة في ملكية يوم فانهم يقسمون بالعصا حسب ملك كل واحد منهم ومساحته، واستمر هذا الوضع إلى أن جاء عهد الاستقلال حيث أصبحت العين تقسم بالساعات كما هو معروف في الجمعيات المائية حسب المساحة. أما كمية المياه فكانت في السابق تقدر بما بين(25-35) ليترة في الثانية وتناقصت هذه الكمية بعد الاصلاحات إلى 15 ليترة في الثانية وفي الإصلاح الأخير تناقصت إلى 3 ليترات في الثانية إلى أن جفت.

تطور القرية العمراني:

نتيجة للتطور الاجتماعي والصناعي توسعت المنطقة العمرانية كما ذكرنا ذلك عند حديثنا عن قرية مطرش القديمة فبدأ العمران أولا في المنطقة المسماة بطريق الزارات القديم فتكون حي التربية والأسرة الأول والثاني وحي حشاد كما ذكرنا ذلك وتكون فيما بعد حي العدالة وكذلك حي المرضين وحي الياسمين الذي كونته شعبة ابن خلدون الدستورية وحي المركب الكيميائي وحي الشركة القومية العقارية إلى المستشفى الجامعي وأحياء أخرى ومساكن وقصور بناها الخواص بالإضافة إلى مصحة أبي لبابة التي بنيت بظهرة مطرش من الجهة الشمالية.

---

(18) معلومات مأخوذة من الأستاذ العيادي التويتي الذي يشير إلى أنه أثناء حفر منزل للسيد يوسف بن الحبيب بن صالح العامري سنة 1972 في المنطقة المعروفة(بالفدان) قرب العين اكتشف دهليز عميق لا يعرف مداه كما وجدت حجارة بها نقوش رومانية وأثار رماد كما اكتشف بظهرة مطرش بعض الحجارة الكبيرة لكنها لم تقوم علميا أي لم تدرس.

(19) نفس المصدر هو الأستاذ العيادي التويتي أستاذ التربية الدينية(متقاعد)

مشاركة مواطني مطرش في الحركة الوطنية:

بالإضافة إلى جد العوامرية "عامر بن الحاج بن عبد الله الصويعي شهر بومرينة" الذي لجأ إلى مطرش بسبب قتله مساعد اللزام في عهد احمد باشا باي 1856 برز المناضل(الجيلاني بالجليدي) الذي كان يقيم في غابة من غابات مطرش(طريق الزارات القديم) فكان يساعد ويهرب الدستوريين إلى الشرق وإلى ليبيا عن طريق فريق من قبيلة الشنادلة بين قردان ولاية مدنين وكذلك كان واسطة لإدخال السلاح إلى تونس أثناء الثورة الكبرى. كذلك بروز المناضل "الحاج بوبكر بن الصغير التويتي" في النضال النقابي والدستوري فسجن ونفي خارج الولاية وأحرقت أملاكه وكان من ناحية علمية أول من تخرج متطوعا من جامع الزيتونة من الحزم ومن الأوائل في ولاية قابس.

كما برز المناضل "المرحوم الصادق بن الحبيب المطرشي" الذي كان يشرف على فريق من المقاومين ومكلف بالتخريب والعمل السري ومن بين هذا الفريق من قرية مطرش "إسماعيل بن التومي بن محمد بن رجب" و"مزهود بالعزوزي" وقد ألقى القبض على هذا المناضل ودخل السجن مع أخيه يوسف. وقد قاوم الدستوريبيون في مطرش الحركة اليوسفية آنذاك تلبية لنداء الحزب ومن هؤلاء "التوهامي بن علي بن العيادي بن رجب العامري" وكذلك صهره "البحري بن حسن بن العيادي بن رجب العامري".

وكذلك شاركت المرأة في مطرش في الحركة الوطنية والحركة النسائية فبرزت المناضلة "مبروكة شهرت السبتية بنت حسن بالعيادي" وهي أول امرأة تشارك في الاتحاد النسائي ومن مسيريه بقابس. كذلك المناضلة "زهرة شهرت نعيمة بنت بوبكر بالحاج الصغير التويتي" فكانت من رئيسات الاتحاد النسائي كما كانت نائبة جهوية لمدة طويلة وعضوة في اللجنة المركزية للحزب والاتحاد النسائي.

11- **منطقة زريق:**

وهي على موقعين تسمى الأولى بزريق "الدخلانية" والثانية بزريق "البرانية" أما زريق الدخلانية فهي تقع فوق ربوة المنارة بين ضريح الصحابي أبي لبابة ومنطقة تبلبو وهما واحتان تكبر إحداهما عن الأخرى. فزريق الدخلانية صغيرة الحجم وحديثة التكوين أما الثانية وهي زريق البرانية فهي كبيرة الحجم كثيرة الأشجار وقريبة من قرية كتانة.

لقد ذكر التيجاني في رحلته صفحة 180

"إن بها نخلات على عين ماء عذب وزاوية سكنها رجل من البربر اسمه سلام ويعرف بأبي غرارة" كما توجد بهذه المنطقة زاوية ثانية تسمى بزاوية(سيدي عبد الله بن عبد العزيز بن يحي بن عبد الرحمان بن جابر أحد سادات الحمارنة).

وتؤدي الزيارات موسميا إلى الآن للضريحين لأن سيدي سلام المعروف بأبي غرارة قد دفن هو الآخر في هذه الزاوية وهو الذي تنتمي إليه قبيلة الغرايرة المنتشرة في جهة العكاريت.

أما زريق الدخلانية ففيها عين حلوة أيضا قديمة يتردد عليها سكان قابس في السابق بانتظام وماؤها مرغوب فيه بالنسبة لماء قابس العادي قبل تحليته وقد زحفت عليها مناطق العمران من كل جانب وكبرت هذه القرية واتصلت بقابس من جهة و تبلبو من جهة أخرى.

12- قرية كتانة:

تقع قرية كتانة في جنوب قابس وهي تابعة إداريا الآن إلى معتمدية مارث وهي على الطريق الرئيسية التي تربط ليبيا ومصر بتونس وبكل شمال إفريقيا وتبعد عن قابس بـ 16 كلم وبقرية كتانة عين حلوة فوارة بجانب القصر القديم الذي كان يأوي الناس. وتتوزع من هذه العين مسارب مائية تتفرع على واحة كتانة بانتظام وبتقسيم محكم. لقد مر الرحالة التيجاني بها أثناء رحلته في بداية القرن الثامن للهجرة 706 هـ ووصفها كما يلي

" قرية صغيرة ملتفة الشجر حسنة المنظر كأنها بستان واحد خضرة ونضرة وعامة شجرها الزيتون وكان غرسه أيام الأمير أبي زكرياء الحفصي أمير قابس سنة 624 هـ. ولأهلها قصر كبير يأوون إليه وبها عين فوارة عذبة قد اجتمعت منها بركة ماء متسعة تلاصق سور القرية من الجهة الغربية وتخرج مذانب ومسارب تخترق الغابة فتعمها بالسقي"

هذه كتانة القديمة التي وصفها التيجاني كما هي أما كتانة اليوم فهي غير ذلك صحيح أنها واحة غناء وجميلة بها شجر الزيتون الذي يدر على أهلها الخير العميم، لكن فلاحة كتانة اليوم يضرب بها المثل فلقد تطورت فلاحتها وتنوع إنتاجها فهي بالإضافة إلى هذه الصابة من الزيتون فهي قد غرست النخيل ونجح بتربتها شجر التفاح والإجاص والبرتقال والرمان الذي أصبح يزاحم منطقة شنني المشهورة ويصدر إلى الدول الخليجية والأوروبية.

وأقيم مهرجان سنوي خاص به سمي "بمهرجان الرمان" أو مهرجان كتانة السنوي.

كما أصبح انتاج الخضر بأنواعها والفلفل بالخصوص إنتاجا منتشرا في كتانة، وصففت دكاكين وإخصاص من جريد النخيل على الطريق الرئيسية الرابطة بين تونس وليبيا لبيع الإنتاج الفلاحي للقرية وبعض الصناعات التقليدية التونسية. أما السكان الذين استقروا بالقرية فهم يرجعون إلى الحزم وإلى الحمارنة وهم قبائل عديدة منهم الرادسية والحنانشة والشلايبة والبكاكش والسوالم والغنادرة الذين يوجد أغلبهم في التجمع السكني المسمى بالغندري.

13- قرية الزركين:

هي عبارة عن واحة زيتون وكرم وعنب وبعض النخيل وقد تطور بها العمران في الوقت الحاضر بعد أن كان السكان يسكنون داخل الغابة في بيوت من شعر واخصاص. ويسكنها الحمارنة من جماعة عبد اللطيف بعضهم مستقر بمارث كأولاد محمد وأولاد حامد والشعايرة والكرايمة والطوالبة.

وللزركين عيون كثيرة تسقي بساتينها تسمى بعيون الزركين ومن هذه العيون (العين الكبيرة وعين وناس وعين القصب وعين القراد وعين القناوي وعين المقبرة وعين طلحة وعين الكلب وعين أم جنيح وعين القطارالخ..)

14- مدينة مارث:

تقع بلدة مارث مركز الخلافة "المعتمدية" في جنوب شرق تونس على خط عرض 32 درجة وفي خط طول 10 درجات. وهي بين البحر وجبال مطماطة إذ يبعد عنها البحر بـــ 10 كلم عن طريق قرية الزارات التابعة لها وتبعد عنها جبال مطماطة بـــ 15 كلم عن طريق تجمع تونين.

يشق بلدة مارث الطريق رقم 1 الذي بواسطته تتصل بتونس وإلى شمال إفريقيا من الناحية الشمالية وبطرابلس ومصر من الناحية الجنوبية وتتبع بلدة مارث عمالة (ولاية قابس) وهي تبعد عنها بـ35كلم من ناحية الشمال كما تبعد عنها ولاية مدنين بـــ 40 كلم فهي الوسط بين الولايتين.

حدود منطقة مارث:

يحد بلدة مارث من الناحية الشمالية معتمدية قابس الجنوبية في الوقت الحاضر إلى ما بعد قرية كتانة إذ أن كتانة كانت تابعة لقابس في السابق وأصبحت منذ سنوات تابعة لمعتمدية مارث، ومن الناحية الجنوبية حدود ولاية مدنين وهو واد الجاس (الزاز) وشرقا البحر الأبيض المتوسط وغربا حدود معتمدية مطماطة التي لا تتجاوز المسافة التي تفصلها عنهـــا بـــ 7 كلم. هذه الحدود الغربية كانت هامة في تاريخ بلدة مارث لأنه كان يمر بها ما يسمى بطريق الوطن القديم(طريق تطاوين) وكان تابعا لمارث ولكن إرادة الاحتلال الفرنسي حولت الحدود بين المنطقتين(مارث ومطماطة) بسبب الحوادث المتكررة التي كانت تقع للجيش الفرنسي عند مروره من هذا الطريق إذ قد تعرض سنة 1921 بعض المقاومين لسيارة عسكرية فرنسية، وقتل ضابط فرنسي في هذه الحادثة لذا فإن فرنسا قررت تغيير الحدود بين المنطقتين (مطماطة ومارث) وكانت مطماطة خاضعة للحكم العسكري فأخذت قطعة من معتمدية مارث وضمتها إلى مطماطة لتكون سيطرة الجيش على هذه الطريق. وقد اتهمت السلطة أهالي عرام بهذه العملية لأن المقاومين منهم وهي التي تساعدهم.

تبلغ مساحة معتمدية مارث نحو 70 ألف هكتار وهي تعتمد بالدرجة الأولى في فلاحتها على الأمطار إلا أن فلاحتها في السنين الأخيرة قد تطورت فحفر كثير من الآبار الخاصة والعمومية ويبلغ عدد سكان معتمدية مارث حسب إحصاء 1960 نحو 13 ألف ساكن ويبلغ حاليا نحو 20 ألف ساكن. تعتمد منطقة مارث في حياتها على الفلاحة وعلى تربية الماشية خصوصا.

أما التجارة فهي متوسطة وتطورت منذ الاستقلال إذ تكونت بمارث حركية اقتصادية كبيرة لأنّ سوق مارث الأسبوعي قديم إذ تكوّن منذ سنة 1924 يؤمه كثير من الوافدين (20) من مختلف الولايات في الوقت الحاضر خصوصا. وقد تطورت الفلاحة وتطور سوق الأغنام. وكان السوق ينتصب عادة يوم الاثنين والجمعة وأن الناس يتوافدون عليه منذ مساء الخميـــــس

---

(20) هذه المعلومات مأخوذة من دراسة قام بها السيد أبو بكر بن عبد الرحمان الحمروني(خليفة من خلفاء مارث سابقا)

ويسمونه بيوم التسبقة وبعد الاستقلال وفي سنة 1963 تحول السوق إلى وسط الثكنة العسكرية فازدادت المساحة التي كان يستغلها. أما سوق اللحوم بما فيه لحوم الإبل فهو مزدهر. أما الصناعة فكانت متواضعة وتعتمد على الصناعات التقليدية. ونظر لأهمية هذه المنطقة فقد دخلها بعض المعمرين الفرنسيين ومنهم(21) المعمر "تريولي والسمعوني وكروانة" إلا أن المعمرين الأخيرين قد باعا أملاكهما لما فشلا في استغلال أراضيهما وبقي تريولي إلى ما بعد الاستقلال وأصبح الهنشير الذي كان يستغله من أملاك الدولة التونسية.

هذا وإن العيون الجارية التي وجدت بمارث كانت عديمة الجدوى على العموم لأنها

1- قليلة الضخ

2- بها ملوحة زائدة

3- لم تشمل كل الأراضي الصالحة للزراعة إذ توجد عين مارث التي كانت تصل إلى السّدريّة ثم نضبت وعين الشريفية وقد وقع تفجير آبار ارتوازية بمنطقة مارث بهنشير الأخماس الذي لازال في حالة استخدام(بئر مارث عدد 1 في الزركين) و(بئر مارث عدد 2 في الزارات) و(بئر السدرية عدد1 و2 بالزارات) أيضا و(بئر الزركين عدد2 بالزركين) و(بئر عرام عدد1).

خلافة مارث قديمة جدا وكانت تسمى بخلافة الحمارنة لأن أغلبية السكان هم من الحمارنة وأول خليفة منهم هو المرحوم محمد بن عبد اللطيف بن محمد بن عبد الرحمان الحمروني منذ سنة (1280 هـ- 1873م) أي قبل فرض الحماية الفرنسية بـ 18 سنة وبعد الحماية الفرنسية تبدل اسمها وأصبحت تسمى بخلافة مارث وتولاها السادة

1- المرحوم عبد الرحمان بن يحي بن عبد الرحمان الحمروني

2- المرحوم سالم بن رحومة بن لهيبة(من عكارة جرجيس)

3- المرحوم محمد بن عبد الرحمان الحمروني

4- المرحوم أبو بكر بن عبد الرحمان الحمروني

5- المرحوم عبد الله بن الجيلاني الوحيشي (عبودة)

6- المرحوم المبروك بن المحضري

نظرة تاريخية على منطقة مارث:

يبدو من الآثار التي تحدثنا عنها في بداية هذه الدراسة حول الفترات التاريخية التي مرت بقابس قبل التاريخ أن هناك آثار قديمة في منطقة مارث ربما ترجع إلى فترة ما قبل التاريخ أو إلى الفترة البربرية أو الفنيقية أو الرومانية وهي متوزعة في منطقة عرام ومارث والزارات والزركين.

أما ما هو موجود في مارث فهو في "هنشير ابن زايد" و"هنشير مصبوغة" و"هنشير القصير" و"هنشير يرفن" و"هنشير قرع القايد" و"هنشير عميش".

---

(21) نفس المصدر وهو السيد أبو بكر بن عبد الرحمان الحمروني.

ويبدو من الدراسة التي قدمها السيد بوبكر بن عبد الرحمان الحمروني أن الرومان قد أقاموا سدا كبيرا بواد زقزاوْ قبل الفتح العربي وذلك للري الفلاحي، كما أن مارث لم تذكر قبل الإسلام إلا من طرف آرتور بالقرانArthur Belgran عندما تحدث عن تاريخ تونس.

تقول الدراسة أنه قد وقعت قلاقل بين البزنطيين والبربر في غضون عام547 م.

يقول بالقران في الباب السابع من كتابه صفحة 93.

"أنه قد وقعت واقعة حربية بالقرب من مارث تكبد فيها الجيش البزنطي خسائر فادحة بعد أن وقع تطويقه من طرف رجال قبائل البربر المتاخمة لحدود طرابلس"

ومن غرائب الصدف أن يكون هذا المكان الذي تصارع فيه البربر مع البزنطيين في منتصف القرن السادس ميلادي أن يلفت نظر الفرنسيين حيث أنهم أقاموا خطا دفاعيا في مارث سمي بخط مارث أو خط دلاديي DALADIER ضد هجوم الإيطاليين الذين كانوا يحتلون طرابلس.

وكان هذا الخط الذي يمتد من البحر إلى منطقة توجان بمطماطة على مسافة تقدر بـــ 28 كلم من الواد المسمى بواد زقزاو إلى مطماطة وذلك في سنة 1936 وهو مشابه لخط ماجينو بين ألمانيا وفرنسا.

لكن فرنسا لم تستفيد من هذا الخط، وفي الحرب العالمية الثانية حاول الألمان والإيطاليون النفاذ من خط مارث بجميع الطرق ورغم الصعوبات والتحصينات والأمطار الغزيرة لقد تمكنت القوات المهاجمة من العبور عن طريق مطماطة ومن الوصول إلى خط العكاريت.

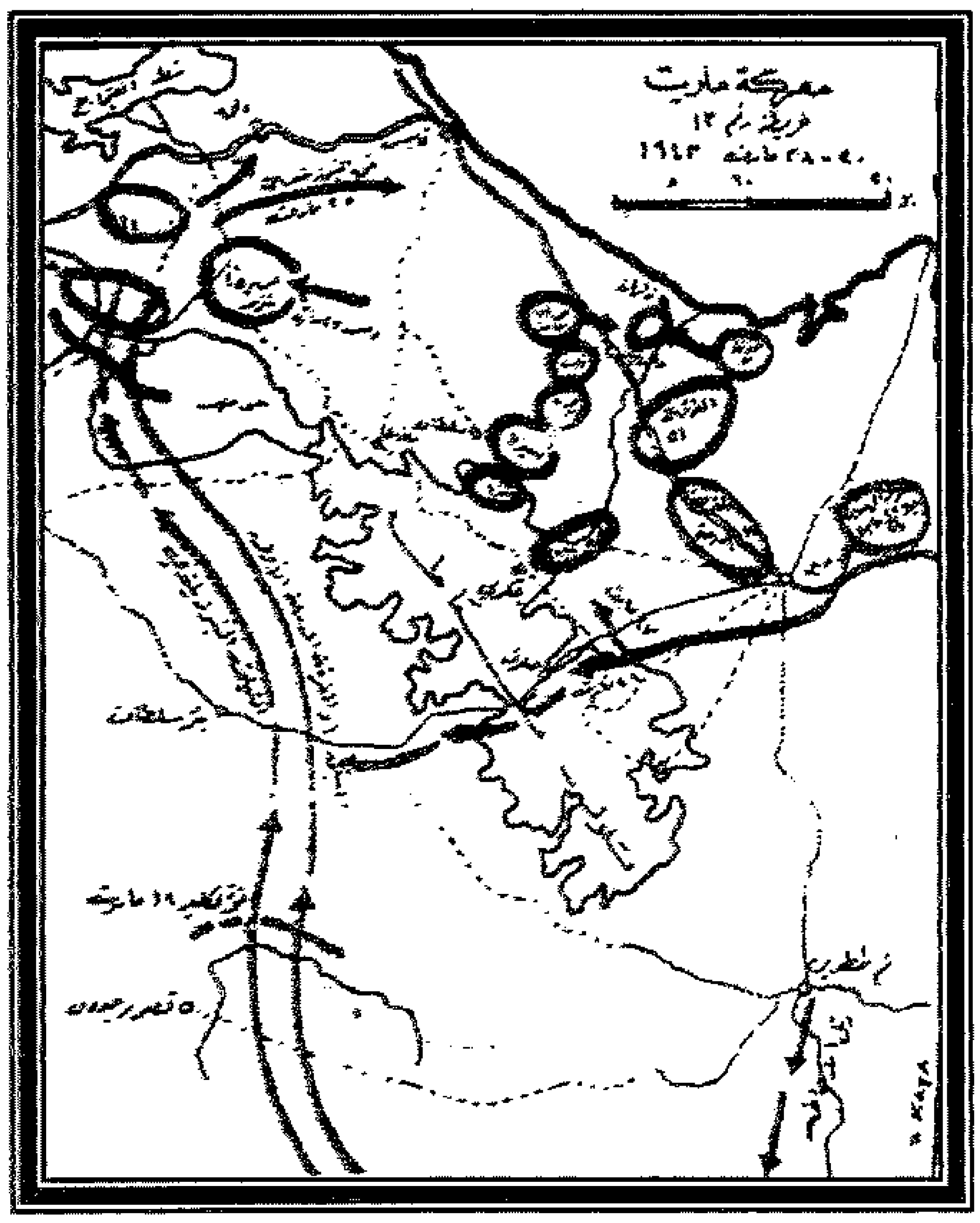

صورة لخط مارث

أقوال المؤرخين العرب عن مارث:

لقد تحدث بعض المؤرخين العرب عن مارث ففي معجم البلدان بعد أن فكك اسم مارث لغويا(الذي اعتبروه أنه مشتق من الإرث ومرثت الشيء بيدي أي غرسته الخ) قال. ومارث ناحية في جبال عمان(عاصمة الأردن) أما التيجاني فقد حقرها عن قرية الجاس(الزاز) فقال:

"ونزلنا يومنا ذاك بقرية مارث وهي قرية حقيرة(أعتقد أنه يقصد بأنها صغيرة) وعليها غابة نخل يسيرة ومنها يوم السبت إلى قرية الجاس وهي قرية ضخمة ذات أشجار كثيرة ولها غابة متسعة فيها عين خرارة عذبة المياه غير أنها مستوبئة وأخبرني أهلها أنهم احتفروا في هذا الوقت بئرا عذبة المياه سالمة من الوباء يشربون منها ويسقون من تلك العين بهائمهم وزروعهم". ثم يقول:

"ورأيت بها مسجدا يذكر أهلها أن له فضلا مشهودا عندهم، وأن الدعاء مستجاب عنده لقد أظهر بعض زهادهم به الاغتباط فلازم به الرباط وإن كان هذا المرابط وجميع أهل هذه البلدة على المذهب السيء المنسوب للخوارج".

يبدو من أقوال التيجاني أن مارث في عهده وأثناء مروره بها أنها ليست بذات أهمية وأن قرية الجاس هي أهم منها وأعتقد أن قصد التيجاني بقرية الجاس هي قرية عرام لأنه ليس هناك تجمع كبير آخر مجاور لمارث غير عرام في الوقت الحاضر لكن الأهمية التي أعطاها لهاته القرية تفوت مارث مركز الخلافة(المعتمدية) في الوقت الحاضر ولله في خلقه شؤون فقد يفوت الفرع الأصل وقد تتغير أحوال البلاد فتنمو بلدة صغيرة بسرعة وقد تصغر أخرى بفعل الهجوم أو عدم التطور أو عدم العناية بها، هذا ما أتصوره من أن قرية الجاس التي ذكرها التيجاني هي قرية عرام لكن هناك احتمال آخر إذ يمكن أن تكون هذه القرية التي قصدها التيجاني هي قرية ثانية قريبة من واد الجاس لكن الزمن طمسها وغمرها ولم يعد لها أثر خصوصا وأن الدراسة التي قام بها السيد أبو بكر بن يحي بن عبد الرحمان الحمروني تؤيد هذا الرأي.

"فتقول بأن قرية الجاس التي ذكرها التيجاني هي قرية مندثرة قرب واد الجاس وهي على بعد 10 كلم من عرام" ولعل الاكتشافات تظهر لنا الحقيقة. كما أن عدم وجود مذهب الخوارج في منطقة عرام يساند بأن قرية الجاس هي قرية أخرى بعيدة عن عرام.

أصل الحمارنة:

أصل الحمارنة يقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب من (قبيلة زغبة) وزغبة من بني هلال أي من صميم القبائل العربية العدنانية النازحة إلى إفريقيا وسط القرن الخامس للهجرة على يد المعز ابن باديس من أمراء صنهاجة منذ سنة 444 هـ.

وكذلك يقول (لا علاقة لها بأدارسة المغرب الأقصى إذ أن الانتساب إلى الأشراف بالساقية الحمراء هي دعوى قديمة في كثير من سكان شمال إفريقيا محاولة منهم للاتصال بالعترة النبوية الطاهرة).

وقد عرّف الورثلاني بالحمارنة فقال عنهم.

"أما الحمارنة فمن أجود العرب وأكرمهم نسبا وشرفا حباهم الله برشاقة القدّ وحسن الخد وهيأة الركوب وزينة الملبس وسعة البيوت وهم جاه عظيم عند سلاطين تونس"

وقال السيد أبو بكر بن عبد الرحمان في نسب الحمارنة ما يلي:

"إن بـنـي هـلال وبـنـي سـليم الذيـن دفعهـم سلطان مصر في القرن الحادي عشر مسيحي ضد تابعـه الثائر بتونس إنما هم جميعا من أصل عربي وقد كانت لهم في أصالتهم وفي تقاليدهم الحربية وشـجاعتهم مـا أغناهم عن كثرة العدد فانتشروا بروائع الانتصارات في بلاد المغرب ونجحوا في بثّ الإسلام والثقافة العربية في الجنوب".

وقـال أيضـا مـا معـناه أن الحمارنـة هـم فـرع من بنـي يزيد ويرجعون إلى جهة قابس نسبة إلى "حـمرة ابـن جابر حليف الأدارسة " فأسّس ابنه جابر زاوية عرام برخصة من الحزم لأن أرض عـرام كان يسكنها الحزم ويملكونها في الغالب فنشأت حول الزاوية فرقة صغيرة أوقف عليها فيما بعد حفيداه سيدي يحي ابن علي وسيدي عبد الرحمان ابن علي مساحة من الأرض هناك.

وقال التـيجاني في رحلته عن نسب الحمارنة

"وبـنو يـزيد أربعـة أفخـاذ مـن دبّـاب تحـالفت وانتسبت إلى مدلول الزيادة لا إلى اسم رجل متسمّ بيزيد وهم الصّهبة والحمارنة والخرجة والأصابعة" ثم يقول:

"أمـا الحمارنـة فبـنو حـمران ابن جابر وجدهم دفين عرام هو سيدي يحي(22) ابن علي ابن عبد الرحمان ابن جابر ولد بمارث ودفن في أرض الحزم بعرام وقد خلف احدى عشرة ولدا وهم

1- عبد الحميد من زوجة (توجانيية) أي من توجان بمطماطة وآثار قصره الذي سكن به موجود إلى الآن بتوجان وهو جد عرش الحمايدة

2- الزيتوني(الزيـــــاتين)

3- عبد اللطيف(اللطائفة)

4- احمد الحميدات

وهؤلاء الأبناء الثلاثة من امرأة (عامرية) أي من شط العوامر

5- محمد بن يحي الفقير "الفقايرة" ويسمون بأولاد الفقيرة

6- مبارك

7- عبد الحق

8- علي ومنهم أبناء عزوز وهؤلاء الأربعة أبناء من (أم حزامية)

9- عـبد العزيـز وهو من (أم زمزمية) أصيلة مطماطة وفرع من الزمازمة انتقل إلى الحامة

10- عمر(جد الشعايرة)

11- عبد المؤمن(المامنة)

والأخـيران هما من (أم مطوية) وتسمى بالشريفية والملاحظ أن هذه العائلات تضم الشواشين المقـيمين بمـارث فكـل عائـلة تضـم مجموعـة منهم ويحملون ألقابهم وتتكون من هؤلاء الشواشين فرقة الفنون الشعبية بمارث. وإلى جانب الحمارنة يكوّن منطقة مارث عروش أخرى لا ترجع

(22) مصـدر هـذه المعـلومات الأستاذان عبد اللطيف بن علي بن الحاج مختار بن الحاج محمد الصيد الشعيري ومحمد بن ميهوب بن يحي بن بلقاسم ميهوب ومن المواطن علي بن محمد الأشهب الزيتوني من أحفاد سيدي يحي

بالنسب إلى الحمـــارنة لكـن يرجعون إلى الأصل العربي أيضا(23) ومنهم :

1- عرش الغرارفة(غراف)

وهم يتفرعون إلى :

أ- السراولة(سروال)

ب- الدلاعيس(دلعوس)

ج- أولاد بالعيادي(العيادي)

د- السوالم(السالمي) وهم المؤدّبون لأولد سيدي يحي

2- أولاد مسلم وهم أصيلي منطقة ليبيا ويتفرعون إلى

أ- أولاد لامين

ب- أولاد محمد

ج- أولاد أحمد

د- الرجايبة(بالرجب)

3- الزرايـبة وهـناك مـن يقـول أن الـبعض مـنهم يرجع إلى ليبيا والبعض الآخر يقول بأنهم يرجعون إلى الساقية الحمراء بالمغرب الأقصى لكن اندمجوا مع بعضهم فتكون من الجماعة الأولى.

أ- عرش الباكير(البواكير) ومنهم: 1) أولاد عمر باكير 2)أولاد الحاج عبد الكريم 3) أولاد الحاج عمر 4) أولاد المحاريق

كما كونت الجماعة الثانية القادمة من الساقية الحمراء.

أ- المطاوى

ب- أولاد الصغير

ج- الشلالقة(وتوجد فروع منهم بالحامة والمطوية)

الحمارنة في جهة قابس:

لقـد لعـب الحمارنـة دورا تاريخيا في جهة قابس وحافظوا على وضعيتهم في الجهة وكانوا مـن الذيـن سـاهموا في الأخـذ بزمام الأمور أثناء الأزمات. فلقد أصلح سيدي يحي ابن علي مياه المطويـة ثم اشترى من الحفصيين واحتـي مارث والزارات، كما أسّس سيدي عبد الرحمان واحة المدو واشترى الحمارنة أيضا من الحفصيين ومن الصنهاجيين واحتـي تبلبو والمنارة وهذا إن دلّ عـلى شيء فإنما يـدلّ عـلى قـيمة هـؤلاء في هـذا العهد فقد تمكنوا من الدخول والسيطرة على الدولـة الحفصـية والصـنهاجية وهـو في الواقـع أيضـا يـدل على ضعف الدولة والتجائها إلى بيع أرزاقها. وقد واصل أهالي مارث المحافظة على أخلاقياتهم وسلوكهم وساهموا في حركة المقاومة للاسـتعمار الفرنسـي فـتطوع الـرجال مـنهم والفرسان مع سكان قابس واستشهد الكثير منهم نتيجة لذلك.

---

(23) مصـدر هـذه المعـلومات السـيد احـمد بـن عمـر لامـين مـن عـرب مـارث والأستاذان عبد اللطيف ومحمد ميهوب اللذان ذكرناهما سابقا

كما واصلوا الكفاح مع المناضلين سواء في نطاق الحزب الحر الدستوري أو الحزب الحر الدستوري الجديد أو في عهد التجمع الدستوري الديمقراطي أو في نطاق الحركة النقابية والكشفية والثقافية.

لقد نشطت الحركة الثقافية بمارث واشتهر أهاليها بشعرائهم الشعبيين الفحول المعروفين على نطاق قومي وتخرج من معاهدها ومن معاهد قابس مركز الولاية الإطارات العليا التي ساهمت وتساهم في تسيير الدولة والنهوض بها وتركيز اقتصادها.

15- الزارات:

قرية الزارات قرية قديمة ويتبين ذلك من الآثار التي اكتشفت قرب "هنشير تريولي" وقد تحدثنا عنها عندما تحدثنا عن قابس ما قبل التاريخ وهي تقع على البحر وبها ميناء هام وينتج بحرها كثيرا من أنواع الأسماك اشتهرت خصوصا بصيد التنّ وجراد البحر والأصداف البحرية، وهي بالإضافة إلى ذلك واحة بحرية هامة فقد وصفها التيجاني في كتابه صفحة 119 بقوله " قرية ذات نخل كثير وماء غزير ينبع من عين حامئة قد اجتمع لدى منبعها بركة ماء متسعة القطر بعيدة القعر"

كما وصفها الادريسي في كتابه نزهة المشتاق صفحة 128 فقال:

"هي قصور ثلاثة تلي جزيرة جربة وبينهما عشرون ميلا"

هذه الزارات القديمة أما الزارات الجديدة فهي عبارة عن مدينة تحتوي على مساكن عديدة متطورة اتسع عمرانها خصوصا بعد بعث المدرسة الإعدادية بها في سنة 1986 ويدرس تلاميذها في السابق أما في قابس أو في مارث مركز المعتمدية.

أما مدرستها الابتدائية فهي قديمة جدا. وسكانها أغلبهم من العرب ومنهم

1- عرش أولاد منصور(كرو)(الاكراوة)

2- عرش الفطايبة(بوطيب)

3- عرش القراوة(القروي) وهم في الأصل يرجعون إلى القيروان

4- عرش الحجاج ومنهم أولاد محمد وأولاد المبروك وهم يرجعون في الأصل إلى ليبيا.

وقرية الزارات في تطور مستمر وتساهم في النهوض بتونس والمشاركة في بناء الدولة برجالها وإطاراتها وشاركوا في الحركة الوطنية وقاوموا الاستعمار في جميع مراحله.

16- قرية عرام:

لقد ذكرنا قرية عرام عندما تحدثنا عن بلدة مارث مركز الخلافة(المعتمدية) وذكرنا بأن هناك من المؤرخين من اعتبرها قرية الجاس(الزاز) وقد نوّهوا بها وتحدّثوا عنها بكل إعجاب وتقدير وعلى أنها أهم من مارث، لكن الباحث السيد عبد الرحمان الحمروني اعتبر أن قرية الجاس هي قرية مستقلة وبعيدة عن عرام بـ 10 كيلومتر ولم يبق لها أثر. لقد تحدث عن تربة عرام العياشي في رحلته فقال: "قرية صغيرة فيها مزارات كثيرة غالبها من السادات الحمارنة إذ بها مقابر أسلافهم سيدي يحي وغيره من أكابرهم وهم إلى الآن يقصدونها للدفن من الأماكن

البعيدة" كما وصفها الورثلاني في نزهة المشتاق صفحة 652.
"بأنها طيبة ذات مياه عذبة ونخل ومزارع وبساتين ومن مات من الحمارنة دفن فيها فإنها محل أجدادهم وموضع خزائنهم يسكنها من لا يقدر على البادية منهم، فيها روضات مبنية تراهم كالنجوم في السماء".

أما سكان عرام فهم في الغالب من الحمارنة من (الحمايدة والعوامر) ومنهم فريق كبير من السكان السود ينتمون إلى عائلات الحمارنة ويسكن بعضهم متفرقين في البادية قرب واد الجاس. وبقرية عرام مدرسة ابتدائية كبيرة ويدرس تلاميذها في الثانوي بمارث وتقيم سنويا مهرجانا ثقافيا باسم مهرجان سيدي يحي. لقد ساهمت رئاسة الجمهورية أثناء الزيارة الأخيرة لرئيس الدولة لقابس بـــ 180.000 ألف دينار لتجديد وتكبير مقام سيدي يحي والأشغال جارية أثناء تسجيلنا هذا الكتاب.

17- قرية المدو:

قرية المدو تقع في الجهة الغربية من قابس وهي تبعد عنها بـــ 10 كيلومتر تقريبا وهي عبارة عن واحة صغيرة من الزيتون والنخيل والأشجار المثمرة وأغلب سكانها من السود الإفريقيين وبها مجموعة من السكان تنتمي إلى الحمارنة والحزم، وبها مدرسة ابتدائية وتتصل بها بصورة مباشرة منطقة واد السدر من الناحية الشمالية وكذلك منطقة الموازير(المطاطي) من الجهة الغربية وهي تقع بينها وبين مطماطة الجديدة وهذه المنطقة بكاملها ترجع بالنظر إلى منطقة قابس الجنوبية طبقا للإصلاح الإداري الذي تمّ أخيرا بولاية قابس وبعث معتمدية جديدة سميت بمعتمدية قابس الجنوبية الآن وقد شارك أهلها في النضال وفي الثورة التونسية الكبرى ضمن المجاهدين ومع المجموعة السرية التي قادها المرحوم المناضل الصادق بالحبيب المطرشي الذي ذكرناه سابقا عند حديثنا عن قرية مطرش وهو الذي ألقي عليه القبض من طرف القوات الفرنسية وهو مقيم بمنطقة الموازير.

18- قرية شاطئ السلام:

قرية شاطئ السلام هي القرية المسماة بشط سيدي عبد السلام نسبة إلى زاوية سيدي عبد السلام التي ترجع إلى الطريقة السلامية وإلى الولي الصالح سيدي عبد السلام دفين زليطن بالجماهيرية الليبية وهي زاوية قديمة يدرس فيها القرآن منذ تأسيس القرية وتوجد هذه الزاوية القديمة فوق مرتفع من الأرض وسط المقبرة وقد هدّمت الآن بسبب انتشار العمران.

أما السكان فهم في الغالب يسكنون الغابات وبعضهم يسكن مساكن مبنية من الحجارة في المنطقة الغربية السفلى من الشاطئ وهم قلة وتسمى المنطقة كلها بالظهرة أيضا لأنها تقع على مرتفع من الأرض.

والسكان هم خليط من العرب(القناينة والشعيرات والرواجحية والجماعيين والخضارة والعصافرة والطرابلسية و العيايطة والأغوال والطوابعية بما فيهم الشكيوات وغيرهم...)

وكذلك جماعة كبيرة من الحمارنة الذين يرجعون بالنسب إلى حمارنة مارث دار الوحيشي، دار بوعود، دار الزرلي ودار الصيد... كذلك توجد مجموعة من الأتراك استقروا بها منذ مجيء الأتراك إلى قابس (دار الروسو، دار برير ودار مامي...) وقدم إليها سكان آخرون من مناطق قابس من مطوية ومن الغرائرة ومن الحزم وبنوا مساكنهم داخل الغابات.

هذه القرية مرتبطة بقابس وبها واحة من النخيل والأشجار المثمرة متصلة بواحة جارة البلد. لقد تطورت القرية في سنوات الاستقلال وبنيت بها مساكن جديدة مكان المقبرة وأصبح السكان يدفنون موتاهم خارج المنطقة إما في مقبرة الدبدابة(الفقيرة هنية) أو مقبرة سيدي بولبابة. وبذلك تجمع السكان حول هذا التجمع السكني وتكونت بها المرافق اللازمة للعيش وبها خلية بلدية نشيطة تابعة لبلدية قابس تسهر على نظافة القرية والقيام بشؤونها البلدية.

أما الحرفة الأصلية منذ العهود القديمة بالمنطقة فهي حرفة صيد الأسماك التي كانت بالطرق التقليدية مثل مطرش وتبلبو والزارات، لكن في الوقت الحاضر أول من طور أساليب صيد الأسماك بالطرق العصرية وبالسفن الكبيرة للصيد في الأعماق هم أهالي شط سيدي عبد السلام وأصبح ميناء قابس الجديد المتطور يعج بصيادي شاطئ السلام وهم يزاحمون الصيادين الآخرين القادمين من المهدية والشابة وغيرها من المناطق البحرية من تونس . هذا بالإضافة إلى حرفة الفلاحة وحرفة صناعة السعف تلك الصناعة التقليدية التي طوروها وزاحموا بها الأسواق من مظلات ومراوح وقفاف ومحافظ سعفيّة.

19- قرية غنوش:

كيف تأسست قرية غنوش؟

في الواقع ليس هناك ما يثبت تاريخ تأسيس هذه القرية ولا من هم سكانها الأصليون إلا أنه ليس من الثابت من أن هذه القرية هي موجودة منذ العهد البربري أو الفنيقي أو الروماني أو الوندالي ذلك أنه لا توجد الآثار التي تثبت ذلك سوى ما تحدثنا عنه في فترة ما قبل التاريخ في الأطوار التاريخية التي مرّت على قابس. فأطلس قابس كما ذكرنا يشير إلى أن هناك بعض الحجارة التي توجد خارج قرية غنوش الحالية وهو يرجع إلى فترة ما قبل التاريخ وحتى يثبت ذلك فإن قرية غنوش ترجع إلى أصل عربي انحدر سكانها بعد الفتح الإسلامي ويُتواتر أن البعض من سكانها يرجع إلى أصل مصري وقصة ذلك ترجع إلى أنه يعتقد بأن هناك سفينة مصرية أضاعت الطريق وقذفت بها الأمواج إلى ساحل هذه المنطقة فاستقرت بها وهذا ما يفسر تشابه اللهجة المصرية مع لهجة سكان غنوش، فمن هنا جاء الاعتقاد بأن اسم غنوش جاء من كلمة(غنوش ما غنوش)

كيف ذلك؟

يعتقد وحسب التواتر أن هذه السفينة الضائعة والتي نزلت بغنوش كانت تحمل معها فتاتين تجيدان الغناء فكان الوافد من قابس لسماع صوت الفتاتين يسأل متلهفا المعترض طريقه وهو

في طريق الرجوع من غنوش فيجيبه(بغنوا) أو (ما غنوش) ومنها أطلقت هذه الصيغة على القرية.

أما من جاء إلى غنوش فيما بعد فيبدو أن هناك مجموعة كبيرة من سكانها ترجع إلى الأصل الذي انحدر منه "سيدي أبي الحسن"(بلحسن) حفيد سيدي مهذب دفين منطقة المهاذبة أي أنهم عرب ويرجعون إلى الإمام الحسن أبي علي ابن أبي طالب ابن فاطمة الزهراء بنت الرسول، بالإضافة إلى عائلات أخرى قدمت من مختلف المناطق ومنها بعض من الحزم والعبايرة ونفات والغرايرة والمهاذبة والقراقنة والمغاربة وغيرهم وفي ما يخص تسمية قرية غنوش بهذا الاسم فبالإضافة إلى الاحتمال الأول حول تسميتها فهناك احتمال ثان يقع تواتره في القرية وهذا التواتر يشير إلى أن هناك حاكما يسمى باسم "نوش" وله بنت اسمها "آغة" فركب الاسم فأصبح اسم الفتاة آغة نوش ومنه اشتقت لفظة غنوش.

ومن هذا الاحتمال الثاني أن الاسم ليس بعربي ويمكن أن يكون بربريا أو فنيقيا أو رومانيا كما كانت تسمى بجيدرة ثم أطلق عليها اسم الرابطة أي مكان المرابطين والمرابطون هم المتعبدون من فرق الإسلام الناذرين على أنفسهم الاعتكاف بالمناطق النائية، غايتهم الإخلاص لله والإفراط في العبادة، وهذه التسمية توجد في وثائق أملاكهم (يقال /فلان مرابطي). ولا تزال عائلة المرابط موجودة بغنوش وتحمل هذا الاسم.

غنوش القديمة:

تقع قرية غنوش القديمة وسط واحة غناء من الزيتون والكروم والعنب وأنواع الفواكه والغلال. لقد اشتهرت غنوش بفلاحتها منذ القديم وكانت "العين الصغيرة" و"العين الكبيرة" هما اللتان تسقيان الواحة لكن بعد جفافهما أصبحت الآبار الارتوازية تغمر الواحة، وتتزود السوق التونسية خصوصا قابس وصفاقس بمنتوجات غنوش المختلفة.

أما سكنى أهلها فتكون على شكل مجموعات عائلية مكونة القرية، كل جماعة على حده، وتغلق عليها الأبواب لذا فإن أبواب القرية عديدة منها

1- باب الأغواد(غودي)
2- باب الشبابطة(شبيط)
3- باب السوايسة(سويسي)
4- باب أولاد علي(العلايا و علية)
5- باب السحامدة(من بني حسان) بالساحل
6- باب العبابسة
7- باب الخرايفة(خروف)
8- باب سي الطيب(من المرازيق)
9- باب الزعاترة
10- باب أولاد رحومة
11- باب الرجايبة
12- باب الحجاج(حجاجي)

بالإضافة إلى هذه العائلات التي سميت الأبواب باسمها هناك عائلات أخرى أما تسكن الغابات أو وسط هذه الديار مع المجموعة التي ذكرناها وهم:

(عائلات العجاودة والمرابط وصويد ومفاتحية) وعائلات قادمة من مناطق مختلفة مثل (أم غدية يرجعون إلى سيدي محمد النويقس ومنهم دار الحطاب والحاج حسن من(قصر هلال) والدخالة

ن طرابلس ودار السّندي من السّند ومناصريّة من سيدي مهذّب ومساعدة من العيايشة
ولاد عمارة من قرقنة ودار الحاج الفيتوري من نفات) . وهناك جاليات أخرى قادمة من
امة في السنين الأخيرة وتقطن الحي الجديد خارج غنوش المتمثل في الأحياء الشعبية. وكانت
ساكن أهالي غنوش القديمة ذات طابقين في الغالب طابق علوي للسكنى وطابق سفلي
حيوانات مثل منطقة البلد في جارة الدخلانية.

لقرية سوق يتوسطها له دكاكين ومسجد جامع يسمى بالجامع الكبير وكذلك بجزرة قرب
ين الصغيرة. ولم تتهدم معالم هذه القرية القديمة إلا في السنين الأخيرة ومن أخذت عنهم هذه
علومات(24) لازالوا أحياء وهم يعرفون هذه القرية القديمة وسكنوها.

ول مدرسة في غنوش تكونت في 1914 وهي مكتراة من المرحوم عبد السلام المقطوف
لثانية كانت في البورة في بئر عامر(25) (بئر فيصل) حاليا الذي حفر في سنة 1963.

ريح الولي أبي الحسن بغنوش:

لقد تعرفنا على سلالة أبي الحسن(بلحسن) بغنوش من اللوحة الموضوعة على الضريح المكتوبة بالصمغ من طرف عدلين هما أحمد الحويوي المدنيني ومحمد بن حمد بن الحاج عمر خروف، وكذلك تعرفنا عليها عن طريق الوثيقة المكتوبة والمحررة عن طريق العدلين الأخوين مد بن الصغير بن حميدة الحامي والصادق بالصغير بن حميدة الحامي في تاريخ 25 جويلية 195 الموافق لـ 10 شوال 1369 هـ في عهد القاضي إبراهيم الجبروني قاضي قابس آنذاك قلا عن غيرهم من الرواة والعدول فهو إذن أبو الحسن بن عثمان بن محمد بل بن محمد بن عثمان بن مهذب بن أبي القاسم ابن احمد ابن هذيل ابن احمد ابن المبروك ابن محمد ابن إبراهيم ن مسعود ابن علي بن سالم بن يحي ابن احمد ابن إبراهيم ابن محمد ابن علي ابن حمزة ابن محمد ن خالد ابن علي ابن صالح ابن سليمان ابن إبراهيم ابن يحي ابن المبارك ابن احمد ابن محمد ابن عبد الله ابن محمد ابن عبد الله ابن عيسى ابن إدريس الأصغر ابن إدريس الأكبر ابن عبد الله ابن حمد ابن عبد الله ابن حسن ابن علي ابن أبي طالب زوج فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن هذا النسب الشريف يرجع إلى ابن عم رسول الله علي ابن أبي طالب الخليفة الرابع وهو أول من أسلم من الصبيان وصهر رسول الله إذ تزوج بابنته فاطمة. قدم هذا الشيخ ما بين القرن السابع للهجرة والثامن للهجرة تقريبا بعد أن استقر في منطقة بوشة وهذا يستنتج من وثيقة الحبس المؤرخة في 704 هـ الذي حبس فيه أبي الحسن أملاكه على عقبه وهو ابنه عبيد ومنه تفرعت العائلة.

---

(24) السيد علي الجعداري من أولاد علي والسيد بلقاسم خروف شهر حسن من الخرايفة والسيد الحاج الصادق زعاترة

(25) عامر هو شخصية أسطورية يبغضها سكان غنوش فلذلك تراهم لا يحبون من يقول لهم (رحم على عامر) ويجيبون دائما غاضبين الله لا يرحمه لماذا؟ يقال بأن هناك امرأة من نابل غنية اسمها حنيفة تعرفت على عامر هذا وكان يتاجر في الفخار مع مدينة نابل فتزوجت منه واشترطت عليه بأن من يموت منهما الأول يرثه الآخر في كل أملاكه وكان عامر غنيا أيضا، فمات عامر الغني فورثته زوجته حنيفة وباعت جميع أملاكه حتى لا يطالب الورثة بنصيبهم، ولما سمع الورثة غضبوا من هذا التصرف الذي قام به مورثهم فكرهوه وكانوا يجيبون عندما يسألون(الله لا يرحمه)

يعتبر ضريح سيدي أبي الحسن دفين غنوش من أهم المزارات التي يأتي إليها الوافدون من مختلف أنحاء البلاد فيه تقام الولائم والنذر وتقام الحفلات الدينية وهو يقع وسط القرية الحالية.

لقد وقعت العناية به أخيرا من طرف البلدية واللجنة الثقافية والأهالي فأقاموا مهرجانا باسمه يقام في كل سنة سمّي بالمهرجان الثقافي بغنوش.

المزية بغنوش وأبي الحسن:

من العادات المتوارثة في غنوش ما يسمى(بالمزية) أو الوعدة وهو ما يقدم بالمناسبة في السنة أو في كل سنتين أو ثلاثة أو أكثر حسب الظروف من ذبح ثور و 10 شياه نذرها أهالي غنوش على أنفسهم يقدمونها كوعد منهم لوليهم الصالح لأنهم طلبوا منه المساعدة فاستجاب الله لدعائهم.

فما هي هذه المساعدة التي طلبوها منه؟

وما هي قصة الثور والشياه العشرة؟

كما هو معروف وقع تجنيد جميع التونسيين منذ فرض الحماية الفرنسية وذلك في كل سنة وكان أهالي غنوش لا يرغبون في تجنيد أبنائهم وهذا ربما متات من الامتياز الذي كانوا يتمتعون به في عهد البايات قبل الاحتلال وهو أنهم معفون من الأداءات ومن التجنيد لأنهم (فقرة) أي يرجعون إلى جدهم أبي الحسن الذي ينتمي إلى السلالة الشريفية مثل أهالي قرية النحال الذين ذكرناهم سابقا. وكان شباب غنوش يهربون إلى البادية أثناء التجنيد ولما تكرر منهم ذلك وشي بهم شيخ من بلدة وذرف(ابن الثابت) وأعلم السلطة على مكانهم فاعترضوا سبيل الفارين وأمسكوهم وعددهم ثلاثون.

فغضب أهالي غنوش ونذروا وليّهم بوعدة في كل سنة إذا هو دعا ربه وانتقم من الواشي.

وسميت هذه الوعدة "بالمزية"

وفعلا نفذ الوعد في الشيخ ومرض مرضا شديدا في وقت قريب ومن ذلك الوقت يقدم أهالي غنوش إلى جدهم هذه الوليمة أو هذه الوعدة المسماة بالمزية. أما طريقة القيام بها وكيف تشترى مستلزمات الوعدة وعلى من توزع فهي على الطريقة التالية: يُشترى الثور بالوعد ويقع تزيينه ويدورون به في المنازل لجمع الإعانة ثم يذبح ويوزع على المساهمين وعلى الفقراء من أهل القرية وكذلك الشياه يطبخ بها الكسكسي في السقفيّة أي زاوية السّقفيّة.

الزاوية المعروفة بالسقفية:

من المآثر بقرية غنوش الزاوية المعروفة "بالسقيفة" وهي عبارة عن بيت صغير في البداية مستخرج من منزل الرجل الصالح الشيخ "عمر بن علي العكروت" من عائلة العلايا.

تأسست هذه الزاوية سنة 1920 قصد إعداد الطعام لعابري السبيل والمساكين. وفي سنة 1925 توسعت هذه الدار وأصبحت عبارة عن سقفية كبيرة مسقفة بالجريد ومفروشة باحصر عبادي وحشاياها من ليف النخيل وكذلك مخاددها، وكان يتجمع فيها العباد من المتدينين وتلقى فيها

الدروس الدينية وهي بالقرب من زاوية سيدي بلحسن وكذلك من زاوية سيدي احمد بن حسبية(جد العلايا).

لقد تأثر هذه التقي الشيخ عمر بن علي العكروت بشخصية التقي المتدين الحاج محمد بن حمادي أصيل منطقة الحامة كما تتلمذ على الشيخ أحمد الفتوري(26) شيخ طريقة سيدي عبد السلام بمنزل قابس.

لقد تطورت السقفية في سنة 1971 وبنيت بالحجارة وفرشت بالأحصر والزرابي وواصلت القيام بمهمتها الأولى ويقوم بها بعد وفاة الشيخ عمر العكروت إبناه الأسمر ونور الدين.

دور الزاوية في غنوش:

لقد تطور دور هذه الزاوية إذ بالإضافة إلى أنها أسست لغرض استقبال عابري السبيل فهي لا تزال تقوم بهذه المهمة وتستقبل الوافدين عليها لإلقاء المسامرات والمحاضرات الدينية وحلقات الذكر من المشايخ التي تفد عليها من أنحاء البلاد ولها صلة بالزوايا المتواجدة بولاية قابس من سلامية وقادرية وعيساوية وعلوية...

وتهتم هذه الزوايا بالاحتفال بالمولد النبوي الشريف على طريقتها الخاصة، إذ تبدأ الاحتفالات في أول يوم من شهر ربيع الأول أي منذ بداية شهر (ولادة الرسول الأعظم) إلى يوم 12 منه أي يوم ولادته وتبدأ هذه الاحتفالات بالزاوية وفي الأيام الموالية يتحول الناشدون إلى مساجد غنوش واحدا بعد الآخر فمن مسجد أحمد بن حسبية إلى الفقيرة مريم إلى الجامع الجديد إلى زاوية سيدي عبد السلام إلى الجامع القديم ثم إلى دار الإمام الحاج المبروك بالحاج بشير وفي يوم 20 من الشهر يرجعون إلى السقفية إلى آخر الشهر ويقع الاختتام في آخر شهر المولد. أما في يوم 12 من الشهر فتقدم الأكلة التقليدية(العصيدة) للوافدين على الزاوية وتتجمع عشرات الأواني من كل العائلات لإطعام الناس.

نشاط سكان غنوش:

تعتبر قرية غنوش من القرى النشيطة في منطقة قابس فبالإضافة إلى النشاط الفلاحي المتميز واستعدادهم للقيام بالأعمال المختلفة لا في غنوش فقط بل حتى خارجها . وتعتبر حرفة صيد الأسماك منذ القديم الحرفة الأساسية التي يعتمد عليها الإنسان في القرية وكان البحر مقسما كما ذكرنا إلى ديار بين الصيادين ويزود صيادي غنوش السوق بثروة هائلة من الأسماك إلى الوقت الحاضر.

لقد تكونت في غنوش حرفة جديدة هي حرفة المقاولات في البناء فلقد ظهر فيها مقاولون ساعدوا على تطوير البناءات لا في ولاية قابس فقط بل حتى خارجها لذا فان الحياة الاجتماعية في القرية قد تطورت وتكونت إطارات كفأة في نطاق التعليم فتخرج منها الدكاترة

26- الشيخ احمد الفيتوري من الفاتير ويرجع إلى عائلة سيدي عبد السلام دفين زليطن وهو من أقرباء سيدي بلحسن دفين غنوش ومن سيدي مهذب دفين المهاذبة وسيدي بوعبد الله دفين قابس وكلهم يرجعون بالقرابة إلى السلالة الشريفية بالمغرب إلى الإمام الحسن ابن علي ابن أبي طالب زوج فاطمة الزهراء.

والمهندسـون وأصبحوا من الإطارات العليا في الدولة والمؤسسات الجامعية الآن في قابس تسير في الغالب من طرف إطاراتها. وتطور بها التعليم الثانوي فبعد أن كانت بها مدرسة إعدادية واحدة بعثت مدرسة إعدادية ثانية وبدأت المرحلة الثانية من التعليم(التعليم الثانوي) وفي القريب يبنى معهد ثالث تتحول به الأقسام الثانوية التـي توجد الآن بالمدرسة الإعدادية الأولى وتصبح القرية بذلك تحتوي على مدرستين إعداديتين ومعهد ثانوي.

أمـا البـلدية في غـنوش فهـي نشيطة وتعمل على تطوير القرية وعلى تعبيد الطرقات وإحداث الـتماثيل والـرموز في مفترقات الطرق ويقود القرية مجموعة من الشبان النشيطين كما تطورت الناحية الصحية فبالإضافة إلى المصحة الحكومية هناك ثلاثة أطباء خاصين وثلاثة صيدليات...

19- قرية وذرف:

يـبدو مـن الاكتشـافات الأوليـة ومـن الـرواية الشـفوية أن قرية وذرف قرية قديمة يمكن أن تـرجع إلى عصـر مـا قـبل الـتاريخ ولقـد أشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن قابس (ما قبل التاريخ)، فـلقد اكتشـف في هذه المنطقة آثار من حجر الصّيوان ترجع إلى هذه الحقب من التاريخ والتـي تعتـبر لحـد الآن غـير واضـحة تماما ويمكن أن تكون منطقة وذرف خلال تاريخها القديم على غير هـذا الشكل لأن ما اكتشف في واد وذرف من آثار أصداف وأعمدة. فقرية للحيتان يدل على أن الـبحر كـان وسـط هـذه القـرية وأن البحر الأبيض المتوسط كان مرتبطا بالشطوط التونسية والجزائـرية هـذا وأن الذاكـرة الشعبية تتحدث عن مدينة قديمة وعن أبواب لها. هذه المدينة على مـا يـبدو مـن الأسماء المتواترة أنها ترجع إلى العهد الروماني المسيحي إذ يوجد بالمدينة ما يسمى "بجامع الصـلبان" وكـلمة الصـلبان تـدل عـلى أن الجـامع الإسـلامي قد بني على مكان للعبادة المسيحية وهي الكنيسة، والمدينة القديمة في وذرف كانت محاطة بسور ولها أربعة أبواب:

1- بـاب المقيـل(بـاب القيـلولة) كـان بالقـرب مـن هـذا الـباب شـجرة كبيرة يجلس تحتها المواطنون في القيلولة.
2- باب الصخرات
3- باب حاف عريف(وتعني كلمة حاف في وذرف الحي ولا يدرون بأي لغة هذه الكلمة)
4- باب رأس الحاف أي رأس الحي.

ويتوسـط المديـنة سوق وساحة كبيرة تفتح عليها الدكاكين وبها جامع الصلبان، وخارج هـذه المديـنة القديـمة جامع العواديد وقد تهدم هذا الجامع وبنـي جامع الحاف عريف الذي يوجد بمدخل من مداخل المدينة.

وتوجـد بـوذرف عـين تسـمى بعـين بوسـحاق(أي عـين سيدي بوسحاق الجبنـياني دفين جبنـيانة) أو تـرجع إلى سـيدي بوسـحاق الورقاني دفين قابس والذي يزوره أهالي وذرف لتقديم الـنذور وهـذا يـرجّح الاحـتمال الـثاني والذاكـرة الشعبية(27) تورد بأن سيدي بوسحاق قد زار

وذرف وهـو المتسـبب في وجـود العـين التـي نبعت ببركته. وكذلك توجد عين الحنش بالقرب منها وبالقـرب مـن مـنطقة الحميمات. وقـد تحدثـنا عـن المنطقة المكتشفة من طرف علماء الآثار في منطقة واد وذرف التـي وجد بها حجر الصيوان بالقرب من منطقة الشقاف المعروفة بوذرف. وبالقـرية جوامـع عديدة أغلبها بناها أو ساهم في بنائها المقاول السيد محمد بالقايد جازاه الله خيرا وحماه الله وزاده فضلا، وأقدم هذه الجوامع هو جامع السوق.

أما العائلات المتواجدة بوذرف فهي ترجع إلى:

1- أولاد سعيد
2- أولاد حميد
3- عرش الغرابية
4- عرش اليتامة
5- العواديد
6-القوايد
7- عرش الرواسي
8- عرش الجواريف
9- عرش التمايمة
10- عرش لواتة
11- عرش المساترية
12- عرش السعيدات

وهـناك عـروش قادمة من الحامة ومن المهاذبة والطرابلسية وبالقرية مدرسة إعدادية، والمعهد الـثانوي يوجـد بـين وذرف والمطوية أي في حدود المنطقتين الإدارية وهو يأوي تلاميذ المنطقتين وأول مدرسـة ابـتدائية تكونـت في وذرف سنة 1911 وكانت مكتراة من السيد نصر بن سعيدين وفي 2 مارس 1924 بعثت مدرسة ابتدائية جديدة.

واشـتهر أهـالي وذرف باشـتغالهم بالمقـاولات في السـابق وهي مقاولات لتعبيد الطـرقات خاصة وفي الوقـت الحاضـر مقـاولات مختـلفة عامـة خصوصـا في البناء كما اشتهر أهالي وذرف بمشاركتهم في الحـركة الوطـنية مـنذ القديـم وخصوصـا مـنذ الحماية الفرنسية وبقيت المقاومة بها إلى شهر سـبتمبر 1881 وأول شعبة دستورية لها تكونت في سنة 1938 بعد مؤتمر قصر هلال وأول رئيس لها هو المرحوم محمد خشيريف الذي توفي في شهر جويلية الماضي 1999.

وقـد شـارك بعـض أفـرادها في معـركة 9 أفـريل 1938 ومـنهم المرحوم علي بن الفرجاني من الـتمايمة الـذي حكـم عليه بــ 20 سنة أشغال شاقة، ونقل إلى سجون الجزائر ومات هناك، وعبد السـلام بـن الحـاج الكيلانـي مـن أولاد سعيد، وإمبارك بالشاوش الذي يرجع إلى العواديد كذلك محمود بالحاج احمد الذي كان في فرقة المجاهد الطاهر لسود ومصطفى العرضاوي من السعيدات.

كـانت وذرف مصدرا من مصادر التموين للمجاهدين(الفلاقة) عن طريق المجاهد سعيد سويدان الذي كان في فرقة الطاهر لسود.

(27) نـورد هـذه النوادر عن طريق الذاكرة الشعبية وليس من شك أن الناس يهولون بركات بعض الأولياء إلى درجة المبالغة لأن عين وذرف قديمة قدم الزمان ولم تنبعث في القرن الرابع للهجرة لأن السيد أبي إسحاق الجبنياني توفي بجبنيانة ودفن بها في هـذا الـتاريخ كذلـك أبي إسـحاق الورقـاني دفين قابس. ويمكن أن يكون قد أمر بتوسيعها وتنظيفها لأن الجفاف ربما قد بدأ يعتريها.

لقد تحدث الرحالة التيجاني عن قرية وذرف ولم يعط تاريخ تكوينها وذكر بأنها :

"منزل فيه نخيلات قليلة وعيون ماء جارية وقصر متسع يعرف بوذرف"

معنى هذا الوصف أن قرية وذرف كانت موجودة في بداية القرن الثامن وبها قصر متسع وواحة قليلة النخيل وبها العيون الجارية لكن المقام بها لا يطيب للغريب على ما ذكره الشاعر أبو عبد الله الهنتاتي لأنه قضى بها بعض الأيام وهو غير مستريح فيها إذ قد توحش أهله فقال:

هذه عيــــون وذرف   دع العيون تـذرف
بدلت من أرضي بها   وا أسفي وا أسفي

وفي الواقع أن هذا الشاعر قد تجنّى على هذه القرية لأن المقام بها مستطاب وأهلها أهل كرم وضيافة ومشاركتهم في العمل الاجتماعي منقطعة النظير وتحمسهم للنهوض بالبلاد لا مثيل له.

حادثة عصيان(28) بوذرف:

في سنة 1911 أعلن العصيان في وذرف وامتنعوا من دفع الضريبة للدولة فجندت فرنسا كومندوس من الجيش لمقاومة هذا العصيان مخافة أن يتفشى في البلاد مثلما فعل أحمد باشا باي تونس مع بوارق العصيان التي حدثت في قابس سنة 1253.

وصادف هذا العصيان فتح مدرسة وذرف وكان أهالي وذرف لا يرغبون في إدخال بناتهم إلى المدرسة مع الأولاد وكان شيخ القرية في ذلك الوقت الشيخ نصر ابن سعدة من عرش السعيدات وكان متحمسا مع الثائرين. ولما وصلت الكتيبة الفرنسية إلى القرية أرادت القوة الفرنسية أن تتعرف على الممتنعين من دفع الضريبة فتخوف البعض وقالوا أنهم لا يرغبون في إدخال بناتهم إلى المدرسة وبقيْ 12 نفرا أعلنوا صراحة امتناعهم من دفع الضرائب فحكمت عليهم فرنسا بالنفي لمدة 6 شهور بمنطقة تالة في جهة القصرين ومعهم الشيخ نصر بن سعدة فأصبحوا بذلك 13 نفرا وقضوا في تالة حكمهم ولما رجعوا عزل الشيخ نصر بن سعدة من المشيخة وتولى مكانه الشيخ الثابت بالثابت الذي كانت له قصة مع أهالي غنوش كنا قد ذكرناها لما تحدثنا عن قرية غنوش.

الصناعات التقليدية بوذرف:

امتازت منطقة وذرف بالصناعات التقليدية من كليم وزربية ومرقوم ومخنوق وبرنس، وقد تكونت تعاضدية نشيطة في هذا الغرض وهي تروج مصنوعات القرية محليا ووطنيا وعالميا وتشارك المرأة في وذرف مشاركة فعالة في الانتاج فأغلب ما ينتج في هذا الميدان يكون منتجا من المرأة الوذرفية وفي المنازل بالخصوص.

(28) المصدر هو الاستاذ بشير المنوبي أستاذ تاريخ ومدير معهد المطوية الثانوي وفي الواقع أن هذه الرواية متطابقة مع ما يتواتر بين سكان وذرف.

2- مدينة المطوية:

مدينة المطوية هي التي تقع في المنطقة الشمالية الغربية من قابس واشتهرت المطوية بعينها التي سميت بها والذاكرة الشعبية تتحدث عن سبب تسميتها بالمطوية إذ يعتقد البعض من سكانها أن هذه التسمية ترجع إلى أنها مأخوذة من الطي والانطواء لأن ماء العين ينطوي على نفسه أي ينثني ويدور حول نفسه. لكن هناك من يقول بأن هناك قافلة قد مرت بالقرية وكانت لها ناقة عطشى فلما رأت الماء هرعت إلى العين فغرقت بها أي انطوي عليها الماء فسميت الناقة بالمطوية لأن العين قد طوت على الناقة.

وفي الواقع أن أسباب التسميات وخصوصا تسميات المدن غير مضبوطة فكل راو أو ناقل يفسر الوضعية كما يتخيّلها ومهما كانت الأسباب فعين المطوية كانت تسقي سكانها وتسقي غاباتها وحسب ما يذكر الأستاذ مَحمد المرزوقي في كتابه "قابس جنة الدنيا" صفحة 9 (أن عمرانها غير معروف إلا أن اقدم الرسوم التي عثر عليها لدى السكان يرجع تاريخه إلى القرن الخامس الهجري ويقول أهل البلد أنه أثناء هذا القرن أو الذي قبله مرت قافلة بالمكان فأعجبها موقعه فنزلت به وعمرته)

ومن غرائب الصدف أن الرحالة التيجاني في بداية القرن الثامن لم يذكر المطوية وقد مرّ بوذرف قاصدا قابس فهل مرّ بطريق آخر ولم يمرّ بالمطوية أو هل مرّ منها ولم يذكرها لا أدري؟ مع أن غابتها جميلة وكثيفة وهي بين البحر شرقا والسهول الزراعية غربا ووذرف شمالا وبوشمة وقابس جنوبا. كما أن عينها المشهورة بها تقع على الطريق.

والبلدة من حيث توزيع السكان تنقسم إلى منطقتين

1- الماية من الناحية الجنوبية الشرقية

2- المطوية (البلد) من الناحية الشمالية الغربية وأغلب السكان يرجعون إلى سيدي مبارك الذي يقع بين المطوية والعوينات وسكان الماية يرجعون في الغالب إلى الايحايحة(أولاد يحي) الزكاكرة (زكري) الحنانشة(حناشي) العيايدة(عيادي) الفقايرة(الفقيري) ودار ابن طاهر وهم من سيدي مهذّب أما سكان المطوية (البلد) فهم الأحادين ومنهم حودة والشوامخ وحتيرة (الحتايرة) ودار رمضان(الرّماضين) ودار الشيخ محمود ودار شام(الشمامّة) ودار رجب والبكاكشة والروابح(دار رابح) وهما دار علي ودار عبد الكريم والدحامنة(دار دحمان ودار البحري ودار رمضان) والمراشدة ومنهم الحوامد والعتايقة والبنينات ومنهم أولاد بو سعادة والوهامنة والشرفاء ومنهم أولاد عبد الرحيم، أولاد عبد القادر، أولاد مبارك وأولاد منصور.

أبناء المطوية في تونس:

اختصت المطوية بوجود جالية كبيرة من سكانها انتقلت إلى العاصمة للاستقرار والعمل بها لكن دون الانقطاع عن البلد الأم فالمطاوى رغم امتلاكهم مساكن في تونس واستقرارهم بها بصفة رسمية إلا أنهم لم ينقطعوا عن بلدهم الأصلي المطوية فحتى الحركة الوطنية التي يقوم بها أبناء المطوية في قريتهم هي مرتبطة بالحركة التي تكونت وترعرعت في

تونس عن طريق المطاوى فشعبة المطوية كانت تنسق عملها مع "شعبة ترنجة" في تونس منذ تكوين الحزب الحر الدستوري القديم وأول شعبة بهذا الحزب تكونت في ترنجة سنة 1922 أي بعد تكوين الحزب بعامين وشارك مواطنو المطوية في مظاهرة 25 نوفمبر 1925 عندما وضعت فرنسا تمثال "لافيجري" بباب البحر بتونس، كما تضامنت مع المسجونين المطاوى ودافعت عنهم وساعدت عائلاتهم بكل ما تملك رغم أن الحزب القديم لم يحرك ساكنا ولم يدافع عنهم الأمر الذي أدى بهم إلى الانخراط في الحزب الحر الدستوري الجديد بعد تكوينه وتبدلت أعضاء الشعبة لأنهم لم يكونوا موافقين على طريقة الحزب القديم المسالمة وحضرت شعبة ترنجة مؤتمر2 مارس 1934 وقامت بحراسة المظاهرة التي حدثت في 29 سبتمبر 1935 بـــ 100 شاب من المطاوى احتجاجا على المقيم العام الذي كان قد وعد بإطلاق سراح المسجونين بمناسبة عيد الإضحى فأوقف 83 شابا من المطاوى كما أخفى المطاوى الرئيس بورقيبة بمنازلهم إلى أن وقع إلغاء تتبعه بتدخل من سفارة بريطانيا بتونس وساند المطاوى القضية الفلسطينية وشاركوا بـــ48 شابا والتحقوا بفلسطين كما تبرع أهالي المطوية بكل ما لديهم لإعانة إخوانهم.

وقد تميزت المطوية بتتبع كل التيارات السياسية التي تكونت في تونس فقد تكون بها الحزب الحر الدستوري القديم والحزب الحر الدستوري الجديد والحزب الشيوعي في كل من المطوية البلد وفي تونس حيث وجد المطاوى.

وقد شارك المطاوى في الثورة الكبرى وجمعوا المساعدات والسلاح لإخوانهم المجاهدين كما شاركوا في بناء الدولة التونسية وانضموا إلى عهد التجديد بكل تلقائية والبعض من إطارات المطوية قائمين بمهام هامة في الدولة وشاركوا ابن علي في بناء مجد تونس كما وصلت إطاراتهم منذ عهد الحماية إلى وظائف اجتماعية هامة فقد كان المرحوم علي جراد كاتبا عاما للحزب الشيوعي وكذلك بلقاسم القناوي كاتبا عاما لجامعة العملة التونسيين والكيلاني الشريف كاهية كاتب عام للشهيد فرحات حشاد.

توجد بالمطوية عدة مدارس ابتدائية ومدرستان إعداديتان ومعهد ثانوي تشترك فيه المطوية ووذرف وقد ذكرنا ذلك عندما تحدثنا عن وذرف.

ملاحظة : أخذت البعض من هذه المعلومات عن المطوية من الدراسة التي قام بها الأستاذ عبد الحميد بن حسن حول مساهمة أبناء المطوية في الحركة الوطنية التي نشرت في مجلة البحوث التاريخية والجغرافية بقابس من صفحة 44 إلى صفحة 48 بتاريخ شهر فيفري 1987.

21- العوينات:

العوينات هي عبارة عن واحة نخل تقع شمال قابس على الطريق الرئيسية رقم واحد المؤدية إلى تونس ويقع في شرقها البحر ولا يفصلها عنه سوى سبخة متسعة وفي شمالها الغربي تقع الثكنة العسكرية التي كانت أرضها قد اشتراها المعمر الفرنسي قالية القاطن بقابس لما علم بالدراسة التي تتعلق ببحر الصحراء والتي قام بها المهندسون الفرنسيون وقد تحدثنا عنها عند حديثنا عن بحر الصحراء في الفصل الثاني من الباب الأول. وبالعوينات عيون جارية أهمها

عين الزيتونة" أو "بئر الزيتونة". وقد عبّر عنها ابن خرداذبة(29) فقال: "إنها على مسافه 13 ميلا من قابس وسماها ببئرالزيتونة"

وقال عنها اليعقوبي: "إنها عين الزيتونة(30) وقال أنها غير آهلة"

وقال البكري في المسالك: "عين جارية على بحر ميت عليها مرصد لجابي إفريقيا"

هذه العوينات القديمة أما العوينات الآن فهي محطة من محطات القطار قبل أن يصل إلى أطراف المطوية. لقد بنيت بها قرية في عهد الاستقلال بدأت بمساكن شعبية ثم توسعت كما تمركزت فيها فرقة الأمن الوطني بقابس.

22- مدينة الحامة:

تقع مدينة الحامة في غرب قابس بين مطماطة وقبلي وتسمى "في السابق بحمة مطماطة لتفريقها عن "حمة " البهاليل حامة الجريد وهي معروفة ومتواجدة منذ العهد البربري إذ أن انتسابها إلى قبيلة مطماطة البربرية يدل على ذلك لأن مطماطة قبيلة بربرية صبغتها العربية خصوصا منذ دخول بني هلال إلى المنطقة.

والواقع أن الشك في عدم رجوع المنطقة إلى العهد البربري ليس ثابتا هذا وأن رجوعها للعهد الروماني واضح من تسميتها الرومانية "AQUAE TACAPI TANAE" لكن لم يبق للرومان ذكر لا من حيث تواجد الرومان بالمنطقة ولا من حيث الآثار التي خلفوها بالحامة سوى التسمية الرومانية.

يقول ابن خلدون: " إن قبائل من توجن- توجان- وبني ورتاجن الزناتيين كانوا بالحامة"

ويقول أيضا: وهم الذين(31) اختطوها "أي البربر" ويقول التيجاني عن المدينة العربية "أنها مدينة(32) حاضرة تحف بها غابة نخل تحمل حملة وجميع مياه هذه البلدة شروبة وهي في غاية السخانة ولسخانة مائها سميت حمة ".

ثم يقول: "وكان عليها سور مرتفع وقد رأيت مواضع منه قد تهدمت ولم يشتغل أهلها برمها فسألتهم عن ذلك فقالوا نحن لا نعتمد على سور وإنما سورنا سيوفنا".

وهذا في الواقع ادعاء واقع لأن شجاعة أهل الحامة يضرب بها المثل فهم ينتمون في الغالب إلى بني هلال فهم من ذياب من قبائل سليم ابن منصور وهم أبناء عم للحمارنة وقد ذكرنا ذلك عند حديثنا عن أصل الحمارنة بمارث. أما المكان الذي وجدت فيه الحامة القديمة فهو نفس المكان الذي توجد فيه الآن إذ بنيت على أنقاض المدينة القديمة المدينة الحديثة مع توسع كبير. كان سكان الحامة القدماء أي البربر يسكنون الأخصاص داخل الغابات وفي الفترة الفنيقية والرومانية ليس من شك في أنهم كانوا يسكنون المدينة المبنية بالحجارة لكن مع الأسف لم يبق

(29) انظر كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة صفحة 86

(30) انظر كتاب البلدان صفحة 105

(31) انظر كتاب ابن خلدون الجزء الأول صفحة 645

(32) انظر كتاب رحلة التيجاني لأبي محمد احمد ابن محمد التيجاني صفحة 134

لها أثر الآن مثل منطقة المدينة بقابس ولو أن الأخبار التي وردت علينا من طرف الكتاب والمؤرخين غير مدققة إذ سجل التاريخ الفنيقي عن طريق مؤرخين رومان وهم الذين تصارعوا معهم في الحروب البونيقية فهي أخبار إذن غير مدققة كما أن أخبار الرومان(33) والبيزنطيين أيضا في هذه الربوع غير واضحة تماما ولم تعرف إفريقيا ولم تذكر في بحوث واضحة إلا في العهد الإسلامي العربي بعد الفتوحات ولما جاء العرب عن طريق قبيلة بني صهبة في القرن الثالث والرابع هجري وجدوا البربر وسط الغابات وانصهروا معهم وبنوا المدينة العربية الإسلامية وكانت مسورة فعظم شأنها وكانت تابعة لقابس مرة وتابعة للدولة المركزية مرة أخرى وتستقل أحيانا عن الحكم المركزي أثناء ضعف الدولة كما سنرى وكانت لها قصبة داخل السور وهي سكنى الوالي.

يقول التيجاني في القرن الثامن عن الحامة: "وبهذه القصبة(34) قناة ماء يتسرب إليها من خارجها في غاية القوة وقد بني عليها بيت على شكل حمام جاء في نهاية الظرف والحسن" ثم يقول : "وبالبلدة جامع حسن ظاهر البركة والخير"

كما أن للحامة خندق يدور بجميع جهاتها وقد ذكره ابن أبي دينار في المؤنس صفحة 196 كما يذكر المؤرخون بأن البحر في العصور القديمة كان يصل إلى الحامة عن طريق بحيرة تريتونوس وخليج سيرتة الصغير وكان يصل إلى شط الفجيج ومن هنا يقع الربط بين فكرة أحداث بحر الصحراء التي جاء بها القطبان روديار سنة 1873 وهذا التصور الجغرافي لموقع الحامة هو الذي يجعل من منطقة الحامة امتدادا لهذا المشروع الذي تحدثنا عنه في الفصل الثالث من الباب الأول.

حمامات الحامة:

امتازت الحامة بحماماتها الساخنة منذ قديم الزمان ويزورها المستحمون في الماضي والحاضر لأن مياهها المعدنية يعتقد بأنها تشفي من البرد والأمراض الجلدية ويأتيها من خارج الوطن زوار من ليبيا والجزائر وكذلك من الولايات التونسية. وبالحامة حمامات عصرية الآن واشهرها حمام السوري للرجال والنساء وهو تابع للبلدية وحمام سيدي عبد القادر وكذلك وجدت حمامات خاصة داخل المدينة وفي أطرافها في السنوات الأخيرة. وبالرغم من كثرة حفر الآبار الخاصة داخل المنازل فان المنطقة لازالت ثرية بالماء ولا تنقص كميته نسبيا إلا في فصل الصّيف وهذا راجع إلى المائدة التي تؤثر عليها قلة الأمطار. وتفكر الدولة في القيام بمركز استشفائي على غرار ما هو موجود في قربص بالدخلة وجبال الوسط بزغوان وحمام بورقيبة بقرية بورقيبة بعين دراهم وهو مشروع هام سوف يساهم في تطوير البلاد ويجعلها قبلة للزائرين أكثر.

وبخارج الحامة توجد آبار ساخنة جدا تصل درجة الحرارة بها إلى 70 درجة ويستغل الفلاحون ماء الآبار والعيون لسقي غاباتهم وقد تطورت فلاحتهم بإدخال الطرق العصرية في

---

(33) L'ANTIQUETE LES BENI YAZID ET L'OASIS d'ELHAMA REVUE TUNISIENNE)

(34) انظر رحلة التيجاني لأبي محمد احمد ابن محمد التيجاني صفحة 134

استغلال هذه المياه وذلك عن طريق البيوت المكيفة، وبذلك أحدثوا فصلا خامسا للإنتاج الفلاحي وزودوا السوق الداخلية والخارجية بإنتاجهم المميز. لقد اشتهرت الحامة بالفروسية وأن اهتمامهم بتربية الخيول يشبه اهتمام أبناء عمومتهم الحمارنة فهما المنطقتان بقابس المشهورتان بهذه الصفة فتراهم يشاركون في المناسبات الوطنية وغيرها في المبارزة والسباقات.

استقلال الحامة بالسلطة:

إعتداد أهالي بني يزيد بالحامة بأنفسهم، جعلهم يستقلون بالحكم أحيانا خصوصا عندما يشعرون بضعف الدولة المركزية مثلما فعل بنو جامع وبنو مكي في قابس، لكن السلطة دائما تكون لهم بالمرصاد ففي عهد حمودة باشا المرادي 1045 هجري أي في بداية القرن الحادي عشر هجري ثار أهالي الحامة على الحكم وتمردوا واستقلوا بالسلطة لمدة سبع سنوات، لكن قوات الجيش الحكومي هاجمتهم بجيش كبير وقضت على الثورة.

يقول صاحب كتاب المؤنس ما يلي:

"ونصب عليها(35) المدافع وقطع نخلها حتى فتحها فقتل رجالها وسبى نساءها ونهب أموالها..."وقد حاولت الحامة الاستقلال مرة أخرى عن الحكم المركزي والجهوي في أواخر القرن الثاني عشر وذلك عندما دب خلاف بين ابني حمودة باشا(محمد وعلي) ولما تغلب محمد على أخيه علي هاجم الحامة وقضى على الثورة وقد تناول هذا الموضوع صاحب كتاب التاريخ الباشي صفحة 262-263 وقد ذكر ذلك الأستاذ مَحمد المرزوقي في كتابه "قابس جنة الدنيا".

وفي الواقع أن محاولة الاستقلال بالسلطة في منطقة الحامة ليس بغريب في تاريخهم فهم الموصوفون بالشجاعة والقوة والأنفة وبحب الاستقلال فقد ساندوا غومة المحمودي الثائر على دولته في طرابلس واللاجئ إلى قبيلة الحاميد من أبناء عمومته بقبلي وذلك سنة 1273هـ، كما أنهم حاولوا إعلان العصيان في عهد الحفصيين عن طريق جماعة من قبيلة "وشاح" العربية وتواصلت هذه الروح الاستقلالية والمناصرة لكل داع لهم بالحماية. ففي سنة 1914 شارك أهالي الحامة في الانقلاب الذي كاد أن يعصف بالسلطة الفرنسية بتونس لولا الخيانات والوشايات التي قام بها بعضهم فقضي على هذا الانقلاب في المهد وألقي القبض على الجماعة ووقع الانتقام منهم فتواصلت هذه الروح الثورية فبرز المجاهد "محمد الدغباجي" الذي فر من الجندية الفرنسية وشارك في الكفاح على الحدود التونسية الليبية، كما شارك إخوانه الليبيين في الكفاح ضد الاستعمار الإيطالي، إلا أنه قبض عليه بالحيلة من طرف الإيطالين بليبيا وسلم للسلطة الفرنسية بتونس، وأعدم في بلدة الحامة في سوق البلدة وأمام الناس وذلك في 1923. وبرز بعده المكافح النقابي "محمد علي الحامي" الذي برز بعد تشبعه بالعلم في ألمانيا وبالأفكار النقابية التي أراد أن يثبتها في بلاده لكن صدمته المعارضة الفرنسية وتوفي في المنفى كما برز الثائر الاجتماعي "الطاهر الحداد" بأفكاره الاجتماعية التحريرية في العهود البائدة وبرز بالخصوص في النهوض بالمرأة وبضرورة تعليمها لتحرير النصف الثاني من المجتمع.

(35) انظر كتاب المؤنس صفحة 197

وقد ثار عليه هو الآخر أصحاب الأفكار الرجعية فحكم عليه بالكفر والزندقة ومات وبقيت أفكاره حية منارا للحركة الوطنية فيما بعد.

كما برز فيما بعد المناضل الأستاذ "جلولي فارس" في حركة الحزب الحر الدستوري الجديد وشارك مع الزعماء في الكفاح الوطني بجميع مراحله وكان له شرف تولي رئاسة المجلس التأسيسي لتكوين الدستور الجديد لتونس المستقلة كما كان له شرف تولي إدارة المعارف "وزارة التربية" وهو أول وزير تونسي يتولى هذه الخطة، وبعد رجوعه إلى بلده الحامة كان مصباحا يضيء على البلدة باعتباره رئيسا لبلديتها لعدة دورات كما كان رئيسا لقائمة قابس الانتخابية لسنوات طويلة وهو الآن يقيم بمنزله نتمنى له الشفاء وطول العمر.

مشاركة أهالي الحامة في الثورة الكبرى:

لقد قام أهالي الحامة بدور كبير في الثورة الكبرى التي قامت في تونس سنة 1952 ضد الاستعمار الفرنسي وكانت أول طلقة نارية انطلقت بتونس كانت من الحامة من جماعة المجاهد المرحوم الطاهر لسود قائدها ثم برز المناضل القائد "الساسي لسود" بمجموعته وتواصل الكفاح مع بقية المجاهدين والمناضلين والزعماء إلى الحصول على الاستقلال ويشارك أهالي الحامة الآن في حركة بناء الدولة وتركيزها وتثبيت أركانها وتطوير إقتصادها والدفع بها إلى الأمام وقد ساعدهم في ذلك تطور بناء المدارس الابتدائية والثانوية فبلغ عدد المعاهد في المنطقة الآن 7 مدارس إعدادية وثانوية ومدرسة مهنية وتطورت الثقافة وأصبحت مكتبة الحامة تعج بالمطالعين والدارسين، كما أصبح دور أهالي الحامة في تسيير البلاد دورا هاما لتواجد إطاراتها منذ عهود قديمة بتونس العاصمة، فهناك أحياء سكنية بتونس تسمى باسمهم لذا فانهم قد ساهموا سواء كانوا في بلدهم الحامة أو بتونس العاصمة(مثلما فعل أهالي المطوية) في الثورات والمظاهرات والاجتماعات الحماسية ولقد اشتهر من أهالي الحامة العديد من المناضلين والوطنيين والشهداء بنيت في مدينتهم الحامة أضرحة خاصة بهم ترمز إلى كفاحهم وجهادهم الوطني.

القبائل المتفرعة عن عروش الحامة:

لقد ذكرنا وأن لبني يزيد أربعة أفخاذ من دباب وهم صهبة والحمارنة والخرجة والأصابعة فهم إذن أبناء عم للحمارنة كما ذكرنا ذلك ويشبهونهم في تعاطي الفروسية وفي الشجاعة والكرم وإعانة المحتمي بهم واللاجئ إليهم وهي تربية عربية أصيلة ويتركزون في تجمعات سكنية متقاربة.

1- سكان الدبدابة(وتعني الدبدابة الأرض الصلبة)

2- سكان القصر

3- زاوية الحاجبة وهي تقع جنوب الحامة داخل الواحة ويرجعون إلى سيدي علي المحجوب أصيل المهدية وقصور الساف وهم أصحاب دين وتقوى وليسوا بقدماء لسكان الحامة

4- الصنباط وهي تقع غرب الحامة طريق قبلي ويرجع إليها عرش الحوازم والحرائزة.

ويسكن بالحامة عامة خمسة عشر عرشا(36) متفرعة إلى 54 فصيلة معدل النمو بها يتراوح بين 1.44 سنة 1956 وهي سنة الاستقلال وبين 4.58 سنة 1984 فهي نسبة عالية من النمو لا تتماشى مع الإمكانيات الاقتصادية بالمنطقة ولقد سعت الحكومة للحد من هذا النمو بواسطة التنظيم العائلي الذي نجح نجاحا كبيرا في تونس الجديدة.

ويتفرع سكان الحامة إلى عدة فروع فبالإضافة إلى الحوازم والحرائزة المتواجدين في الصنباط فهناك الشعل والخرجة والأصابعة والشواشين والزمازمة والغياليف والحمامين والشلاخشة ومنهم أولاد عمر وأولاد غريب وأولاد خليفة ومنهم الرّتيمات والمزارعية والودارنة والرحاحلة ومطمط وفطناسة ومنهم أولاد ضو والحرشان والحداية وأولاد بن خود إلى غير ذلك...

ويتوزع هؤلاء على مناطق الحامة المختلفة من القصر والدبدابة وبشيمة وبن غيلوف وبوعطوش والمرطبه والفجيج والسقي وبوقرفة وجبل طباقة وغيرها...

منطقة مطماطة:

مطماطة الأصليّة هي مطماطة الأم الواقعة على هضاب مطماطة العالية التي يبلغ ارتفاعها 700م عن سطح البحر وهي غرب قرية المدو والموازير وقابس. لقد قسمت في عهد الاستقلال أي منذ سنة 1960 إلى منطقتين مطماطة الأم أو القديمة ومطماطة الجديدة والتي سنتحدث عنهما كل على حدة وقبل أن نتحدث عنهما جدير بنا أن نتحدث عن الأسباب التي أدت إلى إحداث تجمع سكني ثان سمي بمطماطة الجديدة.

نظرا لصعوبة المسالك في مطماطة وإن الاتصال بالتجمعات المتواجدة حولها تشين- تمزرط، صعب كما أن توفير المرافق بجميع أنواعها غير ممكن من توفير مياه صالحة للشراب وتوزيع شبكة كهربائية وهاتف وإيجاد مستشفى يؤمه الجميع ومعاهد ثانوية وإعدادية ومراكز ثقافية واجتماعية واقتصادية.

لذا فكرت الحكومة في تجميع السكان في تجمع سكني منبسط حتى يسهل عليها إنجاز كل هذه المرافق الضرورية خصوصا وأن البعض من سكان مطماطة منزوين في مناطق منعزلة وبالأخص السكان القدماء وهم البربر الذين لا يزالون يتحدثون بلهجتهم الخاصة فحتى الأطفال الصغار لا يتمكنون من التكلم بالعربية إلا بعد دخولهم المدرسة الابتدائية.

لقد نجحت الفكرة نوعا ما لكن مع الأسف أن السكان الذين نزلوا من مطماطة لم يتجمع أغلبهم في التجمع الجديد (مطماطة الجديدة) إنما سكنوا مناطق مزروعاتهم وأملاكهم القديمة حول مطماطة الجديدة لقد سكن:

1- سكان زراوة القديمة بجانب مطماطة الجديدة وكونوا زراوة الجديدة على حدود الحامة

2- سكان بني عيسى كونوا بني عيسى الجديدة

(36) حسب أندري مارتال ANDRE MARTEL Les Confins Saharo Tripolitaine

3- سكان تشين كونوا هداج(اللفام) وكانوا يسكنون منطقة حافي رأسه والسماعلة والزريبة
4- المطماطيين استقروا في مطماطة الجديدة
معنى ذلك أن تجمع السكان في مكان واحد لم ينجح تماما لكن نجح في مسألة واحدة وهو نزول أغلبية السكان من المناطق الوعرة الكثيرة الجبال إلى مناطق السهول.

مطماطة الأصلية:

مطماطة الأصلية هي مطماطة الأم التي استقر بها البربر منذ عهود قديمة وقد تحدثنا عن ذلك عندما تحدثنا عن السكان الأصليين بقابس، وكذلك عند حديثنا عن الأطوار التاريخية التي مرت بقابس.

لقد سكن البربر في البداية بـ "القصور العالية" على قمم الجبال المبنية بالحجارة المرتبطة ببعضها دون استعمال الجبس، ثم استعمل الجبس وذلك حتى تتماسك هذه القصور، وفي الواقع أن هذه السكنى ليست مستعملة على طول السنة إنما يسكنها البربر في الأوقات التي ليست فيها فلاحة ولا جني الزيتون والكروم لأنهم أثناء هذه الفصول يتركون قصورهم ويسكنون الوديان حيث توجد فلاحتهم.

ومنطقة مطماطة تضم عمادات.

1-مطماطة

2- تمزرط

3- تشين

ويتبع منطقة تمزرط منطقة توجوت، وتقع تشين في منطقة حافي رأسه والسماعلة والزريبة كما تتبع منطقة القصور منطقة مطماطة وهم الأكثر استقرارا وهم العزازنة(عزوني) والجمنيين وهذه هي الألقاب الموجودة في مطماطة بالإضافة إلى لقب الزرقاني والأشهب...

أما المناطق التي تتكلم الشلحة أي البربرية هي مناطق تمزرط وتشين وتوجوت، وبالرغم من أن اللغة واحدة والقرابة الجنسية واحدة فتلاحظ أحيانا أنه ليس هناك تقارب كبير بين منطقتي: تمزرط وتوجوت.

وقد كثرت الهجرة من هذه المناطق في اتجاهات مختلفة إذ تكثر هجرة جماعة تمزرط إلى تونس العاصمة منذ قديم الزمان فهم يكونون جالية كبيرة بالعاصمة ويستعملون لغة الشلحة عند التكلم مع بعضهم، وبالنسبة لسكان مطماطة وتشين يهاجرون إلى مطماطة الجديدة أو إلى قابس المدينة أما توجوت فهجرتها قليلة خارج منطقتها.

لذا فإنه بصفة عامة قد نقص عدد سكان مطماطة إذ يبلغ 7.000 آلاف ساكن تقريبا في الوقت الحاضر وهم ثلاثة عمادات:

1- عمادة مطماطة

2- عمادة تشين

3- عمادة تمزرط ومعها توجوت

ومطماطة 8 مدارس ابتدائية منتشرة في كل التجمعات السكنية ومدرسة إعدادية ومعتمدية وبلدية.

سكان مطماطة مقتصدون جدا نظرا لقلة إمكانيات أراضيهم، إذ تتوقف على نزول الأمطار، ويتصفون بأنهم يعدون حاجياتهم مسبقا(يحضرون العولة سنويا) لحفظها وقت الحاجة، لذلك تراهم يعصرون زيوتهم حسب حاجتهم، ويحتفظون بمخزون من الزيتون يعصرونه عند الحاجة لذا فانك تلاحظ بأن زيت أهالي مطماطة سابقا لا يقبله كل الناس إذ يكتسب المرارة عند مذاقه كذلك علاقتهم ببعضهم محدودة، ويتزوجون في السابق من القرية للمحافظة على دم العائلة، كما اتصف السكان بظاهرة كثرة الزوي بالمنطقة، وزيارة الأولياء والاعتقاد بهم، وتقديم الولائم والنذور إليهم ويزور أهالي مطماطة عامة زاوية سيدي موسى الجمي سنويا.

ومطماطة المغارة التي سكنت فيها الكاهنة "دهيا بنت ثابت" وتسمى "بتل كويست" وقد أشرنا إلى ذلك عند هجومها على قابس، وقد تعرب اسم هذه المغارة وأصبح يسمى بـــ"دار كواست".

لقد تطورت مطماطة في السنين الأخيرة خصوصا بعد تطور التعليم "ابتدائي وثانوي" والعالي في قابس وتونس وبدأ التفتح على الخارج وعلى الزائرين لمطماطة، ظاهرا على الوجوه وعلى المعاملات بينهم وبين المواطنين سواء كانوا تونسيين أو أجانب، فتكونت النزل وهي على نوعين : النوع البربري أي نزل عن طريق الحفر "أحياش" مثل نزل مرحلة ونزل البربر ونزل سيدي إدريس، أو من النوع العصري مثل نزل كسيلة والمطماطي والمغاور...

مطماطة الجديدة:

بنيت هذه المدينة كما ذكرنا لتجميع السكان في سهل منبسط تتوفر فيه جميع الامكانيات الحديثة الضرورية من ماء وكهرباء وهاتف وصحة وتعليم، وثقافة وعلاقات مجتمعية متحضرة، وكل ما ينبئ على الحياة العصرية. لقد نجحت العملية نوعا ما كما ذكرنا رغم اتجاه السكان إلى أملاكهم القديمة بهذه المنطقة فتكونت أحياء جديدة مع مطماطة الجديدة، وكما ذكرنا أن العملية التي نجحت فيها حكومة الاستقلال هو إنزال السكان الأصليين من الجبال الوعرة إلى السهل المنبسط، وأن الهجرة من مطماطة إلى هذه التجمعات وخصوصا إلى مطماطة الجديدة ضرورة حتّمها الحياة.

لقد بني في هذه المدينة الجديدة سوق كبير تحيط به دكاكين عصرية ومطاعم ومقاهي ومجزرة تتوفر فيه كل المرافق الضرورية للإنسان، ويتوسط السوق ساحة للشهداء ومطماطة الجديدة 5 عمادات:

1- عمادة بني زلطن
2- عمادة هداج
3- عمادة مطماطة
4- عمادة زراوة
5- عمادة بني عيسى

وقد ضمّت بعض الأراضي من بني زلطن وتونين ودخيلة توجان إلى معتمدية مارث لأنها كانت في السابق وقبل الاحتلال الفرنسي تابعة لخلافة مارث ولقد تحدثنا عن ذلك عند حديثنا عن منطقة مارث وتاريخها وعن الأسباب التي جعلت فرنسا تضم هذه المنطقة إلى مطماطة لأن منطقة مطماطة كانت تابعة للمنطقة العسكرية التي كانت تسيطر عليها فرنسا بصورة مباشرة وذلك لأن طريق الوطن(طريق تطاوين) تمر من هذه المنطقة وقد كثرت به الحوادث والهجومات على السيارات العسكرية الفرنسية من قبل سكان مارث ومن عرام التابعة لها بالذات.

وأكبر تجمع سكني في مطماطة الجديدة هو تجمع هداج.

بمطماطة الجديدة معتمدية وبلدية ومدرسة إعدادية ومعهد ثانوي ومدرسة للتأهيل ومستشفى محلي ولجنة ثقافية.

أما الفلاحة على نوعين:

1- فلاحة بعلية

2- فلاحة سقوية

إذ حفرت الآبار ووزعت أراضي هنشير الأعراض على الفلاحين من سكان مطماطة(العزازنة والعشاش والجمنيين...) ويبلغ عدد السكان 17 ألف ساكن وهو في تزايد مستمر.

<u>مطماطة ملجأ للثوار:</u>

نظرا لصعوبة أراضي مطماطة إذ تكثر بها المرتفعات فانها كانت ملجأ للثوار والمجاهدين وقد كان البعض من أفرادها أعضاء في حركة المقاومة التونسية سواء كان ذلك في عهد الاحتلال الفرنسي أو الثورة الكبرى أو قبل ذلك.

لقد لجأ جماعة من ثوار قابس إلى مطماطة أثناء حدوث ما يسمى ببوارق العصيان في منطقة الأعراض ومن هؤلاء الثائر مَحمد بن محمود بالسنوسي وابنه ولقد ذكرنا بأن هؤلاء الثوار قد وقع إلقاء القبض عليهم في مطماطة واعدموا بقابس على رؤوس الملأ، كما فرّ الثوار من قابس إلى مطماطة أثناء فرض الحماية الفرنسية على تونس وعلى قابس سنة 1881 بعد لجوئهم إليها ومقاومتهم للاحتلال في قابس وشنني والمطوية ووذرف.

فلقد ألقي القبض عليهم عن طريق الضابط يوسف الليقرو (عامل قابس فيما بعد) عند حلول فصل الشتاء والبرد، كما كانت مطماطة وأهلها من المشاركين في الثورة الكبرى ومن أعوانها سواء بالسلاح أو بالإعانات المادية أو بالأشخاص فلقد ناضل بلقاسم بن الحاج سعيد والشيخ سعيد العكرمي والشيخ خليفة بن دادة الذي لم يوافق على إحداث مركز للقيادة العسكرية الفرنسية بمنطقته تونين فأحدث المركز بمطماطة.

ومن المناضلين أيضا السيد إبراهيم جحة وزائد الهداجي قائد فرقة بالمنطقة الجبلية والحاج محمد بن عياد والكيلاني بن زايد الهداجي وعلي بن خليفة وحمزة الحمزاوي وغيرهم كثير...

المهرجانات الثقافية بمطماطة الجديدة:

لقد أحدث مهرجان سنوي بمطماطة الجديدة وسمي بمهرجان المرحوم "علي الجليلي" وهو من مواطني تمزرط أي بربري ومن المقيمين بتونس العاصمة. لقد أقيم هذا المهرجان لعدة سنوات ثم أبدل اسمه وأصبح يسمى بمهرجان مطماطة، لكن تبديل هذا الاسم لم يعجب سكان تمزرط لأنه يحمل اسم علي الجليلي فكونوا مهرجانا آخر سمي بالأيام الثقافية بتمزرط، ويبدو أن هذه الأيام الثقافية قد طغت على المهرجان الأول – مهرجان مطماطة- وتبعتها في ذلك منطقة زراوة فقررت إحداث مهرجان آخر يخص منطقتهم، وأني أرجو أن لا تكون هذه الأنشطة الثقافية والمهرجانات على حساب وحدة السكان، لأنه مع الأسف هناك من يعتقد بأن السكان البربر هم يختلفون عن السكان العرب المقيمين بمطماطة، مع أن هذا الاشكال قد حل وخصوصا في تونس إذ أصبح السكان المستقرون بتونس يمثلون وحدة جنسية وثقافية واجتماعية فالسكان القدماء في شمال إفريقيا هم البربر وهم ساميون قدموا من اليمن في عهود قديمة(3000قم) وهم أخوة للعرب الساميين القادمين من الجزيرة العربية أيضا.

أما المهرجان التقليدي والمتعارف في مطماطة والمعروف بمهرجان سيدي قناو والمعروف سابقا بخرجة سيدي قناو فيحضره الآن سكان مطماطة كلها مثل مهرجان سيدي موسى بمطماطة الأم.

ومهرجان سيدي قناو يقام سنويا ويؤمه سكان مطماطة كما ذكرنا كما يؤمه سكان قابس من عائلة دار بالشيخ أو دار عبدالجوّاد الذين يرجعون في الأصل إلى هذه المنطقة، وقد تطور هذا المهرجان وأصبح ثقافيا بتأثير وزارة الشؤون الثقافية، بعد أن كان يسمى أو يوصف بالمهرجان التقليدي.

في هذا المهرجان ظاهرة تقدمية جدا بالنسبة لحياة تونس الاجتماعية، إذ يحتفل في يوم من أيام المهرجان بيوم "الخطوبة" أي يأتي الزوار العزّاب من مطماطة ومن خارجها أصيلي مطماطة، ويجلسون على ربوة مرتفعة نسبيا وتأتي الفتاة فتلقي منديلا على الخطيب الذي ترغب فيه، وهي حقيقة ظاهرة غريبة وتقدّمية لأن الزواج في الإسلام لا يكون إلا بالرّغبة والقبول، وبالطبع فان الاتصال غير المباشر يتم قبل هذا الاحتفال، وربما كانت مزاحمة الرّجال على الخطيبة الواحدة هي الدافع لهذا الاختيار من طرف الفتيات. أما الموافقة الرسميّة من طرف الفتاة فلا تكون إلا في هذا اليوم وعلى رؤوس الملأ.

هذه هي مطماطة الأم ومطماطة الجديدة، وهما في تطور مستمر، وفي حركية دائمة خصوصا وقد تطور التعليم وأصبح عاما لجميع سكان تونس فتيان وفتيات كما تطورت الحياة الاقتصادية نسبيا سواء من الناحية الفلاحية أو السياحية(37) وسوف تتطور أكثر عندما يتم إعداد المطار الجديد الذي يقع بين الحامة ومطماطة وهو في أرض مطماطة، كذلك الخط البري

---

(37) مصدر هذه المعلومات مأخوذة من المعتمديتين مطماطة ومطماطة الجديدة ولجنة التنسيق بقابس ومن الأستاذ إبراهيم دادي متفقد المصالح الإدارية والمالية بقابس وأستاذ تاريخ.

رقم 20 الذي يربط منطقة دوز(بولاية قبلي) بمنطقة مدنين مرورا بمطماطة وقد تم إنجاز القسط الأول من الطريق الذي يربط دوز بتوجان، وقريبا يشرع في القسط الثاني الذي يربط توجان بمنطقة أم التمر التابعة لولاية مدنين، وبذلك يتمكن السواح خصوصا من القيام برحلات سياحية من جربة إلى دوز عن طريق أم التمر وتوجان ومطماطة القديمة، وقد قدرت تكاليف القسط الثاني هذا بـ 18 مليار، وهو عمل جبار سوف يساهم في تقدم مناطق الجنوب الغربي ويربطه بالجنوب الشرقي عن طريق البر .

صورة من مساكن مطماطة البربريّة

الباب السابع

الفصل الأول

(بعض العادات الطيبة في قابس)

ما يعرف بالقرة أو السفر أو الكرسي:

من العادات والسنن الطيبة التي كانت مرتكزة في قابس منذ القديم عادة ما يسمى بالقرة والسفر والكرسي.

ا- القرة:

هي عبارة عن قراءة وتلاوة القرآن من طرف عشرة أفراد يوميا بين صلاة العصر وصلاة المغرب كل فرد يقرأ ستة أحزاب تقريبا أي ثلاثة أسفار وبين صلاة المغرب والعشاء تقع تلاوته بصورة جماعية، وبذلك يختم القرآن يوميا مرتين بجامع سيدي إدريس "بالبلد". ومن المقرئين القدماء حسب ما يذكره المرحوم الحاج محمود النوري الجرادي وجمع من أيمة سيدي إدريس ومن بعض من شاركوا في هذه القراءات ومنهم الحاج الصحي بن عبد الله بالثابت. هم المرحوم رجب بالسنوسي بالثابت والمرحوم السنوسي بالرجب بالثابت والمرحوم الطيب بالشيخ ابن عبد الجواد والمرحوم إبراهيم بن الشيخ بن عبد الجواد والمرحوم المفتي صالح بن جراد والمرحوم العدل الحاج الجمي بن جراد وابنه المرحوم علي بالحاج الجمي بن جراد والمرحوم العدل محمد بن الحاج محمود بالحاج الجمي بن جراد والمرحوم الشيخ محمد الصالح المؤدب إمام جامع سيدي إدريس والمرحوم الحاج الحسين المغربي والمرحوم الحاج احمد بن الحاج الحسين المغربي. وانضم إليهم فيما بعد المرحوم الحاج ابشير بن محمد الصالح المؤدب إمام الجمعة بسيدي إدريس وكذلك المرحوم المؤدب الشيخ صالح بن بلقاسم بالثابت والمرحوم الحاج الحبيب المؤدب والحاج الصحي بن عبد الله بن رجب بالسنوسي بالثابت الذي حفظ القرآن أيضا عن طريق القرة والمرحوم المهدي بن الشيخ ابن عبد الجواد والمرحوم الصغير بن عبد الجواد والمرحوم عبد الرحمان بن رحومة التلمودي والمرحوم محمد العربي العبيدي. وآخر قائمة شاركت في قراءة القرّة قبل حل الأحباس في سنة 1957 هم السادة:

1- المؤدب المرحوم صالح بن بلقاسم بالثابت
2- المؤدب المرحوم عبد السلام بن بلقاسم بالثابت(شهر بلقب الكمع)
3- المرحوم الحاج الحبيب المؤدب
4- الشيخ مصطفى الشابي
5- المرحوم عبد العزيز المؤدب التلمودي
6- محمد الطاهر بن الساسي الباردي
7- المرحوم الطاهر عبود
8- المرحوم المختار بن فلاح

9- المرحوم صالح بن رجب

10- الشاب سالم الأمين وهو أصغر المقرئين

ب- ما يعرف بالسفر:

المقصود بالسفر هو قراء سفر من القرآن الكريم يوميا (حزبان) لأن السفر يحتوي على حزبين في جامع من جوامع "البلد" بحارة الدخلانية، ومن هذه الجوامع جامع سيدي إدريس وجامع سيدي بوقزاحة. ومن المقرئين للسفر بسيدي إدريس هم المرحوم الحاج الحسين المغربي ثم ابنه المرحوم احمد بن الحاج الحسين المغربي ثم ورثها ابنه الهادي بالحاج أحمد المغربي، ثم نقلت إلى المرحوم المؤدب صالح بن بلقاسم بالثابت، ثم إلى المرحوم عبد السلام بن بلقاسم بالثابت، ومن المقرئين أيضا المرحوم صالح بن رجب بالثابت ومحمد بالصالح بن مختار بن فلاح. والذي كان يقرأ السفر في سيدي بوقزاحة بسوق "البلد" هو المرحوم رجب بالسنوسي بالثابت.

قراءة الكرسي:

من السنن والتقاليد القديمة أيضا هو تلاوة ما تيسر من القرآن قبل صلاة وخطبتي الجمعة من طرف أحد المقرئين لذا فانك تجد منبرا صغيرا في أغلب المساجد يجلس عليه المقرئ لتلاوة القرآن وقد سمي هذا المقرئ الذي يجلس على الكرسي أي جالس الكرسي بالكرسي ويقع خلاص هذا المقرئ كغيره من المقرئين سواء كان في جماعة القرة أو في جماعة السفر من الاحباس المحبسة لهذا الغرض.

أما الأملاك المحبسة على هذه القراءات القرآنية المختلفة من قرة وسفر وكرسي فهي :

1- جنان الزغباني من غابات "البلد" بالقاطون

2- غابة قنطرة ابن فلاح (الزماط) قرب المنقع أي الصباخ

3- غابة الجامع بساقية الرمل قرب سيدي الحربي ودار باتيتة

4- رقعة سيدي الحربي مكتراة من دار قبيبيع وتسمى برقعة الجامع

5- حبل بغابة قدور يسقى من ساقية الوسلاتي المتفرعة من ساقية قدور

6- جنان المكي بالمنزل محبسة على قراءة السفر بسيدي إدريس فهي قرب شط بوعبدالله

7- رقعة السفر قرب جنان شويرف كان يستغلها المقرئ المرحوم رجب بالسنوسي ثم الحاج الصحي بن عبد الله بالثابت حفيده

8- جنان يوسف المعروف بالبستان

9- جنان العبابسة قرب قنطرة الخشاينة وكان قد اشتراها المعمر الفرنسي بورو وعمل بها الفلاح المرحوم صالح ونان ومن المؤكد أنها قد اشتريت من طرف المعمر بتدخل من السلطة الفرنسية بقابس ليستغلها المعمر أو تكونت من الرمل والطمي الذي تجمّع من فياضانات واد قابس لأن مجرى الواد القديم كان وراء هذه الغابة.

10- غابة الزيرة(الجزيرة) بالمنزل التي يفتح عليها باب الزيرة الذي ذكرناه عند حديثنا عن باب الزيرة وهي محبسة على سيدي إدريس ويستغلها جماعة القرة العشرة.

11- حانوتان بسوق المنزل القديم محبسان على الكرسي أي من يتلو القرآن قبل صلاة الجمعة

في سيدي إدريس "بالبلد" كما ذكرنا ذلك.

إلى غير ذلك من الاحباس التي وقع تحبيسها على الجوامع ومنها سيدي إدريس.

الدروس الدينية في العهد المرادي:

لقد اشتهر المراديون في قابس باهتمامهم بالعمران وبالعلم والعلماء وقد ظهر ذلك في تجديدهم لضريح الصحابي أبي لبابة الأنصاري وفي بناء المدرسة المرادية وكذلك في اهتمامهم بإلقاء دروس دينية بالضريح وبالمدرسة.

أ- درس ديني بضريح الصحابي أبي لبابة:

لقد اهتم المراديون بضريح الصحابي أبي لبابة فبعد إصلاحه وترميمه(فهم أول من قام بهذا العمل الجليل إذ عينوا مؤدبا للجامع وهو المرحوم السنوسي بن محمد الحبيب دفين سيدي عبد القادر بالمنزل وشيخ الطريقة به وإمام جامع المنزل القديم. فقد كلف هذا الشيخ وهو أصيل مطماطة بهذا الدرس يوميا) يلقى بضريح سيدي أبي لبابة وبقي هذا الدرس إلى وفاته في مكانه المقرر من طرف المراديين رغم محاولة نقله إلى جامع آخر، لكن بعد وفاته انتقل هذا الدرس إلى الفرع الزيتوني بالمنزل، وقام به الشيخ عبد الكريم بن محمد وكان يدرس بالفرع وبقي إلى وفاته وقد ذكرنا ذلك عند حديثنا عن ضريح الصحابي أبي لبابة.

ب- الدروس الخاصة بالطلبة في المدرسة المرادية:

من السنن المباركة التي تركها المراديون أيضا هو اهتمامهم بالتعليم وبالدروس التي تلقى على الطلبة. فقد خصص المراديون مخصصات لعشرين طالبا وعينوا مؤدبا يتقاضى هو الآخر راتبا شهريا وهو عمل جليل حفظ لهؤلاء الأمراء.

لقد تحدثنا عن هذه المدرسة وعن الأغراض التي استغلت بها طيلة السنين الماضية من مدرسة للعلم والعلماء ومن مركز للزوار القادمين لزيارة الضريح ومن مبيت لطلبة الفرع الزيتوني بقابس ومن التجاء الناس إليها أثناء الفيضانات والحرب العالمية الثانية إلى استغلالها حاليا كمتحف للعادات والتقاليد كما كانت تقام بها خلال شهر رمضان المعظم حفلات الفرق الموسيقية التقليدية.

3- الاحتفال بالمولد النبوي بقابس:

تقام الحفلات الدينية عادة بمناسبة المولد النبوي الشريف. ليلة مولد الرسول الأعظم أي ليلة 12 ربيع الأنور من كل سنة في جميع مساجد وجوامع ولاية قابس كما يقام الاحتفال بالمولد بضريح الصحابي أبي لبابة يوم المولد أي يوم 12 ربيع الأنور. لكن هناك جوامع ومساجد وزوايا لها طريقتها الخاصة في الاحتفال بالمولد وقد ذكرنا ذلك عند حديثنا عن قرية غنوش وذكرنا أن لهم طريقتهم الخاصة في الاحتفال بالمولد إذ تبدأ الاحتفالات من أول يوم من شهر ربيع الأنور إلى 12 منه ويقع تنظيم هذه الاحتفالات في جوامع وزوي غنوش.

أما في منطقة المنزل فهناك طريقة أخرى تختلف عن طريقة غنوش نوعا ما إذ تبدأ الاحتفالات بالمولد ليلة الجمعة من دخول الشهر أي الشهر الذي ولد فيه الرسول وتبدأ بزاوية سيدي لشيرقي، ثم زاوية سيدي بو عبد الله، ثم زاوية سيدي عبد السلام، ثم زاوية سيدي ابن عيسى،

ثم زاوية سيدي بو علي وتختم الاحتفالات عادة بزاوية سيدي عبد القادر إذ يكبر الاحتفال بها ويستدعى الناس من كل أنحاء الجمهورية التونسية تقريبا. خصوصا ابتداء من سنة 1973 لما تولى مشيخة سيدي عبد القادر شيخ الطريقة الإمام الشاب الصادق الهمامي الذي طوّر هذا الاحتفال وأصبح يقبل عليه كل المواطنين خصوصا وقد كبرت الزاوية وتوسعت مساحتها ويطبخ الكسكسي مساء للمدعووين قبل الاحتفال وتلقى محاضرة دينية يلقيها الشيخ عادة ثم يختم بالقرآن وتتلى القصائد والمدائح والأذكار.

أما في منطقة جارة فيقع الاحتفال في جميع الجوامع والمساجد ليلة المولد النبوي وتلقى محاضرات دينية مع تلاوة قصة المولد النبوي الشريف وقصائد أخرى. أما في زاوية سيدي بو علي في جارة وشيخها إسماعيل بلغايب حاليا يقام فيها احتفال آخر في وسط الشهر أي شهر المولد ويقع استدعاء إطارات قابس وتلقى محاضرة دينية بالمناسبة مع تلاوة بعض القصائد والمدائح وتقدم الأكلة التقليدية في قابس عادة وهي الكسكسي للحاضرين كما هو الشأن في سيدي عبد القادر بالمنزل.

الفصل الثاني
(الزوايا والأضرحة في قابس)

تشتمل قابس على عدة زوايا وأضرحة وهي متعددة والغريب فيها هو أنها توجد في أغلب التجمعات السكنية بقابس بصفة متعددة رغم قرب المسافة بين هذه التجمعات ومن هذه الزاوايا والأضرحة.

1- زاوية سيدي عبد السلام بالمنزل:

هذه الزاوية قديمة جدا بالمنطقة وتسيّرها عائلة الفاتير (دار الفاتوري) الذين يرجعون إلى سيدي عبد السلام الأسمر "دفين زليطن" بليبيا والطريقة التي يتبعونها في هذه الزاوية تسمى بالطريقة "العروسية" نسبة إلى سيدي ابن عروس دفين تونس وهو شيخ سيدي عبد السلام الأسمر وبهذه الزاوية قبة ووقع توسيعها من طرف الحاج احمد الفاتوري شيخ الطريقة كما جددت في عهد أحمد باشا باي ابن مصطفى باشا باي(1253هـ-1271هـ) (1854م-1877م) وهو الذي زار قابس أثناء بوارق العصيان التي حدثت في قابس والتي تحدثنا عنها سابقا في الفصل الأول من الباب الخامس. والذي قام بالأشغال هو الأسطى عمر بن حسين بالطيب التونسي وهو الذي قام بإشغال وترميم سيدي بولبابة أي هو الذي بنى الأقواس الأربعة الأولى وقد كتب اسمه في هذه الأقواس.

والملاحظ أن هناك زاويتان تحملان هذا الاسم بقابس وهي الزاوية الموجودة بشاطئ **سيدي عبد السلام وكانت تدرس القرآن والزاوية الثانية هي التي توجد بشنني ودفن بها سيدي علي الفرجاني حتى أنها أصبحت تسمى باسمه.**

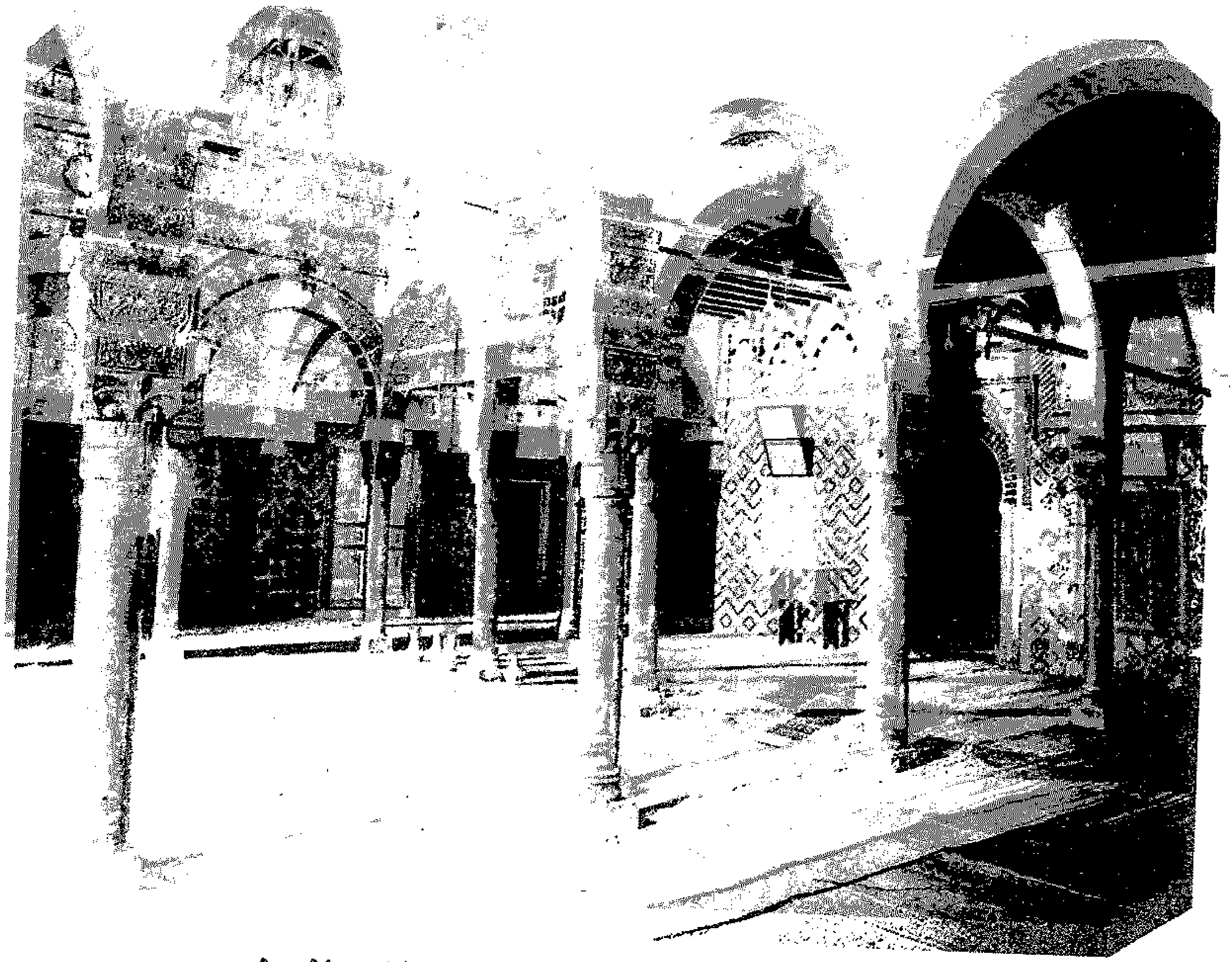

صورة لزاوية سيدي عبد السلام بالمنزل

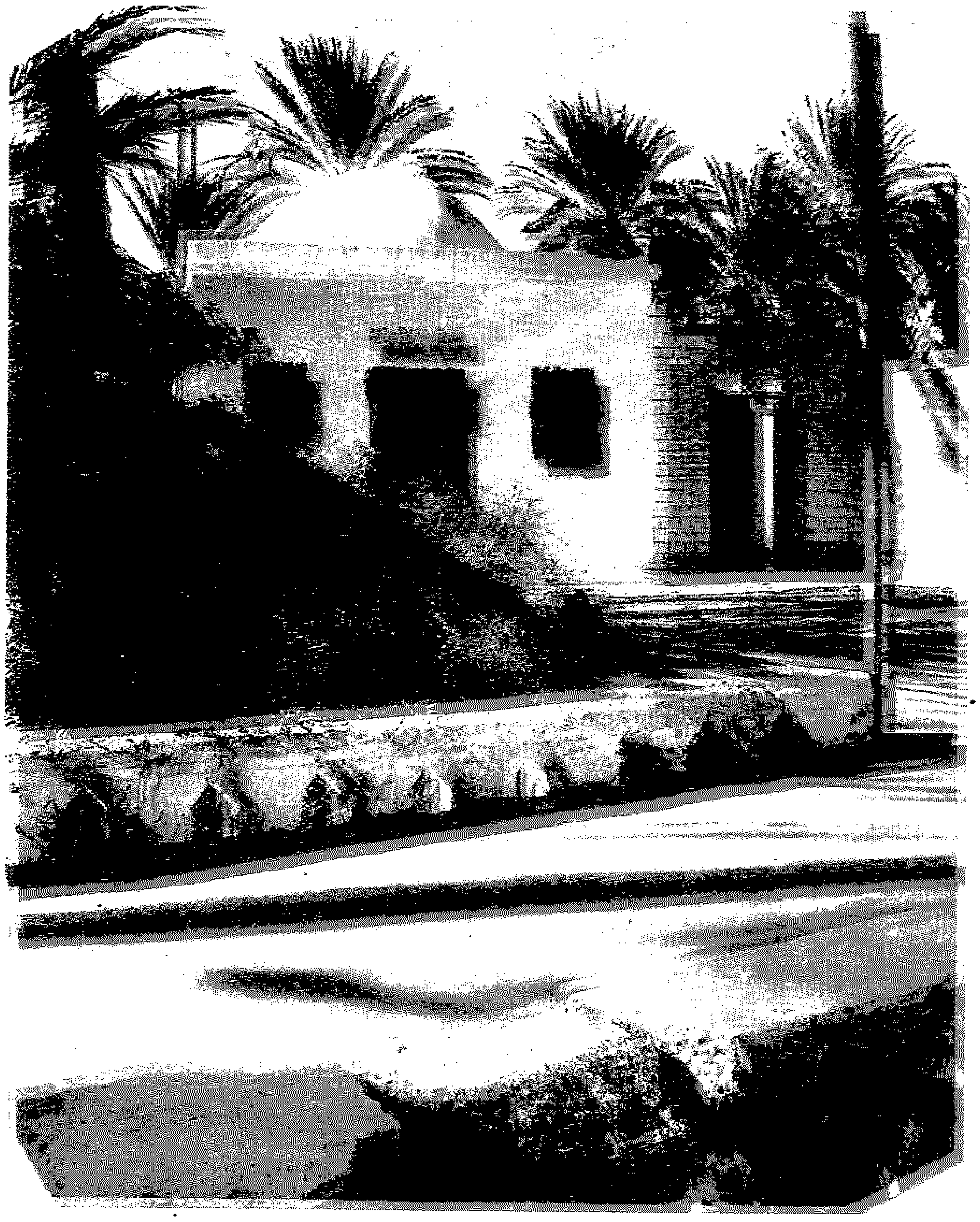

صورة من زاوية سيدي عبد السلام أو زاوية سيدي علي الفرجاني بشنني

زاوية سيدي عبد السلام بشط سيدي عبد السلام

زاوية الزمزمية:

وهي زاوية الحمارنة بقابس وترجع إلى المرحوم الحاج يحي الحمروني قاضي قابس في القرن الثالث عشر هجري وهو حفيد(سيدي عبد الكريم) دفين منزل قابس وشيخ ركب الحجاج في الماضي وقد أسست هذه الزاوية كغيرها من الزوايا في تونس وفي بلاد الإسلام لإقامة الصلاة وتحفيظ القرآن ونشر العلم وإيواء الغرباء ورغم أن مؤسس هذه الزاوية هو الحاج يحي الحمروني القاضي إلا أنها اشتهرت باسم أمه "مريم بنت عطية الزمزمية" من نسل الزمازمة المنتسبين إلى الأشراف وهي ترجع إلى الولي الصالح سيدي شمس الدين (دفين مطماطة) وقد انتقل فرع من الزمازمة إلى حامة قابس ولازالوا يعيشون هناك وقد أسسوا زوايا لهم لنشر الدين وتحفيظ القرآن.

لقد اشتهرت "مريم الزمزمية" بالتقوى والصلاح في حياتها وظهرت لها عدة كرامات وقد دفنها إبنها الحاج يحي بالزاوية ولما غلب اسمها على اسم ابنها عند العامة والخاصة رغم أن ولدها كان قاضيا مشهورا سميت الزاوية باسمها ولم يخفت اسمها عشرات السنين لما اشتهرت به من الكرامات في حياتها وبعد موتها، وأكبر كراماتها أن صارت تلك الزاوية البسيطة من حيث البناء(قبل ترميمها وتحسينها جامع جمعة) إذ تبرع أحد المحسنين من أهل الخير من بلدة قصر هلال وهو الحاج محمد صوة ببناء هذا الجامع الملاصق للزاوية على حسابه الخاص وأصبحت الزاوية مكانا خاصا لصلاة النساء يوم الجمعة وكذلك يأوي إليها الغرباء وأبناء السبيل إلى الآن وأصبح الجامع الجديد جامع الجمعة يحمل اسمها أيضا. وعائلة المرحوم يحيي الحمروني تلح على دفن موتاها بهذه الزاوية تبركا بجدهم وجدتهم وهي عادة في الواقع غير مرغوب فيها من طرف البلدية لكن مع ذلك لازال مواطنو هذه العائلة يدفنون موتاهم بها.

ضريح سيدي أبي إسحاق الورقاني:

هذه الزاوية هي المكان الذي كان يتعبد فيه العالم المشهور سيدي أبي إسحاق الورقاني(1) الذي عاش في قابس ودفن بها وقد ذكرنا بأنه قد زاره في قابس العالمان الأندلسيان "أبو الحسن علي النميري السشتري الصوفي" وابن سبعين الملقب "بقطب الدين" من مرسية بالأندلس وزار جامع البحر أو مسجد الصهريج. أما لقب سيدي أبي إسحاق فقد ذكر بلقب الورقاني في عنوان الدراية وهو اللقب الذي اشتهر به في قابس كما ذكر بلقب الزنتاني والزناتي والذي ذكره بهذا اللقب هو المقري في كتاب نفح الطيب.

لقد وجد هذا العالم بقابس في منتصف القرن السابع هجري وقبره الآن في ظهرة قراوجو في منطقة جارة (المنطقة الثالثة) وقد بنت هذه الزاوية إدارة الأوقاف لكن البناءات في الوقت الحاضر أحاطت به وكادت أن تغمره.

---

(1) ذكر هذا العالم المقري في نفح الطيب الجزء الثاني صفحة 384 عندما ترجم لحياة العالم أبي الحسن السشتري

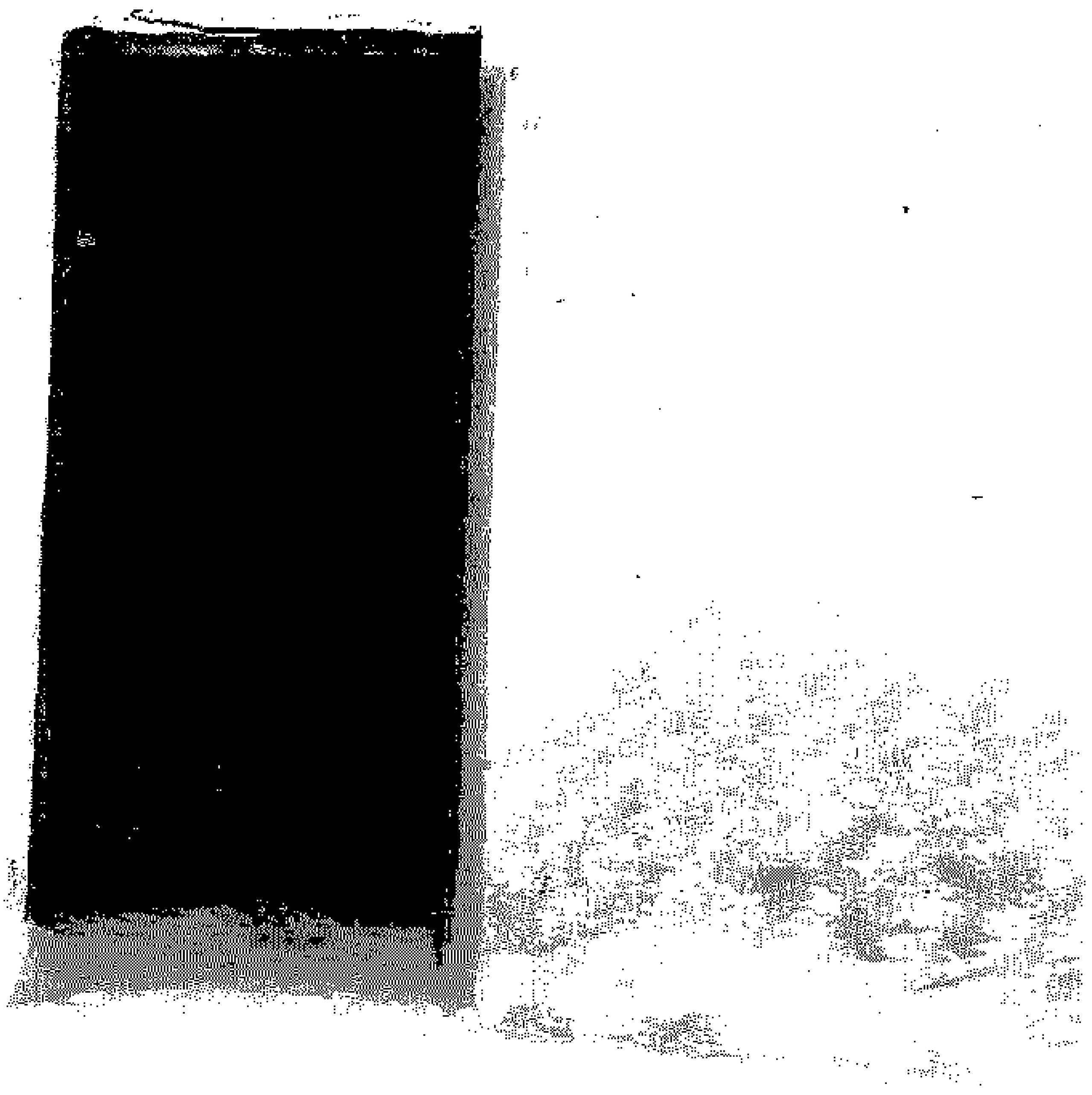

زاوية سيدي أبي إسحاق الورقاني بقابس

زاوية سيدي قناو(2) ببني عيسى بمطماطة:

لقد ذكرنا زاوية سيدي قناو في مطماطة وتحدثنا عن مهرجانها التقليدي الذي تطور في السنين الأخيرة وأصبح مهرجانا محليا ثقافيا احتفظ ببعض العادات القديمة مثل الخرجة وطريقة الخطبة بين الفتيان والفتيات وهو موعد تعود أهالي مطماطة القيام به سنويا إذ يزورون هذا الضريح وتذبح الذبائح ويتلاقى الأحباب لاستقبال الربيع وللتبرّك بهذا الولي الذي يعتقدون في بركاته. وهناك عائلة تقيم بقابس ترجع إلى هذه المنطقة وهي عائلة دار عبدالجواد أو دار بالشيخ وهي عائلة اشتهرت بالعلم وبتقلد الوظائف الدينية من قضاة وعدول ومفتيين ومقرئين كما ذكرنا ذلك عند حديثنا عن مطماطة وعائلة عبدالجواد ترجع في الأصل إلى منطقة دريد(3) حسب شجرة العائلة وكانوا مستقرين بالقرب من الحدود التونسية الجزائرية قبل الفتح الإسلامي وقد هاجر جماعة منهم إلى القيروان ولازال لقبهم موجود بهذه المناطق.

أما عبد الجواد فقد استقر في بداية الأمر في بني عيسى ولازالت أملاكهم باسمهم هناك ثم اتجهوا نحو قابس واستقروا بها.

زاوية سيدي موسى الجمني بمطماطة:

اشتهرت عائلة الجمنيين منذ القديم بالعلم وبحفظ القرآن وهم يتركّزون في ثلاثة مناطق من تونس في جمنة (ولاية قبلي) ومطماطة(ولاية قابس) وجربة (ولاية مدنين) بالإضافة إلى المجموعة التي تمركزت في تونس العاصمة لتدريس القرآن والانضمام إلى جماعة المقرئين لقراءة الحزب في المناسبات(المآتم الحج وحتى في الأفراح) كما هو معهود في تونس.

أما أصل هذه العائلة فيعتقد الجمنيون في مطماطة أنهم يرجعون إلى قبيلة كندة أي كنديين

---

(2) زاوية سيدي قناو وهي في الواقع زاوية سيدي علي البرقاني ويقال أنه من الصحابة وأن سيدي قناو بن عيسى خادمه قد دافع عنه إلى أن استشهد لذا فإن الزاوية قد سميت باسمه ولم يعد يذكر اسم علي البرقاني المدفون هو الآخر بالزاوية.

(3) هذه الشجرة موجودة عند حفيد من أحفادهم وهو المرحوم ناجي بن الشيخ بن عبد الجواد وقد أطلعت عليها بنفسي قبل عدة سنوات.

قدموا من العراق واستقروا في بداية الأمر بالقيروان وهم أخوة ثلاث.
1- اتجه واحد منهم إلى أم الصمعة بقبلي طريق سوق الأحد وهو "محمد بالحاج" ثم اتجهوا إلى المنطقة التي تقع على طريق قبلي دوز وعمروها وسميت بجمنة أي باسمهم وهي عبارة عن واحة جميلة اشتهرت بالدقلة الجيدة.
2- اتجه الثاني إلى جربة (حومة السوق) وهو "سيدي إبراهيم الجمني" صاحب الزاوية المشهورة بحومة السوق التي كانت تدرس القرآن للطلبة مجانا ويقيمون في المدرسة المحيطة بالزاوية وهي تشبه الزوايا التي تكونت في شمال إفريقيا مثل زاوية سيدي عبد السلام بزليطن بليبيا وزاوية سيدي موسى بمطماطة.
3- اتجه الأخ الثالث إلى مطماطة وهو "سيدي موسى" وتروي الذاكرة الشعبية أنه لما فكر في الهجرة من القيروان ركب فرسه إلى أن وقفت به في المكان المرتفع بمطماطة الذي بنيت به الزاوية. وكانت تملكه إمرأة من رأس الواد وهي التي تبرعت بالأرض وبالماجل الذي كان على ملكها. وهذا الماجل غريب الشكل كما يروي حفيظ هذه الزاوية فهو عميق إذ يصل إلى 25 م كما له جيوب من الجوانب الأربعة ممتلئة بالماء وما يقال عنه أنه لا ينضب لعمقه واحتفاظ هذه الجيوب بكمية الماء طيلة السنة فهو حلو المذاق.

لقد اشتهرت هذه الزاوية بالمدرسة التي بنيت فيها للتعليم الديني الحنيف والقرآن مثل مدرسة جربة. وكان يأتيها الطلبة من تطاوين ومدنين وقبلي خصوصا، أما إطعامهم فيكون عن طريق العائلات الجمنية بنظام محكم والعائلات التي اشتهرت بهذا هم عائلة دار الحاج محمد صالح ودار الحاج محمد بن موسى والحاج محمد بالطيب. ويوجد بالمدرسة 25 غرفة بكل غرفة سدة من الخشب وبها مرافق صحية، كما بني بها جامع للصلاة يسع لأربعين مصليا تقريبا كما بني الضريح الذي يأوي قبره وقبر ابن أخيه محمد كما بنيت مكتبة هامة كانت تحتوي على كتب ثمينة مخطوطة لكنها تلاشت مع الأسف وكانت الكتب التي توجد بها نادرة جدا وبقيت الساحة التي تقع عليها الزاوية خاصة بالجمنيين ولا يسكنها غيرهم .

ضريح المعرابي بالحامة:

كما هو معلوم أن عدد اليهود المتواجد في عمالة قابس(الولاية) كانوا كثرة فبالإضافة إلى العدد المتواجد في منطقة المنزل وجارة(البلد وجارة الشرقي) وباب بحر هناك تجمعات أخرى في مطماطة والحامة بالخصوص وقد تعرضنا على عددهم في منطقة المنزل وجارة عندما تحدثنا عن سكان قابس القدماء فتبين أن عددهم في المنزل أكثر من عددهم في جارة حسب التقدير الذي أورده المبشر ايفالد سنة 1845 وهناك مراكز عبادة لهم في كل المناطق التي استقروا بها سواء في المنزل فلهم بيعة (دار الصلى) وفي جارة الدخلانية وفي جارة الشرقي ويعتقد أحبار جارة أن بيعة جارة الدخلانية أقدم بيعة لهم في قابس. أما في مطماطة فرغم عددهم المتواجد فليس لهم بيعة للعبادة هناك. أما في الحامة فهي المقصودة بهذا العنوان بالرغم من أنه ليس لدي إحصاء رسمي لعدد اليهود في الحامة إلا أن يهود الحامة كثيرون وهذا يظهر من عدد البيعات

التي تحتويها الحامة فلهم بيعتان للعبادة كما لهم مركز"المعرابي"الذي يقدسه لا يهود الحامة فقط بل يقدسه ويزوره أغلب الجاليات اليهودية في منطقة قابس وفي الايالة التونسية ومن الخارج.

من هو المعرابي:

هو يوسيف (يوسف) المعرابي المغربي وكلمة المعرابي مأخوذة على ما يبدو وعلى ما يتواتر في الحامة من كلمة مارابو(Marabo) (كلمة فرنسية وهي تطلق من طرف الفرنسيين حتى على الزوايا الإسلامية في تونس. والمعرابي هو شكل من أشكال الأفكار التي كان يخطط لها اليهود وهو اجتماعهم مع بعض في مناسبات اختلقوها. فقد اختلق اليهود في جربة البيعة المسماة "بالغريبة" التي يجتمع فيها أغلب اليهود القادرين على السفر والوصول إليها وهم في الأغلب يهود شمال إفريقيا ويهود فرنسا، كذلك اختلقوا فكرة المعرابي هذه ولو أنه حسب المعلومات التي استقيتها من الحامة هو أن تكوين هذا الرمز يرجع إلى رؤية بعضهم مصباحا يضيء هذا المكان فبنوا به هذه البيعة لأنه في نظرهم مكان مقدس. أما ما يرويه يهود قابس ومنهم نائبهم المكلف بالكوميتة (الجمعية الاسرائيلية) المتواجد في قابس إلى الآن إن هناك ربيا مغربيا متديّنا اسمه يوسيف أخذ على نفسه التجول في الأقطار التي بها اليهود ليجمع المال ويوزعه على الفقراء، لكن صادف أن توفي هذا الربّي في الحامة ودفن بها.

لكن الواقع وحسب المخططات التي كانوا يخططون لها وهو تكوين دولة عبرية إسرائيلية غير ما يروى عن طريق الرواة اليهود وقد وصلوا إلى تحقيق فكرتهم. أما كيف وصلوا. لقد تعاهد يهود العالم على الوفاء بهذه الفكرة واختلقوا علّة على ما أعتقد ومناسبة للاجتماع والتجمع مع بعضهم للتذكير والمساهمة والاستعداد لتكوين هذه الدولة، ففي الوقت الذي كان فيه العرب نائمون ويبيعون ضيعاتهم وأرزاقهم لليهود كانت وفود اليهود تتوافد للاستقرار بمنطقة فلسطين إلى أن احتلوها وأصبح العرب أجانب في بلادهم يتوسلون الآن ويطلبون الدعم والمساندة من الدول التي كانت سببا في خلق إسرائيل. إن هذا التجمع السنوي في الحامة لا لغرض العبادة المجردة بل المقصود منه لقاء يهود العالم والتخطيط لبعث دولتهم وللتذكير بهذه الفكرة وجمع التبرعات. والمعرابي في الحامة يوجد في الجهة الجنوبية من مدينة الحامة.

الزوايا والأضرحة بقابس:

ظاهرة الزوايا والأضرحة أصبحت ظاهرة غريبة في قابس وفي غيرها من المدن التونسية إذ هناك فترات من التاريخ وخصوصا منذ بداية العهد التركي والحسيني ظهرت جماعة من الطروقيين همهم هو بناء الزوايا والتعبد بها وتحفيظ القرآن الكريم والقيام بالمدائح والإذكار عن طريق التلاوة أو غيرها. هذه هي الغاية الأساسية لكن حاول المغرضون وفي مقدمتهم الاستعمار الفرنسي إستغلال هذه الفرصة ومحاولة مساعدة الطروقيين في المناسبات الدينية وذلك بتقديم مساعدات لهم عن طريق السلط التونسية(القايد والخليفة والشيخ) لجلبهم إليهم ولجعل هؤلاء المتدينين يعتقدون بأن فرنسا جاءت لخدمة الدين لا للقضاء عليه

وربما انطلت الحيلة على البعض من هؤلاء وربما اغتر بعضهم فكانوا الواسطة لحل بعض المشاكل مثل ما قام به الشيخ "مصطفى بن عزوز" دفين نفطة وصاحب الزاوية بجارة قابس عندما تدخل لإقناع الثائر علي بن غذاهم بالاستسلام بعد أن أعطاه الباي الأمان له ولجيشه ولعائلته ولقد نجح في ذلك إلا أن الباي خان الوعد وخان الأمانة وقضى على علي بن غذاهم وجماعته. لكن مهما كانت الأسباب ومهما كانت التأثيرات على هؤلاء فإن المقصود والغاية شريفة عند انتشار هذه الظاهرة بناء الزوي والجوامع خصوصا وأنها نجحت في الغالب في إلقاء الدروس الدينية وفي تحفيظ القرآن للأطفال وحتى للكبار أجزاء من القرآن على طريق الملة أو الكتابة على الألواح بالطريقة التقليدية والكتابة تكون بالصمغ وهي طريقة ناجحة مكنت من حفظ بعض من القرآن الكريم ومن حفظ حتى القرآن كاملا وهذه الزوي والجوامع كثيرة خصوصا في منطقة جارة والمنزل أما الجوامع الموجودة في جارة "البلد" فهي سيدي بن عيسى وسيدي مفتاح وسيدي رضوان وسيدي بورخيص وسيدي سعد وسيدي إدريس وسيدي حسن المغربي وسيدي النجدي وسيدي ضيف الله.

وفي شط سيدي عبد السلام زاوية سيدي عبدالسلام وزاوية سيدي بوعلي السني.

وفي جارة الشرقي (المنطقة الثالثة) زاوية سيدي الحاج ناصف التركي وزاوية سيدي بوعلي وزاوية سيدي احمد التوجاني وزاوية سيدي الحاج عمر المغربي وزاوية سيدي عبد القادر وزاوية سيدي مصطفى بن عزوز وزاوية سيدي خضر النجار وزاوية سيدي بوإسحاق التي تحدثنا عنها سابقا وزاوية سيدي بوعود وزاوية سيدي مرزوق وزاوية سيدي علي الشوكي.

وفي باب البحر زاوية سيدي سالم الهروسي التي تحولت إلى جامع جمعة بعد توسيعها وداخل الغابة توجد زاوية سيدي حوال الواد وسيدي داود القيطوني.

وفي المنزل توجد زاوية سيدي ابن عيسى وزاوية سيدي عبد القادر وزاوية سيدي بوعلي وجامع عساكر وسيدي النجاري وسيدي المشيرقي وسيدي عبدالنافع وسيدي عبد الكريم الحمروني وزاوية الزمزمية التي تحدثنا عنها سابقا.

الفصل الثالث
(أعلام ومشاهير من قابس)

بالإضافة إلى الصحابي سيدي أبي لبابة الأنصاري الذي شرفتِ تربة قابس بدفنه فيها فإن هناك أعلاما آخرين قد عاشوا في قابس ومنهم من دفن بها ومنهم من فارقها أما للشرق أو للغرب كما أن هناك من مر بها واستقر فيها مدة من الزمن وأعجب بها وترك بصمات له فيها وخصوصا الأعلام الذين جاؤوا من المدن المجاورة في فترة دويلة (بني جامع في قابس) فمدحوا أمراءها وطاب لهم المقام بها وفارقوا بلادهم ودفنوا بها كما أن هناك من حمل لقب القابسي أو حمل عمامة القابسي وشك بعض المؤرخين والباحثين في انتمائه لقابس ومن هؤلاء:

1- الفقيه الإمام علي ابن محمد خلف المعافري المعروف بالقابسي والملقب بأبي الحسن القابسي

فمن هو هذا الرجل؟

ولد أبو الحسن القابسي سنة 324 هـ أي منذ بداية القرن الرابع هجري حسب مقال الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب الذي نشره في مجلة الجامعة التونسية عدد5 في نوفمبر 1937 ، وقد نقل هذه المعلومات الأستاذ محمد المرزوقي في كتابه "قابس جنة الدنيا" ويشير المقال بأن الرجل كان ضريرا فمنهم من قال أنه ولد أعمى ومنهم من قال أنه أصيب في بصره في صغره. وهو ابن خالة سيدي محرز ابن خلف(دفين تونس)، وكذلك ابن خالة ابن زيد القيرواني صاحب الرسالة المشهورة.

أما لقب أبي الحسن (بالقابسي) وكذلك بالمعافري فهو يؤكد انتسابه إلى قابس لأن قرية المعافرين المندثرة وجدت بقابس أما من قال أنه لقب بالقابسي لأن عمّه كان يضع العمامة القابسية فهذا تعليل ضعيف كيف يلقب إنسان بلقب بلدة بهذه العمامة التي يضعها عمّه ثم كيف يلقب بالمعافري وهو غير معافري(1). أما من قال أنه غير قابسي فهو أبو بكر الصقلي وكذلك الإمام عياض الذي قال(أنه قيرواني البلد).

صحيح أنه يمكن أن يكون قيرواني البلد لأنه عاش في القيروان أو ولد بها ويمكن أن يكون والده من أصل قابسي وانتقل إلى القيروان وتزوج بها وولد أبو الحسن بالقيروان.

وهذه الشكوك غير معقولة فكيف يحمل شخص لقبا وينسب حتى إلى القرية التي ينتمي إليها ويقع الشك في انتسابه فهل لأنه عالم من العلماء الكبار في تونس كل يريد الانتساب إليه هذا وأن الشك في نسبه غير معلل تعليلا معقولا، وعلى كل فإن القابسي في رأيي هو تونسي سواء كان من القيروان أو من قابس وبما أنه يحمل لقب القابسي فإننا نعتبره من قابس.

كان أبو الحسن من العلماء المشهورين بتونس في الفقه والحديث والتفسير والقراءات واتصل بعلماء من مصر ومن مكّة أثناء حجه، وتخرج عليه علماء منهم أبي عبد الله المالكي وابي علي

---

(1) قرية المعافرين توجد بجهة قابس ومنهم من يقول بأن غار معافي الذي يوجد بمقبرة سيدي مرزوق سابقا بقابس هو إشارة لقرية المعافرين المندثرة بقابس

ابن خلدون وابن عمران الفاسي وغيرهم...

قال ابن ناجي عنه أنه كان "عالما عاملا جمع العلم والعبادة والورع والزهد والإشفاق والخشية ورقّة القلب ونزاهة النّفس ومحبة الفقراء حافظا لكتاب الله ومعانيه وأحكامه، حافظا للسنّة عالما بعلوم الحديث والفقه، وسلم له أهل عصره ونظراؤه في العلم والدين والفضل، كثير الصيام والتهجد بالليل".

وقال أيضا "أن له أولادا ومنهم عبد الواحد ابن أبي الحسن القابسي الذي هو من حفظة القرآن ومن دارسي الفقه ومات في حياة والده سنة(390هـ)"

ومن تأليف أبي الحسن القابسي:

1- رسالة في الذكر والدعاء
2- رسالة في الاعتقادات
3- رسالة في أحوال المعلمين والمتعلمين(وهو أول كتاب يتحدث عن التعليم وطرقه ويدرس بمدارس تكوين المعلمين ضمن الكتب البيداغوجية بتونس إلى الآن)
4- كتاب المنبه للفطن والمبعد من شبه التأويل
5- رسالة في الدعاء

إلى غير ذلك من الكتب والرسائل. ومن شعره في الزهد قوله هذه الأبيات:

أنست بوحدتي فلزمت بيتي وطاب العيش واتصل السرور
ولست بسائل أحدا أراه أسار الجند؟ أم ركب الأمير
وأدّبني الزمان فليت أني تُركْت فلا أُزار ولا أزور

يبدو من هذه الأبيات الثلاثة ومن نوعية الكتب التي ألفها أن أبا الحسن القابسي لم يهتم بالسياسة بل شغل نفسه بالعلم والزهد والتعبد فكان يقضي ليله في العبادة والتهجد

2- عبد الله الصنهاجي:

من الشخصيات التي عاشت بقابس ودفنت بها هو عبد الله الصنهاجي الذي عاش في الفترة التي عاش فيها إبي إسحاق الورقاني دفين قابس الذي تحدثنا عنه في هذا الباب أي الباب السابع الفصل الثاني.

لقد اتصل عبد الله الصنهاجي بالعالمين الأندلسيين الذين زارا قابس وهما:

1- أبي الحسن علي النميري السشتري الصوفي
2- وابن السبعين الملقب بقطب الدين

وهما يتصفان بالزهد والتصوف كما ذكرنا ذلك ويتفقان في الطريقة والمنهج مع أبي إسحاق الورقاني ومع صاحبنا عبد الله الصنهاجي

3- ابن زيادة الله القابسي:

ليس هناك معلومات كثيرة عن ابن زيادة الله القابسي سوى أنه تتلمذ على الإمام المازري "دفين المنستير" مع ابن مشكان أبو القاسم محمد ابن خلف الذي تولى قضاء قابس

ودرس بها وكان من تلاميذه محمد ابن عبد الله ابن عمر ابن علي إسماعيل الأنصاري الأوسي دفين تونس قرب باب القرجاني وهو من الذين قضوا فترة بقابس ودرس بمراكش ثم رجع لتونس ودفن بها وقد قال عنه ابن الأبّار(2)

" لقيته بها سنة 636 (أي بتونس) وصاحبته طويلا وكان يقرئ العربية والآداب وله حظ من الشعر ومن النثر وتوفي في جماد الثانية سنة 639 هـ"

4- عبد الله ابن محمد القابسي

ليس لدينا معلومات كثيرة عن محمد ابن عبد الله القابسي سوى إشارة في(3) معجم البلدان لياقوت الحموي إذ يقول

"من جملة علماء قابس ومن مشائخ يحي ابن عمر"

ويحي ابن عمر من علماء تونس ومن المدفونين بمدينة سوسة في القرن الثالث للهجرة وبما أن يحي ابن عمر هو من علماء الشريعة المعروفين فلا بد أن يكون عبد الله القابسي هو من علماء الدين ومن العلماء المرموقين في تونس.

5- أبو محمد خلف ابن محمد القابسي

تشير طبقات علماء إفريقيا إلى أنه "كان رجلا صالحا ثقة له سماع من ابن غانم القاضي ومن بهلول ابن راشد. قال أبو العرب سمعت محمد ابن أبي الهيثم يقول سمعت سحنون ابن سعيد يقول في خلف القابسي أنه لم يبدل ولم يغير"

وقد استقر خلف ابن محمد القابسي بالقيروان وتعلم من علمائها وقد ظهر أيام شهرة سحنون ابن سعيد من القيروان.

وفي الواقع ليس غريبا بأن يهاجر كثير من علماء قابس فيستقرون بعاصمة العلم والعلماء عاصمة الدولة الإسلامية القيروان لفترات طويلة خصوصا وأن قابس في تلك الحقب تعتبر العاصمة الثانية بعد القيروان ولعل ازدهار الثقافة والاهتمام بالعلم والعلماء كان بعاصمة الدولة أكثر من غيرها من المدن الأخرى.

كما ظهر عالم آخر وهو محمد ابن رجاء القابسي وليس هناك معلومات ضافية حوله سوى أنه كان من علماء قابس حسب ما ذكره ياقوت الحموي في معجمه وأنه تتلمذ عليه ابن زكرياء النجاري.

كذلك برز العالم عيسى ابن أبي عيسى القابسي الفقيه المالكي الذي ذكر في المعجم هو الآخر(4) وتتلمذ على كثير من العلماء في المغرب ومكة وبغداد ودرس بدمشق وتتلمذ عليه كثير من العلماء المعروفين ودفن بمصر سنة 447هـ

6- الوزير الشاعر سلام ابن فرحان:

لقد تحدثنا عن هذا الشاعر الوزير سلام ابن فرحان عندما تحدثنا عن دولة بني جامع في

---

(2) تكملة الصلة الجزء الثاني صفحة 754

(3) معجم البلدان لياقوت الحموي (الجزء الرابع) صفحة 290

(4) معجم البلدان لياقوت الحموي نفس الجزء ونفس الصفحة

قابس وهو مرافق لهذه الدولة ومن وزرائها ومن أنصارها وقد استشهد في آخر معركة لبني جامع بقابس مع عبد الله ابن عبد المؤمن وهو يقاوم ويدافع عن أميره" مدافع ابن رشيد ابن جامع" الذي فرّ إلى طرابلس وهو يردد:

أكذا أموت وما بلغت مرادي ... بين الصوارم والقنا الميادي
حيث العيون لوامح وطوامح ... ما بين أحباب وبين أعادي

ويقول أيضا:

بربع رامة(5) رام الركب إلماما ... فغاض صبري وفاض الدفع تسجاما
وقل إلى الركب منا أن يلم به ... وأن يحي به رسما وأعلاما
سقيا لعصر الصبا لو كان متصلا ... ما كان أطيب ذاك العيش لو دام
وكم كتمت الهوى جهدي فنم به ... دمعي وما ذاك دمع العين تماما
فاخلع عذارك من راح ومن رشا ... طاوي الوشاح ولا تحفل بمن لاما
لله ريم رمى قلبي فاقصده ... وأضرم النار في الأحشاء إضراما
بخصره هيف أهدى النحول إلى ... جسمي وأهدى بقسم اللحظ إسقاما
ذرني أكف عن الإطلاق راحلتي ... ملت جيادي إسراجا وإلجاما

ويقول أيضا:

في متن أدهم ما ينفك يقحمه ... على أعاديه يوم الروع إقحاما
في عصبة كأسود الغاب قد جعلت ... سمر الرماح وبيض الهند اجاما

إلى أن يقول:

إذا رآه العداء في يوم ملحمة ... غشى عيونهم نورا وإظلاما
وقبلوا التربة تعظيما لطلعته ... كما رأت فارس كسرى وبهراما
يا أيها الملك الموهوب جانبه ... شملت هذا الورى فضلا وأنعاما
سست الرعايا وخفت الملك فامتنعا ... بصارم ذكر تفري به إلهاما

7- عامر ابن محمد الهلالي

لقد أشار التيجاني إلى هذا العالم عامر ابن محمد الهلالي الملقب بأبي ساكن وكذلك أشارت إليه الحلل السندسية كما أشارت إليه الخريدة للأصفهاني

لقد تربى هذا العالم في بلاط آبائه وأجداده (بني جامع) وفر مع من فر أثناء هجوم عبد الله الموحدي عليهم واستقر به المقام في دمشق الشام إلى وفاته.

قال صاحب الخريدة بأنه : "كان بدويا أميرا سريا"

لقد كان عامر الهلالي شاعرا وقد ذكرنا له قصيدة بديعة عندما تحدثنا عن دولة بني جامع صفحة 81 من هذا الكتاب كذلك كان له ولد اسمه أبو عامر ساكن ابن عامر الهلالي وكان شاعرا هو الآخر وهاجر مع والده إلى دمشق وقد ذكر صاحب الخريدة أنه التقى به في دمشق سنة

(5) قال سلام ابن فرحان هذا القصيدة في مدح وتهنئة مدافع ابن رشيد بمناسبة شهر رمضان المعظم 553هـ

571 هـ أي بعد سقوط دولتهم في قابس بستة عشرة سنة وقد نقل عنه هذه الأبيات.

إذا مرّ من أهوى أغض له طرفي وأخفي الذي بي من سقام ومن ضعف
وأكتم عن سري هواه صبابـــة

إلى آخر الأبيات التي ذكرناها سابقـــا

وهناك شعراء آخرون نشأوا في مناطق أخرى قريبة من قابس لكنهم انتقلوا بالسكنى إلى قابس فيما بعد أثناء حكم بني جامع وعاشوا في بلاطهم إذ أن بني جامع ربما كانوا يغدقون الهدايا ويشجعون الشعراء على إلقاء قصائدهم ومن هؤلاء أبو الفضل ابن عبد الله ابن نزار الهواري القابسي، ولقب الهواري في قابس متواجد إلى الآن وهم يرجعون إلى قبيلة بربرية بالمغرب الأوسط أي إلى الجزائر وقد مدح هذا الشاعر الأمير" محمد ابن رشيد" الذي توفي سنة 543هـ أي قبل القضاء عليهم من قبل الموحدين باثني عشرة سنة وبقي هذا الشاعر بعد نكبة أمرائه وانضم إلى الموحدين فمدحهم بشعره كبقية الشعراء.

قال أبو الفضل ابن عبد الله مادحا الأمير محمد ابن رشيد:

لم يبق لي بعد الرحيل عـــــزاء بان الخليط وشمت أهـــواء
فاصرف عنان اللوم عن قلق الحشا مغري فإن ملامه إغراء
فعلت به أحبابه يوم النـــــوى والبين ما لم يفعل الأعداء
ساروا ولما سمحوا بوداعـــــــه فكان خالصا رده شحنـاء
أتراهم خانوا الوداع محرمـــــا أم جمعوا أن لا يكون لقاء
رقت مياه الحسن فوق خدودهـــم وقست قلوبهم فبان جفاء

وكذلك التحق بقابس إلى بلاط بني جامع يحي التيفاشي القفصي من قصر تيفاش بالجزائر أيضا وهو من عائلة علم وأدب إذ نبغ منهم كثير من العلماء أشهرهم احمد ابن يوسف ابن احمد ابن أبي بكر التيفاشي وهو حفيد من أحفاد يحي وهو الذي ألف الموسوعة العربية المشتملة على أكثر من أربعين جزءا كل جزء منها يخصص لفن من الفنون.

أما يحي التيفاشي فقد انتقل بعد ذلك من قابس إلى صقلية وشهد عدة مجازر كان يقوم بها الإفرنج ضد المسلمين وتشير الخريدة إلى أنه قتل أثناء مجزرة من هذه المجازر سنة 550هـ لكنه قبل انتقاله إلى صقلية كان قد مدح الأمير مدافع ابن رشيد آخر أمرائه بقوله:

رأى البرق فازدادت جوانحه جبـرا وبات يراعي النجم يترقب الفجرا
وما البرق مما هاجه غير أنـــــه تذكر من يهوى فما ملك الصبـرا
خليلي عوجا نندب الربرب الذي غدا بعدهم من بعد سكناه قفـرا
ديار لها قدما ملأت جوانحــــــي عيون المها جمرا كما ملئت سحرا

كما خلف هذا الشاعر ابنا اسمه محمدا الذي مدح عبد المؤمن ابن علي بقصيد لكنه لم يتركه عبد المؤمن يكمل القصيد وألقى بيتا واحدا ومنحه ألف دينار وهذا البيت هو:

ما هز عطفيه بين البيض والأسلي مثل الخليفة عبد المؤمن ابن علي

كذلك انتقل بالسكنى إلى قابس في عهد بني جامع الشاعر السّكلي القفصي وهو الذي يقول:

منازل ساداتي ومغنى أحبتـــــــي ... وموضع أطرابي وخير مواضع
بها قد جنيت العز غضا وملبســي ... شبابي ومن أهواه غير ممانـع
إلا قاتل الله اللوى من محلــــــة ... وقاتل دهرا باللوى غير راجـع
يكاد فؤادي من تذكره الحمــــى ... وأهل الحمى ينقذ بين الأضالـع
لقد ملكت روحي كما ملك العـدى ... وجاز الندى جود المليك(المدافع)

ومن المشاهير الذين لقبوا بلقب القابسي وتولوا مناصب عالية خارجها في طرابلس وزار بغداد وهو عبد الله ابن أبي مسلم القابسي الذي ولي القضاء في طرابلس وقد درس عليه بطرابلس ابن عبيد(نصف البخاري) كما ذكر التيجاني ذلك، ويرجّح الأستاذ المرزوقي بأن توليه هذه الخطة كان من قبل بني حفص في الثلث الثاني من القرن السابع.

8- احمد الطياري القابسي

ما يثبت وجود هذا العالم بالفرائض والحسابيات هو:

1- وجود هذا اللقب إلى الآن في قابس

2- ذكره من طرف مجلة الدستور الصادرة بالأردن والتي ذكرته على أنه من علماء قابس

3- ذكره الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب نقلا عن مخطوطه(صدور الأفارقة)

كان احمد الطياري يعيش في القرن الثاني عشر للهجرة 1117هـ وهو من أبناء قابس وهو الذي اختصر شرح (محمد صبط الماردين) على متن (الرحبية) في الفرائض

9- محمد بن نصر القابسي:

الشيخ محمد بن نصر القابسي أصيل قابس لكنه عاش وتربى في تونس العاصمة ولقب القابسي يؤيد انتسابه إلى هذا البلد وقد درس في جامع الزيتونة، وكان خلوقا كريما له أدب وشعر متين لكن لم يذكر المؤرخون البعض من أدبه ولما أصيب الشيخ محمد بن نصر القابسي بمرض أقعده على الانتقال إلى جامع الزيتونة انتصب يدرس تلاميذه في سقفية داره بزنقة الأندلس وقد تزاحم الطلبة في الاقبال على دروسه لاشتهاره بالأسلوب الواضح في التدريس وبوضوح طرقه.

بالإضافة إلى هؤلاء العلماء والشعراء الذين ولدوا بقابس وعاشوا فيها كذلك العلماء والشعراء الذين قدموا عليها واستقروا فيها خصوصا في عهد دولة بني جامع التي كانت تشجعهم على الإنتاج وتغدق عليهم الهدايا لتدفعهم إلى الإنتاج والعمل. كما أن هناك من يرجعون إلى قابس وقد عملوا في خطة التدريس بتونس العاصمة والقيروان وفي طرابلس وكلفوا بخطة القضاء كما أن هناك من عمل بقابس لكنه استقر فيها مدة عمله بها مثل القاضي أبي المطرف ابن عميرة الذي ذكر في عدة مصادر والذي تحدث عن قابس وعن الصحابي أبي لبابة كما سنذكره لاحقا. وكذلك دخل قابس أبو بكر ابن مجبر صحبة يعقوب ابن المنصور لطرد الثائر قراقوش الأرمني وقد نقل التيجاني في رحلته بيتين من الشعر تتحدث عن هذه

الواقعة وكذلك ذكرها المرزوقي في كتابه "قابس جنة الدنيا" صفحة 266:

لقد برزت إلى هول المنايـا — وجوه كان حجبها اللثـام

وما أغنت قسي الغز عنها — وليست تدفع القدر السهام

كمـا دخـل قـابس عـبد البر ابن فرسان صحبة الثائر أبي اسحاق يحي الميورقي الملقب بابن غانية وهـو الذي سجل الرسالة المشهورة التـي وجهها إلى أهالي قابس قبل هجوم الميورقي عليها وابن فرسان قد جمع بين النثر والشعر.

كذلك دخل قابس أبو الحسن علي النميري السشتري الأندلسي وكنا قد أشرنا إليه عند حديثـنا عن مسجد الصهريج وعند حديثنا عن العالم أبي إسحاق الورقاني دفين قابس وكان قد تعبد في هذا المسجد وتقابل مع أبي إسحاق ومع قطب الدين أبو محمد عبد الحق ابن إبراهيم ابن محمـد ابـن سـبعين الأندلسي وقد اشتهر هؤلاء العلماء الثلاثة بالتصوف والتعبد وغير هؤلاء كثير مـنهم مـن زار قـابس أو نشـأ فيهـا وهـام بها ونـنقل في هذا المقام المقال الذي كتبه الدكتور محمد سـلامة الذنيبات من الأردن في مجلة الدستور الأردنية تحت باب نافذة (الحديث ذو شجون) وبعنوان قابس الخضراء والماء والوجه الحسن مع صور قديمة حوتها هذه المجلة عن قابس.

قابس الخضراء والماء والوجه الحسن

الدكتور محمد سلامة الذنيبات

صورتان نشرتهما مجلة الدستور الأردنية لقابس

الفصل الرابع
(أقوال المؤرخين والشعراء عن قابس القديمة)

لقد تحدث المؤرخون والشعراء عن قابس كثيرا وغالبهم وصفها بأجمل الأوصاف وأحسن النعوت، وقد استطاب لهم المقام فيها وذكروها بخير، لكن مع الأسف أن هذه الأماكن والساحات والقصور والجوامع والأسواق والصوامع والأسوار والخنادق التي وصفوها وتحدثوا عنها لم يبق لها أثر قائم الآن فكأن ارتجاجات أرضية وزلازل ونكبات قد قضت على هذه المخلفات التاريخية الهامة ولم تبق سوى بعض الحجارة الضخمة الملقاة هنا وهناك والمدفونة داخل الأرض وخصوصا أرض المدينة فحتى الأسوار سواء كان سور المدينة الفنيقية أو الرومانية القديمة أو المدينة الإسلامية قد انهارت كلها ولم يبق لها أثر سوى ما جدد أو ما رمم مثل ما حدث لضريح الصحابي أبي لبابة أو للمدرسة المرادية أو جامع سيدي إدريس.

قلت أن أغلب المؤرخين والشعراء قد مدحوا قابس وتحدثوا عنها كثيرا إلا أن البعض منهم قد ذمّها وذمّ أهلها وخالف المادحين والمتمتعين بسويعات في ساحة عنبرها وفي أسواقها وحماماتها العديدة وواحتها ومياهها الحرارة المنسابة من منطقة العيون فلكل وجهة نظر ولو أن هناك من المؤرخين من اشتهر بالذم والنقد اللاذع دون تثبت كما سنرى ونبدأ بالمؤرخ الروماني بلين(1) الذي وصف قابس وصفا ممتعا دقيقا إذ يقول "وفي خليج سيرتة توجد مدينة اسمها "تاكاب" أرضها خصبة ومناخها جميل، وعلى بعد 30 ميلا منها تقريبا عين فوارة متسعة ماؤها مقسم تقسيما محكما بين البساتين بالساعات، وفي بساتينها نرى الزيتون يصعد في ظلال النخيل وفي ظل الزيتون ينبت التين، وفي ظلال هذا نجد أشجار الرمان، وتحت هذه يعرش العنب، وتحت العنب يزدهر القمح وأنواع الخضر. كل هذا يثمر في سنة واحدة وكله في ظلال وبساتين ممتدة، ولهذا الخصب يبلغ ثمن المتر المربع الواحد من تلك الأرض دينارين من الفضة(2)"

هذا الوصف في العهد الرومانيّ القديم واعتقد أنه يتعلق بالمدينة الرومانية. أما الوصف في العهد الإسلامي فقد قال عنها قاضيها أبو المطرف ابن عميرة المولود في شاقورة Segura De La Lierea والذي نشأ في بلنسية بالأندلس "بلد غوطي البساتين، طوري الزيتون والتين، أما النخل فجمع عظيم وطلع هضيم وسكك مأبورة، ونواعم في الخدور مقصورة، وأن بقعته لوارفة الظل، آمنة الحرم والحل،(جنة لو نزع ما في صدور أهلها من الغل) وبالجملة فهو تام الغرابة مدهام الغابة. مستأثر بسيد من سادات الصحابة ولا عيب بتربته إلا وخامة مائها وحيات قلما يعرى من عدوائها"

صحيح أنها ليست بالجنة الحقيقية فلو كانت كذلك لانتفى عن أهلها الغلّ والغلّ طبع بشري يحدث أحيانا ويؤثر على سلوك الإنسان لأنه جبلة بشرية.

---

(1) ولد المؤرخ بلين الروماني في سنة 23 م وتوفي في سنة 79م

(2) دينار الفضة الرومانية يساوي فرنكا ذهبيا من عملة فرنسا في سنة 1914

ويقول أيضا في فـــل من كتابه يصف شدة الوباء بها وكثرة عقاربها فيقول:
"وهـذه البـلدة الآن في ظـل مـن شـرخ الشـباب وظلال من ثمرات النخيل والأعناب فهي بحال يقر بجمالها الأندلسـي ويجاري بـين ظلالها الدبسـي ولا عيـب فيهـا إلا هـواء وخاتمه تخاف وماء غير من خـالص الماء المضاف، ولبيوت المدينة دواجن سيئة الجوار (المراد بها العقارب) سريعة إلى القطان والـزوار كـراها تـنفيه وسـرها تخفيـه وصـلحها لا يطمـع أحد فيه فقبحت شائلة الأذناب شاملة بـالعذاب كامـنة بـارزة هامـزة لامـزة تطرق بالبلية وتقسم شرها بين البر والفاجر بالسوية دبت عـندنا ليـلة إلى مـن كـان يـرمق دبيـبها ويحاول قبل أن تصبيبه يصيبها فأوقعت به لدغا في القدم ولقي أشد الألم وبات وبتنا معه في "ليلة أخي ذبيان" وتعالى الله ما أطول ما كانت وأهول ما كان.
وقد قال ابن المطرف أيضا قصيدا شيّقا بعد زيارته لقبر الصحابي أبي لبابة:

خبر الأحبة(3) ما ألذّ مساقـــه ... وجنى القطيعة ما أمر مذاقه
وهوى القلوب لها عليها شواهـــد ... سبقت ناطق حالها استنطاقـــه
وأي المنازل إذ ذكرت عهودهـــا ... فتهيج من كلف بها أشواقـــه
يعتاده منها جوى بين الحشـــا ... والصدر رقرق دمعه وأراقـــه
ويبيت منها كالسليم ومالـــه ... راق إذ إمتد الظلام رواقـــه
حمل الغرام وما استقل لحملـــه ... نبل النوى فالآن كيف أطاقـــه
ورمت به الأقدار كل تانوفـــة ... لم تأله لجمالها إغراقـــــه
قبر تشاكينا الفراق لديه والـــ ... أشهى لنا أن لا نسام فراقـــه
وموارد حملت أجنة آجـــــن ... فلقي بها طعم النوىَ من ذاقه
خفق الجوانح دونه ويرد مـــن ... أفضى إليه مع الصدا إخفاقه
مازلت أقطعها مهامه لم تـــزل ... بالصبر حتى مزقت أخلاقـــه
حتى وقفت وما أفقت بمنـــزل ... كالظلم في صدري أرى أفاقـــه
وقبست من شوقي لقابس جذوة ... شبت على قلب سواها شاقـــه
من بلدة في العين أظلم جوهـــا ... مع أنها ما أنكرت إشراقـــه
قد كان منظرها يروق بعين مـن ... يشكو النوى لو أن شيئا راقـه
لكن بقبر أبي لبابة لي هــــوى ... ما من هوى في النفس إلا فاقـه
أمل بنفسي لو ظفرت بتربـــه ... فجعلت أثمد ناظري دقاقـــه
وتمثل القبر الكريم بمقلتـــي ... فدنوت منه والتزمت عناقـــه
فوثاق ذنبي ارتجي لفكاكـــه ... من فكَ خير العالمين وثاقـــه
صلى الإلاه على النبي محمـــد ... وأناله بجواره استحقاقـــه
وعلى صحابته وعترته التـــي ... لزمت رضاه واقتفت أخلاقـــه
وقضى لنا من بطئنا في سيرنـــا ... يوم الجزاء على السراط لحاقه

---

(3) انظر رحلة التيجاني لأبي محمد عبد الله ابن محمد ابن احمد التيجاني صفحة 52-53-54

أما الإدريسي فقد قال عنها :

"ويتصل بآخر غابة أشجارها إلى البحر رملة متصلة مقدار ميل وهذه الغابة أشجار وجنات وكروم وزيتون كثير"

كما يقول ايضا

"وبها أيضا نخل ملتف به من الرطب الذي لا يعادله شئ في نهاية الطيب، وذلك أن أهل قابس يجنونها طرية ثم يودعونها في دنّانات، فإذا كان بعد مدة من تلك خرجت لها عُسيلة تعلو وجهها بكثير ولا يقدر على التناول منها إلا بعد زوال العسل منها من أعلاها وليس في جميع البلاد المشهورة بالتمر شئ من التمر يشبهه ولا يحاكيه ولا يطابقه في علوكته وطيب مذاقه"

وقال أيضا:

"ويعمل بها الحرير الحسن وبها من ناحية البحر سوق وباعة وحريريون كثيرون"

أما الساحات والمنتزهات القديمة مثل ساحة عنبر والرحا والشّرشارة فقد ذكرناها في الفصل الثاني من الباب الرابع وذكرنا القصيدة المشهورة التي خلدها أبو الفضل التيجاني الذي استقر بقابس مدة من الزمن وقال:

اذكر عشيتنا بساحة عنبر والجو يتحفنا بنكهة عنبر

إلى آخر القصيد

وينقل لنا التيجاني في رحلته بعض الأبيات لأبن عبينيه عبد الله ابن محمد المهلب يمدح فيها عيسى ابن جعفر "بالخربية" بالبصرة في العراق وهي تنطبق على قابس فيقول هذا الشاعر

وادي القصر نعم القصر والوادي وحبذا أهله من حاضر بادي

تُرسي قراقيره والعيس واقفة والضب والنون والملاح والحادي

ويقول أيضا:

يا جنة فاقت الجنان فما لعلقها قيمة ولا ثمن

صاهر حيتانها الضباب بها فهذه جنة وذا ختن

من سفن كالنعام مقبلة ومن نعام كأنه سفن

وعن صناعة قابس يتحدث ابن حوقل فيقول:

"ولها أسواق وجهاز كثير ويعمل بها الحرير وتدبغ بها الجلود"

وقال الإدريسي في منتصف القرن السادس: "وبها الآن مدابغ للجلود ويتجهز بها منها"

وقد بقيت هذه الصناعة بقابس إلى وقت ليس بالبعيد إلى الخمسينيات وأكثر والنهج التي به هذه الحرفة يسمى بنهج الدباغة(على الطريق المؤدية إلى البلد الآن) وكانت قشور الرمان تباع في قابس لاستعمالها في الدبغ. كما أشارت دائرة المعارف الإسلامية إلى ازدهار المنتوجات الصوفية من(بخنوق وعجارات وجبة وبرنس وبطانيات...)

أما من ذمّ قابس رغم وصف بعضهم لها بأنها "جنة الدنيا" وإنها "دمشق الصغرى"

وإلى أنـه "لا يجتمع صـيد الـبر والبحر وجميع أنواع الغلال والثمار إلا في مائدة من يسكن قابس"
فهو الرحالة العبدري الذي اشتهر بالذم والشتم للمناطق التي يزورها وقد قال عن قابس
"ذات المنظر القبيح والحيا العابس هـواء وخيـم ولـؤم طـبع وخيـم وإلى عفونـات تخبو لقربها المصابيح وتمحـو بالـتحول كـل وجه صبيح، ودارت به غابة من نخل قد طلمست ثمرتها بكف كل بخيل على أن الهواء العفن قد منعها الجفوف"

عجبا مـن هـذه الأوصـاف والـنعوت وقـد صـدرت في القـرن السـابع للهجرة فلم يذكر العبدري ولـو سمة طيبة بقـابس ولأهاليها مع أن من سبقه من الزائرين أو من جاؤوا بعده قد ذكـروها بكـل خـير فهي البـلد المضياف في الوقت الحاضر وفي الماضي فكل من يأتيها باكيا يخرج مـنها باكيـا لشـدة إعجابه بها وبأهلها وبطيبة أخلاقهم، خصوصا مع الزائرين لها عبر العصور، فحـتى واحـة قـابس الـتي تغـنى بهـا الشـعراء وساحة عنبر الجميلة التي ذكرت في القصائد لم يتكـرها بكـل خـير بـل ذمهـا وقـال أن الغابـة قـد طلمست ثمرتها، كما وصف طبع أهلها باللؤم وحـتى منظر أهلها لم يعجبه فوصفهم بالقبح مع أن غالبية السكان قد انحدروا من سلالة طيبة جميلة سواء السلالة البربرية الأولى الـتي جاءت من اليمن وبها الشقرة الجذابة والسمرة المليحة كمـا أن السـلالات الـتي جاءت بعد ذلك من فنيقية إلى رومانية إلى وندالية إلى عربية قد اشتهروا كلهم بالمنظر الحسن وعلى الأقل بالمنظر المقبول والجذاب ولله في خلقه شؤون.

وقـد حذا حذو هذا الرحالة ابن حوقل الذي وصف سكان قابس بأنهم "قليلوا الدماثة غير المحظوظين من الجمال والنظافة وفيهم سلامة"
الحمد لله لقد استدرك ابن حوقل في الأخير وقال أن(فيهم سلامة)

أمـا عـن فـتح قابس من قبل أبي اسحاق يحي الميورقي الملقب بابن غانية فإنه قد سجل برسـالة متينة التحرير وبلغة ممتازة ولونها رسالة تهديد فلقد حرر هذه الرسالة الكاتب الخاص لـلميورقي المصـاحب لـه في الهجومـات وقد ذكرناه سابقا وهو عبد البر ابن فرسان الناثر الشاعر يقـول هـذا الكـاتب في الرسـالة الـتي وجههـا إلى أهـالي قابس باسم الميورقي يهددهم فيها إذا لم يستسلموا. وقد جاء في فصل من فصول هذه الرسالة ما يلي:

"ولما عزمـنا على قرع بابكم والحلول بجنابكم رأينا تقديم الإنذار إليكم، وإيراد النصيحة عليكم، والكـف عـنكم ثلاثـة أيام، لا تمـد لكـم فيها يد، ولا يتقدم إليكم بالأضرار أحد، لنعلم ما عندكم وتتـبين غيكم أو رشدكم، فإن آثرتم الطاعة وتبعتم الجماعة(يقصد جماعة طرابلس) مددنا لكم أكـناف العـدل وأتبعـنا فيكـم كريم القول وصحيح الفعل. وإن أبيتم إلا خلافا فقد أبلغنا النفس عـذرا وأتيـنا بالتـبرئ مـن أمـركم برا ولا تغتروا بأهل طرابلس فلو كان لهم سواد يقطع أو مياه تصدع وتمنع لجروا للطاعة وحملوا أنفسهم منها فوق الاستطاعة.

فـلما انقضـى أجلـه الـذي حـدد ولم يـر منهم إجابـة ولا آنـس مـنهم إنابـة زحف إليها بجموعه فحاصـرها حصـارا شـديدا وقطـع جميع غابتها ويقال أنه (لم يبق منها إلا نخلة واحدة تركها عبرة

لهم) فأنابوا له بعد أن اشترطوا عليه مسالمة وإليهم "ابن تافراجين" وأن يتوجه بأهله وماله في البحر فاشترط لهم ذلك ووفى به وأغرمهم بـ 60 ألف دينار عقوبة لهم".

ثم يقول "وكنا قبل وضع تاجها(4) وخلع رتاجها وكسر مهابتها والتوغل في غابتها خاطبنا جمهورهم واستنزلنا معمورهم للطاعة ومغمورهم رغبة في الإبقاء عليهم وإنذارا لم يكن بد من تقديمه إليهم فرفعوا عواءهم، وركبوا أهواءهم، واستنهضوا غويهم، فنصب للشقاوة لواءهم وكان فيها من رجال الدرق ورماة الحدق غثاء اسندوا إليه ظهورهم فانقصمت، وتمسكوا بعراهم فانفصمت وغوغاء استنفروها من الجبال ركدوا بعد الهبوب وعرفوا سموم تلك الجنوب".

ثم يصف أهالي قابس لما اشتد عليهم الحصار وكيف استسلموا ورضخوا لشروط الميورقي فيقول: "فأخذهم هول الحصار وأحاطت الخيام بالأسوار، حتى كانت المدينة معها كالزند في ضمن السوار، وكالعنق تحت محيط الأزرار وكالمركز للفلك الدوار، وكما لاحت في هالتها أجسام الأقمار، ولا ينسبون إلا على إذن واعية، ولا يتسللون إلا على عين مراعية، فضجوا من ثلاث، ساقتهم إلى التشجب سوق اجتثاث بعد القسوة وانصداع عصى الأسوة، والعجز عن حماية الثغر، والأولاد والنسوة، ولما سقط في أيديهم، ولم يجدوا راحما يعصمهم ممن يؤذيهم سلكوا للطاعة طرقه وتظاهروا بها مجازا أو حقيقة، فقبلت على حكم التسليم والتفويض والقيام بعبء وظيفة المال والنهوض وانتقلوا من الحرم إلى الحل، ومن الحرور إلى الظل، وقصر عن العدو حد السيف المطل وتفقدوا سوادهم فوجدوه طامس الآثار مجتث الأشجار مغمور المياه الغزار، لا منورا أبقت الأيدي منه ولا منثورا يقول ناظره متعجبا ومعتبرا وكان الله على كل شيء مقتدرا"

وفي فصل آخر من رسالة التهديد يقول: "وفرضنا عليهم مائة ألف دينار عددا ولم نفسخ لهم في اقتضائها أمدا فعجزوا واستكانوا وتضاءلوا بذلك كأنهم غير الذين كانوا فوسعهم التفات ديني ونظر على الرحمة مبني، خفف المتون فأضحت المائة وهي ستون وهم في شأنها مفيضون، وعما عداها معرضون فخاطبناكم بهذا الفتح الذي أشرقت من جانبيه شمس النجح لتأخذوا من المسرة بحظ من تبين لعينه تبلج الصبح، فقد تقرر لدينا مما تعتقدون من الاعتماد علينا والاقتصار، ومزيد النظر كل حين في أحكام الطاعة والاستبصار، ما عضد خبره بالاختبار ولم يرتفع منه إلا ما وقع بالموافقة وجاء على الاختيار" من هذه الرسالة الطويلة يتبين لنا :

1- أهمية قابس الاقتصادية وذلك لثروتها الفلاحية وللمركز الذي تحتله في ذلك الوقت وعلى أنها أهم من طرابلس "لا تغتروا بأهل طرابلس فلو كان لهم سواد يقطع أو مياه تصدع وتمنع لجرو للطاعة..."

2- انتقام الميورقي من غابة قابس يدل على شدة المقاومة التي قاوم بها سكان قابس هذا المهاجم المغامر وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على قوة وشجاعة أهاليها للدفاع عن بلادهم.

3- شهامة أهالي قابس بدت من أنهم لم يستسلموا طائعين للمهاجم إلا أنهم طلبوا عـــــــدة

---

(4) انظر كتاب رحلة التيجاني لأبي محمد عبد الله ابن محمد ابن احمد التيجاني صفحة 107

شروط وقبلها الميورقي ومنها خروج واليهم (ابن تافراجين) مع عائلته وماله دون المساس به
4- فرض الميورقي غرامة مالية على أهالي قابس يدل على أن هذا المغامر كانت غايته الحصول على المال وليس الاستقرار وبناء الدولة وتعمير البلاد لأنه دخلها غاز فاتح دون التفكير في إمكانيات السكان هل هم قادرون على الدفع أم لا؟ وكانت المساومة في التنقيص منها كما فعل احمد باشا باي تونس عندما قدم على قابس لمقاومة بوارق العصيان سنة 1256 هـ الموافق لـ 1840م التي تحدثنا عنها في الفصل الأول من الباب الخامس.

5- إن استسلام أهالي قابس بعد قطع غاباتهم يدل على المقاومة الشديدة التي وجدها الميورقي إذ لم يستسلموا من الأول وقاوموا ودافعوا عن بلادهم لكن المضرة التي لحقت بهم وباقتصادهم المتمثل في مورد عيشهم أجبرهم على الخضوع وذلك أخف الضررين خصوصا وأن البلاد قد عانت الويلات قبل ذلك إذ قد هجم عليها قراقوش الأرمني قبل ذلك وأخضعهم بالقوة.

6-حدوث هذا الهجوم في شهر رمضان المعظم وفي أيام العشر الأخيرة منه(لأن هذه الرسالة قد حررت في العشر الأخير من رمضان سنة 591 كما ينص التيجاني) لم يمنع الميورقي المسلم القادم من المغرب مهاجمة إخوانه المسلمين في قابس وفي طرابلس وفي غيرهما من المناطق لا لنشر الإسلام ولتدعيم مكانته بل اغتنم فرصة ضعف الدولة الإسلامية سواء في المغرب أو في المشرق فأراد الغنم والحصول على الثروة.

وهكذا كانت قابس تتقاذفها الأمواج فمن مغامر مهاجم إلى مغامر آخر ومن فاتح لا لنشر الإسلام إلى مزاحم على السلطة للقضاء على المنافسين.

وقد أورد الرحالة التيجاني قصيدا في هذا المقام لكاتب هذا النص البليغ أبو محمد عبد البر ابن فرسان ولو أنه أشار إلى أن هذا القصيد يشك في أنه قيل في فتح قابس بل قيل في فتح طرابلس لكننا نوردها رغم الشك فيها لمتانتها ولمطابقتها على فتح قابس والشك لا يفيد القطع

أجل أنه النصر المهنا والفتـــــح ... طواه الدجى وقتنا وبينه الصبح
عصوا ثم جاءوا طائعين أمامهـــم ... عماية غي آخرها النجـــــــح
هدوا للهدى بعد اقتحام مضلـــة ... أوجههم من منح ضرائها لفـــح
عموا عن سبيل الرشد ثمت ابصروا ... وكان نشوان الضلالة لا يصحــو
وفاءوا على حين اقتراح سمائهـــم ... إلى غرة قد كان منهم بها قـــرح
أجالوا قداح الرأي أثناء عزمهـــم ... فحين أنابوا فازا بالأمل القـــدح
وما أذعنوا للشرط حتى أراهـــم ... ردى فهم في كل حرب لهم بـــرج
إلخ.....

وفي مدح الميورقي يقول ابن فرسان:

فديتك بالنفس التي قد ملكتها ... بما أنت موليها من الكرم الغمض
ترديت للحسن الحقيقي بهجة ... فصار لها الكل في ذلك البعـــض

ولما تلألأ نور غرتك التـــــــي تقسم في طول البلاد وفي عـــرض
تلفعتها خضراء أحسن ناظـر نبت عنك إجلال وذاك من الفرض
وأسدلتْ الحمراء الملابس فوقها بمفرق تاج المجد وشرف المحـــض
فأصبحت بدرا طالعا في غمامة على شفق دان إلى خضـرة الأرض

ويقول أيضا:

أجبنا ورمحي ناصري وحســامي وعجزا وعزمي قائدي وأمامي
ولي منك بطاش اليدين غضنفر يحارب عن أشباله ويحــــامي

أما عن فتح قابس من قبل المسلمين فيقول المؤرخ المصري حسين مؤنس:

"يظهـران(5) جـرجيوس استعد استعدادا كـبيرا في قـابس لأن العـرب سيتحاشـونها عـندما يشرعون في غزو إفريقيا في حملة عبد الله ابن أبي سرح بل سيقصدون إلى سبيطلة رأسا. ولو قد وجدوا الاستيلاء عليها هيّنا لأخذوها في طريقهم"

ويقول أيضا في مكان آخر من الكتاب صفحة 85 :

"حـين أدرك ابـن أبـي سـرح قابس وجد أهلها متحصنين فانصرف عنها إذ أشار عليه الصحابة أن لا ينشغل بها عن إفريقيا"

مـن هذيـن النصـين نفهـم أن قـابس لم تفـتح في حملة عبد الله ابن أبي سرح أي سنة 27 هجري الموافـق لــ 692م وإنما فـتحت بعـد ذلـك إما عن طريق السرايا أو عن طريق حملة معاوية ابن حديج فيما بعد وقد أشار إليها المؤرخون.

وفي الواقـع أن الأهميـة الـتـي كـانت عليها قابس يمكن أن نعتبرها سببا في تأجيل فتحها وأن الاسـتيلاء عـلى العاصـمة "سبيطلة" في ذلك الوقت يمكن المسلمين من السيطرة على قلب الدولـة ثم الرجوع إلى المراكز الأخرى واحدة بعد الأخرى وقد فعل عبد الله ابن سعد ذلك عندما مرّ بطرابلس ولم يفتحها وتقدم إلى غيرها من المدن حتى لا ينشغل بها.

والـذي يؤيد هذا الافتراض في عدم فتح قابس منذ البداية هو اعتقاد ابن أبي سرح بأن القضـاء عـلى الـبزنطيين في العاصمة خصوصا وليس لهم من ينجدهم هناك لأنهم قد انفصلوا عـنهم وشقوا عصا الطاعة وأن القضاء عليهم في عقر دارهم يمكن المسلمين العرب من الرجوع إلى المـدن الأخـرى وفيهـا العـدد الكبير من سكان البربر الذين يناوؤون الروم البزنطيين ويترقب الـبعض مـنهم وصول المسلمين العرب إليهم لإنقاذهم من الرومان ومن الروم وهم غرباء عنهم في الجنس رغم أن هناك من يعتقد بأن فتح قابس كان أثناء هذه الحملة مع فتح القيروان وليس في سـنوات 34هــ أو40 هــ أو 50هــ وربما أن تاريخ وفاة الصحابي أبي لبابة يشار إلى أنه كان في سـنة 40هــ هـذا إذا ثـبت أنـه استشهد في هذه الغزوة ولم يكن بسبب المرض كما أشرنا إلى ذلك سـابقا عـند حديثنا عن الصحابي أبي لبابة أو أثناء السـرايا التـي كانت تبعث في جرائد من الخيل للاستطلاع والاكتشاف.

---

(5) انظر كتاب فتوح العرب للمغرب لحسين مؤنس صفحة 67

ولقد أشار أيضا ابن الشباط بأن عبد الله ابن أبي سرح قد حاصر قابس ثم تركها مؤيدا للرأي الذي ذكره المؤرخ حسين مؤنس. ويقول أيضا الوزير السراج عن دخول المسلمين لقابس سنة 97هـ "ولما وصل حسان ابن النعمان إلى قابس خرج إليه أهلها وطلبوا منه الأمان وكانوا قبل ذلك يتحصنون ويمتنعون من كل من مرّ بهم"

وفي سنة 393هـ قدم على قابس يحي ابن علي ابن حمدون وفلفل(6) وفتوح ابن علي وحاصروها فامتنعت عليهم فتركوها.

وفي سنة 597هـ بعد ما تغلب محمد ابن عبد الكريم الرجراجي على المهدية وكانت تحت نفوذ يحي الميورقي وكان بقابس آنذاك فأراد ابن عبد الكريم الهجوم على قابس إلا أنه لم يتمكن منها وعرف أنه لا طاقة له بها فارتحل إلى قفصة.

وقال القلقشندي في صبح الأعشى أنه يوجد بقابس في سنة 821هـ سور وخندق. كل هذه الاشارات تثبت وجود السور والخندق بقابس الإسلامية لكن مع الأسف أنه لم يبق أثر لهذه المعالم وأعتقد أنها دفنت تحت الأنقاض وكنا قد أشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن "المدينة" سواء المدينة الفنيقية أو الرومانية أو الإسلامية. هذه بعض النصوص التي تتحدث عن قابس سواء في القصائد الشعرية أو في النصوص النثرية وهي تعطينا فكرة واضحة عن أهمية قابس التاريخية وعن الدور الذي قامت به عبر العصور وما أصابها من أحداث وما مر بها من محن ولعل النهضة الحديثة لتونس الجديدة كما سنرى ذلك عندما نتحدث عن قابس اليوم سوف تدفع بهذه المنطقة نحو التقدم والازدهار ولإرجاع مجدها وتحريك اقتصادها وازدهار ثقافتها فتساهم بذلك في نهضة تونس الجديدة.

(6) انظر بحث السيد حسن مرزوق باحث تاريخ من قابس صفحة 8

الباب الثامن

الفصل الأول

(الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في قابس قبل الحماية)

ساءت الحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في قابس قبل الحماية الفرنسية كثيرا، فقد عم الفساد في الحكومة الحسينية، ووقع العبث بأموال الدولة، وكثرت الخيانات والدسائس، وتطورت الصراعات بين القوى السياسية، وبدأت المؤامرات من الدول الأجنبية وبين الدول الأوروبية أنفسهم، وتزاحموا في القضاء على الإمبراطورية التركية وعلى ممتلكاتها التابعة لها وعقد مؤتمر برلين 1878م لاقتسام الغنائم فكان نصيب فرنسا تونس بعد أن استولت على الجزائر ونصيب أنقلترا مصر ونصيب إيطاليا طرابلس فيما بعد، مقابل احتفاظ ألمانيا بمقاطعتي الألزاس واللوران وهذه خطة "بيسمارك" الوزير الألماني الداهية، وبدأت التدخلات فازداد نفوذ فرنسا في تونس بعد احتلالها للجزائر سنة 1830 وأن الملوكية في تونس قد ضعفت خصوصا في عهد حسين باي ومصطفى باي واحمد باي فلقد ساند حسين باي الاحتلال الفرنسي للجزائر وبعث بتأييده إلى حكومة فرنسا خصوصا وأنه قد أشيع بأن حسين باي تونس معارض للاحتلال فأراد، هذا الملك أن يفند هذه الإشاعات.

استعراض أقوال بعض الكتاب عن الوضع في قابس

يقول فيكتور سير في كتاب "تاريخ الحماية الفرنسية" صفحة 386 ترجمة مجلة -العالم الأدبي- عـــدد23. وعندما وطئت الجيوش الفرنسية تراب إفريقيا بساحل سيدي فرج بالجزائر في (جوان 1830) كانت المودّة بين تونس وفرنسا على غاية من الإخلاص حتى أن الباي حسين المتولي آنذاك الملك أرسل أحد ضباط بلاطه على سفينة تونسية مصحوبا بأول مترجم لتهنئة الجنرال "ديبرمُون" وعرض معونته عليه، وذلك من نفسه دون أي إيعاز ولم يخلف الباي وعده ولو مرة حيث أعان بكل ما في وسعه على تموين الجيوش الزاحفة.

إلا أنه رغم المبالغة التي أوردها فيكتور سير من التأييد المطلق إلا أنه لم يشر إلى موقف الشعب هل كان مساندا لاحتلال فرنسا للجزائر أم كان معارضا.

في الواقع أن الشعب التونسي كان معارضا للاحتلال للأسباب التالية:

1- إنّ الاحتلال الفرنسي للدولة المجاورة والشقيقة هو اعتداء أجنبي على دولة مستقلة ذات سيادة.

2- أن احتلال الجزائر هو مبشر باحتلال تونس طال الزمان أم قصر هذا وأن تأييد الملوكية للاحتلال الفرنسي هو في الواقع خوف على ملوكيتهم في تونس لكن هذا الخوف لم يبطل إذ زحفت الجيوش الفرنسية على تونس لما وجدت الفرصة سانحة والظروف مواتية، وتواصلت المساندة من طرف الحكومة في تونس، فقد أعطى حسين باي مرتفع قرطاج لفرنسا لبناء "كنيسة سان لوي" الذي مات في الحروب الصليبية التي حدثت بين المسلمين والمسيحيين في قرطاج والتي شرع في بنائها في 1842 وكانت النواة الأولى لنشر المسيحية كما ظهر ضعف

الملوكية مع فرنسا في قبول مصطفى باي اعتراض سفير فرنسا على تقبيل يد الملك في المناسبات وقد قبل رفضه، وأصبح سفير فرنسا يقبل على انفراد، وهذا يدل على ضعف موقفه من السفير. أما بالنسبة للإمبراطورية التركية وموقفها من تعامل تونس مع فرنسا وكانت دولة مستقلة عنها.

الواقع أن تحدي الملوكية في تونس لتركيا أصبح واضحا إذ حذفت الإعانة التي كانت ترسلها تونس إلى تركيا سنويا ولم يبق من ذكر لتركيا في تونس سوى ذكر اسم الخليفة في الخطب الجمعية ونقش اسمه على النقود وبقي إرسال الفرمانات (قرارات التسمية) من قبل السلطان عندما يتولى الملك العرش ولم يبق من همّ للملوك في تونس سوى جمع المال، وإرهاق الشعب بالضرائب دون النظر للظروف وإلى حالة البلاد، وكساد فلاحتها، وانحطاط مستوى السكان من ناحية اجتماعية، وقد عقدت عدة اتفاقيات أعطت الامتياز لفرنسا دون غيرها من الدول الأوروبية واقترضت الدولة التونسية:

1- من نسيم بيشي وزير المالية اليهودي

2- من الدولة الفرنسية مقدار 35 مليون فرنكا

3- من البنوك الفرنسية بعد ثورة علي بن غذاهم مقدار 25 مليون فرنك فرنسي

وكان الملوك لا ينتصحون بوزرائهم ومنهم "خير الدين باشا" فكان همهم جمع المال دون مراعاة للحالة التي وصلت إليها الدولة التونسية فتدهورت الأحوال في تونس عامة، وفي قابس أيضا فقد وقع الخلاف بين الحسين ابن علي وابن أخيه علي باشا، وتطور إلى إعلان الحرب بينهما وحدثت صراعات بين المساندين لهذا أو لذاك، وذلك أثناء تولي القايد(العامل) علي السبعي ولاية قابس وقد أثر هذا الصراع على ولاية قابس، وكان له تأثير على مجرى الحياة بها، لأن المدينة قد انقسمت إلى قسمين كما حدث في عهد مصطفى ابن متيشة(قايد قابس) مشكل بين القائد وجماعة نفات التي تستقر بشنني قابس إذ أرهق كاهلهم بالضرائب لأنه في الواقع أن هذا العداء يرجع إتباعهم الصف الحسيني فهربوا إلى قبيلة الهمامة واحتموا بهم فناصرهم الهمامة فما كان من ابن متيشة إلا أن لحق بهم، وكان يكره الهمامة أيضا وقد تحدثنا عن هذه الواقعة عند حديثنا عن ولاة قابس قبل الاحتلال فكانت هذه الحادثة من أهم النكبات التي أصابت الهمامة وكان جزاء ابن متيشة القتل مخنوقا بيد من ناصرهم وهم الباشية لأنه اتهم بإحداث الفرقة بين الأخوين "يونس ومحمد" ابني علي باشا.

ثم حدثت ثورة إسماعيل بن يونس ابن علي باشا الذي كان قد لجأ إلى طرابلس في عهد القايد إسماعيل كاهية(قايد قابس) وكان يترقب إعانة أهالي قابس له سواء كانوا الحمارنة في مارث أو شيخ قابس محمد ابن عبد الكريم الذي كان من أنصار الباشية أو من بني يزيد في الحامة إلا أنه قد وجد القبول الحسن من طرف حمارنة مارث لكنهم قد أسروه بأنهم لا يتمكنون من مساندته كذلك فعل شيخ قابس لأنه تخوف على مركزه.

أما بنو يزيد فقد أقام عندهم شهرا ونصف الشهر، ثم ارتحل واستقر بجمال وهي من

أنصار الباشية، إلا أنه قد قضي عليه من طرف الحسينيين ثم لما جاء القايد ابن محمد رشيد حدثت مشكلة "لزمة الأسواق" وموقف أهالي قابس منها لأنهم اعتبروها ضد الإسلام وابتزازا لأموالهم فما كان من احمد باشا باي إلا أن جاء بنفسه إلى قابس وقضى على العصاة وأغرم قابس 600 ألف ريال كما ذكرنا ذلك سابقا. ثم حدثت ثورة علي بن غذاهم وقد ذكرنا موقف قابس منها فهي ولو أن البوادر الأولى كانت قد حدثت في قابس، إلا أن مشاركتهم فيها كانت غير مباشرة إذ أن حكمة قائدهم(العامل) احمد زروق الذي تمادى في أخذ الضريبة بدون تضعيف(36 ريال) وحتى هذه الضريبة التي جمعها أرجعت إلى أصحابها كما ذكرنا ذلك سابقا لأن احمد زروق كان قد تخوف من ثورة السكان في قابس، ثم لما جاء القائد أبو الحسين حيدر وهو آخر من تولى عمالة قابس قبل الاحتلال فقد ساءت الحالة أكثر وانتشرت أمراض الكوليرا والتيفوس وساءت الحالة الاقتصادية وارتفعت الأسعار. كل ذلك ساهم في اضطراب الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في قابس، وكذلك أصبحت السلطة السياسية والعسكرية غير ضابطة للأمور في قابس، فكثرت الهجومات بين الأحياء وبين التجمعات السكنية المتصارعة وعجزت الحامية التركية حتى على إغاثة السكان من الهجومات المتتالية التي كانت تحدث بالمنطقة، وكثر الجواسيس الذين كانت ترسل بهم فرنسا بالخصوص إلى هذه الجهات للاطلاع على الأحوال، ودراسة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ولإعطاء فكرة على جهة قابس، ولو أن المصدر غير موثوق به تماما لأنه راهب جاء لبث الدعوة المسيحية في الجهة وجاء للإطلاع على أوضاع البلاد، وهو الراهب ايفالد الذي قام برحلة بين تونس وطرابلس مارا بقابس سنة 1835.

أقوال المبشر ايفالد

يشير ايفالد إلى أحوال البلاد من ناحية أمنية بعدما ساءت الأحوال الجوية (الطقس) ولم يتمكن ايفالد من السفر إلى جربة عن طريق البحر وأن شيخ المنزل نصحه بعدم السفر عن طريق البر لأنه غير آمن إذ قال له "إن السفر من هنا إلى جربة خطير وحتى طاقم حراسة بأربعين رجلا(1) غير كاف لوقايتك من أخطاره".

ثم يقول ايفالد لقد عرض علي قائد قبيلة عربية للسفر معه برا وتحت حمايته وكان معه 15 رجلا قادمين معه من تونس، وقبل أن أتخذ قرارا في هذا أردت أن أستشير خليفة جارة(البلد) سي عمر الذي زرته قبل ذلك واستقبلني استقبالا حسنا. يقول ايفالد وقصدته وشكوت إليه حيرتي فرد علي الخليفة " أما ما يتعلق بسفرك فأقول لك أنه لا يمكنك الذهاب إلى جربة عن طريق البر، فالعرب الذين عرضوا عليك إيصالك سالما سيكونون أول من يقتلك إن أنت استثقتهم، فليكن في علمك أن هؤلاء الناس لا يتورعون في قتل نفس بشرية من أجل بصلة لا غير، لذا ترقب في صبر حتى ينعكس إتجاه الريح ثم سافر في البحر في رعاية الله"

من هذه الملاحظات التي أوردها المبشر ايفالد ومن غيره مما ذكرنا سابقا ولو أن في ملاحظات ايفالد هناك مبالغة لكنها تعطي فكرة عن وضع البلاد وعن وضع جهة قابس في تلك الأزمنة،

(1) انظر كتاب ايفالد المبشر(رحلة من تونس إلى طرابلس في سنة 1835 مرورا بقابس) ترجمة منير الفندري صفحة 77

والنتيجة التي يمكن أن نتستنتجها من هذا الوضع في قابس:

1-إن الحاكم وكذلك الحامية العسكرية لا تسيطر على الوضع وقد ظهر ذلك عند الهجومات المتتالية التي كانت تحدث في المنطقة

2- كان الارتباط بالدولة العثمانية ارتباطا رمزيا ولا تتمكن من مساعدة أطراف مملكتها المتسعة

3- مطامع الدول الأجنبية وخصوصا فرنسا بدأت منذ احتلال الجزائر ومنذ مؤتمر برلين

4- الصراعات والخلافات أنهكت القوى في البلاد وأضعفتها

5- سوء الحالة الاقتصادية وانتشار الأمراض الفتاكة أضعفت البلاد وكانت سببا في سوء الأحوال

6- الدولة الحسينية كانت أجنبية عن الشعب ولا يهمها إلا المحافظة على نفوذها والاحتفاظ بالملوكية للعائلة، أما الشعب فهو أجني عن الدولة وأن نصح ملوكها غير مفيد حتى من طرف الوزراء الذين كانوا يعملون ضمن سلطتها. فكانت الهجمة الفرنسية على تونس برا وبحرا وقد ادعت فرنسا بان القبائل التونسية تهاجم القبائل الجزائرية وأنها جاءت لحماية رعاياها كما سنرى ذلك في الفصل القادم فصل الاحتلال الفرنسي.

الفصل الثاني
(الاحتلال الفرنسي لتونس)
(المقاومة في قابس)

الاستعداد للمقاومة:

لما وصلت القوات الفرنسية إلى صفاقس وبدأت المقاومة من طرف أهالي صفاقس وكانوا قد أبلوا البلاء الحسن وتمكنت القوات الفرنسية من التغلب على المقاومة وذلك لأن الأسلحة التي كانت تستعمل من الطرفين غير متكافئة بينما كانت القوات الفرنسية تلقي بقنابلها كان سلاح المقاومين بسيط جدا فهو عبارة عن أسلحة صيد ووسائل يدوية كالسيف والحجارة وغير ذلك من الوسائل العتيقة التي لا تتكافأ مع الأسلحة التي تستعملها قوات الاحتلال ولو أن القضاء على حركة المقاومة كان عسيرا إلا أنه مع ذلك تمكنت فرنسا من احتلال مدينة صفاقس وتوجهت بعدها إلى قابس.

إرسال مبعوثين من قابس إلى صفاقس:

أراد أهالي قابس الاطلاع على الوضع في صفاقس وما مدى قوة المحتلين وقوة المقاومة فقد أرسل أهالي قابس شخصين للاطلاع على الوضع ومن بين هذين الشخصين على ما ذكره لي المسن الحاج علي شلي من منطقة المنزل والذي ذكرته سابقا عند الحديث عن "المدينة" هو السيد الحاج احمد بن قويدر ولم يتذكر الشخص الثاني.

لقد سافر المبعوثان إلى صفاقس وكانت المقاومة قد أوشكت على نهايتها فلاحظا وكانا مختبآن بأجنّة صفاقس بأن العربان الراجعين من المعارك من عربان المثاليث بصفاقس قد وجدوا طفلا صغيرا من عائلات صفاقس الغنية لاجئا مع عائلته وكان لابسا شاشية إسطنبولي مطرزة بالذهب فأخذوها منه وقالوا له نحن أولى بها منك فرجع الشخصان بعد ذلك ورويا ما شاهداه من تراجع قوات المقاومة والمشهد الذي رأياه في الأجنة إلى أهالي قابس أثناء اجتماعهم التحضيري بجامع المنزل بإشراف مفتي قابس الشهيد الجيلاني الحبيب.

أما الحاضرون في الاجتماع فهم من منطقة المنزل وجارة وقد تناقشوا في موضوع المقاومة وفي موضوع معاهدة باردو التي أمضاها الباي وقرروا المشاركة فيها رغم عدم تكافؤ الجانبين ولا صحة لمن يقول بأن مدينة قابس لم تشارك كلها في المقاومة وأن البعض لم يوافق عليها لكن ربما أن هناك من أبدى الرأي المخالف في نقاشهم حول المشاركة وعدمها وهذا شيء طبيعي وذلك للأسباب التالية حسب رأيي:

1- عدم توفر السلاح لدى المقاومين الذين يمكن أن يدافعوا به عن البلدة ويتغلبون به على القوات الفرنسية التي تملك الأسلحة العصرية

2- استسلام الباي وعقده معاهدة باردو وتأييده للحماية الفرنسية وتكوينه لفرقة من الجيش غير التونسيين للمشاركة مع القوات الفرنسية في الاحتلال بعد انضمام الجيش التونسي إلـــى

المقاومين بسلاحهم.

3- مقر الحاكم ومركز السلطة أو العامل في قابس كان بمنطقة جارة وكذلك مركز الحامية التركية كان بالقرب منها أي بالبرج، وقد استسلمت السلطة للاحتلال عن طريق العامل وهو أبو الحسين حيدرأو (حيدر باشا آغا) أي الجنرال وكذلك عن طريق قائد الحامية التركية(مصطفى التركي) الذي كان يقيم بالبرج (دار الكسكسي(1) أو حامية زواوة) وذلك تنفيذا لأوامر الباي كما صرح بذلك أمام المجتمعين وأنه لا يتمكن من تسليم السلاح الذي يملكه في الثكنة.

4- تخوف بعض أهالي قابس من هجوم بعض العربان على قابس مثلما حدث في السابق قبل الاحتلال. والسلطة في قابس لم تتمكن من أخذ الموقف اللازم للدفاع عن المواطنين وقد تحدثنا عنه عند حديثنا عن هجوم فريق من قبيلة بني يزيد على منطقة قابس وسلبهم ونهبهم للمنطقة وكذلك قتل بعض المدافعين عن البلدة.

5- يأس الأهالي من مساندة الإمبراطورية التركية لهم بإرسالهم المدد عن طريق طرابلس وقد تواصل الاحتلال الفرنسي بتونس من الشمال إلى الساحل إلى الجنوب ولم تحرك تركيا ساكنا لإعانة المقاومين فكيف يمكن أن تبقى قابس لوحدها تقاوم دون مدد وسلاح غير متكافئ رغم قدوم بعض الفرسان من خارج المدينة وأعلنوا للحاضرين أن قوات السلطة العثمانية تزحف على البلاد التونسية لحمايتها من الفرنسيين وفي الحقيقة أنه ثبت بأنها كانت خطّة دبرها القائد "محمد شرف الدين" من الحامة لدفع المجتمعين على الدفاع والمقاومة.

هذه الأسباب التي أوردتها لم تمنع المدينة كلها كما سنرى من المشاركة في المقاومة رغم استسلام القوة السياسية والقوة العسكرية بقابس المتواجدة في منطقة جارة لكن مع الأسف أن الصيغة التي سجلت بها الأحداث كما سنرى أيضا سواء من طرف عامل قابس الذي كان يراسل رئيس الوزراء "مصطفى بن إسماعيل" أو عن طريق المؤرخين الأجانب ومنهم الضابط العسكري LE BOEUF أو حتى من كتبوا عن المقاومة من التونسيين قد نسجوا على منوالهم فلقد رسم هؤلاء المعارك وكأنها معارك بين منطقتين منطقة مستسلمة وهي جارة ومنطقة مقاومة وهي المنزل، وعندما يذكر هؤلاء الأحداث الجارية يقولون بأن جماعة المنزل قد هجمت على منطقة جارة ويشتم من هذا التعبير.

1- أن هناك حزازات قديمة يريدون إثارتها(الحسينية والباشية)

2- أن مركز الحكم السياسي (العامل) ومركز(قائد الحامية) هما بمنطقة جارة فالهجوم إذن على مركز السلطة المستسلم لا على منطقة جارة لأن هذه المنطقة قد قاومت المحتلين من منطقة "البلد"(جارة الدخلانية) إلى جارة الشرقي وهي المنطقة المستهدفة الأولى للسيطرة على البلاد من طرف القوات المحتلة قبل وصولها إلى المناطق الأخرى.

---

(1) المقصود بدار الكسكسي هو مركز الثكنة العسكرية التي بها السلاح(والكسكسي) هو الخرطوش الذي يملأ بالذخيرة وكلمة زواوة تعني نوع من الجنود الأتراك الذين كانوا يمثلون صنفا من أصناف الجنود.

لما علم المقاومون بأن الأسطول الفرنسي يزحف على قابس وجربة بعد احتلاله مدينة صفاقس نصب "المجاهد علي بن خليفة النفاتي" مركز قيادته(هذا ما ذكره مارتيل) بوذرال وتوجه أخوه صالح بن خليفة ورؤساء الحزم وبني يزيد إلى قابس للمشاركة في الدفاع عن قابس .

وقد وصل فرسان بني يزيد والحزم ونفات في 19 جويلية 1881. وفي 22 جويلية أرست سفينة حربية فرنسية على شاطئ قابس، ونزل منها عون تونسي للاطلاع على الوضع وكان اجتماع المقاومين منعقدا بجامع المنزل بإشراف المفتي الجيلاني الحبيب.

<u>تنظيم المقاومة في قابس:</u>

عندما نستعرض الرسائل التي وجهها عامل الأعراض حيدر باشا آغا "أبو الحسن حيدر" آخر عامل بقابس لفترة ما قبل الاحتلال إلى أمير الأمراء مصطفى بن إسماعيل الوزير الأكبر وكذلك ما كتبه القبطان LE BOEUF حول الموضوع نلاحظ:

1- أن عامل الأعراض كانت غايته من المراسلات التي بعثها هو تخوفه من هجوم(العربان) حسب تعبيره في المراسلات وأنهم يأتمرون بأوامر القائد علي بن خليفة خليفة الأعراض الثائر وأن السنيور لوطنة كولونال قائد الحامية لا يتمكن من الدخول إلى الغابة وأن المدد من القوات الفرنسية لم يصله من القيروان وأن المقاومين تمركزوا في منطقة شنني وأن هدفهم هو الهجوم على منطقة جارة <u>حيث يقيم هو وهي منطقة جارة</u> وأن وضعه المادي رديء للغاية وأنه اقترض من بعض أصحابه للصرف على عائلته وعلى بعض أصحابه وأتباعه وأنه يرغب في الإذن له بالسفر والالتحاق بالحاضرة(تونس).

والملاحظ من هذه الرسائل الحقد الذي يحمله العامل للشعب الذين كان يعبر عنهم بالعربان وكأنه يتحدث عن أعداء له وليس على تونسيين يدافعون على بلادهم كذلك عندما يتحدث على المقاوم علي بن خليفة الذي كاتب جميع العروش من أهل الأعراض يحرضهم على الثورة والمقاومة وكأنه يتحدث عن أجنبي مغامر لا على مدافع على بلده وشعبه ومقاوم للاحتلال.

أما LE BOEUF هو الآخر فكان يتحدث عن الهجومات، ونزول القوات الفرنسية على أرض قابس وكأن المعركة لم تكن مقاومة موحدة لبلد واحد، بل كان يؤكد على هجوم سكان منطقة المنزل على منطقة جارة وكأن منطقة جارة هي المستهدفة، وهي مع المحتل، ومنطقة المنزل ضدهم، لأن السلطة الحسينية في جارة المتمثلة في (العامل وقائد الحامية) هي التي استسلمت وكانت مع موقف الباي الذي أمضى على المعاهدة وهذا الموقف الذي أراد أن يبرزه LE BOEUF حسب رأيي يُظهر وأن منطقة من قابس وهي جارة قد استسلمت من أول وهلة وهم في طريقهم للقضاء على البقية الباقية وغايته من ذلك هو أحداث الفرقة بين السكان، وزيادة غرس بذور الشقاق بينهما، فيزيد بذلك شقة الخلاف التي نشأت وتطورت منذ بداية العهد الحسيني عن طريق أنصار الحسينية والباشية، وهي لعبة قد نجحت مع الأسف الشديد وكانت سببا في أحداث الفرقة بين سكان تونس جميعا، لازالت آثارها إلى

الآن تنخر العظام وتعرقل سير وتقدم البلاد.

كان سكان الأعراض(2) يتتبعون أنباء احتلال مناطق الشمال التونسي، ولما علموا بخيانة الصادق باي وامضائه معاهدة الحماية حدثت بعض أعمال الشغب في المنزل وشنني(3) مقر خليفة الجهة علي بن خليفة ثم سرعان ما استفحل الأمر، خصوصا وقد حجز أعوان القمارق "خمسين بندقية" جلبها أحد المواطنين من الخارج وانتشرت روح المقاومة بتأثير من علي بن خليفة قلت لقد لبى نداء المقاومة كل سكان قابس من جارة والمنزل ومن قبائل الحزم والحمارنة ونفات وبني يزيد وغيرهم. يقول LE BOEUF :

"في صبيحة يوم 24 جويلية 1881 كانت تحرّك هذه اللوحة حشود(المتمردين) وجولات الفرسان الصاخبة(يقصد فرسان بني يزيد والحمارنة) على الشاطئ في تحد للأسطول. لكن سرعان ما تفرق الجميع أمام قذائف بواخرنا لتسمح بنزول البحارة الرماة، وقد تمكن طاقم الباخرة ليوبار LEOPARD من الاستحواذ على المدفعين الذين نصبهما الأهالي على الضفة اليسرى من مصب الوادي بينما سيطرت السرايا على القشلة ونصبت بطارية من أربعة مدافع شرعت في قنبلة المنزل"

من هذا النص نستنتج من أن النزول إلى الأرض من طرف القوات الفرنسية كان سهلا كما أن استيلاءهم على المدفعين كان يسيرا. صحيح أن النزول كان سهلا لأن إلقاء قنابل(الكور) على الجمهور كان غير مفاجأ، كما أن المدفعين اللذين استولت عليهما القوات الفرنسية هي من مدافع السلطة الحسينية، التي كانت تحرس الميناء(4) وقد ذكر هذه الحادثة المقاوم احمد بن حرب من أصل ليبي وأنه قد فر عن طريق سفينة صغيرة إلى منطقة سيدي أبي لبابة وقد ذكرنا ذلك سابقا عند حديثنا عن الميناء.

أما ما يرويه الرواة الآخرون هو أنه كان من بين الحاضرين في هذا اليوم المرحوم علي المثناني(5) من العمريين وزوجته مبروكة الغرايري(6) وهو من منطقة جارة وكذلك زوجته وكان المناضل علي المثناني يعرف الفرنسية لأنه كان يعيش بالجزائر فلما قربت القوات الفرنسية من الشاطئ شتمها بالفرنسية وقال لها كلاما بذيئا فتعجب قائد الحامية من شخص يشتمهم بلغتهم فوقعت مناداته واتصل بالقائد وأعلمه بأن قابس ترفض الاحتلال ولا تقبل باتفاقية الباي لكن قائد الباخرة أعلمه بأن كل تونس الآن تحت سيطرتهم وأنه لا فائدة من

---

(2) انظر كتاب أضواء على تاريخ تونس الحديث 1881-1924 للأستاذ بشير بن الحاج عثمان الشريف صفحة 33

(3) كان الخليفة علي بن خليفة يقيم بشنني لأنه أصيل منطقة نفات وأغلب سكان شنني من نفات

(4) الذي كان يحرس الميناء هو المسمى بوبكر لامين وهو الذي افتك منه المدفعين الذين كانا يحميان الميناء وهو موظف لدى القمارق(المصدر هو المرحوم صالح الامين حفيد من أحفاده)

(5) حادثة علي المثناني والجيش الفرنسي رواها لي حفيد من أحفاده وهو محمود المثناني الذي لا يزال على قيد الحياة

(6) مشاركة مبروكة الغرايري مع زوجها احمد المثناني في المقاومة يدل على مشاركة المرأة القابسية في الدفاع عن قابس(المصدر أيضا حفيدها محمود المثناني)

المقاومة ولما لم يقتنع المرحوم علي المثناني نزل إلى البر وكافح مع أهالي قابس في جارة الدخلانية لأن القوات الفرنسية كانت قد بدأت في الزحف من ناحية شط سيدي عبد السلام متجهة إلى "البلد" (مركز الحاكم). وقد قاوم أهالي البلد بوسائلهم التقليدية من وراء النخيل التي كانت تحميهم، وتمكنت القوات الفرنسية من استلام مقر الحاكم التركي الذي استسلم بسهولة، ووصلت القوة إلى جارة الشرقي فوقع إلقاء قنبلة على المسمى احمد بن قفراش(7) فسقط قتيلا وكان يقذف الجيش بالحجارة.

وقد ذكر فيكتوريو في كتابه "تاريخ الحماية الفرنسية" (غير أنه وجب إطلاق بعض القنابل على جارة والمنزل ووجب فتح جارة بالطوربيد واحتلال منازلها قتالا بالسيوف).

كما ذكر جوير JOER في كتابه L'AFRIQUE DU NORD FANCAISE (وضربت كل من قابس وجربة بالقنابل واحتلتها القوات العسكرية الفرنسية)

كما يشير الأستاذ محمد المرزوقي في كتابه "قابس جنة الدنيا" صفحة 223.

(ولم يستطع الفرنسيون الاقتراب من قابس وغابتها إلا بعد براز عنيف ذهب ضحيته جماعة من الأبطال حيث سقطت منهم جماعة من الشهداء في الغابة ولما نزل الفرنسيون وهاجموا جارة تلقاهم المقاومون في جارة بالسلاح الأبيض مما اضطرهم إلى احتلالها منزلا منزلا في الوقت الذي كانت فيه قنابل جيشهم من الناحية الغربية وأسطولهم البحري تخرب الغابة وحارة المنزل).

كانت القوات الفرنسية التي نزلت بالبر قد أرسلت فرقة إلى (منطقة العيون) بشنني برأس الواد لتسيطر على المياه والغابة من الناحية الغربية وواصلت القوات الفرنسية الزحف إلى أن وصلت إلى مركز القيادة العسكرية بالبرج(دار الكسكسي أو برج زواوة) وكان المقاومون من الحزم والحمارنة وبني يزيد ونفات قد استولوا عليه وسيطروا على السلاح الذي كان مدخرا فيه بعد أن سلمها القائد مصطفى التركي إلى القوات الفرنسية إلا أن جاسوسا يهوديا قد أخبر الفرنسيين بأن المقاومين يوجدون بالبرج فألقوا عليهم قنبلة انفجرت وقضت على كل من فيها وحسب التواتر أن الذين استشهدوا في هذا البرج بلغ عددهم 300 مجاهد بينما يشير تقرير LE BOEUF أن الذين قتلوا(استشهدوا) بلغ عددهم بين 60 و70 شخصا.

يقول الضابط الفرنسي LE BOEUF عن احتلال قابس صفحة 74 في كتاب المقاومة المسلحة في تونس:

"وتحت حماية طلقات المدافع تقدم البحارة يقودهم النقيب البحري مارك دوسانت هيلار MARQ DESAINTHILAIRE لمهاجمة القريتين" أي (جارة والمنزل)

ثم يقول: " وقد توغل طابور صغير مسلح بالحراب عبر نهج القوم" (هذا النهج يسمى الآن بنهج الشهيد الجيلاني الحبيب) الذي يؤدي إلى منطقة المنزل محاذ للبرج حتى ساحة المسجد(سيدي بن عيسى) أين وجد نفسه وجها لوجه مع الفرسان(المتمردين) أي المقاومين

---

(7) الشهيد احمد بن قفراش هو من عائلة الحزم بجارة قابس والذي رواها لي حفيد من أحفاده عبد الرحمان بن قفراش وهو على قيد الحياة.

محتشدين على أهبة القتال تحت إمرة باش مفتي المنزل(8) فاندفع قتال ضار قتل فيه هذا الوجيه لكن التوقف القسري للمدفعية مكن المدافعين عن (القرية) من التموقع على سطوح المنازل وأمطروا تلك المجموعة الصغيرة من الجنود بوابل من الرصاص حيث جرح منهم خمسة وأصبح التراجع ضروريا لكن(المتمردين) أي المقاومين المتحصنين ببناية التلغراف(9) بمنعطف نهج القوم سد أمامه الطريق فقرر الملازم أول بحري برام BREM نسف المبنى وتمكن من العودة بجنوده لبرج(زواوة ودار الكسكسي)

ثم يقول « le Boeuf » لقد شجع هذا الانتصار سكان المنزل الذين يربو عددهم على ثلاثة آلاف عادة والذي تضاعف على الأقل بمساندة (البدو) على القيام بهجوم معاكس أجبر الفرنسيين على تسليم(البرج) الذي سلّم من طرف قائد الحامية مصطفى التركي قبل ذلك.

وقد ذكرنا ذلك قبل هذا الهجوم الذي شنته القوات الفرنسية على منطقة المنزل وأن القوات الفرنسية البحرية قد ألقت فيه قنبلة قضت على كل من فيه من المقاومين المجاهدين وتواصل القتال في منطقة المنزل واستشهد بالإضافة إلى الشهيد الجيلاني الحبيب الذي ذكرناه في تقرير LE BOEUF الشهيد الآخر هو أبوبكر عقل (10) من المنزل بالقرب من قنطرة الشمامة ودخل المقاومون بعد ذلك إلى قرية شنني وتمكّن الجنود الفرنسيون من القضاء على خمسين نفرا من أهلها حسب تقرير le BOEUF لكن حسب التواتر استشهد أكثر من 200 شخص(11) وهم يدافعون عن مسكن المجاهد علي بن خليفة خليفة الأعراض وخوفا من إعادة الهجوم عليهم وهم بعيدون عن المدد بقابس تراجع العسكر بقيادة جامي JAMAIS ثم يقول LE BOEUF "وفور مغادرته لشنني أي(JAMAIS) ترك المتمردون الثوار الوهاد برأس الوادي واحتلوا القرية واحتفالا بانتصارهم حرقوا في الساحة العمومية جنديين وهما حيّان كانا أسرا عند مهاجمة القرية" ثم يقول في صفحة 76 في موضوع احتلال المنزل وشنني.

"وفي يوم 2 سبتمبر 1881 وصل أهل المنزل وشنني مدد بـــ 150 فارس بعث بهم علي بن خليفة وقد قاموا بمحاولة يائسة لاسترداد منطقة جارة وكان القتال عنيفا لكن الكولونال جامي تمكن من صد المهاجين بعد أن عزز الدفاع بالمدينة وبكتيبة من المشاة ورغم الخسائر من الجانبين أعادالمتمردون أي (المجاهدون) الكرة يوم 6 سبتمبر لكن أمام هذا الفشل الجديد انسحب فرسان نفات نحو معسكرهم "بقلعة الفوني" تاركين أهل المنزل بمفردهم"

وهكذا استسلمت قابس نهائيا يوم 24 نوفمبر بعد جهاد عنيف وطويل وبعد أن أصبحت المدينة خرابا وخصوصا منطقة المنزل ودامت المقاومة كامل شهر أكتوبر.

---

(8) هذا التعبير يشتم منه العنصرية والتفرقة لأن المفتي هو مفتي قابس كلها وليس مفتي المنزل كما يعبر عنه LE BOEUF

(9) بناية التلغراف المقصود بها هي إدارة البريد وكانت توجد بالمنزل ومواجهة الآن لشارع الجمهورية في الجهة التي تقع فيها مقهى عبد الله الطرابلسي الآن ومقابلة لضريح سيدي بن عيسى ومعهد شارع الجمهورية الآن.

(10) المصدر هو الحاج الجليدي شلي المسن والذي ذكر لي معلومات هامة عن قابس سمعها عن كبار آبائه وأجداده وقد ذكرناه سابقا

(11) المصدر هو الصغير بن إبراهيم بن عبد القادر معلم متقاعد وإمام جمعة من سكان شنني.

تراجع الثوار إلى خارج قابس:

بعد هذا التراجع تمكنت القوات الفرنسية من السيطرة على البلاد وإخضاعها والقضاء على الثوار المقاومين وقد فر البعض منهم إلى الجنوب وإلى الحدود الليبية وإلى جبال مطماطة فأرادت القوات الفرنسية اللحاق بمن فر إلى مطماطة لكن الضابط القبائلي الجزائري يوسف الليقرو(12) JOSEF ALLEGRO الذي شارك في الحملة ضد قابس نصح الفرنسيين بالتريث إلى فصل الشتاء حتى يبرد الطقس وتنزل الأمطار ويكون بذلك السلاح الذي يستعمله الثوار غير صالح لأن(الكسكسي) أي الخرطوش المستعمل في ذلك الوقت يكون غير ذي مفعول بفعل البلل الذي يصيبه ومن أقواله لهم "سيأتي يوم تحتلون فيه مطماطة دون أن تخسروا قتيلا وهكذا نجحت النصيحة التي قدمها لهم يوسف الليقرو ونزل الثوار بعد ذلك وكان جزاء هذا الناصح إعطاؤه عمالة قابس هدية أي أصبح أول عامل "قايد" على قابس بعد الاحتلال.

يظهر من سير الأحداث ومن التحليلات التي قدمها الضابط الفرنسي LE BOEUF وكذلك تقارير عامل قابس أبو الحسين حيدر باشا ومراسلاته إلى الوزير الأكبر مصطفى بن إسماعيل أن معركة قابس أو احتلال قابس من طرف القوات الفرنسية قد أخذ مأخذا عنصريا متأثرا بالنزاعات التي كانت متواجدة في تلك الظروف الحالكة والفرنسيون لهم غرض في إثارتها والاعتماد عليها كعنصر للانتصار والغلبة وأعوانهم الذين بعثوا بهم للتجسس ومعرفة نقاط الضعف قبل الاحتلال قد ركزوا عليها خصوصا الراهب والمبشر ايفالد في رسائله وبالإضافة إلى ذلك:

1- سوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية التي أدت إلى هجوم بعض القبائل على قابس وخصوصا على منطقة جارة قبل الاحتلال الفرنسي.

2- استغلال فكرة الصراع السياسي الذي كان مسيطرا على البلاد وهو صراع ما يسمى بالحسينية والباشية إذ كانت المنزل مع الحسينية ومعها بعض القرى والقبائل وكانت جارة مع الباشية ومعها بعض القرى والقبائل وقد استغلت السلطة هذه الناحية فصورت دفاع أهالي قابس بصورة مشوهة.

3- استسلام السلطة التونسية المتمثلة في (القايد أو العامل) والسلطة العسكرية المتمثلة في (قايد الحامية أي الجيش) المقيمين بجارة عُدّ استسلاما من طرف منطقة جارة وخضوعا للسلطة فأصبحت قابس بذلك منطقة مستسلمة ومنطقة مدافعة ضد الاحتلال ولازالت هذه الأفكار مستغلّة من طرف المغرضين رغم تواصل الكفاح بين المنطقتين معا سواء في نطاق الحزب الحرّ الدستوري القديم بقيادة الزّعيم عبد العزيز الثعالي أو في نطاق الحزب الجديد الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد بقيادة الزعيم الحبيب بورقيبة أو في العهد الجديد بقيادة زين العابدين بن علي عن طريق التجمع الدستوري الديمقراطي كما سنرى ذلك.

---

(12) يوسف الليقرو كان قنصل الباي في عنابة بالجزائر رغم أن جنسيته كانت جزائرية وقد أشرنا غلى أنه قد ساعد فرنسا في هجومها على قابس

الفصل الثالث
(ولاة قابس منذ الاحتلال الفرنسي)

بعد الاستيلاء على تونس وعلى قابس بعد مقاومة عنيفة، سيطرت فرنسا على البلاد وقسمتها إلى 36 عمالة (ولاية) و 750 مشيخة وهم عيون العامل وقد ذكرنا ذلك سابقا في الفصل الثاني من الباب الرابع وقد ذكرنا كذلك إلى أن الإيالة التونسية قد قسمت إلى 21 دائرة يشرف عليها المقيم العام بتونس وبها مراقبون مدنيون فرنسيون وقايد(عامل) تونسي بالإضافة إلى المنطقة العسكرية التي يشرف عليها الجنرال وتشمل مناطق(قبلي ومدنين وتطاوين ومطماطة) وتسمى بمكاتب الشؤون الأهلية(Bureau Des Indijennes) وفي سنة 1922 الموافق لـ 1340هـ أحدثت هيئة استشارية تعرف "بمجلس العمل" يرأسها العامل وأعضاؤها تونسيون وقسمت البلاد إلى خمس مناطق مدنية(تونس، بنزرت، الكاف، سوسة وصفاقس) ولم يشمل هذا التقسيم قابس وفي سنة 1943 م/1362هـ أحدثت منطقة سادسة ضمت قابس، وبذلك أصبحت 6 مناطق وتولى عمالة قابس 8 عمال وليس لدينا في الواقع معلومات دقيقة عنهم سوى أنهم كانوا يحكمون منطقتهم بإشراف المراقب المدني كغيرهم من العمالات التونسية وتقع تسميتهم عادة من الذين يتسلمون مقاليد الحكم شرفيا، وليس لهم الحق في أخذ القرار دون موافقة المراقب المدني الفرنسي، ولو أن البعض منهم قد وجد صعوبة في مسايرة الوضع وكان اللّسان الصادق للدفاع عن مواطنيهم، ومن هؤلاء العمّال (الولاة).

1- يوسف الليقرو:

تولى يوسف الليقرو عمالة قابس إثر فرض الحماية الفرنسية على قابس وكان قبائليا جزائريا وقيل غير ذلك، وكان مكلفا بمهمة قنصل تونس في عنابة من طرف باي تونس رغم أنه لا يحمل الجنسية التونسية، وقد ساعد الفرنسيين كما ذكرنا على احتلال قابس وعلى السيطرة على مطماطة التي لجأ إليها بعض المجاهدين أثناء المقاومة في قابس وتكليفه بهذه الخطة من طرف فرنسا، رغم أنه لا يحمل الجنسية التونسية وذلك جزاء مساعدته لهم على احتلال قابس إنّ تكليفه بعمالة قابس يعتمد على أن الباي قد اعتبره تونسيا إذ تكليفه بمهمة سياسية ديبلوماسية قد ساعد هذا فرنسا على تعيينه. وربما أن تكليفه بخطة عون قنصلي للتونسيين في عنابة كان خطة مدبّرة من فرنسا استعدادا للسيطرة على تونس بعد سيطرتها على الجزائر. وقد امتلك هذا العامل أرضا بشنني قابس سميت بشط الفريك وسجلت باسمه في السجل العقاري رغم أنها كانت على ملك بعض الخواص من منطقة شنني والمنزل كما سمي الملعب البلدي الثاني في قابس (مكان نزل الواحة والشمس الآن) بملعب يوسف الليقرو JOSEF ALLEGRO

2- الحاج محمد بن خليفة:

وهو العامل الثاني الذي تولى عمالة قابس بعد مقاومته للاحتلال الفرنسي سواء في صفاقس أو في قابس مع أخيه المجاهد علي بن خليفة قائد المقاومة الذي جاهد مع بقية

المناضلين للدفاع عن البلاد.

ولما التجأ أخوه علي بن خليفة إلى التراب الليبي حيث توفي هناك استسلم مَحمد بن خليفة بعد مراسلات من أخيه علي بن خليفة لأنه لم ير بدا من الاستسلام وقد استسلمت البلاد إلى إرادة محمد الصادق بشا باي تونس الذي أمضى على معاهدة الحماية المسماة بمعاهدة باردو وأكملها باتفاقية المرسى وسيطرت فرنسا على كل المناطق. كان السيد مَحمد بن خليفة شجاعا لكنه كان غير متعلم وبذلك تغلب عليه الفرنسيون بالحيلة ومن أعماله الجليلة إنشاؤه للجمعية الخيرية بتونس وقد حبّس بعض أملاكه عليها لإعالة الفقراء والمحتاجين.

3- محمد قدور :

وهو (القايد) أي العامل الثالث الذي تولى عمالة قابس وهو من منطقة صفاقس ولم تدم مدته طويلا، وفي الواقع ليس لدينا معلومات عن حياته وعن ما قام به في قابس

4- عبد العزيز الجلولي:

وهو القائد أي العامل الرابع بقابس واشتهر بآسم العزيز ويرجع في الأصل إلى عائلة الجلولي بصفاقس لكنه انتقل بالسكنى إلى تونس واستقر بضاحية رادس وكان مشهورا بالوطنية وحب الناس وحب الخير ويذكره أهالي قابس بالذكر الحسن وهو الذي استقبل الشاعر اللبناني جميل خوري بقابس سنة 1936 الذي تغنى ببيتين من الشعر ذكرناهما عند حديثنا عن واحة قابس في هذا الكتاب من الباب الأول الفصل الثاني.

وقد كان رئيسا للهلال الأحمر التونسي في سنوات الستين أي بعد الاستقلال إلى وفاته برادس كذلك تولى وزارة الأوقاف في عهد المنصف باي (وزارة محمد شنيق 1943)

5- مصطفى اللونقو:

وهو العامل (القايد) الخامس الذي تولى عمالة قابس وهو من منطقة قفصة، وقد تملك غابة في واحة كتانة وبيعت في السنين الأخيرة من طرف الورثاء إلى الحاج الكيلاني السالمي عمدة شنني سابقا وأصيل منطقة كتانة وفي عهده وقعت مظاهرة في 10 أفريل بقابس بمناسبة حوادث 9 أفريل 1938 التي حدثت بتونس وقد قبل وفدا من المتظاهرين وخَطب فيهم ووعدهم بإبلاغ صوتهم إلى باي تونس. وهو الذي امتنع من نفي بعض المقبوض عليهم في قابس من مسؤولي الشعب في حوادث 10 أفريل وأطلق سراحهم وهم السادة المرحوم الصحبي خليفة والمرحوم حسين عزيز والمرحوم الطاهر واجه والمرحوم عبد المجيد شمام والمرحوم عبد السلام النوري الجرادي والمرحوم محمد الصالح المؤدب وكلهم من قابس والمرحوم محمد الصالح جراد(من مطوية) والمرحوم محمد خشيريف(من وذرف) والمرحوم حسين عبيد(من النحال) والمرحوم محمد الوصيف(من الحامة) (حسب مذكرات المرحوم الصحبي خليفة عن الحركة الدستورية بقابس صفحة3).

6- إسماعيل زويتة:

وهو العامل (القايد) السادس الذي تولى عمالة قابس أثناء الحرب العالمية الثانية أي سنة 1940 وهو من منطقة سوسة.

7- صولة بن عبد اللطيف بن سعيد:

وهو العامل (القايد) السابع في فترة الاحتلال الفرنسي وهو من منطقة عكارة(جرجيس) وفي عهده وقعت مشكلة دفن المتجنس(علي الذهيبي) واتهام الصحي خليفة بأنه هو الذي منع دفنه في مقبرة المسلمين (وقد ذكر من مذكرات المناضل المرحوم الصحي خليفة).

8- رحومة بن لهيبة:

وهو العامل (القايد)الثامن الذي تولى ولاية قابس وهو من عكارة أيضا(جرجيس) تولاها سنة 1943 الموافق لـ 1362 هجري قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية وفي عهده كانت السلطة بيد المراقب المدني الفرنسي وسلطة القايد أي العامل محدودة جدا وأحدثت المنطقة السادسة في عهده وتركز المركز العسكري بها رغم أنه لا يشملها وهو يسيطر على الجنوب التونسي(مدنين، تطاوين، وقبلي ومطماطة) .

الباب التاسع

(تسلسل الأحداث من الحماية الفرنسية 1881 إلى قيام الثورة الكبرى 1952)

الفصل الأول

(من الحماية الفرنسية إلى قيام الحزب الحر الدستوري الجديد 1881-1934)

I تواصل المقاومة على الحدود:

بعد مقاومة عنيفة من طرف سكان قابس للحماية الفرنسية، وبعد سيطرة فرنسا على قابس المدينة أي جارة والمنزل وشنني، تواصلت المقاومة في المطوية ووذرف والحامة إلى شهر ديسمبر 1881، وسيطرت فرنسا على كل الجنوب التونسي ولم تبق إلا منطقة المرازيق "دوز" التي بقيت إلى سنة 1882 حيث أكملتها فرنسا وسيطرت عليها.

لقد فرّ بعض المقاومين إلى أقصى الجنوب إلى الحدود الليبية وإلى ليبيا فقد التحقت بصحراء الجنوب(1) قبائل أولاد يعقوب والمرازيق والصابرية والعذارى وكانت هذه المجومات تصل إلى صفاقس وسوسة والقيروان ومن المناضلين الذين ناضلوا في منطقة قابس

1- الشهيد الجيلاني الحبيب باش مفتي قابس

2- الشهيد بوبكر عقل

3- الشهيد أبوبكر الأمين

4- الشهيد احمد قفراش

5- الشيخ القاضي عبد العزيز الحمروني الذي كان يلهب أصحاب العزائم الصادقة بخطبه الرنانة في الجامع

أما الذين هاجروا وفارقوا ديارهم فهم:

6- إبراهيم الساسي الشعلي(الفارس والشاعر) من الشعل بالحامة(1822-1917)

7- الشيخ عامر العيساوي من مطماطة من بني عيسى(1813-1902)

8- المناضل القائد علي بن خليفة النفاتي خليفة الأعراض(1807-1885) وهو الذي قاد المعركة.

وكذلك عائلته المناضلة ومنهم 1- أخوه صالح بن خليفة، 2- ومحمد بن خليفة، 3- العوني بن صالح بن خليفة، 4- الشيخ محمد بن صالح بن خليفة

9- علي بوعلاق من أولاد يعقوب بقبلي(من نقة)

10- الشيخ محمد بن عبد الله شهر(بالشرع) جد المرحوم علي المكي المرزوقي(المربي والمعتمد وعضو مجلس النواب والكاتب العام للجنة التنسيق بتونس الجنوبية سابقا)

---

(1) انظر كتاب معارك وأبطال(صراع مع الحماية) لمحمد المرزوقي صفحة 114

11- المرحوم مُحمد الوحيشي الحمروني الذي ينتسب إلى الحمارنة الفرع الرابع من بني يزيد(بني سليم) ومن أحفاده المرحوم عبد الله شهر عبودة الحمروني خليفة من خلفاء مارث.

لقد بلغ عدد المهاجرين إلى التراب الليبي حسب المصادر التركية(250 ألف مهاجر بعائلاتهم) منهم من مرتفعات مطماطة 60 ألف و 10 آلاف من نفات... وحسب المصادر الفرنسية لقد بلغ عدد المهاجرين ما بين 40 ألف مهاجر إلى 120 ألف مهاجر. وحسب(2) مارتال لقد بلغ عدد المهاجرين ما بين(120ألف و 140 ألف). كانت المناوشات والمصادمات بين القوات الفرنسية بقيادة قائد الأعراض يوسف الليقرو وبين المهاجرين المجاهدين على الحدود وداخل الحدود متواصلة، وكان المجندون من قبل فرنسا يقبضون رواتب هامة جزاء قيامهم بهذا العمل، ودامت المقاومة هذه إلى صائفة 1882 أي لمدة عام تقريبا.

كانت هذه الهجومات المنسقة مع قائد الأعراض بالتعاون مع خليفة الحامة وخليفة مطماطة وخليفة قبلي إذ كانت مع هذه الهجومات التي كان يقوم بها المهاجرون كانت هناك محاولات من هؤلاء الخلفاء الثلاثة لإرجاع المجاهدين إلى وطنهم وإغرائهم بالوعود. وكانت المناشير والقرارات تصدر من السلطة الفرنسية ومن الباي بإرجاعهم فقد رجعت في أواخر أوت(1882) 20 عائلة إلى قابس وكذلك 40 عائلة من حزم قابس ورجع محمد بن خليفة صحبة علي بن عمار العياري وابنه. أما المجاهد علي بن خليفة النفاتي فقد بقي في ليبيا إلى وفاته سنة 1885 بعد نصحه لأخيه مَحمد بالرجوع إلى قابس ولم يبق من المهاجرين بعد سنة 1883 إلا أعدادا قليلة فرجع جماعة من نفات وبني يزيد والحمارنة والمهاذبة.

وإذا أردنا أن نسلط الضوء على فشل تواصل هذه المقاومة فإننا نردها إلى:

1- عدم وجود قيادة موحدة سواء كان ذلك أثناء الكفاح داخل البلاد أو أثناء فرض الحماية أو خارج البلاد وعلى الحدود

2- عدم تكافئ القوتين في السلاح المستعمل أثناء هذه المقاومة سواء في تونس بصفة عامة أو في قابس

3- انخذال موقف السلطة التونسية المتمثلة في الباي وقبوله بالأمر الواقع وفرض الحماية عليه رغم نصح بعض وزرائه له بعدم الاستسلام وبعدم الإمضاء على المعاهدة كما ذكرنا ذلك سابقا وكذلك فشلها في قابس حيث سلمت السلطة السياسية والعسكرية.

4- عدم اتصال الثوار بالسلاح من طرف الحكومة التركية بعد محاولة القوات نشر دعاية وصول المساعدة التركية في أقرب الأوقات

5- خذلان الشعب وخضوعهم للحكم الواقع وقبول الحماية الفرنسية التي قبلها حامي البلاد باي تونس وأمضى عليها

(2) انظر كتاب الحدود لمارتال الجزء الأول صفحة 290

6- تمكن فرنسا من جلب بعض الأنصار إليها والمؤيدين من التونسيين لإرجاع المجاهدين المهاجرين إلى بلادهم.

II بداية الحركة الفكرية والسياسية:

بعد فشل المقاومة وتمكن فرنسا من السيطرة على البلاد حاولت فرنسا أن تسيطر على الوضع إلا أن المقاومة التونسية تحولت من المقاومة المسلحة إلى المقاومة الفكرية والسياسية لاستنهاض الهمم ومحاولة إنقاذ البلاد بعد استسلام السلطة الحاكمة فأول حركة حدثت بتونس تمثلت في عقد اجتماع شعبي عام بضريح سيدي محرز ابن خلف بتونس في 6 أفريل 1884 الموافق لـ 19 جمادي الثانية 1302 هـ وتمخض عن هذا الاجتماع تقديم عريضة إلى "علي باي الثالث" حررها الشيخ "محمد السنوسي" رئيس جريدة الرائد الرسمي التونسي آنذاك وتتلخص في 6 مطالب منها إصلاح الوضع والحد من النفوذ الفرنسي في الإدارة والاحتجاج على بيع أملاك البلدية إلى الفرنسيين الخ.

لقد رفضت هذه المطالب(3) وتواصل الكفاح عن طريق الجرائد اليومية والأسبوعية منها جريدة "الحاضرة" لعلي بوشوشة وجريدتي "المنتظر والمبشر" لعبد العزيز الثعالبي ثم جريدة "سبيل الرشاد" ومن كتابها الهادي السبعي، محمد السلامي، الشاذلي زروق، المكي بن عزوز وعلي كاهية... وغاية هذه الجرائد هو إثارة الوعي القومي ثم تكونت المدرسة الخلدونية(1896م-1313هـ) لنشر التعليم العصري في تلاميذ الزيتونة وبرز فيها البشير صفر.

حاولت هذه النخبة من المثقفين نشر دعايتهم وجلب التأييد إليهم حتى خارج الحدود فقد سافر عبد العزيز الثعالبي إلى الشرق لهذا الغرض وبقي 4 سنوات ثم تكونت "الجمعية الرياضية الإسلامية" و"جمعية قدماء الصادقية" ثم أنشئت جريدة "التونسي" التي تصدر باللغتين العربية والفرنسية. ثم تكون الدستور في تركيا فشجع التونسيين للمطالبة "بحكم نيابي" والتف المثقفون حول "تونس الفتاة" ثم وقع "مؤتمر شمال إفريقيا" بمرسيليا تناول فيه الكلمة بعض المناضلين من تونس ومنهم البشير صفر والصادق الزمرلي والطاهر لسود وخير الدين بن مصطفى وعبد الجليل الزاوش ومحمد باخوجة.

ثم قوي الوعي القومي أثناء هجوم إيطاليا على طرابلس 1911 فتحرك التونسيون لإعانة إخوانهم ماديا وبالتطوع في الجهاد.

ثم وقعت حادثة الجلاز في نفس السنة فاهتز لها كل التونسيين لأن بلدية تونس أرادت أن تسجل أرض المقبرة باسمها لغرض إبطال الدفن بها وتوزيعها بعد ذلك على الفرنسيين لبناء مساكن، ولولا وقفة التونسيين الحازمة ولولا استشهاد 14 مواطنا وجرح آخرين لانتهى الأمر.

وهكذا تغلبت القوى الوطنية واندحرت فرنسا في أول محاولة لها للقضاء على مقبرة إسلامية وقد نوهت الجرائد التونسية بهذه العملية فعطلت كل الجرائد ولم تبق إلا جريدة "الزهرة" وقد

(3) ملخص من كتاب تونس عبر التاريخ لأحمد عامر

حوكم 77 مواطنا بأحكام مختلفة ثم وقعت حادثة مقاطعة الترام بسبب سوء المعاملة وتواصلت الأحداث إلى الحرب العالمية الأولى(1914-1918-) بين الحلفاء(فرنسا، أنجلترا، إيطاليا وأمريكا) وبين دول المحور(تركيا، ألمانيا والنمسا) وقد شارك التونسيون كجنود مع دول الحلفاء إذ بلغ عددهم 65 ألف تونسي مات منهم في الحرب 12 ألف مواطن كما شارك التونسيون كعمال في فرنسا لصنع الأسلحة والعتاد الحربي فبلغ عددهم حسب كتاب تونس عبر التاريخ 29 ألف عامل.

لقد شارك التونسيون مع الحلفاء ومع فرنسا بالذات وذلك لوعدها لهم بالحرية والإنعتاق خصوصا وأن رئيس الولايات المتحدة ''ولسن'' قد وعد وعودا للشعوب المولّى عليها ومنها تقرير المصير.

لقد انتظر التونسيون تحقيق هذه الوعود بعد الانتصار وترقبوا نتيجة مؤتمر الصلح الذي انعقد في 18 جانفي 1918 فتكونت لجنة تحرير تونس والجزائر ووجهوا برقية إلى الرئيس ولسن يذكرونه بالوعود التي وعد بها والتف التونسيون حول الزعيم عبد العزيز الثعالبي ثم وقعت تسمية مقيم جديد في تونس "فلاندان" الذي صرح " بأن تونس بلاد رشيدة تستحق الحرية " إلا أن هذا التصريح لم يعجب المعمرين في تونس.

ثم أصدر الثعالبي كتاب "تونس الشهيدة" وترجمه إلى الفرنسية احمد سقا فغضبت فرنسا وألقي القبض على الثعالبي.

ثم تطورت الأوضاع بعد إطلاق سراحه فتكون في 13 جوان 1920 الموافق لـ 17 رمضان 1338 الحزب الحر الدستوري التونسي الذي طالب بعدة مطالب

1- مجلس تفاوضي
2- مسؤولية الحكومة لدى المجلس
3- التفريق بين السلط
4- تكليف التونسيين بالمناصب الإدارية
5- المساوات في المرتبات
6- تنظيم المجالس البلدية الخ..

أما موقف أهالي قابس من كل هذه التطورات والأحداث فيظهر في التقرير الذي أعد من طرف(4) لجنة تكونت للاحتفال بمرور 55 سنة على تكوين شعبة جارة الدستورية "شعبة الحبيب شقرة الأن" التابعة للحزب الحر الدستوري الجديد وقد وقع هذا الاحتفال في سنة 1992 ففي هذا القرير نلاحظ مواكبة مواطني قابس للأحداث رغم أن الوعي الفكري يختلف في ذلك الوقت بسبب الجهل والفقر الذي أصبحت تعانيه منطقة قابس، لكن الوعي الوطني وروح

(4) الاحتفال كان في سنة 1992 والتقرير كان ملخصا للاستجوابات التي وقعت من مناضلي الجهة ومنهم الصحي بالحاج محمود الجرادي والمرحوم الحسين عزيز وعبد الله الغنوشي والمرحوم الصحبي الحضري والصغير لاغة والمرحوم صالح الشين والمرحوم الحبيب الغول وغيرهم وقد شارك في هذا الاستجواب(صالح قيزة وعلي شقرة وبلقاسم جراد) وحرر من طرف صالح قيزة

المقاومة لم تمت وقد ظهر ذلك في مواصلة الكفاح المسلح إلى آخر لحظة ثم ظهر في إعانة إخوانهم الليبيين في محنتهم ضدّ الاحتلال الإيطالي سنة 1911 فلقد تكونت لجنة إغاثة في قابس لجمع التبرعات من السادة المرحومين.

1- صالح بالغايب
2- الصادق قبيبيع
3- يوسف الغول
4- علي بن جراد
5- الطاهر بالحاج السنوسي
6- المختار بن علي

وقد حمل هذه الإعانة المرحوم عبد الله بن عبد العزيز الحمروني إلى إخوانه الليبيين، كما ظهر في توزيعهم للجرائد التي تصدر بتونس ومتابعتهم للأحداث فلقد سجن أفراد القائمة التي ذكرناها والتي كانت قد جمعت التبرعات للإخوان الليبيين أثناء الحرب العالمية الأولى لأنها تخوفت منهم ومن ردود فعلهم وقد أضيف إلى القائمة التي ذكرناها علي فارس وعمار بن عبد الله والحبيب الزائر وبلقاسم بالصادق بن علي وهم من الحامة. أما أسماء الوطنيين الذين وردت أسماؤهم عن طريق السلطة ما بين سنتي 1918-1923 وهم كما يلي:

من جارة

1- عمر قفراش
2- صالح بالغايب
3- علي بن جراد
4- بلقاسم بن محمد بالثابت
5- الكيلاني شقرة
6- السنوسي عبد الجواد
7- حسن بعبو
8- صولة بن علية
9- الصغير العزوزي
10- علية الحمروني
11- علي بن فلاح

من المنزل

12- الصادق بوحليلة
13- مختار بن علي
14- النفطي شمام
15- محمد المرزوقي
16- محمد النفوسي
17- بلقاسم بن علي بالصادق

من مارث

18- عبد الرحمان الحمروني
19- عبد اللطيف بن رحومة الحمروني
20- محمد بن عبد الرحمان الحمروني

من تبلبو

21- بلقاسم بن عبد الله

من المنارة

22- عبد الله الحافي

من الحامة

23- محمود عباس

من الزارات

24- احمد القروي
25- المبروك القروي

كذلك لبّى الوطنيون في قابس الدعوة لتكوين شعبة دستورية تابعة للحزب، وحسبما أعد في هذا التقرير الذي ذكرته أن هذه السنة سنة 1920 هي السنة التي تكون فيها الحزب لأن الجو كان ملائما في قابس لإحداث هذه الخلية فقد قدم إلى قابس حسب الرواية شخص من تونس

مبعوث من الحزب الحر الدستوري(5) قيل أنه سيلقي درسا دينيا في جامع سيدي إدريس "بالبلد" فجمع له كل من كان يدرس في جامع الزيتونة وبعدما ألقى درسه دعا الحاضرين إلى في الانخراط في الحزب الحر الدستوري الذي تكون آنذاك حتى يجمع شتات الناس ضمن حزب منظم يجابه المستعمر ويطالب بالاستقلال.

لقد تحمس الحاضرون واقسموا على العمل والإخلاص ضمن هذا الحزب وعلى مقاومة المستعمر وقد انخرط في هذه الشعبة 1200 منخرطا وكان رئيسها المرحوم عمر قفراش(عيرود) وكاتبها العام المرحوم الحبيب الغول.

ثم تكونت شعبة مركزية بقابس حسب الوثيقة الرسمية بالخزينة مؤرخة في 1923 في شكل محضر جلسة أرسلت به الشعبة إلى الحزب وكانت هذه الوثيقة ممضاة من طرف الهيئة ومتركبة من عمر قفراش رئيسا، الكيلاني شقرة، احمد بن قيزة، الطاهر بالحاج السنوسي، محمد النفوسي، المختار بن علي، علي بن جراد وبلقاسم بو عبد الله.

وكانت هذه الشعبة تجتمع إما في مقهى بن سالم شهر(باك سالم) بالمنزل أو في مخبزة علي الجمل القديمة بجارة قرب سبالة الحمام والتي كانت على ملك دار ابن حيدر.

كان دور هذه الشعبة توزيع الاشتراكات وبيع جرائد الحزب وعقد الاجتماعات وتحريض الناس على العصيان والتمرد على السلطة وإحداث الشغب إلى أن ألقي القبض على رئيس شعبتها عمر قفراش وحوكم بمحكمة سوسة بتهمة عقده اجتماعا بدون رخصة وذلك سنة 1925 (صدر هذا القانون سنة 1925) وأول من طبق عليه هو "عمر قفراش" وبقي بالسجن إلى سنة 1929 .

ولما اتسع نشاط الشعبة أصبحت الضرورة تدعو إلى تكوين شعب أخرى في المنطقة فتكونت شعبة بمنطقة المنزل برئاسة الطاهر دبية حسب رواية هذا التقرير وأصبحت شعبة جارة الدستورية متكونة من عمر قفراش وعلي الجمل والكيلاني شقرة والحبيب شقرة ومحمد بن حسين ورجب بالحاج رجب واحمد بن قيزة والحاج سعد إمبارك الحمروني والكيلاني الشين والصادق بالرايس(بن سليمان) وصالح بن رجب العمري.

في هذه الأثناء نفي إلى قابس محي الدين القليبي والدكتور الماطري وبوزويتة وقد ألقى الأستاذ القليبي محاضرة سياسية بنزل النجمة(المداية القديمة وكان صاحب النزل عن طريق الكراء هو الصادق بالرايس) وكانت على ملك الصغير بالعاتي وهي من القصور القديمة التي ذكرناها وهي على النمط التقليدي وبناها الخليفة الصغير بالعاتي.

وأهم ما حدث خلال هذه الفترة أي فترة تكوين الحزب الحر الدستوري

1- اتحاد العرش أي الملكية مع الشعب:

من أهم الأحداث التي وقعت خلال هذه الفترة هو اتحاد العرش أي الملوكية مع مطامح

---

(5) لم يذكر الرواة اسم الشخص الذي جاء إلى قابس لإلقاء المحاضرة الدينية والحث على تكوين شعبة دستورية تابعة للحزب الحر الدستوري التونسي قيل أنه (محي الدين القليبي أو شخص من توزر)

الشعب وذلك في عهد "محمد الناصر باي تونس" وقد تم ذلك في 18 جوان 1920 بتقديم مطالب إصلاحية قدمها باسم الوفد احمد الصافي وسمي هذا الوفد بوفد الأربعين. ثم تقدم وفد ثان برئاسة الطاهر بن عمار في 22 ديسمبر 1920، ثم وقعت مقابلة المقيم العام الجديد "لوسيان سان" فلم يقبل المقيم مطلب المجلس التفاوضي والحكومة المسؤولة أمامه لأنها تتعارض مع الحماية. وقد عارض الحزب هذا الرفض وحاولت فرنسا التفريق بين الباي والشعب بكل الوسائل، إلا أنها لم تتمكن من ذلك رغم نشر بعض الصحف بأن الباي معارض لإقامة حكم نيابي، وقد ردّ الباي على هذه الأكاذيب وكتب الردّ على ذلك إلا أن الصحافة لم تنشر معارضته فهدد بالاستقالة وأقال الوزير الأكبر الطيب الجلولي، وأبعد بعض المسؤولين من القصر، فأيد الشعب الباي وقام بمظاهرة تأييد ولم يتراجع الباي في الاستقالة إلا بعد وعد فرنسا له بتحقيق المطالب التونسية، إلا أن ذلك كان غدرا من فرنسا للباي وللشعب معا، وكانت مكيدة من المقيم لقرب زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية ميلران الذي جاء إلى تونس في أواخر أفريل 1922. لكن بعد مغادرة رئيس الجمهورية لتونس مرض الباي وتوفي في 11جويلية 1922 وقد نشرت إصلاحات جديدة لم ترض الحزب فعارضها رغم تأييد بعضهم لها ومنهم حسن القلاتي، وقد نفي عبد العزيز الثعالبي وتولى إدارة الحزب في ذلك الوقت محي الدين القليبي، وكان الثعالبي يكتب في جميع الصحف عن القضية التونسية إلى أن أبعد إلى الجنوب التونسي 1934-1936 وقد مثل الحزب في القاهرة سنة 1945 وبقي متنقلا بين دول الشرق إلى أن توفي في نوفمبر 1954 في دمشق الشام.

2- <u>النواة الأولى للحركة النقابية:</u>

الحدث الثاني الذي حدث في هذه الفترة هو بعث أول حركة نقابية في تونس عن طريق مواطن من "حامة قابس" هاجر البلاد وتثقف وتحصل على الدكتوراه من ألمانيا سنة 1924 ثم رجع إلى تونس فكون "جامعة عموم العملة التونسيين" في 3 ديسمبر 1924 وهو أمينها العام. لكن اتهمت فرنسا محمد علي باتهامات خطيرة وأشاعت حوله الإشاعات، وأثر اتحاد النقابات الفرنسية على الحزب وعلى حزب الإصلاح الذي تكون فيما بعد وطالب بانضمام العمال التونسيين إلى "الاتحادية الفرنسية" ونجحت الفكرة نوعا ما واحدث فراغ حول "محمد علي" خصوصا وقد اتهم بالشيوعية التي هي ضد الإسلام. وهي دعاية أرادت فرنسا أن تبثها في تونس ضدّه.

والواقع أن فرنسا اعتقدت بأن محمد علي جاء ليهدم ما بنته في نصف قرن وهذا خطر عليها. ففي 16 نوفمبر 1925 حكمت عليه المحكمة الفرنسية مع 5 من أعضاده بالابتعاد عن التراب التونسي والفرنسي ونفذ الحكم في 20 منه واتجهوا نحو إيطاليا.

وهكذا قضت فرنسا على أول حركة نقابية في المهد، وتخوفت منها واتهمت أصحابها ورئيسها بشتى التهم، وبقي محمد علي في المنفى إلى أن توفي في الحجاز.

لكن رغم انطلاء الحيلة على جماعة الحزب وفشل الحركة النقابية الأولى فانهم قـــــد

واصلوا الكفاح عن طريق الصحف فصدرت جريدة "الحر" وجريدة "اللواء" وصاحبا الامتياز لهما فرنسيان، ويكتب فيهما الشاذلي خير الله وهو مدير الأولى والشاذلي الخلادي وهو مدير الثانية.

أما دور قابس في هذه الفترة فيتمثل في مراسلة الصحف بأسماء مستعارة، فقد راسل المرحوم الحبيب الغول كاتب عام الشعبة سنة 1920-1921 جرائد "الزهرة" في 1922 وجريدة "الصواب" و"مرشد الأمة" و"النديم" و"جحا" وكانت المواضيع التي تكتب في ذلك الوقت حول التعليم، انتقاد النظام الفرنسي، أحداث الجهة بإمضاءات مختلفة مرّة باسم ابن الجنوب وأخرى باسم ابن الواحة ومرّة باسم مراسلكم. كما وقع إمضاء عريضة ومراسلة الصحف من طرفه حول الحادث الذي وقع في قابس سنة 1922 أثناء حمل جنازة لميت من دار بوزيد فقد تحدى حاملي الجنازة ضابط فرنسي وشقهم بسيارته العسكرية بكل تحد، وقد شتمه أثناء مروره بعض المصاحبين للجنازة(6) .

وكانت هذه العريضة التي أمضاها أهالي قابس بتحرير المرحوم الحبيب الغول وكان يدور بها للإمضاء عليها المرحوم علي بن جراد وهذه الحادثة كانت سببا في إلقاء القبض على بعض الدستوريين وهم الذين شتموا الضابط وفر المرحوم الحبيب الغول من قابس بعد إطلاق سراحه واستمر مدة في منطقة شربان من عمل منطقة السواسي وكان خليفتها آنذاك علي الوحيشي من مارث فوقعت تسميته هناك وبقي بها 3 سنوات ثم رجع إلى قابس لما تنوسيت القضية ووقعت تسميته في قابس بإدارة العمل في عهد عبد العزيز الجلولي في سنة 1927 . كما كان المرحوم الجيلاني العزوزي يراسل بالفرنسية جريدة le petit matin كما حدثت حادثة أخرى في هذا الوقت وهو شتم يهودية للدين الإسلامي فتجمهر المسلمون أمام دار "الصلا" بجارة ضد اليهودية حيث كان يسكن حاكم التحقيق التونسي وهو "المهدي بن ناصر" فخرج هذا الحاكم وتحمس مع المتظاهرين وضرب اليهودية بصفعة على خدها فغضب أغنياء اليهود ومنهم سعادة وحواتي حداد وغيرهما، فأرادت فرنسا أن تحاكم حاكم التحقيق على ضربه اليهودية لكن المتظاهرون تعللوا بأن ضرب اليهودية كان بسبب شتمها للدين الإسلامي وللمسلمين وكتب المرحوم الحبيب الغول مراسلة حول هذا الموضوع في الجرائد(7) ومن الأحداث الأخرى الهامة التي حدثت في هذه الفترة

3- نصب تمثال لافيجري في قلب العاصمة:

هذا التمثال يرمز إلى الاستعمار الفرنسي لتونس وقد قامت مظاهرات كبرى في 25 نوفمبر 1925 شارك فيها مواطنون من قابس وخصوصا من أبناء المطوية المقيمين بتونس

---

(6) الذين شتموا الضابط الفرنسي هم المرحومين السنوسي بن لاغة وعلي بن جراد والحبيب الغول

(7) وقع استجواب المرحوم الحبيب الغول سنة 1992 أثناء إعداد الاحتفال بمرور 55 سنة على بعث شعبة جارة الدستورية من طرف اللجنة التي أعدت مادة الموضوع كما ذكرنا ذلك

وقد تحدثنا عن ذلك عند حديثنا عن مدينة المطوية في الفصل الأول من الباب السادس.

4- الطاهر الحداد وثورته الاجتماعية:

الحدث الرابع الذي حدث في تونس قام به أحد المواطنين من بلدة "حامة قابس" أيضا وهو المناضل المرحوم الطاهر الحداد. وهذا الحدث يتمثل في صدور كتابه حول المرأة "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" في سنة 1926 فقد تحدث هذا الكتاب عن وضعية المرأة المزرية آنذاك وناشد المجتمع بضرورة العناية بنصف المجتمع من ناحية التعليم والنهوض بها كعضو فاعل في المجتمع المدني مثلما قام قاسم أمين في مصر قبله لكن كتابه هذا وثورته الاجتماعية أحدثت معارضة شديدة من طرف الرجعيين في تونس، واعتبروا كتابه وكتاباته محرمة، واتهموه بالكفر والزندقة، رغم أنه من خريجي جامع الزيتونة لكن كتاباته هذه قد حركت الهمم، لأن الوضع الاجتماعي في ذلك الوقت وضع سيئ ولكن حركته كانت نواة لحركة اجتماعية نمت وتطورت خلال الأحداث التي مرت بها تونس كما سنرى وأصبح كتاب الحداد وكتاباته الأخرى مصدرا من مصادر دراسة وضعية المرأة في تونس.

وهكذا تطورت الأحداث وصدرت جريدة " صوت التونسي" بالعربية والفرنسية بإدارة الشاذلي خير الله في سنة 1929 وقد كتب فيها الشاب الحبيب بورقيبة القادم من فرنسا بعد انتهاء دراسته في الحقوق، كما كتب في هذه الجريدة غيره من الشباب وكانت مقالاتها تعرب في الجرائد الأخرى وترسل إلى أطراف الايالة التونسية وكانت المجموعات الدستورية بقابس توزعها على المواطنين فكانت تبعث فيهم الحماس خصوصا وقد تحدثت عن المؤتمر الذي عقده المسيحيون في تونس من 7 إلى 11 ماي 1930 وسمي بالمؤتمر "الأفخاريستي" والذي اعتبره الفرنسيون حملة صليبية، فارتاب الدستوريون فيه وقاموا بمظاهرات صاخبة وسجن بعض الدستوريين. ثم أرادت فرنسا أن تحتفل بمرور 50 سنة على الحماية الفرنسية على تونس فقاومها الوطنيون واعتبروها تحديا لهم ولتونس فعدلوا عن ذلك وأبدلت بزيارة وديّة لرئيس الجمهورية الفرنسية "قسطون دوميرق" في أفريل 1931 وقد فشلت هذه الزيارة إذ اغتنم الشيخ احمد بيرم شيخ الإسلام الحنفي فألقى خطابا أمام رئيس الجمهورية احتج فيه على "الظهير البربري" الذي صدر بالمغرب الأقصى والذي يخرج المسلمين البربر في المغرب من القانون الإسلامي، ويعتبرهم أجانب عن العرب المسلمين فأحدث هذا الخطاب بلبلة في الزيارة، ولم يكتف شيخ الإسلام بهذا بل عارض فيما بعد المؤتمر الذي سمي(بمؤتمر اللغة العربية) الذي عقد في تونس سنة 1932 ودعي إليه جمع من رجالات المغرب والجزائر، وكان غرض المؤتمر فصل لغة شمال إفريقيا عن بقية البلاد العربية وإحداث لغة ثانية عامية يتكلم بها سكان شمال إفريقيا، وفشل المؤتمر وكان يحرك هذه المعارضة "الصوت التونسي" الذي أصبح اللسان الناطق باسم التونسيين جميعا وازداد رواجه في جميع المناطق ومنها قابس، وقد حوكم بعض المحررين إلى أن حدث خلاف في الرأي بين مسيري الجريدة فأصدر الحبيب بورقيبة جريدة أخرى سميت بجريدة العمل التونسي (L'action Tunisienne) وبقيت هذه الجريدة إلى سنة 1987 كما حدث خلاف بين محرري

جريدة "الصوت التونسي" فأصدر الحزب جريدة ثانية سميت بجريدة "صوت الشعب" بالفرنسية وبذلك نشط الحزب وتكونت له شعب في أغلب المناطق إلى درجة أن غضبت فرنسا وأصدر الباي "احمد الثاني" في 9 ماي 1933 أمرا بحق فرنسا بوضع الخارجين عن القانون حسب رأيها تحت الإقامة الجبرية في المناطق النائية الصغيرة(القرى، الدشر والدواوير) .

ثم برزت "حوادث التجنيس" في سنة 1932-1933 وكانت البداية في بنزرت حيث منع المسلمون دفن المتجنسين بمقابر الإسلام.

أما بالنسبة لقابس ولو أن المتجنسين كانوا قلة فإنه لم تحدث أية حادثة في هذا الشأن لأن المتجنسين أغلبهم قد احترموا أنفسهم ودفنوا موتاهم في منازلهم الخاصة.

وفي الواقع أن مقاومة حركة التجنيس في تونس كانت حركة وطنية لأن الحزب قد تخوف من ازدياد عددهم وبذلك يصبح عدد الفرنسيين في تونس أكثر من التونسيين ولو أنه دينيا لا مانع من دخول مسلم في جنسية أخرى وقد أصبح بالفعل الآن جائزا لأنه لا يخرج المتجنس من إسلامه فكثير من الأروبيين وغيرهم مسلمون.

وبعد هذه الأحداث عقد مؤتمر الحزب في سنة 1933 ودخل اللجنة التنفيذية بعض الشباب ومنهم بورقيبة وتبدلت أساليب الحزب وطالب بتكوين مجلس نيابي وحكومة مسؤولة أمامه وتفريق السلط إلى غير ذلك من المطالب الهامة إلا أن هذا النشاط ألفت نظر فرنسا فمنعت الجرائد من الصدور.

وقد تغير الوضع نسبيا بعد تعين المقيم العام الفرنسي الجديد "بيروطون" فرفع الحجر عن الحزب ورخص بصدور بعض الجرائد، إلا أن خلافا بدأ يدب بين المسيرين للحزب فحدث الانقسام واستقال بورقيبة وجماعته وعقدوا مؤتمرا في قصر هلال في 2 مارس 1934 دعوا إليه جميع الدستوريين وتكون الديوان السياسي عوض اللجنة التنفيذية برئاسة المرحوم الدكتور محمودالماطري وكاتبها العام الزعيم الحبيب بورقيبة.

الفصل الثاني
(تكوين الحزب الحر الدستوري الجديد إلى الثورة الكبرى)
من (4 مارس 1934- 18 جانفي 1952)

تطور الحركة الوطنية وازدياد الوعي القومي:

بتكوين الحزب الحر الدستوري الجديد، وبدخول عنصر الشباب به وبتكوين المنظمات وبتكوين الجمعيات الثقافية على اختلاف أنواعها ازداد الوعي القومي ودخلت تونس مرحلة جديدة من الكفاح إذ تبدلت ديناميكية الحزب وبعثت الشعب في مختلف المناطق مما سبب نفي وسجن زعمائه. أما في قابس فقد تكونت شعبة دستورية مشتركة بين مناطق قابس – المنزل- جارة- شنني- النحال- وحسب الرواية التي يرويها المرحوم المناضل الصحي خليفة في مذكراته أن مؤتمر قصر هلال الذي انعقد في 2 مارس 1934 قد حضره المرحوم المناضل محمد الشناوي من منطقة المنزل بصفة ملاحظ كما حضره المرحوم المناضل الشيخ التومي بن احمد من شنني وبعد رجوعهما من تونس تقابلا مع صاحب المذكرة الصحي خليفة واتفقوا على الانسلاخ من الحزب القديم وتكوين شعبة تابعة للحزب الجديد واتفقوا على اللقاء بضريح الصحابي أبي لبابة، لكن عند وصولهم أخبرهم الحفيظ المرحوم إبراهيم بن نصر بأن هناك شرطيين قدما للسؤال عنهم فاتجهوا ومعهم محمد بوزيان إلى جهة واد عاشور وأقسموا على الإخلاص وكونوا شعبة من أفرادها التومي بن احمد رئيسا والصحي خليفة كاتبا عاما ومحمد بوزيان أمين مال ومحمد الشناوي مساعدا له.

يقول صاحب المذكرات :"أرسلنا برقية للديوان السياسي(1) في 10 مارس 1934 أعلمناه فيها بالانضمام إلى الحزب وتكوين شعبة ومددناه بقائمة بها 54 شخصا لإمدادنا بالبطاقات"

ثم يقول "وفي شهر جوان 1934 أرسلت لنا البطاقات ووزعناها على المشتركين وتكونت الشعبة بصفة رسمية برئاسة التومي بن احمد من شنني كاهيته الصحي خليفة من المنزل وكاتب عام صالح بن علي من شنني وكاهيته محمد الشناوي من المنزل ومحمد بوزيان أمين مال من المنزل والشوشان بن صالح بن عبد الله(باك صالح) كاهيته من المنزل وهي أول شعبة تتكون تابعة للحزب الجديد" حسب صاحب المذكرات المرحوم الصحي خليفة.

أما الرواية التي ذكرها المناضل عبد الله الغنوشي في مذكراته "ذكريات مناضل سياسي" يقول فيها "تكونت شعبة موحدة(بين مناطق قابس) سنة 1935 –1936 جارة، المنزل، شنني والنحال من بين أفرادها من المنزل عبد العزيز ونيس، الصحي خليفة، الطاهر واجه، عبد المجيد شمام، الساسي بو عزيزة ومن جارة، لخضر بن زيد، عبد السلام النوري الجرادي، حسين عزيز، عبد الله الغنوشي ومن النحال النفطي الجليدي ومن شنني صالح بن علي"

---

(1) كراس مرقون في تاريخ الحركة الوطنية انطلاقا من مؤتمر قصر هلال(مؤتمر البعث 1934 للمناضل الصحي خليفة هذه الوثيقة تملكها جمعية البحوث التاريخية والجغرافية بقابس.)

وفي المحاضرة التاريخية التي قدمت بمناسبة مرور 55 سنة على بعث شعبة جارة الدستورية إعداد صالح قيزة ومن معه والتي ذكرناها سابقا وهي المصدر الثالث.

"أنه قبل سنة 1937 تكونت شعبة موحدة بين مناطق قابس ومن أفرادها الصحي خليفة، الطاهر واجه، عبد العزيز ونيس، الطاهر دبية، الهادي العمراني، عبد المجيد شمام وهم من المنزل وحسين عبيد من النحال والتومي بن احمد وصالح بن علي من شنني والحسين عزيز، والصحي بالحاج محمود الجرادي وعبد السلام النوري الجرادي من جارة وتشير الدراسة أيضا إلى أنه قد حضر في سنة 1937 إلى قابس كل من الزعيم المنجي سليم والزعيم الهادي شاكر وقاما بحملة دعائية وكونا شعبا بقابس منها شعبة جارة الدستورية برئاسة المرحوم الجيلاني العزوزي والكاتب العام الطاهر الغرايري وأمين المال علي بن كيلاني وبعضوية حسين عزيز والصحي بالحاج محمود الجرادي وبلقاسم بعبو وعبد السلام النوري الجرادي ومحمد صالح المؤدب والشهيد الحبيب شقرة.

من هذه المصادر الثلاثة نلاحظ أن هناك اختلافا في ذكر الأشخاص الذين انضموا للحزب الجديد فقد ذكرت أشخاص في مذكرات الصحي خليفة لم يذكرها مصدر مذكرات عبد الله الغنوشي ولا المحاضرة التي ألقيت بشعبة جارة الدستورية، كذلك أن تاريخ تكوين الشعبة الأولى التي ذكرت في مذكرات المرحوم الصحي خليفة لم تذكر من المصدرين الأخيرين كما أن هذين المصدرين اختلفا في أسماء بعض المناضلين وهذا ربما يرجع إلى النسيان وإلى عدم تسجيل هذه المذكرات بصفة رسمية في وقتها، وعلى أن المصادر التي أخذت منها المعلومات كانت مختلفة وعلى أن من تحدث إنما تحدث بالدرجة الأولى عن جهته وغفل عن الجهات الأخرى. وعلى كل فإن الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد قد لبّى نداءه شباب قابس سواء كان في قابس المدينة أو في أحوازها إذ تكونت بعد ذلك شعب في مارث برئاسة محمد شعير، والزارات برئاسة محمد التومي وتبلبو برئاسة عمر الغنوشي، والنحال برئاسة النفطي بالحاج محمود، ثم تولاها حسين عبيد وشنني برئاسة صالح بن علي، وشعبة بوذرف برئاسة محمد خشيريف وإن الهيئة الأولى التي تكونت في 10 مارس 1934 حسب رواية المرحوم الصحي خليفة فإنها تكون الخلية الأولى التي بعثت وكانت تابعة للحزب الحر الدستوري الجديد لأن أفرادها غير متكاملين. أما الشعبة التي تكونت في نفس السنة في جوان 1934 أي بعد وصول الاشتراكات فكانت متكونة من منطقة المنزل وشنني فقط حسب الرواية الأولى.

وحسب رواية عبد الله الغنوشي فإن الشعبة الموحدة التي تكونت في قابس هي تضم المنزل وجارة وشنني والنحال ولم يذكر رئاسة الشعبة لمن كما أن اسم المرحوم التومي بن احمد رئيس الشعبة الذي ذكره الصحي خليفة في روايته مرتين(وهو من الحاضرين لمؤتمر قصر هلال) ومن المنشئين للخلية الأولى للشعبة) لم يذكر عبد الله الغنوشي رئاسته للشعبة سواء في قابس أو في شنني فيما بعد إذ كانت رئاسة الشعبة للمناضل صالح بن علي وهكذا نشير إلى أن الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد قد تكونت خليته أو شعبته غير الرسمية منذ عقد مؤتمر قصر هلال

مع بقاء شعبة الحزب الحر الدستوري القديم لفترة ما بعد حدوث هذا النفس الجديد الذي بعث في الحركة الوطنية بدخول الشباب إليه فاحتارت فرنسا في الأمر وألقت القبض على الزعماء – بورقيبة- الماطري- قيقة- ونفتهم إلى بنقردان واتصلت بهم الشعبة حسب رواية المرحوم الصحي خليفة عن طريق التومي بن احمد واستفسرت عن حاجياتهم وطلبوا منه مدّهم ببعض الخضر والغلال وقد أوصل هذه الطلبات المرحوم محمد الشناوي بواسطة دراجته النارية إلى بنقردان.

ثم يقول المناضل الصحي خليفة لقد اكترينا نادي في مقهى مروان سابقا سنة 1936 وانخرط معنا جماعة من جارة منهم علي بن الكيلاني وبلقاسم بعبو وعلي الجمل والخضر بن زيد وعبد السلام النوري الجرادي والحسين عزيز وكانوا يحضرون الاجتماعات، بينما رواية عبد الله الغنوشي ومحاضرة ندوة شعبة جارة التي ذكرناها تشير إلى أنه قد تكونت شعبة موحدة كانت تجتمع مرّة في مقهى باك صالح ومرّة في غابة الحسين عزيز ومرّة في غابة الحسين عبيد.

وبعد انفراج الوضع وتكوين "الحكومة الشعبية" في فرنسا وإطلاق سراح الزعماء المسجونين ربط الحزب العلاقة مع الوزير الفرنسي "فينو" واستقبل استقبالا حارا في قابس بتعليمات من الديوان السياسي إذ اصطف الناس كما يقول الصحي خليفة على الشوارع لاستقبال الضيف وقد نزل من سيارته لمصافحة الناس وكانت الهتافات تنطلق من الحناجر – تحيا تونس- يحي الحزب – برلمان تونسي- يحي فينو- تحيا فرنسا الحرّة- يسقط الاستعمار- وعند وصول الركب إلى المراقبة المدينة قررت الشعبة الاتصال بالوزير الفرنسي وتكليف فتاة تحمل الزي التقليدي حاملة العلم التونسي كرداء حولها ومعها بطاقة زهور. ولقد تمكنّا من مقابلته رغم الموانع والحواجز والفتاة هي عائشة بنت محمد بن خضر وكتب على البطاقة(تونس تستقبل ضيفها الكبير السيد فينو).

أما الهيئة التي استقبلت الضيف حسب رواية المناضل الصحي خليفة فهي متركبة من السادة التومي بن احمد، الصحي خليفة، عبد السلام النوري الجرادي، حسين عزيز، عبد الله جراد ومحمد خشيريف.

يقول المناضل الصحي خليفة:

"عند رجوع عبد العزيز الثعالبي من الشرق استقبلناه في قابس وكان الحزب قد قرر استدعاءه عن طريق صالح بن يوسف ليوفق بين الحزبين"

ثم يقول "وكان الوفد يتركب من الصحي خليفة والتومي بن احمد ومحمد بوزيان ومحمد الشناوي والنفطي بالحاج الصحي رقم" ولم يذكر غيرهم، لكن الزعيم الثعالبي لم يستطع التوفيق بين الحزبين وبين التيارين فانضم إلى حزبه الأول.

ثم يقول المرحوم الصحي خليفة في سنة 1937 انضم إلى الهيئة المحامي الطاهر دبية وتركبت شعبة المنزل من الطاهر دبية رئيسا التومي بن احمد كاهية رئيس وصالح بن علي كاتب عام وعبد العزيز ونيس مساعدا له والصحي خليفة أمين مال، الطاهر واجه مساعدا له وعبد

المجيد شمام عميد الشبيبة والصادق عقل كاهيته والبقية أعضاء وهم محمد بوزيان ومحمد الشناوي والبهلول البيداني وعبد السلام الفاهم والصحي بوقطف.

والملاحظ أنّ هذه الشعبة كانت مشتركة بين أفراد من المنزل وأفراد من شنني وهم التومي بن احمد، صالح بن علي والصحي بو قطف.

ثم يقول المرحوم الصحي بن خليفة " لقد استدعينا لحضور المؤتمر الثاني للحزب في 1937/10/25 والذي انعقد في 1937/10/31 "وذكر اسمين فقط حضرا هذا المؤتمر وهما شخصه (الصحي بن خليفة والتومي بن احمد) ولم يذكر غيرهما.

وبعد فشل المفاوضات استؤنف الكفاح ووقعت مظاهرة 9 أفريل 1938 بتونس واعتقل الزعيم علي البلهوان زعيم الشباب كما اعتقل كثير من شباب المطوية الذين شاركوا في المظاهرة فهاجت البلاد وماجت ووقعت مظاهرة في قابس واجتمع الناس من يوم الغد في بطحاء سيدي الحاج عمر وسيدي بو علي وسيدي الحاج ناصف في جارة بحضور الدستوريين من جميع مناطق قابس ووقعت المناداة بسقوط الاستعمار وببرلمان تونسي وقد شارك في هذا التجمع التلاميذ وقاموا بمظاهرة مروا بها من طريق العوينة إلى البلد (جارة الدخلانية) ثم إلى الساحة حيث تجمهر الناس حسب رواية المناضل عبد الله الغنوشي.

لقد وقع تهديد رئيسي الشعبتين الطاهر دبية والجيلاني العزوزي من طرف السلطة بقابس فخطبا وطلبا من الحاضرين الهدوء والسكينة وأن لا يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة.

يقول عبد الله الغنوشي "إنه قد وقع الهجوم على نادي شعبة جارة(يوم9 أفريل) وعبثوا بأثاثه وأنزل العلم التونسي" بينما تشير مذكرات المرحوم الصحي خليفة إلى أن نادي شعبة المنزل قد عبث به في 11 أفريل وحمل الأثاث إلى إدارة القمارق وأغلق النادي. والواقع أن العبث بأثاث شعبة جارة وإغلاق النادي كان يوم المظاهرة أي يوم 10 أفريل لا يوم 9 أفريل.

لقد ألقي القبض على المتظاهرين الذين زحفوا يوم 10 أفريل على مركز العامل (القايد)أي(دار بن حيدر) وقد استقبلهم مصطفى اللونيقو القايد في ذلك الوقت وطمأنهم بإبلاغ صوتهم إلى الباي إلا أن المتظاهرين واصلوا سيرهم إلى باب بحر لمقابلة المراقب المدني لكنهم أرجعوا على أعقابهم ووقعت إعتقالات في صفوف المتظاهرين ومنهم الصحي خليفة والحسين عزيز والطاهر واجه وعبد المجيد شمام ومحمد صالح جراد ومحمد خشيريف وعبد السلام النوري جرادي ومحمد الصالح المؤدب وحسين عبيد ومحمد لوصيف من الحامة حسب رواية الصحي خليفة وأضاف إليهم عبد الله الغنوشي علي كوة من المطوية ومحمد الأعطر من الحامة.

والملاحظ أن هذه المظاهرة قد شارك فيها بعض المواطنين من المطوية ووذرف كما شاركت المرأة القابسية في هذا التجمع ومنهم عائشة بنت محمد جلول والدة العيادي جلول وحليمة بنت الغربي التي رفعت ساطورا وصاحت "نريد الموت" حسب رواية عبد الله الغنوشي والحقيقة أن هذه الحادثة متواترة في قابس. ونتيجة لهذا أيضا بالإضافة إلى اعتقال الزعماء فإنه قد وقع طرد بعض التلاميذ من المدرسة في 12 أفريل 1938 ومن المطرودين حسب رواية عبد الله الغنوشي

المرحوم عبد السلام بن عمر بن مصطفى والنجار الزريقي والمرحوم القناوي بن عمر وعبد الجواد قويدر والمرحوم الحزامي بن جبر والمرحوم الهادي بالثابت ومحمد البغدادي الجرادي وعبد الله الغنوشي(صاحب الرواية)، إلا أنه قبل امتحان الشهادة الابتدائية بعشرة أيام يقول المناضل عبد الله الغنوشي "لقد استدعانا المدير الفرنسي وحذرنا من المشاركة في المظاهرات ورخص لنا المشاركة في الامتحان".

يقول المناضل الصحي خليفة بعد إلقاء القبض علينا صدر قرار بنفينا من قابس لكن القايد الوطني الغيوري مصطفى اللونقو لم ينفذه وألغي القرار وأطلق سراحنا وتواصلت الاضطرابات إلى سنة 1939 حيث ألقي القبض على بعض الدستوريين وذلك حتى لا يحتفل بذكرى 9 أفريل أي بمرور سنة على حوادث 9 أفريل وبقي المسجونون عشرة أيام ومع ذلك فإن الذكرى قد أقيمت رغم أنف المستعمر.

يقول التقرير الذي أعد من طرف المناضل صالح قيزة ومن معه بأنه جاء الخبر صبيحة يوم 9 أفريل بما جد في تونس من حوادث ومن قتلى وجرحى برصاص المستعمر دعا الحزب الشعب الدستورية للقيام بمظاهرات واضراب احتجاجا على ما وقع يوم 9 أفريل فدعت الشعبة أي شعبة جارة إلى اجتماع مشترك في بطحاء سيدي الحاج عمر وسيدي بوعلي وسيدي الحاج ناصف وتداول الخطب كل من عبد الله جراد والطاهر دبية والجيلاني العزوزي وانطلقت إثر ذلك مظاهرة إلى دار القايد ثم إلى دار المراقب المدني لكنها منعت من الوصول ولحقها الجنود والبوليس والجندرمة وهجموا على نادي الشعبة أي شعبة جارة وعبثوا به وأغلقوه وكخطة جديدة للحزب أوصى الحزب الدستوريين عن طريق المنجي سليم بالانخراط في المنظمات القومية لمواصلة الكفاح لأن الشعب الدستورية قد أغلقت أبوابها عن طريق السلطة فشارك الحسين عزيز في منظمة الصناعة والتجارة والصحي بالحاج محمود الجرادي في منظمة الشبان المسلمين.

لقد تكونت الحركة النقابية للمرة الثانية عن طريق مناضل من "مطوية قابس" وهو المناضل "بلقاسم القناوي المطوي" فتكونت "جامعة عموم العملة التونسيين" وشاركت في التحرير الاجتماعي فتكونت نقابات مختلفة (لمعلمي العربية – البريد- العدلية- لمعلمي الفرنسية) وسميت بجامعة الموظفين وبعد حوادث 9 أفريل حلت هذه المنظمات.

ثم زار قابس رئيس جمهورية فرنسا "دلاديي" في نفس سنة 1939 لتفقد خط مارث فأعد الدستوريون لافتات احتجاج بهذه المناسبة تحمل شعارات – تسقط فرنسا الاستعمارية- يحيا الزعماء- برلمان تونسي. وكان الرئيس الفرنسي يقرأ هذه اللافتات وأراد الجنود دوس المواطنين بأرجل خيلهم فمنعهم رئيس الجمهورية.

إعلان الحرب العالمية الثانية:

بعد حوادث 9 أفريل وبعد الاضطهادات والسجون التي استهدف لها الشعب التونسي هدأت الحركة بعد إعلان الحرب العالمية الثانية بين دول الحلفاء ودول المحور وعان أهالي قابس

من ويلات هذه الحرب إذ هاجروا إلى مناطق مختلفة من جهة قابس وخارجها سبيخ سيدي مهذب، مطماطة والحامة ابتعادا عن المدينة وقد سمي هذا العام "بعام الهربة" وقد أوصى الحبيب بورقيبة زعيم الحركة بعدم مساندة دول المحور إذ اعتقد بأن الانتصار سيكون إلى جانب الحلفاء وأنهم سوف يعطون حقوق التونسيين بعد انتهاء الحرب.

وقد تواصل الكفاح سريا وكانت المناشير تصل إلى قابس كما يقول المرحوم الصحي خليفة عن طريق المناضل التوهامي التركي الذي كان يدرس بصفاقس وكانت تصله هذه المناشير عن طريق سوسة وكانت تصل إلى سوسة عن طريق تونس ثم يسلمها للصحي خليفة وتوزع عن طريق مجموعة من الشباب وقد سجن بعض الدستوريين بمناسبة 9 أفريل 1940 احتياطيا حتى لا يقع الاحتفال بذكرى حوادث 9 أفريل كما وقع في سنة 1939 وقد ذكرنا ذلك.

وفي 19 جوان 1942 والحرب العالمية على أشدها ارتقى إلى العرش "محمد المنصف باي" فبعث في الحركة الوطنية الحيوية وذلك بإرساله مذكرة(2) للحكومة الفرنسية حكومة فيشي يطالب فيها باحترام السيادة التونسية وبإلغاء اتفاقية المرسى وتحقيق رغبات الشعب، وفي نفس السنة من شهر نوفمبر دخلت جيوش المحور إلى تونس وخرجت القوات الفرنسية إلى الجزائر إلا أن المنصف باي لم يكن بجانب دول المحور ورفض توسيم كبار ضباطها بوسام الافتخار التونسي، وبدون مشاورة لفرنسا كون هذا الباي وزارة جديدة يرأسها محمد شنيق وبعضوية محمد الماطري رئيس الحزب سابقا وعبد العزيز الجلولي (قايد قابس) سابقا ووزيرا للأوقاف فيما بعد وصالح فرحات عضو الحزب الحر الدستوري القديم وكاتبه العام وزيرا للعدل وفي هذا العام نشطت الحركة الدستورية عن طريق الحزب الحر الدستوري الجديد بزعامة الحبيب ثامر وصدرت جريدة باسم "إفريقيا الفتاة" تنطق بلسان الحزب واشتد ساعد الحركة بإطلاق سراح الزعماء ومنهم بورقيبة بمساعدة إيطاليا وذلك في 9 أفريل 1943 وكانت قد تشكلت شعبة جديدة في جارة سنة 1942 برئاسة "صالح بن مصطفى" نظرا لثقافته ووطنيته وقد سجن إثر تحطيمه لجهاز التلغراف داخل إدارة البريد لأنه كان يعمل بهذه الإدارة، و"محمد العاتي" كاتبا عاما والحسين عزيز والصحي بالحاج محمود الجرادي ومحمد بن حسين الجماعي والحسين بن عمر بن احمد وعبد السلام النوري الجرادي والحبيب شقرة والطاهر الغرايري واتخذت الشعبة مقرا لها زاوية سيدي بوعلي وتعاملت مع المحتلين الألمان الذين كانوا يجلبون لهم جريدتي(تونس الفتاة والحرية) من العاصمة.

وفي سنة 1943 تجددت الهيئة مرة أخرى برئاسة الحسين عزيز وتسلم الكتابة الصحي بالحاج محمود الجرادي وبعضوية الشهيد الحبيب شقرة وخميس بعبو والهادي المغربي وعبد الله الغنوشي وصالح الشين والطاهر الغرايري والصادق الشين وبلقاسم الزريقي وأثناء هذه الفترة هرب حسين عزيز والصحي بالحاج محمود الجرادي مع الهاربين أثناء الحرب ولما أرادا الرجوع أعلما بأنهما مطالبين من طرف السلطة الفرنسية فرجعا إلى سبيخ ولم يرجعا إلى قابس إلا في

---

(2) انظر كتاب تونس عبر التاريخ لأحمد عامر صفحة 402

سنة 1947. أما بالنسبة لشعبة المنزل حسب رواية المرحوم الصحي خليفة فقد تجددت الهيئة على النحو التالي: التومي بن احمد رئيسا كاهيته الفيتوري الجريدي كاتب عام، صالح بن علي كاهيته، عبد المجيد شمام أمين مال، الطاهر واجه كاهيته، الصحي خليفة ومحمد غليس للدعاية وكذلك بهلول البيداني ومحمد الشناوي والصحي بوقطف.

معنى ذلك أن شعبة المنزل بقيت مختلطة مع شنني إلى هذا التاريخ وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كون الحزب اتحاد الصناعة والتجارة وكان رئيسه في قابس الحسين عزيز والكاتب العام الهادي العمراني وكاهيته محمد خشيريف وأمين مال الطاهر واجه وكاهيته الصحي خليفة ومراقب الهيئة الحاج علي السلامي البوشاوي أما الأعضاء فهم عبد القادر بوخريص ومحمد غليس وحسين ونان والطيب بن بلقاسم(من الحامة).

ويقول المرحوم الصحي خليفة وفي سنة 1948 "أعلمنا الديوان السياسي بأن وفدا برلمانيا فرنسيا سيزور قابس فأمددناه بلائحة قدمها له عبد السلام النوري الجرادي في الغاية متسلا وقرأها لهم بالفرنسية وقد سلم لنا التوهامي التركي نسخا من كتاب "الدستور وفرنسا" فتمكن عبد السلام النوري الجرادي من وضع هذه الكتب في سيارات أعضاء الوفد رغم أنها كانت مقفلة لكن بطريقته الخاصة فتحها.

لقد عقد مؤتمر الحزب الثالث في 17 أكتوبر 1948 بعد الفتور الذي طرأ على الحركة ووقع إضراب بمشاركة أصحاب المقاهي وفي اليوم الثاني من الاضراب فتحت المقاهي إلا مقهى الفيتوري الجريدي كاهية رئيس الشعبة وكاتب عام النقابة وكذلك مقهى النجار بن زيد ومنصور الجوالي بإذن من المراقب المدني فتركب وفد من الصحي خليفة والحسين عزيز لمقابلة المراقب المدني في الموضوع حسب رواية الصحي خليفة إلا أن المراقب رفض الحديث في الموضوع واعتبر أن هذا الإجراء لا يخصهم وهو إجراء خاص بالسلطة.

ثم يقول وقد راسلنا تونس أي اتحاد الصناعة والتجارة في الموضوع وجاء المختار عطية عضو المكتب في تونس وحاول مقابلة المراقب المدني إلا أنه لم يكن موجودا فقابلنا الكاهية بدلا عنه لكنه لم يحسن استقبالنا وحاولت بعد ذلك مع الحسين عزيز والمنصور الجوالي والنجار بن زيد مقابلة المراقب فقابلنا ووعد بفتحها وفعلا فتحت المقاهي الثلاث.

وقبل هذا التاريخ كان المنصف باي "الملك الغيور على وطنه" قد نفي في سنة 1945 إلى "بواتيي" بفرنسا ثم إلى جزيرة "بو" فكان رد الفعل قويا فقامت المظاهرات والاضطرابات في جميع أنحاء البلاد ومنها قابس وفي سنة 1948 يقول المرحوم الصحي خليفة في مذكراته أنه قد اتهم بأنه منع أهل "علي الذهيبي" من دفن والدهم بمقابر المسلمين لأنه قد تجنس بالجنسية الفرنسية وقد حاول محمد السبعي من منطقة الحامة وهو متجنس أيضا تهويل القضية واتصل بالمكتب الثاني من الشرطة "DEUXIEME BUREAU" "وأعلم هذا الأخير المقيم العام بتونس دون أن يتصل بالمراقب المدني وبعد التثبت من ابن الميت تبين أن محمد السبعي قد افتعل هذه العملية فغضب المراقب والقايد من العملية خصوصا وقد اتصل إبنا الميت وهما

الهادي ومصطفى بالقايد وأعلماه بأن لا وجود لهذا الادعاء وأن الصحي خليفة هو صديق لوالدهما فغضب المراقب على الواشي الكاذب الذي كان قد وعده بإعطائه خطة خليفة بالحامة أو بإعانات أخرى كما يقول المرحوم الصحي خليفة. وفي سنة 1949 وصل إلى قابس علالة العويتي قادما من الشرق والذي كان في زيارة لبورقيبة في القاهرة وأراد الاطمئنان على وضع الدستوريين وعلى موقفهم من الزعيم بورقيبة لأنه نظرا لغياب بورقيبة عن تونس وطول هذه المدة فقد قرر الحزب تنحية بورقيبة وتعويضه بالمناضل الحبيب ثامر إلا أن علالة العويتي قد اطمأن على بورقيبة بجهة قابس وكان علالة الكاتب الخاص له.

وفي نفس السنة قدم المنجي سليم والهادي شاكر وعبد الصمد المبروك(من الحامة) وهو مقيم في تونس وأشرفوا في دار علي الجمل على اجتماع لتجديد الشعب الدستورية. فقد جددت شعبة الحامة برئاسة الطاهر دعيب وعلي خضر كاتبا عاما لها ومن بين أعضائها محمد الأعطر، أما شعبة المنزل فتجددت برئاسة الحبيب الشناوي وكاتبها العام محمد بالصادق وأمين مال الصحي خليفة مع بقية الأفراد المذكورين سابقا مع إضافة المرحوم الحاج محمود الزنزوري. وكان المرحوم الهادي العمراني ينوي رئاسة الشعبة بالاتفاق مع عبد الله جراد لأن الاجتماع قد عقد بداره إلا أن الدستوريين لم يصوتوا له كما يقول المرحوم الصحي خليفة.

ثم تشكلت الجامعة الدستورية برئاسة عبد الله جراد والكاتب العام التومي بن احمد وأمين المال محمد خشيريف أما الأعضاء فهم محمد الأعطر والحسين عزيز والحبيب الشناوي حسب رواية المرحوم الصحي خليفة وقد ترأس هذا الاجتماع الزعيم المنجي سليم بحضور الأخوين المصاحبين له الهادي شاكر وعبد الصمد بن المبروك.

وبالتوازي مع هذه الحركة أي الحركة الدستورية فقد تكون نشاط اجتماعي ثقافي آخر يتمثل في تكوين فرع للكشافة التونسية بقابس كما سنرى ذلك في الفصل القادم.

يقول المناضل عبد الله الغنوشي في مذكراته وفي سنة 1949 تأسست الكشافة التونسية بقيادة المرحوم النجار رحومة والجيلاني الغربي والصادق الساحلي والصحي بن عبد الرحمان والحسين عزيز والصحي بالحاج محمود الجرادي وعبد الله الغنوشي وبوبكر الميساوي ومن الشباب يوسف بوخشينة والعزوزي كريم شهر(التيشو) ومصطفى رحومة وعباس شقرة.

والواقع أن الكشاف المسلم التونسي الذي كانت به هذه المجموعة التي ذكرها عبد الله الغنوشي قد تكونت منذ سنة 1940 لا في سنة 1949 كما يقول المناضل عبد الله الغنوشي.وتوقفت الحركة أثناء الحرب العالمية الثانية ورجعت في سنة 1942 قبل نهاية الحرب وكانت بقيادة المجموعة التي ذكرها عبد الله الغنوشي وانضمت إليها فيما بعد مجموعة القادة الطيب البشراوي والصادق الزهري وأبو بكر بن الطيف بن عزيز والساسي عقل وغيرهم. وتكون فوج طارق ابن زياد بالمنزل سنة 1946 وكان فوج أبي لبابة قد تكون في سنة 1942 بقيادة القائد النجار رحومة ودخل إلى الفوج القائد الصحي عبدالرحمان ثم تكونت الأفواج الأخرى كما سنرى.

كذلك تكونت لجنة للدفاع عن فلسطين بها كما يقول عبد الله الغنوشي، مصطفى عزيز ولطيف قفراش والفيتوري شقرة وعلي ونان وابن قانة ويونس العمري والهادي الغنوشي وحسين الأمين وجلال الأمين وكذلك الشاب الجزائري عبد السلام التواتي.

ثم تكونت بعد النكبة لجنة لجمع التبرعات لإعانة الإخوان الفلسطينيين "وقد وقع استقبال عبد القادر الحسيني ابن أخت الحاج الأمين الحسيني مفتي الديار الفلسطينية مصحوبا بزوجته الألمانية وهي أخت زوجة فوزي القوتلي قائد جهة فلسطين، وقد حدثنا هذ القائد كما يقول عبدالله الغنوشي عن بطولة شبان قابس في حرب فلسطين ومنهم مصطفى عزيز والفيتوري شقرة والخموسي الساسي وعبد المجيد بالسنوسي بالحاج محمود الجرادي والحاج لطيف قفراش وعلي ونان ويوسف العمري والهادي الغنوشي. وقد سلمناه كمية من المال التي جمعناها بإذن من المنجي سليم فأخذها بدوره إلى مكتب المغرب العربي بالقاهرة".

يقول المناضل عبد الله الغنوشي في مذكراته: "وفي سنة 1942 أرسل محي الدين عزوز قائد الكشافة إلى لندرة لينوب الكشافة التونسية وذلك بتدخل من الدكتور الفرنسي الذي كان يعمل بقابس وهو فورون VORON وكان صديقا للكشافة بقابس وصديقا للكاتب العام بالإقامة العامة بتونس وكانت فرنسا تنوي بعث قائد آخر ينوب الكشافة من جماعتها.

لقد اطمأن الفرنسيون إلى القائد محي الدين عزوز لأنه كان يعمل سابقا في جهاز الأمن بتونس، لكنه لما وصل إلى أنجلترا ألغي الكلمة التي سلمت له عن طريق الإقامة العامة بتونس وتلى كلمة أخرى وطنية ندد فيها بطغيان فرنسا في تونس وظلمها فغضب سفير فرنسا إلا أن القائد محي الدين عزوز لم يرجع لتونس وطلب اللجوء السياسي من سفير سوريا فأعطي له وسافر إلى سوريا ودرس هناك وتقابل مع الشباب التونسي الذي اتجه إلى بلاد الشام للتكوين العسكري استعدادا للمعركة الحاسمة فتقابل مع المناضل احمد الصغير بن السنوسي لاغة وهو شاب من قابس أرسل مع مجموعات أخرى للشرق للتدريب على السلاح للمشاركة في تحرير البلاد ضمن بعثات أرسلت لهذا الغرض، وكان المناضل عبد الحفيظ المطرشي التويي وهو من قابس الواسطة لإدخال هذا الشباب المتطوع والمرسل من طرف الحزب والكشافة إلى التراب الليبي ثم إلى مصر ثم إلى بلاد الشام.

وهكذا تواصل الكفاح على جميع الجبهات سواء كان عن طريق بث الوعي القومي الثوري عن طريق الحزب وشعبه أو عن طريق الجمعيات والمنظمات القومية لهذا الغرض استعدادا لليوم الحاسم يوم إعلان الثورة الكبرى وقد ختم هذا النضال بقدوم الرئيس بورقيبة إلى قابس صحبة الملحق الصحفي الفرنسي جون روس والذي كان مساندا لكفاح تونس وقد ترجم خطابه الذي ألقاه في قابس "بورقيبة الابن" وفحواه أنه كان مساندا لحركة الحرب ولاستقلال تونس.

يقـول المـرحوم الصـحي خـليفة في مذكـراته وفي سـنة 1950 قـرر الديـوان السياسـي شاركة في الحكومـة الجديدة فعقد المجلس الملي للنظر في الموضوع خصوصا وأن روبار شومان ير خارجيـة فرنسـا قد صرّح هذه السنة "بحق تونس في الاستقلال الذاتي" فوافق هذا المجلس لى المشـاركة في هـذه الحكومة بعضو وهو الزعيم صالح بن يوسف كوزير للعدل وبرئاسة محمد نيق وبـدأت المفاوضـات مـع فرنسـا إلا أنهـا وصـلت إلى طريق مسدود ثم يقول لقد وقع تجديد يئة الجامعـة الدستورية في سنة 1950، فأصبح الطاهر دبية رئيسا لها وعبد الله جراد مساعدا ه والـتومي بـن احـمد كاتـبا عاما ومحمد الأعطر مساعدا له ومحمد خشيريف أمين مال وكاهيته حسين عزيـز لـتحريك الهمـم وتجديد المسؤوليات وتواصل العمل والاستعداد لليوم الحاسم اليوم لذي أعلنت فيه المعركة الكبرى كما سنرى ذلك.

الفصل الثالث

النهضة الفكرية والثقافية والاجتماعية بقابس

بين سنة 1934 (تاريخ تأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد) إلى (الثورة الكبرى أو معركة التحرير في 18 جانفي 1952)

لقد صاحب الحركة الحزبية الدستورية التي نشأت في تونس عن طريق حركة الشباب التونسي في بداية الأمر والحزب الحر الدستوري القديم الحركة النقابية التي قام بها "محمد علي الحامي" وكذلك الحركة الاجتماعية التي قام بها "الطاهر الحداد" مع الحركة الصحافية التي كانت تندد بالاستعمار وبالظلم والتعسف.

إلا أن الاستعمار كان على أشده على كل هذه الحركات كما قضى على المقاومين للحماية بالجهات. وما إن بعث الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد في قصر هلال في 2 مارس 1934 بدخول بعض الشباب التونسي المثقف إلى الحزب تغيرت الاتجاهات والأهداف وجرت دماء الشباب في عروق الحزب فاصطدم هؤلاء مع مسيري الحزب الحر الدستوري القديم، وكذلك بتكوين الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد نشأت نشاطات مختلفة فتكونت الجمعيات والمنظمات الثقافية والموسيقية والرياضية والتمثيلية، وساهمت كلها في دفع حركة الوعي والتقدم الثقافي والعلمي والاجتماعي ودفع البلاد إلى المساهمة في الحركة الدستورية الوطنية. وتظافرت جهود المنظمات النقابية التي تكونت خلال هذه الفترة – الاتحاد العام التونسي للشغل، اتحاد الفلاحين، اتحاد الصناعة والتجارة وجمعية الشبان المسلمين- بقيادات وطنية مع جهود الحزب الحر الدستوري الجديد الذي جمع قواه مع هذه المنظمات والجمعيات المختلفة المشارب ليصل في نهاية المطاف إلى القيام بثورة عارمة وبمشاركة جماعية للوصول إلى الهدف وهو استقلال البلاد وتكوين دولة حديثة عصرية مستقلة لتلحق بمصاف الدول المتقدمة المتحررة.

1- جمعية النجم الموسيقي بقابس:

لقد تكونت جمعية النجم الموسيقي بقابس سنة 1930 أي قبل تكوين الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد بصفة رسمية وذلك منذ بروز جمع من الشباب التونسي المثقف على الساحة. وأما أسباب تكوين هذه الجمعية فكان على الصورة التالية

لقد أقامت منطقة المنزل سنة 1930 حفلا موسيقيا بمناسبة عيد من الأعياد الوطنية الإسلامية بسوق المنزل عن طريق الفرقة النحاسية السينيغالية التابعة للجيش الفرنسي، وقد استدعى المرحوم محمد النفوسي(1) عضو الشعبة الدستورية الموحدة في الحزب الحر الدستوري القديم جماعة من جارة لحضور هذا الحفل وهم المرحومون الحبيب الفول ومحمد بالغايب والشيباني عزيّز والجيلاني العزوزي(من الطبقة المثقفة في ذلك الوقت بقابس).

---

(1) المصدر هو المرحوم الحبيب الفول الذي حضر الحفل والذي توفي عن سن تناهز التسعين سنة

وقد لبّى هؤلاء الدعوة وأثناء الحفل جاءتهم فكرة تكوين فرقة موسيقية إسلامية في قابس، وفي أول مناسبة دينية وهي عيد الإضحى وقع جلب فرقة موسيقية من صفاقس في 1930 وأقامت حفلا ساهرا في منطقة جارة، والذي جلب هذه الفرقة من صفاقس هو المرحوم الحبيب الغول، وبعد هذا الحفل الناجح قرر الجماعة تكوين هذه الفرقة "جمعية النجم الموسيقي القابسي" وجمعوا التبرعات لإشتراء الآلات الموسيقية وجلبوا لها مدربا من صفاقس وكحيلة من المؤسسين لهذه الجمعية كان جميع أفرادها من الموظفين الذين تطمئن إليهم فرنسا أكثر من غيرهم وحتى لا يتطرق الشك إلى فرنسا في أهداف هذه الجمعية، لأن الواقع أن الهدف الأصلي الخفي هو تحريك الهمم وتجميع الناس حول هيئات وطنية وبث الوعي الوطني في نفوس المواطنين.

لقد وقعت المصادقة على القانون الأساسي لهذه الجمعية وتبرع أفراد الهيئة بكراسي للجمعية (كل فرد يأتي بكرسي) والأفراد المؤسسين لهذه الجمعية هم المرحومون:

1- السلامي قطران
2- الجيلاني العزوزي
3- الجيلاني النوري بوخشينة
4- احمد بن عاقلة
5- بلقاسم بن بوبكر بالشاوش
6- علي منصور الخليفي(الميسترو علي)
7- محمد بن علية
8- عبد الكريم بالصادق بالشاوش التلمودي
9- مَحمد بالغايب
10- الشيباني عزيز
11- محمد ناصف

لقد كونت هذه الجمعية مكتبة لمشتركيها وهي أول مكتبة تتكون في قابس في الثلاثينات، وكان من جملة أهداف هذه الجمعية هو إحياء المناسبات الدينية والحفلات الخاصة مثل الأعراس والختان، وكانت تقيم حفلات الختان للفقراء(2) مجانا كما ساهمت في المهرجانات الوطنية ومنها مهرجان "العروبة" الذي أقيم في سنة 1948 ومهرجان "العلم" وقد تصدت لها السلطة الاستعمارية ورغم العراقيل فقد أقيمت هذه المهرجانات والاحتفالات الوطنية، وفي مارس 1950 صاحبت الفرقة الموسيقية الزعيم بورقيبة إلى الجنوب ووصلت إلى حومة السوق بجربة لأنها سبقت الرئيس إليها، لكنها رجعت بعدما أجبر الرئيس على الرجوع من الجرف كما سنرى كما أقامت حفلات خارج قابس في الحرس وفي مزونة من ولاية صفاقس، وكانت السلط الاستعمارية تعرقل سيرها وتعرض أفرادها إلى الإهانات وإلى الأبحاث لأنها شعرت بخطرها وبدورها الوطني الذي كانت تركز عليه.

لقد استقبلت الفرقة أيضا الرئيس بورقيبة في سنتي 1950 و1951 لما زار الرئيس بورقيبة قابس صحبة الصحافي الفرنسي "جون روس" يعني ذلك أنها كانت تواكب الحركة الوطنيـــة

(2) المصدر هو التقرير الكتابي الذي قدمه لي منذ سنة 1976 المرحوم خضر النجار الذي كان عنصرا من عناصر الجمعية ومن مسيريها فيما بعد

وتلهب الحماس في الجماهير ثم تكون فريق رياضي لهذه الجمعية وأصبحت تسمى بالنجم الرياضي الموسيقي بقابس.

جمعية النجم الرياضي الموسيقي بقابس:

لقد تكونت هذه الجمعية في منطقة جارة سنة 1934 وهي السنة التي انبعث فيها الحزب الحر الدستوري الجديد وشعارها(3) أبيض وأزرق وهي منبثقة من الجمعية الأولى جمعية النجم الموسيقي، لقد ترأس هذه الجمعية المرحوم السلامي قطران وبعضوية المرحومين الجيلاني النوري واحمد بن عاقلة وبلقاسم بالشاوش وكان في ذلك الوقت فريق رياضي آخر بقابس متكون من الفرنسيين واليهود في الغالب يسمى بالنادي الرياضي القابسي CLUB SPORTIF GABESIEN .

لقد كانت جمعية النجم الرياضي الموسيقي ذات نشاط مميز وفي مستوى رفيع في بداية الأمر غير أنها ضعفت بعد ذلك خصوصا بعد الحادث المريع الذي وقع للجمعية أثناء رجوعها من صفاقس إذ توفي في هذا الحادث أحد أفرادها وهو عبد الرحمان بالحاج صالح وكسرت رجل عضو من الجمعية وهو المرحوم عبد العزيز النوري وقد أثر هذا الحادث على الجمعية.

وفي سنة 1940 قررت حكومة بيتان Petin توحيد جميع الجمعيات الرياضية المتواجدة في المنطقة فانتهز مسيرو "النادي الرياضي القابسي" المتكون من الفرنسيين وغيرهم قصد القضاء على النجم الرياضي الموسيقي القابسي(الذي أصبح رمزا للوطنية) وطالبوا بالإدماج إلا أن مسيري الجمعية لم يلبوا النداء واجتمعوا في النادي الأهلي بمنزل قابس(الذي سنتحدث عنه فيما بعد) في ليلة من ليال رمضان لتدارس الموضوع وحصل اتفاق على تكوين هيئة تضم عناصر من المتحمسين للرياضة لمقاومة فكرة الإدماج التي تكتسي صبغة استعمارية كما يقول المرحوم حسين شمام في استجوابه.

وتشكلت هيئة من السادة:

1- المرحوم الدكتور محمد بن صالح } نفتهما فرنسا في قابس لأسباب سياسية
2- المرحوم الدكتور محسن البحري }
3- المرحوم الطاهر دبية(محامي)
4- البشير بن زينة(صيدلي)
5- علي الشريف(رئيس محكمة)
6- المرحوم عبد الكريم بالصادق بالشاوش التلمودي(كاتب بالمحكمة)
7- الجيلاني العزوزي(موظف بالبنك)
8- المرحوم حسين شمام(معلم بمدرسة الهدايا وصاحب هذه المعلومات)
9-الشيباني عزيز(معلم فرنسية)

---

(3) هذه المعلومات مأخوذة من تقرير قدمه المرحوم الحسين شمام وكان من الشباب الناشط بقابس خصوصا في الميدان التربوي والرياضي والبلدي وذلك سنة 1976

10- المرحوم الجيلاني النوري(موظف بالبريد)
11- الشهيد البشير الجزيري(مترجم)
12- الهادي بالكيلاني(موظف بالأشغال العامة)
13- عبد العزيز الحويوي (صاحب أعمال)
14- الحبيب الشناوي (صاحب أعمال)
15- الفرجاني ونان (رئيس الفرقية الموسيقية الفنـي)
16- الصحي حمزة (موظف بالسجن المدني بقابس)
17- عبد الوهاب صويلح _موظف بالبلدية)
18- العروسي بن سالم (صاحب مطبعة)

يقول المرحوم الحسين شمام في تقريره صفحة 2

"إن أول عمل قامت به الهيئة الجديدة هو رفضها لفكرة الإدماج معللة هذا الرفض بمستندات قانونية من بينها أن فكرة الإدماج لا تخص إلا الجمعيات الفرنسية دون سواها لهذا تم تكوين فريق موحد ضم جميع عناصر البلدة من بينهم تلاميذ المعهد التكميلي آنذاك"

ومن بين الأفراد الذين ذكرهم المرحوم حسين شمام والذين انضموا إلى الجمعية هم المرحومين العيساوي والبشير العكروت واحمد بن حفيظ وجاب اله نصر الله ومصطفى بالرحومة والصادق منصور(السردوك) وخميس المنياوي والكوني وكذلك محمد الصالح المرزوقي والجيلاني الغربي ومزهود بن جبر والهادي غليس والهادي شمام وحميدة شمام ومحمد النجار بالعاتي وغيرهم(أغلب هؤلاء انضموا إلى الفرق القومية فيما بعد ومنهم من أصبح مدربا بالفرق الوطنية)، لقد تطور هذا الفريق وأصبح من الفرق العتيدة وانتصر على "الترجي الرياضي التونسي" أثناء جولة دعائية كان يقوم بها في الجنوب(أربعة أهداف لواحد).

وكان الترجي يلعب بجميع عناصره – دراوة، قاسم، المغيربي، المولدي... وقد ابهر هذا الفريق السلطات الفرنسية بقابس حتى أن المراقب المدني بقابس إغتاض وطلب من الهيئة عن طريق الشرطة إقصاء المرحومين الطاهر دبية باعتباره رئيسا لجامعة الأعراض الدستورية والجيلاني العزوزي بوصفه أمين مال الجمعية وكان رئيسا لشعبة جارة الدستورية التابعة للحزب الحر الدستوري التونسي الجديد.

لقد استنكرت هذه الهيئة هذا الطلب وكان رد الفعل معاكسا لرغبة السلطة الاستعمارية حيث أختير الأستاذ الطاهر دبية مستشارا قانونيا للجمعية والجيلاني العزوزي رئيسا لهيئة الأحباء، وبهاتين الصفتين أصبح لهما الحق في حضور جلسات الجمعية وفي مداولات الهيئة والإشراف على حظوظها والسهر على مستقبلها.

وأثناء الحرب العالمية الثانية جاء معها الاحتلال الألماني لتونس ثم التحرير الفرنسي(أثناء فترة بيتان وديقول) ونتيجة لذلك تفككت الوحدة بين الجمعية ففكر بعض المنشقين وغيرهم من قدماء اللاعبين والمشرفين على تكوين جمعية جديدة سميت بالاتحاد الرياضي القابسي.

جمعية الاتحاد الرياضي بقابس L'UNION SPORTIF GABESIEN :

لقد تكونت هذه الجمعية "الاتحاد الرياضي القابسي" ولونها(4) أخضر وأحمر وترأس الجمعية المرحوم الحبيب الهمامي وكاتبها العام ابنه محمد الهمامي

لقد ضمت هذه الجمعية فريقا من اللاعبين الممتازين مثل أولاد سعيد والكوني والهادي غليس وسليمان وعبد العزيز شمام والبشير عبد الناجي وغيرهم... لقد تحصل هذا الفريق على نتائج باهرة كما تحصل على بطولة أندية قسم الشرف بالجنوب فشارك في مباريات التصفية للصعود للقسم القومي الذي دار بصفاقس بين الملعب التونسي والاتحاد التونسي والنادي الرياضي القفصي والاتحاد الرياضي بقابس.

لم يتمكن الاتحاد الرياضي من الصعود إلى القسم القومي واستمر في نشاطه إلى أن جاءت فكرة توحيد الجمعيات الرياضية بقابس في أوت 1957 أي بعد الاستقلال فتكون الملعب القابسي من (الاتحاد الرياضي القابسي والنجم الرياضي القابسي) الذي واصل عمله بكل جدية وبعد عمل موحد أظهر نتائج طيبة ثم انقسمت الجمعية مرة أخرى في بداية الثمانينات فتكون المستقبل القابسي(5) "الجليزة" وبقي الملعب القابسي يعمل باسمه القديم وتكونت بجانبه في منطقة البلد (جارة الدخلانية) جمعية أخرى سميت "بالأمل الرياضي بقابس" كما تكونت جمعيات رياضية في أغلب مناطق قابس في المطوية ووذرف وشاطئ السلام وشنني وتبلبو ومارث والحامة والزارات وغنوش والعمارات.

جمعية قدماء تلاميذ مكتب جارة:

تأسست جمعية قدماء تلاميذ مكتب جارة منذ سنة 1934 وهي السنة التي تكون فيها الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد ومن أغراضها كما يقول المرحوم الجيلاني العزوزي في استجوابه:

1- تكوين نادي يجمع المنخرطين في الجمعية

2- إعانة التلاميذ الفقراء

3- تكوين مكتبة يستفيد منها التلاميذ

وكان مقر الجمعية في منزل دار العاتي بالصغير فوق المكان المسمى بالسباط وهي بناية تقع في الطابق العلوي وقد سكنها المناضل الليبي(6) الهارب من ظلم الطليان وهو المرحوم علي الفكيني وهي بالقرب من سوق اللفة بسوق جارة القديم.

---

(4) نفس المصدر المرحوم الحسين شمام في تقريره المقدم في تاريخ 1976

(5) للتاريخ مكون هذه الجمعية هو المرحوم احمد ناصف وسماها بجمعية "جليز الجنوب" CARELAGE DU SUD لأن مؤسس الجمعية كان له معمل جليز وكان أستاذ رياضة بدنية ثم أعطى هذا الترخيص إلى جماعة من الرياضيين المغرومين وبقي معهم في الهيئة وساروا بهذا الاسم في الأول ثم تغير اسمها وأصبحت تسمى بالمستقبل الرياضي القابسي (الجليزة)

(6) عائلة الفكيني عائلة ليبية مناضلة فرت إلى قابس من ظلم الايطاليين واستقر المرحوم الوالد محمد الفكيني مع ابنه محي الدين بالمنزل وتزوج بامرأة من دار البشراوي وابنه علي الفكيني استقر بجارة وسكن بدار العاتي بالصغير وبعد رجوعهم إلى ليبيا أصبح علي الفكيني سفيرا لليبيا في تونس ومحي الدين أصبح وزيرا للخارجية ثم رئيسا للوزراء أما والدهم فقد دفن في مقبرة سيدي أبي لبابة وقبره معروف بها.

لقد ألقيت بعض المحاضرات في هذا النادي وكان من أبرز المحاضرين المرحومين محمد ناصف والشيباني عزيز وعلي منصور وهؤلاء كلهم من التعليم في ذلك الوقت وكذلك الجيلاني العزوزي كان موظفا بالبنك ثم اشتغل بالتجارة. أما المواضيع التي تطرق إليها المحاضرون فهي حول الصدقة وأثرها في إعانة المعوزين وفي التربية والتعليم وفي الرياضة الخ... ثم تغير اسم الجمعية فيما بعد وأصبحت تسمى بجمعية قدماء تلاميذ جارة وأصبحت عامة لتلاميذ منطقة جارة ثم تغير اسمها من جديد وأصبحت تسمى بقدماء تلاميذ قابس(ومن الصدف أني كنت حاضرا في هذا الاجتماع سنة 1948 وكنت تلميذا بالفرع الزيتوني) وكلها محاولات لتوحيد المنطقة من أصحاب النوايا الطيبة في ذلك الوقت. لقد أدت هذه الجمعية دورها وتمكنت من إعانة التلاميذ الفقراء سواء الذين كانوا يدرسون في قابس أو في تونس العاصمة.

الجمعية الخيرية في قابس:

انبعثت الجمعية الخيرية في قابس سنة 1930 وهي مواكبة لجمعية قدماء تلاميذ جارة ومن أهم أغراضها مساعدة الفقراء من التلاميذ ومن غيرهم، ومن منشئيها المرحومين الحاج عمار النوري المفتي بقابس والحاج عبد الله النوري بوخشينة والحاج علي بالكيلاني والحاج الجيلاني العزوزي والذي بقي يعمل بها إلى تاريخ انحلالها بعد الاستقلال وبعد تكوين التضامن الاجتماعي وبقي يعمل متطوعا في التضامن حتى بعد حل الجمعية. ثم سعت الجمعية لتكوين مدرسة قرآنية سميت "بمدرسة الهداية القرآنية" لأنه لا توجد في تلك الفترة إلا المدارس الفرنسية العربية Franco Arabe ولا تدرس العربية في برامجها إلا ساعة واحدة في الأسبوع وكانت لا تدرس القرآن وقد تحمس هؤلاء المتطوعين في الجمعية الخيرية ببعث المدرسة لتهتم باللغة العربية ولتدخل في برامجها القرآن الكريم وقد نجحت الفكرة وبعثت المدرسة في سنة 1930 ومن مديريها الحاج علي بن قويدر وحميدة بن نصر الحرصي وعلي بوشريكة وعلي الوذرفي وصالح بن قيزة...وغيرهم.

لقد حققت هذه المدرسة آمال المواطنين وساهمت في تكوين نشئ عربي مسلم، وكان خلاص المعلمين من الاشتراكات التي تدفع من الأولياء القادرين على الدفع ومن أهل الخير كما كانت المدرسة تقيم الحفلات في المناسبات الدينية لجمع الأموال للمدرسة.

لقد نجحت الجمعية الخيرية في قابس في مسعاها الخيري وتخرج على يدها كثير من الإطارات التي انضمت إلى حظيرة المجتمع وساهمت في بناء الدولة واستقرار البلاد وفي تطورها وتقدمها.

النادي الأهلي بمنطقة المنزل:

على غرار الجمعيات والنوادي التي انبعثت في قابس فكر جماعة من المثقفين بمنطقة المنزل بتكوين نادي في المنطقة سمي بالنادي الأهلي. لقد انبعث هذا النادي حسب قانون أساسي يتعلق بتكوين الجمعيات الثقافية والرياضية ووقعت المصادقة عليه(7) في تاريخ 1937/02/24 تحت عدد 201 حسب القانون الصادر في 1936/08/06 وقد صادق عليه

(7) هذه المعلومات مأخوذة ومترجمة من القانون الأساسي للجمعيات والترخيص المصاحب للقانون أمدني بها رئيسها السيد محمود شهر(الصادق) بالصادق

الكاتب العام للحكومة التونسية في ذلك الوقت. كما وقعت المصادقة عليه بعد الاستقلال(نوع ثقافية) تحت عدد 104 قابس وسجل في تاريخ 1958/09/18 من طرف مدير الأمن الوطني.

وتكونت الهيئة التأسيسية الأولى من المرحومين السادة:

1- الرئيس الزيتوني بن حمودة(مترجم رئيس في الحكمة الابتدائية) قاطن بمنزل قابس عمره 43 سنة
2- مساعد الرئيس محمد النفوسي بن عبد الله(أمين فلاحي) قاطن بمنزل قابس عمره 48 سنة
3- كاتب عام الطاهر العروسي بالرجب(مترجم في الحكمة الابتدائية)قاطن بمنزل قابس عمره32 سنة
4- أمين مال الحبيب بالحاج عمر بالحبيب(ملاك) قاطن بمنزل قابس عمره 45 سنة
5- محافظ مراقب للجمعية الأستاذ الطاهر دبية(محامي) قاطن بالمنزل عمره 29 سنة
6- الصادق الشريف (مستشار بلدي ومدير تعاضدية ملاكي الواحة) قاطن بمنزل قابس عمره 56 سنة
7- علي بالصادق بن بلقاسم(ملاك) قاطن بمنزل قابس عمره 48 سنة
8- الحسين بن النفطي شام(معلم بالمدرسة القرآنية الهداية بقابس) قاطن بمنزل قابس عمره27 سنة

وتتكون هذه الجمعية من أعضاء عاملين وأعضاء شرفيين وأعضاء متطوعين، الاشتراك في الجمعية قدر في ذلك الوقت بـ 180 فرنكا سنويا، مكتب الجمعية يتكون من ثمانية أفراد:

الرئيس الشرفي للجمعية هو المراقب المدني فلورات Fleurette وكذلك قايد الأعراض (عامل) مصطفى اللونقو.

وفي الواقع أن إدخال المراقب في الرئاسة الشرفية على ما أعتقد هي تعلة للحصول على التأشيرة والموافقة على الجمعية أما القايد (العامل) مصطفى اللونقو فهو وطني غيور وكان محبوبا من طرف الأهالي، كما أن الجمعية لها أهداف غير مكتوبة في القانون الأساسي لأن فروع نشاطها كما سنرى كثيرة لأنها ساعدت على تكوين جمعية النهضة التمثيلية التي انبعثت في سنة 1936 بمنطقة المنزل كما كانت مساندة للنجم الرياضي المسيقي بقابس لما أرادت فرنسا توحيده مع النادي الرياضي بقابس Club Sportif Gabesien كما كانت وراء تكوين جمعية الاتحاد الرياضي القابسي L'union Sportif Gabesien وكذلك وراء إيجاد جمعية المستقبل القابسي L'AVENIR DE GABES الآن لأن من أهم أهدافها هو إحياء الجهة وبعث الروح الوطنية فيها وخلق الوعي الرياضي والثقافي والاهتمام بمصالح المنطقة ومشاكل الجهة إذ أن بعض أعضائها هم أعضاء في الشعب الدستورية وفي التشكيلات النقابية والجمعيات المختلفة.

كان مقر الجمعية في بداية الأمر في المحل القريب من بطحاء سيدي بوعلي كما ينص القانون الأساسي الأول ثم تحولت إلى الحي التجاري الجديد محاذية للمعهد الثانوي شارع الجمهورية ثم تحولت إلى المكان الحالي بنهج البشير الجزيري.

وقد تجددت الهيئة مرتين مرة بطريقة غير قانونية أي رمم أعضاؤها ومرة بطريقة قانونية وهي الهيئة التي تسير الجمعية الآن.

أما الهيئة الثانية التي وقع ترميمها ولم ترسل إلى السلط فهي متكونة من:

1- المرحوم محمد بالصادق بن بلقاسم
2- المرحوم عبد العزيز الجريدي
3- المرحوم الحبيب الهمامي
4- المرحوم مصطفى الفاهم
5- المرحوم الفيتوري الجريدي
6- محمد الميساوي(الكولونيل)
7- المرحوم لسمر بوزيان
8- مصطفى الحشايشي
9- المرحوم الصحي حمزة
10- عبد الكريم الجريدي
11- المرحوم الحبيب الشناوي
12- المرحوم الطاهر دبية
13- المرحوم علي بن الحاج حسن
14- المرحوم الطيب بالحاج عمر
15- الحبيب قرفال
16- الهادي بالصادق
17- عقل بالساسي عقل
18- المرحوم الحاج محمود الزنزوري

ثم وقع تجديد الجمعية بصفة رسمية في سنة 1988 وتشكلت الجمعية حسب قانون الجمعيات الجديد عـــدد 154 الصادر في 1959 والمؤرخ في 7 نوفمبر 1959 والمنقح في القانون الأساسي عـــدد 1988 المؤرخ في 2 أوت 1988.

وقد نص هذا القانون على أنه من أهداف الجمعية "هو ربط الصلة المباشرة(8) بين القوى النشيطة للعمل على المساهمة الإيجابية في دعم مسيرة التنمية بالجهة في المجال الرياضي والثقافي والاجتماعي"، وتشكلت الهيئة الجديدة من أعضاء عاملين وهم

1- محمود بالصادق رئيس الجمعية
2- حسين قويدر أمين مال
3- عبد الحميد الزنزوري كاتب عام

أما بقية الأعضاء فهم:

4- الهادي لخرش
5- عز الدين البشراوي
6- الحبيب الشريف
7- الهادي المعاوي
8- يوسف الحمروني
9- مصطفى الحشائشي
10- المرحوم الصحي حمزة
11- عبد الحميد عبدالله
12- المنصف بن عبد العزيز
13- علي قنونو
14- الحبيب الجريدي

(8) هذه المعلومات مأخوذة من القانون الأساسي المصادق عليه في1982/08/02 المحفوظ في خزينة الجمعية

15- إبراهيم الحمروني
16- عبد القادر شلي
17- احمد الغرايري
18- عبد السلام مبروك
19- محمد المنصف الحشايشي
20- المنجي الحمروني
21- عبد الله غليس

الاشـتراك في الجمعيّة في الوقت الحاضر قدر بـــ 6 دنانير في الشهر واتفقت الهيئة على أن كـل مـن يفـارق المـنطقة لـلعمل خارجها فإنه يبقى مشتركا فيها على أن يدفع 30 دينارا فقط بالسـنة ولـلجمعية عـادة طيـبة وهـي إعـداد القهوة والشاي بالنادي وكذلك بيع المشروبات ولقد اشـترت الجمعيـة آلـة إعـداد لـلقهوة ليعـد الـراغب قهوتـه وحـده SELF SERVICE ويترك السـعر في الصـندوق المعـد لـلغرض(250 مليما لكل الأنواع) وهي طريقة طيبة إذ تمكن النادي مـن تحقيـق رغـبات الوافديـن عـليه مـن ناحيـة وتوفـير مدخـول للـنادي يسـاعده عـلى تسـيير مصاريفه العادية من ناحية أخرى.

لقـد تكون للجمعية فرع رياضي خاص تحت قسم رياضة وشغل وكانت الجمعية تتبارى مـع جمعيـات أخرى من نوع 6 أنفار وقد تبارت مع معمل الإسمنت والمنطقة الصناعية ومع فريق من الشباب والرياضة.

الحركة الكشفية في قابس:

قـبل تركيز الحركة الكشفية في قابس تكون فريق من كشافة فرنسا Les Eclaireurs De Franceالـتابع للمنظمة العالمية للكشافة ومؤسسها "بادن باول" الانجلزي وذلك سنة 1934 -1935 ودخـلها جمـع مـن الشـباب كـانوا الـنواة الأولى للكشـافة التونسية كما كان البعض من القـادة مـنهم المكونـون للكشـافة التونسـية فـيما بعـد، ومن جملة القادة القائد النجار رحومة، القـائد بولـبابة يحـي والقائد الأخضر ناصف والقائد الطيب الناصفي، ومن الكشافين الأطفال في ذلـك الوقـت أذكـر مـنهم(وكـنت في ذلـك الوقت في سن الخامسة أو السادسة) الخموسي الناصفي ويونس حيدر ومصطفى الشين وعلي الشكاي(بن سليمان) وإبراهيم منصور ومحمد جبر(بورو) والحسين يحي والمرحوم محمد العزوزي وغيرهم...

إلا أنـه بعـد هـذه النواة الأولى(9) تكون كشاف الهلال في سنة 1936 بقيادة المرحوم عبد المجيد حيدر وهي جمعية تونسية تابعة للمنظمة العالمية للكشافين مباشرة.

وفي سـنة 1937 تكونـت جمعيـة الكشـاف المسـلم التونسـي إلى سـنة 1940، ثـم توقفـت الحركة الكشفية بسبب الحرب العالمية الثانية إلى سنة 1942، ثم استؤنف النشاط بعد ذلك بنفس الاسم

(9) هذه المعلومات مأخوذة من القائد الصادق داي قائد جهة قابس سنة 1976(تقريركتابي)

ذ في سنة 1950 تغير اسم الجمعية وأصبحت تسمى بالكشافة الإسلامية التونسية.

قد أوقف النشاط مرة أخرى بسبب قيام الثورة الكبرى في تونس 1952 واستؤنف نشاطها بعد لحصول على الاستقلال أي سنة 1956 بنفس الاسم.

وقد تم توحيد جميع الجمعيات والمنظمات الشبابية في هذا السنة تحت اسم اتحاد منظمات لشباب وأصبح اسم الكشافة "الكشافة التونسية" ثم استقلت الحركة الكشفية عن اتحاد منظمات الشباب واحتفظت باسمها الكشافة التونسية.

نتشار الكشافة في جهة قابس:

الواقع أن الحركة الكشفية التربوية التي تؤمن بمبادئ بادن باول الانجليزي مؤسسها قد سارت بالشباب وبالطفولة سيرا طيبا وساهمت مع المدرسة في تكوين أجيال مهذبة واعية تحب الوطن ومتشبثة بالأخلاق الحميدة وبالشعارات الثلاث "الصراحة والتضحية والإخلاص" فتأثر بها الشباب وتكونوا تكوينا متينا وساهموا فيما بعد في الحركة التحريرية لأن هذا الميدان يدخل في منظومة "حب الوطن" فشارك والتف حول هذه الجمعية شباب تونس واستعدوا بهذا الوعي الفياض للمشاركة في الكفاح الذي انتشر في جميع أفواج وفرق جهة قابس فوج أبي لبابة، فوج طارق ابن زياد ، فوج البلد، فوج شط سيدي عبد السلام، فوج غنوش ، فوج بوشمة، فوج المطوية، فوج وذرف، فوج الحامة، فوج مطماطة، فوج مارث. فوج تبلبو وفرق في الزارات وعرام والمدو وسيدي بلبابة...

لقد شعرت الكشافة التونسية بضرورة الاستعداد للعمل من أجل الوطن وبالتعاون مع الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد وبواسطة زعيم الشباب علي البلهوان(10) هاجر جمع من الكشافين للشرق للتكوين في السلاح وفي التدريب على حرب العصابات بسوريا كما ذكرنا ذلك سابقا. لقد كانت هذه البعثات التي ترسل عن طريق ليبيا ومصر ثم سوريا كان جسرها وواسطتها قابس كما ذكرنا ذلك أيضا عن طريق المناضل الجيلاني بالجليدي من منطقة مطرش وكذلك المناضل عبدالحفيظ التويتي ومن المشرفين على هذه العملية القادة توفيق السلامي(النمر) وحامد القروي(11) وعبد المجيد شاكر وحامد الزغل وزكرياء بن مصطفى وسليم بن مصطفى.

اندلاع الثورة التونسية ومشاركة الكشافين بها:

لما اندلعت الثورة التونسية وهي المعركة الحاسمة في 18 جانفي 1952 شارك جميع القادة الكشافين في قابس سريا في الحركة المسلحة فقد ألقوا القنابل والمفرقعات في مناطق مختلفة من قابس واكتشفت فرنسا الأسلحة عندهم سواء كان ذلك في فوج أبي لبابة أو في فوج طارق ابن زياد وألقي القبض على بعض القادة ومنهم القائد العام للجهة المرحوم النجار بن رحومة وأخواه مصطفى بن رحومة ومحمود بن رحومة والقائد بوبكر عزيز بن لطيف والقائد

(10) المصدر هو المناضل والمربي الفاضل الصغير لاغة(استجواب كتابي)

(11) القائد حامد القروي هو المناضل الدستوري ورئيس الوزراء السابق عبد المجيد شاكر ابن الزعيم الهادي شاكر حامد الزغل كاتب دولة سابقا، زكرياء بن مصطفى والي قابس ووزير الثقافة سابقا

الصـــادق الزهـــري والقـائد الطيب البشراوي وغيرهم كثير وهم من الذين عملوا في الشبيبة الدستورية بالإضافة إلى صفتهم الكشفية.

وهكـذا أدت الكشـافة دورهـا في الحقـل التربوي والوطني وساهمت مع بقية المنظمات في تحرير تونس وفي الحصول على الاستقلال.

الحركة المسرحية بقابس:

بالـرغم مـن أن الحـركة المسـرحية في تونس قد بدأت منذ سنة 1860 أي قبل الاحتلال الفرنسـي بـتونس بـــ 21 سنة وهو تاريخ افتتاح المسرح(12) القرطاجنـي بنهج زرقون بتونس وقـد ظهـرت أول فـرقة عـربية في المسـرح في تونـس سنة 1905 أي بعد احتلال تونس بــــ24 سنة وهي الفرقة الكوميدية المصرية والتي يشرف عليها "كامل زوزو" المصري، ولم تزر قابس آيـة فـرقة مسـرحية لا من تونس ولا من الخارج ولم يظهر المسرح في قابس إلا منذ سنة 1932 وهـي السـنوات التـي بدأت فيها الجمعيات والمنظمات الثقافية والموسيقية والرياضية في الظهور والـتـي تحدثـنا عـنها في هـذا الفصـل بـتحرك الوعي السياسي والفكري والثقافي الذي بدأ يدب في الايالة التونسية. لقد تأثر بعض المواطنين في قابس عند مشاهدتهم عروضا في تونس من فرقة "رمسـيس المصـرية" بقيـادة الممثل القدير يوسف وهبـي وهي سنة 1927 ولما رجع هؤلاء فكر أحـدهـم وهـو "منصـور بوعزيـزة" في القيـام بعـروض مسـرحية في قـابس وكانت عنده بعض النصـوص ووقـع اسـتدعاء بعـض الأقـارب ليشاركوا في التمثيلية، ووزعت الأدوار على المرحوم الصـادق عقـل (أصـبح عمـدة فـيما بعـد) والمـرحوم عـلي بوعـبد الله، والمـرحوم الفـرجـــاني متجة(أبو التمثيل في قابس)

ثـم انضم إليهم المرحوم خميس بن مفتاح، والمرحوم الصحي شمام، وأشرف على الأدوار المـرحوم محمد بالصادق بن بلقاسم، والمرحوم محمد الصويعي، والمرحوم محمد الشناوي، والمرحوم الزيـتوني بن حمودة(رئيس النادي الأهلي سابقا ومن مؤسسيه). لقد تم التدريب، ومثلت الرواية في دار المرحوم عبد السلام ونيس، وهي رواية "صلاح الدين الأيوبي".

لقـد نجحـت هذه الرواية ومثّلت في عدة أماكن منها "نزل الواحة بقابس" حيث يوجد(نزل نجيب الآن) لقـد مـثل الأدوار السـادة المـرحومين حسـن بالحاج محمود ومحمود بالحاج يحي والصحي شمام والفـتوري لطيـف والفـرجاني مـنجة(الـذي مثل دورين) ومنصور بوعزيزة وخليفة بن خضر ومحمود الفرجاني وخميس مفتاح وعبد الجيد شمام ومحمد بعيرة.

والملاحـظ أن هذه القائمة بها بعض الدستوريين الذين كانوا أعضاء بالشعبة الدستورية وحسـيما يذكره بعض الكبار أن هذه الرواية قد مثلت تحت اسم جمعية(13) "الواحة الرياضية" الـتـي تكونت في سنة 1922 وكان هذا النشاط نواة لتكوين جمعية رياضية بها فرع تمثيلي تطور

---

(12) انظـر كـتاب محاولـة في تـاريخ المسـرح في قـابس(نشـأته وتطـوره) للدكـتور عـبد الله الـزرلي أسـتاذ جـامعي بجامعـة صفاقس(ملخص من صفحة 14) طبعة سنة 1988

(13) إذا ثـبت ذلـك فـان هـذه الجمعية "جمعيـة الواحـة الرياضـية" تعتـبر أول جمعيـة تكونت في قابس لذلك يكون النشاط التمثيلي قد بدأ مبكرا ولو بصفة غير رسمية أي قبل تكوين النهضة التمثيلية التي سنتحدث عنها في العنوان الموالي

في سنة 1930 وسمي هذا الفرع بالواحة التمثيلية وتشكلت هيأة من قابس، وكان يرأسها المرحوم سعيد بن علية مراسل جريدة "LE PETIT MATIN " والمرحوم الحبيب الهمامي، والمرحوم السلامي قطران ثم تكونت هيأة يعتقد البعض كما يقول الأستاذ عبدالله الزرلي أنها هيأة مستقلة عن جمعية الواحة الرياضية وهي على النحو التالي:

1- الزيتوني حمودة رئيسا
2- صويلح الجريدي نائبا له
3- مختار شمام أمين مال
4- محمد بالصادق كاتبا عاما
5- منصور بوعزيزة مديرا فنيا
6- الحبيب الشناوي
7- بشير محرز (معين أول)

وواصلت هذه الجمعية عملها إلى سنة 1934 حيث توقف نشاطها من قبل السلطة لأنها كانت تمثل أدوارا ذات طابع وطني وبعد عامين وفي سنة 1936 تغيرت الأوضاع في تونس وجاء إلى الحكم بفرنسا حكومة شعبية وقد عين أرمون قيون ARMOND GUION مقيما عاما بتونس، فأطلقت نوعا ما الحريات، وأعطيت حرية الصحافة وحرية الاجتماعات وحرية تكوين الجمعيات، فاغتنم أهالي قابس الفرصة وكونوا جمعية النهضة التمثلية.

جمعية النهضة التمثيلية:

لقد تكونت جمعية النهضة التمثيلية منذ سنة 1936 بعد جلب نسخة من القانون الأساسي من صفاقس، وكان من أعضائها المرحومين الأستاذ الطاهر دبية رئيسا ثم خلفه عبد السلام بالحبيب، وكان مديرها الفني الشيخ محمد بن عمر الصنهاجي(من شنني) ومن أعضائها محمد بالصادق بن بلقاسم، والحبيب الشناوي، وكانت الجمعية تمثل في السنة ثلاثة أو أربع روايات كما يقول الأستاذ الدكتور عبد الله الزرلي، واستمر عملها إلى سنة 1938 أي إلى حوادث 9 أفريل حيث أغلقت النوادي ووقع الضغط على الجمعيات.

لقد وجدت هذه الجمعية صعوبات جمة أثناء نشاطها، لكنها تغلبت عليها بفضل جهود مناضليها وكفاح مسيري الجمعية، فليس للجمعية مقر دائم فهي مرة في الطابق الأول من دار النفوسي، ومرة بدار احمد دبية، ومرة بحانوت منصور بوعزيزة.

أما العنصر الذي أقلق الجمعية فهو يتمثل في فقدان عنصر المرأة، فكانوا مرة يجلبون ممثلات من تونس مثل شافية رشدي التي كانت لا تأخذ أجرا على العمل الذي تقوم به، وفتحية خيري ووسيلة صبري وعزيزة نعيم، ومرة من ماخور صفاقس، من طبقة غير مثقفة وكان المرحوم الفرجاني منجة يتوجه إلى صفاقس ليعلم الممثلات أدوارهن بالعربية الفصحى لأن ميزة هذه الروايات التي مثلتها الجمعية كانت تمثل بالعربية.

وكانت الجمعية أحيانا تعطي الأدوار النسائية إلى بعض الرجال مضطرة وخصوصا في البداية أما أماكن العرض فمرة في دار المرحوم عبد السلام ونيس(كما ذكرنا ذلك) وهي رواية صلاح الدين الأيوبي. وهي أول رواية مثلت في قابس من طرف الجمعية، وكذلك في فندق سيدي عبد السلام بالمنازل وفي نزل الواحة ومرة في سوق المنزل القديم وبالمدرسة القرآنية الهداية وبنزل الاتحاد وسينما الأطلنتيك.

وبعد حوادث 9 أفريل 1938 وقيام الحرب العالمية الثانية قد خفت هذا النشاط ثم تجددت الهيئة في سنة 1944 برئاسة المرحوم محمد بالصادق بن بلقاسم والمرحوم عبد الرحمان الصويعي وغيرهما وتواصل عمل الجمعية ببطء وبدون رخصة إلى سنة 1956 السنة التي استقلت فيها تونس.

جمعية الهلال التمثيلي:

توحدت جهود هذه الجمعية منذ سنة 1957 ومثل بها المرحوم الفرجاني منجة بعد أن رجع من المنفى أي من جرجيس ومثل معه المرحوم محمد غريسة وعادل ونيس والمرحوم عبد الطيف الحمروني (جحا) ومحمود بعيرة وعبد العزيز عمار والصادق شمام والعروسي قويدر والجيلاني مرزوق وحسن مرزوق والعيادي البحري لكن في 16 أفريل 1963 تكونت الهيئة التأسيسية بصفة رسمية وسجل القانون الأساسي في القباضة المالية بقابس في 9جويلية 1963 واتخذت مقرا لها نادي الشباب(نادي المحاربين سابقا) ومقر فرع الاتحاد الوطني للمرأة بقابس لمدة ثم كمركز للتكوين المهني تابع له وتشكلت الهيئة على النحو التالي:

1- عبد العزيز عمار رئيسا
2- بشير الغريب مساعدا له
3- سعد الدين اللقاني كاتبا عاما (كان أستاذ عربية بالمعهد الثانوي بقابس)
4- محمد سعيد بوعبد الله مساعدا
5- الحاج بشير المنياوي أمين مال
6- الحاج الحسين ونان مساعده
7- عبدالحميد بن سالم مساعد ثاني
8- الفرجاني منجة مدير فني
9- الحاج الهادي العمراني مساعد له
10- حسن بو عبدالله عضو
11- بلقاسم دخيل عضو
12 - عبد القادر بوخريص عضو
13- الحاج النفطي المرزوقي عضو
14- حمادي رمضان عضو
15- عيادي البحري عضو

وقد تم تسجيل القانون الأساسي بقباضة قابس في 1963/07/09 وقامت بعدة نشاطات منها رواية "قساوة البشر" و"الطبيب المغصوب" و"العباسة أخت الرشيد" و"جيل اليوم" و"عطيل" إلى غير ذلك من الروايات ثم دخل إلى التمثيل في قابس عنصر المنشطين في هذا الاختصاص المتخرجين من المعهد القومي للتمثيل بتونس لكن رغم انهم أثروا على العمل المسرحي المدرسي إلا أنهم لم ينسجموا في العمل في نطاق الجمعية المدنية لاختلاف الطرق بين المتعلمين بالتجربة وبين المتعلمين بالمدارس وقد تمكن المناضل الفرجاني منجة من إخراج بعض التمثيليات في سنتي 1966-1967 فوقع تقديم أربعة تمثيليات – سرقة

بالضخامة- الكل من عيشوشة- هبلاتو مرتو- منامة عتاريس- وبوفاة المرحوم فرجاني منجة في 30جوان 1968 توقف نشاط الهلال التمثيلي نوعا ما وحاولت الجمعية النهوض من جديد لكن فقدان العنصر النسائي وعدم الترخيص لفتيات قابس اللات تكوّن في المعاهد من طرف أوليائهن في التمثيل خارج المدرسة أو المعهد.

لذا فقد رجعت الجمعية إلى الطرق القديمة وهو جلب عنصر النساء من صفاقس إلا أن ذلك كلف الجمعية مصاريف باهضة.

وختاما جدير بنا أن ننوّه بالجهود الذي بذله بعض الممثلين وبالتضحيات التي قاموا بها للقيام بهذا الدور الطلائعي والذي ساهم في تكوين الأجيال وهم

1- الفرجاني منجة(أبو التمثيل في قابس) ومن المجاهدين في هذا الميدان فلقد اضطر بالاتيان بابنته لتمثل معه لأنه لم يجد عنصرا نسائيا في قابس يتطوع لتقديم هذا الدور

2- الشيخ محمد بن عمر الصنهاجي(من شنني) ومن خرجي جامع الزيتونة وسوف نتحدث عنه عند حدثنا عن جمعية قدماء تلاميذ شنني في المحور الأخير من هذا الفصل

3- منصور بوعزيزة الذي بعث النواة الأولى للتمثيل بقابس وهو الذي ساعد على إخراج الرواية الأولى صلاح الدين الأيوبي

4- محمود بالحاج يحي وهو من الممثلين الأوائل

5- الهادي الغمراني(المناضل الدستوري والنقابي والممثل القدير)

6- عبد السلام ونيس(الفنان وضارب العود) والذي مثلت أول رواية في منزله يوم عيد الأضحى وآخر أضحيته لليوم الثاني، وكان للفنان عبد السلام ونيس فرقة موسيقية عائلية متكونة من أفراد عائلته وكان رياضيا ولاعبا في جمعية الواحة الرياضية.

7- العيادي البحري قنونو الممثل البارع وقد تأثر بالشيخ محمد بن عمر الصنهاجي وكان مصاحبا له وكان دستوريا من الأوائل ونقابيا إذ كان كاتبا عاما لنقابة البناء في قابس

8- المرحوم الحسين المنياوي الذي كان مشتركا في جمعية الشباب التمثيلي ومثل دور أمية ابن خلف وكان أستاذا بعد ذلك في التاريخ والجغرافيا وأدار عدة مدارس ثانوية

9- صالح قيزة الذي كان عضوا في جمعية الشباب التمثلي ومثل دور بلال بعد أن صبغ باللون الأسود عدة مرات وقد أتقن دوره مع زميله الحسين المنياوي لأنهما مثلا في نفس الرواية.

المسرح المدرسي:

مواصلة للتسلسل التاريخي في محور المسرح جدير بنا أن نواصل الحديث عن المسرح المدرسي ولو تجاوزنا الفترة التاريخية التي حددناها في العنوان الخاص بهذا المحور.

لقد بعثت اللجان الثقافية منذ سنة 1963 وبذلك اصبح النشاط المسرحي تحت لواء مندوبية الشؤون الثقافية التابعة لوزارة الشؤون الثقافية، وبعث المسرح المدرسي وذلك بتعيين بعض المرشدين في المسرح كما ذكرنا ذلك سابقا وبالرغم من عدم توفر عدد هؤلاء المرشدين لأن تسمية الواحد منهم كانت بعدة مدارس ومعاهد والنشاط مساء الجمعة في نطاق الشبيبة

المدرسية لا يكفي لتكوين ممثلين أكفاء لكن مع ذلك فقد تمكن هؤلاء المرشدين من بذل مجهود كبير وقاموا بروايات جلبت انتباه الأولياء والأساتذة والتلاميذ والذي ساعد على نجاح هذا المسرح هو توفر عنصر الفتيات داخل المعاهد وقد شجع مديرو المعاهد هذه الحركة كما أن أولياء الفتيات لم يروا مانعا من القيام بهذا العمل المسرحي من طرف بناتهم داخل المعهد، وكان من جملة المنشطين الذين وقعت تسميتهم بقابس هم الأساتذة الهاشمي الأكحل من الساحل وعبد الله رواشد من قفصة والتوهامي النحالي من قابس ومحمد الوريمي من جرجيس وقد نبغ بعض الممثلين من التلاميذ والتلميذات في المسرح المدرسي ومنهم:

1- يوسف حميد(14) الذي قصد باريس للمشاركة في معهد الدراما بباريس

2- لسعد سعيد

3- عمر محمد الهواري الذي كون فرقة مسرحية بعنوان "كوكب الواحة للتمثيل"

4- الطيب صالح الذي كون مع زميله بلقاسم بن علي وجليلة بن يحي ونجيب بوفايد وغيرهم جمعية "نادي البحوث المسرحية" كما برز صالح الدبار وعبد الله شرّاد ومحمد الوحيشي(15) واحمد منصور(الدب) وصالح بن يوسف ونور الدين رجب وحفيظ حفيظ ونجيب الصغير ورضا الغنوشي وحموسي الفاسي وبوقلية الذي درس بالمعهد العالي للفن المسرحي مع الممثل القدير صالح الجدي(من تبلبو قابس) والذي اشتهر وأصبح ضمن الممثلين العالميين وقد مثل روايات مع فحول المسرح في سوريا ونجح نجاحا باهرا.

كذلك برزت في هذا الميدان بعض الفتيات ومنهن من أصبحن أستاذات في التمثيل مثل جليلة بن يحي التي كانت مع مجموعة الطيب صالح وكذلك حليمة حمادي ومنوبية الطرابلسي ورجاء الحمروني ومنوبية القبلاوي ومحبوبة الحشائشي وغالية الدغاري وحفيظة وشاني.

لقد أفرز النشاط المدرسي المسرحي مسرحيين ومسرحيات وقد ذكرنا منهم البعض وقد نتج عن ذلك بعث جمعيات مسرحية بإشراف ممثلين قديرين ومنهم.

<u>جمعية كوكب الواحة للتمثيل:</u>

لقد بعثت هذه الجمعية بإشراف الممثل البارع عمر بن محمد الهواري الذي تدرب على المرشدين المسرحيين داخل مدرسة شارع الجمهورية ومدرسة ابن خلدون ثم ترشيح المعلمين وقد تمكن مع مجموعته (رضا الغنوشي وعبد المجيد حسن والخموسي الفاسي ونجيبة فريطيس) وغيرهم من تقديم عروض شيقة لفتت نظر الجماهير وقد مثلت هذه الروايات حتى خارج الولاية إذ تمكنت هذه الجمعية من المشاركة في المهرجانات القومية ووقع تشجيعها من طرف وزارة الشؤون الثقافية ومن طرف السلط بجهة قابس وقد تمكنت في سنة 1980 من الحصول على القانون الأساسي للجمعية وواصلت سيرها إلا أن عراقيل مادية حدت بهذه الجمعية إلى

(14) انظر كتاب محاولة في تاريخ الحركة المسرحية في قابس(نشاطها وتطورها طبع في سنة 1988)

(15) محمد الوحيشي الذي سافر لسوريا واحمد منصور وصالح بن يوسف كانوا ضمن تلاميذي وتكونوا في المعهد الذي كنت أديره في سنة 1963-1964

الوقوف عن النشاط كما أن الاهتمام بالمسرح في فترة ما قد ضعف خصوصا وأن جهاز التلفاز قد انتشر انتشارا فضيعا وأصبحت المسرحيات والمسلسلات والروايات تبث يوميا مما حدا بهذه الجمعية وغيرها من الوقوف عن النشاط.

جمعية البحوث المسرحية بقابس

تولد عن المسرح المدرسي أيضا جمعية مدرسية نشيطة سميت بنادي البحوث المسرحية بقابس والتي تحصلت على تأشيرتها في تاريخ 1982/08/23 تحت رقم 72-82 ومن الأعضاء المكونين لها الطيب صالح الجمني رئيسا لها وعبد الله ميمون الذي كون شركة مسرحية الآن بتونس وبلقاسم بالحاج علي ونجيب الصغير ونجيب عبد الرحيم وجليلة بن يحي وصلاح شمام وبشير بالصادق وفتحي جبر وفيصل الدزيري ولسعد سعيد ويوسف حميد وأغبلهم ذكرناهم ضمن التلاميذ والتلميذات الذين تكونوا في نطاق المسرح المدرسي داخل المعاهد، ومن هؤلاء من واصل العمل في نطاق المسرح مثل يوسف حميد الذي يدرس الآن بمعهد البحوث الدرامية بفرنسا، وكون فرقة مسرحية هناك، والأسعد بن سعيد الذي تخرج من معهد البحوث الدرامية بفرنسا، وجليلة بن يحي أستاذة في المسرح ومنسقة الآن في ولايات الجنوب(قابس وقبلي ومدنين وتطاوين).

كما اختص بعض التلاميذ الذين اهتموا بالتمثيل داخل المعاهد الثانوية بقابس، بالقيام بأفلام سينمائية مثل الطيب الوحيشي، الذي انتشرت شهرته حتى خارج البلاد، كذلك صالح الجدي الذي تحدثنا عنه والمتخرج من المعهد القومي للمسرح، ومثل أدوارا خارج الحدود، كذلك فتحي بوقلية الذي أصبح من مشاهير الممثلين للتلفزة التونسية، تخرج من المعهد القومي للمسرح وكلهم من خريجي المعاهد الثانوية والإعدادية بقابس، وقد تمكن هذا النادي من عقد اتفاقية مع مهرجان قابس الدولي(16) في 17 أفريل 1992، ومثل روايته في قابس وفي المعتمديات التابعة لها وكان الممثل الطيب صالح الجمني رئيس الجمعية قد مثل مع جمعية الهلال التمثيلي التي ترأسها في سنتي 71 و72 بوراوي الجريدي مدير المعهد الثانوي المختلط وآخر تمثيلية لها هي "مدرسة الأزواج" ومن الممثلين الذين مثلوا معه في نطاق الجمعية هم علي حسين والمنصف صالح واحمد الحاجي ومحمد الحشائشي وحسين منجة وعبد السلام الشناوي(الذي تزوج بمنوبية الطرابلسي التي تعلقت بالتمثيل هي الأخرى) كما نشط السيد الطيب صالح الجمني في نطاق الفرقة القارة للتمثيل التي تكونت في قابس سنة 1980 بإشراف التوهامي النحالي وهو المدير الفني والمخرج لها، وكان مدير الفرقة آنذاك عبد الله فلاح رئيس مصلحة بولاية قابس ومن الممثلين الذين نشطوا في هذه الفرقة رمضان اللطيفي من (الحامة) وتدربت هذه الفرقة على مسرحية الخبزة ومثلتها في سبتمبر 1982 .

لقد تميزت هذه الفترة بظهور بعض الأنشطة الثقافية المختلفة المشارب السياسية من تمثيلية وغنائية وسينمائية إذ تكونت فرقة البحث الموسيقي كما تكون نادي السينما الهواة ومن

(16) المصدر هو عمر محمد الهواري رئيس فرقة كوكب الواحة للتمثيل والطيب صالح رئيس فرقة جمعية البحوث المسرحية

الذين كانوا يعملون في نطاق فرقة البحث الموسيقي نبراس شمام ورجاء الحمروني وشكري الحمروني وغيرهم... وقد انتشر عملهم حتى خارج قابس وشاركوا في المهرجانات الجهوية والقومية وختم هذا النشاط المسرحي في نطاق ولاية قابس بنشاط جماعي مشكور شارك فيه كل الممثلين الممتازين في قابس مثل عمر محمد الهواري والطيب صالح مع ممثلين قوميين أمثال عمر خلفت ومنى نور الدين بالتعاون مع مهرجان قابس الدولي وقد مثلوا مسرحية "التغريبة الهلالية" وقش في الذاكرة إخراج صالح الجدي.

والواقع أن هذا النشاط المحمود والذي لم يدم مع الأسف الشديد كان يتأثر بالأحداث وبالتطورات التي تحدث في البلاد فمرة يزدهر ومرة يخفت لكنه بصفة عامة احدث حركية ونشاطا دفع البلاد إلى التحرر قبل الثورة الكبرى كما ساهم في تقدمها وازدهارها بعد الاستقلال لأن ما قام به الأوائل بالخصوص أي ابتداء من الثلاثينات يعتبر مجهودا يذكر فيشكر.

الاتحاد الثقافي لعمل الأعراض:

تكونت جمعية الاتحاد الثقافي لعمل الأعراض سنة 1946 من تلاميذ جهة قابس الذين كانوا يدرسون بجامع الزيتونة بتونس العاصمة إذ كثر عددهم ودعت الضرورة إلى التفافهم حول بعضهم ودراسة المشاكل التي قد تحدث للتلاميذ ومساعدتهم على حلها من سكنى ودراسة والقيام بالمحاضرات ودروس يستفيد منها التلاميذ الجدد.

ومن التلاميذ الذين ساهموا في بعث هذه الجمعية هم السادة العروسي المطوي والحبيب صويلح والهادي الباردي وبوبكر الجرادي والحسين المغربي ومصطفى جراد والبشير بو عبد الله وغيرهم... ثم تغير اسم الجمعية إذ أصبحت تدعى باسم الاتحاد الثقافي لعمل قابس ثم فكرت الجمعية في تكوين فرع لها في قابس لربط الصلة بالموطن الأصلي وفعلا تم تكوين هذا الفرع في قابس سنة 1947 واشرف عليه الأخ الهادي الباردي فأصبح للجمعية مكتبة معتبرة كانت فائدتها لا للتلاميذ فقط بل استفاد منها حتى العموم لأنها كانت تقرض كتب المطالعة بصورة منظمة وأحدثت ألعابا فكرية في النادي وطاولة البينق بنق وأجرت مباريات صاخبة ومقابلات هامة بين التلاميذ وغيرهم.

لقد استقبلت الجمعية في قابس الزعيم الحبيب بورقيبة سنة 1951 أثناء زيارته لقابس وألقت الفتاة فتحية الشين كلمة ترحيب بالزائر الكريم وكانت تلميذة بالمدرسة الابتدائية وهي الآن أستاذة إنجليزية بارعة في تونس.

لقد أدت هذه الجمعية واجبها على أحسن الوجوه فألقيت فيها المحاضرات والمسامرات استفاد منها التلاميذ كما ساعدت التلاميذ ماديا وأدبيا على مواصلة دروسهم وكانت تلقي الدروس الصيفية للتلاميذ وأنا شخصيا استفدت منها وكان يدرسنا المربي الفاضل الهادي الباردي والمربي بوبكر الجرادي والمربي الحسين المغربي والمربي مصطفى جراد بزاوية سيدي مصطفى بن عزوز وكانت مكتبتها من المكتبات المعتبرة في ذلك الوقت لكن ضعفت الجمعية بعد تكوين اللجان الثقافية وتلاشت كتبها وسلم البعض منها إلى المكتبة الثقافية بقابس وإلى مكتبة

المعلمين التابعة للتفقدية الجهوية للتعليم الابتدائي.

جمعية قدماء مكتب شنني:

بعثت هذه الجمعية منذ 1950/08/08 حسب قانونها الداخلي الذي أحدثت به، وهي تعتبر مواصلة للحركة الثقافية والفكرية التي بدأت تتحرك منذ انبعاث الحزب الحر الدستوري الجديد في تونس، وقد قيض الله لهذه القرية أشخاصا كمنارات كانوا المرشدين لهذا الجيل الجديد، المتطلع إلى العلم والمعرفة، فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية تطور الوعي في منطقة شنني، وكان بالقرية مؤدبا ووطنيا مخلصا آمن بالعلم والمعرفة، وهو الفقيه المؤدب المرحوم الطاهر البرغوثي الذي كان يدرس القرآن للتلاميذ في جامع الرحبة(جامع بوعزة)، وهو ثاني جامع أقيمت به الجمعة بعد جامع الصناهجة. كان هذا المؤدب يعلم تلاميذه النحو والفقه، مع تحفيظهم الأحزاب المطلوبة للدخول إلى الفرع الزيتوني بقابس لاعدادهم للدخول إليه، وكان من وراء هذا المؤدب ثلة من الأولياء تساند هذا المسعى، كذلك يوجد بالقرية مثقف آخر كان قد درس بجامع الزيتونة واهتدى إلى أنه بالعلم ترتقي الشعوب، إلا وهو الشيخ محمد بن عمر الصنهاجي الذي ذكرناه عند حديثنا عن جمعية الهلال التمثيلي بقابس، ودوره في بعث النشاط المسرحي، فلقد ساعد هذا الشيخ جمعية قدماء تلاميذ شنني على تكوين فرقة مسرحية تابعة لها، ولا ننسى دور الزاوية الفرجانية(زاوية سيدي عبد السلام) ودورها التاريخي، إذ كانت تدرس بالإضافة إلى القرآن دروسا في النحو والحساب والفقه، كذلك دور المرحوم المناضل الصحي بن محمد بن فرحات، الذي كان يزور القرية في العطل فكان يبعث الحماس في الأولياء والتلاميذ للدخول إلى الفرع الزيتوني وإلى المدارس الثانوية الأخرى،(التكميلية ومعاهد صفاقس وسوسة وتونس) التابعة للتعليم العصري كذلك المناضل المرحوم علي بن حسن بن عثمان المعلم والنقابي المعروف كما لا ننسى دور المدرسة الابتدائية بشنني وفروعها الصناعية التابعة لها وتحويلها بعد إصلاح التعليم إلى مدرسة صناعية إعدادية بعد تحويل مقرها إلى قابس إذ التحق كثير من تلاميذ شنني بهذه المدرسة وبغيرها من المدارس وكان الذي يحرك هذا التيار هو مديرها الفاضل المرحوم علي بن بلقاسم الذي وقعت تسمية المدرسة الابتدائية التي كان يديرها باسمه تخليدا لجهوده التي بذلها في القرية.

ولما ازداد عدد التلاميذ على اختلاف مشاربهم(زيتونيون ومدرسيون وصناعيون) وقد أحدثت جمعية الاتحاد الثقافي بقابس مكتبة، فرأت النخبة المثقفة في شنني أن طموحاتهم وطلباتهم للكتب من مكتبة الاتحاد الثقافي بقابس لم تحقق رغباتهم، ففكروا في تكوين جمعية قدماء مكتب شنني، وتكوين مكتبة تابعة لها، وقد تم ذلك كما ذكرت في سنة 1950 ببادرة من المرحوم إبراهيم الشيباني، الذي كان له اتصال بالطبقة المثقفة، وتشكلت الهيئة من التلاميذ والمعلمين وهم:

1- الصغير بن إبراهيم بن عبد القادر رئيسا(وهو تلميذ بالفرع الزيتوني في ذلك الوقت ومعلم متقاعد وإمام جمعة الآن)

2- المرحوم علي بن بلقاسم مساعدا للرئيس(وهو مدير المدرسة الابتدائية والصناعية الذي ذكرناه سابقا)

3- المرحوم عمر بكار كاتبا عاما وهو (تلميذ زيتوني وأصبح معلما ومديرا لعدة مدارس ابتدائية)

4- بلقاسم بكار مساعد كاتب عام(تلميذ مدرسي وأصبح فيما بعد مدرسا وأستاذا جامعيا ومديرا للمدرسة القومية للمهندسين بقابس)

5- التوهامي بالصادق بن مفتاح أمين مال(تلميذ زيتوني ثم معلم متقاعد وإمام جمعة الآن)

6- محمد الحبيب بن علي بن احمد كاهية أمين مال(تلميذ مدرسي وإطار عالي بالبريد متقاعد)

7- محمدبن علي بالحبيب حافظ مكتبة(تلميذ)

أما الأعضاء في الجمعية فهم:

8- المرحوم مصطفى بن علي(معلم)

9- المرحوم علي بكار(كاتب بالمحكمة)

10- المرحوم عبد الحفيظ بكار(معلم)

11- الصادق بكار(مهندس)

12- محمد الحمروني(تلميذ زيتوني ومعلم متقاعد وإمام جمعة الآن)

ويشير التقرير الكتابي الذي قدمه لي الأخ الصغير بن عبد القادر رئيس الجمعية التأسيسية ما يلي:

"لكن ليس هؤلاء هم العاملون في تنشيط الجمعية فقط بل هناك من يعملون حتى أكثر من الأعضاء وهم الأخوان عبد الحميد ساسي(مهندس أول ومدير شركة الآن) والمرحوم الصحي فرحات بن علي بن عمار (معلم ومدير مدرسة متقاعد الآن) البشير الهاشمي(معلم ومتفقد جهوي متقاعد الآن) بشير فرحات(معلم ومدير مدرسة متقاعد الآن) المرحوم الهادي عبد القادر(مهندس) علي بن عمار الجليدي وغيرهم كثير..."

كانت الجمعية تقوم بالدروس الصيفية والأموال التي تجمعها تشتري بها الكتب والكراسات والأقلام للتلاميذ المحتاجين في افتتاح السنة الدراسية ولما اقتحمت الفتاة أقسام الدراسة نشطت هي الأخرى وشاركت الشباب في توزيع كتب المطالعة على الفتيات.

لقد ذاع صيت هذه الجمعية وشارك في مكتبتها حتى مطالعون من خارج القرية فقد شارك جمع من أهل الغريبة واستفادوا من مكتبتها.

دور الجمعية في الحركة المسرحية:

لقد أشرنا إلى وجود الشيخ محمد بن عمر الصنهاجي خريج جامع الزيتونة وأشرنا إلى ولعه بالمسرح، وكان من المنشئين للحركة المسرحية بقابس وفكر هذا المواطن في تكوين فرقة مسرحية تابعة للجمعية، وصادف ذلك انبعاث الفرق الكشفية والشعب وتلهف الناس إلى هذا النوع من النشاط المفقود، فكون فرقة تمثيلية تابعة للجمعية قامت بعدة روايات في الزاوية

الفرجانية وأول رواية لهذه الفرقة كانت بعنوان "نكبات الجهال" وقد حضرت المرأة بشنني هذه الرواية في ركن خاص بها في الزاوية كما مثلت رواية "الثورة العُرابية" ورواية "صلاح الدين الأيوبي" ورواية "حنبعل".

لقد اتهمت الجمعية بإعانتها للثوار ومساعدتهم ماديا، لكن شيخ القرية في ذلك الوقت الوطني الغيور علي بن سالم فنّد مزاعم السلطة وسارت الجمعية سيرا طبيعيا، وساهمت في تكوين الأجيال الصاعدة إلى أن ضعفت في الأخير كغيرها من الجمعيات، وانحلت بتكوين اللجان الثقافية، وطلب من الجمعية تسليم كتب مكتبتها إلى المعهد الثانوي بقابس، الذي فتح أبوابه في سنة 1960، فامتنع المسؤولون عن ذلك وسلمت الكتب بعد تبعثرها وسرقتها إلى اللجنة الثقافية بقابس، وآخر هيئة سيرت الجمعية كانت برئاسة الأخ الصادق الغنوشي(شهر إبراهيم) وبعضوية الصادق بكار كاتبا عاما لها والتوهامي بن مفتاح أمين مالها.

الباب العاشر
الفصل الأول
(التاريخ الحديث)
الثورة الكبرى أو المعركة الحاسمة

بعد أن وصلت المفاوضات بين تونس وفرنسا إلى طريق مسدود عن طريق الحكومة التفاوضية، وبعد أن منع الزعيم الحبيب بورقيبة من الدخول إلى جربة ومدنين، إذ رجع من الجرف ورجع لتونس عن طريق قفصة ثم صفاقس فتونس. وقد نابه في مدنين رئيس شعبة منزل قابس الطاهر دبية فألقى كلمة في الحاضرين، شكرهم فيها على الاستعدادات التي أعدوها لزيارة الرئيس ووعدهم بأنه سيزورهم في أقرب الأوقات وإن الاستقلال آت لا ريب فيه.
ثم تقرر انعقاد مؤتمر الحزب بعد تلقي مذكرة 15 ديسمبر 1951وبعد رفض فرنسا مواصلة التفاوض، فتعين مقيم عام جديد وهو دي هوتكلوك.

انعقاد مؤتمر 18 جانفي 1952:

تقرر انعقاد مؤتمر الحزب في 18 جانفي 1952 إلا أن فرنسا قررت منعه واعتقل الرئيس بورقيبة فجر انعقاده، إلا أن المؤتمر رغم منعه فقد عقد برئاسة الزعيم الهادي شاكر واكتفى المؤتمرون بإلقاء اللائحة العامة، وتقرر إعلان الكفاح المسلح ضد الاحتلال الفرنسي.
لقد ذكرت سابقا بأن الرئيس بورقيبة قد استدعى جامعة الأعراض(حضر هذه الدعوة حسين عزيز والصحي بالحاج محمود الجرادي وصالح الشين) حسب القرير المقدم بمناسبة مرور 55 سنة على تأسيس شعبة جارة، وأبلغهم بأن لا يلبوا الدعوة التي توجه لهم من تونس لحضور الاجتماعات بل يبقون في مناطقهم لتكوين عصابات(فلاقة) للتشويش، وأنه يريد أن يسيل شئ من الدم، ثم قال لهم أنه سيلقى عليه القبض، وسيأتي يوم يدعونني فيه للتعاون معهم وكان ذلك إيذانا بإعلان الثورة.

وفي 15 و16 ديسمبر 1951 وفي أوائل سنة 1952 اندلعت الثورة في جهة قابس بقيادة المجاهد القائد الطاهر لسود، والقائد بلقاسم البازمي المشهور بالمرزوقي، لتعمّ التراب التونسي، وبذلك تكون قابس هي السباقة لإعلان الثورة قبل بدايتها أي قبل 18 جانفي 1952.
لقد اتصلت شعبة جارة الدستورية بالمناضل القائد الطاهر لسود، والقائد بلقاسم البازمي المرزوقي وزودتهما ببعض السلاح والمال عن طريق العيساوي الشكاي(بن سليمان)، وبدأ القائد الطاهر لسود بالتعرض إلى السيارات العسكرية المارة بطريق قفصة قابس، وتكونت عصابات في مختلف المناطق في الداخل والخارج.
أما في الداخل فيقول عبد الله الغنوشي في مذكراته:

---

(1) انظر مذكرات عبد الله الغنوشي صفحة عدد7

"اتفقت مع رئيس الشعبة(الحسين عزيز) لإمداد العصابات بما يحتاجون(1) إليه من أسلحة ومواد تخريب، والسهر عليهم ومدهم بكل التعليمات وهذه العصابات هي

1- عصابة المرحوم محمد بن كريم ومن معه
2- عصابة المرحوم القائد يوسف بوخشينة ومن معه وهم القادة الجيلاني الغربي والمرحوم مصطفى بالرحومة وأخوه محمود بالرحومة وكلهم من فوج أبي لبابة للكشافة التونسية
3- عصابة بلقاسم الزريقي ومعه المرحوم عبد السلام بن عمر
4- عصابة المرحوم الصادق بالحبيب المطرشي ومن معه(استقرت بمنطقة الموازير قابس)
5- عصابة علي الزرلي ومن معه
6- عصابة يوسف بالحبيب المطرشي(أخو الصادق المطرشي) ومن معه
7- عصابة علي بن الفرجاني الزرلي واحمد الزرلي
8- عصابة لخضر بن يعقوب ومن معه
9- عصابة علي بوسدرة ومن معه(وهو ضرير الآن)
10- عصابة الفتوري شقرة ومن معه وهو الذي توجه إلى فلسطين وشارك في المعارك ضد اليهود وسجن ونفي إلى جربة.

وهناك عصابات أخرى لم يذكرها المناضل عبد الله الغنوشي منها عصابة علي بن رمضان وجماعته في مارث.

قامت هذه العصابات بعدة عمليات تخريبية داخل المدينة منها:

1- تحطيم الأسلاك الهاتفية
2- نسف القناطر داخل المدينة وخارجها
3- الهجوم على إدارة الكهرباء
4- الهجوم على شركة شال
5- تخريب قنطرة الشمامة
6- إحراق الدار التي كانت على ملك "اليد الحمراء الفرنسية" (دار زوباردي)
7- إحراق محطة السكة الحديدية
8- محاولة نسف إدارة الأشغال العمومية
9- نسف قنطرة واد الفرد

يقول المناضل عبد الله الغنوشي "وبصحبة الأخ الحسين عزيز ذهبت إلى الأخ بلقاسم الزريقي فزودنا ببندقية حربية نوع (ف-م) التي تسلمها من الأخ الحبيب الزريقي وكمية من الخرطوش الكبير واحتفظت بها في بيتي في الغابة إلى أن جاءني احمد البازمي أخو القائد بلقاسم البازمي رفيق الطاهر لسود وسلمتها له مع بقية العتاد كما زودناه بمقدار من المال من أميـن

مال الشعبة الأخ صالح الشين ليسلمها إلى أخيه بلقاسم وصاحبته إلى بوشمة.
أما المناضل المرحوم الصحي خليفة فيقول في كراسه صفحة 9، وبانتهاء المؤتمر وقع التنبيه علينا بوجوب العودة إلى جهاتنا، وكانت الثورة بكامل المملكة التونسية أما في قابس(2) فقد انكمشت الشعب، ماعدا شعبة المنزل والحامة، ففي المنزل تم تكوين الشبيبة والدعاية وعلمناهم كيف يتم التخريب والنسف واستعمال السلاح، ففي تلك السنة وقع تخريب ونسف وحرق:

1- حرق هنشير المنشر
2- تخريب السكة الحديدية
3- نسف الرحى التابعة للسكة الحديدية
4- نسف جابية الماء في بوشمة
5- نسف خزان الهاتف بشط أولاد بوعبدالله
6- ضرب الجيش الفرنسي في منطقة البلاكات قرب النحال

في الواقع أردنا أن نستعرض هذه الروايات ولو كانت مختلفة في المعلومات وأنكر أصحابها بعض العمليات التي قام بها زملاؤهم الدستوريون لنرى أحيانا الفرق في الروايات أولا ثم لنتعرف على عدم التنسيق بين المناطق ولو أنهم يرجعون إلى بلد واحد وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عدم التنسيق بين الدستوريين لا أكثر ولا أقل، إذ يقوم البعض بعمليات لا يعرف بها الطرف الآخر هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت هذه المجموعات التي تعمل في نطاق التخريب مستقلة عن بعضها، لكنها اتبعت نفس الهدف واختلفت بصورة مقصودة في مستوى الارتباط، إذ اعتبر المقاومون أنفسهم أمام عمليات انتحارية حتى النصر النهائي.

يقول المجاهد عمر بالناجح الظاهري(الملقب بعمر المجاهد) من مجموعة الظواهرية في مذكراته (هذه المذكرات تملكها جمعية البحوث التاريخية والجغرافية بقابس) أنه إتصل بهم المناضل التومي بن احمد بالشاوش التومي من شني في فيفري 1952 أي بعد بداية الثورة بأيام قليلة وسلمهم قطعتي سلاح وأربعة بنادق -موزر- وقال لهم أنه سوف يتصل بهم القائد علي بن حسن الظاهري وهو قائد المجموعة للقيام بعمليات تخريبية، وهذه المجموعة متركبة من:

1- علي بن حسن (القائد)
2- مهذب بن محمد بن ناجح
3- المبروك بن محمد بن ناجح
4- علي بن صالح
5- الساسي بن علي بن احمد
6- رمضان البهلول

(2) هذا الرأي في الواقع خاص بصاحب المذكرة لأن قابس قد قامت وقعدت كلها وناضلت والدليل ما قلناه سابقا وما عشناه ونحن في سن الواحدة والعشرين كذلك عدد عمليات التخريب والعصابات التي ذكرناها والمستمدة من تقرير المناضل عبد الله الغنوشي.

7- عبد الله بن صالح
8- مبارك بن رحومة
9- القناوي بن محمد بالناجح
10- عمر بن محمد بالناجح(المجاهد)
11- محمد بن عمر
12- محمد بن علي
13- التحق بهم فيما بعد عبد الملك بن محمد بن الناجح... وغيرهم

وقاموا بعدة عمليات تخريبية وهي:

1- عملية في مارس 1952 قطعوا 17 عودا من أعواد الهاتف
2- الهجوم على ثكنة سيدي بولبابة في 17 أفريل 1952
3- عملية 25 ماي 1952 مهاجمة ثكنة العوينات وسقوط أربعة من القومية
4- الهجوم على ثكنة سيدي بولبابة مرة أخرى في 17 أكتوبر 1952
5- عملية العوينات الثانية في 23 أكتوبر قام بها رمضان البهلول وعمر بن الناجح الظاهري وقتل فيها أربعة من الجنود ومنهم تونسي مجند
6- عملية 15 نوفمبر 1952 وهي عملية "عين سلام أو المدينة" مشتركة بين جماعة الظواهرية مع مجموعة من المقاومين من قابس والغندري بتخطيط من القائد التومي بن احمد وهم: الساسي عقل، والطاهر بن علي والسنوسي بالحاج السالمي مع الباجي الغندري من مجموعة الغندري بالإضافة إلى جماعة الظواهرية.

يقول عمر الناجح الملقب (بالمجاهد) في مذكراته "لقد أوصانا القائد التومي بأن العملية خطيرة وربما يلقى عليكم القبض وترمون في السجن لكننا قمنا بالعملية على أحسن وجه فلقد قتل في هذه العملية أربعة ضباط منهم قبطان وجرح 7 جنود".

كانت هذه العملية من أهم العمليات، ونستنتج من ذلك دور المناضل "التومي بن احمد" في التنسيق مع مجموعة الظواهرية ومجموعة الغنادرة ومجموعة قابس.

يقول المناضل المرحوم الصحي خليفة في 28 جانفي 1952 "كونا فريقا من الثوار من سكان الغندري وفي 2 فيفري كونا فريقا من ثوار الظواهرية برئاسة علي بن حسن بالتنسيق مع شعبة شنني، وتكلفت شعبة المنزل بجميع اللوازم المادية من أسلحة وتموين فكثر الشغب"

ثم يقول: ألقي القبض على الدستوريين والكشافين لاتهامهم بالقيام بعمليات التخريب والقائمة طويلة التي ذكرها المرحوم الصحي خليفة وللتاريخ نذكرها بهذه المناسبة وهم السادة:

1- المرحوم الصحي خليفة 2- عبد الله الطرابلسي 3- المرحوم حسن المنوبي 4- عبد العزيز عمار 5- المرحوم الطاهر واجة 6- المرحوم التومي بن احمد 7- المرحوم التوهامي التركي 8- المرحوم البهلول البيداني 9- المرحوم محمد الشناوي 10- عبد الكريم الجريدي

11- عبد القادر بوخريص 12- المرحوم الحاج محمود الزنزوري 13- المرحوم محمد غليس 14- المرحوم الهادي العمراني 15- حسين ونان 16- الهمامي بن البهلول البيداني 17- بلقاسم بن البهلول بيداني 18- الطيب ذياب 19- العيساوي المنوبي 20- المرحوم العروسي المرزوقي 21- الرحوم العروسي بن سالم 22- المرحوم علي بن سالم 23- المرحوم عبد السلام بوحليلة(الكرثامي) 24- عمر القطوس 25- الجيلاني شلي 26-محمد بن كريم الجوالي 27- حمزة الفاسي 28- عبد الله بن الحاج محمد الهواري 29- احمد بن سالم الملاط 30- علي الساحلي(هؤلاء ابعدوا إلى محتشد جلال ببنقردان وكلهم من منطقة المنزل إلا حسين ونان).

أما الذين ينتمون إلى المناطق الأخرى ولم يذكرهم الصحي خليفة فهم:

1- حسين عزيز 2- مصطفى بن رحومة 3- محمود بن رحومة 4- عبد الله جراد 5- محمد خشيريف

ثم أضاف أسماء أخرى من منطقة المنزل وهم:

1- المختار حيدر 2- علي بن الحاج البحري الوصيف 3- علالة فيتوري 4- عبد القادر فيتوري 5- المرحوم النفطي عبد الرحيم 6- حسن مرزوق 7- الساسي بوعزيزة 8- الصادق شمام 9- الطيب بوحليلة 10- البهلول عبد الرحيم 11- احمد الإمام 12- الطيب كحلول 13- الصحي البناي 14- عبد العزيز ساسي 15- الطاهر الزهدي 16- مختار النفوسي 17- الباهي شمام 18- علي بالجليدي منجة 19- العيساوي كريط 20- العيادي البيداني 21- محمد بن الحبيب المبروك 22- الكمالي بوعبدالله 23- بوبكر الكمالي 24- محمود بن صويلح بن حمود(الدغباجي) 25- الصحي بسبوسة 26- الساسي غليو 27- احمد عيسى...

يقول المناضل الصحي خليفة في جوان 1952 أطلق سراح المعتقلين وبقي من المنزل 13 معتقلا في جلال ثم نقلنا إلى طبرسق في 17 جويلية 1952 وفي أواخر سبتمبر 1952 أطلق سراح التومي بن احمد ومحمد الطرابلسي والهادي العمراني والبهلول البيداني والطيب ذياب. وفي 10 نوفمبر أطلق سراح جميع المعتقلين إلا الصحي خليفة(صاحب الرواية) لقد أفرج عنه في 12 نوفمبر أي بعد يومين وقد أفرج عن جميع المعتقلين وأغلقت المحتشدات وأعلن دي هوتكلوك المقيم الفرنسي بتونس عن نهاية الثورة، لأن الهدوء كما يقول الصحي خليفة قد شمل البلاد ثم يقول وبعد خروجنا من المحتشد بدأنا نخطط لحادثة المدينة أو حادثة عين سلام" التي وقعت في 15 نوفمبر 1952 بإعداد من التومي بن احمد والطاهر بن علي والساسي عقل ولم يذكر الصحي خليفة السنوسي بالحاج السالمي كما لم يذكر جماعة الظواهرية والغنادرة.

ثم يقول: وقد ألقي القبض يوم 17 نوفمبر على بعض الدستوريين ومنهم الطاهر دبية وعبد المجيد شمام والحسين عزيز والصحي بالحاج محمود الجرادي وصالح الشين والتومي بن احمد ومحمد خشيريف وكلهم متهمون بالحادثة ووزعنا على سجون الجندرمة وثكنة الجيش ومحل الخنا

بقابس، ثم وجهونا إلى رمادة حيث نصبت ثلاثة خيام في 23 نوفمبر 1952 حتى 2 جانفي 1953 وكنا 36 دستوريا(كل 12 دستوريا في خيمة) وكانت هذه الخيام محاطة بالأسلاك الشائكة ومعلق بها 372 حكة طماطم فارغة (لترن عند التحريك أو محاولة الهروب) وفي 13 جانفي 1953 نقلنا إلى ثكنة تطاوين وقد التحق بنا عبد السلام بوحليلة والتوهامي التركي وحسن بالحاج محمود وعبد الله الجليدي وبلقاسم موسى(الأخيران هما من النحال) كما جلبوا إلى هذا المحتشد بعض الدستوريين والزعماء من تونس وهم المنجي سليم، والهادي شاكر، والصادق المقدم، والطيب المهيري، والفتحي زهير، وعلالة العويتي والفرجاني بالحاج عمار".

ثم وقعت إصلاحات "فوازار" المزالي فعارضناها ونحن في المحتشد وأرسلنا مكتوبا إلى تونس إلى الهادي نويرة بحيلة عجيبة يقول المرحوم الصحي خليفة مرضت بأذني كذلك مرض زميلي الهادي الرقيق فأخذونا إلى قابس ووضعت رسالة الاحتجاج والمعارضة للإصلاحات في جوارب زميلي الهادي وأعطيناها في قابس إلى أخي خليفة الذي سمع بوجودي بالمستشفى في حالة مرض وسلمها بدوره إلى الهادي نويرة بتونس كما ذكرنا ذلك.

ثم نقل الدستوريون من محتشد إلى محتشد ومن سجن إلى سجن حتى وقع نفينا في 10 فيفري 1954 بمناطق مختلفة من الايالة، وكانت مجموعة قابس أغلبها اختارت صفاقس لقربها من قابس، إلى أن علمنا بأن رئيس الحكومة الفرنسية "منداس فرانس" سيأتي إلى تونس ويصرح بالاستقلال الداخلي، وفعلا جاء منداس فرانس إلى تونس في 31 جويلية 1954 وقصد قصر الباي وصرح بحق تونس في الاستقلال الداخلي، وعقد بعد ذلك "المجلس الملي" وحضره المجاهدون في حالة تنكر، والدستوريون نوابا عن الجهات، وبعد نقاش حاد اتفقنا على تسليم السلاح وقد صرح الهادي نويرة بأن هذه التعليمات من بورقيبة وهو آنذاك بفرنسا. هذه هي الرواية التي أوردها المرحوم الصحي خليفة لأنه في الواقع قد تحدث في مذكراته عما وقع بالخصوص في جهته أي في منطقة المنزل مع منطقة شنني وبالذات مع المناضل المرحوم التومي بن احمد رئيس شعبة المنزل عند تكوينها الأول. أما ما ذكره المناضل عبد الله الغنوشي فهو ينصّ ما يلي: بعد تكوين العصابات والقيام بأعمال التخريب التي ذكرناها سابقا قال: "لقد ألقي القبض على جل أعضاء الشعبة (3) واقتيدوا إلى المحتشدات، وقبل اعتقال رئيس الشعبة الأخ حسين عزيز أوصاني بالاتصال المتين بالأخ حسين عبيد رئيس شعبة النحال الذي كان الواسطة الوحيدة بيني وبين القائدين الطاهر لسود وبلقاسم البازمي، وبعد اعتقال جل أعضاء الشعبة تكونت شعبة سرية (في الواقع هي خلية نابت الشّعبة) كنت مسؤولا عنها مع المناضل المرحوم الصحبي الحضري الكاتب العام لها وبشير بن فلاح أمين مالها مع عضوية ميلاد الحزامي ومحمد بن كريم(الذي وقع الاجتماع بمنزله) والمرحوم الشهيد الحبيب شقرة، ومصطفى بالثابت والحاج الطيف بن قفراش والصّادق الشين والشادلي بن رجب وبلقاسم الزريقي وخميس بعبو والحبيب الجمل واحمد الحزامي".

---

(3) مذكرات عبد الله الغنوشي صفحة 7 (طبعة خاصة به)

ثم يقول في صفحة 8 أما أهم الأعمال التـي قمنا بها فهي :

1- توميل المساجين لدى الجندرمة والسجون الأخرى

2- مد المقاومين بما يحتاجونه

3- مرتبات شهرية إلى عائلاتهم

4- الاتصال بالمبعدين عن طريق المراسلة

5- الاتصـال بالمساجين القوميين المسجونين بقابس وهم جلولي فارس وعزوز الرباعي وفـتحي زهـير والحـبيب شيخ روحـه والدكـتور بـن سـلامة وقد شكر المناضل عبد الله الغنوشـي المـرحوم الحسـين شـهر الحـزامي بـن جبر على الإعانات التـي كان يقدمها إلى عـائلات المسـجونين فقـد تكفـل بـ 5 عائلات يقدم لهم شهريا أربعة دنانير مع كمية من الـتموين كذلـك المال كلما طلب منه ذلك، كما شكر المرحوم محمود النوري الجرادي على المساعدات التـي كان يقدمها للمقاومين خصوصا لمقاومي الغندري والظواهرية.

ثـم يقـول "كمـا أرسلنا" إلى المبعدين(4) البالغ عددهم 15 فردا صناديق من التموين لكل واحد منهم(60كلغ) مع 10 دنانير لكل فرد باسم أوليائهم"

يقول أيضا المناضل عبد الله الغنوشي في مذكراته"

"كـنا نقبل السلاح من الشرق(5) عن طريق ليبيا ومصر بواسطة خليفة جعيدان من بنقردان ونخبـئه عـند الجيلانـي بالجـليدي وزوجته مبروكة في مطرش ثم نرسل هاته الأسلحة عن طريق عـبد السـلام حشانة (من قصر هلال) يعمل بقابس كتاجر في الأقمشة الهلالية إلى السيد محمد القـنوني رئيـس شـعبة قصـر هـلال وهذا الأخير يرسلها إلى القايد "حسن بن عبد العزيز" من الوردانين ومن معه".

هكـذا كـان الكفـاح عامـا والتعاون لمقاومة الاستعمار مشتركا ويهم التونسيين جميعا وحتى الإعانات الرمزية تدل على التضامن الوثيق بين أفراد الشعب التونسي الواحد.

يقول المناضل عبد الله الغنوشي "لقد لبّى سكان قابس النداء إلى الإضراب الذي دعا إليه الاتحـاد العام التونسي للشغل لمدة يومين فلقد اتصل بنا محمد العاتي بالصغير الكاتب العام للاتحاد العام التونسي للشغل بقابس لهذا الغرض ونجح الاضطراب نجاحا تاما".

ثـم يقـول "لقـد جـاء إلى السـوق في اليـوم الـثاني مـن الإضراب فلاح أسمر من الأحواز وأراد بيع حمولـته مـن الزيـتون فمنعه المرحوم(6) الصحي بالصغير بالعاتي أمين السوق وقال له ألا تعلم أنـنا في إضـراب اليـوم، وبـتحريض مـن أحـد المتعاونين مع الاستعمار اشتكى هذا الفلاح بأمين السوق وشهد عليه هذا الشاهد وهو أمين اللفة في ذلك القوت" ولم يذكر عبد الله الغنوشي اسمه.

---

(4) ثلاثة عشر مبعدا هم أفراد شعبة جارة الدستورية ومعهم احمد المنوبي المحامي من وذرف والصادق بالحبيب من مطرش

(5) هـناك وثيقـة مصـورة تثبت هذا الدعم من شعبة جارة إلى منطقة الساحل(الوردانين) موثقة في مذكرات المناضل عبد الله الغنوشي

(6) الصـحي بـن الصغير بن العاتي من الرعيل الأول إذ كان الكاتب العام للشعبة التابعة للحزب الحر الدستوري القديم من سنة 1921 / 1925 وقد عزل من منصبه بعد هذه الحادثة

لقد تواصل الكفاح والمقاومة في قابس إلا أن اليد الحمراء أرادت الانتقام من بعض الدستوريين ومن الأعمال التي قاموا بها وخططوا لها ونفنوها هو إحراق صيدلية البشير ابن زينة ومستودع الحضري بالحاج الطاهر العمري وهما على ملك المرحوم المناضل الحاج بوبكر بن الصغير التويتي وهذه العملية في الواقع أريد بها الانتقام من الدستوريين الثلاثة الملاك والمستغلين للمحلات لأنهم كانوا يتعاملون مع الشعبة وساهموا في إعانة الثوار في قفصة وقبلي عن طريق "شعبة بشيمة" بالحامة.

كذلك ألقي القبض على صاحب المذكرات عبد الله الغنوشي في 26 أفريل 1953 وزج به في السجن وعذب إلى درجة السقوط وهدد بالموت وأوقف بين المقبرتين "الاسرائلية والمسيحية" وأمروه بكم عينيه بقطعة من القماش الأسود لكنه امتنع من ذلك وقد أطلقوا طلقتين ناريتين في الهواء لتخويفه، لكن أعوان الجندرمة استعملوا الحيلة فجاءه الجندرميان(كولومبو وشابيتاي) وقالا له إذا اعترفت بأسماء التجار الذين يساعدون الفلاقة فسيطلق سراحك من الآن، وقد توسطنا لك مع رئيس الجندرمة، فلم يعترف بشيء وهو عارف بكل شيء ثم جاء الأمر من الجنرال بإيقاف التنفيذ وأرجع إلى السجن مرة أخرى.

كما ألقي القبض على المناضل كاتب عام الشعبة الصحي بالحاج محمود الجرادي وعذب أشد التعذيب إلى درجة السقوط أيضا إلا أنه لم يعترف بشيء رغم مكافحته ببعض المسجونين وكذلك مكافحة المناضل عبد الله الغنوشي بمن يدعي باتهامهما أي الصحي وعبدالله بأنهما من المسيّرين للحركة، والمناضلان يعيشان الآن بعاهة مستديمة أثرت على حياتهما العادية كما ألقي القبض على الشهيد الحبيب شقرة، الذي استشهد عن طريق الضرب والتعذيب من طرف الجندرمة بقابس، ولم يعترف بشيء مع أنه كان من المولين للثوار ومن المتصلين بهم. كذلك اغتيال الشهيد البشير الجزيري (7) في منزله وأمام عائلته في 10 أوت 1953 وراح ضحية الاتهامات والادعاءات، وخلف أبناء يتامى محتفظين بتاريخ والدهم الشهيد.

ثم يقول عبد الله الغنوشي "بعد إيقاف تنفيذ الإعدام عليّ أعطوني مهلة إلى الساعة الرابعة صباحا إما أن أعترف أو أعدم. عند ذلك تمكنت من فتح نافذة السجن، وكانت تطل على مقهى مصطفى الناصفي (مقهى الأقواس) فناديت بصوت خافت عامل المقهى وأعلمته بما جرى لي وطلبت منه بأن يعلم أهلي وسكان قابس بالموضوع".

ولما علم الناس بهذا الأمر وقع الاضراب في قابس لمدة يومين، وتمكن أهلي من إرسال مكتوب إلى الجنرال سريا عن طريق الصبايحي الفرجاني الطرابلسي طباخ الجنرال، الذي وضعها تحت باب غرفته. ولما اكتشف أمر الرسالة سجن الطباخ 15 يوما لأنه ليس هناك من يدخل دار الجنرال غيره وكان قد عذب عذابا شديدا ثم أطلق سراحه.

ثم يقول شرع الجندرمي "المبروك" في ضربي بهراوة تسبّبت في تعطيل حركة يدي اليسرى

---

(7) ترك الشهيد البشير الجزيري القائد يوسف الدزيري الذي انخرط في سلك القادة الكشافيين وناضل مع الحزب والكشافة كما ترك ابنة صغيرة اسمها يامنة بلغت في ذلك الوقت 3 شهور فقط وهي تعمل الآن في معتمدية قابس الجنوبية

وسبب ذلك في عجزها بنسبة 40% وكذلك أصيبت عيني اليسرى كما تثبت الشهادات الطبية. ثم قاموا بتعذيبي وضربي على المناطق الحساسة من جسمي وأجبروني على شرب الماء المخلوط بالجير والشبّ حتى تنتفخ بطني ودام هذا العذاب 19 يوما ثم أخرجت من سجن دار الجدارمية إلى المحل العمومي مع غيري من المسجونين وبقيت 4 أيام ثم أخذوني إلى السجن المدني بقابس وبقيت 24 يوما ثم وقعت إحالتي إلى سجن صفاقس ثم إلى ثكنة سوسة العسكرية ثم إلى السجن العسكري بتونس ثم إلى السجن المدني ثم إلى سجن باردو وبقيت بها سنة كاملة ثم حكم عليّ بعدم سماع الدعوى".

يقول المناضل عبدالله الغنوشي "لقد دافعت عني في هذه القضية "اللجنة القومية التونسية للدفاع المشترك" ومن أفرادها عبد الرحمان عبد النبي وعمار الدخلاوي وفتحي زهير وفردناند زرماطي"

ثم يقول أيضا: "لقد أرسلنا كميات من المال والأغذية، إلى القائدين الطاهر الأسود والشهيد بلقاسم البازمي، على يدي الأخوين علي بن الحاج الغرايري وحسين عبيد وإلى المجاهدين الشهيدين السلامي عامر وعلي الذيب، كما أرسلنا مبالغ مالية إلى القائد علي بن حسن ومن معه وعائلاتهم على يد المرحوم ميلاد الحزامي كذلك أرسلنا كمية من المال والملابس إلى القائدين "لزهر شرائطي" بقفصة على يد عبد السلام النوري الجرادي، وإلى "مصباح الجربوع" على يد المناضل المرحوم علي بوشريكة والحبيب العزوني والجيلاني مورو" .

ويقول أيضا "لقد زارنا القائد مصباح الجربوع في قابس سنة 1952و1953 في دار محمد بن كريم بالبلد جارة الدخلانية ومددناه مرتين بمبلغ مالي، كما مددنا "عصابة الغندري" التي تحدث عنها المناضل الصحي خليفة عن طريق عبد السلام النوري الجرادي إعانات ومساعدات مختلفة وهذه العصابة متركبة من المناضل علي الغندري وأخويه صالح والكيلاني وابن عمه محمد بالحاج والقائد علي بن رمضان". كذلك مددنا جماعة وثوار زملة الظواهرية والذين ذكرهم المناضل الصحي خليفة وهم عبد الملك وأخيه عمر القناوي ومحمد بن علي وعبدالله بن صالح.

ويقول المناضل عبد الله الغنوشي إنه قد رتب مقابلة لزوجة(8) الأستاذ فتحي زهير الذي كان قد نفي بقابس ودخل المستشفى، بواسطة المناضل المرحوم البشير الغربي الذي كان يعمل بالمستشفى العسكري وبواسطة المناضل الصحي الحذري صديقه، وقد تمت المقابلة على أحسن ما يرام إذ خرج المناضل فتحي زهير وقابل زوجته في نزل الأطلنتيك، وكانت المدة المحددة للزيارة ساعة واحدة فقط، إلا أنه من حسن الحظ أن الحارس الذي كان يحرس الأستاذ فتحي زهير قد أبدل بغيره وبقي مع زوجته ثلاثة أيام.

ويبدو من هذه المذكرات أن منطقة قابس كانت تشع على غيرها من المناطق حيث أعانت منطقة الساحل (الوردانين) عن طريق جماعة من قصر هلال كانت تعمل بقابس وقد ذكرنا ذلك كما أعانت القائد لزهر الشرائطي في قفصة والقائد مصباح الجربوع في منطقة مدنين.

---

(8) زوجة فتحي زهير هي الأميرة ابنه محمد الرؤوف ابن محمد المنصف باي الذي نفته فرنسا بمساندته للحركة الوطنية

وهكذا قامت قابس بدورها في معركة التحرير فلم تكتف بتزويد ثوارها من منطقة قابس بل امتدت يدها إلى غيرها من المناطق بالساحل والجنوب الشرقي والجنوب الغربي وقد كان المناضل المرحوم محمود النوري الجرادي يزود الثوار سريا، ولم تكشفه السلطات حسب الاستجواب الذي قام به المرحوم الأستاذ حسين المنياوي للمناضل محمود النوري جرادي في مجلة "البحوث التاريخية والجغرافية بقابس" بعنوان صورة من تمويل المقاومة إبان ظهورها بقابس "صفحة 34 مجلة عدد 6" ويقول أيضا في هذا الاستجواب "كنا نزود المجاهدين بالجبايب واللحف والتموين ونادرا ما تكون أسلحة وهو يعمل ضمن مجموعة سرية من أبرز أعضائها الشهيد الحبيب شقرة وعلي بوشريكة وصالح الشين والبشير بن فلاح والشهيد علي الذيب والشهيد السلامي عامر اللذان أغتيلا في منزلهما بالمدو. وكانت نقطة التقاء المقاومين بالمولين هي رأس الواد في آخر الليل كما يقول المرحوم المناضل محمود النوري الجرادي في استجوابه".

كما يقول عبد الله الغنوشي في مذكراته أيضا

"كان لنا عدد من الاخوان يمدوننا بالأسرار عن الاستعمار وما يدور داخل الإدارات الفرنسية ومنهم المرحوم المناضل الصادق الغربي الذي كان يعمل في إدارة (م.أ.م) (M.AM) وصالح الزمالي الفرشيشي(بالجيبي العسكري) والفرجاني الطرابلسي" وغيرهم

كما تحدث الباحث الأستاذ رضا جبر في مجلة البحوث التاريخية والجغرافية عدد 5 عن ثورة 18 جانفي 1952 فيقول. "برز مفهوم الكفاح من جديد كمحور رئيسي في كل الاجتماعات، فهو الذي صرح فور رجوعه (يقصد الرئيس بورقيبة) لنكن على استعداد للمعركة(9) التي يجب أن تؤول إلى تحقيق مطامحنا هذا المحور الذي يجب أن يقوم على تحسيس الشعب على التصادم المسلح برز هذا خاصة أثناء اجتماعات ثلاثة أيام 8-11-13 جانفي (بالمنستير وتونس وبنزرت) ولعل خطاب 13 جانفي كان معبرا بكل ذكاء ومرونة على الموقف النهائي والمصيري إذ وجدت تونس نفسها أمام الأمر المقضي".

لقد وجدت تونس نفسها مضطرة لإستعمال جميع الوسائل للوصول إلى أهدافها لقد قدمت شكوى يوم 14 جانفي 1952 إلى الأمانة العامة للأمم المتحدة -الدورة المنعقدة بباريس- واعتبرت فرنسا ذلك تحديا لها، فغيرت من سياستها وأبدلت المقيم العام كما ذكرنا واصطدمت مع مظاهرة 17 جانفي 1952 التي خرجت في مظاهرة عارمة فسقط كثير من القتلى والجرحى.

ويقول المناضل المرحوم صالح الشين في الاستجواب الذي قام به مصطفى ضيف الله أستاذ تاريخ "في مجلة البحوث التاريخية والجغرافية" صفحة 50 و51 عدد 5 "شملت الاضطرابات كافة الميادين والذي يمتنع من الإضراب ينعت بالخيانة".

كما قال المناضل علي الساحلي أيضا أثناء استجوابه في نفس المجلة

(9) انظر كتاب فشل سياسة القمع نشر كتابة الدولة للأخبار والإرشاد الجزء الأول صفحة 70 نقلها الأستاذ رضا جبر ونشرها في مجلة البحوث التاريخية والجغرافية بقابس عدد5 صفحة 35 في موضوع تحت عنوان ثورة 18 جانفي 1952 وإبعادها بقابس

"إن العديد من التجار وغيرهم استهدفوا إلى السجن والنفي التعسفي في 31 مارس 1952 ومنهم عبد الكريم الجريدي وعلي جريدي والمرحوم السلامي الجريدي وعمر الرحماني ومحمد بوخريص وصالح بن يحمد ومحمد الكبير والصادق قنونو والمولدي العجيلي والهادي الشين وعلي الساحلي(نفسه)"

هكذا قامت الثورة الكبرى أو المعركة الحاسمة في جهة قابس وكان الدستوريون والمسؤولون عن المنظمات والجمعيات والأفراد قد ساهموا في تحرير البلاد ولبوا نداء الواجب وأعانوا إخوانهم المجاهدين بشتى الوسائل رغم ضعف الحالة الاقتصادية وعدم توفر الامكانيات، فحتى الإعانات التي يتحدث عنها المناضل عبد الله الغنوشي(رغم أن الرئيس بورقيبة قد صرّح بأنه لم يتصل بأية إعانة من الشرق) فهي إن ثبت ذلك فربما تكون إعانات بسيطة لا تتكافأ مع السلاح الذي كانت تستعمله فرنسا ضد المجاهدين. لكن مع ذلك فالنصر كان حليف التونسيين والاستقلال ولو كان على مراحل قد حقق الرغبات ولبى الطموحات.

أما ما تذكره المصادر التي استقينا منها الأخبار والمعلومات في هذا الفصل وغيره من الفصول فالمؤسف أنها كانت تتحدث عن منطقة معينة لا على قابس ككل وهذا كما وضحنا ربما يرجع إلى أن الحرب التي شنت على الفرنسيين كانت حرب عصابات وكل فريق اتجه وجهة خاصة دون الاتصال بالمناطق الأخرى إذ ليست هناك قيادة عامة موحدة تسير هذه العصابات.

وعلى كل فإن المقصود هو حصول البلاد على الاستقلال والمساهمة في إنقاذ البلاد ولا يمكن أن نفسر ذلك عن سوء نية أو عن قصد غير نزيه رغم أن الشك يمكن أن يتطرق مع الأسف.

الفصل الثاني
(عهد الاستقلال)
عهد الرئيس بورقيبة

تكوين وتركيز الدولة الحديثة:

لقد ابتهجت قابس بإعلان الاستقلال الداخلي أولا، ثم بالاستقلال التام ثانيا، فظهر السكان في مظاهرات صاخبة، معلنين تأييدهم للحكومة والحزب، وللخطوات الثابتة التي سارت بها لإبراز تونس في المحافل الدولية، وتركيز أركانها، وإعطائها الدور الذي يليق بها، وذلك بعد كفاح مرير لمقاومة الحماية الفرنسية التي فرضت على تونس في 12 ماي 1881. وبعد نضال دام سنوات سواء كان ذلك بالكفاح المسلح أو بالقلم عن طريق الجرائد والمناشير، أو عن طريق بروز الأحزاب السياسية والمنظمات القومية والجمعيات باختلاف أنواعها من ثقافية، ومسرحية وكشفية ورياضية وخيرية وموسيقية وغيرها، وبعد معانات من طرف الشعب التونسي من جراء قيام الحرب العالمية الأولى (1914-1918) والحرب العالمية الثانية(1939-1945) التي شارك فيها الجنود التونسيون مع دول التحالف، بغية حصولهم على الاستقلال بعد نهاية الحرب، خصوصا وقد صدق الشعب التونسي بوعود فرنسا وآمنوا "بوعود ولسن" رئيس الولايات المتحدة الأمريكية عند نهاية الحرب العالمية الثانية، ولما لم يتحقق ذلك ونكصت فرنسا وعودها خاض الشعب التونسي بأكمله غمار الكفاح المسلح ابتداء من 18 جانفي 1952، ولو أن قابس كانت سباقة في هذا الميدان، فقد ناضلت وقاومت الحماية الفرنسية كما ذكرنا ذلك بما توفر لديها من إمكانيات، واستشهد من استشهد أمثال المفتي الجيلاني الحبيب وغيره، كما لبت نداء الحزب الحر الدستوري التونسي سنة 1920 وبرز مناضلون لها سجنوا وعذبوا واستشهدوا من أجل مقاومة الاستعمار أمثال عمر قفراش(عيرود) وعلي الجمل وغيرهما، كما برز مناضلون اجتماعيون أمثال "محمد علي الحامي" في الكفاح النقابي و"الطاهر الحداد" في الحقل الاجتماعي وكان هذا إلى حدود الثلاثينات. ثم لبت قابس نداء الحزب الحر الدستوري الجديد الذي قادته نخبة من الشباب التونسي، وكونوا شعبا لهذا الحزب في مختلف مناطق قابس، كما ساهم شبابها في بعث جمعيات ثقافية على اختلاف أنواعها ساهمت في استنهاض الهمم وفي معركة التحرير، ولبت نداء الواجب، كما كان لها الفضل في تكوين النواة الثانية للحركة النقابية مرة أخرى عن طريق المناضل "القناوي" كما كانت ملبية لنداء الحركة النقابية التي قادها المناضل الشهيد "فرحات حشاد" وكانت السباقة في تلبية نداء حركة التحرير أو المعركة الحاسمة قبل بروزها بصفة رسمية فبعثت شبابها إلى التكوين في السلاح وحرب العصابات في الشرق بسوريا كما كانت الملبية الأولى لنداء الوطن والواجب فتحررت البلاد.

الإعلان عن الاستقلال الداخلي:

آمنت فرنسا بعد هذا التواصل في الكفاح وآمن رجالها المؤمنون بالحرية بأن الواجب

والضرورة تدعوهم إلى إعطاء تونس استقلالها، وقد صرح بذلك بعض المسؤولين من الفرنسيين الذين زاروا تونس ومنهم "روبار شومان" وزير خارجية فرنسا.

لذا فإن قدوم منداس فرنس إلى تونس في 31 ديسمبر 1954 الموافق لـ 30 ذي القعدة 1373 هـ وتصريحه أمام باي تونس بالاستقلال الداخلي لم يكن منحة أعطتها فرنسا للبلاد التونسية، بل كان ذلك نتيجة كفاح مرير ومقاومة عنيفة لذا فقد كرست تونس جهودها لتحقيق هذا الاستقلال وتثبيته على الواقع فتكونت "حكومة تفاوضية" برئاسة الطاهر بن عمار لاقت الأمرين لافتكاك السلطة وتركيزها ثم أعلن بورقيبة بعد الحصول على الاستقلال الداخلي أن هذه الخطوة هامة لكنها غير كافية فطالب بالاستقلال التام وبعد مفاوضات تحصلت تونس في 20 مارس 1956 الموافق لـ 7 شعبان 1375 على الاستقلال التام فتكون المجلس التأسيسي لتكوين "الدستور التونسي" في 29 ديسمبر 1955 الموافق لـ 3 ربيع الأنور 1375، وكان شرف قابس بإن كان أول رئيس لهذا المجلس التأسيسي هو المناضل " جلولي فارس " من حامة قابس الذي تشرف قبل ذلك بأن كان أول وزير للمعارف في تونس في الحكومة الأولى التي ترأسها الرئيس الحبيب بورقيبة ثم وفي 25 جويلية 1957 الموافق لـ 26 ذي الحجة 1376 أعلن المجلس بالاجماع "الجمهورية" وبذلك دخلت تونس مرحلة من الكفاح جديدة فقامت بعدة إجراءات منها :

1- إلغاء معاهدة باردو
2- إلغاء المناطق العسكرية ومنها مطماطة وقبلي التي كانت تابعة لقابس
3- تقسيم البلاد إلى 14 ولاية و 83 مندوبية (معتمدية) و 57 مشيخة
4- تكوين نواة من الجيش التونسي
5- تعيين سفراء لتونس في أغلب الدول. لأن فرنسا كانت تمثلها في الخارج في فترة الاستقلال الداخلي وما قبله إلى غير ذلك من الإجراءات الهامة التي ركزت الدولة التونسية وثبتت أقدامها وأصبح لها دور في الخارج، لكنّ قبل الحصول على هذه الخطوات الهامة وقعت معارضات من طرف وطنيين دستوريين كانوا يعملون في نطاق الحزب ومن المسؤولين فيه فحدث الخلاف الذي سمي بالحركة "اليوسفية أو حركة الأمانة العامة"

الحركة اليوسفية أو حركة الأمانة العامة:

لما تم الإعلان عن الاستقلال الداخلي رأى شق من التونسيين المنضمّين للحزب الحر الدستوري التونسي الجديد وعلى رأسهم الأمين العام للحزب صالح بن يوسف رأيا مختلفا عن رأي بورقيبة.

لقد رأى صالح بن يوسف وهو المقيم آنذاك بمصر مع المناضل محمد بدرة، أن الاستقلال الداخلي خدعة من فرنسا للقضاء على المقاومة التونسية، ورغم إقناعه والاتصال به قبل قدومه إلى تونس فإنه لم يقتنع واعتبر أن هذا الاستقلال الداخلي هو خطوة للوراء، بينما رأى الرئيس

بورقيبة رئيس الحزب أن هذا الاستقلال الداخلي هو خطوة إلى الأمام، وقد ساند المقاوم القائد "الطاهر لسود" (من حامة قابس) رأى المعارضة أي الأمانة العامة رغم أنه لم يطلق رصاصة واحدة بعد هذا الخلاف ولم يسلم سلاحه.

كما ساند المقاوم القائد الساسي لسود "من حامة قابس أيضا" خطوة الاستقلال الداخلي فوقع الشقاق في صفوف الدستوريين وفي صفوف المقاومين التونسيين، وأراد صالح بن يوسف التركيز على الجنوب التونسي في حركته إلا أنه رغم قبول دعوته من قبل البعض، إلا أن الأغلبية قد عارضته وساندت رئيس الحزب وتبين بعد ذلك أن الرأي الذي سانده رئيس الحزب هو الرأي الصائب، لأن الحصول على الاستقلال الداخلي كان خطوة إلى الأمام، وأن السياسة التي تبعها بورقيبة كانت هي المعجلة للحصول على الاستقلال، رغم أن المعارضة التي قام بها الأمين العام صالح بن يوسف على ما أعتقد كانت قد دفعت الرئيس بورقيبة إلى المطالبة بالاستقلال التام وفي شهور قليلة تحصل عليه. لكن ما حدث في تونس هو شيء طبيعي فلا بد أن تحدث هذه المعارضة وهي حيوية سياسية وحرية تفكير،كان الحزب قد سلكها منذ بداية تكوينه حتى أن الانشقاق الذي وقع في 2 مارس 1934 كان نتيجة حرية الرأي، وحرية التفكير، واختلاف الرأي ورغم الأضرار التي لحقت المتخالفين والانشقاق الذي وقع داخل صفوف الشعب التونسي، لكن واصلت تونس كفاحها في سبيل بناء الدولة وتركيزها فحدث انقلاب في الأوضاع

مواصلة تركيز أركان الدولة:

انخرطت تونس في منظمة الأمم المتحدة في نوفمبر 1956 وفي المنظمة الصحية العالمية، وفي منظمة الشغل، وفي اليونسكو، وفي الاتحاد الدولي للمخابرات. كل ذلك تم في سنة 1956 أي السنة التي تحصلت فيها تونس على الاستقلال التام، ثم سعت تونس إلى بعث "وحدة المغرب العربي" فعقدت اتفاقا مع المملكة المغربية ومع المملكة الليبية، وقررت عقد مؤتمر بتونس يضم دول المغرب العربي ولو لا إلقاء القبض من طرف فرنسا على "الزعماء الخمسة" الجزائريين في الجو وإنزالهم بالجزائر لكان أول مؤتمر يعقد في تونس يضم دول المغرب العربي الكبير لكن مع ذلك عقد هذا المؤتمر بالمغرب الأقصى في طانجة فيما بعد في 27 أفريل 1958 .

وأهم ما قامت به تونس في هذه الفترة هو صدور "مجلة الأحوال الشخصية" في 13 أوت 1956 وهي أول مجلة تصدر في العالم العربي لتنظيم الحياة الاجتماعية والاهتمام بشؤون المرأة كما وقع الاعتناء بالصحة والفلاحة والتجارة والصناعة والثقافة والتعليم الذي كان على نوعين :

1- زيتوني

2- مدرسي

وهذا في نطاق المدارس الثانوية، وقرآني (وفرنسي عربي) في نطاق التعليم الابتدائي. إلا أنه وحد ابتداء من سنة 1957 فأصبح التعليم الابتدائي موحدا وكذلك التعليم الثانوي وحذف التعليم الزيتوني بالتدريج لتوحيد المناهج والطرق وأساليب التعليم.

ثم حدثت معركة الجلاء ببنزرت وأبدلت العملة وتكون ديوان الصيد البحري والطيران المدني،

ووقع الاعتناء بالطرقات، وبناء المساكن، وأحدث الصندوق القومي للتوفير والجلة التجارية وإصلاح الألقاب العائلية، وإثبات الزواج إذ كان البعض يتزوجون بالعرف كذلك شهادات الحوز واسترجاع الأراضي التي كانت قد تملكها الاستعماريون، ثم وقعت"معركة السدود" وشارك فيها سكان قابس بصورة فعالة كما وقع الاعتناء بالجامعة التونسية ابتداء من شهر نوفمبر 1959.

أما في قابس فقد حصل تقدم في الميدان الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، وسار الحزب والدولة التونسية في قابس بخطوات ثابتة فانتشرت المدارس في المدن والقرى والأرياف، وحدثت حركة صناعية كبرى فأحدث المركب الكيمياوي والمركبات الأخرى التابعة له والخارجة عنه مثل معمل الإسمنت ومعمل اللف ومعامل أخرى متعددة كانت قد ساهمت في تقدم البلاد وفي تشغيل اليد العاملة وفي تحرير الفكر وفي النهوض بالشعب وزحف الناس على العمل والكد والجد لتحقيق الأهداف الوطنية وكانت قابس سباقة في دفع إطاراتها إلى العمل، وفي تركيز أركان الدولة بشتى الطرق وواكبت الأحداث وساهمت في تطبيق المخططات التي وضعت لتقدم البلاد، رغم أن الاختيار في مسألة الصناعة الكيمياوية الكبرى وأثارها كان له ردود فعل معاكس خصوصا وأن الاحتياطات الصحية لم تأخذ بعين الاعتبار منذ البداية لأن قابس بموقعها الاستراتيجي الذي تحدثنا عنه وبإمكانياتها الفلاحية وبتوفر مياهها ربما يكون أنسب لها لو وقع تطوير فلاحتها والعناية بالناحية السياحية التي تجلب السواح سواء كان ذلك في المناطق الساحلية أو الجبلية أو الواحية أو الصحراوية لأنه قد تبين الآن وأن العناية بهذه النواحي ربما يكون أنسب لتطور البلاد ولحفظ صحة الناس من مضار الصناعات الكيمياوية الكبرى، ولو أن الدولة في الوقت الحاضر قد تفطنت إلى هذه الناحية، وحاولت التنقيص من مضار هذه الصناعات كما بدأت في تطوير منتوجها السياحي، خصوصا الجبلي والصحراوي، وفي الوقت الحاضر تقام الدراسات للعناية بالسياحة الساحلية في منطقة ما يسمى بالإماوة.

وهكذا كانت الفكرة التي اعتمدت على سياسة "خذ وطالب" هي السياسة الرصينة، وهي التي أوصلت البلاد إلى ما وصلت إليه من تقدم وازدهار وعزة، وقد رفض الزعيم ابن يوسف من الحزب وأيّد مؤتمر الحزب الذي عقد بصاقس في 15 نوفمبر 1955 قرار الرفض أو العزل من خطة أمين عام للحزب ثم وبقرار من الوزير الأكبر رئيس الحكومة أحدثت "محكمة عليا للقضاء" وقد حوكم ابن يوسف بالإعدام من طرف هذه المحكمة، لكنه فرّ إلى ليبيا ثم إلى ألمانيا واغتيل هناك وبذلك قضي على الحركة.

أما موقف الحزب الحر الدستوري القديم برئاسة "صالح فرحات" في ذلك الوقت فقد عارض هو الآخر الإعلان عن الاستقلال الداخلي، لكنها في الواقع معارضة من أجل المعارضة لأن أنصار هذا الحزب أصبحوا يعدّون بالأصابع، وأن معارضتهم أو موافقتهم لا تعني شيئا على ما أعتقد، لأن جهة قابس مثلا لم تبق لها شعبة تابعة لهذا الحزب، وربما بقيت بعض الأفراد المتعاطفين معه، وخصوصا في منطقة المطوية التي اشتهرت كما ذكرنا باختلاف وجهات نظر سكانها، فقد بقي بها الحزب الحر الدستوري القديم والحزب الشيوعي حتى بعد الاستقلال.

أهم الإنجازات التي حدثت بقابس خلال هذه الفترة:

1- التنظيم الإداري

لقد ضبطت الحياة الإدارية في قابس وقسمت الولاية و(كانت ولاية قبلي(1) الحالية تابعة لها) إلى سبعة معتمديات:

1- معتمدية قابس
2- معتمدية المطوية
3- معتمدية الحامة
4- معتمدية مطماطة
5- معتمدية مارث
6- معتمدية قبلي
7- معتمدية دوز

كما تكونت بها 6 بلديات:

1- بلدية قابس
2- بلدية المطوية
3- بلدية وذرف
4- بلدية مارث
5- بلدية قبلي
6- بلدية دوز

أما بقية المناطق فهي تابعة لمجلس الولاية وتكونت في بعضها مجالس قروية

أما الولاة الذين تداولوا على ولاية قابس في هذه الفترة فهم

1- الهادي المبروك 1956-1957(كلف بهذه الخطة بالنيابة وكان في خطة خ.. ة في ذلك الوقت أي معتمدا بالولاية)
2- محمد الحبيب 1957-1958
3- محمد بن الأمين 1958-1959
4- يوسف الجدي 1959-1961
5- احمد بن للونة 1961-1967
6- زكرياء بن مصطفى 1967-1969
7- الهادي البكوش 1969-1970
8- رشيد بدري 1970-1973
9- عبد الحميد المالقي 1973 (لم تطل مدته)
10- عامر غديرة 1973-1974
11- عبد الرحيم الزواري 1974-1978
12- عبد الرزاق يزيد 1978-1979
13- محمد جغام 1979-1980 (لم تدم مدّته)
14- احمد بن جميع 1980-1983
15- محمد الحبيب الغربي 1983-1984
16- عبد الحق لسود 1984-1986
17- محمد الصيد 1986-1988 (قضى فترة في عهد الرئيس بورقيبة، وجزء في العهد الجديد وهو جزء من سنة 1988)

(1) انفصلت ولاية قبلي عن ولاية قابس في أوت 1981 كما تكونت معتمدية سوق الأحد في جويلية 1975

التقدم الاقتصادي في هذا العهد:

أ- الفلاحة :

نظرا لصلاحية التربة، ولتوفر المياه، والمناخ الجميل المناسب الذي اتصفت به الولاية خصوصا الناحية الشرقية، فقد وقع تطوير الفلاحة السقوية، فازدهرت البلاد وانتشرت المحصولات الفلاحية إلى الولايات المجاورة وبدأ تعصير قنوات المياه، وانتشار الأسمدة الكيمياوية، واستغلت المياه الحارة بالحامة كمصدر للسقي لإنتاج الباكورات، ولولا النكسة التي وقعت في نهاية الستينات بسبب جبر الناس على التعاضد بدون استعدادهم لتقبله، وضعف الإنتاج الفلاحي فعمّ البلاد كساد مريع تسبب في بيع الناس حيواناتهم، وعدم اعتنائهم بمنتوجاتهم ورغم الغش والاحتيال الذي قامت به الإطارات الفنية، وزبانية السياسة في ذلك الوقت لإظهار فوائد هذا التعاضد لكن تبن أن هذا الإصلاح لم يتحمس له السكان، فحكم عليه بالفشل، فضعف الاقتصاد نتيجة لذلك، لأن مفهوم الملكية الخاصة في تونس بصفة عامة، لا ينسجم مع فكرة التعاضد خصوصا وأن أغلب الأراضي التونسية وفي قابس بالخصوص ذات مساحة قليلة ومقسمة على عدة ورثة، وهناك من كان يعتمد عليها في عيشه اليومي. رغم أن الدولة(2) قد شجعت الفلاحة منذ حصولها على الاستقلال، فحفرت الآبار العميقة ومدت القنوان الرئيسية وحسنت المسالك الفلاحية وشجعت الفلاحين على الحصول على القروض لحفر الآبار السطحية كما أحدثت إطارا من المرشدين الفلاحيين تؤطر الفلاحين، وتساعدهم على تطوير فلاحتهم كما بعثت تعاضديات للخدمات في جارة والمنزل وشنني وغنوش كما فتحت مدرسة فلاحية بالزارات لتكوين الشباب في الميدان الفلاحي .

ب- التجارة:

ما حدث في الفلاحة حدث في التجارة، فقد أجبر الناس على الدخول في تعاضديات تجارية، نجح البعض منها نسبيا، وفشل البعض الآخر بسبب سوء النية وعدم تعود الناس بالعمل في هذا التنظيم الجديد، فأصبح الزملاء في التجارة والحرفة يتخاصمون ويتحكم أحدهم في الآخر دون فهم لفوائد هذا التعاضد، الذي يعني المشاركة والمساندة وتطوير رأس المال وتنظيم الحياة اليومية للمتشاركين، وضبط ساعات عملهم القانونية وحصولهم على العطل الأسبوعية والسنوية بانتظام ففشل هو الآخر.

ج- الصناعة:

لقد تطورت الصناعة في قابس، وخصوصا الصناعات الكيمياوية، وقد تحدثنا عن ذلك، ورغم عدم الاحتياط لمضار الصناعات الكيمياوية منذ البداية، فإن الحركة التي أحدثت في قابس قد أصلحت من بعض الأوضاع الاجتماعية، حيث أنها شغلت اليد العاملة، ومكّنت من إصلاح بعض الأوضاع التي تركتها فرنسا بعد خروجها من قابس، لأن عدد الأوروبيين والأجانب الذين كانوا يعيشون في قابس من مدنيين وعسكريين، قد أحدث فراغا خصوصا الجنود والضباط البالغ عددهم في ذلك الوقت 40 ألف جندي (كامل الجنوب الشرقي) والذين

(2) انظر موضوع من(أفاق التنمية بقابس) للأستاذ المرحوم حسين المنياوي نشره في مجلة البحوث التاريخية والجغرافية بقابس صفحة 15 عدد 5

كانوا يعيشون في قابس، وفي منطقة الجنوب، وكانوا يحدثون حركة اقتصادية نشيطة ضعفت بعد خروجهم. لذا فإن إيجاد مشاريع في قابس أصبح ضرورة ملحة لتفادي هذا الانتكاس الاقتصادي، فوقع تشجيع الخواص على القيام بمشاريع اقتصادية تساهم في تقدم البلاد، وفي تشغيل اليد العاملة، ومن المشاريع الصناعية التي تكونت في المنطقة معمل البسكويت(معمل ربحي لأبناء محمد شعبان) في تبلبو ومعامل في الخياطة وصناعة التركيب المعدني وصناعة الجليز والرخام، وتطوير مركز الصناعات التقليدية وغيرها من الصناعات هذا وإن بعث الميناء التجاري بالمنطقة الصناعية قد أحدث حركة هو الآخر وساهم في نقل منتوجات الصناعات الكيمياوية إلى الدول الخارجية، من أوروبا وأمريكا وأسيا وغيرها، كما كان الواسطة لنقل بعض البضائع من الدول الأخرى إلى قابس.

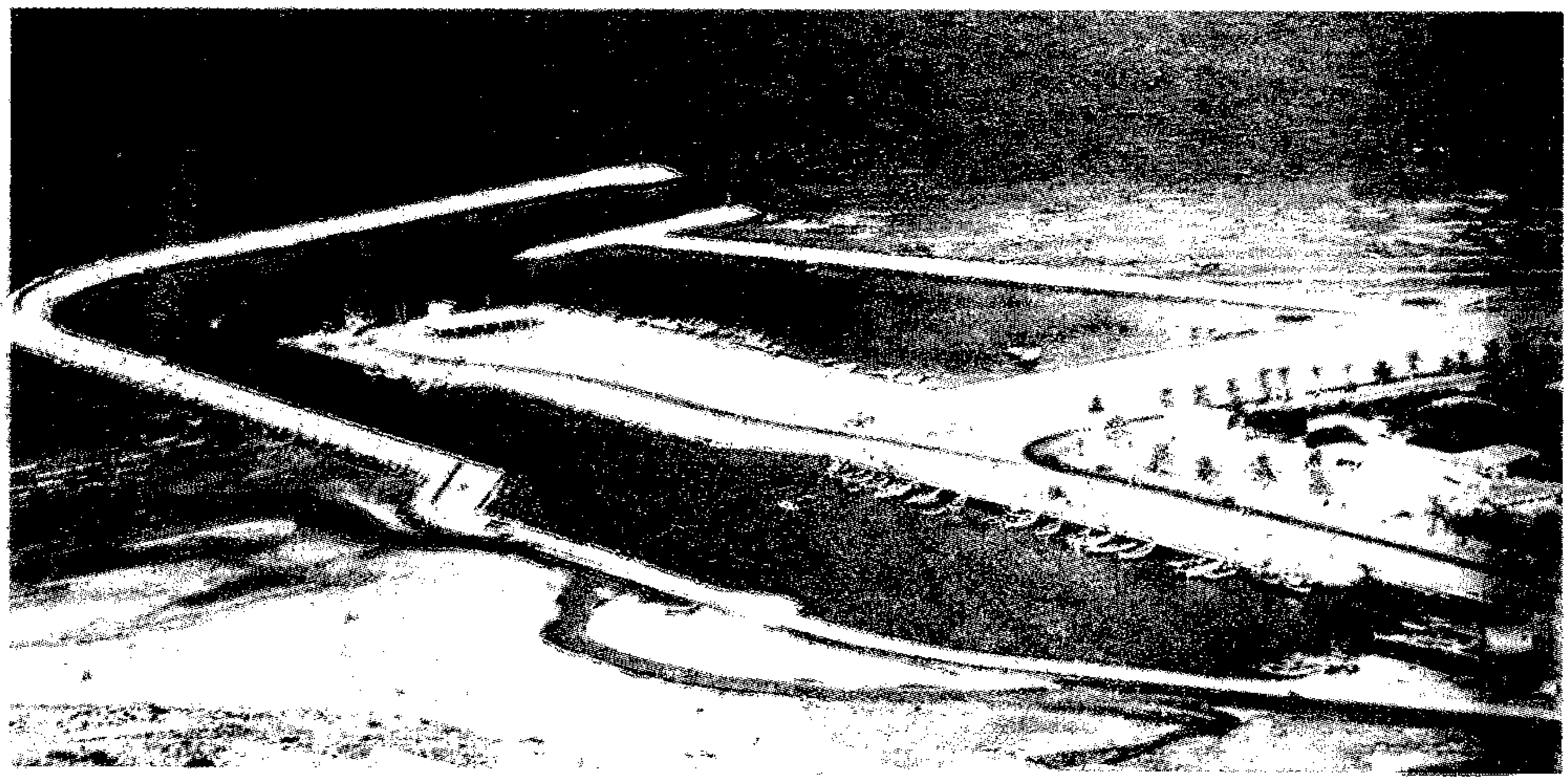

صورة من ميناء قابس الجديد

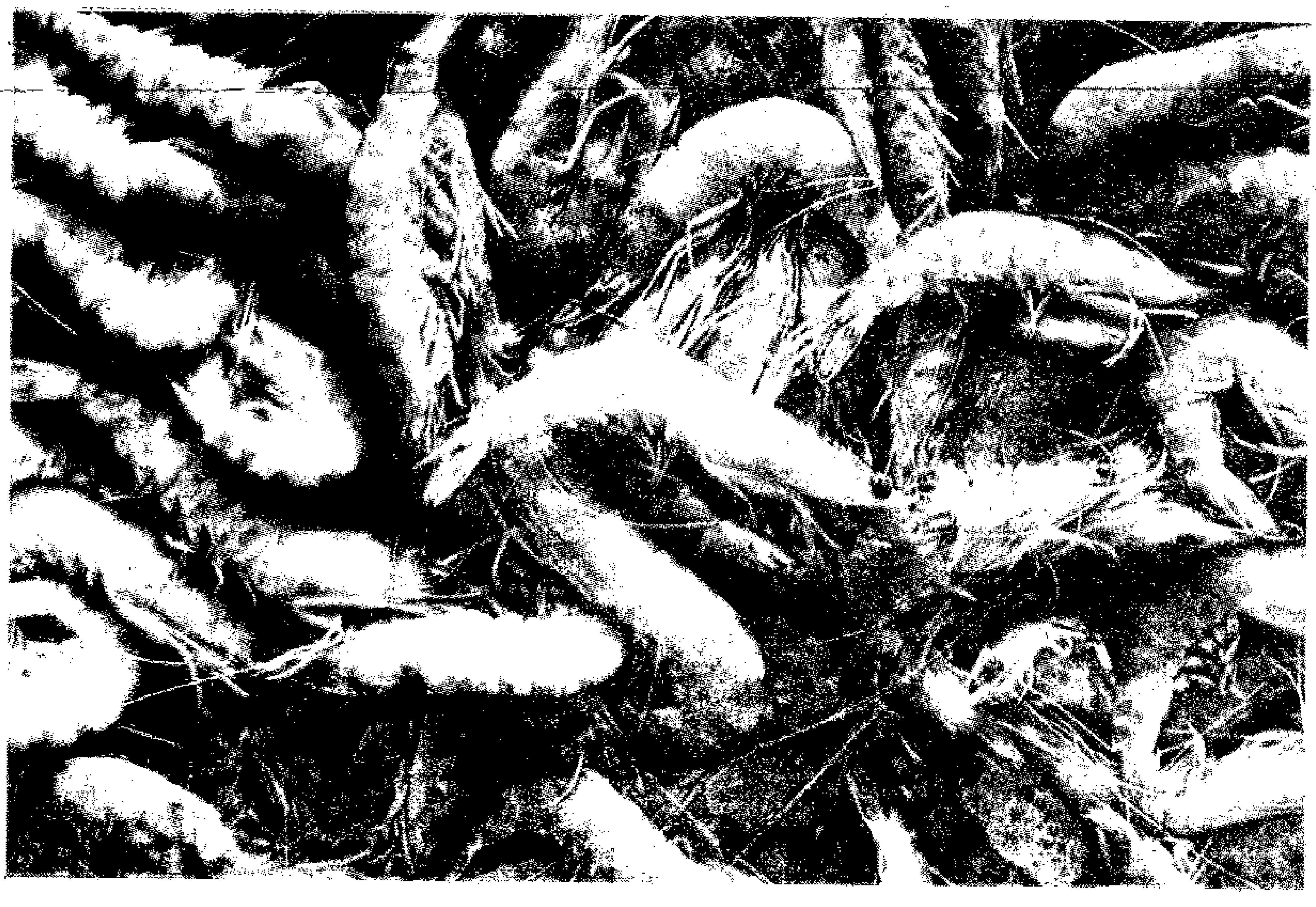

صورة لجراد البحر

الصيد البحري:

نظرا لموقع قابس البحري الساحلي، فإنه قد وقعت العناية بصيد الأسماك فتكون ديوان الصيد البحري وتعاضدية صيد الأسماك، كما وقع إصلاح الميناء البحري للصيد القديم ووقع التغلب على اتجاهات الرياح، التي كانت لا تمكن الصيادين من الدخول إلى البحر والرجوع سالمين منه، لأن اتجاه الميناء مواجه إلى الرياح كما وقع التشجيع على اقتناء السفن الكبيرة للصيد في الأعماق(شالوتيي)، وجلب بحر قابس وميناؤها الصيادين من مختلف المناطق خصوصا من المهدية وقرقنة، وصفاقس، وجربة، كما وقع تشجيع صناعة وتصبير الأسماك خصوصا التن الذي اشتهرت به قابس ورغب فيه مستثمرون أجانب حتى من الصين واليابان، وكذلك منتوج القمبري(جراد البحر) الذي أصبح صيده مزدهرا في المنطقة، وأصبح موردا هاما لاقتصاد البلاد. ويوجد هذا النوع في قابس والزارات من ولاية قابس وكذلك بالصخيرة والشفار وقد تطور الإنتاج(3) من 200 طن سنة 1978 إلى 318 طن في سنة 1981 وحقق رقما قياسيا في سنة 1983 ووصل إلى 1290 طن ثم نقص في سنة 1984 فوصل إلى 600 طن وهذا التراجع يرجع إلى قلة توفر الشباك في ذلك الوقت، وإلى اضطراب الأحوال الجوية ويصدر هذا الإنتاج إلى كل من فرنسا وإيطاليا، ويصل أسطول موسم القمبري إلى 800 مركبا ويشغل قرابة 4.000 مواطنا وفي سبيل تطوير هذا الإنتاج وقع توسيع ميناء قابس وإصلاحه(700م من الأرصفة) كما تم إنشاء ورشات للإصلاح مجهزة بأحدث الآلات.

الإصلاح التربوي:

لقد تحدثنا عن الإصلاح التربوي في نطاق التعليم الابتدائي والثانوي في البداية الذي سمّي بإصلاح المسعدي الذي دام عشرة سنوات وكانت الغاية منه هو نشر التعليم ورفع الجهالة التي خيمت على البلاد والاهتمام بالكم ليعم التعليم أصقاع وأنحاء البلاد، ثم تبدلت وجهة نظر وزارة التربية فحسنت البرامج وطورته وسعت لتكوين المعلمين والأساتذة عن طريق دور المعلمين الابتدائية والعليا، وكذلك عن طريق المرشدين والمساعدين البيداغوجيين وعمت المدارس الابتدائية والثانوية والفنية والإعدادية جميع الأنحاء وكذلك المراكز الصناعية التابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية، كما شرع في بعث نواة للتعليم العالي، فتكونت المدرسة القومية للمهندسين، ثم المعهد العالي التقني في المكان الذي كان يضم طلبة المدرسة القومية للمهندسين، وبذلك إزداد عدد الطلبة، فوقع بناء المبيتات والمرافق الثقافية من مكتبات خاصة وعمومية ساهمت في تكوين الأجيال.

الحركة الثقافية في قابس:

بتكوين وزارة خاصة بالثقافة، تكونت في جميع الولايات مندوبيات ثقافية ولجان ثقافية جهوية ومحلية، ووقع تشجيع الجمعيات من مسرحية وموسيقية وغيرها كما تكونت مدرسة موسيقية ليلية ساهمت في نشر الثقافة الموسيقية، وانتشار الهواة لها فنبغ منهم بعض الموسيقيين، اللذين تخرجوا من المعاهد والمدارس الثانوية ومن مدرسة الموسيقى على يـــد

(3) انظر مجلة البحوث التاريخية والجغرافية عددا1 صفحة 32 إلى 34 بعنوان جراد البحر ثروة اقتصادية بخليج قابس للأستاذ رضا جبر.

أساتذة مهرة ومنهم الأستاذ الصادق العمري وتوفيق أونيس ونوفل بالغايب وغيرهم، كما تكون مهرجان تكابس عن طريق بلدية قابس سنة 1966 وتطور هذا المهرجان إلى أيام ثقافية وإلى جامعة صيفية وإلى مهرجان جهوي، ثم مهرجان قومي، ثم مهرجان عالمي، بقانونه الأساسي كما انتشرت الدور الثقافية في جميع أنحاء الولاية في المطوية ووذرف والحامة ومطماطة ومارث وغنوش كما تمركزت مكتبات عمومية في كل المعتمديات التابعة للولاية.

العناية بالتراث:

رغم أن قابس لازالت في حاجة إلى عناية متأكدة بآثارها، في مختلف المناطق، وخصوصا الآثار التي تحدث عنها المؤرخون، وهي لازالت تحت الأنقاظ لكن مع ذلك فإن وزارة الشؤون الثقافية عن طريق المعهد القومي للآثار، وكذلك عن طريق الإعانات الرئاسية، قد رممت المدرسة المرادية وشرعت في تحسين مقام الصحابي أبي لبابة، وترميم الجامع القديم جامع سيدي إدريس بالبلد وجامع سيدي عبد السلام بالمنزل، وغيرها من المراكز الأثرية ولا زال هذا الموضوع يحتاج إلى عناية ودراسة.

كلمة ألقيتها بلجنة التنسيق الحزبي بقابس

(قبل نشر هذا الكتاب)

أربعينية المرحوم الزعيم الحبيب بورقيبة

الله أكبر

الله أكبر

الله أكبر

بسم الله الرحمان الرحيم(1) " تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي حلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور" صدق الله العظيم.

ببالغ الأسى وعميق التأثر تحيي ولاية قابس ولجنة تنسيق التجمع الدستوري الديمقراطي بها أربعينية المرحوم الزعيم الحبيب بورقيبة، أول رئيس للجمهورية التونسية وقائد الكفاح النضالي الوطني التحريري، ورائد الدولة الحديثة الذي وافاه الأجل المحتوم يوم الخميس 6 أفريل 2000 تغمده الله بواسع رحمته وغفرانه إنه على كل شيء قدير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أيهـــا المناضلون

بمبادرة من سيادة الرئيس زين العابدين بن علي رئيس الجمهورية التونسية ورئيس التجمع الدستوري الديمقراطي تنظم اليوم الجمعة 15 صفر 1421 الموافق لـ 19 ماي 2000 تظاهرات على المستوى الوطني ولقاءات لإبراز مآثر الزعيم الراحل ومكانته البارزة في تاريخ تونس الحديثة بمناسبة أربعينيته التي تقام ضمن توجه ثابت لسياسة العهد الجديد التي تقوم على تكريم الزعماء، والمناضلين، وإيفائهم حقهم من التبجيل والعرفان.

والزعيم الحبيب بورقيبة يجسّم واحدا من أبرز زعماء العالم في القرن العشرين بإعتبار دوره الأساسي في الحركة الوطنية وبإعتبار منزلته وإشعاعه على المستوى العالمي ومبادراته المأثورة في قضايا التحرر الوطني والكفاح ضد الاستعمار. وكذلك يعتبر المرحوم الزعيم الحبيب بورقيبة من أبرز زعماء الإصلاح في عهده حمل فكرا نيّرا وبذل الكثير من أجل الحداثة والتطور.

كيف نشأ بورقيبة وما هي الظروف التي أدت إلى تأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد:

ولد الزعيم الحبيب بورقيبة في 3 أوت 1903 كما هو مثبت في تاريخ ميلاده الرسمي بالمنستير (بحومة الطرابلسية) في وسط عائلي عادي متواضع، وهو أصغر إخوته، وبعد حصوله على الشهادة الابتدائية واصل تعليمه الثانوي بالمدرسة الصادقية بتونس حيث تحصل على شهادة "البورفي" في اللغة العربية(BREVET D'ARABE) ثم واصل الدراسة الثانوية بمعهد

(1) أردت إدراج هذه الكلمة التأبينية في الكتاب لان وفاة المرحوم الحبيب بورقيبة كانت أثناء إعدادي لهذا الكتاب ونظرا لأهمية الحدث فإني أضفتها للكتاب بعد حصوله على الجائزة وقبل الطبع بصفة رسمية كذلك لارتباطها بالحركة الوطنية في قابس وعلاقتها بالمرحوم.

كارنو حيث أحرز على شهادة الباكالوريا بجزأيها سنة 1924 أي بعد تأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي القديم بزعامة عبد العزيز الثعالبي بأربعة سنوات وإبان ظهور حركة محمد علي الحامي النقابية.

ثم إنتقل المرحوم إلى باريس حيث تحصل على الإجازة في الحقوق وشهادة عليا من معهد الدراسات السياسية سنة 1927، وصادف أن وجد أثناء رجوعه لتونس المناضل الاجتماعي "الطاهر الحداد الحامي" الذي ساند حركة محمد علي النقابية، وبرز في كتاباته على صفحات الجرائد مطالبته بتحرير المرأة وتعليمها، وبرز بالخصوص بعد ذلك في كتابه "إمرأتنا في الشريعة والمجتمع" الذي صدر سنة 1930.

معنى ذلك أن المرحوم الحبيب بورقيبة رجع من فرنسا وقد بدأت حركات النضال النقابي والاجتماعي في البروز والظهور، ولو أن هذه الحركات قد قضى عليها الاستعمار الفرنسي.

لقد عرف المرحوم الحبيب بورقيبة منذ نعومة أظفاره وخلال تعليمه الثانوي والعالي بحسّه الوطني المرهف وتحمسه للقضايا الوطنية ومشاركته في النشاطات التلميذية المناهضة للاستعمار وتأثر في هذه المرحلة بالخصوص بأحداث بارزة من مظاهر القمع الاستعماري من أبرزها حوادث الجلاز سنة 1911 وكان في المدرسة الابتدائية، وشارك في المظاهرة الوطنية الكبرى التي نظمت تأييدا للباي محمد الناصر سنة 1922 الذي كان وطنيا وساند الشعب وكان في هذه السنة 1922 قد إنخرط في الحزب الحر الدستوري التونسي القديم.

وبعد رجوعه من فرنسا سنة 1927 انخرط في سلك المحاماة وتكثفت نشاطاته السياسية وشارك منذ سنة 1929 في تحرير الجريدتين الوطنيتين -اللواء التونسي- و -صوت التونسي- وقد تعرض إلى التتبع من طرف القضاء الفرنسي من جراء كتاباته إذ أتهم في سنة 1931 بالتحريض على التباغض بين الأجناس أي بين الفرنسيين المحتلين والتونسيين الوطنيين.

ثم أصدر في سنة 1932 جريدة "العمل التونسي" بالفرنسية L'ACTION TUNISIENE مع مجموعة من المناضلين.

وقد شارك المرحوم الزعيم الحبيب بورقيبة في "المؤتمر الاستثنائي للحزب الحر الدستوري التونسي القديم" المنعقد في 12 ماي 1933 وأنتخب بالإجماع عضوا باللجنة التنفيذية للحزب وهي الهيئة العليا للحزب.

لم يجد المرحوم الزعيم الحبيب بورقيبة طموحاته مع اللجنة التنفيذية لأن أسلوب عملها كان لا ينسجم مع الطريق النضالي الذي يرغب في السير به، لدفع الحركة الوطنية فاستقال من اللجنة التنفيذية في 9 سبتمبر 1933 أي بعد أربعة شهور تقريبا.

وكانت اللجنة التنفيذية قد وجهت له لوما على مشاركته في وفد أعيان المنستير الذي احتج لدى الباي على عامل المنستير، الذي سمح بدفن متجنس بمقبرة المسلمين، لأن المتجنس في نظر الوطنيين آنذاك ليس بمسلم، مخافة أن يتزايد عدد الفرنسيين في تونس بدخول عدد كبير من

التونسيين الجنسية الفرنسية.

بعد هذه التطورات والأحداث اضطر المرحوم الزعيم الحبيب بورقيبة إلى القيام بجولة في أنحاء البلاد لشرح موقفه من اللجنة التنفيذية ودعا إلى عقد "مؤتمر بقصر هلال" في 2 مارس 1934 والذي أفضى إلى تشكيل ديوان سياسي عوضا عن اللجنة التنفيذية وإلى بعث الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد وأنتخب المرحوم الحبيب بورقيبة أمينا عاما له والمرحوم المناضل الدكتور محمود الماطري رئيسا للحزب وبعضوية المرحومين المناضلين الطاهر صفر والبحري قيقة ومَحمد بورقيبة وقد سجّل رسميا أن المناضل المرحوم الشيخ التومي من شنني قد حضر هذا المؤتمر.

إنتشار الحركة في الأوساط الشعبية:

اعتمد الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد على الاتصال المباشر، وعلى نشر الوعي الوطني في الأوساط الشعبية، فتأسست الشعب الدستورية ووقعت تعبئة الجماهير في مختلف أنحاء البلاد، وكانت قابس ضمن هذه الحركية الجديدة بالرغم من أن أهالي قابس كانوا قد لبوا نداء الحزب الحر الدستوري التونسي القديم وتكونت أول شعبة بها منذ تأسيس هذا الحزب سنة 1920. لكن مع ذلك تكونت شعب أخرى في قابس وفي التجمعات المجاورة لها ولبت نداء المرحوم الزعيم الحبيب بورقيبة.

لقد احتارت فرنسا في هذه الحركية الجديدة، وأدرك المقيم العام "بيرتون" خطر هذه الحركة على فرنسا وعلى الاستعمار الفرنسي، فقرر في سبتمبر 1934 نفي المرحوم الزعيم الحبيب بورقيبة وبعض رفاقه، إلى الجنوب التونسي إلى منطقة الأعراض في منطقة قبلي، التي كانت تابعة لها ثم في "برج البوف" الذي أصبح يسمى ببرج بورقيبة.

اشتد الصدام بين القوى الاستعمارية، إثر نفي الزعماء، وعرفت البلاد أحداثا دامية بعديد الجهات، وبعد صعود الجبهة الشعبية بفرنسا إلى السلطة في 3 ماي 1936 تم الإفراج عن الزعماء الذين وقع نفيهم وتحرك الديوان السياسي من أجل تحقيق المطالب الوطنية، وقد إشتد التصعيد بعد تراجع السلطات الفرنسية لعدم الوفاء بوعودها، فأعلن الحزب عقد مؤتمر "التريبونال" سنة 1937، حضره ممثلون عن قابس وتقرر سحب الثقة من الحكومة الفرنسية، واشتد الصراع في هذه الفترة، حيث بلغ ذروته في 9 أفريل 1938 واعتقل الزعيم علي البلهوان زعيم الشباب، كما اعتقل كثير من الشباب "المطاوى" المقيمين بتونس لمشاركتهم في المظاهرات، كذلك اهتزت قابس لهذه الأحداث وقامت في يوم 10 أفريل 1938 أي في اليوم الموالي مظاهرة كبرى، إثر تجمع في بطحاء سيدي الحاج عمر وسيدي الحاج ناصف وسيدي بوعلي حضر فيها جمع من سكان قابس، ومن قراها من شنني والمطوية ووذرف وتبلبو والحامة، وقاموا بمظاهرة بمشاركة تلاميذ المدرسة الابتدائية(العربية الفرنسية)، وكان قايد قابس آنذاك المرحوم(مصطفى اللونقو) الذي اشتهر بالوطنية والذي استقبل المتظاهرين بكل لياقة ووعدهم بإبلاغ صوتهم إلى السلط، إلا أن المتظاهرين واصلوا مظاهرتهم متجهين نحو مركز

المراقب المدني إلا أنهم ردوا على أعقابهم فأغلقت النوادي وألقي القبض على الوطنيين، والجدير بالملاحظة أن هذه المظاهرة قد شاركت فيها المرأة القابسية ومنهن عائشة بنت محمد جلولي وحليمة الغريبي التي توفيت يوم الأحد في هذا الأسبوع رحمها الله ومما يذكر أنها كانت حاملة ساطورا وتصيح "نريد الموت"

وهكذا كانت قابس مع المرحوم الزعيم الحبيب بورقيبة ومع الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد منذ بداية إنبعاثه.

أيها الأخوة الدستوريون

بعد هذه الأحداث تم إلقاء القبض على الزعماء في تونس وفي مقدمتهم المرحوم الحبيب بورقيبة وفي 10 جوان 1939 احيل بورقيبة على المحكمة العسكرية بتهمة التآمر على أمن الدولة وانتقل بين عدد من السجون بتونس ثم بالسجون الفرنسية في "سان نيكولا" وفي غيرها وقامت الحرب العالمية الثانية، وكان موقف المرحوم الحبيب بورقيبة إلى جانب الحلفاء أي مع مجموعة فرنسا وضد دول المحور إذ صرح ونصح التونسيين في 8 أوت 1942 بإذاعة (باري) بأن يتعقلوا وأن لا يغتروا بدول المحور وقد أدى هذا التأييد من طرف المرحوم إلى إطلاق سراحه والإفراج عنه سنة 1944 بعد انتصار الحلفاء.

التعريف بالقضية التونسية :

هاجر المرحوم الحبيب بورقيبة في شهر مارس 1945 إلى القاهرة عبر الأراضي الليبية خفية، وذلك للتعريف بالقضية التونسية وساهم في تكوين مكتب المغرب العربي في القاهرة مع مجموعة من المناضلين الزعماء المغاربة، ومنهم الزعيم عبد الكريم الخطابي المناضل المغربي المعروف.

ثم وفي ديسمبر 1946 سافر إلى نيويورك للتعريف بالقضية التونسية لدى الأمم المتحدة، ثم عاد إلى أرض الوطن في 8 سبتمبر 1949 ليعيد تنظيم الحزب، ويستأنف الاتصال بالشعب بعد غياب طويل، ثم سافر إلى باريس في 12 أفريل 1950 لكسب الأنصار لدى اليسار الفرنسي، والتعريف بالقضية الوطنية، وأعلن على برنامج يحتوي على 7 نقاط تهدف إلى وضع حد لنظام الإدارة المباشرة بتونس، واسترجاع مقومات السيادة التونسية وإقامة دولة مستقلة.

وقد قبل المرحوم الزعيم الحبيب بورقيبة مشاركة الحزب في الحكومة التفاوضية مع فرنسا حول بروتوكول الاستقلال الداخلي سنة 1951 وقام المرحوم بجولة ثانية عبر العالم لكسب المزيد من الأنصار وزار خلالها أوروبا وأمريكا وتركيا ومصر، وربط علاقات مع زعماء من الشرق الأقصى مع الزعيم نهرو الهندي، والزعيم سوكارنو الأندونوسي.

وتحت ضغط الاستعماريين بتونس رفضت الحكومة الفرنسية المطالب التونسية وأصدرت في 15 ديسمبر 1951 "المذكرة المشهورة" التي تفرض السيادة المزدوجة على التونسيين، فرفضها المرحوم الزعيم الحبيب بورقيبة وكان ذلك بداية المواجهة وإندلاع الثورة المسلحة، وكان قبل ذلك قد زار الحبيب بورقيبة قابس وخطب في بطحاء العمريين ملوحا

بالثورة المسلحة وكان معه الصحفي الفرنسي الحر "جون روس" الذي ألقى كلمته في المجتمعين وتـرجمها إلى العـربية الحـبيب بورقيـبة الإبـن وكان اجتماعا مشهودا حقا وكنا آنذاك (تلاميذ إما بالمدرسة التكميلية أو بالفرع الزيتوني بقابس حضرنا هذا الاجتماع).

بعـد إشـتداد الأزمـة كمـا ذكـرنا وفـرض فرنسا إصلاحات تنصّ على السيادة المزدوجة، إنعقد مؤتمر الحزب سريا بصفة إستثنائية وحضره نواب من قابس.

وفي 18 جانفي 1952 أعلنت الثورة المسلحة في جميع أنحاء البلاد رغم أن قابس كانت قد بـدأت في إعـداد العـدة بـتوجيهات من المرحوم، وبدأت في تسليح الثوار، وخرج المرحوم المناضل الطاهـر لسـود صحبة مجموعة من الثوار، ومنهم الشهيد بلقاسم البازمي وبدأوا في التعرض إلى الجنود الفرنسـيين الذيـن كـانوا مـتوجهين إلى قفصـة أو قادمين منها قبل إعلان الثورة بصفة رسمية.

أعـتقل الـزعيم المرحوم الحبيب بورقيبة ليلة 18 جانفي 1952 وأبعد إلى طبرقة ثم إلى جالطة، وكان على اتصال بالمواطنين وكان يحثهم على مواصلة الكفاح والصمود.

ثـم أعلـنت اصـلاحات "فوازار" في 4 مارس 1954 لكنها رفضت من قبل الدستوريين ومن قبل المـرحوم الـزعيم الحـبيب بورقـيبة فأبعد بعد ذلك إلى جزيرة "لاقروا" وإلى أماكن أخرى بفرنسا حيث كان يتابع القضية التونسية.

ثـم تطـورت الأوضـاع، وصـعد إلى الحكم اليسار الفرنسي ووصل إلى تونس "مونداس فرانس" رئيس الحكومة الفرنسية وأعلن أمام الباي "محمد الأمين" الاستقلال الداخلي لتونس وذلك يوم 31 جويـلية 1954 وتشـكلت حكومـة تفاوضـية شـارك فيهـا ثلاثـة أعضـاء مـن الحـزب وبعد صـعوبات ومـاطلات تدخـل المـرحوم الـزعيم الحـبيب بورقيـبة في المفاوضـات وأمضـيت وثيقـة الاستقلال الداخلي.

وفي غـرّة جـوان 1955 عـاد المـرحوم الـزعيم الحبيب بورقيبة إلى أرض الوطن. وحدث الانشـقاق، وحـدث الخـلاف بيـنه وبـين الـزعيم المـرحوم صـالح بـن يوسف الكاتب العام للحزب، وحـدث مـا يسمى بالحركة اليوسفية، أو حركة الأمانة العامة وحسم الخلاف في مؤتمر صفاقس الـذي انعقـد في نوفمبر 1955 لفـائدة الـرأي الذي إتجه إليه المرحوم بورقيبة، وهو أن الاستقلال الداخـلي كـان خطـوة إلى الأمـام لا كما اعتقد المرحوم الزعيم صالح بن يوسف وفعلا وبعد مدة قصيرة وفي 20 مارس 1956 تحصلت تونس على الاستقلال التام.

مرحلة بناء الدولة الوطنية الحديثة :

بعـد حصـول تونـس علـى الاسـتقلال الـتام، تم إنتخاب المجلس التأسيسي في 25 مارس 1956 وأنـتخب المـرحوم الـزعيم الحـبيب بورقيـبة رئيسا له لسنّ دستور البلاد، لكنّه بعد ثلاثة أيـام فقـط كـلف بتشـكيل أول حكومـة وطـنية لـتونس المسـتقلة، وفي 14 أفـريل تألفت هذه الحكومـة وكـان المـرحوم قـد إحـتفظ بوزارتـي الخارجيـة والدفاع الوطني بالإضافة إلى رئاسة الوزراء. أما المجلس التأسيسي فقد ترأسه المناضل "الأخ جلولي فارس" الذي هو طريح الفراش

الآن شفاه الله.
وفي 25 جويلية 1957 أعلن هذا المجلس إلغاء الملوكية، وإعلان الجمهورية، وأسندت الرئاسة للمرحوم الزعيم الحبيب بورقيبة.
وفي 1 جوان 1959 صدر الدستور الذي قرر فصل السلطات الثلاث وضمن الحريات الفردية والعامة فقرر قيام نظام رئاسي يعتمد انتخاب رئيس الجمهورية ومجلس النواب انتخابا حرا مباشرا وسريا.
واصل المرحوم العمل على تخليص البلاد من رواسب الاستعمار، ودفعها إلى طريق الحداثة وتركيز الدولة العصرية واستكمال السيادة الوطنية، فتم إصلاح التعليم بالتدريج والمراحل، ووقع تعميمه وإصدار مجلة الأحوال الشخصية في 13 أوت 1956 التي تعتبر من أهم ما قام به الراحل لتحرير المرأة وللنهوض بها واعتبارها نصف المجتمع، كما تم توحيد القضاء وتحقيق الجلاء العسكري التام والجلاء الزراعي في 12 ماي 1964.
وإن ما تميّز به المرحوم الراحل الزعيم الحبيب بورقيبة أثناء كفاحه وحركته السياسية والتحريرية هو:
1- مناصرته لقضايا التحرر في العالم خاصة القضية الجزائرية والقضية الفلسطينية وموقفه المعروف في خطاب أريحة الذي نادى فيه بقبول التقسيم، لكن لم يسمع كلامه آنذاك واعتبر خائنا وأصبح الفلسطينيون الآن يزحفون لطلب الدعم والإعانة للحصول على جزء من المائة من فلسطين المسلوبة وها هي المفاوضات تبدأ ثم تنقطع ثم تتواصل، وقد انقطعت بالأمس ولا ندري ما المصير؟
2- كذلك ظهر موقفه من استقباله للقيادة الفلسطينية إثر حصار بيروت سنة 1982 وما نشأ عن ذلك من مضاعفات من أبرزها قصف ضاحية حمام الشط من قبل الطيران الإسرائيلي وكذلك الهجوم على القيادة الفلسطينية في تونس، وقتل مسير الحركة المناضل أبو جهاد ومن معه من الحراس.
3- قبوله للحكومة الجزائرية المؤقتة، وما نتج عن ذلك من حوادث ساقية سيدي يوسف كانت فيه ضحايا من الشعب التونسي
4- كما برز المرحوم الحبيب بورقيبة في الحركة المناهضة للتمييز العنصري وساند الزعيم مونديلا في إفريقيا الجنوبية وكذلك وقف مع جميع الحركات التحريرية التي قامت في إفريقيا
5- كذلك برز في حركة دول عدم الانحياز وكان من أبرز مؤسسيها ومحركيها.
6- كذلك كان من المؤسسين لمنظمة الوحدة الإفريقية وهي موجودة إلى الآن
7- وأخيرا أهم ما امتاز به المرحوم الزعيم الحبيب بورقيبة هو سلوكه سياسة "خذ وطالب" و"سياسة المراحل" التي أوصلت البلاد إلى الاستقلال التام وإلى مصاف الدول المتقدمة العصرية.

بعد أن تقدمت السن بالمرحوم الزعيم الحبيب بورقيبة واستفحل به المرض وما آلت إليه الأوضاع بالبلاد جاء تحول السابع من نوفمبر لانقاذ البلاد وانقاذ الزعيم نفسه بأسلوب حضاري وفي كنف الشرعية الدولية جاء الإنقلاب الأبيض الذي قام به الرئيس زين العابدين بن علي مع ثلة من رفاقه.

هذا التحول وهذا الإنقلاب الأبيض أثار اهتمام الجميع في العالم ودخلت البلاد عهدا جديدا قوامه المصلحة الوطنية، وأذكر في هذه المناسبة وكنت أعمل بالإدارة الجهوية للتعليم بين عروس وزغوان وقد زارنا وفد من وزارة المعارف السورية وقد سألني السيد المدير الجهوي للتعليم بدمشق عن وضع الزعيم الحبيب بورقيبة ولما أجبته بأنه يقيم بمنزل خاص مكرما معززا من طرف النظام الجديد تعجب وقال بالحرف الواحد "عجبا لكم التونسيون كيف تتصرفون تصرفا حضاريا إنسانيا مع رؤسائكم ولو أنهم عزلوا من مراكزهم ونحن في سوريا لا نقوم بهذا بل نقضي على الحاكم عندما نقوم بالانقلابات"

أيها الأخوة في قابس:

تبدو هذه الملاحظة التي أشار إليها المسؤول السوري واضحة في الخطاب الأول للرئيس زين العابدين بن علي الذي أعلنه عند القيام بهذا الانقلاب الأبيض في 7 نوفمبر 1987 إذ قال "إن التضحيات الجسام التي أقدم عليها الزعيم الحبيب بورقيبة لا تحصى ولا تعد لذلك أحببناه وقدرناه..."

لقد شمل العهد الجديد الزعيم الحبيب بورقيبة بمختلف وجوه الرعاية والعناية والتقدير،وحضي باهتمام شخصي من سيادة الرئيس زين العابدين بن علي طيلة ثلاثة عشر سنة من عهد التغيير، إذ تعددت زياراته له في مناسبات مختلفة كما استقبله في قصر الجمهورية بقرطاج في يوم 13 ماي 1990، وتواصلت هذه العناية المركزة بالمرحوم الزعيم الحبيب بورقيبة وتكرر التنويه به وبدوره وخصاله وجهوده في خطبه المتعددة في عديد المناسبات إلى أن وافاه الأجل المحتوم يوم 6 أفريل 2000 ومما قاله زين العابدين في تأبين المرحوم الزعيم الحبيب بورقيبة

"إنها لحظة تقصر فيها الكلمات عن التعبير، لحظة نقف فيها جميعا خاشعين، ونفوسنا كلها أسف وتأثر لنودع أبا يرحل عنا إلى مثواه الأخير وزعيما أحببناه ورجلا أصبحت حياته جزء لا يتجزأ من تاريخنا الوطني الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة أول رئيس للجمهورية التونسية رحمه الله وكرّمه بالجنّة والغفران"

وقال أيضا:

"لقد كان الراحل العظيم قائدا وطنيا، سخّر نفسه لتونس، والتفّ حوله الشعب في حب وإيمان، فقاده وبثّ فيه روح البذل والعطاء، صحبة رفاقه من الزعماء ورجالات تونس... إلى أن تحقق الاستقلال وقامت الدولة التونسية الحديثة واستعاد الشعب حريته وسيادته".

وختم كلمته بقوله:

"أيها الراحل العزيز علينا، إننا إذ نودعك اليوم والخشوع يملأ قلوبنا فإننا نحي فيك روح الكفاح والإخلاص، التي ميزت سيرتك، وحبك الذي لا ينضب لتونسنا العزيزة. لقد أديت الأمانة وأخلصت العمل والله نرجو أن يتغمدك برحمته ورضوانه".

كما أصدر الديوان السياسي للتجمع الدستوري الديمقراطي يوم الجمعة 7 أفريل 2000 بيانا جاء فيه:

"إن فقدان الزعيم الراحل ورجل الدولة الكبير الحبيب بورقيبة بعد حياة زاخرة بالتضحيات والبذل والعطاء طبعت تاريخ الشعب التونسي طوال أكثر من نصف قرن وترك في نفوس التونسيين والتونسيات، ولدى الأشقاء والأصدقاء بمختلف أنحاء العالم عميق الحزن وبالغ الحسرة. لكن عزاؤنا جميعا في ذلك هو أن ذكراه تبقى خالدة حاضرة في النفوس عزيزة علينا نكبرها ونرعاها، وباقية على صفحات التاريخ بارزة الشواهد والآثار".

كما ذكر في هذا البيان "إن الشعب التونسي بأسره يقف اليوم بخشوع وإكبار أمام فقدان رمز بارز للحداثة في هذا القرن سيذكر له التاريخ عقلانيته وأعماله الجليلة والانجازات والمكاسب الكبيرة التي حققها لتونس، كما سيكتب له صحة تقديره للظروف والأهداف الوطنية والإقليمية والعالمية ومواقفه البارزة التي جعلت منه محل تقدير وتبجيل على الساحة الدولية".

إلى أن يقول في الخاتمة :

" وقد واف الأجل المحتوم الزعيم الراحل الحبيب بورقيبة، وهو مطمئن النفس عزيز بين بني وطنه في كنف الرعاية والحب والتقدير وقد تحققت كل آماله في أن تبق تونس حرة مستقلة سيدة لمصيرها تنعم بالأمن والاستقرار وإطراد التقدم والازدهار تغمد الله الفقيد العزيز بواسع رحمته وأسكنه فراديس جنانه ورزق أهله وذويه وكافة أبناء هذا الشعب وبناته جميل الصبر والسلوان".

إنا لله وإنا إليه راجعون.

يا أيتها النفس المطمئنة إرجي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي.

صدق الله العظيم .

والسلام عليكم (2) ورحمة الله وبركاته

الباحث الأستاذ بلقاسم بن محمد بن جراد

الفصل الثالث

عهد التغيير أو الانقلاب الأبيض

سارت تونس خلال فترة الاستقلال الداخلي والاستقلال التام سيرا طبيعيا في بداية الأمر خصوصا من سنة 1955 تاريخ حصولها على الاستقلال الداخلي إلى أواخر 1970 أي قبل 10 سنوات من عهد التغيير، فبعد الأعمال الجليلة والانجازات الهامة التي قام بها الرئيس الحبيب بورقيبة طيلة هذه الفترة، وكذلك الكفاح المرير الذي قاده من سنة 1934 تاريخ إنبعاث الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد مع ثلة من المناضلين الأحرار في تونس وفي جميع الايالة التونسية والذي كلل بالنجاح، وبالاستقلال الداخلي ثم الاستقلال التام لكن مرت فترة ضعف في نهاية هذا المطاف، وعجز الرئيس بورقيبة عن تسيير الدولة، فتدخل في شؤون البلاد بعض المتطفلين على السياسة، وأصبحوا يسيرونها على هواهم، خصوصا وأن مدارك الرئيس قد بدأ يعتريها الوهن الأمر الذي دفع بالوزير الأول زين العابدين بن علي إلى القيام بانقلاب دستوري حضاري، تمكن به من أخذ زمام الأمور وسار بالبلاد سيرا طبيعيا مع مجموعة من الوطنيين المخلصين.

قابس في عهد التغيير والاصلاح:

الواقع أن قابس خلال المرحلة الأولى من الاستقلال الداخلي والاستقلال التام قد بدأت تتحرك وتتبدل أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لكن ببطء إذ أن إمكانيات الدولة قد وجهت في البداية إلى المناطق التي يكون مردود إنتاجها مضمونا في المناطق التي تتوفر فيها المياه وخصوصا مياه الأمطار ذات المساحات الواسعة.

لذا فإن ما حدث في قابس من تغيير كان ببطء وإن الإمكانيات المتاحة للدولة لا تكفي لتوزيعها على كل الجمهورية التونسية خصوصا وأن ولاية قابس كانت في بداية الأمر تضم منطقة قبلي الشاسعة بما فيها منطقة(نفزاوة والمرازيق) ولم تنفصل عنها كما ذكرنا سابقا إلا في سنة 1981، كما أن بعث بعض البلديات والمعتمديات الجديدة لم يتم إلا بعد سنوات من حصول تونس على الاستقلال . لذا فإن النمو في قابس كان ببطء وإن التعليم العالي لم ينمو بالكيفية المرغوبة رغم محاولات الاصلاح والنمو التي سعت إليها الدولة.

ولاية قابس في هذا العهد:

تولى ولاية قابس منذ عهد التغيير السادة:

1- محمد الصيد الذي تولى ولاية قابس خلال العهدين عهد الرئيس بورقيبة أي منذ سنة 1986 وجزء من سنة 1987 أي إلى 6 نوفمبر 1987 ومنذ 7 نوفمبر 1987 إلى 1988 تولاها في عهد الرئيس زين العابدين بن علي أي في عهد التغيير.

2- الحبيب الغربي تولى ولاية قابس من سنة 1988 –1990

3- المرحوم المنصف اللواتي تولى ولاية قابس من سنة 1990 إلى سنة 1993

4- صلاح الدين العابد تولى الولاية من سنة 1993 إلى 1996

5- حسان السماوي تولى الولاية من سنة 1996 إلى سنة 1998

6- علي الطرابلسي تولى ولاية قابس منذ سنة 1998 إلى الآن (تاريخ تحرير هذا الكتاب بداية من جوان 1999 إلى الآن ونحن في شهر ديسمبر 1999) لكن بعد تقديم الكتاب إلى بلدية قابس في نطاق المسابقة القومية وحصوله على جائزة الإبداع الثقافي تولى ولاية قابس وال جديد بعد نقلة السيد علي الطرابلسي إلى ولاية أريانة وهو السيد:

7- الصادق مرزوق الذي يباشر الخطة الآن

بطاقة تعريف لولاية قابس

بعد انفصال منطقة قبلي عن ولاية قابس كانت مساحة قابس 716.626 هكتارا كما أن عدد السكان بلغ 311.713 ساكنا حسب إحصاء 1994 هذا وأن نسبة النمو بلغت 2.6 % وهي نسبة مقبولة إذا قيست بمناطق أخرى، وبها عشرة معتمديات وعشرة بلديات و72 عمادة و9 مجالس قروية حسب مجلة 7 نوفمبر التي تصدر عن لجنة التنسيق للتجمع الدستوري الديمقراطي في قابس.

تطور مؤشرات التنمية بولاية قابس

بلغت نسبة(1) مؤشرات النمو في ولاية قابس خلال الفترة المتراوحة بين سنتي 1987-1997 ما يلي:

القطاعات والمؤشرات	1987	1997
نسبة التمدرس لأطفال 6 سنوات	% 88.4	% 98.6
عدد المدارس الابتدائية	138	167
نسبة التمدرس(6-12سنة)	%90.7	% 97.6
عدد المدارس والمعاهد الثانوية	20	30
نسبة التمدرس(13-19سنة)	42.36	%68.47
نسبة التنوير العامة	%78	%93
نسبة التنوير الريفي	%53	%88
النسبة العامة للتزويد بالماء الصالح للشراب	%48.6	%88
نسبة التزود بالماء في المناطق الريفية	%32.7	%68
نسبة الربط بشبكات التطهير	%12	%29
عدد السكان لكل خط هاتف واحد	33	16
عدد السكان لكل مكتب بريد	6300	6700
مراكز الصحة الأساسية	49	71
عدد الأطباء	96	176

(1) انظر مجلة 7 نوفمبر الصادرة عن لجنة التنسيق الحزبي للتجمع الدستوري الديمقراطي صفحة 9 من سنة 1998

الإطار شبه الطبي	538	821
عدد السكان للطبيب الواحد	2428	1875
عدد الأسرة بالمستشفيات	460	582
نسبة عمليات الولادة المراقبة طبيا	%60	%87
المكتبات العمومية	12	24
عدد السكان لكل مكتبة عمومية	19425	13750
دور الشباب والثقافة	10	19
عدد السكان لكل دار شباب وثقافة	23310	17370
المساحة السقوية(هك)	8300	9500
الآبار العميقة(بئر)	149	216
الآبار السطحية المجهزة (بئر)	949	1900
طول الطرقات المعبدة(كلم)	322	416
طول المسالك الفلاحية المعبدة(كلم)	0	172

إذا تتبعنا هذا الجدول جدول مؤشرات النمو بولاية قابس في عهد التغيير فإننا نلاحظ ما يلي:

إن التقدم في ميدان التعليم الابتدائي تقدم ملحوظ إذ قفزت النسبة المائوية من 80.7%إلى 97.7 % أما في نطاق التعليم الثانوي فقد كانت نسبته 42.36 %ووصلت إلى 68.47% في سنة 1998 وهي نسبة عالية بالنسبة لدولة فتية أولت عنايتها الكبرى للتعليم واعتبرته وسيلة إنتاج وتقدم للبلاد. لأنه بالعلم ترتقي الشعوب وتتقدم، خصوصا وأن عدد المدارس العليا والكليات قد تطور في السنوات الأخيرة ويتطور أكثر في السنوات المقبلة. وإذا تصفحنا أوراق التعليم العالي بقابس فإننا نجده في هذا العهد يحتوي على عدة معاهد عليا وكلية واحدة وهي:

1- المدرسة القومية للمهندسين
2- المعهد الأعلى للدراسات التكنولوجية
3- المعهد التحضيري لتكوين المهندسين
4- كلية العلوم
5- المعهد العالي للتصرف

وكان قبل سنة 1987 لا يحتوي إلا على المدرسة القومية للمهندسين والمعهد العالي للتقنية الذي تحول اسمه في هذا العهد إلى المعهد الأعلى للدراسات التكنولوجية.

1- المدرسة القومية للمهندسين:

لقد تكونت المدرسة القومية بقابس في أكتوبر 1975 حسب القانون رقم 75/75 بتاريخ 1975/11/14 بقرار رقم 1254/80 مؤرخ في 1980/09/30 وهي تحتوي في الوقت الحاضر على ثلاثة اختصاصات:

1- الهندسة الكميائية أساليب

2- الهندسة المدنية

3- الهندسة الكهربائية أوتوماتيك

ويبلغ عدد طلبتها في سنة 1998-1999 = 329 طالبا وطالبة.

وفي هذه السنة(1999-2000)= 415 طالبا وطالبة. ويبلغ عدد أساتذتها الرسميين 56 أستاذا أما عدد الأساتذة المتعاقدين والذين يقومون بساعات زائدة فيبلغ عددهم 80 أستاذا وتفوق نسبة الذكور بالنسبة للطلبة نسبة الإناث إذ يبلغ عدد الذكور 345 طالبا منهم6 طلبة أجانب وعدد الإناث 70 طالبة منهم طالبة أجنبية واحدة كما بلغ عدد الإطار الإداري 87 إطارا من بينهم 21 من الإناث.

وتعد المدرسة القومية شهادة الدكتوراه(المرحلة الثالثة) ويبلغ عدد الطلبة في هذه السنة 64 طالبا بالنسبة لإختصاص هندسة كيميائية أساليب.

أما عدد الطلبة الأجانب فقليل جدا من موريطانيا(3 طلبة) ومن المغرب(طالبان) ومن السنغال(طالب واحد) وكذلك من الطوغو(طالب واحد) الجملة 7 طلبة.

لقد فتحت المدرسة القومية للمهندسين أبوابها في أكتوبر 1975 كما ذكرنا في بناية وقتية كانت مستغلة من مدرسة ترشيح المعلمين بقابس التي فتحت أبوابها في أكتوبر 1969 والبناية في الحقيقة بنيت لتكون مبيتا للتضامن الاجتماعي منذ سنة 1962 وبعد استغلالها مدة من الزمن كمبيت للتضامن الاجتماعي، وكذلك إستغلت قاعاتها من طرف المعهد الثانوي المختلط لمدة بعض السنوات ثمّ تحولت إلى الأغراض التي ذكرناها آنفا وهي الآن مستغلة أيضا من طرف المعهد الأعلى للدراسات التكنولوجية ويشرع في القريب في تطوير هذه البناية لتكون معهدا لائقا لتونس الجديدة.

2- المعهد الأعلى للدراسات التكنولوجية بقابس:

لقد بعث هذا المعهد في سنة 1978 باسم المعهد العالي للتقنية بقابس ثم تحول في سنة 1992 في نطاق إصلاح النظام التربوي بالبلاد التونسية إلى المعهد الأعلى للدراسات التكنولوجية وقدر عدد طلبته في السنة الدراسية(1998-1999) 827 طالبا وطالبة وفي هذه السنة (1999-2000) 850 طالبا وطالبة، والمقر الذي يستغله المعهد حاليا وقتي كما ذكرنا ذلك وسوف تقع تهيئته وتوسيعه بما قدر بـــ 760 مليون دينار ويتميز هذا المعهد بحركية طلبته ونشاطهم في الميدان الثقافي إذ تديره إدارة شابة نشيطة ومتحركة.

ويقبل على الدراسة به عديد الطلبة الآن كما أنّ نسبة النجاح به مرتفعة، كما أن خريجيه

يجدون مواطن الشغل بسهولة وعلى سبيل المثال فإن خريجي طلبة السنة الحالية كلهم مضمونون والمؤسسات الصناعية والتجارية وغيرها على استعداد لقبولهم حسب تصريح السيد المدير عبد الرزاق الجدي.

3- المعهد التحضيري للدراسات الهندسية:

تكون هذا المعهد(2) بموجب القانون الصادر بالرائد الرسمي عدد 65 لسنة 1992 المؤرخ في 13 جويلية 1992 الذي يضبط نظام الدراسات والامتحانات بالمراحل التحضيرية لمناظرة الدخول إلى مؤسسات تكوين المهندسين.

بدأ هذا المعهد في بداية الأمر تابعا لإدارة المدرسة القومية للمهندسين وفي نفس المكان، وابتداء من سنة 1996-1997 انفصل عن المدرسة القومية وأصبحت له إدارة ومقر خاص مستقطع من المدرسة القومية للمهندسين الجديدة وهو في سنته الرابعة الآن.

والاختصاصات التي وجدت به:

1- رياضيات وفيزياء(MP)

2- فيزياء وكيمياء(PC)

3- تكنولوجية(T)

أما الأقسام الموجودة به فهي:

1- قسم الدراسات التحضيرية لمناظرة الرياضيات والفيزياء(ر.ف MP) للدخول إلى مدارس المهندسين

2- قسم الدراسات التحضيرية لمناظرة الفيزياء والكيمياء(ف.ك PC) للدخول إلى مدارس المهندسين

3- قسم الدراسات التحضيرية لمناظرة التكنولوجية(ت.T) وقد بلغ عدد طلبته بالسنة الأولى في السنة الدراسية(1997-1998)

1- رياضيات وفيزياء 144
2- فيزياء وكيمياء 127
3- تكنولوجيا 189

} الجملة 460 طالبا وطالبة

ويبلغ عدد الفتيات 89 طالبة ونسبة الطلبة الذكور تبلغ 371 طالبا. وبالنسبة للسنة الثانية لنفس السنة يبلغ عدد شعبة

1- رياضيات وفيزياء 60 طالبا وطالبة
2- فيزياء وكيمياء 68 طالبا وطالبة
3- تكنولوجيا 70 طالبا وطالبة

} الجملة 198

منهم 54 طالبة و144 طالبا. ويبلغ جملة طلبة المعهد 460+198=658 طالبا وطالبة.

(2) هذه المعلومات مأخوذة من دراسة حول المعطيات والاحصائيات من السنة الدراسية 1997 إلى السنة الدراسية 1999

كما بلغ عدد الطلبة الأجانب 18 طالبا كلهم ذكور من (الجزائر ومن المغرب وموريطانيا والنيجر ودجيبوتي) وأكثر الطلبة من قابس إذ يبلغ عددهم (67) طالبا ومن تونس الكبرى 64 طالبا أي (تونس وبنعروس) ومن مدنين 35 طالبا ومن قفصة 32 طالبا وسيدي بوزيد 27 طالبا وولاية صفاقس 21 طالبا وقبلي 16 طالبا وبنزرت 16 هذا بالنسبة للسنة الأولى. أما بالنسبة للسنة الثانية فقد بلغ توزيع الطلبة على الولايات كما يلي قابس 37 طالبا، تونس 27 طالبا، مدنين 26 طالبا، سيدي بوزيد 15 طالبا، تطاوين 13 طالبا وقفصة 12 طالبا.

أما الشهادات التي تعد لها المؤسسة فهي المناظرات الوطنية للدخول إلى مراحل تكوين المهندسين. أما نسبة النجاح في المناظرات الوطنية فقد بلغت في سنة 1997-1998 كما يلي:

رياضيات وفيزياء	% 37.58
فيزياء وكيمياء	% 59.79
تكنولوجيا	% 41.66
المجموع	% 43.57

فهي نسبة هامة، أما في السنة الدراسية 1998-1999 فقد بلغت

رياضيات وفيزياء	%43.85
فيزياء وكيمياء	%34.04
تكنولوجيا	%60.86
المجموع	%45.63

وهي نسبة متقاربة مع السنة الماضية، ولقد تطور عدد الطلبة من سنة لأخرى إذ بلغ:

في السنة الدراسية(1992-1993) 487 طالبا وطالبة
في السنة الدراسية(1993-1994) 425 طالبا وطالبة
في السنة الدراسية(1994-1995) 367 طالبا وطالبة
في السنة الدراسية(1995-1996) 473 طالبا وطالبة
في السنة الدراسية(1996-1997) 481 طالبا وطالبة
في السنة الدراسية(1997-1998) 589 طالبا وطالبة
في السنة الدراسية 1998-1999) 553 طالبا وطالبة
في السنة الدراسية (1999-2000) 654 طالبا وطالبة

ويتوزع طلبة هذا المعهد التحضيري بالنسبة للسنة الدراسية الحالية

1- قابس 129 طالبا وطالبة
2- تونس 81 طالبا وطالبة
3- قفصة 51 طالبا وطالبة
4- أريانة 37 طالبا وطالبة
5- مدنين 36 طالبا وطالبة
6- القيروان 34 طالبا وطالبة
7- بن عروس 31 طالبا وطالبة
8- سيدي بوزيد 28 طالبا وطالبة
9- سوسة 25 طالبا وطالبة
10-نابل 19 طالبا وطالبة
11- القصرين 17 طالبا وطالبة
12- توزر 16 طالبا وطالبة
13- المنستير 16 طالبا وطالبة
14 - المهدية 10 طالبا وطالبة
15- صفاقس 10 طالبا وطالبة
16- جندوبة 10 طالبا وطالبة
17- الكاف 9 طالبا وطالبة
18- باجة 6 طالبا وطالبة
19- قبلي 23 طالبا وطالبة
20- تطاوين 23 طالبا وطالبة
21- بنزرت 19 طالبا وطالبة
22- زغوان 6 طالبا وطالبة
23- سليانة 6 طالبا وطالبة

ولم تتخلف عن ولايات الجمهورية أية ولاية فجميع ولايات الجمهورية الثلاثة والعشرين ممثلة في هذا المعهد.

4. كلية العلوم:

أحدثت كلية العلوم بقابس بمقتضى قانون عــــدد 88 لسنة 1996 المؤرخ في نوفمبر 1996. لقد بدأت الدراسة بكلية العلوم في سبتمبر 1997 بالمدرسة القومية للمهندسين بصورة مؤقتة في الطابق الثاني وقد خصصت لها أرض بمساحة 4 هكتارات بالقرب من المركب الرياضي المعشب وتبلغ المساحة المغطاة 23.550م2 ومقدر بأن تسع 5.000 طالب بالتدريج وسيقع الشروع في بنائها في سنة 1999 كما هو مقرر وربما تتأخر بعض الوقت لأن سنة 1999 قد أشرفنا على نهايتها (فعلا انتهت سنة 1999 وسنة 2000 وبدأت سنة 2001 ولم يشرع بعد في البناء ونحن بصدد طبع الكتاب بصورة رسمية بعد حصوله على الجائزة.

أمّا نظام الدراسة وكيفية الحصول على الشهادة القومية في المرحلة الأولى وفي شهادة الإجازة(maitrise) مقننة حسب قانون وزارة التعليم العالي المؤرخ في 11 ماي 1994 الصادر بالرائد الرسمي تحت عدد 43 مؤرخ في 1964/06/03 وغاية كلية العلوم في قابس هو إعداد الطالب في نظام التعليم العالي إلى البحث العلمي في مرحلتين تختم بشهادة الإجازة.

المرحلة الأولى تشتمل على فرع من الجذر المشترك:

- رياضيات وفيزياء وكيمياء موجهة(MPCD)
- علوم الحياة والأرض(SVT)

المرحلة الثانية يوجه الطلبة إلى أحد الفروع التالية:

- رياضيات وفيزياء(MP1) فيزياء وكيمياء1 (PC1)
- علوم الحياة(SV) علوم تقنية وعلوم حياة تقنية(STSVT)

هذا وإنّ الطلبة بعد ذلك لهم الإمكانية في المشاركة بالمناظرة القومية للدخول في كليات الهندسة لقد بلغ عدد الطلبة في السنة الدراسية الجارية:

عدد الطلبة المرسمين	المرحلة الأولى تقنية عالية	مرحلة ثانية	الجملة
ذكور	645	110	755
إناث	677	103	780
الجملة	1322	213	1535

والملاحظ من هذه الإحصائية أن عدد الإناث في المرحلة الأولى أكثر من عدد الذكور وأن عدد الذكور في المرحلة الثانية أكثر من عدد الإناث بقليل وجملة الطالبات في الكلية بلغت 780 بينما بلغت نسبة الطلبة الذكور 755 وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على إقبال الفتيات على دراسة العلوم أكثر من الذكور.

5- المعهد الأعلى للتصرف:

أحدث المعهد الأعلى للتصرف(3) وهو المعهد الخامس الذي أحدث بقابس في نطاق التعليم العالي بمقتضى أمر عدد 468 مؤرخ في 1998/02/23 والصادر بالرائد الرسمي في 1998/03/03 يتم قبول الطلبة بالمعهد الأعلى للتصرف بقابس عن طريق التوجيه الجامعي بالسنة الأولى بالدرجة الأولى كما يتم قبول الطلبة عن طريق:

أ- إعادة التوجيه المنظم في كل سنة

ب- الطلبة المتحصلين على شهادة الباكالوريا التونسية خلال السنة الدراسية الجامعية الماضية والذين أجل ترسيمهم

ج- الطلبة المرسمين بجامعات أجنبية

وتتوج الدراسة بهذا المعهد بالحصول على شهادة المرحلة الثانية في التصرف(اختصاصات مختلفة) ويتميز هذا المعهد كما يشير الدليل إلى أنه بالإضافة إلى خرجي طلبته فإنه يقوم بالتكوين والإتقان والتأهيل والرسكلة إلى غير طلبته من الراغبين في ذلك من المؤسسات الأخرى.

وتدوم الدراسة في المرحلة الأولى اختصاص تصرف عامين وفي المرحلة الثانية عامين الجملة 4 سنوات.

---

(3) هذه المعلومات مأخوذة من دليل الهيكلة المصممة من طرف إدارة المعهد

نسبة التطور بالمعهد

السنة الجامعية	الطلبة			الأساتذة			ملاحظة
	ذكور	إناث	الجملة	ذكور	إناث	الجملة	الزيادة في عدد الطلبة كانت بنسبة %244
1999-1998	198	170	386	16	4	20	
2000-1999	495	439	898	32	12	44	

لقد تطور عدد الطلبة من سنة الافتتاح إلى هذه السنة تطورا ملحوظا إذ إزداد عدد الطلبة بمقدار 530 طالبا أي بنسبة 244% كما يشير الجدول هذا وأن عدد الطلبة الذكور والإناث متقارب نسبيا من حيث التطور. كما أن نتائج الإمتحانات في آخر السنة الجامعية(1998-1999) كانت كما يلي:

الجنس	المسجلون	الممتحنون	الناجحون	النسبة المائوية
ذكور	198	191	139	%72.77
إناث	170	168	135	%80.35
الجملة	386	359	274	%76.32

إن النتائج التي تحصل عليها المعهد نتائج هامة جدا إذ أن نسبة 76.32% نسبة عالية هذا إن دل على شيء فإنما يدل على جدية الطلبة وكذلك كفاءة الأساتذة وقدرة الإدارة على التسيير وقد تجاوزت نسبة الطالبات نسبة الطلاب الذكور في النجاح.

لقد تطور عدد الأساتذة من السنة الأولى إلى السنة الثانية إذ بلغ عددهم في السنة الدراسية الأولى من الافتتاح 20 أستاذا من بينهم 4 إناث كما بلغ عددهم في السنة الدراسية الثانية 44 أستاذا من بينهم 12 إناث.

آفاق تطور التعليم العالي في قابس:

لقد أعدت دراسة في الأيام الأخيرة لإحداث معهد عالي للغات الحية وسوف تقدم للسيد الصادق شعبان وزير التعليم العالي والبحث العلمي الذي سيزور قابس يوم الجمعة 10/ 1999/12 ومن الممكن أن يفتح أبوابه في السنة الدراسية القادمة 2000-2001.

وهذه الدراسة قدمت من طرف جامعة قابس الجنوبية للتجمع الدستوري الديمقراطي مدعمة باقتراحات هامة منها أن الولاية مقبلة على بعث قطب سياحي الذي يتطلب إطارات كفأة مختصة بالإضافة إلى عولمة اللغة الأنجليزية إذ أصبحت لغة العلم والتخاطب في الشارع وفي المحافل الدولية. وفي الواقع أن الاقتراح لتكوين معهد للغات الحية له ما يبرره خصوصا إذا أطلعنا على عدد التلاميذ(4) المسجلين بالسنوات السابعة للسنة الدراسية الجارية بمعاهد الجنوب الشرقي والغربي إذ بلغ عددهم 15.021 وهو عدد هائل يمكن أن يوجه عدد من الناجحين منهم في الباكالوريا لهذا المعهد وهذا يخفف من عدد الطلبة من الجنوب الموجهين إلى مناطق أخرى ثم إن هذا المعهد العالي للغات لا يتطلب تكاليف من ناحية التجهيزات وغيرها كما أن أساتذة اللغة الانجليزية في الجهة متوفرة(5) وبذلك يتعزز القطب الجامعي الذي بدأ ينمو ويتطور بصورة مناسبة مع تطور قابس هذا وإن إحداث كلية للطب مطلب أساسي وقديم لارتباطه بالطب الجامعي حيث أن قابس في حاجة متأكدة إلى هذا الطلب وسوف يتحقق إن آجلا أو عاجلا خصوصا وأن مرحلة الشروع في يناء كلية العلوم الجديدة المستقلة عن المدرسة القومية للمهندسين وفي تكبير وتوسيع المعهد العالي التقني أصبحت في عداد الأعمال المنجزة لأن الصفقات في مرحلتها النهائية.

هذا الوضع في نطاق التعليم الابتدائي والثانوي والعالي استخلصناه من الجدول الذي قدمناه بعنوان مؤشرات النمو بولاية قابس وكذلك من الوثائق التي أخذناها من المعاهد العليا الأربعة ومن كلية العلوم بقابس وإذا رجعنا إلى جدول النمو الذي قدمناه فإننا نلاحظ الملاحظات التالية حول تقدم ولاية قابس في نطاق التنوير إذ قفزت النسبة من 78% إلى 93% وفي المناطق الريفية من 33% إلى 88% وفي نطاق التزود بالماء الصالح للشراب من 48.6% إلى 88% وفي المناطق الريفية 32.7% إلى 68% وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تقارب الإصلاح في مناطق المدينة والريف رغم أن شبكة التطهير من المناطق الريفية لازالت في حاجة إلى الدعم إذ بلغت حسب هذا الجدول 29% في سنة 1997.

كما تطور الميدان الصحي فأصبح عدد المراكز الصحية 71 مركزا حسب إحصاء سنة 1997 كما تطور عدد الأطباء فبلغ 176 طبيبا و 881 إطارا طبيا وأصبح لكل 1875 ساكنا طبيب واحد بعدما كان لكل 2428 ساكن طبيب وذلك في سنة 1987 وتطور عدد المستشفيات من 460 مستشفى إلى 582 مستشفى. وقد تطورت الناحية الثقافية فتضاعفت المراكز الثقافية في عهد التغيير من 12 مكتبة إلى 24 مكتبة وأصبح لكل 13750 ساكن مكتبة بعدما كان لكل 19425 ساكن مكتبة كما تطور عدد دور الشباب والثقافة من 10 دار إلى 19 دار وأصبح لكل 17370 دار شباب وثقافة بعدما كان في 1987 لكل 23310 دار شباب وثقافة

---

(4)المصدر الإدارات الجهوية للتعليم بولايات قابس ومدنين وتطاوين وقبلي وقفصة وتوزر حسب إحصاء 15 ديسمبر 1999

(5) لقد قدمت فعلا هذه الدراسة وتمت المصادقة عليها ونحن بصدد تحرير هذا الكتاب وسوف يفتح المعهد أبوابه في السنة الدراسية القادمة سنة 2000-2001 بالمدرسة الابتدائية علي الجمل وسط المدينة بعد تحويرها وإعدادها لهذا الغرض (فعلا فتح هذا المعهد ونحن بصدد طبع الكتاب بصورة رسمية)

وفي الـميدان الفلاحـي(6) لقـد ازدادت المساحة السـقوية في ولايـة قـابس فبلغت 9500 هكتار بعدمـا كـانت في سـنة(1987) 8300 وتطـور عـدد الآبار العميقـة من149 بئرا إلى216 بئرا وإذا تصفحنا التقرير الشهري(7)الذي تقدمه المندوبية الفلاحية بقابس إلى سلطة الإشراف فإننا نجد

1- استبشارا بنزول الغيث النافع في أغلب مناطق قابس.

2- فـيما يخص الإنـتاج النـباتي فهناك تحسن ملحوظ في المساحة المبذورة حيث وصلت إلى حدود 20 ألـف هكتارحـبوب وبقـول أما الـرمان فقـد سـجل تحسـنا في الكم والكيف حيث قدر الإنتاج بحوالي 19800 طن صدر منها 484 طن وبالنسبة للتمور فقد تطور هو الآخر فبلغ هذه السنة مقـدار 14500 طن منها 6000 طن كنته أي بزيادة 500 طن مقارنة بالسنة الماضية وقد وقع تركيز تمثيـلية "لـلمجمع المهني للتمور" بالجهة لأول مرة لأن قابس في الواقع لا تنتج الدقلة لأن مناخها بحري وتنتج نوعية من التمور الأخرى مثل الكنتة واللمسي والرشدي والبوحطم وغيره مـن الأنـواع التـي تؤكل بلحا ويجففون بعضها مثل أنواع الحلواي وقرن غزال والفليان والتمري والعقيـوة وغيرهـا ويؤكـل البعض الآخر وقد تحدثنا وتحدث المؤرخون في الماضي عن أنواع التمور المنتجة في قابس وعن أهميتها.

لقـد أشـرف السـيد كـاتب الدولـة للفلاحة المكلف بالمياه والصيد البحري يـــوم الثلاثـــاء 1999/09/28 بالحامـة عـلى اجـتماع جهـوي حضـره جمـع مـن الخبراء والباحثين لبحث إنتاج الـتمور بالـمنطقة وخصوصـا ذات الجـودة العاليـة، كما يشير التقرير إلى العناية بشجر الزيتون فقـد وقعـت مـداواة ذبابـة الزيـتون فشـملت العمـلية 291.600 أصـلا وتعتـبر الحالة الصحية جيـدة، وقـدرت الصـابة 32 ألف طن وبدأ عصر الزيتون منذ 1999/11/01 أي منذ أكثر من شـهر مـن هـذا العام، وقد تعصر عدد من معاصر الزيتون(8 معاصر عصرية حاليا) من جملة 59 معصـرة وتـناقص عصر الزيتون بالطريقة العتيقة التقليدية سواء بالحجارة أو بالحيوانات والعملية جارية الآن على قدم وساق وتقرر في نطاق الزيادة في غراسة عود الشجر على اختلاف أنواعهـا تكـثيف هـذه الـزيادة إذ يقـع الاستعداد لغراسة 120.000 أصل منها 90 ألف في نطاق المشاريع الجهوية وهي موزعة كما يلي.

النـــوع	عـــدد الأصـــول
الزيتون	67.500
تفاح	10.000
مشمش	10.000
خوخ	2.500
الجـــملة	90.000

(6) حسب تقديرات المندوبية الفلاحية لولاية قابس

(7) التقرير الشهري حول الوضع الفلاحي لولاية قابس لشهر نوفمبر 1999

الزراعات الجيو حرارية:

لقد تطور هذا النوع من الزراعة وسجل في السنة الفارطة إنتاج 3500 طن وقع تصدير 1500 طن منها إلى الخارج وتعزز هذا القطاع بدخول مشروع ''ساج'' طور الاستغلال على مساحة تقدر بـ 5 هكتار كذلك توسع مشروع الفصل الخامس بزيادة 2.75 هكتارا أما المساحات المتوقع غراستها في السنة القادمة أي عام 2000 فتقدر بـ 49 هكتارا موزعة كما يلي:

طماطم 35 هكتارا	- فقوس 2.5 هكتارا
بطيخ 10 هكتارات	- أنواع مختلفة 1.5 هكتارا

لقد تقدم الإنجاز في الوقت الحاضر فبلغ 37.2 هكتارا وقد انطلقت عملية تصدير الطماطم يوم 1999/11/02 أي منذ شهر تقريبا حيث بلغت 11295 طن في تاريخ 21/11/1999، كما وقع الاستعداد للزراعات الشتوية فانطلقت الأشغال التحضيرية استعدادا لشهر رمضان فبلغت المساحات المزروعة 2250 هكتارا من الخضروات المتنوعة(كلافس، معدنوس، بسباس، بصل، جزر، لفت... إلى غير ذلك) وهي تكفي حاجيات الجهة وزيادة ويمكن أن تصدر كمية منها إلى الولايات المجاورة والجدول التالي يعطينا فكرة عن ذلك:

لفت 400 هكتارا	ثوم 60 هكتارا
جزر 600 هكتارا	خضر ورقية 350 هكتارا
بصل أخضر 600 هكتارا	مختلفات 300 هكتارا

والمندوبية الفلاحية في قابس تشرف على القروض الفلاحية كما تساهم في المحافظة على المياه والتربة والغابات وذلك بتثبيت الرمال بالغراسات وإحداث الطوابي وتعليتها وتهيئة المنابت والعناية بالغرسات وتعهد المسالك.

كما أن قسم الهندسة الريفية يشرف على المياه الصالحة للشراب بالمناطق الريفية مثل مشروع أولاد "عقوب وعقاربة والبياض وواد زايد وسعيدان وذراع وذرف والشمالات والزقابة وتوجان..." كما تهتم المندوبية بالإنتاج الحيواني ومراقبته صحيا من الحمة القلاعية(تم تلقيح 2356 رأس بقر و 40840 رأس غنم و 8170 رأس ماعز لفائدة 921 مربي) والحمى المالطية والجرب وداء الكلب والزلة إلى غير ذلك من الأمراض التي تصيب الحيوان.

كما تتم مراقبة الحليب عن طريق زيارات ميدانية إلى مراكز تجميع الحليب وكذلك مراقبة المنتوجات البحرية والأسواق البلدية ومصانع العلف المركز. لذا فإن المندوبية الفلاحية تقوم بدور فعال في تطوير الفلاحة في قابس وهي عنصر أساسي لحياة السكان كما تدر على الفلاحين الخير العميم وبذلك تساهم قابس في تحسين الدخل القومي للبلاد وتحاول بأن ترجع المكانة التي كانت تتمتع بها قابس عبر العصور إذ كانت تزود القيروان وصفاقس وسوسة ومدنين وتطاوين وقبلي وتونس وغيرها من المدن بما تنتجه من تمور وخضر وغلال.

الصناعة في قابس:

لقد تطورت الصناعة في هذه الفترة إذ تمثل الصناعة بولاية قابس مكانة متميزة في الاقتصاد الجهوي والقومي وتشغل 16407 موطن شغل بالإضافة إلى توفير حاجيات السوق من رخام وجليز ومقاطع حجارة ورمال وتصدر كمية من الإسمنت والصناعات الكيميائية إذ توفر بذلك العملة الصعبة التي تساهم في الدخل القومي وتأتي ولاية قابس في المرتبة الثالثة بالنسبة لوحدات الصيانة والتعهد والتركيب المعدني والاستصناع الميكانيكي وقد بلغت الاستثمارات الجديدة خلال العشرية 118.4 مليون دينار وساهم فيها القطاع العام بـ 66.7 مليون دينار أي بنسبة 65% (8) والجدول التالي يعطينا فكرة عن الاستثمارات المنجزة خلال العشرية 1987-1997 .

القطاع	الاستثمارات م.د	النسبة
الصناعات الكيميائية	82.2 م-د	%70
صناعات مختلفة	7.0 م-د	%6
الصناعات الميكانيكية والكهربائية	12.0 م-د	%10
النسيج والجلود والأحذية	3.5 م-د	%3
مواد بناء وخزف وبلور	10.0 م-د	%8
صناعات غذائية	3.7 م-د	%3
الجملة	118.4 م-د	%100

ومن أهم الاستثمارات العمومية المبرمجة في المخطط التاسع في نطاق الصناعة:

- إحداث وحدة ثالثة لإنتاج سماد الداب 55 مليون دينار
- استثمار وترشيد الإنتاج بالمجمع الكيمياوي 30 مليون دينار
- استثمارات بيئية تهم مشروع وحدة معالجة الفوسفوجيبس 120 مليون دينار. ونتيجة لتطور هذه الصناعات المختلفة في قابس فقد ارتفع حجم الصادرات في الجهة في الفترة المتراوحة بين 1987-1997 من 158 م-د إلى 403 م-د وهذه المنتوجات المصدرة تشتمل على المواد الكيمياوية الفليور وكلينيك إسمنت ثم الجبس واللصاق والقريفي وبودرة الكلس الأبيض والمواد الجلدية والتمور والرمان والغلال والباكورات والأدوات المنزلية والنسيج والملابس الجاهزة والخزف.

(8) انظر مجلة 7 نوفمبر عشرية الخير والنماء إصدار لجنة التنسيق الحزبي للتجمع الدستوري الديمقراطي بقابس

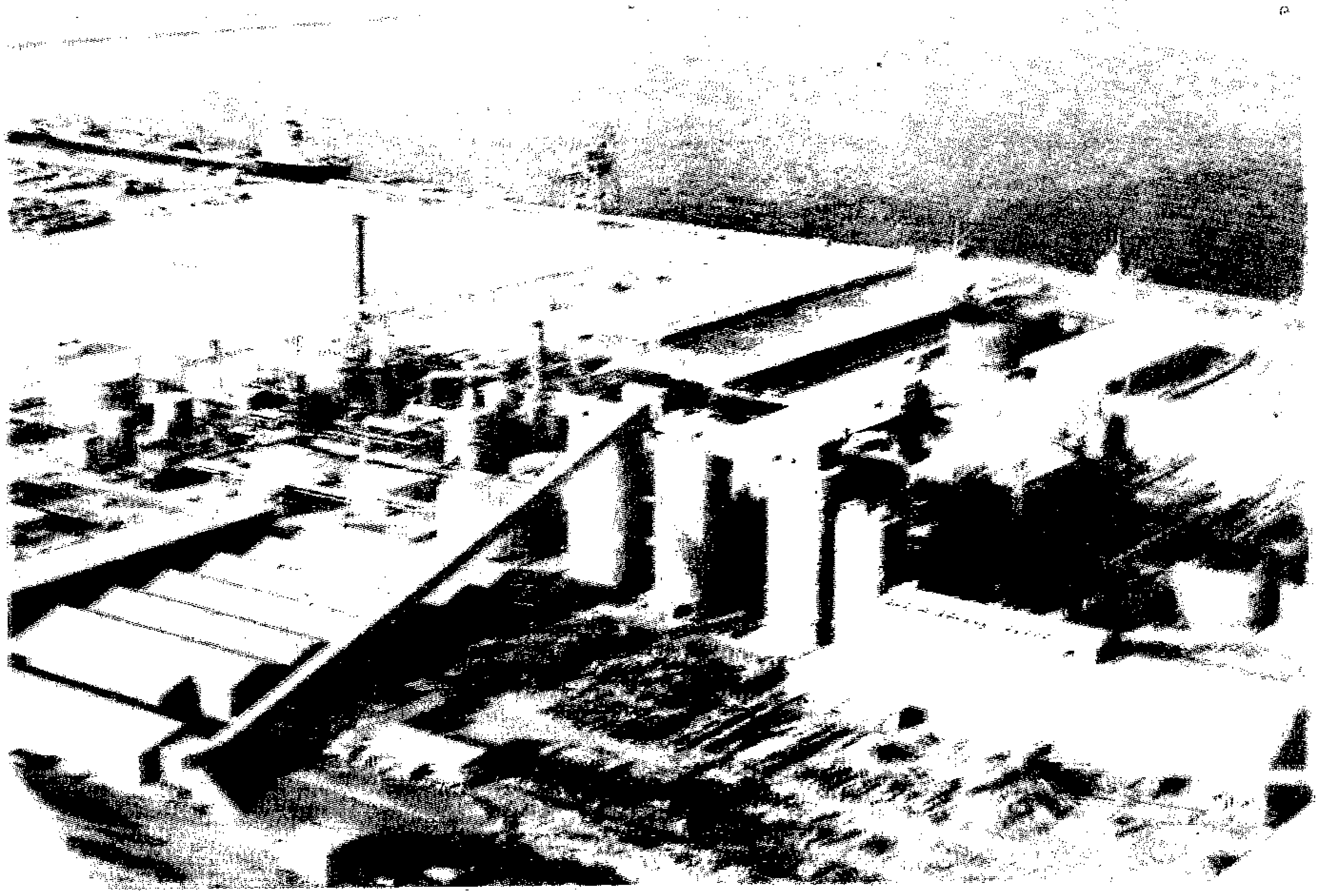

صورة من المركب الكيماوي بقابس

وامتازت قابس بالإضافة إلى الصناعات التي ذكرناها بتنوع صناعاتها التقليدية منذ القديم فبفضل توفر المواد الخام من سعف وصوف وحجارة وطين فقد تطورت صناعة السعف على اختلاف أنواعها من مظلات ومراوح وقفاف وغيرها... وكذلك صناعة المرقوم والزربية والكليم والبخنوق والبرنس والعجارات والفليج وغيرها...

وقد شجعت الدولة هذه الصناعات بالقروض والمنح(9) إذ بلغت في سنة 1987-1997 ما قيمته 140 ألف دينار استفاد منها 7203 مواطنا وقد تكونت مدارس صناعية لهذا الغرض لتطويرها وانعقد في الأيام الأخيرة في تونس ملتقى عالمي حول هذا الموضوع وتبين أن تونس قد قطعت خطوات هامة في ميدان الصناعات التقليدية كما عبر المشاركون في الملتقى عن ذلك.

أما في الميدان السياحي فبالرغم من أن قابس قد حوت مناظر طبيعية خلابة واشتملت على المتناقضات إذ حباها الله بطبيعة لا توجد في غيرها من المناطق فهي تقع على البحر وسط واحة جميلة تحيط بها من أغلب جهاتها كما احتوت على الصحراء والجبال لذا فإن استغلال هذه العطايا والمنح الطبيعية التي حباها الله بها ضروري ومتأكد ونظرا إلى بناء المركب الكيمياوي في البحر تضررت قابس في البداية بهذه الناحية إذ أصبحت قابس منطقة عبور لأن السائح لا يرغب في زيارة المناطق الصناعية والإقامة بها لأنه قادم منها ويريد الترويح عن النفس. لذا فقد فكر المسؤولون في قابس بتوجيه من السلط المعنية على أن يقع التوجه السياحي إلى الناحية الجبلية والصحراوية خصوصا منطقة مطماطة ووقع الربط بين ولايات

(9) نفس المصدر مجلة 7 نوفمبر تصدر عن لجنة التنسيق لتجمع الدستوري الديمقراطي

قبلي وقابس ومدنين عن الطريق الجبلي الصحراوي الذي يمكن السائح من المرور إلى هذه المناطق ذهابا وإيابا كما تحدثنا عن ذلك عند حديثنا عن منطقة مطماطة. كما تقام حاليا دراسة سياحية ساحلية في جهة ما يسمى بالإماوة بعيدا عن المنطقة الصناعية واعتقد أن هذا الاهتمام بهذه الناحية سيوفر للجهة مدخولا جديدا وسيشغل عددا هاما من اليد العاملة وقد أشرنا إلى ذلك سابقا.

المعارض الاقتصادية في قابس:

كانت السلع منذ السابق تقام في الأسواق سواء عن طريق السوق اليومي أو السوق الأسبوعي الذي يتجمع فيه الناس في وقت واحد وفي مكان واحد وقد تتحول الأسواق من منطقة إلى أخرى. أما في الوقت الحاضر فبالإضافة إلى هذه الأسواق فإنه تقام معارض محلية أو جهوية(10) أو قومية أو عالمية فقد تحول معرض قابس المنتصب على ساحل البحر في بناية ضخمة من أيام تجارية كانت تقام قرب الأسواق وفي مكان متسع(المعاهد، الفضاءات بصورة وقتية) إلا أنه بعد تطور هذا المعرض أصبحت له تقاليد وبذلك أصبح له قانونه الخاص واستقل بالإضافة إلى قيام المعارض طيلة السنة فإنه أصبح يحتوي على قاعات أفراح تستغل من طرف المواطنين بمناسبة الأعراس فيقوم المعرض الآن بدوره الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وقد بلغت تكاليف بنائه 1619.7 ألف دينار

صورة لبناية المعرض

تحلية المياه بقابس:

من أهم الإنجازات التي تمت في قابس هو إتمام مشروع تحلية المياه لأن ماء قابس كان غير مقبول للشرب بالنسبة لمياه الجمهورية التونسية وقد تحدث عنه المؤرخون القدماء وقالوا أن مروره عن طريق عروق الدفلة يكسبه حمية وحرارة وقد بلغت ملوحة ماء قابس 2.80غ لذا

(10) أول معرض أو أيام تجارية أقيم في المدرسة الابتدائية فرحات حشاد(التي تحولت إلى مدرسة إعدادية حاليا وذلك في سنة 1966-1967(الدورة البلدية الرابعة)

فإنه تقرر إنجاز مشروع تحلية مياه قابس في 19 نوفمبر 1988، وتم إنجازه فيما بين فيفري 1993 وجوان 1995 بتكاليف تقدر بـ 25.6 م-د وهو يعد مفخرة من مفاخر العهد الجديد إذ وصل إلى أهالي ومدن قابس والحامة والمطوية ووذرف وغنوش وبوشمة وشط سيدي عبد السلام وتبلبو... وقد تحدثنا عن النسبة المائوية التي بلغتها ولاية قابس في ميدان توفير مياه الشراب سواء في المناطق المدنية أو المناطق الريفية فهي نسبة عالية وهي في تطور مستمر حسب الجدول الخاص بتطور نسبة النمو في ولاية قابس.

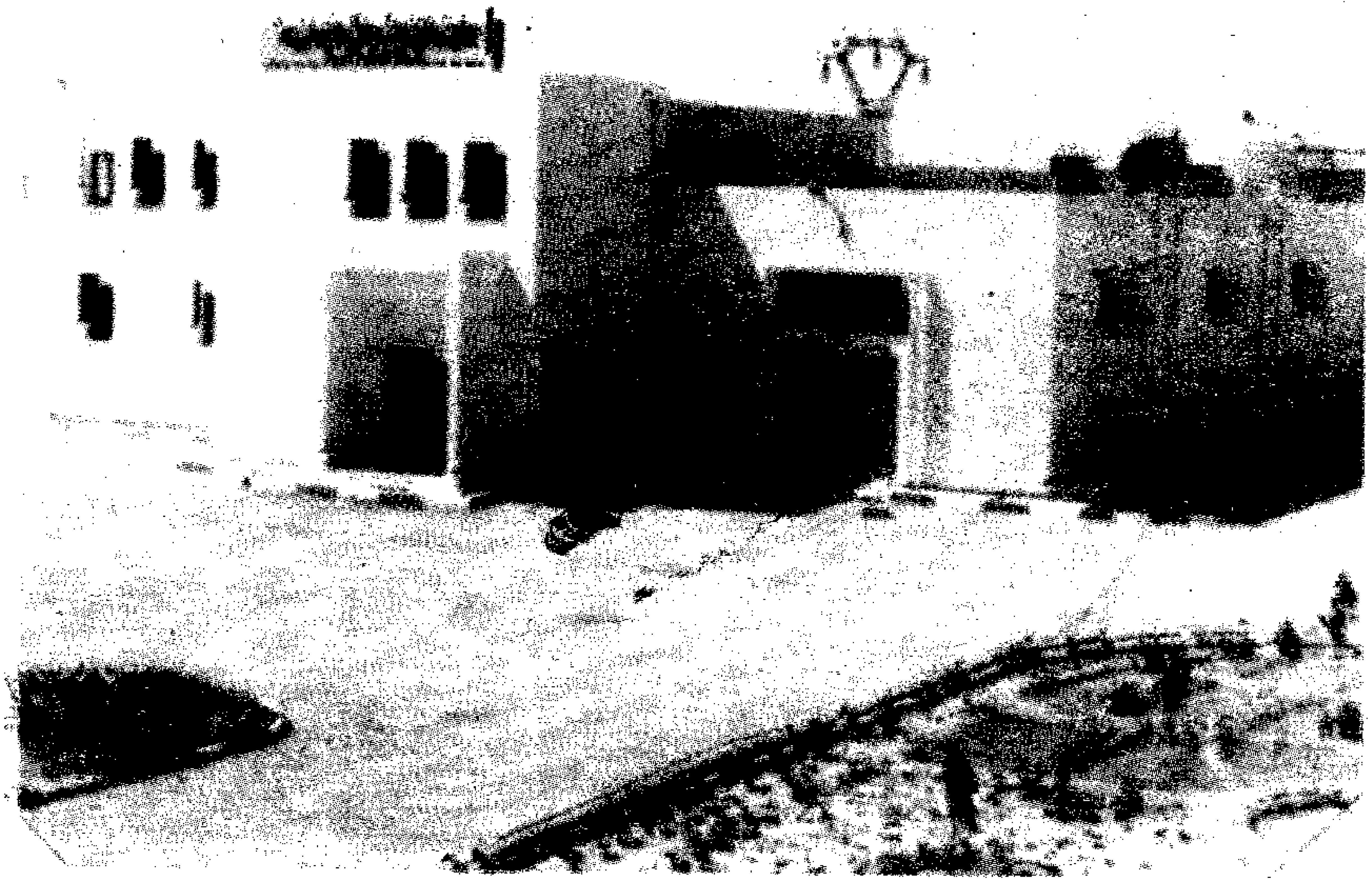

مركز تحلية المياه بقابس

النقل في قابس:

لقد تطور النقل في قابس بجميع أنواعه من نقل بري وبحري وجوي وحديدي.

لقد واكب قطاع النقل مسيرة التنمية ووقعت خوصصة شركتين لنقل البضائع كما وقع التشجيع على بعث شركات خاصة فبلغت 8 شركات تخص نقل البضائع وتمكن 25 ناقلا من تراخيص استغلال لنقل البضائع وقد بنيت محطة للنقل البري بقابس كما بني القسط الأول من محطة نقل المسافرين بالحامة وتجدد أسطول سيارات الأجرة والتاكسي كما وقع تجديد أسطول النقل العمومي فأصبح يحتوي على 140 حافلة عصرية في سنة 1999 وسوف تتحول في أقرب الأوقات محطة القطارات وكذلك إدارة النقل إلى ما وراء محطة النقل الحالية بالقرب من السكة الحديدية(بين السكة وواد قابس الجديد).

وبالنسبة للنقل البحري فقد تحسنت البنية الأساسية للميناء التجاري وأصبحت بعض السفن السياحية ترد على قابس بالإضافة إلى السفن التجارية التي تحمل إنتاجات المركب الكيماوي المختلفة وقدرت التكاليف التي وقع القيام بها في نطاق التحسين ما يناهز 10.610 ألف دينارا

كما وقعت حماية الخطوط الحديدية من زحف الرمال وتجديد الخطين رقمي 12 و21 بالإضافة إلى تحسين المحطات واقتناء معدات السكك وقد بلغت تكاليف ذلك بمقدار 4 مليون دينار.

أما بالنسبة للنقل الجوي ونظرا إلى أن المطار الحالي الواقع وسط المدينة لا يفي بالغرض فإنه تقرر إنجاز مطار جديد خارج المدينة وقد تحدثنا عن ذلك عند حديثنا عن مطماطة لأن المطار الجديد يقع بالقرب من جهة مطماطة وقدرت تكاليف هذا العمل بمقدار 20 مليون دينار وهو بصدد الإنجاز وسيكون صالحا للأغراض العسكرية والمدنية مبدئيا.

الطرقات والجسور:

لقد تطورت الطرقات والجسور بجهة قابس في نطاق تدعيم البنية الأساسية وذلك تماشيا مع مسيرة التنمية وقد قدرت تكاليف هذه المشاريع بما قدره 26.2 م د وهي تتمثل في

1- بناء وتهذيب طرقات جديدة 505.7 كلم 21.8 م د

2-تحسين طرقات(بدون تغليف) 16 كلم 0.4 م د

3- بناء جسور جديدة 11 جسر 0.4 م د

وبلغت شبكة الطرقات 2.342 كم والأشغال جارية الآن ومنذ ما يزيد عن ستة شهور في كل مدينة وقرية من ولاية قابس لتعبيد الطرقات وتحسينها وقد بلغت التكاليف إلى حد الآن(ديسمبر 1999) 2.555 م د وسوف تتواصل الأشغال حسب تصريح المسؤولين في الولاية والبلدية والأشغال العامة حتى في السنة القادمة.

تطور السكن في قابس:

لقد تحدثنا عن تطور النمط السكني في قابس منذ العهود القديمة وقد عرفنا بأن السكنى الجماعية للعائلة هي الطاغية في تلك الأزمنة ثم تطور الوضع وأصبح الأخوة وكذلك الأبناء ينفردون بالسكنى فانتشرت المساكن ذات الطوابق والفيلات سواء عن طريق البناء العمومي أي الشركات العقارية أو عن طريق الخواص فقد وضعت في قابس مقاسم للسكنى على مساحة 174هكتارا بتكاليف جملية بلغت11367دينارا خاصة بالوكالة العقارية للسكنى قد ساهم القطاع العمومي في بناء 729 مسكنا صنف اقتصادي واجتماعي بلغت قيمتها10946ألف دينار كما أنه وبواسطة القروض السكنية تمكن الخواص من إنجاز 9860 مسكنا جديدا بتكاليف بلغت 197.874 ألف دينار بالإضافة إلى بناء الخواص مساكنهم دون اللجوء إلى القروض.

العناية بالشؤون الدينية:

لقد تطورت العناية بالشؤون الدينية في هذا العهد فقد بنيت الجوامع والمساجد ووقع الاعتناء حتى بالزوايا والأضرحة والمآثر الدينية بها.

-بناء جامع جديد سميناه بجامع التوسعة وراء ضريح الصحابي أبي لبابة(بناه السيد الهادي البوشماوي)وهو يعتبر مفخرة من مفاخر تونس لأنه قد لبى حاجيات الجهة من حيث الفضاء الديني والثقافي وأصبح جزء من الأنشطة الثقافية التي تقام به مثل (مناسبة المولد النبوي الشريف والاحتفال بـ17و27رمضان ونشاطات المهرجان الدولي بسيدي أبي لبابة الأنصاري).

- تجديد الجناح الخاص بمدخل النساء بإعانة رئاسية قدرت بـــ 80 ألف دينار وهو منجز الآن

- تهديم الأقواس التي ذكرناها عند حديثنا عن الصحابي أبي لبابة لأن الأعمدة الجديدة المركبة في الجهات الأربعة للضريح قد اعترتها الشقوق والأشغال الآن جارية على قدم وساق لإبدالها بحجارة صلبة أخرى وهي أشغال أيضا بمنحة رئاسية قدرت بـ 143 م د. (لقد تمت هذه ونحن بصدد طبع الكتاب بصورة رسمية).

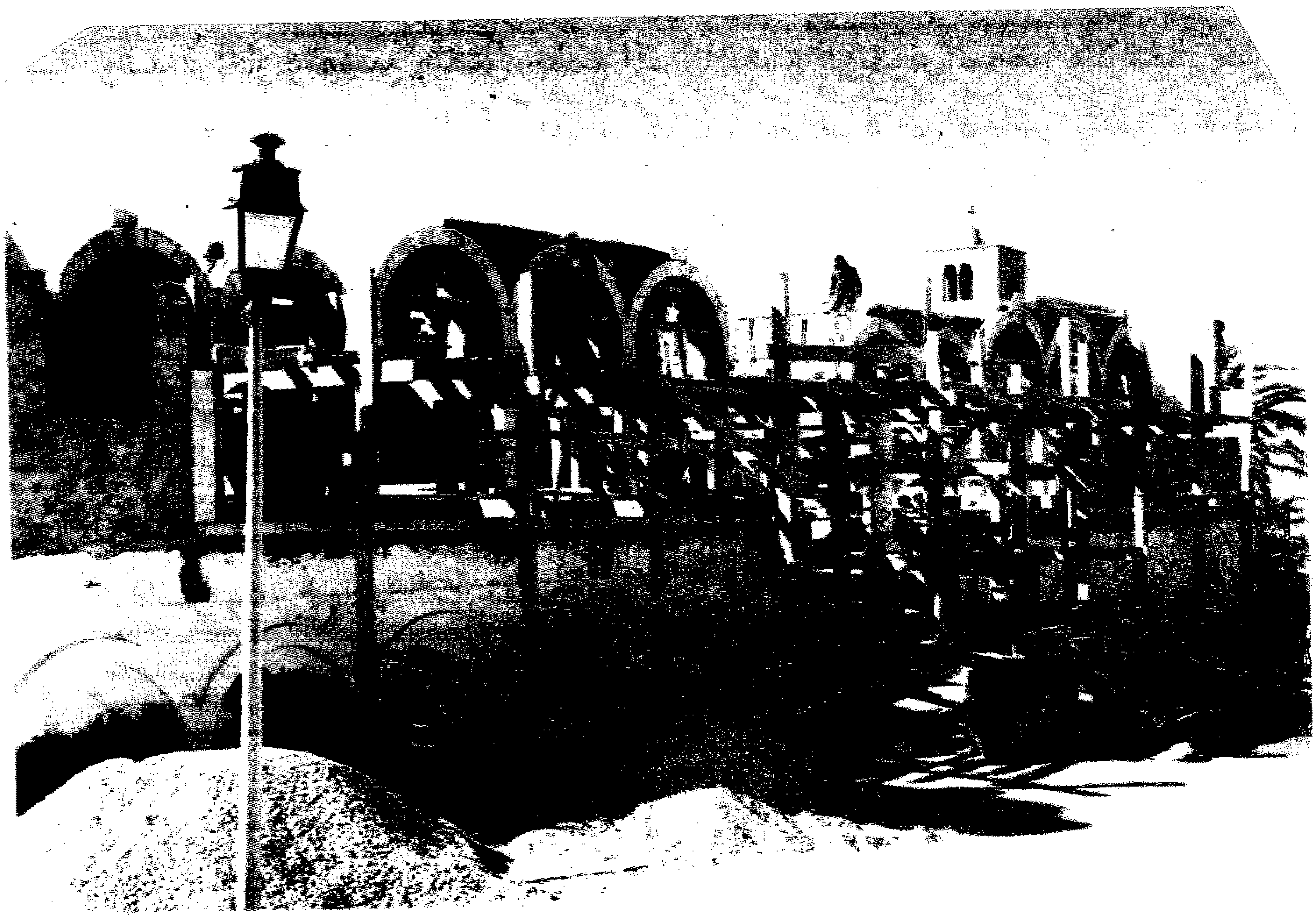

صورة للأشغال الجارية الآن بضريح الصحابي ابي لبابة

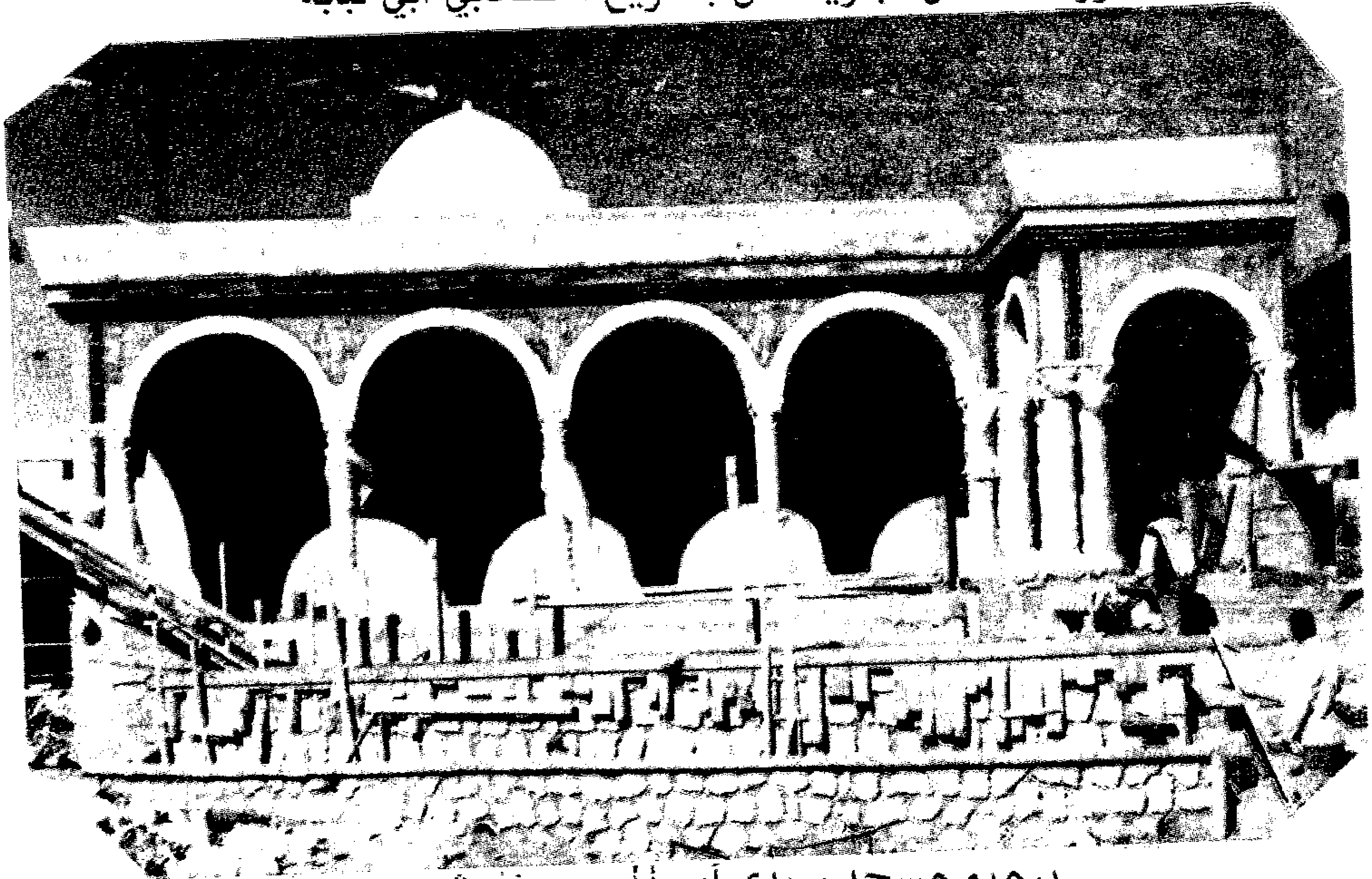

ترميم مسجد سيدي آبي الحسن بغنوش

كما وقع تجديد ضريح سيدي يحي الحمروني بعرام بمعتمدية مارث وبمساعدة رئاسية قدرت بـ184 مليون دينار وكذلك ضريح سيدي أبي الحسن بغنوش وقدرت التكاليف بـ105مليون دينار والأشغال جارية الآن.

كذلك وقعت العناية بزاوية سيدي احمد التيجاني في قابس وبلغت التكاليف لحد الآن بـ 50 ألف دينار وقد تم إنجاز وتوسيع ونقش جامع المنزل(الفرع الزيتوني سابقا) والأشغال جارية الآن في جامع جارة وهو على وشك الإنجاز ويعتبر الجامعان مفخرة من مفاخر الإسلام إذ قد تم بناؤهما عن طريق الخواص والإعانات الداخلية والخارجية والرئاسية. وقد تحدثنا عن الأشغال التي قام بها المعهد القومي للآثار فيما يخص جامع سيدي إدريس والأشغال جارية إلى الآن وكذلك المدرسة المرادية وسيدي عبدالسلام.

النشاط الجمعياتي في قابس في هذا العهد:

لقد تعددت الجمعيات في قابس ووقع تنشيطها لتعمل ضمن التجمعات لخدمة البلاد وبعث الروح الوطنية في الشباب على اختلاف مشاربهم والإحصائية التالية تعطينا فكرة عن عدد الجمعيات في قابس وعن دورها الذي تقوم به:

عــــدد الجمعيات	النشاط الجمعياتي
25 جمعية	الجمعيات الرياضية المدنية
31 جمعية	الجمعيات الثقافية الفنية
14 جمعية	الجمعيات التنموية
11 جمعية	الجمعيات الإسعافية والخيرية والاجتماعية
4 جمعية	الجمعيات العلمية
جمعية واحدة	الوداديات
4 جمعية	الجمعيات ذات الصبغة العامة
160 جمعية	جمعيات العمل التنموي
248 جمعية	الجمـــلة

الرياضة والطفولة والشباب

لقد وقعت العناية بالرياضة في قابس وخصوصا الرياضة المدرسية وواكبها تطور في البنية الأساسية للرياضة إذ يوجد بقابس ملعبان أساسيان معشبان ملعب رئيسي وملعب

فـرعي كما توجد قاعة مغطات ومدارج بالإضافة إلى الملعب الرياضي القديم ملعب عمر دغمان مع المدرج. لقد تطورت المنشآت خلال العشرية الماضية وكانت كما يلي:

النـــــــوع	السنة 1987	السنة 1997
ملاعب مختلف الرياضات	16	22
المدارج	1	7
قاعة مغطاة	0	1
مضمار ألعاب قوى	1	6
ملاعب معشبة	0	2
ملاعب أحياء	0	19
الجمعيات المدنية	13	25
الجمعيات المدرسية	34	62

إلا أنـه مـع الملاحـظ أن النـتائج الـتي تتحصـل عـليها الجمعيـات المدنية غير مرضية وخصوصا الرتب التي تعمل بها وهي لاتمثل السمعة الرياضية التي كانت تتمتع بها قابس عبر الـتاريخ وهـي الـتي تزود وزدت الجمعيات الرياضية القومية بأمهر اللاعبين كما أن النتائج التي كـانت تتحصـل عليها الجمعيات المدرسية هامة ووصلت إلى المباراة القومية في تونس(وصل فريق كـرة اليـد بـالمعهد الـثانوي ابـن خـلدون إلى التـباري مـع المعهـد العـلوي بـتونس وتحصـل عـلى الكأس).وقد بلغت الاستثمارات التـي صرفت في نطاق الطفولة والشباب والرياضة كما يلي:

الطفولة 460 ألف دينار 8.0%

الشباب 2123 ألف دينار 36.0%

الرياضة 3303 ألف دينار 56.0%

الجملة 5.886 ألف دينار

وفي نطـاق الطفولـة تم إنجاز قصـر لـلطفولة(المركـز الجهوي للإعلامية الموجه للطفل) وتمتيع الأطفال بخدمات المعهد الجهوي للموسيقى فأصبح عدد المؤسسات:

المؤسسات	1987	1997
رياض الأطفال	9	58
قصر الطفولة	0	1
المحاضن	0	2
وسط طبيعي	0	1
نوادي أطفال	0	10

كما تطور عدد دور الشباب والثقافة من 10 إلى 19 دار، ومراكز التخيم والاصطياف من واحد إلى 2 مراكز ونوادي الشباب الريفية من 0 إلى 20 نادي، وبلغ عدد السكان لكل دار شباب وثقافة من 23310 إلى 17.370 ساكن وهو في تناقص مستمر بفضل العناية التي توليها السلطة للشباب.

العناية بالمرأة في هذا العهد:

تمثل المرأة نصف المجتمع لذا فقد سعت حكومة الاستقلال منذ عهد الرئيس بورقيبة إلى إعطاء المرأة كامل حقوقها إذ أن صدور "مجلة الأحوال الشخصية" يعتبر خطوة تقدمية خطتها تونس نحو تقدم البلاد وازدادت العناية أكثر في عهد التغيير نظرا إلى أن الأسرة عموما والمرأة بالأخص تمثل أحد الاختيارات الثابتة لتونس التغيير كما أن المنزلة المتميزة للمرأة التونسية داخل هذا الوطن وخارجه والعناية التي تمتعت بها بواسطة القرارات والإجراءات الرائدة التي سنت لفائدتها فأصبحت ممثلة في الحزب بتسمية كاتبة عامة مساعدة للأمين العام للحزب وكذلك تواجدها بنسبة معقولة داخل الهياكل التجمعية في خلية(الشعبة والجامعة) كذلك داخل الهياكل التجمعية مثل البلدية وغيرها وكذلك استقطاب الكفاءات النسائية وتمكينها من فرص المشاركة في النشاط التجمعي وفي غيره من الأحزاب الأخرى إذ نجد المرأة متواجدة حتى في أحزاب المعارضة. وفي قابس إلى جانب الاتحاد الوطني للمرأة التونسية فقد بعثت جمعيات أخرى

1- جمعية صديقات المستشفى تهتم بالمرضى وتزورهم في المناسبات

2- جمعية أمهات قابس

3- جمعية التوازن الأسري

ويتفرع عن هذه الجمعيات 30 فرعا للاتحاد الوطني و 10 جمعيات محلية للتوازن الأسري كما توجد في قابس عضوة في اللجنة المركزية للحزب وعضوة كاتبة عامة مساعدة مكلفة بشؤون المرأة للحزب في قابس ورئيسة مساعدة لرئيس البرلمان التونسي 30 فريق عمل نسائي يعمل ضمن اللجان 21 عضوة في الجامعات الدستورية 372 عضوات في الشعب الدستورية 214 عضوات في الخلايا النسائية 2 عضوات في اللجنة المركزية للاتحاد الوطني للمرأة 30 فرعا للاتحاد في مختلف المعتمدات 6000 مشتركا في نوادي الاتحاد. وقد أنجز فرع الاتحاد الوطني للمرأة(النيابة الجهوية) دارا للمرأة بقابس بتكاليف قدرت بـــ 150 ألف دينار.

الميدان الصحي في قابس:

لقد تعززت البنية الأساسية في ميدان الصحة خلال العشرية الماضية وذلك بإحداث مصحات جديدة وتدعيم التجهيزات الطبية وتعصيرها رغم أن الوضع يحتاج إلى عناية أكثر لأن الميدان الصحي هو الذي يعطي فكرة عن تطور البلاد وتقدمها والصحة للجميع هي علامة من علامات تطور الشعوب خصوصا في هذا العالم المتقدم والمتطور ففي كل يوم نطلع على الاكتشافات والاختراعات لأدوية جديدة حتى للأمرض المزمنة والخطيرة.

ومن الإحصائيات التالية(11) نطلع على الوضع الصحي الذي وصلت إليه جهة قابس.

المراكز	العدد	عدد الأسرّة
مستشفى جهوي	1	360 سريرا
مستشفيات محلية	4	136 سريرا
مصحات خاصة	2	86 سريرا
مراكز تصفية الدم	2	
أطباء الصحة العمومية	90	
إطارات شبه طبية	830	
مراكز رعاية الأم والطفل	4	
مركز جهوي للتنظيم العائلي	1	
مستوصفات	71	
نقاط تجمع	33	
صيدليات	36	
عيادات طبية خاصة	86	
إطار شبه طبي	51	

وقد وقعت إضافات خلال العشرية في الميدان الصحي فكانت كما يلي:

القطاع	البنية الأساسية	التجهيزات	الإطار
حكومي	5150 ألف دينار	2915 ألف دينار	30 طبيبا 317 شبه طبي
خاص	2260 ألف دينار	1915 ألف دينار	50 طبيبا 50 شبه طبي
جملة	7710 ألف دينار	4830 ألف دينار	80 طبيبا 343 شبه طبي

العناية بالمحيط في قابس:

لقد تحدثنا عن أثر الصناعات وخصوصا الصناعات الكيماوية على قابس فقد دعت الحاجة إلى ضرورة العناية بهذه الناحية، وبالرغم من أنها مبرمجة منذ نشوء هذه الصناعات لكن نظرا للتكاليف التي تبلغها فلم يقع الشروع فيها منذ البداية وقد قامت المركبات الكيماوية(12) بإصلاح الأوضاع وبلغت التكاليف بمقدار 40 م د وهي على الصورة التالية:

1- الحد من فضلات أكسيد الكبريت

(11) انظر عشرية الخير والنماء والتضامن التي أصدرتها لجنة التنسيق للتجمع الدستوري الديمقراطي

2- تطور طريقة الإنتاج للحامض الكبريتي إذ تناقص إفراز ثاني أكسيد الكبريت بمعدل83 %
3- القيام بوضع مدخنة جديدة طولها 70 مترا ليخف الضغط والتوزيع في أعالي الجو
4- وقعت العناية بالصيانة أكثر ووقع رصد 6.2 م د لهذا الغرض

وبذلك وقع حفظ تسرب ثاني أكسيد الكبريت من المداخن من 110 طن إلى 40 طن في اليوم وكذلك تقلصت الفضلات في مجموع الوحدات بأكثر من 85 %.

الحد من فضلات الأمونيا:

لقد وقع الحد من ظاهرة الضباب الصناعي وبذلك تقلصت الفضلات التي كان يرسلها من 14.4 طن في اليوم إلى 3 أطنان في اليوم.

التطهير وأثره على المحيط:

من العناصر الأساسية التي لها أثر على تلوث المحيط هو ميدان التطهير لذا فإنه قد وقعت العناية به عناية تامة خصوصا وأن قابس كما هو معروف اشتهرت بحاجة سكانها إلى الفضلات الحيوانية والبشرية لتسميد الغابة بصورة منتظمة. لذا فقد وقعت العناية بهذه الناحية لما لها من أثر على صحة الإنسان، فقد بلغت تكاليف الانجازات التي تمت خلال العشرية الماضية ما جملته 26.5 م د منها ما انجز ودخل طور الاستعمال 21.3م د فيما تتواصل المشاريع الأخرى ومن أهم ما تم إنجازه.

- بناء محطة تطهير قابس المدينة
- تمديد وتجديد شبكات التطهير في كل من قابس والحامة والمطوية وشني والنحال
- تصريف مياه الأمطار

وقد بلغ عدد المساكن المتمتعة بالتطهير 27.378 مسكنا كما بلغ عدد المشتركين 20.827 مشتركا وبلغت نسبة المنتفعين بالشبكة 83% وهي نسبة مقبولة بمنطقة قابس خصوصا إذا عرفنا أنها كانت تساوي صفرا في العهود الماضية.

لقد وقع الشروع في القيام بإتمام تطهير كل من مدينة الحامة(شبكة ومحطة) وغنوش(شبكة) ومشاريع أخرى خاصة بتصريف مياه الأمطار وكذلك تطهير مارث والزارات(شبكة ومحطة) ووذرف والمطوية(شبكة ومحطة)

المشاريع الجمالية في المدينة:

في نطاق العناية بالمحيط وقعت العناية بمداخل المدن وبوسطها إذ نصبت نصب وتماثيل رمزية في كل من قابس والحامة والمطوية وشنني ومطماطة.

الحدائق العامة والمنتزهات:

لقد تحدثنا عن ساحة عنبر التي أنشئت في قابس القديمة وتحدث عنها الشعراء والرحالة، وأسوة بأجدادنا وتماشيا مع التطور الحضاري الذي تسير عليه البلاد فقد أنشئت عدة حدائق ومنتزهات في قابس وفي المدن والقرى المجاورة لها وقد تحدثنا عن منتزهات شنني في نطاق المآثر التاريخية(الرحا والشرشارة والشلال ومنتزه أمل لمصطفى الوحيشي ومنتزه عبد الحفيظ فرحات) والتي تحدثنا عنها سابقا وبالإضافة إلى ذلك هناك منتزهان حديثان في مدينة قابس

فضاء أو منتزه الورود:

فضاء الورود أو منتزه الورود في تبلبو قابس أسس حديثا إذ قد وقع تدشينه في 13 جوان 1998 أي له سنة ونيف وهو فضاء ممتع يقع وسط غابة ليست بالكبيرة الحجم بل هي مستغلة استغلالا رائعا، ويكاد يكون هذا الفضاء في بداية الأمر فضاءا خاصا بالعائلات وبالأطفال إلا أننا نرى بأنه قد أنشئ لأغراض ثقافية ترفيهية أيضا إذ يحتوي هذا الفضاء على مسبح للأطفال(من 6 إلى 12 سنة) تقوم بتدريبهم على الرياضات المائية أستاذة مختصة في الميدان طيلة شهور الصيف كما يحتوي هذا الفضاء على ركن ألعاب الأطفال ومكان مخصص للعائلات وبه مجموعة من الطيور مثل العصافير والطاووس والبط الذي له حوض سباحة خاص، كما يملك هذا الفضاء شاشة عملاقة)3 م/ 3م) تعرض البرامج الخاصة للفرجة والمتعة مثل برامج RT الترفيهية والأفلام الكبيرة وغيرها، كما يقوم هذا الفضاء برحلات ثقافية للطلبة للتعريف بخفايا الجهة وتاريخ قابس أولا ثم اطلاعهم على جهات أخرى من الجمهورية.

وقد ضم هذا الفضاء مناظر طبيعية فالزائر له يشعر بالاطمئنان والراحة والهدوء والسكينة عند دخوله لأنه مظلل بأشجار العنب من كل جهة وبمختلف الورود والأزهار، ولقد نال هذا الفضاء إعجاب الزوار من التونسيين والأجانب، وينوي مديره الشاب محمد قاسم النوري تطويره وإحداث مرافق أخرى لجلب الرواد إليه رغم أن توسيعه عن طريق اقتناء بعض الأراضي من الأجوار فيه صعوبة في الوقت الحاضر نرجو أن يكلل هذا المجهود بالنجاح ليواصل عمله السياحي والثقافي الترفيهي.

مركب قلة للترفيه:

هـذا المـركب العجيب البديع الـذي يقـع علـى طـريق مطماطة وقع تدشينه في جوان 1999 وهو تاريخ بداية كتابة وتسجيل هذا الكتاب.

لقـد صـمم هـذا المـركب بطـريقة بديعـة إذ بـنـي بحجـارة قـابس القديمـة الـتـي جمعها واشتراها صـاحبها مـن المـنازل القديمـة في قابس وشنني وتبلبو لتحكي رواية تاريخ قابس المندثر رغم أن مديـره الشـاب الحـبيب بـن علـي الحـبيب ليس من المختصين في التاريخ لكن غيرته على إحياء تـاريخ قـابس وتصـميم هـذا المـركب بحجـارة كـانت قد مثلت أطوارا تاريخية قديمة جدا يدل على عـبقرية هـذا الشـاب ومـن سـاهم معـه مـن العائلة في استنباط هذه الفكرة التي لم يهتد إليها غـيره فحـتى أن أسمـاء الأمـاكن والأركـان الـتي يحويهـا هـذا المركب وقعت تسميتها بأسماء تاريخية قديمـة، فـاحدى المقـاهي سميت (بالعنبرية) نسبة إلى ساحة عنبر التي أشاد بها الشعراء قديما وقد تحدثـنا عنها عند حديثنا عن المعالم التاريخية والمنتزهات في قابس القديمة والمقهى الثاني داخل هذا المـركب سمـاه "بالقصـر" نسـبة إلى القصـور الـتـي بـنـيت في القديم مثل قصر العروسين وقصر أولاد نـاصـف وقصـر أولاد يعقـوب وقصـر أولاد الجـبالي، كمـا وقعـت تسـمية المطعـم بمطعـم "المدينـة" نسبة إلى مدينة قابس القديمة.

لقد وضع على باب الدخول للمركب أيضا اسم قصر العروسين الذي وجد بقابس فـي تاريخ دولة بني جامع مثلما وجد في قلعة بنـي حماد بالجزائر وتغنى بهما الشعراء وتحدث عنهما الكتاب واعتـبر بـأن قصـر بـنـي حماد هو تقليد لقصر العروسين بقابس نظرا لأقدمية هذا المعلم الذي وجـد بقابس قبل قلعة بني حماد. أما من حيث الفضاء الذي يضم هذا المركب فهو فضاء واسع علـى مسـاحة تقـدر بهكـتارين والـتكاليف الـتي صـرفت لإعـداده تقـدر بـــ 1.500.000 م د ويقرض من الدولة قدر بـــ 325.000 ألف د.

أما الأهداف التـي أنشئ من أجلها هذا المركب كما يقول مديره الأستاذ الحبيب بن علي الحـبيب(13) هـو المحافظة على البيئة وتمكين المواطن القابسي من التمتع بفضاء ترفيهي عائلي عـلاوة عـلى الأنشـطة الـثقافية الـتي يقـوم بهـا المركب، كما أن إعادة الاعتبار إلى مدينة قابس يعتـبر الهـدف الأول مـن هذا المشروع. يحتوي هذا المركب بالإضافة إلى المقهيين "مقهى العنبرية" و"مقهـى القصـر" و"مطعـم المديـنة" فهناك أركان خاصة بالعائلات وأركان للعب الأطفال سماها "جـنة الدنـيا" نسـبة إلى قابس الـتـي اشتهرت بهذا الاسم حسب تعبير المؤرخين القدماء. لقد دام بـناء هـذا المـركب 5 سنوات وبذل مجهود كبير للوصول به إلى الأهداف التـي أسس من أجلها. لقد جمـع صـاحب هذا المركز عدة أثار ووضعها في وسطه مثل الخوابي القديمة والأعمدة وآلات الحرث والحصـاد وتصـميم بـئر قديم بالطريقة التقليدية وحنفية عمومية قديمة كانت تنصب في أركان قابس المختلفة يملأ منها الناس إذ لا يوجد توزيع المياه داخل المنازل في ذلك الوقت.

(13) الأستاذ الحبيب بن علي الحبيب مهندس مختص (خريج الجزائر) اختار هذا العمل برغبة منه لإحياء تراث قابس القديم

ولقد نال هذا المشروع إعجاب المسؤولين بقابس والمسؤولين القوميين في تونس فلقد زاره وزير السياحة صلاح الدين المعاوي وأرسل رسالة إعجاب في ذلك كما زارته وزيرة البيئة والتهيئة الترابية السيدة فائزة الكافي وأرسلت رسالة إعجاب وشكر هي الأخرى كما أرسل السيد والي قابس الأسبق صلاح الدين العابد الذي عاش المشروع في بداية تنفيذه رسالة شكر وتقدير. وكذلك تحصل هذا المعلم في هذه المدة القصيرة على شهادة تقدير من وزارة البيئة والتهيئة الترابية وذلك بمناسبة اليوم الوطني والعالمي لحماية البيئة والمحيط وذلك.تقديرا لإنجاز هذا المنتزه السياحي الترفيهي البيئي نرجو لصاحبه كل التوفيق والنجاح ليواصل عمله.

بالإضافة إلى هذين المنتزهين هناك المنتزه القديم المتمثل في الحديقة العمومية المجاورة لوادي قابس قرب قنطرة DUGUE وهو من الحدائق التي وجدت منذ عهد الحماية وقد كانت به حديقة حيوانات تكونت أثناء الدورة الرابعة للبلدية في فترة الاستقلال والنية معقودة على إعادة تنظيم هذه الحديقة وتسويرها من جهة ضفة الوادي اليسرى وإدخال الوادي ضمن الحديقة وتكوين جمعية خاصة للرعاية والعناية بهذه المعالم البيئية السياحية والترفيهية، وكذلك الحدائق التي أقيمت في عهد الوالي السيد علي الطرابلسي أمده الله بطول العمر وحمد مسعاه لما يبذله من إنجازات هامة في قابس وهذه الانجازات تتمثل في العناية بضفة الواد الجديد حتى لا يكون مصبا للفضلات إذ غرست فيه الأشجار والأزهار والورود وسيصبح بحول الله منتزها هاما يضفي على قابس الجمال والبهجة.

منظران لمنتزه " فلّـــــة" الترفيهي

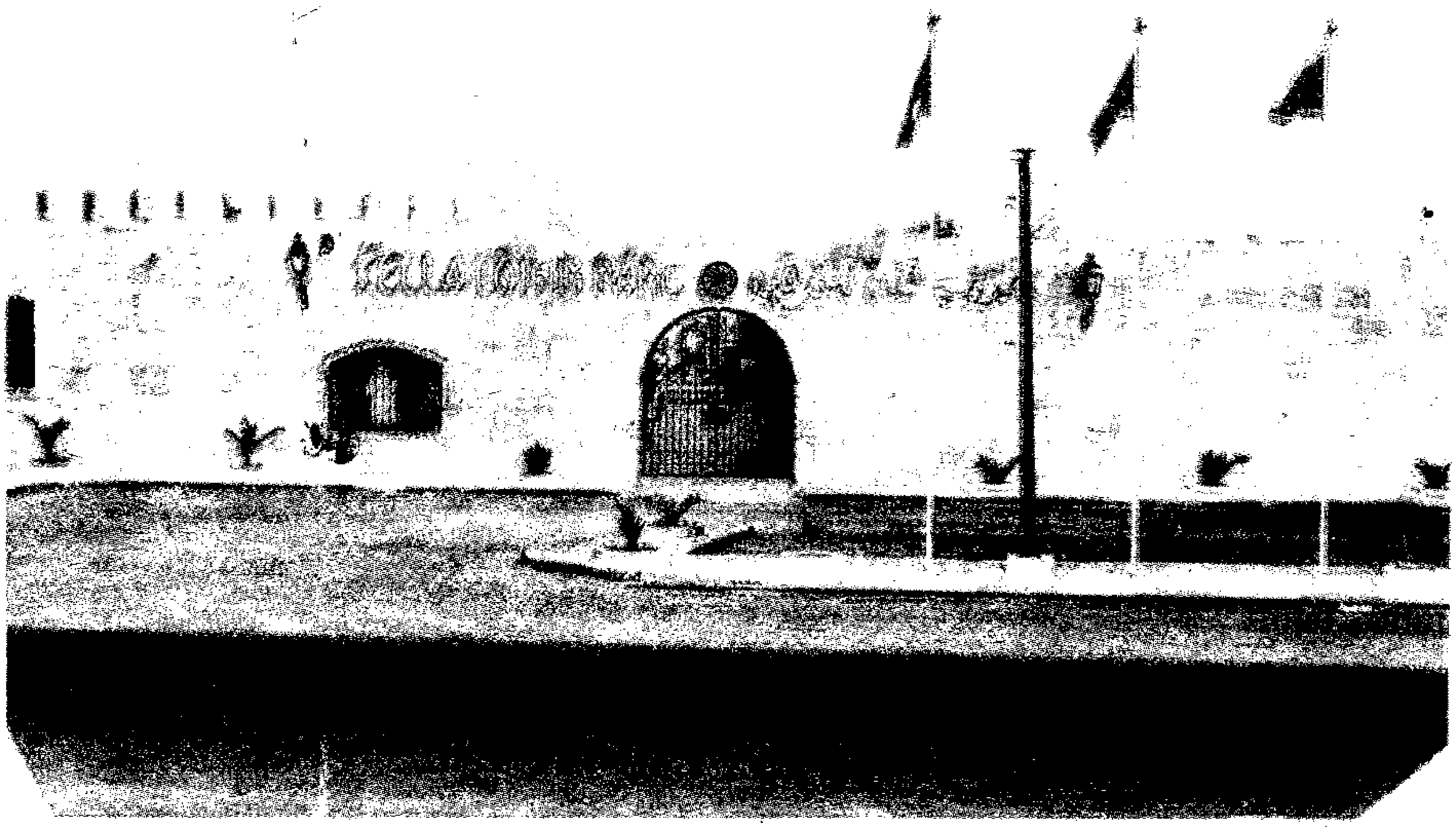

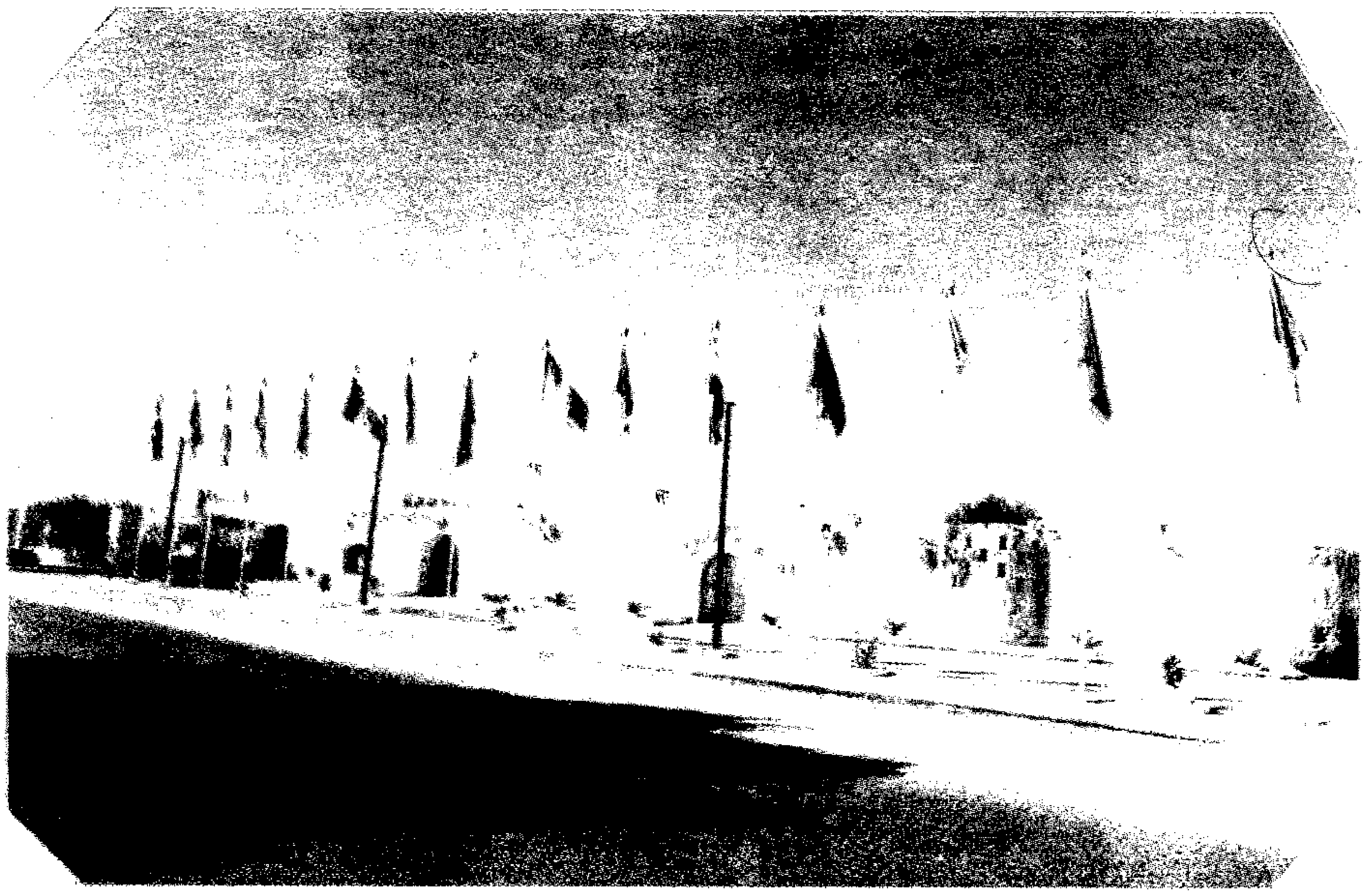

حدائق مفترق الطرق:

لقد قامت بلدية قابس بعدة مشاريع في مداخل المدن وخارجها وساعدها على الإنجاز في الغالب المؤسسات الصناعية في قابس.

منتزه التغيير:

هذا المنتزه يقع في وسط المدينة بالقرب من مركز الصناعات التقليدية وفي نهاية محطة القطار وقد مول هذا المشروع المجمع الكيمياوي التونسي بـــ 130 ألف دينار وهو يحتوي على

- فضاءات خضراء
- شلالات مياه
- قنطرة مياه يمر تحتها المنتزه
- هرم محللات نوعية الهواء مع شاشة خارجية لإعلام النتائج
- ممرات للمنتزه الفسحى
- خريطة دليل لمدينة قابس
- وتحتل المساحة التي حوتها الحديقة 2500 م2

صورة لمنتزه التغيير بمدينة قابس

منتزه مفترق طريقي المنجي سليم وأبو القاسم الشابي:

يقع هذا الإنجاز قرب مطار قابس الحالي وبالقرب من مدخل ثكنة الجيش بباب البحر وقد مول هذا العمل الصناعات الكيمياوية للفليور قانز بقابس بتكاليف قدرت بـــ 80 ألف دينار وهو يتكون من

- تهيئة مفترق الطريق الذي تلتقي فيه 6 طرق منها طريق عالي طريق الشرق(ليبيا ومصر)
- فضاءات خضراء وتنوير عصري

- مثال يرمز إلى سفينة ذات شراع وهو شعار قابس
- كما يرمز إلى تاريخ عهد التغيير أي الإنقلاب الأبيض رقم(7) ورقم(11) أي شهر نوفمبر الذي حدث فيه الانقلاب الأبيض وسمي بعهد التغيير.

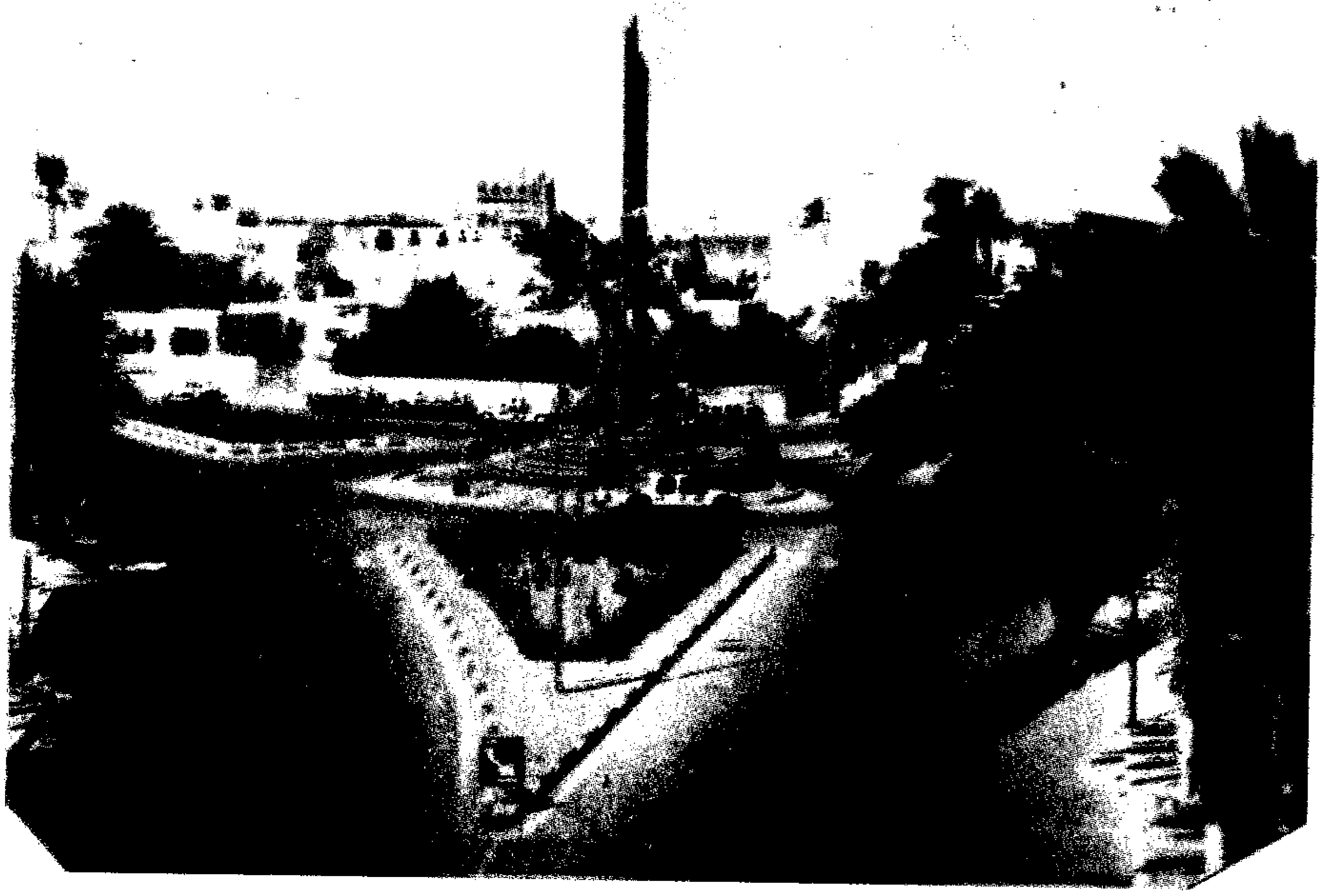

منظر يمثل شعار قابس بمناسبة ذكرى 7 نوفمبر

النصب الذي يقع في مفترق طريق النحال الحامة

يقع هذا الإنجاز قرب مدخل النحال الشمال الشرقي وقام بهذا المشروع ثلاثة مؤسسات:

* بلدية شنني النحال ساهمت بمقدار 17.500.000 أد
* شركة الإسمنت ساهمت بمقدار 20.000.000 أد
* الولاية ساهمت بمقدار 16.500.000 أد

الجملة 54.000.000 أد

وهو يحتوي على:

- شعار معمل الإسمنت
- حديقة تدوربها شعارات مختلفة
- أضواء دائرة بالشعار من جميع الجهات
- مثال يرمز إلى الواحة

أما الألوان فهي تمثل لون طبيعة قابس زرقة البحر والسماء وكذلك الصفرة لون الصحراء.

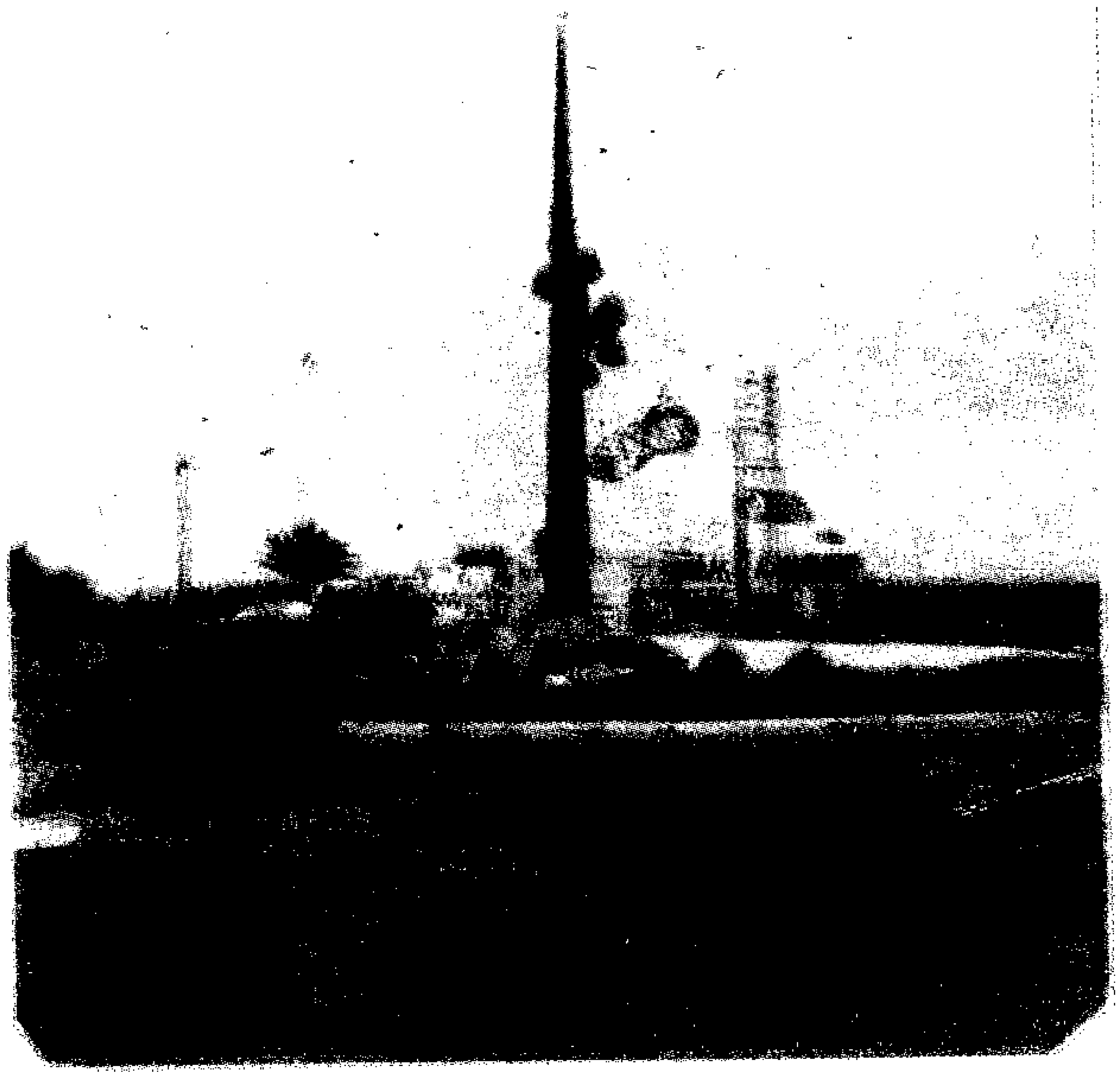

ـصب مفترق طريق النحال الحامة

ساحة المغرب العربي:

تقع الحديقة أو الساحة في مدخل قابس الشمالي قرب قنطرة الشمامة مجاورة لإدارة المركب الكمياوي بقابس على الوادي القديم وقد قام بهذا المشروع شركة الكيمياء بتكلفة بلغت 100.000.000 د ويتكون المشروع من :

* فضاءات خضراء
* أماكن إستراحة
* نافورة مياه
* ـقة للنزهة

ساحة المغرب العربي

ساحة قنطرة الشمامة:

تقـع في مفـترق الطـرق الـتـي تقـع في مدخـل قـابس الشـمالي وتحتوي عـلى نخـلة بسعفها تحتضـنها إمـرأة (علامـة عـلى المحبة التي تكنها قابس للنخلة) وبجانب المرأة خابية(دنان) إلا أنها كـبيرة نسـبيا ترمـز إلى اللاقمي والتمر الذي كان يعيش منه سكان قابس منذ قديم الزمان وهو مـورد عيشـهم وصـاحب المشـروع هو بلدية قابس بتكاليف بلغت 480.000.000 أد والذي قام بتصميم هذه الساحة هو الفنان الحبيب الصدقي أستاذ التصوير الفنـي بقابس.

صورة لرمز قابس التاريخي/النخلة والتمر واللاقمي)

منتزه الكرنيش:

هـذا المنـتزه يقع بين شاطئ البحر ونزل الواحة ونزل الشمس وهو ممتد إلى الوادي الجديد وعـن قريب ممد قنطرة توصل الطريق إلى الضفة الأخرى من الوادي ليصل إلى شاطئ السباحة الشـعبي عـلى طول أكثـ ... على طـول الطـريق و ... ف اللوا ... ده الله

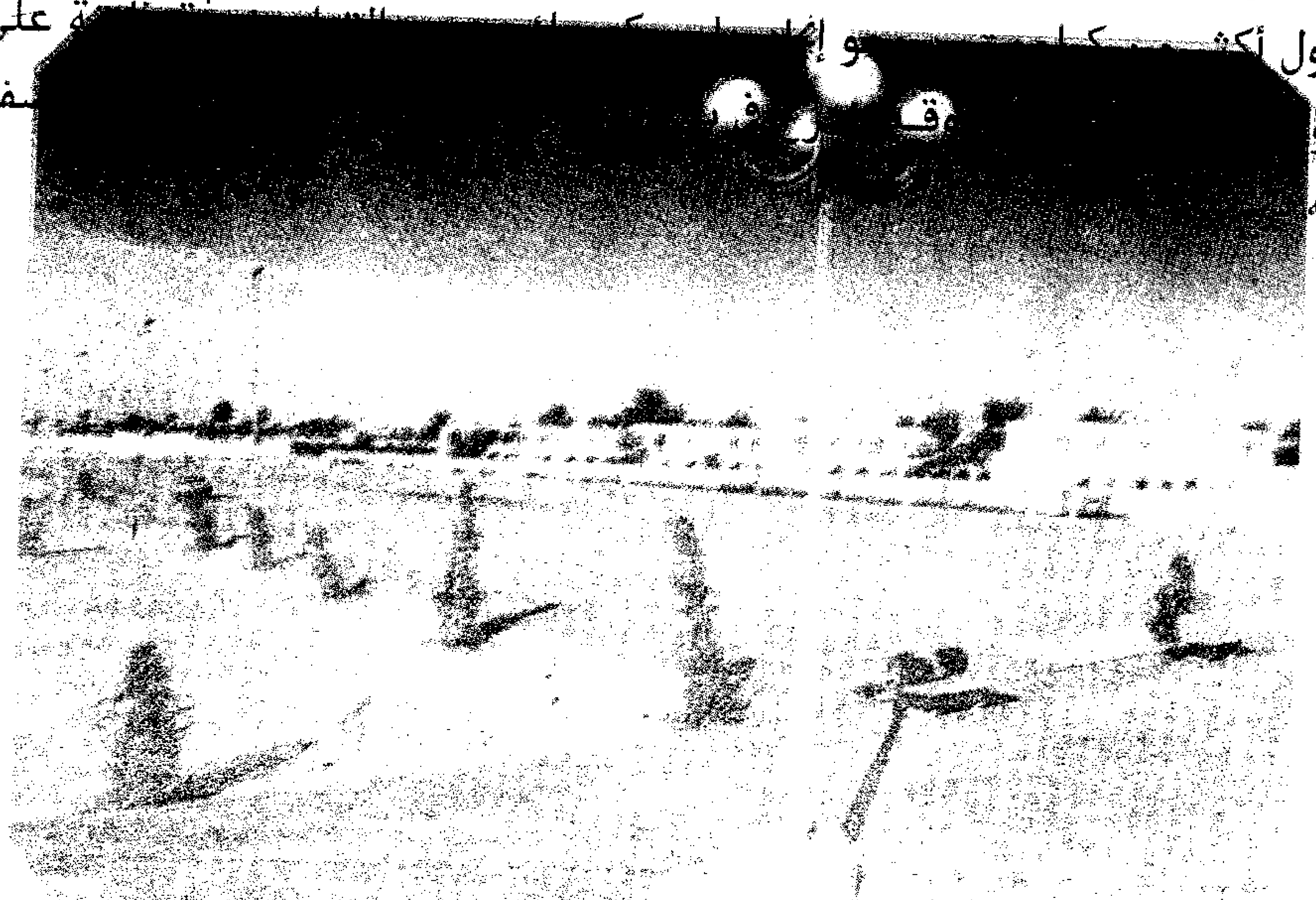

صورة من الساحة التي تمتد إلى منتزه الكرنيش

ساحة شنني الجديدة:

يوجد هذا الفضاء في مدخل شنني الجنوبي وهو من تصميم المهندس مراد الحزامي ومشتق من شلالات شنني إذ ينحدر الماء من أعلى وينزل عن طريق مدرجات مضاءة بألوان مختلفة تبهر الجالس وخصوصا في الليل. تشكل هذه الساحة شبه قوس متكأ على ضلع يشبه رقم 7 ولا أدري هل أن المهندس قد قصده أم لا إلا أن العامة قد سمّت الساحة بساحة سبعة نوفمبر وبهذه الساحة كراسي للجلوس والذي قام بالمشروع بلدية شنني وقد بلغت تكاليف هذه الساحة 70.000.000 أد

صورة من مدخل ساحة شنني الجديدة

وهناك مشاريع أخرى بصدد الإنجاز أو مبرمجة منها نافورة في مفترق طريق سيدي بولبابة في الساحة التي وقع تسميتها بساحة الشهداء والتي شرع في إنجازها الأسبوع الماضي بتمويل من المركب الكيمياوي بقابس بما قدره 150.000.000 أد والذي صمّم العمل هو نفس الفنان الذي صمّم الشعار الموجود بمدخل قابس قنطرة الشمامة وهو الفنان الحبيب صدقي متفقد التصوير الفني بقابس أما الشركة التي تقوم بالأشغال فهي الشركة العالمية للتجهيز.
هذه هي المشاريع التي أنجزت في نطاق العناية بالبيئة والمحيط في هذا العهد بقابس بالإضافة إلى تخصيص شارع خاص سمي بشارع البيئة وهو يقع وراء محطة القطار والذي يعد مثالا حيّا على العناية بالبيئة على أمل أن تكون الشوارع كلها زاهرة مثل هذا الشارع وليس ذلك بعزيز على تونس الزاحفة نحو التقدم والازدهار واللحاق بالأمم الراقية.

نـرجو أن نكـون قـد وفقنا في هذا العمل الذي شمل تاريخ قابس من عهد ما قبل التاريخ أي قـبل 3.000.000 سـنة قـبل الميلاد إلى الآن راجين من الباحثين والدارسين على أن يواصلوا العمـل في الـبحث والتـنقيب للوصـول إلى مـا نصـبو إليـه وهـو تسـجيل وتحليل تاريخ بلادنا عبر العصور.

بلقاسم بن محمد بن جراد
باحث وأستاذ تاريخ
مدير جهوي للتعليم متقاعد
قابس في 1999/12/20

فهرس الكتــاب

كلمة شكر وتقدير

مقدمة تاريخية

الأبواب	الفصول	الصفحات
الباب الأول	الفصل الأول	
(التاريخ القديم)	- الأهمية التاريخية لمدينة قابس	12
	- موقع مدينة قابس القديمة	12
	- تأسيس مدينة قابس	16
	الفصل الثاني	
	- بسطة جغرافية عن قابس القديمة	17
	- تضاريس قابس	17
	- واد قابس	20
	- تنظيم الري عن طريق واد قابس	22
	- مجرى واد قابس	23
	غابة قابس	26
	- خليج قابس وأهميته	30
	- قابس ومشروع بحر الصحراء	32
	تجديد فكرة بحر الصحراء	33
	الفصل الثالث	
	- سكان قابس القدماء	34
	- سكان قابس بعد الفتح الإسلامي	36
	- تطور النمط السكني بقابس عبر العصور	40
	الفصل الرابع	
	- الحياة الاقتصادية في قابس القديمة	45
	- الزراعة	45
	- التجارة	46
	- الصناعة	46
الباب الثاني	الفصل الأول	
(الأدوار التاريخية)	- ما قبل التاريخ	47
	- الدور البربري	51
	- مساكن البربر وعاداتهم	52
	- الدور الفنيقي	53
	- الدور الروماني	54
	- الدور الوندالي	56
	- الدور البرنطي (الرومي)	57
الباب الثالث	الفصل الأول	
(التاريخ الوسيط)	-عهد الولاة العرب	58
	- الدولة الأغلبية	59
	-الدولة العبيدية	61
	-الدولة الصنهاجية	62
	- الدور الموحدي	64
	- الدولة الحفصية في تونس	65
	- انتهاء حكم الحفصيين	68
الباب الرابع	الفصل الأول	
	- دولة بني جامع في قابس	69

عهد الاستقلال في قابس	- مهاجمة المهدية	70
	- قصة السفينة والصراع الذي حدث	70
	-موقف علي ابن تميم أمير المهدية من أمير قابس	72
	- الأمير رشيد ابن مدافع ابن كامل	72
	-محمد ابن مدافع ابن رشيد	73
	- مدافع ابن رشيد	73
	- نهاية دولة بنـي جامع	73
	- دولة بنـي مكي في قابس	76
	- عثمان ابن مكي	77
	- عبد الملك ابن عثمان ابن مكي	77
	- مكي ابن أحمد ابن عبد الملك	78
	- عبد الملك وأخوه احمد ابني مكي	78
	- رجوع عبدالواحد ابن أبي يحي زكرياء اللياني من الاسكندرية	78
	- تجري الرياح بما لا تشتهي السفن	79
	- دور ابن تافراجين	80
	- مناصرة الأمير أحمد ابن مكي لطرابلس	80
	- ابن تافراجين يهاجم جربة	81
	- هجوم السلطان أبي العباس على قابس	81
	- هجوم عبد الوهاب ابن مكي على قابس	82
	- يحيى ابن عبد الملك ابن مكي	82
	الفصل الثاني	
	- العهد العثماني (التركي)	83
	- الدور الحسينـي	86
	- أهم الأحداث في عهدهم	86
	- خير الدين وتحسن الأوضاع	87
	- عمال قابس في عهدهم	88
	- فترة ما بعد الحماية الفرنسية	94
الباب الخامس	**الفصل الأول**	
(أهم الأحداث التاريخية)	أ- الهجومات على واحة قابس	95
	1- هجوم الكاهنة على قابس	95
	2- الزحف الهلالي على قابس	95
	3- هجوم تميم ابن المعز على قابس	96
	4- هجوم الميورقي على قابس	96
	5- هجوم أبي زكرياء الحفصي على قابس	96
	6- هجوم السلطان الحفصي (احمد الثاني)	97
	7-الهجوم على غابة الحامة وتبلبو	97
	ب- هجوم بعض المغامرين على قابس	97
	- عائلة محمد الميورقي	97
	- إلتقاء المغامر قراقوش الأرمنـي بالمغامر علي الميورقي	98
	- يحيى ابن أبي إسحاق الميورقي	99
	ج- الصراع على الملك أو الحركة الحسينية والباشية	100
	د- بوارق عصيان في الأعراض (قابس)	104
	هـ- ثورة علي بن غذاهم	107
	- ثورة ابن غذاهم وموقف قابس منها	109
	- القضاء على ثورة ابن غذاهم	111
	و- هجوم فريق من بنـي يزيد على قابس	112

	الفصل الثاني	
	المعالم التاريخية والمنتزهات	115
	- ساحة عنبر	115
	- البطحاء	116
	- الجامع	116
	-قصر العروسين	116
	- عين سلام أو عين الأمير	118
	- المنار أو المنارة	120
	- القصور الأخرى والرباطات والمساجد	120
	أ- قصر ابن عيشون	121
	ب- قصر زجرنة	121
	ج- قصر سجة	121
	د- رباط أو مسجد البحر أو جامع الصهريج	121
	- مسجد سيدي إدريس	122
	- جامع سيدي إدريس القديم	123
	- بناء الجوامع والمساجد والمعالم التاريخية	124
	المسجد الجامع سيدي ادريس المرادي	128
	- السور والخندق	129
	الفصل الثالث	
	الصحابي أبولبابة الأوسي الأنصاري (دفين قابس)	131
	- من هو أبولبابة	131
	- مكانة أبي لبابة عند الرسول	132
	- الصحابي أبولبابة ويهود بني قريظة	133
	- شعور بالذنب وطلب الغفران	134
	- هجرة أبي لبابة لقومه	136
	- مواصلة الجهاد	136
	- وفاة أبي لبابة	136
	- ضريح الصحابي أبي لبابة	137
	- المدرسة المرادية	143
	- ترميم المدرسة المرادية	144
الباب السادس	**الفصل الأول**	
المدن والقرى أو التجمعات السكنية **بقابس**	- منطقة "المدينة"	147
	- منطقة حارة المنزل (المنزل الغربي والمنزل الشرقي) فيما بعد	148
	- حارة جارة (جارة الشرقي وجارة الغربي) فيما بعد	151
	- قابس الميناء أو باب البحر	153
	- منطقة سيدي أبولبابة	154
	- قرية شنني	154
	- الرحا بشنني	156
	- الشرشارة أو الشلال	158
	- قرية بوشمة	160
	- قرية النحال	161
	- قرية تبلبو	163
	- قرية مطرش	165
	- القرية القديمة	166
	- غابات مطرش	167
	- حرفة صيد الأسماك	167

	- عين مطرش	167
	- طريقة توزيع مياه العين	168
	- تطور القرية العمراني	168
	- مشاركة مواطني مطرش في الحركة الوطنية	169
	- منطقة زريق	169
	- قرية كتانة	170
	- قرية الزركين	170
	- مدينة مارث	171
	- حدود منطقة مارث	171
	- نظرة تاريخية على منطقة مارث	172
	- أقوال المؤرخين العرب عن مارث	173
	- أصل الحمارنة	174
	- الحمارنة في جهة قابس	176
	- الزارات	177
	- قرية عرام	177
	- قرية المدو	178
	- قرية شاطىء السلام	178
	- قرية غنوش	179
	- ضريح الولي أبي الحسن بغنوش	181
	- المزية بغنوش وأبي الحسن	182
	- الزاوية المعروفة بالسقفية	182
	- دور الزاوية بغنوش	183
	- نشاط سكان غنوش	183
	- قرية وذرف	184
	- حادثة عصيان بوذرف	186
	- الصناعات التقليدية بوذرف	186
	- مدينة المطوية	187
	- أبناء المطوية في تونس	187
	- العوينات	188
	- مدينة الحامة	189
	- حامات الحامة	190
	- استقلال الحامة بالسلطة	191
	- مشاركة أهالي الحامة في الثورة الكبرى	192
	- القبائل المتفرعة عن عروش الحامة	192
	- منطقة مطماطة	193
	- مطماطة الأصلية	194
	- مطماطة الجديدة	195
	- مطماطة ملجأ للثوار	196
	- المهرجانات الثقافية بمطماطة الجديدة	197
الباب السابع	الفصل الأول	
بعض العادات الطيبة في قابس	مايعرف بالقرة والسفر والكرسي	199
	- القرة	199
	- ما يعرف بالسفر	200
	- قراءة الكرسي	200
	- الدروس الدينية في العهد المرادي	201
	- الاحتفال بالمولد النبوي في قابس	201

	الفصل الثاني	
	الزوايا والأضرحة في قابس	203
	- زاوية سيدي عبدالسلام بالمنزل	203
	- زاوية الزمزمية	205
	- ضريح سيدي أبي اسحاق الورقاني بقابس	205
	- زاوية سيدي قناو ببني عيسى بعطماطة	206
	- زاوية سيدي ابراهيم الجمني بعطماطة	206
	- ضريح المعرابي بالحامة	207
	- من هو المعرابي	208
	- الزوايا والأضرحة بقابس	208
	الفصل الثالث	
	أعلام ومشاهير من قابس	210
	- الفقيه الإمام علي المعروف بالقابسي	210
	- عبدالله الصنهاجي	211
	- ابن زيادة الله القابسي	211
	- عبدالله ابن محمد القابسي	212
	- أبو محمد خلف ابن محمد القابسي	212
	- الوزير الشاعر سلام ابن فرحان	212
	- عامر ابن محمد الهلالي	213
	- أحمد الطياري القابسي	215
	- محمد بن نصر القابسي	215
	- قابس الخضراء والماء والوجه الحسن	216
	الفصل الرابع	
	أقوال المؤرخين والشعراء عن قابس القديمة	218
الباب الثامن	الفصل الأول	
الوضع الاجتماعي والسياسي في قابس قبل الحماية	- استعراض أقوال بعض الكتاب عن الوضع في قابس	226
	- أقوال المبشر ايفالد	228
	الفصل الثاني	
	الاحتلال الفرنسي في تونس	230
	المقاومة في قابس	230
	- الاستعداد للمقاومة	230
	- ارسال مبعوثين إلى صفاقس	230
	- تنظيم المقاومة في قابس	232
	- تراجع الثوار إلى خارج قابس	236
	الفصل الثالث	
	ولاة قابس منذ الاحتلال الفرنسي	237
	- يوسف الليقرو	237
	- الحاج محمد بن خليفة	237
	- محمد قدور	238
	- عبدالعزيز الجلولي	238
	- مصطفى اللونقو	238
	- اسماعيل زويتة	239
	- صولة بن عبداللطيف بن سعيد	239
	- رحومة بن لهيبة	239
الباب التاسع	الفصل الأول	
	من الحماية الفرنسية إلى قيام الحزب الحر الدستوري الجديد 1881-1934	240

240	- تواصل المقاومة على الحدود	تسلسل الأحداث من الحماية الفرنسية 1881 إلى قيام الثورة الكبرى 1952
242	- بداية الحركة الفكرية والسياسية	
245	- اتحاد العرش أي الملوكية مع الشعب	
246	- النواة الأولى للحركة النقابية	
247	- نصب تمثال لافيجري في قلب العاصمة	
248	- الطاهر الحداد وثورته الاجتماعية	
	الفصل الثاني	
250	من تكوين الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد إلى الثورة الكبرى من 2 مارس 1934 إلى 18 جانفي 1952	
250	- تطور الحركة الوطنية وازدياد الوعي القومي	
254	- إعلان الحرب العالمية الثانية	
	الفصل الثالث	
260	النهضة الفكرية والثقافية والاجتماعية بقابس بين سنتي 1934(تاريخ تأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد) إلى (الثورة الكبرى أو معركة التحرير في 18جانفي 1952)	
262	- جمعية النجم الموسيقي بقابس	
262	- جمعية النجم الرياضي الموسيقي بقابس	
264	- جمعية الاتحاد الرياضي	
264	- جمعية قدماء مكتب جارة	
265	- الجمعية الخيرية بقابس	
265	- النادي الأهلي بمنطقة المنزل	
268	- الحركة الكشفية في قابس	
269	- انتشار الكشافة في جهة قابس	
269	- اندلاع الثورة الفرنسية ومشاركة الكشافين بها	
270	- الحركة المسرحية بقابس	
271	- جمعية النهضة التمثيلية	
272	- جمعية الهلال التمثيلي	
273	- المسرح المدرسي	
274	- جمعية كوكب الواحة للتمثيل	
275	- جمعية البحوث المسرحية بقابس	
276	- الاتحاد الثقافي لعمل الأعراض(قابس)	
277	- جمعية قدماء مكتب شنني	
278	- دور الجمعية في الحركة المسرحية	
	الفصل الأول	**الباب العاشر**
280	- انعقاد مؤتمر 18جانفي 1952 وتطور الأحداث إلى الاستقلال	(التاريخ الحديث) الثورة الكبرى أو المعركة الحاسمة
	الفصل الثاني	
291	- عهد الاستقلال	
291	- عهد الرئيس بورقيبة	
291	- تكوين وتركيز الدولة الحديثة	
291	- الاعلان عن الاستقلال الداخلي	
292	- الحركة اليوسفية أو حركة الأمانة العامة	
293	- مواصلة تركيز أركان الدولة	
295	- أهم الانجازات التي حدثت في قابس خلال هذه الفترة	
295	- التنظيم الإداري	
296	- **التقدم الاقتصادي في هذا العهد**	
296	**أ- الفلاحة**	

ب- التجارة	296
ج- الصناعة	296
- الصيد البحري	297
- الإصلاح التربوي	298
- الحركة الثقافية في قابس	298
- العناية بالتراث	299
- أربعينية المرحوم الزعيم الحبيب بورقيبة	300
الفصل الثالث	
- عهد التغيير أو الانقلاب الأبيض	308
- قابس في عهد التغيير والإصلاح	308
- ولاية قابس في هذا العهد	308
- بطاقة تعريف لولاية قابس	309
- تطور مؤشرات التنمية بولاية قابس	309
- المدرسة القومية للمهندسين	311
- المعهد الأعلى للدراسات التكنولوجية بقابس	311
- المعهد التحضيري للدراسات الهندسية	312
- كلية العلوم	314
- المعهد الأعلى للتصرف	315
- آفاق تطور التعليم العالي بقابس	316
- الزراعات الجيوحرارية	319
- الصّناعة في قابس	320
- المعارض الاقتصادية في قابس	322
- تحلية المياه بقابس	322
- النقل في قابس	323
- الطرقات والجسور	324
- تطور السكن في قابس	324
- العناية بالشؤون الدينية	324
- النشاط الجمعياتي في قابس في هذا العهد	326
- الرياضة والطفولة والشباب	326
- العناية بالمراة في هذا العهد	328
- الميدان الصحي في قابس	328
- العناية بالمحيط في قابس	330
- التطهير وأثره على المحيط	330
- المشاريع الجمالية في المدينة	331
- الحدائق العامة والمنتزهات	331
- فضاء منتزه الورود	331
- مركب فلة للترفيه	332
- حدائق مفترق الطرق	335
- منتزه التغيير	335
- منتزه مفترق طريقي المنجي سليم وأبوالقاسم الشابي	335
- النصب الذي يقع في مفترق النحال الحامة	336
- ساحة المغرب العربي	337
- ساحة قنطرة الشمامة	338
- منتزه الكرنيش	338
- ساحة شنني الجديدة	339

مصادر الكتاب

نوع المصدر	عنوان الكتاب	المؤلف	الطبعة
سلسلة وثائق ونصوص عن تاريخ تونس عدد2	المقاومة المسلحة في تونس ج1	عدنان نصر المنصر وعميرة علية الصغير	طبع المعهد الأعلى في تاريخ الحركة الوطنية 1997
جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية	وثائق نصية وشفوية	المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية	طبع 1993
	كتاب وديوان المبتدأ والخبر من أيام العرب والعجم والبربر	تاريخ العلامة ابن خلدون القسم الأول المجلد الرابع	دار الكتاب اللبناني طبع 1958
المعهد القومي للآثار والفنون تونس	مجلة الفنون والتقاليد الشعبية	المعهد القومي للآثار والفنون	
سلسلة معارك وأبطال	صراع مع الحماية	مَحمد المرزوقي	دار الكتب الشرقية تونس
Collection de l'école française de Rome	Atlas preshistorique de la Tunisie N°23	Jamel Zoughlami Mounira Riahi Abderrazag Grageb Gabriel Comps	Palais farnes Rome 1985
Cahier des Arts	Revue du centre des arts et traditions populaires	Institue d'archeologie et d'art Tunis	
المعهد القومي للآثار والفنون الإفريقية	افريقيا عدد X	المعهد القومي للآثار	طبع 1988
الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة	نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب	أبي العباس القلقشندي تحقيق ابراهيم الأبياري	الطبعة الأولى 1959
معارك وأبطال	الدغباجي	مَحمد المرزوقي	طبعة ثانية مكتبة المنار 1979
دار الكتاب اللبناني	تاريخ العلامة ابن خلدون أخبار البربر ودولة المغرب	دار الكتاب اللبناني عدد 28	دار الطباعة اللبناني للطباعة والنشر 1958
دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر	كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر القسم الأول والمجلد الرابع	تاريخ العلامة ابن خلدون المجلد السادس القسم الثاث	دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر 1958
La guerre sainte et la guerre juste	Gihad et colonialisme de la Tunisie et la tripolitaime 1914-1918	Mahmoud abdelmoula	Edition Tiers monde Tunis 1987
منشورات دار مكتبة الحياة بيروت	صورة الأرض	لابن حوقل أبي القاسم ابن حوقل النصيبي	منشورات دار الكتب الحياة بيروت
نفائس المخطوطات	الحلل السندسية في الأخبار التونسية ج1	تعليق محمد الحبيب الهيلة	الدار التونسية للنشر

المكتبة الإسلامية بطهران	أسد الغابة في معركة الصحابة ج5	عز الدين ابي الحسن المعروف بابن الأثير	المطبعة الإسلامية بلافيت
شركة النبراس للنشر والتوزيع بغداد	حرب إفريقيا الشمالية 1940 -1943	شكري محمود نديم	الطبعة الخامسة دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر بيروت
لجنة تحقيق التراث	فتوح البلدان	الإمام أبو الحسن البلاذري بإشراف لجنة تحقيق التراث	مكتبة الهلال بيروت لبنان
سلسلة معجم البلدان	معجم البلدان المجلد الرابع	الشيخ الإمام شهاب الدين الحموي الرومي البغدادي	دار صادر للطباعة والنشر دار بيروت للطباعة والنشر 1957
وثائق تونسية	كتاب ثورة ابن غذاهم ج1	وثائق تونسية	الدار التونسية للنشر 1967
المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات (بيت الحكمة)	الكامل في التاريخ المجلد II	عز الدين أبي الحسن المعروف بابن الأثير	طبع دار صادر للطباعة والنشر دار بيروت للطباعة والنشر 1966
الشركة العالمية للكتاب	الجغرافيا والرحلات عند العرب	الدكتور نقولا زيادة	دار الكتاب اللبناني دار الكتاب العالمي
المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر	المدن المغربية	إسماعيل العربي	المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر)
Etablie avec le concours des principaux orientaliste	Encycolopedie de l'slam (nouvelle edition) Tome IV	E.J.Brille et G.P maisonneuve et la rose S.A	طبع 1987
سلسلة الكامل	الكامل في التاريخ المجلد العاشر	الشيخ عز الدين أبي الحسن المعروف بابن الأثير	دار صادر للطباعة والنشر دار بيروت للطباعة والنشر 1966
منشورات كتابة الدولة للمعارف	رحلة التيجاني لأبي محمد عبد الله ابن محمد ابن احمد التيجاني	أبي محمد ابن محمد ابن أحمد التيجاني	المطبعة الرسمية تونس 1958
	سقوط الدولة الموحدية	الدكتور مراجع عقيلة الغناي	الطبعة الثانية 1981
منشورات قار يونس ابن غازي	الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال الجزائر	البارون الفونص روسو ترجمة محمد عبد الكريم الوافي	منشورات قاريونس
دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع تونس	أضواء على تاريخ تونس الحديث 1881- 1924	بشير بلحاج عثمان الشريف	الطبعة الأولى
الناشر علي الخفيفي	علاقات الإمارة الصنهاجية بجيرانها وأثرها في ليبيا	مراجع عقيلة الغناي	المكتبة الوطنية ابن غازي ليبيا
الترجمة أخبار وأمصار	رحلة المبشر ايفالد	نقلها من الألمانية منير الفندري	بيت الحكمة قرطاج

التعاضدية العمالية للنشر	أصول البربر العربية	الأستاذ الهادي الزريبي	التعاضدية العمالية للطباعة والنشر صفاقس
مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد	قابس جنة الدنيا	محمد المرزوقي	مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد
الدار التونسية للنشر	إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ج4	احمد ابن أبي ضياف	الدار التونسية للنشر
الدار التونسية للنشر	إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ج5	احمد ابن أبي ضياف	الدار التونسية للنشر
نشر وتوزيع مكتبة النجاح للهادي عبد الغني	تونس عبر التاريخ منذ أقدم العصور	احمد ابن عامر	الطبعة الأولى 1960
الدار التونسية للنشر	قصة المولد	الشيخ الطاهر بن عاشور	الدار التونسية للنشر
المؤلف محمد علي بلحوحة	محمد علي الحامي وحوادث الأيام	محمد علي بلحوحة	مطبعة الإتحاد التونسي للشغل جوان 1985
الصحي خليفة	كراس مذكرات الصحبي خليفة	الصحبي خليفة	مرقون
عبد الله الغنوشي	مذكرات مناضل	عبد الله الغنوشي	مرقون
جمعية البحوث والدراسات التاريخية	من مذكرات الكفاح للهادي العمراني	استجواب الأستاذة عروسية التركي	المجلة عدد 5 مارس 1985
جمعية البحوث والدراسات التاريخية	أفاق التنمية في قابس	المرحوم الأستاذ الحسين المنياوي	المجلة عدد 5 1985
جمعية البحوث والدراسات التاريخية	ثورة 18 جانفي وأبعادها في قابس	الأستاذ رضا جبر	المجلة عدد 5 1985
جمعية البحوث والدراسات التاريخية	معركة العيدودي	الطاهر الأسود استجواب عروسية التركي	المجلة عدد 5 1985
جمعية البحوث والدراسات التاريخية	مشاركة أبناء المطوية في الحركة والوطنية (ج1- ج2)	الأستاذ عبد الحميد حسن	المجلة عدد 5 وعدد 6 1985 -1987
جمعية البحوث والدراسات التاريخية	مذكرات صالح الشين	استجواب الأستاذ مصطفى ضيف الله	المجلة عدد 5 و 6 1985 -1987
جمعية البحوث والدراسات التاريخية	قابس بين الشهرة التاريخية والمعالم الأثرية	الأستاذ عبد المجيد التلمودي	المجلة عدد 5 1985
جمعية البحوث والدراسات التاريخية	استيلاء النورمان على قابس	للأستاذ محمد عكاشة	مجلة عدد 6 فيفري 1987
جمعية البحوث والدراسات التاريخية	مذكرات صالح الشين ج2	الأستاذة عروسية التركي	مجلة عدد 6- 1987

جمعية البحوث والدراسات التاريخية	9 أفريل كما يرويها المناضل عبد الله الغنوشي	استجواب الأستاذة عروسية التركي	مجلة عدد 6- 1987
جمعية البحوث والدراسات التاريخية	صورة من تمويل المقاومة إبان ظهورها بقابس كما يرويها المناضل محمود النوري الجرادي	استجواب المرحوم الأستاذ حسين المنياوي	المجلة عدد 6 1987
جمعية البحوث والدراسات التاريخية	قابس أثناء ثورة علي بن غذاهم	الأستاذ محمد عكاشة	المجلة عدد 1
جمعية البحوث والدراسات التاريخية	جراد البحر ثورة اقتصادية	الأستاذ رضا جبر	مجلة عدد 1 1985
دار الفتح للتراث العربي	كتاب تاريخ الفتح العربي في ليبيا	احمد الزاوي	الطبعة الثالثة دار الفتح
الدكتور عبد الله الزرلي	محاولة في تاريخ المسرح (نشأته وتطوره) بقابس	الدكتور عبد الله الزرلي	طبعة 1988
	كتاب الأدب المغربي	محمد ابن تاوين والصادق عفيفي	الطبعة الأولى مارس 1960
	دراسات حول النمط السكني بقابس وحول مدينة قابس القديمة	الأستاذ البقلوطي متفقد الآثار ومدير متحف قابس للعادات والتقاليد	
معارك وأبطال	دماء على الحدود	مَحمد المرزوقي	الدار العربية للكتاب ليبيا تونس

مجموعة من الاستجوابات من طرف ثلة من المناضلين والمهتمين بالتاريخ والجمعيات المختلفة من رياضية ومسرحية وموسيقية وخيرية وهم السادة:

1- المرحوم الجليدي الشلي 2- المرحوم حسين شام 3- المرحوم خضر النجار 4- المرحوم الجيلاني العزوزي 5- المرحوم محمود النوري الجرادي 6- المرحوم الصحي الحضري 7- يامنة بنت الشهيد بشير الجزيري 8- المرحوم صالح لمين 9- المرحوم عمر النايلي 10- ابناء المرحوم الهادي البش 11- المرحوم عبد الله النوري الجرادي 12- عبد الرحمان فتيريش 13- بولبابة يحي 14- علي الساحلي 15- الصغير لاغة 16- الصادق داي 17- عمر بن محمد بحمد الهواري 18- الطيب صالح 19- عبد الرحمان قفراش 20- محمود المثاني 21- محمد قاسم النوري 22- الحبيب بن علي الحبيب 23- عبد الرحمان المعاوي 24- عبد العزيز التويتي 25- العيادي التويتي 26- البحري بن حسن بن الرجب بن العيادي بن رجب 27- عبد اللطيف شعير 28- محمد مهيوب 29 علي بن محمد الأشهب 30- احمد بن عمر الأمين 31- علي

الجعداري 32- بلقاسم شهر حسن خروف 33- الصادق زعاترة 34- البشير المنوبي 35- إبراهيم الحريزي 36- سيون بيتان من حومة السوق جربة 37- نائب الكوميتة بقابس 38- حسن مرزوق 39 الحاج الكيلاني السالمي 40- الهادي المغربي 41- بلقاسم النفاتي 42- الصغير بن إبراهيم عبد القادر 43- الجيلاني الحطاب 44- محمد الحبيب بن لامين. ومحمد الحاجي ومحمد الصغير قنونو.

مع وثائق مسلمة من طرف الإدارات الجهوية للتعليم بالجنوب الشرقي والجنوب الغربي ووثائق من المعاهد العليا وكلية العلوم بقابس وإدارة الفلاحة.

...دق زعاترة 34- البشير
...السوق جربة 37- نائب
...لي 40- الهادي المغربي
...4- الجيلاني الحطاب
...ونو.

...ي الشرقي والجنوب الغربي

تاج مكتشف من منطقة المدينة

«تكابس»

الإيداع القانوني فيفري 2001

I.S.B.N 9973-31-837-4

ثمن البيع للعموم : 10 دنانير

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

مطبعة الخدمات السريعة . قابس . الهاتف : 276.071 (05)